حاضر العالم الاسلامي

تأليف لوثروب ستودارد الامريكي
Lothrop Stoddard

نقله الى العربية

الأستاذ عجاج نويهض

وفيه فصول وتعليقات وحواش مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الأمير شكيب أرسلان

المجلد الأول

القاهرة — ١٣٥٢ — هجريه

عنيت بنشره مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ

فهرست

المجلد الاول

من كتاب حاضر العالم الاسلامى

مُقدّمة

الطبعة الثانية

بقلم الامير شكيب ارسلان

ظهرت ترجمة هذا الكتاب الى العربية مع حواشيها سنة ١٣٤٣ هجرية وفق سنة ١٩٢٥ ميلادية ، فانتشرت فى جميع العالم العربى انتشاراً عجيبا ، ولم يمض على طبع الكتاب أربع أو خمس سنوات ، حتى نفدت نسخهُ بأجمعها ، وصارت تؤدّى على النسخة الواحدة أضعاف قيمتها الأصلية ولا ينزل عنهـا مالـكها . ولقد نشدوا فى مصر ألف نسخة برسم المدارس ، فلم يجدوا ولا عشر نسخ . وعليه تقدمأناس يريدوننا على تجديد طبعه ، وتعميم نفعه ، فبادرنا الى الاجابة ووجدنا فى ذلك عين الصواب و بعد الأخذ والرد قسم الله للسادة الأماثل عيسى افندى البابى الحلبى وشركائه القيام بهذه النفحة الجديدة للعالم الاسلامى والطرفة النفيسة للحقيقة والعلم

ولما كان قد مضى على الطبعة الأولى سبع سنوات تامات ، جرى خلالها حوادث ومهمات ، ووقائع هامات ، وحصل مايسوء وما يسر ، وطرأ ماهو حلو وما هو مُرّ ، وبالاجمال تجددت قضايا تهم التاريخ العام ، فضلاً عن تاريخ الاسلام ، وذلك لأن الحرب العامة كانت أشبه بزلزال جيولوجى عام ، كاد يأتى الأرض من قواعدها ، فكثرت على أثرها الانقلابات والتحولات ، وازدادت قابلية الأمم للتأثرات ، وتمّ فى هذه السنين السبع بين طبعتى الكتاب الأولى والثانيـة ما لا يحصل أكثر منه فى الحقب الطوال ، كان لا مندوحة لنا عن مراجعة النظر فى الحواشى التى علقناها على الكتاب أول مرة ، لنضم اليها ما جدّ من الوقائع التى جرت خلال هذه الأعوام ، الأخيرة ونردف الأول بالآخر ، والأصل بالفرع ، وتكون الحواشى التى توخينا تعليقها على موضوع موضوع من مباحث العـلامة ستودارد قد جاءت بتمام البحث ، ووفت بالغرض ، ونقعت الغلّة ، ولم تبق فى النفس حاجة ، وأتت بصورة الوقائع متسلسلة من الأول الى هذه الساعة . ثم انه لم ينحصر الأمر فى سرد الوقائع ، ولا فى تقييد

ماتجدّد فى هذه الاعوام الأخيرة من الحوادث ، بل تعداه الى اكمال مباحث كان ضيق الوقت قد قضى باختصارها، ومطالب ألجأ تحرُّج المكان دون استنزافها الى أصبارها . فاطلقنا هذه المرة فيها للقلم عنانا ، وأرهفنا للتحقيق سناناً ، وأكملنا ما كان قضى ضيق الوقت بابقائه ناقصا ، أو بردّهِ عن محله ناكصا . ولسنا ندعى مع ذلك ، أنّا لم نبق فى القوس منزعا ، ولم ندع الى الموضوع مرجعا ، ولا نقول ان كل مبحث قد استوفى من الاحفاء قسطه الأوفى، فلا يجد القارئ للزيادة موضعاً . حاشا أن نقول ذلك ونحن ندرى وكل أحد من أرباب العلم يدرى ، أن كتابا يتوخى فيه صاحبه الاحاطة بأخبار العالم الاسلامى على وجهها ، والاتيان بالمسائل الاسلامية كلها من فصّها ، لا مناص من أن يملأ بالأقل ثلاثين مجلداً من قطع الجزئين اللذين ظهر بهما الكتاب فى طبعتهِ الأولى ، والأجزاء الأربعة التى يظهر بها فى طبعته الحاضرة وعند ذلك يصح أن يقال ان فى اللغة العربية انسيكلوبيديا اسلامية أشبه بموسوعات العلوم التى عند كل أمة من الأمم الراقية التى يقتدى بها

وهذا الأمر وهو وضع معلمة اسلامية وافية ضافية ، لا يجوز أن يغيب عن نظر الحكومات الاسلامية ، التى تبغى الفلاح ، وتنشد الرقى والطيران الى النجاح بجناح، فانه وان كانت كتب التاريخ فى الاسلام أكثر من أن يحصيها العدّ وكان المسعودى ذكر فى مقدمة مروج الذهب نحواً من سبعين مؤرخاً مع أنه لم يكن مضى على الاسلام الا ثلاثة قرون ، وان كانت سعة التأليف فى الاسلام أعظم من أن يتصورها العقل (١) وكان الذين لهم مئات من التآليف فى الاسلام يحصون بالعشرات ان لم يكن بالمئات وكان الطبرى يعرض التاريخ على تلاميذه فى ثمانين ألف ورقة ، وكان ابن عروة الحنبلى يؤلف تفسيراً فى ١٤٠ مجلداً كبيراً، وكان المؤرخ سيديّو صاحب الكتاب الافرنسى المشهور عن مدنية العرب يقول : «ان منهم كالسيوطى مثلا — من صنف من الكتب أكثر مما قدر كثير من الافرنج أن يقرأوا فى حياتهم ، وكان صبح الأعشى فى عصره كتاباً نادر النظير فى بابه ، فلا نقدر أن نقول ان للاسلام انسيكلوبيديا متناسبة مع مقامه بين الأمم ، أو مع الدور الذى مثله فى التاريخ البشرى محشودةً فيها جميع الموضوعات المتعلقة بالاسلام والمسلمين ، بحيث يستغنى بها الباحث عن مراجعة المئات والألوف من المصنفات » . فهذا الذى ينبغى للمسلمين أن يهتمّوا بازاحة علتهِ

(١) سبق لنا مقالة منذ ثلاثين سنة فى مجلة « المشرق » اليسوعية فى بيروت عنوانها « سعة التأليف فى الاسلام » أتينا فيها بأمثال مدهشة فى هذا الباب

وسد حاجته ، وان يكون الا بتأليف لجان يكون فيها نخبة من الأفراد المتخصصين كل فى فنه والأفذاذ المبرّزين كل بين أهل قرنه ، ولا تقدر على ذلك فى رقعتنا الشرقيـة اليوم الا الحـكومات والدول فأما الأفراد فليسوا له بمقرنين . وكذلك ليس فى العالم الاسلامى جمعيات خيرية ولا علمية تستطيع أن تبذل البذل الذى يسد هـذه الخلة وان وجد فلا يزال فى مهد الطفولية .

أما كتابنا هذا فى أجزائه الأربعة هذه المرة ، فانه الى أن يتاح للاسلام حظ هذا العمل الـكبير ، يكون من الـكتب التى تفى بجانب من هذا العوز ، ويجوز أن يقال انه معلمة اسلامية صغيرة ، بل هو فى المباحث الجغرافية والتاريخية والاحصائية عن أقطار الاسلام النائية وبقاعه المجهولة فذٌّ فى بابه ، وكذلك يمتاز هـذا الـكتاب بالمباحث السياسية التى قيض لمحررها أن يعلمها من عين صافية ، وأن يقف على الرواية الوثقى منها بطول خبرته ، وقرب سنده ، واستمرار مزاولته لهذه الأمور من ٤٧ سنة . وفيه بعد تراجم وأخبار ، لم يسجلها كتاب ولا جرى بها قلم ، فلا يجدها الناشد فى غيره اذ هى نتيجة مشاهدات الـكاتب وما رآه بالعين وما سمعه بالأذن وما كان له فيه أخذ وردّ . وعلى كل حال ففى هذا الـكتاب من الطريف ما لا يسع انـكاره الجاحد ، ولا يضيره مراء الحاسد . ولا شك فى أن الأمة الاسلامية الناهضة الى تجديد تاريخها ، النازعة الى النماء بجميع فروعها وشماريخها ، ستتفطن الى كل ما يعوزها من هذه المقاصد الجليلة ، ومن جلتها تأليف المعلمة الـكبرى التى هى من ضرورات رقيها وأشراط نموها . وبالله التوفيق ومنه نستمد الهـداية الى أقوم طريق وصلى الله على النبى العربى العريق وعلى آله وصحبه وسلم ؟

شكيب أرسلان

جنيف فى ١٥ ذى القعدة ١٣٥١

مقدمة الطبعة الاولى

للأمير شكيب

الحمد لوليّه ، والصلاة على نبيّه ، والسلام على كل هادٍ الى سَوِيّه . وبعد فانّ الاوربيين الذين يغورون فى كلّ أمر ، ويختتلون كل سرّ ، ويوسعون كل قضية درسا ، ولا يسامون فى أطراف الأرض بحثاً ولا فحصاً ، يذهبون الى ان فى العالم الاسلامى حركةً شديدةً ، وغليانا عظيماً ، وان آسية وإفريقية ماخضتان بحوادث خطيرةٍ يكون من الجهل تجاهلها ، ومن الخرقِ الاستخفاف بها . ومنهم من يغلو فى تقدير هذه الحركة وتوسيع دائرتها ، فيرى الاسلام من أقصاه الى أقصاه متحسحساً للقيام ، والشرقَ من أوله الى آخره متحفزّاً للصراع ، ويجد العالمَ القديمَ كلَّه مستوفزاً يريد ان يقتفى اثر اليابان ، ليستردّ مجداً سالفاً ، ويستجدّ عزاً آنفا ، ويشحط عنه كل غريب ، ويكشف كل مغير ، وان الشرقيين لا سيما المسلمين منهم ، يأبون الا استرجاع أملاكهم المغصوبة باصبارها ، واحراز حقوقهم المهضومة بحذافيرها ، كما أن نفراً تراهم بالعكس ، يقولون ان الاسلام جسم متفكك الاجزاء ، متقطّع الأوصال ، عاجزٌ عن الصراع ، فاقدٌ لأسباب الدفاع ، ينقصه العلم ، كما يعوزه السلاح ، لا يريش ولا يبرى ، ولا يقدر على ثورةٍ ذات بال ، فمن أحمق الحمق وأسفه السفه أن تقيم أوربا للاسلام وزناً ، وأن تحسب للشرق — حاشا اليابان — حسابا ، وأن تمهل الاسلام فى استصفاء مابقى له على الاستقلال ، الى ان تكون عصت مقادته على الراكب ، وعست قناته على الغامز ، فالأحزم والأحوط هو مضاء أوربا فى سياستها المبنية على الفتح ، غير مباليةٍ بصخب ولا اعتراض ، ولا متحرجةٍ عن تفجير الدماء فى قمع ثورة أو منع انتقاض . ولهذا تجد هذه الفئةَ ممعنةً فى مطامعها ، مستمرةً فى غلوائها ، مطيعةً فى اختلاس الممالك دواعىَ أهوائها ، لاتنظر الى العواقب ، ولا تتصرف فى أمر تصرف محاذرٍ ولا مُراقب . وكان الناس يظنون أن الحرب الكونية بما أتت به من المثُلات والعبر ، وأجرته من جداول الدماء وسيول العِبَر ، ونزفته من أمواه الحياة ، ونسفته من أركان العمران ، وأنفدته من القناطير المقنطرة ،

وطيرته من المجاهيد الموفرة ، ووضعته من الاعباء على كاهل البشرية ، وأورثته من الانسراق فى كل عضو من أعضاء الهيئة الاجتماعية ، قد تُنبّه رجالَ الدول الى سير القصد ، ومراعاة الحق وايثار الرفق ، والصدوف عن تُرّهات الحيف ، والتكلم بغير نغية السيف ، لأنه من المقرّر أن هذه الكائنة العظمى ، والطامّة الكبرى ، كانت لها جملة عوامل أهمها التهافت على الاستعمار ، والتسابق على اقتسام الأقطار ، والظن بأن كل ما هو غير أوربى فانما هو آلة للاستغلال وموضوع للاستثمار . فخاب أيضاً الأمل بالاتعاظ بهذه الحرب التى لم يرِ التاريخ لها مثالا ، وأخطأت الفراسة بأن هذه المصائب والأهوال تلهم ساسة الدول الغربية رشداً واعتدالا . بل رانت المطامع على البصائر ، وغلب الجشع على الحجى ، وطمست الاهواء الالباب . مع أنه كان يكفى هؤلاء مثلة معاهدة « ڤرساى » التى لو كانت مبنية على قاعدة الانصاف لما احتيج اليوم الى لجنة الخبراء ، ولما وقع ما هو واقع وما سيقع من الخصام والمراء ، وما سيفضى يوماً الى حرب ثانية ، ومصائب تالية . وكذلك معاهدة « سفر » التى اضطر واضعوها أن يمزقوها ، بعد تلك الدماء التى أراقوها ، والبلدان التى غادروها خرابا وزرعوها أسنّة وحراباً . فمع أنهم رأوا خطأهم صراحية ، ومع أن زرعهم لم يثمر الا شوكاً ، ومع أن العداوة قد لقحت من ذى أنف ، وان دواعى الحرب عادت أكثر مما بدأت ، لا يريدون أن ينتهوا عن ضلالهم القديم ، ولا أن يربعوا على ظلعهم الجديد ، ولا أن ينظروا الى ما عليهم من الديون المجهضة الاحمال ، ولا يفكرونَ فيما على ظهورهم من أمثال الجبال ، وانما يعولون فى حماية مطامعهم على النيران المحرقة ، والقنابر المصعقة ، وعلى الحرب الجوية ، بأعداد الألوف المؤلفة من الطيارات التى يرونها أخصرَ طريقاً وأخفّ مؤونة وأوحى قتلا . ولا يلاحظون ما فى قتل النساء والأطفال من الفظاعة التى لا تليق الا بالمتوحشين الذين يأكل بعضهم لحم بعض ، وما فى تدمير المساكن على رؤوس الأبرياء والوادعين من مخالفة دعوى الانسانية التى يزعمون أنهم حماتها فى الأرض .

فالعالم الاسلامى الذى لا يزال محور سياستهم قهره واعناته ، وتجريده من السلاح بكل وسيلة ، والحيلولة بينه و بين الاتحاد والتماسك بكل حيلة ، احتياطاً من وراء رسفانه فى قيوده الحاضرة ، وأماناً على ديمومة خنوعه لسلطتهم القاهرة ، لا يصح أن يقال انه بلغ من النهضة الدرجة التى تكفل له حطم سلاسله الثقيلة ، واسترداد ممالكه العريضة الطويلة،

واستئناف معاليه الخاليــة ، ومصيره مع العــالم الأوربى الى حالة متساوية . ولا أدرك بهذه السنين القلائل من اليقظة ما يكفى لتجديد ما أخلق من حاله ، واستشن من شأنه ، بل لا يزال و يالاسف الجهل مخيماً على أكثر آفاقه ، وما برحت العصبيات الجاهلية عاملة عملها فى تفكيك عراه و بعثرة أجزائه ، كما أن الرعب من سطوة الأجانب الا من رحم ربك ملء الجوانح ، واليأس من استطاعة القيام فاش فى الأفكار والخواطر . وكأنه الى هـذه الحالة بعينها نظر النبى ﷺ حينما قال : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل جانب تداعى الأكلة على القصاع . قالوا : أو من قلة منا يومئذ يارسول الله ؟ قال : لا . ولكنكم غثاء كغثاء السيل يجعل الوهل فى قلوبكم و ينزع من قلوب أعدائكم من حبكم الدنيا وكراهيتكم الموت » أو كما قال . نعم صار المسلمون ، الا الأقل منهم الى زمان لا تغنى عنهم كثرتهم شيئاً بل صارت الفئة القليلة من غيرهم تتحكم فى الفئة الكثيرة منهم ، وتخبطهم بكل عصا ، وهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، وراح الأجنبى يفتح بلدانهم بهم و يسلط بعضهم على بعض ، و يقتل هذا بذاك مستفيداً من قتل الاثنين : الذى يقاتله والذى يقاتل معه . واذا سالت أحدهم لماذا اعطاء هـذه المقادة كلها واقتحام الموت فى سبيل الأجنبى الذى تغلب عليه ، أجابك انه انمـا يساق الى الموت رغماً . والحال أن الموت الذى يخشاه فى عصيان الأجنبى ، هو ملاقيه فى طاعته ، فهو من خوف الموت فى الموت ، ومن حذر العذاب فى أشد العـذاب . فلا بد لاستقلال الاسلام من زوال هـذه الأوهام ، ومن انتشار المعارف التى لا تجتمع مع الذل فى مكان ، ولا تـبرح دون تلك الغاية مصاعب وقحم ، ومصائب وغمم ، وليال مظلمة طوال ، ومعارك تشيب لها ذوائب الأطفال . وانما الذى يخطىء فيه سكارى العز ونشاوى الساعة الحاضرة من الأوربيين ، اعتقادهم أنها حالة ستبقى على الدهر ، وان ثلثمائة وأربعين مليوناً من المسلمين سيلبثون الى الأبد رهن اسارهم وفريسة استعمارهم ، ووقود نارهم ، واعتبارهم الشرقيين عملة يسمن الغـربيون بهزالهم ، و يسعدون بشقائهم ، و يقوون بضعفهم ، و يحيون بحتفهم ، حقاً لقد تجاوزوا الحد ضلالاً وغروراً ، واستكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ، وظنوا أنهم انما كتبت لهم السيادة خالصة من دون الناس وأمنوا جفوات الأيام ،وأخذوا الطريق على الفلك الدوار فلا يدور لهم الا بحسب المرام . كلا هذا منهم خيال زائل ، ووهم أرق من شبح باطل ، فلن يبقى الشرقيون أبد الدهر مدنقة

هينة عليهم نفوسهم ولن يصبروا أكثر مما صبروا على أن يلى أمورهم من ليس منهم ، ولا بد أن يأتى الزمن الذى يصبح كلٌّ فيه سيداً فى دياره ، مانعاً لذماره ، مساويا فى الارض لمن ظن سلطانه سرمداً ، ودوره مؤبداً ، وعمل اليوم عمل من لا ينظر ما يكون غداً ، لا سيما المسلم الذى يقرأ كل يوم فى قرآنه ما يجعله بكل جارحة من جوارحه رجلا ولا يرضى له بالاستقلال بدلاً ، وينفخ فيه من روح الانفة ما يصور الذل كفراً ، ويلقى فى روعه من حب العلم ما يصير الجهل وزْراً ، ويحتم عليه من الأخذ بأسباب القوة ما يخيل الضعف شركا . كلا لن يلبث الشرق لدى دول الاستعمار هو الشحمة الرُقَّى ، والامم التى لا تملك لأنفسها حقا ، ولا تنفض عن أعناقها رقاً ، ولا يمكن أن يظل الاوربى سيد الارض غير مدافع وصاحب الحكم غير مزاحم متسلطاً على ما فى الدنيا من الجهات النفيسة ، مستأثراً بما بين المشرق والمغرب من الجَنَبَات الرئيسة ، فلم يبرح الدهر قلَّبا ، والدوام محالا ، والتاريخ يركب الامم طبقا عن طبق ، ويلحق من تأخر بمن سبق ، وما من بهشة الا وراءها جهشة ، وقد كذب من طمع فى صفو بلا كدر ، وصعودٍ بلا حَذَر . ومن أعظم الخطا الظن بأن الشرق لا يلمُّ على شعث ، وان آسية وافريقية لن تنهضا من عثار وهما ثلثا العالم ، ولقد سار الشرق فى مدة وجيزة عقَبَاتٍ جِياداً ، واجتاز أزماتٍ شداداً ، وهو ماض فى سيره الى الأمام لا سبيل بعد اليوم الى تعويقه ، ولا حاجز يمكن أن يقف فى طريقه بدسائس تلقى ، ومبالغ سريّة تنفَق ، وأخلاق تُفسَد ، وذمم تشرى وأشراك تبثّ ، وأسياف تُسلّ . ولا المحلقات فى الجو تقدر على كم الأفواه ، ولا الغازات السامة تقوى على إطفاء نور الله ، وما تزيد هذه الوسائل تلك الأمم المستضعفة الا شوقاً الى الحرية ، ونداء الى الثارات واصراراً على الضغائن ، ومهما يكن من حيل العباد فللكون سَنَن هو سائره والله أمر هو بالغه .

وقد كتب كثير من المؤلفين الأوربيين على الحركة الاسلامية بعد الحرب ، فمنهم مخطئ ومنهم مصيب ، ومنهم من خلط قولا سديداً وآخر بعيداً . ومنهم من تكهن بالشر وأنذر بالويل . ومنهم من أحسن الظن وهُدِى الى الطيب من القول . ولا شك فى كون خيرة ما أُلِّف فى هذا الباب ، ونبلة ما خيض من هذا العباب ، هو الكتاب المسمى « بالعالم

الاسلامى الجديد [1] » تأليف العلامة الحصيف البليغ المستر ستودّارد الأمريكىّ الذى أخرجه كتابا جامعا وشهابا لامعاً ، وحصيلة بحث دقيق ، ونتيجة احفاء عميق ، فهو فى هذا الموضوع أفضل المؤلفات على التحقيق . توخى صاحبه العدل فى الحكم والاعتدال فى الوصف والوقوف عند اعتراض الشك ، وأبى القاء الكلام على رُسَيْلاَته وازناً الأمور بميزانها غير مقصّر ولا مشطّ ، ولا مفرطٍ ولا مفرط وهو الأمد الذى يكبو دونه جواد غيره من المصنفين ، والغاية التى لا تتاح الا للافذاذ من صيّابة المحققين . وضعه محرره باللغة الانكليزية وترجمه بعضهم الى الفرنسية وربما ترجم الى غيرها من اللغات الاوربية ، ونقله أحد أدباء الترك الى التركية ، ولكن أكثر من أعجب بهذا الكتاب هم أدباء العرب ، فقد تبارى عدة من أفاضلهم فى تعريبه خدمة لقومهم ونصحاً ، وانبرت أقلامٌ مرهفة لجلاء عرائسه على منصة هذه اللغة الفصحى ، وانما سبق غيره الى الاتمام ، الشاب الأديب الكاتب الناهض عجاج افندى نويهض ، فأبرزه فى حلة من نسيج الضاد تشتد بها نُطق النطق ، وتقترن بها حلاوة العبارة بلسان الصدق . وكان قد كتب الىّ فى العام الماضى وأنا فى أوربا يلتمس منى تصدير هذا الكتاب بمقدمة تليق بمقامه الخطير ، وتكون فى أوله مقدمة وهى فى الحقيقة من ورائه ظهير ، وكنت قبل ذلك اطلعت على هذا الكتاب ووقفت على ما فيه من جمال مناحٍ ، وسداد آراء ، وسمعت حسن الاحدوثة عنه ممن يعرفون الحر من الخل من القراء ، فرأيته لاضطراره الى الاجمال ، وعدم تعرضه لكثير من المسائل الا على سبيل الايماء ومن قبيل الاستشهاد ، يحتاج فى بعض المظان الى الاكمال أو الايضاح . فعلقت عليه مما أملاه الخاطر الفاتر حواشى رجوت أن تكون طرازاً لحبره ، ونظاماً لدرره ، وأوردت فيه من أخبار العالم الاسلامىّ ما لا يزال مجهولا عند أكثر المسلمين ، ومعظم الشرقيين ، بعلة تنائى البلاد وتراخى الابعاد ، وضرب الدول المستعمرة بالاسداد فكانت طريقتى فى هذه التعليقات ترك ما استفاض العلم به وتواتر الخبر عنه ، ولو كان فى حد ذاته جللاً الى البحث عما خفى شأنه ، وعمى خبرُهُ ولو كان أمرُهُ فرُطا ، فاعتنيت بقدر الطاقة

---

(١) هو بالانكليزية The New World Of Islam وقد رأينا أن ترجمته ب « حاضر العالم الاسلامي » أوفي بالمراد فى العربية وأدل على الغرض من العالم الاسلامى الجديد ، أو العالم الاسلامى الحديث ، أو عالم الاسلام الجديد ، أو عالم الاسلام الحديث . 　　(المترجم)

بتحرير المواضيع الغامضة والمسائل الغريبة ، وتحريت أنباء الاصقاع النائية ، دون البلدان القريبة . اذ ما من فائدة فى البحث عن قضايا تساوى الخاص والعام فى فهم معناها وسرد أخبار لم يبق قصرىٌّ ولا عمُى الا رواها أو علم فحواها ، فتحاشيت فى هذه الحواشى التواريخ المشهورة المكرَّرة ، والمعلومات التى فى كل يوم منها خبر فى الصحف المنشّرة ، فجاءت بابكار من المواضيع لم تجلها الاقلام لحداثة عهدها وأخرى من أخبار زوايا من بلاد الاسلام عميت أحوالها لانقطاعها و بعدها ، وقد اخترت فيها كلها التلخيص اذ لو أرخى فيها الكاتب عنان القلم لما حوتها اجلاد ، ولا وفى بها جلد ولا اجتهاد . هذا وان رأينا الذى نعول عليه أولا وآخراً ، ونرجع اليه باطنا وظاهرا ، ان الشرق أجمع سيتنبه من رقدته، وينهض من كبوته ، وانه كما شهد القرن التاسع عشر استقلال أميركا باسرها ، فسوف تشهد بقية القرن العشرين استقلال آسية بعروتها وزرّها ، وانه لا تمضى الثمانون سنة الباقية لتمام هذا القرن حتى يلى الاسلام بلاده ، ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده ، ليس هناك كهانة ولا عرافة ، ولا هى مقاصد تدرك بالرقى أو العيافة ، ولكن يُعرف المستقبل من الحاضر ، ويدل الاول على الآخر . هذا وان نهوض الشرق هو الشرط الاول فى سؤدد السلام ، وراحة الانام ، وحقن الدماء الحرام ، وحفظ موازنة العالم واستواء الاقسام . وما دام الغربيون يرون الشرق لجيوشهم مجالا ، والاستعمار لدول أوربا دليلا تقفوه يمينا وشمالا ، فالحروب بين الدول قائمة متتابعة ، الى قيام الساعة ، والاختراعات التى تفتخر بها المدنية مصروفة الى استئصال البشر وناهيك ما فى مدنية كهذه من الشناعة ، وما دامت جمعية الامم مثل العروض بحراً بلا ماء ، ما وجدت الا لتلبس الاعتداء حلة قانونية ، وتسوغ الفتوحات بتغيير الاسماء ، لا يطيعها سوى ضعيف عاجز ، ولا تستطيع أن تحكم على قوى متجاوز ، فكيف يغطى الحق بالاثرة والحقَ أبلج ، وكيف يستقيم الظل والعود أعوج ، فلا مندوحة للامم الشرقية عن الاقتداء باليابان فى التماس المنعة ، ومضارعة الدول الغربية فى ارتياد العلم واقتباس الصنعة ، حتى اذا قرع النبع بالنبع ، ووقع النصل على النصل اقتنع كل بدياره ، وأمسك الجار عن هضم جاره ، فان المال السائب هو الذى يعلم الناس الحرام . وان الخوان الممدود هو الذى يبعث الاشتهاء الى الطعام . فليحرص الشرقيون من كل فريق أن يكونوا أولى قوة مانعة ، وان يوحدوا كلمتهم فيجعلوها كلمة جامعة ، فان بقوتهم خلاص الغرب والشرق ، والادالة من الحرب للسلم ومن الباطل للحق ، بحول الله وكرمه ؟

مرسين ٢٥ شعبان سنة ١٣٤٣
٢١ مارس سنة ١٩٢٥

شكيب أرسلان

مقدمة المترجم

« حاضر العالم الاسلامى » كتاب حديث الوضع ، نُقل الى عـدّة لغات أورو بية وشرقية ، و بعد إخراجه طُبع غير مرّة فى الانجليزية ، فذاع فى أمريكة وأور بة ،ذيوعاً عظيما ما كان مثله لكتاب غيره فى بابه ، فأحلّه كثير من الساسة والمنصفين وأهل البحث والعلم المحل الأرفع ، وأقبلوا عليه ، واهتدوا به فى الاحاطة الحقة بكثير من طبائع الاسلام ، والانقلاب الاسلامى على اختلافه فى آسية وافريقية قبل الحرب العامة و بعدها ، واتخذوا منه عونا على تدبر ما بين العالم الاسلامى و بين الدول الغربية المستعمرة من صلات وعلاقات، حق التدبر . وقد شهد المحققون للعلاّمة ستودارد الامريكى ، بصحة القول ، وإصابة العدل والحق فى الحكم . ومما قالته (مجلة المجلات) الانكليزية عند صدور الكتاب ان صاحبه « ارميا القرن العشرين » لكثرة مؤلفاته .

وقد رأيت فى نقل « حاضر العالم الاسلامى » الى العربية خدمة بارّة ، رجوت اذا وفقت الى القيام بها أن يتقبّلها كل قارئ كريم بقبول حسن . فاستأذنت المؤلف فى الترجمة ، فأجابنى الى ذلك طيب الخاطر . وأمدنى باذن خاص منه ومن شركتى الطبع الامريكية والانكليزية فأشكر له هذا شكراً كبيراً

و بعد الفراغ من ترجمته طلبت من حضرة العربى الكبير ، والسياسى الشرقى الضليع الثقة فى الشؤون الاسلامية ، كاتب العصر صاحب السعادة الأمير شكيب أرسلان ، رعاه الله وأطال بقاءه ، أن يتفضل بكتابة مقدمة يُطرّز بها جيد الكتاب ، فتفضّل سعادته ، وهو على أسفار متلاحقة بين الشرق الأدنى وأورو بة ، بتلبية الطلب على النحو الذى مر بك فى المقدمة السابقة التى وضعها سعادته غير قاصر فضله على وشل ما طلبت ، دون فيوض الفصول الممتعة ، والتعاليق الجامعة ، التى منها ما هو تحت المتن ، ومنها ما هو وارد مستقلا مع سبق الاشارة اليه . فجاء الكتاب بعد ذلك جامعا للحسنتين : حسنة الوضع للعلامة ستودّارد الأمريكى الغربى ، وقد بلغ من التوفيق فى كتابه علماً و تحقيقاً ، مبلغاً عز على غيره من سبق الواضعين . وحسنة المزيد من فرائد الفصول والحواشى والتعاليق ، لصاحب السعادة الأمير شكيب ، الحجة السياسى الشرقى ، جزاه الله عما بذله فى هذا السبيل خير جزاء ونفعنا بعلمه الواسع ، واضطلاعه الجامع . وكان الكتاب مجلداً واحداً فغدا بعد المزيد أربعة مجلدات

عجاج نويهض

تمهيد للمؤلف

ان العالم الاسلامىّ من أقصاه الى أقصاه ، قد تغلغلت فيه عوامل الانقلاب أبعد مُتَغَلغَل ، وانبثَّت فى عروقه فواعل التبدُّل أوسع مُنْبَثّ ، حتى كمل اختماره وتمّ استعداده ، فراح يجتاز هذا الدور الخطير فى التحوُّل ، ثوّارَ القوى الى مالا حدّ له . فاذا ما سرّحت ببصرك نحو العالم الاسلامى رقعةً رقعةً ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان الى الكونغو رأيت ال ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ من المسلمين ، قد ثارت نفوسهم مشتدّة الحركة والانفعال ، نازعة الى كل ضَرْب جديدٍ من ضروب الآراءِ والافكار ، والمطامح والآمال . وان عقبى هذا الانقلاب الشامل لعظيمة جداً ، وستتأثر بنتائجها العميمة أُمم الارض جمعاء ، ولله الامر من قبل ومن بعد .

على ان العامل الاكبر فى هذا الانقلاب هو الحرب العامة . ولكن منشؤه ليراه المستقصى اقدمَ عهداً وأبعدَ أصلا ، اذ انّ بذوره قد القيت فى تُرَب العالم الاسلامى قبل الحرب الكبرى بمئة سنة بل أكثر ، ومنذ ذلك الحين درجت هذه البذور تنمو مزدادة الاستعداد والقوة الحيوية ، نمواً مستسرّ المنهج ، بطيء الحركة فى أول العهد ، ثم على التوالى أوضَح سبيلاً وأوسَع انتشاراً ، وما زال الانقلاب الاسلامى على مسراه هذا حتى أدركته الحرب العامّة التى قد تضعضع منها الكيان ، فكانت عامل الثورة فجاةً فى المعمور الاسلامىّ ، فطفق يثور ويهتاج منتقلاً من حال الى حال ، مربدّ الجوّ بقاتم السحب ، لا يسمع فيه السامع الا القواصف .

وان وصف هذا الانقلاب العجيب ، ودورِ التحوّل العظيم ، وما اليهما من مختلف الاسباب والعلل والنتائج ، هو غرضنا الذى قد ابتغيناه من اخراج هذا الكتاب للناس . وقد كنا فى ذلك من الذين يصوّرون الشيء كاملا تاماً فأتينا على بيان كلّ صُور الانقلاب من دينيَّة ، وتهذيبيّة ، وسياسيَّة ،واقتصاديَّة واجتماعيّة وفى كل من هذه تناولنا الكلام على سببها وتكونها ، ونشوئها وترقيّها ، وعمومها وانتشارها ، وصفاتها وحالاتها ، وما فيها من قوة انسياق وعامل . أضف الى هذا أننا لم نُغفل ايضاح ما فى بعض المواضع من الاختلاف

بسبب الاقليم والبيئة ، من حيث اننا قد بسطنا تلك المضارعة العامة والصفة الكلية ، مما هو مصاحبٌ لجميع الحركات على اختلافها مصاحبة دالة على ما هناك من وحدة متوخاة فى هذا الانقلاب الاسلامى

ان موضوع الكتاب وان كانَ مختصاً بالعالم الاسلامى فى المقام الاول ، غير أنه تناول الكلام على غير المسلمين ، كالعناصر الهندوية (الهندوس) فى الهند وسواهم استيفاءً للغرض من جميع الوجوه التى لها صلة بالموضوع . لذلك جُعل الكلام كافياً وافياً فى شأن الشرقين الأدنى والأوسط . أما الشرق الاقصى فلم نتناول الكلام فى أحواله مباشرة ، ولكنا قد أشرنا الى ما هو مشاهد من الشبه والمماثلة بينه و بين العالم الاسلامى فى الماجريات العامة اشارة ينبغى للقارىء أن يقيم لها وزناً

لوثروب ستودارد

مُقَدِّمَة

للمؤلف

فى نشوء الاسلام وارتقائه وانحطاطه

يَفْنَى الْبَرَايَا وَيأْتى الْوقْتُ مُخْتَلِفاً
لِيُخْرِجَ الدَّهْرُ تاريخاً مِنَ الرِّمَمِ
« شيلر (فى وليم تل) تعريب الرافعى »

كاد يكون نبأ نشوء الاسلام النبأ الاعجب الذى دوّن فى تاريخ الانسان . ظهر الاسلام فى أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان ، و بلاد منحطة الشأن ، فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر فى نصف الأرض ، ممزقاً ممالك عالية الذرى مترامية الأطراف ، وهادماً أدياناً قديمةً كرّت عليها الحقب والأجيال ، ومغيراً مابنفوس الأمم والأقوام ، وبانياً عالماً حديثاً متراص الأركان — هو عالم الاسلام .

كلما زدنا استقصاءً باحثين فى سر تقدم الاسلام وتعاليه ، زادنا ذلك العجبُ العجاب بهراً فارتددنا عنه باطراف حاسرة. عرفنا أن سائر الأديان العظمى انما نشأت ثم أنشأت تسير فى سبيلها سيراً بطيئاً ملاقيةً كل صعب ، حتى كان أن قيض الله لكل دين منها ماأراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ فى تأييده والذبّ عنه حتى رسخت أركانه ومنعت جوانبه . بطل النصرانية قسطنطين ، والبوذية ﴿ اسوكا ﴾ ، والمزدكية قيا كسرو ، كل منهم ملك جبار أيّد دينه الذى انتحله بما استطاع من القوة والأيد . انما ليس الأمر كذلك فى الاسلام ، الاسلام الذى نشأ فى بلاد صحراوية ، تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التى لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة فى التاريخ ، فلسرعان ماشرع يتدفق و ينتشر وتتسع رقعته فى جهات الأرض ، مجتازاً أفدح الخطوب وأصعب العقبات ،

دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر مشدود ، وعلى شدة هذه المكاره فقد نُصر الاسلام نصراً مبيناً عجيباً ، اذ لم يكد يمضى على ظهوره أكثر من قرنين ، حتى باتت راية الاسلام خفاقة من ﴿ البرانس ﴾ حتى ﴿ حملايا ﴾ ، ومن صحارى أواسط أسية حتى صحارى أواسط أفريقية .

كان لنصر الاسلام هذا النصر الخارق،عوامل ساعدت عليه،أكبرها أخلاق العرب ، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته ، والحالة العامة التى كان عليها المشرق المعاصر فى ذلك العهد . ان العرب ، وان كان ماضيهم مابرح منذ عهد متطاول فى القدم حتى عصر الرسالة ماضيا غير مشرق باهر ، فقد كانوا أمةً استودعت فيها قوة عجيبة ، تلك القوة الكامنة التى بدأت منذ نشوء الاسلام تظهر جليةً الى عالم الوجود . فقد ظلت بلاد العرب أجيالاً طوالاً من قبل محمد ، مباءة يشتد فيها تزخار القوى الحيوية ، وجيشان العوامل الروحانية . كيف لا وكان العرب قد فاقوا آباءهم وأجدادهم ايغالاً فى الشرك والوثنية . وانقضى عليهم وهم على هذه الحالة عهد ليس بالقليل حتى استحالت عناصر أمزجتهم من شدة ذلك كله فصاروا توّاقين بفعل غرائزهم وأخلاقهم الى تبديل حالهم وتحسين شأنهم . هكذا كانت حالتهم العقلية والنفسانية ، حالة الاستحالة الكبرى ، والانقلاب العظيم ، والاستجداد الكبير ، لما صاح فيهم نفير الاسلام . ان محمدٌ وهو عربى من العرب ، الا روح قومه متجسدة ، ونفسهم متجسمة ، استطاع محمد ، وهو يبشر بالوحدانية تبشيراً عارياً عن زخارف الطقوس والأباطيل ، أن يستثير حق الاستثارة من نفوس العرب الغيرة الدينية ، وهى الغيرة الكامنة متمكنة على الدوام فى كل شعب من الشعوب السامية . واذ هبّ العرب لنصرة دعوة ابن عبدالله ، من بعد ماذهبت من صدورهم الاحن المزمنة ، والعداوات الشديدة التى كان من شأنها من قبلُ الذهاب بحولهم وقوتهم ، وانضم بعضهم الى بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرسالة فى رأسه نور للناس وهدى للعالمين ، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحاريهم فى شبه الجزيرة ، ليفتحوا بلاد الاله الأحد الفرد الصمد .

أجل ، هب الاسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزعزع ، فلاقى فى سبيله جوّاً روحانياً خالياً ، فى ذلك العهد كانت كلتا مملكتى فارس وبوزنطيه باديتين للعيان كأنهما اللحاء الجاف فارق عوده ، لانموّ فيه ولا حياة ، وكان الدين فى كل من هاتين المملكتين صار

ديناً يزرى عليه ويسخر منه . أما فى فارس فقد كان دين « المزدكية » القديم قد انحط انحطاطاً كبيراً حتى أصبح مجوسية باطلة وصناعة خداعة بين أيدى الموابذة يظلمون به الخلق ويضطهدونهم بكل قسوة ، فكره الناس ذلك الدين فى الباطن كرها شديداً ومقتوه مقتاً عظيماً .

وأما فى القسم الشرقى من المملكة الرومانية، وهو مملكة بيزنطية فقد ألبس الدين فيها لباسا غير لباسه الأول فاستحال الى الأباطيل الشركية وانتشرت فيه الأوهام والخزعبلات التى كان يقوم بها علماء الدين اليونانيون ذوو العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، فغدت النصرانية عبثاً وسخريةً . وعلى الجملة فقد كانت البدع والضلالات قد مزقت « المزدكية » الفارسية والنصرانية البيزنطية شر ممزق ، وبذرت فى كل منها بذور الاضطهادات الهمجية والعداوات الوحشية ، فنمت تلك البذور نمواً هائلا . ولا يغربن عن البال انه كان على رأس كل من بوزنطية وفارس سلطان مستبدّ قاهر ، وملك عاتٍ أرهق الرعية ارهاقاً لاقبل لأمة باحتمال مثله ، فماتت كل عاطفة من عواطف حب الوطن والاخلاص للدولة . زد على جميع ذلك ان هاتين المملكتين كانتا على حال من الضعف شديدة بعيد حربٍ طاحنةٍ التظت نيرانها بينهما خرجت كلاهما منها مفتوتاً فى عضدها ، منهوكة قواها .

هكذا كانت حالة العالم لما غشيه طوفان الاسلام ، وعلى هذا الاعتبار ترى أنّ العاقبة التى رآها العالم بعيد ذلك كانت مما لابد منه ولا منتدح عنه ، وجميع مافى الأمر ان كتائب المملكة الرومانية الشرقية، ومتدرّعة فارس ، كانت من قبل خوّاضة حربٍ فتّاكة ، لم تقو الآن على صد حملة الحاملين عليهما من أمة الصحراء المتعصبة ، فسقطت أمام الفاتحين العرب سقوط التلاشى والاعياء ، فلهذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم حسا أبطالاً ، بل ان هذه الأمم التى كانت حتى الفتح الاسلامى مدقوقة العنق من جانب ملوكها ، قبلت الفاتحين مستسلمةً ، فقام عديد أرباب البدع يتهللون فرحاً وسروراً لنجاتهم من نير المضطهدين المقوتين . ولم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل فى دين النبى العربى أفواجاً ، ايثاراً له بجدته وسذاجته على ذينك الدينين اللذين صارا غايةً فى الانحطاط والتدنى . وقد عرف العرب بدورهم كيف يستدنى الحكم ويوثّق السلطان حتى دانت لهم أمور الملك واستقرت نقطة دائرتها فى أيديهم . فالعرب لم يكونوا

قط أمة تحب اراقة الدماء وترغب فى الاستلاب والتدمير ، بل كانوا ، على الضد من ذلك ، أمةً موهوبة جليل الاخلاق والسجايا ، توّاقةً الى ارتشاف العلوم ، محسنةً فى اعتبار نِعَم التهذيب ، تلك النعم التى قد انتهت اليها من الحضارات السالفة . واذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة ـ الحضارة العربية ، وهى جماع متجدد التهذيب اليونانى والرومانى والفارسى ، ذلك الجماع الذى نفخ فيه العرب روحاً جديدةً ، فنضر وأزهر ، وألّفوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربية والروح الاسلامية ، فاتحد وتماسك بعضه ببعض ، فأشرق وعلا علواً كبيراً . وقد سارت الممالك الاسلامية القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ — ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارةً ورقياً ، وتقدماً وعمراناً ، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والحواضر العامرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العلمية المنظمة ، وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن علومهم ، يشعان اشعاعاً باهراً . طول هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الاسلامى يضىء على الغرب النصرانى نوراً ، ثم غابت كواكبه ، وأفلت أنجمه ، حتى أدركته لياليه السوداء وأجياله المظلمة .

لم يكد يستهل القرن العاشر حتى تبدت الظواهر الواضحة تدل على حينونة العهد الذى أخذت فيه الحضارة العربية فى الانحطاط ، وما كانت تلك الظواهر لتكذب فيما دلت عليه ، غير ان تلك الحضارة انما كانت فى أوائل عهد الانحطاط تهبط دركةً دركةً ، وعلى هذه الحال المستمرة ، وانقضاء العصر العربى منذ القرن العاشر ، فقد دامت الحضارة العربية جلدة تنتزع حياتها من مخالب الفناء انتزاعا ، وسابقة للغرب النصرانى ، حتى حلول النازلة الكبرى التى حلت بساحتها فى القرن الثالث عشر . وكانت الأسباب فى انحطاط الحضارة الاسلامية جمةً ، أشدها أن روح الشقاق القديمة الأصل ، تلك الروح التى كانت على الدوام آفة سياسيةً تنخر فى جسم الدولة ، عادت فظهرت اذ نشأ التنازع على امارة المؤمنين ، وهذا التنازع قد أفضى الى فتن دموية ، وهذه الفتن وما فيها من حوادث الاغتيال وسلب الأرواح قد أفنت تلك الحرارة التى عرفت فى صدر الاسلام ، فقام مقام الأبطال الأول ، مثل أبى بكر وعمر حاملى لواء الاسلام الأولين ، أمراء دنيويون اتخذوا الخلافة وسيلة للجور والظلم ، والتباهى بمتاع الدنيا وأعراضها . وكانت الخلافة فى المدينة فى الحجاز ، ثم نقلت الى دمشق فى سورية ،

ثم الى بغداد فى العراق . أما فى الحجاز فلم يكن البغى ولا الاستبداد هناك مستطاعاً ، لأن عرب الصحراء الأشداء ، أهل الاستقلال والحرية ليس من شأنهم الخضوع لحاكم قاهر ولا الانقياد لآمر مرهق ، وقد أوصاهم النبي بالحرية والشورى ، فقال لهم قولا مبيناً : (انما المؤمنون اخوة)[1] وقد كانت الخلافة فى الحجاز شوروية قائمة على قواعد الاسلام الصحيحة وأركانه . فالأمة هى التى اختارت أبا بكر وعمر وولت كلا منهما عليها خليفة ، وكلاهما كان ينزل على رأى الأمة وحكمها ، وذلك على مقتضى الشريعة التى أوحى الله بها الى نبيه محمد وهى القرآن الكريم

وأما فى دمشق ، ولا سيما فى بغداد ، فقد تحولت الأحوال وتبدلت الأمور ، ولا يعجبن من ذلك والعرب الصرحاء الاقحاح ، الجارى فى عروقهم الدم العربى البحت ، الدم المتحدّر اليهم من أصلاب أبناء الجزيرة ، انما كانوا فئة قليلة فى أفواج الناس وطوائف الخلق الذين لا عداد لهم من أهل الشام وفارس وغيرهم من سائر المغلوبين المنتحلين الاسلام حديثاً ، فامتزج دم الغالب بدم المغلوب ، وجمع الاسلام بين الأجناس المختلفة والنحل المتنوعة . ولما كانت هذه الشعوب المغلوبة قد سئمت كلها الذلّ من ملوكها السابقين فعادت بسبب ذلك لا تقوى على احتمال الارهاق والصبر على المحنة ، لحدثان مادانت خاضعة مصافية للخلفاء المسلمين الذين أخذوا على التوالى يصطنعون و يستكفون من هذه الرعايا عمالا وحاشية ، و بالتالى جنداً لحراسة سياج الملك والذب عن حياض الدولة . وما زال الأمر هكذا حتى عرا الملك العربى ماعراه من النوائب ، فأخذ ظل سلطان العرب ، وقد ولت غرر أيامهم ، يتقلص الى الصحراء ، وأنشأت حكومتهم تنقلب الى مطية من مطايا الاستبداد الشرقى . ولما نقلت الخلافة الى بغداد بقيام دولة بنى العباس (٧٥٠ م) ازدادت كلمة الفرس نفوذاً وامتد شأنهم وسلطانهم الى كل زاوية من زوايا الدولة ، وما الخليفة الأعظم هرون الرشيد[2] ، بطل « الف

(١) هذه آية قرآنية وليست حديثاً نبوياً — المعرب

(٢) نعم كان هارون الرشيد جباراً سفاكا للدماء على نمط غيره من ملوك الشرق المستبدين . وقد كاد يبطش بالامام الشافعى لتهمة أنه يميل الى أولاد علي . كما ان ولده المعتصم أمر بضرب الامام احمد بن حنبل لانكاره القول بخلق القرآن . وكما ان مالك بن انس امام دار الهجرة ضرب في أيام المنصور لقوله ليس لمكره يمين . فاذا كان هذا هو العمل مع مثل اولئك الأئمة العظام ، مصابيح الاسلام الذين أناروا براهينه وشرعوا قوانينه ، وكانوا من العلم والزهد والتقوى بالمكان الذى لايخفى ؛ فما ظنك بحالة غيرهم من الامة . والحقيقة

ليلة وليلة » [١] الا الملك العربي على شاكلة ملوك الفرس مثل قيا كسرو وكسرى أنوشروان، خلافاً كل الخلاف لما كان عليه أبو بكر وعمر . وفى بغداد كما فى غيرها من سائر حواضر المملكة الاسلامية كان الاستبداد مقوضاً لأركان الدولة أيما تقويض، فغدا خلفاء النبي وهم على هذه الحال طغاة موسوسين ، وألاعيب بين أيدى الخطايا ، لا يستطيعون القيام بعبء من أعباء السلطان ولا القيادة بزمام من أزمّة المملكة الاسلامية

ما انفكت المملكة تهبط وتتقهقر حتى تقطعت أوصالها، وتفككت أجزاؤها، وسُلبت منّتها ، فصارت الوحدة السياسية مما لا يستطاع دوامه لافتقار الدولة الى قواد محنكين، ولعفاء ذلك المزاج الاسلامى الصافى الجامع لسجايا عرب الصحراء الأول . وقبيل ظهور الاسلام كان أهل كل مصر من الأمصار التى انتشر فيها ظلم أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، ينزعون منزعاً قومياً ويحاولون نهضة وطنية ، فجاء الفتح الاسلامى طامياً ، قاضياً على جميع هذه المنازع ، أما الآن ، والمملكة الاسلامية محتضرة فى النزع ، فأنى يستطاع المجىء بمثل ماجىء به فى صدر الاسلام ؟ استطاع الاسلام أن يجعل الملايين من الخلق على اختلاف عناصرهم وأمزجتهم ومعتقداتهم ، ينتحلون الرسالة المحمدية ديناً ، ولكنه لم يستطع أن يحيل هذه الملايين الى صورة اسلامية متماسكة البنيان ثابتة الصبغة ، فاعترض الازدراد شجاً ، وساء الهضم فساءت نتيجته . دعا محمدٌ العرب فلبوا دعوته حقاً ، لأنه أتاهم بكتاب وآيات وآراء مما كانت عقولهم وطبائعهم مستعدة بالفطرة لقبوله أحسن قبول ، وناداهم مستفزاً نعرتهم وحميتهم ، وهم اخوان نخوة سجيةً وخلقاً ، فاستجابوا نداءه طائعين . فلما دخلت شعوب مختلفة غير عربية فى الاسلام ، أخذ كل شعب من هذه الشعوب يفسر بموحى غريزته رسالة النبى ، على ما يلائم منازعه الشعبية وميوله التقليدية الخاصة ، ويوافق روح التهذيب الذى كان عليه ، فنتج عن جميع ذلك ان الاسلام الحقيقى الذى شاهده العالم فى أول منشأه قد

ان الخلافة لم يستقم أمرها على مراد الشارع إلا مدة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ثم عادت بعد أن صارت بالارث ملكا عضوضا «ش»

(١) كتاب « الف ليلة وليلة » الوارد فيه ذكر هرون الرشيد مراراً عديدة قد ترجم الى أكثر اللغات الغربية وله عند الغربيين مقام أدبي رفيع لما حواه من وصف المعيشة العربيـة وعادات العرب الصرفة أيام العصر الذهبي في بغداد ، ورجال الأدب من الفرنجة على الجملة يعدونه ذخراً من علم الأدب الخالد في العالم . « المعرب »

اعوج والتوى . ولنا أجلى دليل على هذا ماحدث فى بلاد فارس حيث استحالت الوحدانية التى نادى بها محمد ، الى مذهب الشيعة ؛ فبات أهل فارس الشيعة على صلات واهية تكاد لا تربطهم بعالم السنة الاسلامى واستحالت الوحدانية أيضاً عند البربر سكان البلاد المغربية الأفريقية وغيرهم الى حال عبدت معها الأولياء ، وحدث مثل هذا عند المسلمين فى الهند . على ان جميع ذلك لما شدّد النبي فى تحريمه والنهى عنه نهياً قاطعاً .

وما كفى ماحدث من الاختلافات الدينية،وما أصاب صورة الرسالة النبوية؛حتى عمت البلوى بان مُنى الاسلام بتمزق الوحدة السياسية والانشقاقات الزمنية.فأوّل ماحدث من هذا النوع كان فى أوائل عهد الدولة اذ فرّ أحد المضطهدين من بنى أمية الىالاندلس حيث انشأ فى قرطبة خلافة [١] منافسة لتلك التى فى بغداد ، فاعترف مسلمو الاندلس قاطبة بهذه الخلافة حتى وبرابرة شمال افريقية . ومن بعد ذلك بعهد أنشئت خلافة أخرى فى مصر؛ هى الخلافة الفاطمية، وخلفاؤها منحدرون على مازعموا من فاطمة بنت الرسول. أما الخلفاء العباسيون فى بغداد فما برحوا يهبطون دركات الانحطاط ، ويفقدون من دولتهم وسلطانهم حتى صاروا بعد مدة من الزمن عبيداً مطاويع بين أيدى الترك — العنصر الغريب الداخل عليهم .

وقبل أن نشرع فى بيان كيفية انتقال الدولة من أيدى العرب الهجناء ، ذوى الدم المزيج ، الى أيدى الترك ؛ وخطورة ذلك عظيمة فى تاريخ الاسلام ؛ نؤثر أن نقول كلمة فى أسباب انحطاط التهذيب والمدارك العقلية عند العرب ، ذلك الانحطاط الذى رافقه تمزق الوحدة السياسية فى جميع الأدوار الأخيرة من العصر العربى.

كان العرب فى عصر صاحب الرسالة أمة كريمة الأخلاق ، سليمة الطباع ، نيّرة السجايا ؛ مقاديم يركبون كل صعب ، تحركهم روح الرسالة بغاية غاياتها ، وتبعث فيهم عزماً شديداً

(١) الحقيقة هي ان عبد الرحمن الأموى الذى فر من وجه بني العباس الى الغرب ، ولحق بالاندلس وأسس ملكا ودولة مستقلا بهما عن بني العباس ولقبه المنصور العباسى بصقر قريش ؛ اقتصر في دولته على الامارة ولم ينافس العباسيين فى الخلافة العامة بل كانت تتلى الخطبة في مساجد الاندلس باسم خلفاء بغداد امام الملوك من بني أمية الى أيام عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر الذى استفحل شأنه ، واتسع سلطانه ، واستولى على عدوتي الاندلس وأفريقية؛ واوغلت جيوشه في بلاد الافرنجة ، وصارأعظم ملوك زمانه ؛ فهوأول من تلقب من الأمويين في الاندلس بالخليفة وبايعه مسلمو المغارب بالخلافة « ش »

وغيرةَ متوقدةَ . كانوا أشداء العصبية الدينية ، وهى العصبية المعروفة فى كل جيل من الأجيال السامية ، وعلى شدة هذه العصبية ، فانهم لم يكونوا فيها على غير هدى ؛ بل كانوا مستبصرين يستنيرون بنور العقل وهدايته ، ومتمسكين تمسكا شديداً بمعتقدات دينهم وأركانه وأصوله ؛ غير ان دينهم هذا انما كان ديناً سهل الاكتناه والمأخذ ، واضحاً جلياً ؛ كان جوهر تعاليم محمد الوحدانية مع السنة المعلومة . فالاعتقاد كل الاعتقاد بأن لا اله الا الله ، و بأن محمداً رسوله [١] من لدنه كما أنزل فى القران ، والقيام بالفرائض المسنونة المعينة ؛ كالصلاة ، والصوم ، والحج ، انما هذا فحسبُ هو جملة الأركان التى تألف منها الاسلام الذى كان عليه العرب يوم أصعدوا فى الأرض يفتحون العالم الشرقى

فالاسلام ، وهو هذا الدين البيّن الصريح ما كان ليقيّد عقل العربى و يلقى عليه سجوفا فوق سجوف . والعربى كان قد أدرك حالاً ثار فيه جده ، واشتعلت غيرته ، فبات توّاقا الى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها ، والتبسط فى شؤون الحياة وتوفير أحوالها ، والتكيف على حديث مقتضياتها ، والخروج بها عما ألفه أزماناً فى فيافى الصحراء وكثبانها . لهذا لما نشر العرب فتوحهم ومدّوا سلطانهم على الاقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التنعم بالنعم المادية واستلذاذ الترف ورخاء العيش فحسبُ ، بل عكفوا جادين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة . فنشأ عن جميع هذا الجد والترقيات ان أخرج للناس تهذيب عربى سام . فاضاءت العقول وازدهرت ازدهاراً كان فخر الحضارة العربية ، وواسطة قلادتها ودرة تاجها . وكان ردح من الزمن كانت فيه هذه الحضارة مشرقة الشموس ، يانعة الثمار ، وارفة الظلال . فسادت الحرية العقلية ، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية ، ووضعت القواعد والأصول ، واستنبطت الأحكام . بيد ان هذا لم يكن من صنيع العرب وحدهم ، بل شاركهم فيه كثير ممن كانوا متظللين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا فى عهد ملوكهم قبل الفتح الاسلامى يذوقون الأمَرّين ، و يسامون خسفاً شديداً فى سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التى كانوا يخالفون فيها النصرانية البوزنطية والمجوسية الفارسية

(١) الرسالة النبوية هي من عند الله . وهى غير الالوهية إذ لم يقل محمد انه إله بنفسه بل كان يتحاشى قولا مثل هذا ؛ فقال انه آخر الانبياء والمرسلين ؛ أولهم آدم ثم قفى على أثره بموسى ثم بعيسى ؛ ثم بمحمد خاتم المرسلين كافة .

على أنه كان لهذا العصر الزاهر حد وقف عنده، ثم عرا شمسه كسوف فظلام مطبق، فظهرت فرق رجعية، فما برحت تستقوى وتناهض غيرها من الفرق الحرة حتى تغلبت عليها ، ثم أنشأت تسود سيادة شديدة ممتدة . وانقضت الأيام التى قامت فيها الفرق الحرة المعروفة على العموم بالمعتزلة (١) مستمسكة بلباب الاسلام وجوهره الصحيح ، وذاهبة الى أن العقل انما هو مقياس كل شيء . وقامت الآن الفرق الخلافية المحافظة من بعدها ذاهبة الى ان النقل والسنة انما هما مقياس كل شيء . وأخذ مَن هم على هذا المذهب ، وفيهم كثير من النصارى الذين دخلوا فى الاسلام وكانت أمزجتهم مابرحت مشربة روح دينهم البزنطى القديم ، يفسرون القرآن الكريم ويؤولونه ، ثم يؤولفون بين هذا التفسير والتأويل وبين السنة التى نقلتها الصحابة عن النبي ، وأوغلوا فى ذلك ايغالاً بعيداً . فنتج عن ذلك أن أصيب الاسلام بمثل ما أصيبت به النصرانية فى الأجيال المظلمة ، من تلبيس الدين عقائد غير عقائده ، ونسبة الآراء الدينية الجافة اليه وهو براء منها . فلا غرو اذا اشتد الخلاف واتسعت شقته وطال عهده بين الذين اعتصموا بالسنة والنقل فقاسوا عليهما ، و بين الذين جعلوا العقل نفسه مقياساً لكل (٢) شيء . واذ قد انتهى الحال بالاسلام الى مثل هذا ، فالغلبة الأخيرة انما باتت متوقعة وهى غلبة عقيدة السنة والنقل على العقل . وفى الواقع انّ تاريخ السنة والتقاليد (٣) فى كل بلد من بلاد الشرق انما هو تاريخ السير نحو أدوار الاستبداد وعواقبه المشؤومة . كانت قد تلبدت فى سماء الشرق سحب سوداء قاتمة ، فلما أشرقت عليها شمس الاسلام الأولى من الصحراء حقبة من الزمن ، مزقتها و بددتها ، وكيف لا تضمحل تلك

(١) يقصد المؤلف بالمعتزلة جميع الفرق الحرة التي نشأت في الاسلام — « المعرب »

(٢) لا شك فى ان الكثيرين من علماء السنة غالوا في التقليد والمحافظة على النقل ، ولكن مما لا شبهة فيه أن مرجع الايمان عند الجميع هو العقل ، وهو مشرق الدين ؛ ومناط اليقين ؛ وبدونه لا يقوم اسلام ولا يعتد بايمان ، والقرآن العظيم من أوله الى آخره يناشد بالعقل، ويحاكم الى العقل؛ ويهيب بالخلق الى التأمل والنظر؛ وقد رأينا كثيرين من الأئمة مثل حجة الاسلام الغزالي وغيره ممن ليسوا بمعتزلة يقولون اذا تعارض العقل والنقل أول النقل حتى يطابق العقل « ش »

(٣) ان لعقائد السنة والنقل والتقليد عوامل وراثية عنصرية ؛ ومكانية اقليمية ، وللبيئة والوراثة تأثير شديد فى نشوء الانسان وتحوله فى الشرق على الخصوص . وليس هنا موضع الاتيان على بيان هذه العوامل انما يمكن مريد الاطلاع أن يقف على ذلك حق الوقوف فى مؤلفات العلامة (ألبسورث هنتنغتن Prof. Huntington.)

السحب وقد سادت الحرية العقلية والفكرية ، غير أنه بعد انقضاء هذا الدور دور النور والحرية ، عادت الغباوة والعقائد والأوهام تملأ فضاء الشرق وتستولى على عقول أبنائه . ومما ساعد على ذلك استحالة الخلافة الاسلامية من الشورى السياسية الصحيحة الى الاستئثار فالاستبداد .

فلما رسخ الاستبداد فى الدولة ، وجاوز أفقها بعيداً ، أخذت آثار ذلك تبدو جلية فى موضع موضع ، والاستبداد بطبائعه هو عدو الحرية وقاتلها أينما وجدت ، سواء كانت حرية العقل والفكر أم حرية العمل . وكان بعض الخلفاء من بنى أمية فى دمشق ، وقد استهواهم مذهب المعتزلة فى بدء الأمر ، يوسعون فى حرية الفكر ويرتاحون اليها ، ولكن لما أخذت روح المعتزلة تظهر بمظاهر السياسة، اجفلوا منها أيما اجفال وأضمروا لها القضاء عليها فالمعتزلة حقا لم تقصر أمرها على الآراء الفلسفية فحسبُ بل تخطت ذلك فانشأت ترفع عقيرتها منادية بالرجوع الى حكم مثل حكم الخلفاء الراشدين ، يوم كان أمير المؤمنين يُنتخب للامارة انتخابا ولا يرثها وراثة وهو منقاد لرأى الأمة ونازل على حكمها وشوراها . وقام الخوارج وهم من قلب شبه الجزيرة ومن أشد العرب عصبية يؤيدون تراثهم من حرية الصحراء ويذودون عنه وينادون بتوسيع نطاقه ، غير معترفين بسلطة الخليفة ، ولامبالين بهيبة أمير المؤمنين(١) وذاهبين فى السلطة الى أبعد من الحكم الجمهورى نفسه

(١) أول من خرج على الامام بل على الأمامة من حيث هى؛ قائلين لا حكم إلا لله ولا لزوم لنصب الخليفة هم الفرقة التي قاتلت سيدنا علياً رضى الله عنه ، ومن هناك بدأ تاريخ الخوارج الذين لعبوا دوراً عظيما في الاسلام وكانوا فرقا متعددة ، يختلف بعضها عن بعض بمبادىء معلومة ، ولما طال النزاع بين على ومعاوية على الخلافة ، نهض من هؤلاء الخوارج من قالوا قد تمادت هذه الفتنة التي فجرت جداول من الدماء بين المسلمين وما السبب فيها سوى على ومعاوية ، ثم هناك عمرو بن العاص الذي هو من موقدي نارها ، فلنقتل هؤلاء الثلاثة ولنرح الاسلام منهم . فانتدب لذلك منهم ثلاثة قصدوا اغتيال الثلاثة أما معاوية فنجا بكونه يوم أريد قتله لم يأت الى المسجد للصلاة وبعد ذلك جعل لنفسه مقصورة ليكون بمنجاة من المكيدة ، وأما عمرو فاشتبه على القاتل برجل اسمه خارجة فقتل خارجة خطأ بدلا عنه ؛ وأما أمير المؤمنين فاصابه القاتل وفدحت به المصيبة كما هو معلوم وقال الشاعر :

وليتها إذ فدت عمراً بخارجة ... فدت علياً بمن شاءت من البشر

وكان قد رسخت روح الفوضوية فى الخوارج الى أن صاروا يغتالون الملوك وأرباب السلطة مفادين

فنشأ عن ذلك ان الخلفاء أخذوا يستدنون اتباع الفرق المحافظة ويقربونهم منهم ، ويعتضدون بهم، ويقصون عنهم الفرق الحرة كالمعتزلة ويشددون عليها النكير ، ويستعينون بالمشايعين لهم من العرب الهجناء ويشدون بهم أزرهم ، مؤثرينهم على العرب الصُرَحاء من شبه الجزيرة ، حتى باتت الحكومة فى الدولة العباسية حكومة دينية مستبدة ، فرسخت عقائد الدين ملبسة لباس التقاليد وقُرّرت حدودها ، واضطهد أتباع مذاهب المعتزلة وقتّلوا تقتيلا . وما كاد يكون القرن الثانى عشر من التاريخ المسيحى حتى امحت كل معالم الحضارة العربية ، وقوّضت أركانها ، وجف كل عنصر من عناصر الحياة فيها ، وقضى على كل فكر مبتكر ، ورأى مبتدع . وعاد لا يسمع صوت من أصوات المعتزلة ، ولا يرى لأحد منهم أثر ، وهجع العقل الاسلامى هجعته الطويلة ، وما زال مغرقاً فيها حتى استفاق اليوم استفاقته الكبرى مذعوراً .

فى أوائل القرن الحادى عشر م . تجسم انحطاط الحضارة العربية تجسماً تاماً . وبعد ان اختفت الروح العربية الأولى التى هبت من الصحراء هبوبها العجيب ، أخذ العرب الهجناء يرون ملكهم السياسى يذهب من أيديهم الى أيدى غيرهم من الدخلاء ، وكان هؤلاء الدخلاء الوارثون للدولة العربية هم الترك . والترك هم العرق الغربى من الجيل الطورانى ، جيل القبائل الرحالة التى كانت منذ عهد لا يعرف أوله تجوب أنجاد أواسط آسية وشرقيها ، ولما كان العرب يفتحون فارس ، تحاكّت قوادهم وجنودهم بالترك الرحالة ، وهؤلاء عهدئذ يعوجون المفاوز محاولين جواز حدود فارس الشمالية الشرقية ، غير أن العرب وهم فى ابان سلطانهم ، ويخشع غالب قطين الأرض لذكر خلفائهم ، ما كانوا ليرهبوا الترك أو يحسبوا

بأنفسهم متباهين بغيلاتهم مترقبين الأجر على عملهم حتى قال بعضهم فى عبد الرحمن بن ملجم قاتل على كرم الله وجهه :

لله در المرادي الذي اخترمت ... يداه مهجة شر الخلق انسانا
ياضربة من مريد ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

ولا أحسب هذا القول إلا من شدة ولعهم بمناهضة السلطة ، ولمجرد غلوهم فى انكار الأمامة التى كان على مثالها ، والا فقل ان وجد فى التاريخ البشرى مثل على بن أبي طالب فى كمال صفاته ، وكثرة فضائله ، وعلو مزاياه ، ومن كان يقدر أن يقول في على شيئاً ، فأنت ترى ان هذه المنازع الفوضوية وروح مغالبة السلطة التي نراها فى الغرب الاوربي اليوم قد عرفها الشرق أيضا (ش)

لهم حساباً ، بل رأوا فى الترك نفعاً لهم ، والترك قوم عرفوا بالجفاء والقسوة ، لا يحسنون شيئاً أكثر من طاعة آمرهم والقتال كالمجانين ، فلهذا ما كان الخلفاء لينفروا منهم فى أول الأمر بل أخذوا يستأجرون منهم جنداً من الطراز الأول لاعزاز الجيش والذود عن ذمار الدولة ، ويستكثرون منهم بطانة وحرساً .

قلنا ان العرب ما كانوا ليرهبوا الترك فى أول الأمر ، ولكن لما وهن عظم الخلافة وذهبت ريحها تحولت الحال فآلت غير مال، اذ تمكن الترك المستأجرون من الحلول فى كل موضع قوى من مواضع الدولة ، ولا سيما فى الجيش العربى ، فانشأوا يتصرفون تصرف السيد الآمر والحاكم المطاع، ففتحوا أبواب التخوم العربية الشرقية،ومهدوا السبيل تمهيداً لابناء جنسهم ، فأخذ هؤلاء يتدفقون كالموج وعلى رؤس طوائفهم قوّاد أمراء ، وطفقوا يعيشون فى البلاد أحراراً أنى شاءوا ، ويقيمون حيث طاب لهم المقام ، ويجوسون خلال الديار ، ويسلبون وينهبون ، ويفجعون ويفتكون .

ولما شرع الترك يدخلون فى الدولة كانوا يقبلون سريعاً على الدخول فى الاسلام أيضاً ، بيد أن الاسلام لم يدمث من جفائهم ولم يقوّم من أودهم كثيراً ، ومتى ماجئنا نعتبر شأن هؤلاء الترك الدخلاء يجب علينا أن نفرق بينهم و بين الترك العثمانيين المعاصرين ، سكان القسطنطينية وآسية الصغرى . فان الترك العثمانيين اليوم ، انما يجرى فى عروقهم دم مزيج ، بعضه أوروبى وبعضه الآخر اسيوى غربى ، ويخالط مزاجهم عنصر غربى ، وعنصر شرقى عربى ، فهم والحالة هذه ، يختلفون اختلافا كبيراً ، تهذيباً وخلقاً ، عن آبائهم وأجدادهم الأولين . وعلى هذا كله فان العثمانيين المتأخرين مابرحت فيهم السيم الطورانية الخشنة التى يتميز بها ترك ققفقا سيا المعروفين بالتركمان عمن سواهم من الترك المقيمين فى غربى آسية

فكيف كان التركى القديم بطباعه وسجاياه ياترى ؟ انما كان فى المقام الأول جنديا مجرباً ومقاتلا باسلاً، وهو لم يكن فى ذلك العهد ذا فكر ثاقب وعقل مبتكر ، بل كان فيه شىء من حب الاطلاع والاستشفاف ، فلم يقتبس غير القليل من الآراء العسكرية فى شؤون القتال ، فالطاعة العمياء ثم الطاعة العمياء وقتال الاستبسال فحسبُ ، هما جميع ما كان عليه التركى يوم تقدم ليتناول قيادة الاسلام من الخليفة العربى الضعضع، الواهن العظم .

حقاً ، ما دهى الاسلام وسائر العالم معاً ، مثل هذه الداهية ، وما نزل بالحضارة العربية

مثل هذه النازلة ، وكفى الاسلام انه دان لحكم أمة متعصبة مغالية جافة جاسية، لم يكن الرقى مستطاباً فى ظل دولتها[١] ، فبات ضرباً من ضروب المستحيل . أجل ، لاينكر أن الاسلام قد اعتز بقوة حربية ، كبيرة جديدة ، ولكن قد سيء التصرف بهذه القوة حتى جنت على الاسلام جنايات هائلة ، وجرحته جروحاً كبيرة فبات نزيفاً يتقهقر سريعاً . وأول عمل قام به الترك الزاحفون هو اكتساحهم آسية الصغرى ، واستيلاؤهم على بيت المقدس فى أواخر القرن الحادى عشر م [٢] . غير أن جانباً من آسية الصغرى مابرح حتى اليوم قسماً من العالم النصرانى . ولما أخذ سيل الفتح العربى يتدفق فى القرن السابع م من شبه الجزيرة ، فما يزال يطمو على سورية حتى بلغ جبال طوروس ، فصدمه الروم هناك ، اذ استجمعت الامبراطورية الرومانية الشرقية من قواها ما استجمعت واستطاعت أن تقف الفتح العربى عند حد ، عند تلك الجبال ، على عناء وتعب شديدين . أما الآن فاجتاز الترك الحدود البوزنطية ودوّخوا آسية الصغرى تدويخاً ، وأخذوا يهددون القسطنطينية وهى الحصن الشرقى الحريز للنصرانية [٣] . وكانت بيت المقدس فى أيدى المسلمين منذ الفتح العربى (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر يرعى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيما رعاية [٤] ، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره ، فلا ضيقوا على النصارى ولا نالوا بمساءة طوائف الحجاج

---

(١) كما أن المؤلف وغيره من كتاب الافرنجة يجعلون انحطاط الاسلام نتيجة استيلاء الاتراك عليه ، كذلك بعض الاتراك الجدد يجعلون سبب انحطاط تركيا هو صبغتها الاسلامية ، وعلى الاخص صبغتها الاسلامية العربية ، ويقولون اذا وجب أن نبقى مسلمين وجب أن ننزع من اسلامنا ديباجته العربية . وعلى هذا بدأوا في هذه الايام بقراءة الخطب فى صلوات الجمع بالتركية . ولسنا الآن فى مقام تفنيد مزاعم هذه الفئة . «ش»

(٢) اكتسح الترك آسية الصغرى بعد انتصارهم على الجيش البوزنطى ، فسحقوه سحقاً فى معركة « منزيكرت » سنة ١٠٧١ م . واستولى الترك السلجوقيون على بيت المقدس سنة ١٠٧٦ .

(٣) وقد كان العرب حصروا القسطنطينية ست مرات ، واستشهد أبو أيوب الانصارى فى حصارها . ومقامه معروف فيها « سلطان أيوب » وأسس لعهد العرب جامع غلطة «ش»

(٤) لما فتح المسلمون القدس جاءها عمر رضى الله عنه وطاف فى معاهدها المقدسة . ولما كان فى كنيسة القيامة جاء وقت الصلاة ، فابتغى محلا ليصلي فدعاه البطريرك صفرونيوس الى مكان يصلي فيه داخل الكنيسة فقال له : لا ، يأتى المسلمون بعدى فيقولون هنا صلى عمر فيدعون بالكنيسة وخرج عمر من الكنيسة وصلى فى مكان بنى فيه جامع فيما بعد . « ش »

الوافدين كل عام الى بيت المقدس من كل فج من أفجاج العالم النصرانى ، بيد أن الترك بعد فتحهم البلاد ، لم يجروا على مثل ما جرى عليه العرب من قبلهم ، فالترك لما كانوا لا يرون لذة فى غير السلب وكره غير المسلمين ، أخذوا يستلبون الأماكن المقدسة ، ويمتهنون حرمة النصارى ، ويحولون دون الحج ، فبات الحج مستحيلاً

فاكتساح آسية الصغرى والاستيلاء على بيت المقدس معاً، انما نزلا نزول الصاعقة على النصرانية، فقامت لهذا الخطب وقعدت ، وطفقت أوربة تميد من أقصاها الى أقصاها مشتعلةً بغضا دينياً ومحتدمة غضبا وحنقاً ، وقام ألوف مؤلفة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور ناراً دينية ويحضون على حماية بيت المقدس وقبر المسيح ، حتى جن الغرب النصرانى جنونه الكبير ، والتهبت الغيرة الدينية فى كل جارحة من جوارحه وعرق من عروقه ، وغشّى التعصب على أبصاره ، فهب يبعث البعوث الصليبية ، والجحافل الجرارة داركاً ، لقتال الشرق الاسلامى فى سبيل الصليب .

فداهية الترك ، ونازلة الحروب المقدسة الصليبية ، كانتا شر طعنة طعن بها صدر العالم ، وسببا دائماً فى سوء العلاقات بين الشرق والغرب (١) . ففى سنة ١٠٠٠ م . كانت العلاقات النصرانية الاسلامية أخذت تستقيم وتسير سيراً منبئاً بالكف عن العداء ، ومبشراً بازدياد تحسن الحال وخير المصير . وكانت الأحقاد ، التى ثارت على أثر تدفق الاسلام ، على حال التلاشى والاضمحلال ، وظهر عهدئذ ان الحدود الجغرافية بين عالم الاسلام وعالم النصرانية كادت تستقر ، فليس أى الفريقين يطمع بعدُ فى الخروج على الآخر ، ولم يبق ثمة أمر من أمور النزاع شأنه خطير وكبير غير الاندلس ، حيث كان هناك مصطدم الاسلام والنصرانية المصطدم الأخير ، بل على كل كانت الاندلس اذ ذاك قد باتت تعدُّ حداً فاصلا بين العالمين ، وعلى الجملة فقد كانت علائم ازدياد الوئام والطمأنينة بين الاسلام والنصرانية متجليةً واضحةً ، وناحية منحى جيداً ، فلو قدّر لهذه الحال أن تستمر وتسير بحيث يسكن كل عالم الى أخيه ، لكانت أتت بنعمة من النعم الكبرى الباقية على الحضارة والانسانية . فالعالم الاسلامى كان مابرح حتى ذلك الأوان سابقاً لاوربة الغربية سبقاً بعيداً ، وفائقاً عليها علماً وتهذيباً ،

---

(١) لم تكن أوربا في وقت من الاوقات أقل تعصباً من الترك وان ظن بعضهم خلاف ذلك (ش)

بيد أن الحضارة العربية كان قد أخذ الكمد والكلف يبدوان عليها ، فى الحين الذى طفقت فيه نفس الغرب النصرانى تجيش ، ونهمته تشتدّ ، للافلات من ربق جهله ، والخروج من ظلمته وبربريته . فأى خير كان أعظم من ذلك الخير الذى كان يرجى من الود الوليد الذى ظهر فى القرن الحادى عشر م . بين الشرق والغرب فيما لو قيض له النمو أمداً بعيداً ؟ بل ياترى أى نفع كان أجلّ من تقارض العالمين بعضهما البعض العون واقتسام السراء والضراء ؟

أجل ، لو كان ذلك لكان به نجاةٌ كبيرةٌ ، ولكانت الحضارة العربية الاندلسية ، وفيها علوم اليونان والرومان ، قد أيقظت نهضتنا من مرقدها قبل استيقاظها بعهد طويل ، ولكانت روح الغرب التى تمشت فى جوارحه فى الأجيال الوسطى ، تلك الروح الجبارة ، هبت فتناولت الشرق وتغلغلت فى أحشائه متغلغلها فى الغرب ، فنجت الحضارة الاسلامية من متخبطها ومتعثرها فى ذلك الحلك الداجى الذى طال عهده .

غير ان القدر جرى بغير ذلك . فقد اختفى العربى الدمث الخلق ، اللين العريكة ، وجاء من بعده التركى المتعصب الخشن القاسى ، فعاد الاسلام يَثِبُ ويهتاج ، ولكن شتان بين اهتياجه الأول بالأمس ، واهتياجه اليوم ! أما بالأمس فقد كانت تحرك العرب روح الرسالة وفضائلها ومثلها العليا ، وأما اليوم فما يحرك الترك انما هو روح الطمع والفتك وحافز الاستيلاء والغصب . ومن ذلك الحين بدأ العراك يشتد ، وناره تتقد بين الدولة التركية ، والحضارة الغربية التى كان نشوءها مرجواً لها عهدئذ ، ودام هذا العراك قروناً . وما كانت الحروب الصليبية سوى رد الغارة على الترك الذين أخذوا منذ ذلك العهد يوالون غاراتهم على النصرانية برهة ستمائة سنة ، حتى صدموا الصدمة الكبرى عند أسوار « فينا » سنة ١٦٨٣ م وقد كان من الطبيعى أن تأصل العداء ، واستحكمت الشنأة ، واستقر التعصب بين الاسلام والنصرانية ، مما مابرحت جراثيمه حية ، وسموم ثماره نامية حتى الآن . وهذا النضال الذى نتلو أنباءه فى صحف الأخبار اليوم ، النضال القائم بين مصطفى كمال ومقاتلته الوطنيين ، و بين اليونان فى آسية الصغرى ، انما هو حلقة من سلسلة حروب بين الاسلام والنصرانية ، حلقتها الاولى كانت فى فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة ، وحلقتها الأخيرة الى اليوم هى هذه الحروب بين الترك واليونان فى أغوار الاناضول وانجادها .

وليس من غرضنا فى هـذا الـكتاب أن نبحث فى تاريخ الحروب التى قامت بين الترك والنصرانية ، ولـكن ما يجب حفظه فى البـال هو ان تلك الحروب ظلت الى اليوم عداء مزمناً ، وعلة دائمةً بين الشرق والغرب

أما الشرق الاسلامى فقد قدّر له بعد أن دارت الأيام بحضارته العربية ، وحنا عنقه للنير التركى الثقيل،أن يلاقى فوق ذلك أهوالاً أشدّ وأفدح ، منهالةً عليه كغيرها من الجيل الطورانى . ففى أواخر القرن الثانى عشر ، هبت العروق الشرقية من الجيل الطورانى ، ملتفةً ملتئمةً حول بعضها بعضاً ، مكونةً وحدة دامت مدةً ، وعلى رأسها زعيم جبار عات هو جنكيز خان . اتخذ هذا الطاغية « الطاغية الذى لايغلب » لقباً له ، وطفق يزحف ناهباً العالم نهباً . فاكتسح فى أول أمره الصين الشمالية وأنزل بها هولاً شديداً ، ثم اتجه غرباً ، زاحفاً مدمراً ، وناهباً مخرباً ، فرأى العالم من بلائه مالم ير مثله من عات قبله . هذا هو النهوض الذى نهضه المغول فى ذلك العهد ، وهذا اسمهم مابرح حتى اليوم اذا ماجرى على الألسنة ، وجفت له القلوب واقشعرت منه الأبدان .

زحف جنكيزخان بكتائب من الجنـد لاتحصى ، مستصحباً مهرة المهندسين الصينيين لصنع البارود فى تخريب المدن والحصون فـكان وفرسانه سيلاً جارفاً وناراً آكلةً ، وأعظم بلاء حلّ بالبشرية.لم تكن غاية المغول الفتح والاستيطان، حتى لا الغنم ولا الاستلاب فحسبُ، بل هراقة الدماء ، وتعذيب الأرواح ، ودرس البلاد وملاشاة العمران . فذبحوا الشعوب تذبيحاً ودكوا المدن دكا بحيث لم تنج بلاد حـل فيها المغول من الهول ، وكان شانهم فى قطر شأنهم فى سائر الأقطار .

ومات جنكيزخان بعد بضع سنوات من زحفه هذا، فقام خلفاؤه من بعده وانتهجوا نهجه فى الزحف وتعميم النازلة . فالمغول حقاً طعنوا الاسلام والنصرانية معاً طعنة خارقة ، اذ حاق بأقطار شرقى أوربة مثل ماحاق بغيرها من الأقطار الأسيوية ، وتلك آثار الهول المغولى فى روسية مابرحت شاهدة على بربرية المغول وهمجيتهم . غير أن الهول الذى نزل بالعالم الاسلامى كان أشد منه فى العـالم النصرانى ، فالمغول بزحفهم على روسية لم يجاوزوا تخوم بولندة قط ، فنجت بذلك أوربة الغربية ؛ لـكن ما أريد لأوربة الغربية من النجاة لم يرد مثله لجانب من العالم الاسلامى . ان العاصفة المغولية بهبوبها من الشمال الشرقىّ فى آسية

استطاعت أن تطبق العالم طراً ، من الهند حتى مصر ، مقتلعة جارفة كل شيء فى سبيلها . وقد كانت فارس ، وهى اذ ذاك مابرحت منهب الكتائب التركية ، تحاول النجاة بحضارتها الوليدة فدهمتها الجوارف المغولية غاشية ماحقة ، فتلاشت قوة فارس وتضعضع كيانها أيما تضعضع ، ثم تقدم المغول نحو العراق ليعطوا بغداد ، مدينة الحضارة والتهذيب ، نصيبها من الهول . وكانت بغداد عهدئذ قد ذهب الكثير الزاهر من عزها ومجدها ، فذوت نضارتها من بعد هارون الرشيد ، وتنكر الدهر لذلك المليون من السكان ، بيد أن بغداد ، على كل هذا ، كانت مابرحت مدينةً عظيمة وعاصمةً كبيرةً ، فيها كرسى الخلافة ومركز الحضارة العربية ، فانقضّ عليها المغول سنة ١٢٥٨ م وأعملوا فيها أيدى التخريب والتدمير فذبحوا أهلها تذبيحاً . وكادوا يمحونها محواً من على وجه الأرض . على أن هذا لم يكن جميع البلاء . كانت بغداد عاصمة العراق ، وكانت مابرحت فى العراق سدود الرى العجيبة من فجر التاريخ (١) ، تمثل مهارة بناتها الأولين وقدرتهم ، وتقى البلاد من مهابّ أعاصير الصحراء . فكان العراق على الدوام وفيه هذه السدود الكبرى جنة الأرض وهوى العالم . وقد تعاقب الفاتحون الكثار فى البلاد دوراً بعد دور وعصراً بعد عصر فكان من شأن كل فاتح أن يبقى على هذه السدود ، لا بل يعظم شأنها وشأن بناتها ، ويعتبر كل الاعتبار قدر نفعها وخيرها للبلاد . فلما غشى المغول العراق سرعان ماقوضوّا هذه السدود تقويضاً بحيث لم يبقوا منها حجراً على آخر . فعفت أقدم حضارة عرفها العالم ، وخُرّب مهد التهذيب البشرى ، ومحيت آثار أعمال جدّت فى سبيلها البشرية ثمانية آلاف سنة على الأقل ، فخوى العراق خواءه هذا المشهود حتى اليوم ، وبات مرتدياً حلة من الجفاف المحرق ومنشأ لأوبئة الحمى المنتشرة متى ما كان فيضان ، يسكن قراه الحقيرة أقوام من الفلاحين ، ويجوب رحابه رحّالةٌ من البدو ، يرعون ماشيتهم أرضاً كانت من قبل منابت الحضارة والتهذيب .

فالنازلة التى حلّت ببغداد انما كانت ضربة قاضية على الحضارة العربية ولا سيما فى الشرق . وكانت هذه الحضارة قد أصيبت ، من قبل نازلة المغول ، بضربة أخرى فى الغرب

(١) يوجد فى العراق ترعة دارسة منسوبة الى الرشيد . حدثنا بعض مهندسى الالمان الذين زاروا تلك البقاع أيام الحرب أنها مما تعجز الحكومات الحديثة عن القيام بعمل مثله فى العمق والطول والعرض «ش»

وهى نازلة الاندلس العربية. وموجز ذلك أن الاسلام بعد انتشاره فى جميع افريقية الشمالية، جاز البحر وطبق اسبانية من أقصاها الى أقصاها ، فخفقت فيها أعلامه وأشرقت شموسه وازدهرت الحضارة العربية الاسلامية الاندلسية ازدهاراً كاد لا يُرى مثله فى أى قطر آخر من الأقطار الاسلامية الشرقية. وكانت قرطبة عاصمة الاندلس. وفيها كرسىّ الخلافة الغربية. فبلغت هذه العاصمة من العظمة والمجد مبلغاً كبيراً ، حتى لعلها كانت تفوق بغداد عينها رقياً وحضارة . وقد عاش مُلْك العرب فى الاندلس قروناً عديدة ملكاً زاهراً آمناً ، والعرب حاصرون للنصارى فى الكور الجبلية الشمالية من البلاد . فلما بدأ سلطان العرب يضعف ويونى ، وقوتهم تهين ، أخذ النصارى يدفعون المسلمين جنوباً مستردين منهم البلاد كورة فكورة . وكانت معركة « تولوز » سنة ١٢١٣ م نخضدت فيها شوكة العرب ، وفت فى عضدهم فتاً كبيراً . ثم من بعد ذلك صارت تتوالى انتصارات النصارى على غير عياء حتى سقطت قرطبة فى أيدى المستردين من نصارى اسبانية المتعصبين ، فبادر هؤلاء الى استئصال شأفة الحضارة العربية الاندلسية ، على نحو ما كان يقوم به المغول عندئذ فى الشرق . فذهبت الاندلس من أيدى المسلمين ، فلم يبق لهم من جميع ذلك الملك الذى كان زاهراً سوى رقعة صغيرة واقعة فى الطرف الجنوبى من البلاد وهى غرناطة ، التى بقيت فى حوزة المسلمين حتى استكشاف كولمب بلاد اماركة ، ثم بعيد ذلك طردوا منها ، فاختفت على الأثر معالم الحضارة العربية فى الغرب .

وكان الشرق الاسلامى مازال يشقى وتتوالى عليه فجائع المغول وأهوالهم وأمامنا الآن آخر داهية من دواهيهم ، وهى زحف تيمورلنك فى أوائل القرن الخامس عشر م . ففى هذا العهد كان المغول الأول الغربيون قد صاروا مسلمين ، غيرأن الاسلام لم يذهب بالكثير من وحشيتهم وبربريتهم واقتفى تيمورلنك آثار جنكيزخان فى تذبيح الخلائق وتدمير البلاد ، فما كانت نفسه تغتبط بشىء اغتباطها بمناظر الاهرام من جماجم البشر ، وأى هرم أكبر من ذلك الذى شيّده تيمورلنك من سبعين الف جمجمة بعد تخريبه مدينة أصبهان فى بلاد فارس وانقضى عهد المغول الهائل فى الشرق الإسلامى ، ثم جاء الترك بدورهم زاحفين.

الترك العثمانيون هم من أصل القبائل التركية العديدة التى جاءت آسية الصغرى من بعد سقوط المملكة الرومانية البوزنطية . وغاب الفضل فى تشييد المجد الذى شيدوه وعزهم الذى

بنوه انما هو عائد الى عديد سلاطينهم الذين كانت لهم الغلبة على سائر القبائل المجاورة ، فاستطاعوا بذلك أن يوحدوا جميع القوى التركية العظيمة ، ثم طفقت فتوحاتهم تمتد شرقا وغرباً . وفى سنة ١٤٥٣ م . دك الترك صرح الامبراطورية البوزنطية دكاً ، وفتحوا القسطنطينية ، وخلال قرن تال فتحوا الشرق الاسلامى من فارس حتى مراكش [١] ، ودوخوا شبه جزيرة البلقان من أقصاها الى أقصاها ، وتغلغلوا فى أحشاء هنغارية [٢] حتى بلغوا أسوار « ڤينا » . واستطاع الترك العثمانيون ما لم يستطعه أبناء عمهم المغول من قبلهم فبنوا مملكة منيعة الأركان ، غير أن ملكهم هذا كان فيه جلف وبربرية وذلك لبعدهم عن روح التهذيب والتثقيف ، فانهم لم يبرعوا فى شىء براعتهم فى فنون القتال ، بل كانوا فيها من أشهر الأمم وأشدها قوة وبأساً ومراساً ، ولما كانوا فى ابان مجدهم وسلطانهم كانت خيالتهم ورجالتهم من أفضل طراز الجيوش التى شهدها العالم ، فارعبوا بها أوروبة رعباً شديداً .

وفى هذا العهد كانت أوروبة قد بدأت تستيقظ وتسير سير التقدم الصحيح، وتنشىء حضارةً متدرجة مدارج الرقى والثبات ، وبينما كان الشرق الاسلامى يئن من الأهوال المغولية والفتوح التركية ، كان الغرب النصرانى يشعل مصابيح النهضة ، ويعد أسباب استكشاف أماركة وطريق الهند ، ذلك الاستكشاف الخطير الشأن ، العظيم النتائج مما لا يخفى على أحد ومما يزيده خطورة هى الحالة التى كانت عليها أوروبة فى ذلك العهد ، فانه لما كان كولمب وفاسكود وغاما يقومان بأسفارهما البحرية قبيل ختام القرن الخامس عشر ، كانت الحضارة الغربية محاصرة فى نطاق ضيق لا تجوز دائرته القسم الغربى من أوروبة الوسطى ، وهى اذ ذاك فى أكره يوم من أيام نضالها وجلادها مع البربرية الطورانية . كانت روسية تمزقها سنابك خيول التتر المغول [٣] وكان الترك ، وهم ثملون بشوكتهم الحربية يغيرون منتصرين

(١) استولت الدولة العثمانية على جميع شمالي أفريقية من بوغاز السويس الذي صار اليوم ترعة الى آخر حدود ولاية وهران من المغرب الأوسط. ولكن المغرب الاقصى بقي فى حوزة أصحابه «ش»

(٢) بقيت بلاد المجار فى حوزتهم ١٥٠ سنة وفيها حمامات معدنية من بنائهم الى يومنا هذا وقبور بعض المجاهدين « ش »

(٣) كانت الروسيا هذه التى صارت فيما بعد أعظم دول الأرض تدفع الجزية للمغول وملوكها يذهبون صاغرين الى حضرة ملوك المغول لأجل تقليدهم ملكهم . وقد أوغل المغول بعد اسلامهم فى بلاد الروسية

من الجنوب الشرقى مهددين قلب أوروبة شر تهديد (١) . هكذا كانت البربرية الطورانية مطبقة آسية وشمالى أفريقية وشرقى أوروبة يوم كانت الحضارة الغربية وهى طفلة فى المهد تستقبل حكم القضاء النازل فإما لها واما عليها . وعلى الجملة فقد كانت الحضارة الغربية تنازع فى سبيل بقائها أشد منازعة ، مولية ظهرها السور العظيم ـ سور الاقيانوس. فلذلك لا نكاد نستطيع أن نتصور حق التصور كيف واجه أجدادنا الاقيانوس ، وشرعوا يمخرون عبابه فى تلك الليلة الظلماء والفترة العصيبة من الأجيال الوسطى . لا جرم ، كانت أوروبة فى تلك الحقبة انما تذود عن بقائها بجميع ما كان فيها من قوة و بأس ، وترد عنها غاشية البربرية الاسيوية ، وما هى الا ليلة وضحاها ، فاذا بليل الخطر الاسيوى وقد انجلى ، وبالاقيانوس بات طريقاً آمنة ، فصارت أوروبة من بعد ذلك سيدة البحار ، ثم سيدة العالم بأسره .

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان ، فبعد أن ركبت أوروبة متن البحار ، سارت تستهزئ بجبابرة آسية وعُتاتها ، وكانت من قبل بردح من الزمن ترى النصر عليهم أبعد منالا من الجوزاء. ثم أخذت موارد الثروة تفيض على أوربة من وراء البحار ، فاتقد نشاط القارة واشتعلت قوتها . ولا يعجبن من ذلك وأوربة قد كشفت القناع عن أبكار بلدان فأخذت تستورد منها خيرات لا نفاد لها ، غذاء طيباً لحياتها وصناعتها ، فباتت والشرق شتان ماهما . فأى موارد كانت للشرق الاسلامى الخرب المهشم ، ازاء أماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند ؟ هكذا دبت الحياة دبيبها الهائل فى الحضارة الغربية ، فانتفضت وهبت من مرقدها ، وأخذت تخطو الى الأمام خطوات الجبابرة ، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطيماً ، وقابضة على طلاسم العلوم ، جادّة نحو العصور الحديثة

وعلى كل هذا ، فقد ظل الشرق الاسلامى جامداً ساكناً ، ملتفاً بخلقان الحضارة

الى الغرب حتى وصلوا الى بولونيا وليتوانيا ، ولا يزال الى يومنا هذا بضع عشرة قرية فى ليتوانيا أهلها مسلمون يبلغون بضعة عشر الف نسمة ، وأكثر منهم باق فى بولونيا ، وقد سألت بعض أدبائهم عن أصلهم فقالوا انهم من بقايا الغارات المغولية « ش »

(١) لما نزلت بحرية الترك فى طولون ونيس نجدة لفرنسيس الأول ملك فرنسا الذي دخل فى ذمة سليمان القانوني ، أمسك أهل تلك الديار عن قرع أجراس كنائسهم احتراماً للترك وبقيت القوة البحرية العثمانية أعظم قوة فى البحر المتوسط متصرفة بزمام هذا البحر وأوربا كلها ترعد منها فرقا الى واقعة ليبانت فى زمان سليم الثاني ، وهي الواقعة التى اجتمعت فيها أساطيل النصرانية على الأسطول العثماني فدمرته ولم ينج منه إلا القليل مع أنه كان أقوى منها بأجمعها وكان النصر متوقعاً له لا لها «ش»

العربية التى طال على خوائها الأمد، ومتسكعاً فى ديجور الظلام ؛ ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضعضعت قوته الحربية وبلغت حد التلاشى ، فوهن عظم الترك بعد الشدة ، واستغرقوا فى انحطاطهم ، فصاروا لا يستطيعون مجاراة أوروبة اختراعاً وارتقاء ، ولا تحسين فن من فنون القتال . وقد كرّت حقبٌ كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضاً قتالاً عنيفاً فلم يستطع الحملة على الشرق ، فعلت منزلة اسم العثمانيين علواً كبيراً ، بيد أنه لما أغار الترك على أسوار « ڤينا » سنة ١٦٨٣ م . ردوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنت أوروبة حينئذ أن هناك كان منقلب قوة المملكة العثمانية ، فأخذ جَد العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل . ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكرُّ على المملكة العثمانية الكرة بعد الأخرى ، منتاشاً منها ما استطاع ؛ ولو لم تشبّ نار الحسد بين الدول الغربية ، فتطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أعنى لو لم تختلف هذه الدول فى اقتسام الغنيمة ، لمزقت الامبراطورية العثمانية شر ممزق ، منذ عهد عهيد .

ثم توالت الأيام على العالم الاسلامى وهو هاجع لا يستيقظ ، حتى كان القرن التاسع عشر فتململ فى مهجعه مستثقلا وطأة الغرب ، وفى خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامى ، وتخضع لها الأقطار ، فى شرقى أوروبة وجزائر الهند ، وأما جلّ العالم الاسلامى ومعظمه ، من مراكش حتى أواسط آسية ، فقد ترك وشأنه ، فما كان ليعتبر قدر هذه الفترة السانحة ، بل ظل مستغرقاً فى هجعته ، مستهزئاً « بكفرة » أوروبة ، راضياً مسلماً أن شقاءه انما هو بمشيئة من الله ، لا يقيم لرقى أوروبة وزناً ولا يحسب لمستنبطاتها حساباً (١) .

هكذا كانت حالة العالم الاسلامى لما استيقظ استيقاظه فى مطلع القرن التاسع عشر فاذا بأوروبة تقف بازائه مجنونة بثورتها الصناعية ، مدججةً بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع ، و بين يديها الغاشمتين الطبيعة مسخرة ، مفضوحة أسرارها ، وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلها من قبل .

فكانت النتيجة المتوقّعة، اذ لما شرعت حملات أوروبة تغشى الشرق الاسلامى ، أخذت

(١) نعم كانوا يعللون انحطاطهم الذى هو نتيجة كسلهم وفساد أخلاقهم بكونه قدراً مقدوراً لا حيلة فيه اعتذاراً عما هم فيه من التهاون والغفلة وسوء الادارة (ش)

أقطاره يسقط الواحد منها تلو الآخر فى أيدى الحاملين عليه ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبة الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامى ، فاستولت بريطانية على الهند ومصر ، وعبرت روسية القوقاس و بسطت سلطانها على أواسط آسية ، وفتحت فرنسة شمالى أفريقية ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الاسلامية ، وما زالت الحالة هكذا ، حتى جاءت الحرب الكونية العظمى فكان شاهداً على آخر دور من أدوار اذلال الشرق الغرب . ولما وضعت شروط المعاهدات بعيد أن وضعت الحرب العامة أوزارها ، قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم تبق من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالاً صحيحاً ، فتمّ اخضاع العالم الاسلامى ـ ولكن على القرطاس ! !

اجل، تم ذلك على القرطاس فحسب . والسبب فى ذلك أنه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر ، لسرعان ماهبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمثلها من قبل . كان الشرق الاسلامى طول هذه المئات من السنين التى كرت عليه وهو حانٍ عنقه للغرب ، تتطور قواه الباطنية تطوراً عظيما و ينفعل بعضها ببعض انفعالا كبيراً ، حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلاً .

وهذا المد ، مد بحر المطامع الغربية الطامى ، قد غالى فى ايلام الشرق مغالاة شديدة، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيراً ! ! ودار الشرق الاسلامى حول نفسه فرأى تعاسة حاله وما هو حالّ بساحته . فاخذت نفسه تجيش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه تثور ثوراناً عجباً بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام فى كل رقعة من رقاع العالم الاسلامى ، فهب الـ ٢٥٠،٠٠٠،٠٠٠ من اتباع النبى محمد ﷺ (١) من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان حتى الكونغو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها .

---

(١) المسلمون اليوم عددهم يزيد على ٣٠٠ مليون . والسبب فى كون صاحب هذا الكتاب اعتبرهم ٢٥٠ مليوناً هو متابعته لغيره من المؤلفين الاوربيين الذين لايزالون يحسبون المسلمين اليوم على معدل احصاآت جرت منذعشرات من السنين مع أن عدد المسلمين ازداد بهذه الاثناء كثيراً فالعلامة نانسن الالمانى كان يحزر مسلمى أفريقية وحدهم بنحو ٧٦ مليوناً ، وهذا منذ ٣٠ سنة ثم كثيرون من الجغرافيين لايزالون يحصون مسلمى الجاوى وسومطرة ٢٥ مليوناً والحال أنهم ٣٥ مليوناً وكذلك مسلمو الصين هم من ١٠ الى ٢٠ مليوناً ومسلمو الروسية هم ٣٥ مليوناً وكثيراً مايحصونهم ٢٠ مليوناً وهلم جراً . «ش»

قدح الزناد فى صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ، ثم أخذ الشرر يتطاير الى كل جانب من جوانب العالم الاسلامى ، اذ فى الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية فى مطلع القرن التاسع عشر ، وهى دعوة الاصلاح الاسلامى ، ثم كان من أمرها ان ترقت واتسعت حتى بلغت فى نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالى بالجامعة الاسلامية .

ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحوّلات فى العالم الاسلامى مقصورة على تلك العوامل الداخلية المنبعثة عنه فحسب ، بل ان هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ماانفكت تتدفق من الغرب على الشرق ، وجميعها يبث فى الشرق الاسلامى روح الاستيقاظ والثوران ، من ذلك عقائد الحكومة النيابية ، والعصبية الجنسية ، والعلوم العملية ، وحقوق العمال ، حتى وأكثر من ذلك كحقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

فثوران العالم الاسلامى هذا الثوران ، وشدة التضييق الاوروبى الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولا حدّ ، يزيدان فى هيجانه فيشعلان فيه روح الحركة والعمل . ان الحرب الكونية العظمى قد أتت بعجائب عظيمة ، وأرت مالم يرَ من قبل ؛ فانشأ الاسلام يميد ويضطرب ، ويتمخض تمخضاً شديداً منتقلا من حال حاضر الى آخر مقبل ، ومجتازاً دوراً غايته تجدد عالم اسلامى حديث .

ولبيان كيفية هذا الانتقال والتجدد اللذين سترى ثمارهما فى عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب .

الفتح العربى

للامير شكيب

حادث الفتح الاسلامى بهذه السرعة التى اتسق بها ، لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، حتى قال الكثيرون ان العرب فتحوا فى ثمانين سنة أكثر مما فتح الرومان فى ثمانمائة سنة . وكان نابليون يقول : ان العرب فتحوا نصف الدنيا فى نصف قرن . وقد تحير المؤرخون والاجتماعيون الاوربيون فى تعليل سرعة هذه الفتوحات ، فذهبوا فيها مذاهب شتّى وأخطأوا وأصابوا ، وليس من الممكن حصر تعليلاتهم فى هذا الشأن نظراً لكثرتها ، وانما يمكننا أن نشير ولو بطريق الايماء الى بعضها . فنابليون الذى كان ينظر الى الحوادث من الوجهة العسكرية التى هو عبقريّها الأكبر ، كان يذهب الى ان العرب قبل الاسلام كانوا ذوى بصائر بالحرب ، أكثر مما يظن الناس ، وان حروب القبائل العربية بعضها مع بعض كانت قد نجّذتها(١) فى القتال الى الحد الذى صيّرها أمّةً محاربة من الدرجة الاولى ، كما انه كان يظن ان الامم التى تغلّب عليها العرب بهذه السرعة العجيبة ، كانت مصابةً بعلل اجتماعية كثيرة ، لم يحققها جميعها المؤرخون ، وان ثمة أسراراً لاتزال خافيةً عنهم. على ان نابليون كان يوفر القسط الأعظم من الحرمة الشخصية لمحمد ﷺ وعمر رضى الله عنه ويرى انه ما انتشر الاسلام الا بفضلهما ولقد بلغ من اعجابه بمحمد ﷺ ان نوى وهو فى مصر ان يدين بالاسلام ، وان يحمل عليه جيشه . ولقد سأله عن ذلك المؤرخ « لا كاز » الذى رافقه الى جزيرة « سنت هيلانه » وقيّد جميع ماسمعه من أحاديثه ، فاعترف له بأنه كان عزم على الدخول فى الاسلام ، وحَمْل جيشه عليه ، ولكنه لم يكن يريد أن يفعل ذلك الا بعد أن يصل بجيشه الى الفرات ، بحيث يتمكن باسلامه من الاستيلاء على الشرق . ثم ان

(١) جربتها وحنكتها — المترجم

المسيو « اتيان دينه » المسلم الفرنسى الذى له المقامات العالية فى النضال عن الاسلام، والذى أدّى فريضة الحج رحمه الله سنة ١٣٤٧ هو وتلميذه الحاج سليمان بن ابراهيم باعامر ، قد نقل فى كتابه الذى ألّفه عن الحج ، ووصف به الحرمين ، وثائق رسمية عن قضية اسلام نابليون ، منها وثيقة مؤرخة فى ٩ فروكيتدور سنة ٧ أى ٢٦ اغسطس سنة ١٧٩٨ وهى مكتوب نصّه : انى أشكرك على ماقت به من تعظيم نبيّنا . الامضاء : بونابرت . نقلها دينه عن كريستيان شرفيلد : Bonaparte et l'Islam ونقل عنه خطاباً الى الشيخ المسيرى عن المقر العام فى القاهرة تاريخه وفق ٢٨ اغسطس سنة ١٧٩٨ ونصه : « انى أرجو أن لايطول الوقت حتى أجمع جميع عقلاء البلاد ومهذّبيها واقرر معهم نظام حكم مبنيًّا على مبادىء القرآن التى هى وحدها المبادىء الحقيقة والتى هى وحدها الكفيلة بسعادة البشر . الامضاء : بونابرت »

ونقل جملة عن كتاب «جورنال غير مطبوع» Journal inédir الجزء الاول الصفحة ٣٤٨ وهى « كان المشايخ يقولون لى دائماً انى ان أردت أن أكون اماماً فلابد من أن يدخل الجيش فى الاسلام وأن يلبسوا العمائم . ولقد كانت هذه نيتى . الامضاء : بونابرت »

ونقل عن نقولا من الصفحة ١٢٢ من كتابه النسخة العربية وذلك قول نابليون : « حقاً قد قلت لكم مراراً وأعلنت مراراً فى خطبى انى أنا مسلم موحدا مجّد النبى محمداً وأحب المسلمين . الامضاء : بونابرت »

فالذى يعلم تاريخ بونابرت حق العلم يفهم ان رجلاً كهذا أوتى من القدرة العقلية ، ومن العزيمة أقصى ماقدر لابطال العالم ، لايعجب بالاسلام هذا الاعجاب كله الابعد اقتناعه بأن هذه الفتوحات المادية والمعنوية التى قام بها الاسلام فى ذلك الوقت القصير ، كانت حادثا غير مسبوق المثال فى التاريخ العام ، و بأن فضائل الاسلام ونبيه وأصحابه كانت باهرة .

ولننقل لك الآن بعض ماقيل فى هذا الموضوع فى التآليف التى ظهرت حديثاً لأنها نخلت المسئلة نخلاً دقيقاً فمنها كتاب « مدنيات الشرق » للمسيو غروسه الافرنسى

Les civilisation de l'Orient par Réné Grousset

جاء فيه فى القسم المتعلق بمدنية العرب مايلى :

« معركتان فى أجنادين واليرموك فتحتا للعرب سورية وفلسين من مملكة البيزنطيين.

ثم تبعتهما مصر . ومعركتان اخريان فى القادسية ونهاوند مهدتا لهم فارس بأسرها . فالسلطنة الرومانية بعد أن انتزعت منها سورية ومصر وافريقية ، بقيت لها لذلك العهد آسية الصغرى (الاناضول) بالاقل ، ولكن السلطنة الفارسية الساسانية سقطت فى أيدى الفاتحين بتمامها . وهكذا امتد سلطان العرب فى بضع سنوات من افريقية ومن جبال طوروس الى سيحون وجيحون ، ولم يلبث ان قطع بعد قليل الى ماوراء النهر ، وفتح بلاد الدول التركية الايرانية التى كانت تابعة للصين . وقد كان الخلفاء الأربعة الذين فى أيامهم اتسقت هذه الفتوحات المدهشة ، متمسكين بمبدأ محمد و باوابد قومهم . كانوا عرباً و بقوا عرباً شيوخاً فى الصحراء بدون ترف ، ولا زخرف ، ولا قصور ملوكية ، ولا احتياجات . بل كانوا أشداء على أنفسهم كما على الآخرين عائشين فى المضارب كسائر القبائل الخ »

وظهر تاريخ فى هذه السنة اسمه « تاريخ العالم » Histoire du monde للعلامة غودفروا دمومبين Gaudefroy Demombynes الاستاذ بمدرسة الالسن الشرقية بباريز ، والعلامة بلاتونوف من أعضاء اكادمية العلوم الروسية ، تحرى فيه مؤلفاه الى أقصى آماد التحرى ، وذهبا الى أن تاريخ الفتوحات الاسلامية لم يبدأ بالاشراق على ناشديه الا فى هذه السنين الأخيرة ، فقد كان مهّد طريق معرفته المستشرقون الذين سبقوا مثل دساسى De Sacy وكاترمار Quatremère وكوسين دوبرسفال Caussinq de Perceval ورينو Reinaud و دوسلان De Slane الخ واقتفى أثرهم علماء مشتغلون ، وفوا التمحيص حقه منهم من جاء بآراء خاصة وجيهة استقلّوا بها ، ومنهم من تقدم كثيراً لكن فى الطريق التى كانت مفتوحة أمامه ، وربما أدّى جزمهُ بما اعتقده ، وغلوّه فيما ذهب اليه الى مناقشات ممتعة . وقد عدّ المؤلفان المذكوران من هذه الحلبة دوزى Dozy ونولدكه Noldke وفيلهاوزن Wellhausen ودو غويه De Goeje وغولدسيهر Goldziher وسنوك هركرونيه Snouck Hurgronje الخ

ومما ذهب اليه أصحاب هذا التأليف الجديد انه يجب العدول عن فكرة كون انتشار الاسلام حصل على أيدى الاعراب أو البدو الدافقين من الصحارى لاجل الغزو . قالوا : ان الاولى بان يقال هو ان الحركة حركة مدر لا حركة وبر . وذلك ان طائفة من الناس اجتمعت حول النبى فى المدينة من بعد الهجرة وتشبعت بمبادئه ، وصرفت جميع همها الى الدين ،

وعاهدت الله ورسوله على نشر عقيدة الاسلام . وهؤلاء هم المسلمون . ثم انضمت اليهم طبقات أخرى فى زمان الخلفاء الراشدين ، وتقوت بهم عصابة هؤلاء المتدينين العاكفين على تلاوة القرآن ، الذين بثباتهم المتواصل بنوا الاسلام الاول الذى لم تطرأ عليه المؤثرات الخارجية ، والمجادلات الكلامية ، وهو الاسلام القرآنى الصرف »

(انظر صفحة ١٤٠ من الجزء السابع من هذا التاريخ القيم) ثم قالوا :

فهذه العصابة المتدينة التى نشأت فى المدينة ، جعلت من المسجد النبوى فى المدينة مركز حياةٍ « دينيةٍ » ، أخذ ينمو و يتسع الى أن انبثقت منه أنوار المعارف الكلامية والفقهية فى القرن الثامن (القرن الثامن للمسيح هو مبدأ القرن الثانى للهجرة) . وظهر اولئك الأئمة فى علم الشريعة . فالمدينة كانت فى القرن السابع (للمسيح) هى قلب الاسلام ومنها كان مبدأ نموّه

ولكن كانت خلية الاسلام تعسّل أيضاً فى أثناء الفتوحات بين الجيوش وفى المخيّمات وذلك ان من الجند مَنْ كانوا حفاظاً للقرآن فاهمين لمعانيه فتألفت منهم فى وسط الجهاد حلقات عبادة وعصابات زهد وتقوى ، محضت الاسلام خلوصاً لا حدّ له ، وصرفت معظم حياتها الى العمل لاستحقاق الثواب الاخروى . فكانت هذه العصابات تبث العقيدة ، وتحثُّ على التقوى وتجاهد فى طلب سعادة العقبى . وكانت مواعيد الله تتأييد بالفعل فى هذه الدار الدنيا قبل الآخرة ، فكان المسلمون يعلون فى الأرض و يعزّون ، وكان غير المؤمنين يسفلون و يذلّون ، وانقلبت غزاة البدوى حرباً مقدسة قد أمرها الله لاعلاء كلمته . وقد كانت تلك النفوس الممتلئة بالحياة الدينية لا تتبع الا ماتعتقده ، وما يختلج فى صدورها من فهم القرآن الى حد أن عمر ثم عثمان كانا يخشيان الخلاف بين المؤمنين من أجل القراءة (هذا صحيح فقد روى عن ابن عباس انه نهى عن أن يتسارع الناس فى القرآن فساء كلامه هذا الخليفة عمر فسأله : لماذا قلت هذا ؟ فاجابه ابن عباس : يا أمير المؤمنين متى سارعوا اختلفوا ومتى اختلفوا اقتتلوا . فقال له عمر : لله أبوك لقد كنت اكتمها للناس). فقد كان اذاً رأىٌ عامٌ دينىٌ يدير حياة المجتمع الاسلامى ، بل سياسة الأمة الاسلامية . ولقد رأينا فى وقعة صفين كيف اتفق أناس من جيش على مع آخرين من جيش معاوية على طلب التحكيم . ثم لما هدأت ريح الفتوحات وسكن الناس عادت حلقات قراء القرآن الى مساكنها وعاداتها

الحضرية ، وتألف منها حول الخليفة وحول ولاة الأمصار مجالس الشورى التى يعتمد عليها الامام ، والتى كانت مركز الرأى العام » انتهى

وهذا الرأى هو ما نراه نحن. وهوأن الاسلام لم ينتشر الا بالقرآن وعمارة الصدور به الى أن بلغ قراؤه من القوة المعنوية الدرجة القصوى التى مكّنتهم من نواصى الامم . وهذه القوة المعنوية هى الأصل ، وهى التى بدونها لا تنهض أمة . وما القوة المادية ، مهما دقّت أوغلظت ، الا تبعٌ لها ، وهى بالنسبة لها كالبدن بالنسبة الى الروح. فكل مايقال من أن سبب الفتوحات الاسلامية الباهرة هو مِراس العرب للقتال أو حبُّ البدو للغزو ، وغرامهم بالغنائم ، أو ملل الأمم المجاورة من ملكة حكامها ، وغير ذلك ، فهذا تضييع للمعنى الحقيقى ، وزيغٌ عن شاكلة الرميّة ، وانما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل هو خارق للعادة ، و بقوة معنوية أحدثها فى النفوس ، خارقة للعادة . ولقد كان العرب أهل حرب من قديم الزمان ، وكان الأعراب مغرمين بالنهب والكسبَ من أعلى أيام الجاهلية ، فلماذا لم يفتحوا البلدان الا بعد بعثة محمد ؟ ولقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يرى فتوحات أمّتهِ من بعده ، ورُوى عنه حديث : « زويت لى مشارق الأرض ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها » .

وقد قال امام المستشرقين غولد سيهر فى كتابه «عقيدة الاسلام وشريعته» فى الفصل الأل منه ، قولاً فصلاً فى قضية : هل كان النبى نبيًّا قاصراً دعوته على العرب كما يذهب اليه بعض من يريدون تنقُّض الاسلام ، أو كان معتقداً برسالته الى العالمين كافة من الأحمر والأسود وأورد الأدلة التى تفحم كل مجادل ، على كون محمد رأى نفسه مبعوثاً الى البشر عامة ، وأنه فى آخر حياته جعل يراسل الملوك الذين خارج الجزيرة مما لايبقى معه شك فى نيته دعوة جميع الخلق الى الاسلام . قال : ولقد لحظ « نولدكه » أن محمداً كان قد رسم خططاً لم يكن يرتاب فى أن يجد الرومان على طريقه فيها أعداءً محاربين ، فان آخر غزاةٍ أغزاها كانت الى أراضى الدولة البيزنطية . ثم ان الغزوات التى غزاها من بعده خلفاؤه وأدرى الناس بمقاصده تنبئ بكونهم علموا أن بعثته كانت عامة لا محصورة فى الجزيرة

ولقد قرأت فى تواريخ كثيرة مايدل على حيرة المؤلفين فى هذا الحادث العجيب ، الا وهو سرعة نمو الاسلام وتبسُّطه ، ومنها تأليف حديث العهد اسمه «العالم الاسلامى» لكاتب

اسمه «ماكس مايرهوف» قال فيه :

« يكاد يكون مستحيلاً أن نفهم كيف ان أعراباً منقسمين الى عشائر، ليست عندهم العدد والاعتدة اللازمة ، يهزمون فى مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً فى الاعداد والعتاد ، وكانوا يقاتلونهم وهم كتائب منظمة »

والجواب ان هذا المستحيل بزعمه ليس فى الحقيقة بمستحيل اذا نظر الى القوة المعنوية التى أوجدها القرآن فى اتباعه.

وقد جاء فى الفصل الرابع من الجزء السابع من « تاريخ العالم » المتقدم الذكر للاستاذين «غودفروا دمونبين» و « بلاتونوف » أن العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الأمصار، لم يكونوا عصائب لا تحصى ولا تُعد تدفقت على الشرق المتمدن. فقد أحصى مؤرخو العرب الجيش الأول المسلمين فى اليرموك بثلاثة آلاف ، ثم أرسل اليهم الخليفة بنجدة أبلغتهم ٧٥٠٠ مقاتل ، وأخيراً تمامّ عددهم ٢٤ الفاً. وأما عدد الروم فقال العرب انه كان مائة الف وقيل ١٢٠ الفاً ، وقيل ٢٠٠ الف مقاتل . ولم يزده مؤرخو بيزنطية على ٤٠ الفاً . وعلى كل حال كان العدد الاكبر لأعداء العرب. وهكذا فى حروب فارس . فالسبب فى ظفر العرب برغم قلة عدد جيوشهم، بالقياس الى أعدائهم، هو ماجاء فى الفصل الثالث من ذلك الجزء. وهو أن قوة الايمان ونهضة التحمُّس الدينى كانتا متصلتين بحب الغنائم الذى يحببُ الى هؤلاء القوم الغزوات والغارات . ولكن العرب فى هذه الفتوحات التى علمتهم أشياء جديدة لا تحصى ، أثبتوا لأنفسهم مزايا ناشئة عن طبيعة حياتهم الاجتماعية ، من الصبر والقناعة والحذق وحسن التخلص وشدة الحماسة فى حال النصر الى أن يعلوا على درجات أنفسهم . ولئن لم يكن زال من بينهم حب المنافسات الشخصية التى هى معروفة بشدتها بينهم ، فقد كان دخل بينهم عنصر وحدة لم يكن معهوداً من قبل، ألا وهو عامل الوحدة الدينية ، وطاعة الرسول ، فأصبح البدو الذين لم يعرفوا الطاعة لمخلوق يمتثلون أوامر قوادهم . وكان العرب بطبيعتهم أهل بأو وخيلاء ، يبذلون النفوس والنفائس لأجل الفخر ، فانضم الى خلقهم هذا اعتقادهم الجديد بانهم شعب الله الخاص الذى بعث الله منه خاتم رسله انتهى

وقال « ولز » الفيلسوف الكاتب الانكليزى الشهير الذى لا يزال حيا وذلك فى الصفحة ٣٠٣ من كتابه « مختصر التاريخ العام » :

«اذا كان القارئ يتخيّل أن موجة الاسلام قد غمرت بهذا الفيض الذى فاضته بعض مدنيّات شريفة فارسية أو رومانية أو يونانية أو مصرية ، فيجب أن يرجع عن خياله هذا حالاً . فانّ الاسلام قد ساد لانه كان أفضل نظام اجتماعى وسياسىّ تمخّضت به الأعصر . وأن الاسلام قد ساد لانه فى كل مكان وجد أمماً استولى عليها الخمول ، وكان فاشياً فيها الظلم والنهب والعسف ، وكانت بدون تهذيب ولا ترتيب ، فلمّا جاءها الاسلام لم يجد الاّ حكومات مستبدّة مستأثرة ، منقطعة الرابطة بينها و بين رعاياها . فأدخل الاسلام فى أعمال الخلق أوسع فكرة سياسية وأحيى فكرة سياسية عرفها البشر ، ومدّ الى البشرية يد المعونة . وقد كان لدن ظهور الاسلام نظام رأس المال فى السلطنة الرومانية مبنيًّا على الاسترقاق ، وكانت الآداب والثقافة والأوابد الاجتماعية آخذة بالانحلال . ولم يبدأ الاسلام بالانحطاط الاعند مابدأت البشرية تشكّ فى صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة »

يريد ولزأن يقول أن الاسلام برىء ممّا عمله المسلمون الذين لم يحسنوا تمثيله .

ففى هذا القدر مقنع لمن أراد أن يخوض هذا البحث بقطع النظر عن العقيدة الاسلامية ، بل بالوقوف موقفاً متحايداً لا للاسلام ولا عليه . فاذا وقف القارئ هذا الموقف من الحيدة كان لا بدّ له من أن يحكم للاسلام وأن يحكم بتحامل أعدائه عليه بغضا وعدوانا .

البعثة المحمدية

وأقوال جمهرة من العلماء والفلاسفة والمؤرخين الاور بيين
فى النبي صلى الله عليه وسلم

المنصف منهم والمغرض

للأمير شكيب

منهم : —

غروسه	Grousset
مونته	Montet
اتيان دينه الفرنسى المسلم	Dinet
دوزى	Dozy
نولدكه	Noldeke
دو غويه	De Goeje
شبرنغر	Sprenger
سنوك هركرونيه	Snouck- Hurgronje
غريم	Grimme
مارجليوث	Margoliouth
هوار	Huart
غولد سيهر	Goldziher
غودفروا دمومبين	Gaudefroy Demombynes
ولز	Wells
فولتير	Voltaire

وسواهم : —

قال غروسه صاحب «مدنيّات الشرق» : «كان محمدٌ لمّا قام بهذه الدعوة شاباً كريما نجداً ، ملآن حماسةً لكلّ قضيّة شريفة ، وكان أرفع جداً من الوسط الذين كان يعيش فيه . وقد كان العرب يوم دعاهم الى الله منغمسين فى الوثنية وعبادة الحجارة ، فعزم على نقلهم من تلك الوثنية الى التوحيد الخالص البحت ، وكانوا يفنون فى الفوضى وقتال بعضهم بعضاً ، فاراد أن يؤسّس لهم حكومة ديمقراطية موحَّدة . وكانت لهم عادات وأوابد وحشية تقرب من الهمجية ، فاراد أن يلطّف أخلاقهم ويهذّب من خشونتهم الخ »

وقال الاستاذ « مونته » Montet استاذ اللغات الشرقية فى جامعة جنيف فى كتابه « محمد والقرآن» مايلى : « أمّا محمدٌ فكان كريم الاخلاق حسن العشرة ، عذب الحديث ، صحيح الحكم صادق اللفظ ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هى صحة الحكم وصراحة اللفظ ، والاقتناع التام بما يعمله ويقوله »

وقال الاستاذ مونته فى كتابه المذكور صفحة ١٨ مايلى بالحرف : —

« ان طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الاخلاص . فقد كان محمد مصلحاً دينيًّا ذا عقيدة راسخة ، ولم يقم الا بعد أن تأمل كثيراً وبلغ سن الكمال بهاتيك الدعوة العظيمة التى جعلته من أسطع أنوار الانسانية فى الدين

وهو فى قتاله الشرك والعادات القبيحة التى كانت عند أبناء زمنه كان فى بلاد العرب أشبه بنبى من أنبياء بنى اسرائيل الذين نراهم كباراً جداً فى تاريخ قومهم .

ولقد جهل كثير من الناس محمداً وبخسوه حقه وذلك لانه من المصلحين النادرين الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها »

وقال فى صفحة ٢٢ مايلى :

« ان الديانة الاسلامية كعقيدة توحيد ، ليس فيها شىء مجهول فى ديانات التوحيد الاخرى الا ان ظهورها فى جزيرة العرب بروح عربية عالية جعل لها طابعاً جديداً باهراً وقد سماها محمد « الاسلام » اشارة الى تمام الانقياد لارادة البارى تعالى وهى فى هذه العقيدة مشابهة للمسيحية الا ان عقيدة هذا الانقياد لارادة الله تتجلى من القرآن بقوة لاتعرفها النصرانية .

وقد بقى فى الاسلام من عادات العرب القديمة تعدد الزوجات والرق الا ان الاسلام جعل

للاولى حداً ، وللثانية شروطاً من حسن المعاملة ، وقد بلغ من محمد التزام هذا التلطيف من معاملة الرقيقين ان قال : ماخلق الله شيئاً أحب اليه من تحرير الرقيق ولاحلّل شيئاً أكره اليه من الطلاق

ولقد منع القرآن الذبائح البشرية ، ووأد البنات والخمر والميسر ، وكان لهذه الاصلاحات تأثير غير متناهٍ فى الخلق بحيث ينبغى أن يُعَدّ محمد فى صف أعاظم المحسنين للبشرية .

ثم ذكر مونته أركان الاسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج وقال ان حكمة الصلاة خمس مرات فى اليوم هى ابقاء الانسان من الصباح الى المساء تحت تأثير الديانة — ليكون دائماً بعيداً عن الشر — وحكمة الصيام تعويد المؤمن غلبة شهوات الجسم وزيادة القوة الروحية فى الانسان ، وحكمة الحج هى توطيد الاخاء بين المؤمنين وتمكين الوحدة العربية .

قال مونته : « فهذا هو البناء العظيم الذى وضع محمد أساسه ، وثبت ولا يزال ثابتا بازاء عواصف الدهور الدهارير »

ولايزال الاستاذ مونته حيا يرزق وهو من علماء جنيف ومن كبار أساتيذ جامعتها ومن أكابر المستشرقين وله ترجمة بديعة للقرآن .

ومن ألطف الكتب فى السيرة النبوية كتاب للمسيو « اتيان دينه » الافرنسى الذى أسلم وحج وألّف كتاباً عن حجته الى البيت الحرام من أبدع ما كتب فى هذا العصر كما ان كتابه عن حياة النبى ﷺ لايقل عن كتابه فى الحج فى سلاسة عبارته ، ودقة معانيه ، وقوة حجته ، مع التزام خطة الاعتدال والجدال بالتى هى أحسن . ومن بدائع تآليف «دينه» Dient كتابه فى الرد على لامنس اليسوعى ومؤلفين آخرين ممن تنقصوا الاسلام والرسول عليه السلام وهو المسمى « انك لفى واد وانا لفى واد »

فالمسيو دينه يبين فساد طريقة هؤلاء الاوربيين الذين حاولوا أن يحللوا السيرة المحمدية ، وتاريخ ظهور الاسلام بحسب العقلية الاوربية ، فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً لان هذا غيرهذا ولأن المنطق الاوربى لايمكن أن يأتى بنتائج صحيحة فى تاريخ الانبياء الشرقيين قال «دينه» ان هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبى بهذا الاسلوب الاوربى البحث لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويمحصون بزعمهم ، حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيهم وكان ينبغى لهم بعد هذه التدقيقات الطويلة العريضة العميقة أن يتمكنوا من

هدم الآراء المقررة ، والروايات المشهورة من السيرة النبوية ، فهل تسنّى لهم شيء من ذلك ؟

الجواب : لم يتمكنوا من اثبات أقل شيء جديد .

بل اذا أنعمنا النظر فى الآراء الجديدة التى أتى بها هؤلاء المستشرقون ، من فرنسيس وانكليز وألمان وبلجيكيين وهولانديين الخ . لانجد الا خلطاً وخبطاً ، وانك لترى كل واحد منهم يقرر ما نقضه غيره من هؤلاء المدققين بزعمهم أو ينقض ما قرره .

ثم أخذ « دينه » يورد الأمثال على هـذه التناقضات فنها أن المستشرق دوزى الهولاندى قال ان محمداً لم يكن يشبه قومه ، فقد كان ذا تصور قوى ولم يكن عند العرب مثل هذا التصور ، وكان ديّناً بطبيعته ولم يكن العرب ديّنين .

وان لامنس قال بازاء ذلك ان محمداً كان شبيهاً بقومه وان هـذه المشابهة هى التى كانت سر نجاحه بينهم .

وقال دوزى ان محمداً كان ميالاً الى الصمت والكآبة يحب العزلة والهيام فى الأودية البعيدة ، ويطيل التأمل فى الليالى .

وعارض لامنس فى هـذا الرأى وقال انه لا ينطبق على المعهود من كراهية محمد للعزلة ومن شهرة نفوره من النسك .

وقال « نولدكه » أن سبب الوحى النازل على محمد والدعوة التى قام بها هو ما كان ينتابه من داء الصرع .

وقال الاستاذ « غويه De Coeje » ان هذا الافتراض ليس بصحيح لأن الذاكرة عند المصابين بالصرع تكون معطلة ، والحال هى بالعكس عند محمد الذى كان يتذكر كل ما يسمعه فى أثناء هذه النوبات .

ويقول الاستاذ « شبرنغر Sprenger » انها نوبات هستيرية . ويردّ عليه الاستاذ سنوك هركرونيه Snouck Hurgronje بقوله انها ليست من هذا النوع .

ويقول الاستاذ غريم Grimme ان مبادئ محمد اشتراكية لا دينية . وانما جعل لها صبغة دينية لأجل تمكينها .

ويرد عليه سنوكه هركرونيه قائلاً بان مدار نبوة محمد هو البعث واليوم الآخر .

ويزعم « مارغليوث Margoliouht » وهو أخبث المستشرقين وأشدهم بغضا لمحمد وهو

الذى اعتمد عليه الدكتور طه حسين فى النظرية الساقطة بان شعر الجاهلية موضوع بعد الاسلام - ان محمداً كان يمارس الشعوذة وكانت له مجالس سرية أشبه بمحافل الماسونية وعلامات يتعارف بها مع أصحابه وكانوا يرخون عذبة العمامة فوق منا كبهم الخ وقد رد على مرغليوث هذا جون باركنسون Parkinson فى المجلة الاسلامية Islamic review سنة ١٩١٥

ونسب لامنس اليسوعى الى محمد الاكثار من الطعام ، والشره ، والاسترسال فى اللذات البدنية وقال انه مات بالبطنة . وزعم « بينه سانغله » Binet Sanglé انه كان سيء الغذاء صابراً على الجوع متقشفاً ومات من الضعف . كتب هذا فى كتابه المسمى « بجنون يسوع » فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (هذا الكتاب أربعة أجزاء) وقال « هوار » Huart انه توفى بذات الجنب . وقال الأب باردو زعيم مبشرى الصحراء انه مات مسموما سمته امرأة يهودية .

قال « اتيان دنيه » وان أردنا استقصاء هذه التناقضات التى نجدها بين تمحيصات هؤلاء الممحصين بزعمهم يطول بنا الأمر ولا نقدر أن نعرف أية حقيقة ولا يبقى أمامنا الا أن نرجع الى السير النبوية التى كتبها العرب . نعم انهم كتبوها باسلوب شرقى ساذج . وأودعوها تفاصيل قد تكون من أثر الحب والتحمس الا أن الذى يفهم أسلوبها يعلم ما بها من الحقائق المدهشة . فأما المؤلفون الذين زعموا أنهم يريدون ترجمة محمد بصورة علمية ، شديدة التدقيق ، فلم يتفقوا منها ولا على نقطة مهمة ، وبرغم جميع ما نقبوه ونقروه ، وحاولوا كشفه بزعمهم ، فلم يصلوا ولن يصلوا الا الى تمثيل أشخاص فى تلك السيرة ليسوا أعرق فى الحقيقة الواقعية من أبطال أقاصيص ڤالترسكوت واسكندر دوماس . فهؤلاء القصاصون تخيلوا أشخاصاً من أبناء جنسهم يقدرون أن يفهموهم ولم يلحظوا الا اختلاف الأدوار بينهم . أما أولئك المستشرقون فنسوا أنه كان عليهم قبل كل شيء أن يسدوا الهوة السحيقة التى تفصل بين عقليتهم الغربية والأشخاص الشرقيين الذين يترجونهم وانهم بدون هذه الملاحظة جديرون بأن يقعوا فى الوهم فى كل نقطة .

هل يتوقفون عند هذه الملاحظة ويعلمون أن طريقتهم هذه لا تنفذ الى حقيقة ؟ الجواب : لا نظن ذلك . وهو لأنهم مولعون بحب الطريف يحاولون الاتيان ببدع غير مسبوق .

ثم نقل « دينه » قول « سنوك هركرونيه » عن كتاب « غريم » فى ترجمة الرسول وهو أن غريم أراد الابداع والاطراف فجاء بصورة غير صحيحة.

ثم ذكر « دينه » كيف ان الأب لامنس اليسوعى فى أول كتابه عن محمد صاح متأوها من كون القرآن جاء وصرف العرب عن حلاوة الانجيل التى كانوا بدأوا يذوقونها ، ولم يقدر أن يغفر للقرآن ذنب ادخاله فى الاسلام ثلاثمائة مليون نسمة من جميع أجناس البشر واستتبابه الى يوم الناس هذا ينمو وينتشر فى افريقية وآسية بمرأى ومسمع من المبشرين المسيحيين . فلذلك زعم الأب لامنس أن يشنّها على الاسلام غارة شعواء ويحمل عليه حملة صليبية يكون هو بطرسها الناسك على أمل أن يصرع الاسلام ! الا أن حالة عقلية كهذه يقول « دينه » انها لا تلتئم مع بحث علمى مبنى على تجرد محض من الهوى وتنزه عن البغض . ثم جاء « دينه » رحمه الله بالأدلة القاطعة على سفسطات لامنس وسردها مع ردها واحدة واحدة مما لا يتسع له هذا المكان الذى لا نتوخى فيه الا الاشارة والدلالة محيلين من شاء التوسع فى هذا البحث على الكتب نفسها .

ان الكتابات فى أوروبة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ودينه ، وشرعه ، والملة الاسلامية بحر لا ساحل له وفيها الغث والثمين ، والحالى والعاطل ، والحق والباطل ، ومن مؤلفيها المحب والقالى ، والمنصف والمتعسف ، والناصح والكاشح كما هو الشأن فى كل أمر . ولكن العصر الأخير فى أوربة أنصف الرسول ﷺ كثيراً بالقياس الى الأعصر التى سبقت كما يظهر من الشواهد التى أتينا بها من قبيل انموذجات . ولو كان المسلمون استيقظوا من سباتهم وتعلموا من الاورببين روح « التضحية » كما يقال ونشروا للاسلام دعاية منظمة وأنفقوا عليها عن سعة لأمكنهم أن يصححوا أباطيل كثيرة ويبددوا أوهاماً كثيفة تتعلق بهم وبدينهم وبنبيهم ، ولاهتدى فى أوربة الى الاسلام خلق كثير أثروا تأثيراً محسوساً فى مجرى السياسة العامة

ولكننا مع الأسف لا نزال بعيدين عن درجة هذا الانتباه ولا يزال أعداء الاسلام يناصبونه القتال فى كل سهل وجبل وفى كل بر وبحر ولا تبرح مكافحة الاسلام لهم هى فى نسبة الخردل الى الجندل . فمتى ينشط الاسلام من عقاله ويستأنف همته الأولى ؟ هذا مالا يجاوب عليه غير المستقبل . انتهى

وقال المؤرخ الفرنسي الشهير « لافيس » « انه كان مشهوراً بالصدق منذ صباه حتى كان يلقب بالأمين الخ » .

وقال « غولد سيهر » سيدالمدقّقين ، وحجةالمستشرقين ، فى كتابه « عقيدة الاسلام وشريعته » فى الصفحة الثالثة من هذا الكتاب الجليل مايلى :

« ان دعوة النبي العربى كان فيها نخبة مبادئ دينية اعتقدها هو بالاختلاط مع اليهود والنصارى وغيرهم ، واقتنع بها ، ورآها جديرة باحياء الشعور الدينى بين قومه . ولقد كانت هذه المبادئ المقتبسة من الأديان الأخرى فى نظره ضرورية لتثبيت سير الانسان بحسب الارادة الالهية، فتلقّاها هو بصدق وأمانة ، و بمقتضى الهام أيدته فيه المؤثرات الخارجية وجاءه وحياً الهيًّا كان هو مقتنعاً بكونه وحياً الهيّاً نازلاً على لسانه »

اننا ننبّه قراء هذا الكتاب الى أن هؤلاء الذين نحن نستشهد بكلامهم فى حق محمد ﷺ ليس فيهم واحد مسلم ، وذلك اننا لانرى حاجة الى الاستشهاد على صدق الرسول عليه السلام بكلام المسلمين المؤمنين بالله ورسوله . وانما نريد أن نقيم الأدلة من أقوال علماء الأوربيين الذين ليسوا بمسلمين ليقال فيهم انهم قالوا ما قالوه متأثرين بعقيدتهم التى نشأوا عليها، وانما هم من العلماء المنصفين الذين نشدوا الحق ، و بغوا التحرى جهد طاقتهم . وقد كانت خلاصة آرائهم وزبدة أقوالهم أن محمداً كان صادقاً ، وكان أميناً ، وكان معتقداً بان الله ابتعثه لهداية قومه ، وارشاد سائر البشر الى الدين القيّم ، وكان مقتنعاً بان الله تعالى يوحى اليه ، وأنه لم يقل شيئاً الا وهو مقتنع به . وهذا هو الرأى السائد الآن بين العلماء المحققين من أهل أوربة ، ولم يبق فيهم من يقيم وزناً لتلك المطاعن التى كان أحبارهم ورهبانهم وأعداء الدين الاسلامى منهم يوجهونها الى شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، و يطبعون بها ناشئتهم ويجعلونها مداراً لدعاياتهم .

وأما قول « غولد سيهر » ان الاسلام فيه نخبة مبادئ أصلها من اليهودية والمسيحية فليس فيه شئ يدعو الى الانكار ، وما جاء القرآن الا مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل ، والاسلام انما هو ملة ابراهيم حنيفاً ، وقد جاء محمد بتأييد تلك الملة لا بنقضها كما لا يخفى .

وقال « ماكس مايرهوف » فى كتابه « العالم الاسلامى » الصفحة العاشرة : « ان محمداً فى سنة ٦١٠ للمسيح كان كثير التفكر ، والانفراد ، وكان يقصد الى البادية و يخلو بنفسه فى

جبل حرآء بقرب مكة . فرأى ذات يوم رؤيا ، هى أن الملك جبريل تجلى له وناوله كتاباً ، وقرأ عليه هذه الآيات التى هى السورة السادسة والتسعون من القرآن : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فنزل عليه هذا الكلام وحياً وجاء فأخبر امرأته بما وقع له . ثم جاءه وحىٌ آخر فيما بعد ، فلما شعر به تغطّى بثوب وسمع هذه الكلمات : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) ومذ ذاك الوقت اقتنع بان الله اختاره مبشراً بعقيدة جديدة ، وتسمى برسول الله ، ليدعو الى الله بلسان عربى مبين . الى أن يقول : « أراد بعضهم أن يرى فى محمد رجلا مصابا بمرض عصبى ، أو بداء الصرع ، ولكن تاريخ حياته من أوله الى آخره ليس فيه شئ يدل على هذا ، كما ان ما قام به فيما بعد من التشريع والادارة يناقض هذا القول »

وأما « غودفروا دمبومبين » و« بلاتونوف » فى « تاريخ العالم » فقد وصلا من التدقيق والتمحيص الى حد لا أعرفه لمؤرخ و بلغ منهما ذلك أن قالا : « ان النصرانية لايزال أصلها مجهولاً » كما انى رأيتهما فى كثير من الأمور المجمع عليها فى الاسلام لا يبرحان متوقفين ففى الصفحة ١٣٢ من الجزء السابع من تاريخهما نجدهما يقولان : « انه غير ممكن الجزم بصورة حقيقية لمحمد ، ولا بصورة حقيقية لأحد من كبار رجال العالم . وكل ما هنالك انما هو الروح التى تتجلى لهم فى تواريخهم التقليدية وفى كيفية تمثيل الخلف لصورهم . ولا شك فى أنه يكون من باب الفلسفة العليا أن تميز الحقائق الراهنة عن الاعتقادات ولكننا نجد أنفسنا عاجزين عن ذلك هنا. وغاية ما نقدر أن نجزم به هنا هو تبرئة محمد من الكذب ومن المرض. وانما كان محمد رجلاً ذا مواهب الهية عليا، ساد بها أبناء عصره ، وهى رباطة الجأش، وطهارة القلب، وجاذبية الشمائل ، ونفوذ الكلمة . وأنه كان عابداً عظيماً ، وأنه نظير جميع العبّاد العظام كان يجمع بين حرارة الاعتقاد بالرسالة التى هو مأمور بها من جانب الحق تعالى ، و بين ملكة الأعمال الدنيوية ومعرفة استخدام الوسائل اللازمة لنجاح تلك الرسالة »

وجميع هؤلاء - تقريباً ، وولز الانكليزى أيضا ، وهو ممن تناول النبىّ ﷺ بشئ

من النقد ، قد أجمعوا على أن من أنصع الأدلّة على صدقه كون أهله وأقرب الناس اليه هم أول من آمنوا به . فقد كانوا مطلعين على جميع سرائره ، ولو ارتابوا فى صدقه ما آمنوا .

وبرغم انتقادات « ولز » التى حادفيها عن الصواب ، لم يستطع أن ينكر كثيراً من الحقائق مثل قوله : « ان ديانة محمد كان فيها روح حقيقية من العطف ، والكرم ، والاخاء ، وكانت بسيطةً ، مفهومةً ، سائغةً ، وكانت ملآى بمكارم الأخلاق ، وعلو النفس ، والمعالى التى يشغف بها أهل البادية »

وقال العلامة هوار « Huort » أستاذ الألسن الشرقية بباريز وصاحب « تاريخ العرب » المتداول بين الأيدى وذلك فى الصفحة ٩٤ من الجزء الأول:

« كيف تعرّف محمد الى خديجة وكيف أمكنه أن يحصل على ثقتها و يتزوج بها ؟ الجواب على الشق الأول لا يزال غير معروف عندنا . وأما على الثانى فقد اتفقت الأخبار على أن محمداً كان فى الدرجة العليا من شرف النفس ، وكان يلقب بالأمين ، أى بالرجل الثقة المعتمد عليه الى أقصى درجة ، أى كان المثل الأعلى فى الاستقامة » ثم انك لا تجد فى « تاريخ العرب » للاستاذ « هوار » كلمة واحدةً تدلُّ على أن محمداً كان مرآئيا أو مداجياً ، أو كان يقول مالا يعتقد أو يعتقد مالا يقول.

***

وقد ذكر « كارادوفو » المستشرق الافرنسى الفاضل صاحب كتاب « مفكرى الاسلام » les penseurs de l'islam فى الجزء الثالث من هذا الكتاب حياة صاحب الرسالة ﷺ وتحرّى فيها مزيد التحرى ، ودقّق أشد التدقيق ، وانتهى الى القول « بان محمداً من سن الخامسة والعشرين الى الأربعين كان كثير التفكر ، هادئاً ، ساكناً ، وكان حليماً ، تقيّاً ، حسن الأخلاق ، وأنه عند ما بلغ الأربعين توجهت جميع قواه العقلية الى جهة التأمل فى جوهر الألوهية ، والبحث عن الحقيقة الدينية ، ومذ ذاك الوقت أخذ يعتزل الناس ويخلو بنفسه فى غار بقرب مكة اسمه حراء . وكان محمد أميّاً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يكن فيلسوفا ولكنه لم يزل يفكر فى هذا الأمر الى أن تكونت فى نفسه بطريق الكشف التدريجى المستمر عقيدة كان يراها الكفيلة بالقضاء على الوثنية »

فهذا أيضاً من المستشرقين المتبحرين الذين لم يدينوا بالاسلام ، ولم يعتقدوا بالوحى

المتنزل على محمد ﷺ لكنه ذهب الى أنه عرف الحق بطريق التأمل ، والقذف فى الروع ، مما لا يبعد كثيراً عن العقيدة التى عليها المسلمون :

ولقد تعرض « كارادوقو » الى خرافة الراهب بحيرا التى يزعم بعض المسيحيين أنه هو الذى كان علم محمداً العقيدة وهو الذى ألّف القرآن ، وقال ان هذه الأسطورة موجودة ، وأنها مكتوبة بالعربى ، وأنه كان نشر عنها فصلاً فى مجلة « الشرق المسيحى » ولم ير فيها شيئاً يستحق الاعتبار ، ولكنه لا يزال فى سورية قسيسون من الفئة التابعة لرومة يعتقدون بأن بحيرا كان معلماً لمحمد ، وأنه هو الذى لقنه القرآن وقد ذكر « كارادقو » ماقيل عن بحيرا انه كان راهباً من انطاكية ، ذهب سائحاً الى جنوبى سورية ، وتوغل فى صحراء سينا ، ثم ذهب الى بلاد العرب يعلمهم دين جدهم اسماعيل الخ الا أنه ينعت هذه القصة كلها بقوله « خرافة » .

وكيف لاتكون خرافة القصةُ التى تجعل مثل بحيرا الراهب الاعجمى ينطق بمثل القرآن الذى عجزت عنه مصاقع خطباء العرب ، وفحول شعرائهم أفصح وأبلغ ما كانوا ، ولعلّ أصل هذه الخرافة التى لا يخجل بعض الناس من روايتها أو الاشارة اليها، مايرويه المؤرخون من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد ذهب مع عمه أبى طالب الى الشام فى قافلة ، وكان فى الثانية عشرة من العمر ، وأنه لما مرّ أبو طالب والقافلة ببصرى دعاهم الى الطعام راهب اسمه بحيرا . فلما صاروا حول الخوان قال الراهب انه معكم صبى لايزال غائباً فلماذا لايحضر؟ فاستدعوه لحضر . وطفق الراهب يساله أسئلة و يستحلفه باللات والعزّى أن يجاوب عليها فأجابه الصبى بما يشعر اقشعرار بدنه من ذكر اللات والعزى ، ووجد الراهب من أجوبته ومن سيمائه أنه هو النبىّ الذى رأى صفته فى الكتب ، والذى سيكون خاتم الرسل . وأوصى الراهب أبا طالب بان يحذر على ابن أخيه من اليهود .

قد نقل هذا الخبر ابن هشام فى السيرة النبوية . ونقلها أصحاب « الانسيكلو بيديا » الاسلامية عن ابن هشام . وقالوا ان بعضهم يزعم أن أبا بكر كان فى هذه الواقعة . ثم قالوا ان المسعودى ذكر ان اسم الراهب كان سرجيوس وأنه كان من عبد القيس . وذكر الحلبى أن اسمه كان سرجيوس أو جرجيوس .

وقرأت فى تاريخ أبى الفرج الملَطىّ . الأسقف المسيحى ، ان الراهب لما رأى محمداً ﷺ مع عمه تفرّس فيه وقال : سيكون لهذا الصبى شأن عظيم و يذيع شكره فى المشارق والمغارب

وجاء فى « الانسيكلو بيديا الاسلامية » أن اسم « بحيرا » الذى كان الراهب يعرف به هواسم آرامى معناه « المنتخب » وقدتواردت هذه القصة فى السير الاسلامية لاثبات ان رهبان النصارى كانت عندهم علامات على ظهور النبى ﷺ قال أصحاب « الانسيكلو بيديا » المذكورة فى ترجمة الراهب بحيراً ان مؤرخى بيزنطية قد ذكروا هذا الراهب من قديم وقالوا ان بحيرا كان اسمه سرجيوس وفقاً لما ورد فى كتب المسلمين .

الا ان هناك اختلافاً فى سرد الخبر :

وذلك ان تيوفانس وجيورجيوس فرانتس ، يقولان فى تاريخيهما انه لما خيل لمحمد ظهور الملك جبريل لاول مرة ، وأصابته تلك الرعشة ، خافت عليه زوجته خديجة ، وذهبت الى راهب مبتدع كانت قد طردته الكنيسة اسمه سرجيوس ، فروت له ماحصل لزوجها ، فقال لها انه لايظهر الملك جبريل الا للانبياء .

وأما قصة بحيرا التى ينعتها « كارادوڤو » وجميع المحققين بلفظة « خرافة » ويقول أصحاب « الانسيكلو بيديا الاسلامية » أنفسهم — وهم غير مسلمين ولا مدافعين عن الاسلام — ان مقصد من كتبوها هو اثبات عدم صحة النبوة المحمدية لاغير فهى قد ظهرت فى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر للمسيح ، ولها نسخة بالعربى ونسخة بالسريانى ، وقد ذكر أصحاب « الانسيكلو بيديا » ان اسم مؤلفها « ايشو ياب » وانها تنقسم الى ثلاثة أقسام : الاول ذكر الدول المالكة الاسلامية التى كوشف بها الراهب بحيرا وهو على جبل سيناء . الثانى ملاقاة سرجيوس مع محمد فى بادية يثرب وتعليمه اياه العقائد والشريعة ، والقسم الذى ألفه له من القرآن . الثالث كهانات سرجيوس وما حكاه من أمور الغيب التى تحققت على نحو ماجاء فى القسم الأول .

و بالاختصار اخترعوا هذه الاكاذيب اختراعاً على أمل ادخال الريب والشبهات فى نبوة محمد ﷺ ، وفى نزول الوحى عليه ، وفى كيفية دعوته الى الاسلام ، وفى نشوء ملته وشريعته ، ولكنه لم يخف افتراؤهم هذا على قومهم ، فردّوه بالاجماع تقريباً ، وسلّموا ان أصل القصة قد يكون هذه الكلمة التى قالها هذا الراهب عن محمد لما جاء صبيّاً مع عمه الى الشام ، ورآهما الراهب فى بصرى . وهى كلمة تزيد الدلالة على صحة رسالته ﷺ

(وَيَأْبَى اللهُ الاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

* * *

ولو أردنا أن نورد كل ماجاء في كتب المحققين من الاوربيين من الشهادات بصدق محمد ﷺ لما أمكننا أن ننتهي ، وانما أوردنا بعض هذه الانموذجات مثالاً نكتفي به عن غيره. ويقال ان « كارليك » الكاتب الانكليزي الشهير قد كان من الاوربيين الأوائل الذين شدّدوا النكير على المطاعن الاثيمة والأكاذيب التي كان رجال الكنيسة قد ألصقوها بأذهان الاوربيين في حق الرسول العربي الكريم.

وسأختم هذه الحاشية بنقل ماقاله « فولتير » رأى ملاحدة اوربّة بحق محمد ﷺ وذلك ان « البرنس تسينسندروف » النمسوي الذي تولى حكومة النمسا في أواخر أيامه كان في أيام شبابه جاء الى سويسرة ، وزار كلاً من « ڤولتير » و « جان جاك روسو » ، وذلك في شهري سبتمبر واكتوبر سنة ١٧٦٤ ، وله مذكرات عن هذه الزيارات غير مطبوعة ، محفوظة في دار الآثار الوطنية في ڤيينّا ، قد اطلع عليها المسيو « لوڤال » الافرنسي ، وأرسل عنها مقالة الى جريدة الطان مؤرخة في ١٤ اكطوبر ١٩٢٤ . وقد نقلت أنا هذه المقالة تلخيصاً ونشرت ذلك في مجلة « الزهراء » عددها المؤرخ في ١٥ صفر سنة ١٣٤٤ والمهم منها ان ڤولتير في أحد مجالسه مع البرنس « تسينسندورف Zinzendorf » أجرى ذكر « لوتير » و « كلڤين » فقال للبرنس : « انهما لايستحقان أن يكونا صانعي أحذية عند محمد » ومن المعلوم ان الاوربيين لاسيما الامم البروتستانتية منهم ، يعتقدون انه لولا الاصلاح الديني الذي قام به « لوثير » و « كلڤين » لمّا انبثق فجر الحرية في اوربة ، ولكانت القرون الوسطى قد امتدّت الى عصرنا هذا . فأمّا « ڤولتير » فقد رآهما مقصرين رجعيين ناكصين على الاعقاب ، لأنهما لم يتجاسرا على اعلان الحقائق التي أعلنها محمد ، مع انه قد تقدمهما في الزمن . وهذه شهادة ملحد لم يقرن به أحد في ملاحدة الدهر ، ولا تماري أحد في كونه العامل الأعظم في الثورة الافرنسية.

ولقد ذكرت في مقدمة مقالتي هذه في « الزهراء » أسباب اهتمامي لهذه الجملة التي قالها « ڤولتير » عن مقايسة « لوثير » و « كلڤين » الى محمد وهي : ان بعض النشء الجديد لايعتقدون بشيء ولا يحفلون بأمرٍ مالم تروِ لهم فيه كلاماً عن فيلسوف اوربي عظيم ، لاسيما اذا كان من كبار الملاحدة.

وأيّ فيلسوف لعمري أعظم الحاداً ، وأيّ ملحد أشهر فلسفةً ، من « ڤولتير » الذي لم يتقدمه ولا تأخر عنه في هذا الباب مثله ، ولقد انطقه الحق بما نطق به كما رأيت.

السيرة النبوية

وكتاب

« حياة محمد » لاميل درمنغهم

Emile Dermenghem

للأمير شكيب

— * —

- الحديث والتحديث .
- تفاوت الأئمة المجتهدين فى الاكثار والاقلال منهما .
- درمنغهم يصف أول ما أنزل على النبى ﷺ من الوحى .
- قضية صلب المسيح واختلاف الاسلام والنصرانية فى كيفيتهما .
- مقارنات بين عقائد اسلامية ومسيحية فى عيسى عليه السلام .
- جمع القرآن وكيفية ثبوت مصحف عثمان .

حياة محمد لاميل درمنغهم .

قد أثار الانتباه لهذا الكتاب المؤلف بالافرنسية مانشره الدكتور حسين بك هيكل تحت عنوان « حياة محمد لدرمنجم نقد وتعليق » فى ملاحق جريدة السياسة الغراء الذى يوالى نشر مقالاته فى أعدادها الأدبيــة ورده على درمنغهم مما جعــل كل من يقرأ مقالات الدكتور هيكل فى اشتياق الى معرفة ما كتبه درمنغهم لأنه لم يأتى بشئ مما قال درمنغهم بل علق ونقد بدون أن يترجم ماقاله بخلاف الأمير أبقاه الله (الناشر)

وممن كتب فى هذه السنين الآخيرة فى موضوع السيرة النبوية المحمدية المسيو اميل درمنغهم Émile Dermenghem من كتاب الفرنسيس وممن أقام ببلاد المغرب وخالط المسلمين وهو وان كان مسيحيًّا كاثوليكياً ، فمن المسيحيين ذوى الوجدان والميل الى الانصاف . ولما أقدمت الحكومة الفرنسية فى المغرب على الغاء الشريعة الاسلامية ، من بين البربر ، وأخذت تتشبث بالوسائل المتعددة لأجل اخراجهم من الاسلام وتربيتهم فى النصرانية ، كان هذا الكاتب ممن أقاموا النكير على هذه السياسة ورآها مخالفة لمصلحة فرنسا وماسة بكرامتها فى العالم ، وقد نشر رأيه هذا بدون محاباة فى الجرائد .

فأما كتابهُ فى السيرة النبوية فقد أسماه « حياة محمد » وهو من أهم الكتب وقد صدره بمقدمة يقول فيها : « انه لايوجد واحد فى الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد ، ولكن وُجد من ينكرون بعض ماجاء فى ترجمة محمد فى الكتب العربية . ومن الناس من يتجاوز الحد فى النقد والاعتراض حتى يقع فى الظلم ، أما أنا فقد جعلت كتابى سيرة حقيقية مبنية على المنابع العربية الأصلية بدون اهمال جميع ما وصلت اليه تدقيقات المتخصصين فى هذا الموضوع فى الأزمنة الأخيرة . وقد أردت أن أمثل لمحمد صورة مطابقة له بقدر الاستطاعة كما فهمته من الكتب التى قرأتها وأنعمت النظر فيها ومن مشافهة الأحياء من المؤمنين به . فاذا كانت كل حياة بشرية تنطوى على تعليم ، وكانت كل حادثة تشتمل على مشهد يُمثل حقيقةً من الحقائق ، فكم يكون مؤثراً ومفيداً التلاقى مع رجل من الرجال الذين يقتدى بهم جانب عظيم من الانسانية » . وقال : « ان من المنابع الاولى لسيرة محمد القرآن والسنة . فالقرآن هو أوثقها سنداً ، ولكنه غير شامل الشمول الكافى فى هذا الموضوع ، وأما الحديث فبرغم جميع ماتحراه المحدثون ، لاسيما البخارى ، فى جمع أقوال الرسول والاحاطة بأقل اشارة من شاراته وترجمة الرجال الذين رُوى عنهم الحديث مُسَلسلا ومُعَنْعناً ، لا يزال فيه كثير مما هو محل للشبهة ، ومما هو موضوع ، ومن الجملة انهم نسبوا الى النبىّ معجزات كانت نسبتها اليه بعد موته . والحال انه معروف كونُ النبى نفسه ما ادعى المعجزات . وليس بالسهل تمحيص جميع الأحاديث ومعرفة الصحيح فيها من غيره ، ولكنه ليس من المستحيل معرفة ذلك لمن كان قد وقف على علل التحريف والوضع . ومما لاشك فيه انه بعد الغربلة التامة يبقى عدد كبير من الأحاديث محققاً تحقيقاً رياضياً وذلك بمقارنته بشواهد أخرى

و بتطبيقه على المكان والزمان والبيئة والاوضاع التى كانت . كما ان منها ما يترجح صحته . وقدقال المستشرق سنوك هرگرونيه Snouck Hurgronje انه ليس من السداد فى شيء انكار حديث لايمكن تبيين السبب الذى يقال انه وضع لاجله ولا توجد علة تاريخية تنقضه . أمّا السير النبوية كسيرة ابن‌هشام عن ابن اسحاق وهى أهمها ، وكتاب‌الواقدى ، وطبقات ابن سعد ، والسيرة الحلبية ، وتاريخ أبى الفداء ، والطبرىّ ، والمسعودى الخ ففيها بأجمعها أحاديث ضعيفة . الا انه لاينكر أصلاً وجود روايات فيها هى غاية فى الصراحة والثقة . وانما كثرت المبالغات فى الأعصر الأخيرة . ثم جاء اناس مثل ابن خلدون فأتوا بآراء خاصة بهم . ثم جاء المحدثون مثل الشيخ عبده فى مصر ، وتلاميذه والسيد أمير على الهندى ، وأصحاب مجلة « اسلاميك ريفيو » فجعلوا للنبى صورة اجتهدوا فى تقريبها من ذوق هذا العصر . وربما تكلموا عن عيسى بما لايرضاه محمد نفسه . أما من‌الجهة الاوربية فقد كانت الأوهام والعداوات الدينية تحول دون درس حقيقى علمى لقضية منشأ الاسلام الى أن نبغ فى القرن التاسع عشر رجال أزاحوا هذه العلة مثل كوسين دو برسيفال Coussin de Perceval وموير Muir وفايل Weil ومرجوليرث Margoliouth ونولدكه Noldeke وشبرنجر Sprenger وسنوك هرگرونيه Snouch Hurgronje ودوزى Dozy ومن بعدهم كاتانى Catani ولامنس Lamens وماسينيون Massignon ومونتيه Montet وكازانوفا Casanova و بيل Bell وهوارت Huart وهوداس Houdas ومارسييه Marçais وارنولد Arnold وغريم Grimme وغولدزيهر Goldziher وغود فروا دومومبين Gaudefroy Demombynes وغيرهم .

الا أن بعضهم تجاوز الحدفى التمحيص الى‌أن سقط فى النفى‌المطلق ، فانقلب‌الأمر الى ضده وصار هدماً بدلا من أن يكون بناء . أما أنا فقد جئت وسطاً بين الروايات العربية المأثورة التى يمثلها المسيو دينيه Dinet وسليمان بن ابراهيم ، والطريقة العصرية التى جرى عليها بعض المستشرقين المحدثين ، فكنت دائماً أنظر الى هذه الجهة والى هذه الجهة . وقد وجدت مع الأسف نتائج تدقيقات المحدثين ناقصة الى الآن . وكثيراً ماوجدتها سلبية محضة ومتناقضة بعضها مع بعض . فالمستشرق الفلانى يحكم بأن محمداً كان أعلى من أبناء عصره ، والآخر يقول انه كان شبيهاً بهم من كل وجه . وهذا يقول انه توفى على أثر تخمة ، وآخر

يقول انه أصابته حُمّى منشؤها كثرة الصوم ، وقال « لامارتين » انه لم يكن الها ولكنه كان أكثر من رجل أىْ كان نبياً . وزعم « سبرنغر » هناك وجود هستيريا شديدة . ولكن « باينسكى » هدم هذه النظرية تماماً . و « ماسينيون » نفسه صرح بأن محمداً كان على تمام الاعتدال فى مزاجه . وأما الاب لامنس وهو وان كان من أحدث المستشرقين العصريين وأكثرهم اطلاعاً فلا ينكر أنه من أشدهم تعصباً وقد ذهبت بهجة كثير من تحقيقاته بشدة تحامله على الاسلام ونبيّه . وقد استعمل لامنس فى تاريخه للاسلام عين التعنت والطرق الانتقادية التى استعملها كثير من النقاد العصريين للنصرانية . فلامنس اذا مرّ بحديث مطابق لما فى القرآن . يزعم انه انما هو نسخة عن الآية التى فى القرآن ، ومن الغريب أن يكون تطابق شهادتين ، موجباً لتساقطهما بدلا من أن يكون موجباً لزيادة الثقة فيهما ، ولنضرب مثالا على ذلك : يقولون ان الحديث المنسوب للنبى فى فضل العسل انما وضعه المحدثون تأييداً للقرآن الذى فيه كلام على فوائد العسل فنجيب لماذا ياليت شعرى لايجوز أن يكون القرآن قد نوّه بفوائد العسل وأن يكون محمد أيضاً أحب العسل ووجده صحيًّا وأوصى به ؟ وهو فى الحقيقة شراب صحى لاشبهة فيه ومما يجب أن يوصى به . فهل تكون رواية شىء كهذا عن النبى ، مع عدم وجود أى شىء منطقى أو تاريخى أو مختص بالموضوع نفسه يمنع صدوره عنه ، من الروايات التى تتضمن مايوجب الشبهة ؟ اننا لانفهم هذا وان كنا لاننكر الفوائد الكثيرة التى فى كتب لامنس لاسيما كتابه « مهد الاسلام » الذى فيه معلومات كثيرة عن حالة مكة زمان البعثة . فلذلك قد حذفت كل مارأيته غير ثابت من الروايات وكذلك المعجزات التى وُضعت أخبارُها بعد الرسول بقرنين . و بقيت أشياء لم أستطع الجزم بصحتها ولا بعدمها فأشرت الى مافيها من احتمال أحد الامرين » انتهى

قد نقلنا كلام هذا الكاتب الكاثوليكى على علاته ، حتى لا ينسب الينا الاستشهاد باقوال رجل ذى ضلع مع الاسلام ، فها نحن أولاء ننقل عنه ما ذكره فى الصفحة ٥٢ عن النبى ﷺ من أنه كان بعد أن تزوج بخديجة ، قد أصبح معروفاً فى قومه وكان الناس يجلون أوصافه ، ويحمدون سيرته ، و يلقبونه بالأمين أى الصادق الذى يُعتمَد عليه ، وننقل فى صفحة ٥٦ أنه لما اختلفت قريش فى قضية بناء الكعبة وأىّ فخذ منها يجب أن يعهد اليه

بوضع الحجر الاسود فى مكانه وكادوا يقتتلون . اتفق الجيع على أن يعهدوا بذلك الى محمد ابن عبد الله الهاشمى قائلين : هذا هو الأمين . ثم ذكر مبدأ البعثة ولم يقل شيئاً يشتم منه أدنى شبهة فى صدق محمد ﷺ . ففى صفحة ٦٢ يقول هكذا : « كان محمد فى حالة بحران فكان ينشد السكون فى تلك الجبال التى كان يذهب فيخلو فيها بنفسه متأملا فى السماء ذات الكواكب منصتاً الى ما كان يسمعه من أعمق أعماق قلبه وهو الرجل الامىّ الفطرى الصادق وذلك الصوت هو صوت الحقيقة الأبدية الخارج من قلب الأشياء نفسها .انه كان يرى تلك الأشياء الجارية فى عصره على غير استقامة وقد كان هو لا يطيق غير الحق والحق الذى لا جدال فيه . وكان لا يقدر أن يعيش الا فى علم الحقيقة وكان يرى أن كل ما حوله من الأحوال لم يكن بحق . فالحياة التى عليها قريش لم تكن حياة صحيحة : متمولون يبعثون بقوافل للتجارة و يربحون أرباحاً فاحشة ، و بوادٍ يشنون الغارات ولا يعرفون الا الفوضى ، وأفّاقون يفعلون كل ما يخطر ببالهم ، وكل هؤلاء لا يحيون حياة صحيحة ، و ينسون أن الأصنام المصفوفة فى الكعبة ليست الا معبودات باطلة وان الهبل ذا اللحية الكبيرة لم يكن الا باطلا » .

ثم قال فى صفحة ٨٠ : « لم يكن محمد ممن لا يعرف العالم الباطنى نعم لم يكن متصوفاً بالمعنى المعروف ، الا أنه كان ممن يرى أن الأمور التى فى الغيب أعظم من الأمور التى تحت الحس وان المشهود أدنى درجة من المحجوب . فالنظام الروحى فى نظره هو الأهمّ وهو الوجود الحقيقى ، فحمد قد قبض على هذه الحقيقة بيده ونادى الخلق ليتمسكوا بها . جاء بقلب خالٍ من كل كذب ، ومن كل ثقافة باطلة ، ومن كل نفخة فارغة وأمسك بكلتا يديه بالعروة الوثقى ، ولا يمنع هذا من أنه كان عمليّاً تامّ المعرفة بأحوال العالم المادى بل كان ذلك التجرد الروحىّ أعون له على ادارة أمور الدنيا وهكذا كان كبار الروحيين فى العالم يتغلبون على العالم المشهود بالعالم غير المشهود . » اهـ

فأنت ترى أن هذا الرجل الكاثوليكى لم يتهم محمداً بريبة ، ولا حمل دعايته الى الله على مارب دنيوى ، ولا رماه بشىء من الأكاذيب التى طالما رماه بها كثير من الاوربيين عن بغض وعماية قلب أو جهل ونقص اطلاع . نعم هو غير معتقد بصحة كثير من الأحاديث حتى الوارد منها فى الصحيحين . وهذا مشرب من المشارب الفكرية لا نقدر أن نؤاخذه

عليه لا سيما ان كثيرين من المسلمين ومن ذوى الحمية الاسلامية وممن لا ينقصهم شيء من الايمان والايقان يشاركون المسيو « درمنغهم » فى هذا الرأى ، ولا يجعلون المعجزات شرطاً فى التصديق بنبوة محمد ﷺ الذى معجزته الكبرى القرآن . وكذلك لا يرون من الواجب الدينى الايمان بكل ما جاء فى الصحيحين وغيرهما من الأحاديث لاحتمال أن يكون تطرق اليها التبديل والتغيير أو دخلها الزيادة والنقصان ، اذ من المعلوم أنهم كانوا يروون الأحاديث بالمعنى . واذا روى الحديث بالمعنى لم يخلُ الأمر من أن تتطرق اليه زيادات كثيرة قد يتغيّر بها المعنى أو يبعد عن أصله . واذا قلنا انّ رجال الحديث الذى يروى عنهم البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، كانوا ممن يوثق بروايتهم وممن لا يخالج الناس الشك فى صدقهم وان المحدثين غربلوا الأحاديث كلها وليّنوا منهـا ما رأوه ضعيفاً ، وقوّوا ما رأوا أسانيده مستوفية لشروط الصحة ، وعوّلوا على هـذا الضرب من الحديث ، وجاء الفقهاء فأخذوا منه الشريعة ، وجعلوه مرجعاً للاجتهاد ، وانهم كانوا أبصر بأحاديث الرسول من أن يبنوا على غير أساس متين . فالجواب على ذلك أنه ليس كلام هذه الفئة هو اطلاق القول على جميع الأحاديث ولا مقصدهم الاشتباه فيها بأسرها بل هناك أحاديث متواترة يستحيل التواطؤ على وضعها وأحاديث مشهورة وصلت من توثيق الرواة وتصحيح العلماءوقيام الأدلة والقرائن من الأحاديث الأخرى والأحوال الجارية يومئذٍ على صحة وقوعها الى حـد أن أصبحت كالحقائق الرياضية مما لا خلاف فيه . ولكن الأدلة التى تستظهر بها هذه الفئة على وجوب عدم القطع بأكثر الأحاديث ولزوم التوقف فى كثير مما يسارع الناس فيه ، هى ما يلى :

أولا — عدم امكان رواية الأحاديث الا النادر الأندر بدون زيادة أو نقصان مما يعرفه كل انسان من نفسه وذلك أنه ان أراد أن يعيد كلاماً سمعه ولو بعد سماعه اياه بساعةٍ من الزمن تعذر عليه سرده بحرفه .

ثانياً — كونهم يقولون ان ما لا يكاد يحصى من الأحاديث مروى بالمعنى . فيتغير فيـه كثير من اللفظ .

ثالثاً — جواز السهو والنسيان ممـا لا يخلو منه انسان ولا يمكن الجدال فيه أصلاً .

رابعاً — كون النبى ﷺ نفسه أشار الى وضع الأحاديث عليه فى أيامه وانه من أوثق

الأحاديث قوله : لقد كثرت عليّ الكذابة ، فمن كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار .

خامساً — ممّا رواه عبدالله بن الزبير عن أبيه قال : قلت للزبير مالك لاتحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان قال : اما انى لم أفارقه منذ أسلمت ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار . والقرينة قائمة على صحة رواية عبد الله بن الزبير هذه لأن الزبير كان من أكابر الصحابة ومن العشرة ولم يحدث . وعن السائب بن يزيد أنه صحب سعد بن أبي وقاص من المدينة الى مكة قال : فما سمعته يحدث عن النبي ﷺ حديثاً حتى رجع . وجاء فى الطبقات الكبرى لابن سعد : أنهم دخلوا على سعد بن أبي وقاص فسُئل عن شيء فاستعجم فقال : انى أخاف أن أحدثكم واحداً فتزيدوا عليه المائة . وسعد أيضاً من العشرة ومن أكابر الصحابة ولم يحدث . فالقرينة اذاً تؤيد هذه الرواية عنه . وروى عمرو بن ميمون قال : اختلفت الى عبد الله بن مسعود سنةً ما سمعته يحدث فيها عن رسول الله ﷺ ولا يقول فيها : قال رسول الله ﷺ . الا أنه حدث ذات يوم بحديث فجرى على لسانه : قال رسول الله ﷺ فعلاه الكرب حتى رأيت العرق يتحدر عن جبهته ثم قال : ان شاء الله اما فوق ذاك واما قريب من ذاك واما دون ذاك . وعن علقمة بن قيس : أن عبد الله بن مسعود كان يقوم قائماً كل عشية خميس فما سمعته فى عشية منها يقول : قال رسول الله غير مرة واحدة قال : فنظرت اليه وهو معتمد على عصا فنظرت الى العصا تزعزع . وجاء فى طبقات ابن سعد رواية عن مسروق : أنه حدث يوماً حديثاً فقال سمعت رسول الله ﷺ ثم أرعد وأرعدت ثيابه ثم قال : أو نحو ذا أو شبه ذا . قلت وكل هذا ناشئ عما يعلمونه من كثرة تطرق التغيير الى الأحاديث وعن تورعهم عن الزيادة فيها أو النقصان منها مهما كان الزائد أو الناقص قليلا .

سادساً — جاء فى طبقات ابن سعد عن معمر عن الزهرى : أراد عمر أن يكتب السنن فاستخار الله شهراً ثم أصبح وقد عزم له فقال : ذكرت قوماً كتبوا كتاباً فأقبلوا عليه وتركوا كتاب الله . وورد فى الطبقات خبر آخر : سُئل عمر عن شيء فقال : لولا أنى أكره أن أزيد فى الحديث أو أنتقص منه لحدثتكم به .

***

وروى الامام السيوطى فى تاريخ الخلفاء نقلاً عن الامام النووى أن كل مارواه أبو بكر

الصديق عن رسول الله ﷺ من الأحاديث مائة حديث واثنان وأربعون حديثا . قال وقد روى عن أبي بكر أكابر الصحابة عمر وعثمان وعلى وابن عوف وابن مسعود وحذيفة وابن عمر وابن الزبير وابن عمرو وابن عباس وأنس وزيد بن ثابت والبراء بن عازب وأبو هريرة وعقبة بن الحارث وعبد الرحمن ابنه وزيد بن أرقم وعبد الله بن مغفل وعقبة ابن عامر الجهنى وعمران بن حصين وأبو برزة الأسلمى وأبو سعيد الخدرى وأبو موسى الأشعرى الخ

قلت وهو شيخ أصحاب رسول الله وأكثرهم له ملازمة وليس فيهم من يفوته فى الثقة والأمانة وكان رضى الله عنه نسابة عصره وأخبر الناس بأمور القبائل وكل هذا يقتضى قوة الحفظ . فان كان الصديق لم يحدث كثيراً فلا شك فى أن ذلك لم يكن الا من خوفه من الزيادة والنقصان . ثم نقل السيوطى فى تاريخ الخلفاء الأحاديث المائة والاثنين والأربعين التى رواها أبو بكر بعينها .

***

وقال ابن خلدون فى المقدمة ان الأئمة المجتهدين تفاوتوا فى الاكثار والاقلال من الحديث فأبو حنيفة رضى الله تعالى عنه يقال بلغت روايته الى سبعة عشر حديثاً أو نحوها ومالك رحمه الله انما صح عنده مافى الموطأ وغايتها ثلاثمائة حديث أو نحوها وأحمد بن حنبل رحمه الله فى مسنده خمسون ألف حديث ولكل ماأداه اليه اجتهاده فى ذلك . قال : وقد تقوّل بعض المبغضين المتعسفين أن منهم كان قليل البضاعة فى الحديث فلهذا قلّت روايته . قال : ولا سبيل الى هذا المعتقد فى كبار الأئمة لأن الشريعة انما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير فى ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتلقى الأحكام عن صاحبها المبلّغ لها وانما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التى تعترضه فيها والعلل التى تعرض فى طرقها سيما والجرح مقدم فى الأكثر فيؤديه الاجتهاد الى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد ويكثر ذلك فتقلّ روايته (الى أن قال) : والامام أبو حنيفة انما قلّت روايته لما شدد فى شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقينىّ اذا عارضها الفعل النفسى وقلّت من أجلها روايته فقل حديثه لا أنه ترك رواية الحديث متعمداً فحاشاه من ذلك ويدل على أنه

من كبار المجتهدين فى علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره رداً وقبولاً . اه

***

و بعض الجهلاء أو المتعنتين من غير الجهلاء يعيبون على علماء الاسلام كثرة الاعتناء بأسانيد حديث الرسول وغيره ، والاستقصاء فى العنعنة والعزو الى فلان عن فلان والمبالغة فى البحث عن رجال الحديث الذين وصل الى الناس من طرقهم وغير ذلك مما يمل منه القارئ بزعمهم وكان بعضه يجزى عن كله . وهذا القول مردود بتمامه لما فى الحديث من الأهمية من حيث انه منسوب الى النبي ﷺ أو الى أصحابه الكرام ، ومن حيث انه هو مناط التشريع والمرجع بعد القرآن فى الأحكام ، ومعرفة الحلال من الحرام ، فمهما بالغ العلماء فى التحرّى للوصول الى الحقيقة من جهة صحة صدور الحديث عن صاحب الرسالة عليه السلام فلا يكون كثيراً . بل قد رأينا أن العلماء قالوا فى الحديث انه « علم انطبخ ، حتى احترق » وانه لم يشتغل طلبة العلم فى الاسلام بشىء أكثر من اشتغالهم بالحديث وان التحرى واستيفاء شروط الثقة قد بلغا فيه الدرجة التى ليس وراءها مطمع لمزيد ، ولا يزال مع ذلك الشك يحوم حول أحاديث كثيرة واردة فى الصحاح . وهذا الشك ليس من جهة عدم الأمانة فى النقل . وقد احتاط لها أصحاب هذه الكتب لا سيما البخارى ومسلم ، بما ينفى كل شبهة ، وانما من جهة عدم استطاعة البشر الا ما ندر من رواية كل يسمعونه بحرفه أو من وصف كل حادثة كانوا فيها كما وقعت بلا زيادة ولا نقصان . وقد يكون اثنان فى حادثة من الحوادث و يرويها كل واحد منهما بشكل يختلف قليلاً أو كثيراً عن الآخر .

ولما كان التحرى معروفاً أيضاً عند الاوربيين ، وكانوا مولعين بما يسمونه «التمحيص» critique وكانوا يذهبون من هذا التمحيص كل مذهب حتى فى المسائل التى لا تتعلق بها عقائد ولا أحكام ولا معرفة حلال ولا حرام كان من العجب أن يعترض المعترضون وأكثرهم من المتفرنجة على مبالغة المسلمين فى نخل الأحاديث .

ولقد اطلعنا منذ سنتين على مبحث لعالم أوربى فى جريدة « جورنال دو جنيف » يذكر فيه كتاباً اسمه «شهود» Témoins من تأليف عالم افرنسى اسمه المسيو «جان نورتون كرو» Jean Norton Cru ألفه على وقائع الحرب العامة وتحرى فيه الى أقصى درجات التحرى

وانتهى بعد التنقيب الطويل الى تقسيم الروايات الى ما قسمها علماء المسلمين من ثابت وحسن وضعيف وساقط وكان تأليف هذا الرجل نتيجة نخله ثلاثمائة مجلد لمائتين وخمسين مؤلفاً من أمم وطبقات مختلفة . وفى هذه المؤلفات جرائد وكتب تذكارية وكتب ملاحظات ورسائل وأقاصيص وكلها من أقلام أناس شهدوا بالعيان من جنود وضباط وقواد

فالمسيو « كرو » لم يحكم على هذه التآليف بمجرد الاطلاع عليها بل راجع تراجم أصحابها وسيرهم الشخصية واجتهد أن يعرف مقدار مدة اقامتهم بساحة الحرب وأن يعلم صفتهم المدنية أو العسكرية . وهذا فيه شبه من علم الرجال الذى هو من العلوم اللازمة للحديث فى الاسلام . ثم لم يقتصر على هذا بل قارن بين الروايات وتحرّى فى معرفة المواقع ليرى هل تنطبق عليها أم لا ؟ وما درجة انطباقها ؟ وهل هذه المقارنات والمعارضات بكل مافيها من التدقيق تنتهى الى القول بنفى الحوادث المستثناة التى جاءت على خلاف القاعدة . وعد كل مالم ينخل بهذا المنخل غير واقع ؟ فالجواب على ذلك ان هذا أيضاً محل للسؤال

ولقد عنى المسيو « كرو » فى مقدمة كتابه بنفى الأخبار الواهية والتصورات الباطلة التى انتشرت عن حوادث كثيرة من الحرب

و بعد ان نخل جميع الروايات نخلاً دقيقاً استخلص قواعد مقررة طبّقها على الحوادث تطبيقاً جازماً — أشبه بالشروط التى يضعها رجال الحديث للحديث فاذا استكملت فيه جزموا بصحته — وكانت خلاصة تدقيقاته أن قسم المائتين والخمسين مؤلفاً الى ست درجات . فالدرجة السادسة هى التى ليست لها أدنى قيمة تاريخية — أشبه بدرجة الحديث الموضوع — والدرجة الخامسة هى التى لها قيمة ضئيلة جداً — أشبه بالحديث الواهى المتناهى فى اللين والدرجة الرابعة هى الضعيفة . ومن هذه الدرجة أكثر الواصفين لحوادث الحرب وهم نحو ٢٦ فى المائة من اولئك الذين غربل المسيو كرو كتاباتهم . أما الدرجة الثالثة فهى التى يقال انها حسنة — كالحديث الحسن — وأما الدرجة الثانية فهى التى تضاهى درجة الصحيح فى علم الحديث . وأما الدرجة الأولى فهى التى تقابل الحديث المشهور . والثانية منها ١٩ فى المائة والأولى ١٢ فى المائة . وهو يعبر بالافرنسية عن الدرجة السادسة بقوله aucune valeur ducumentaire وعن الدرجة الخامسة Trés faible وعن الدرجة الرابعة Médiocre وعن الدرجة الثالثة Assez bon وعن الدرجة الثانية bon وعن الدرجة الأولى excellent

ولا يوجد مانع من أن يكون اطلع « كرو » على تقسيم المسلمين للحديث فنسج على منوالهم وان كان هو لم يذكر ذلك .

قال« كرو » ان رواج الكتاب وشهرته وبراعة كتابته لامدخل لها فى درجة صحته . ولهذا عنده كتاب مشاهير كتبوا عن الحرب مثل « رينه بنيامين » فى الدرجة السادسة لانه ليس المقصودهو سحرالبيان بل صحة الرواية . وقد وضع « باربوس »و «دوهاميل» و «دورجليس» فى الدرجة الرابعة . و بعكس ذلك عنده من الدرجة الأولى ٢٩ مؤلفاً أسماؤهم مجهولة عند الجمهور بل مجهولة عند المتخصصين . وكلام كرو هذا صحيح لا غبار عليه

قال صاحب مقالة « جورنال دو جنيف » على هذا الكتاب : انه وان كان المسيو كرو قد استخلص من تدقيقاته وجوب الحذر ومزيد التثبُّت فى نقل الأخبار فقد دلنا على الطريقة الوحيدة الموثوق بها فى الأخبار

قلت : وهذه الطريقة هى الطريقة الاسلامية ليس فى أحاديث الرسول والصحابة فقط بل فى جميع أحاديثهم ، وأخبارهم ، وتواريخهم وانما أتقنها المسلمون الى حد أن أصبح الناس يملونها مللهم من العمليات الحسابية ولم يبلغ منها الافرنج شيئاً من درجة الاتقان التى عند المسلمين فيها .

وربما كان تأليف المسيو كرو هذا فذًّا فى بابه .

فمن هذا لايكون عجباً أن لايتلقّى رجلٌ أجنبىٌّ عن الاسلام جميع ماورد فى الصحاح بالقبول . ولنعد الى سيرة الرسول عليه السلام حسبما وصفها هذا المفكر المسيحى الذى مذهبه التقريب بين الاسلام والنصرانية ، واثبات مابينهما من الصلات الكثيرة . وهو مذهب حسن ومشرب محمود ، وان كان هو فيه يركب بعض الأوقات مركباً صعباً . قال فى صفحة ٦٥ ماملخصه : —

«فى نواحى سنة ٦١٠ للمسيح بلغ البحران النفسى بمحمد أشدّه ، فكان لايقدر أن يتصور بدون أن يتألم حالة قومه وكان يرى ان أمراً ضرورياً جداً ينقصه وينقص قومه . وكان يرى العرب كل قبيلةٍ منهم عاكفة على صنمها وكانوا يقولون بالجن ، والاشباح ، والغيلان ، ولكنهم يتعامون عن الحقيقة الواحدة وهى الحقيقة الالهية . ربما لم يكونوا ينكرون هذه الحقيقة ولكنهم كانوا فى غفلة عنها ، وكانت هذه الغفلة هى الموت الروحى.

فكان قلب محمد قد خلا من كل فكر غير الفكر فى الله . وكان قد تجرد من كل قوة غير هذه القوة . وكان قد نفض جميع الكائنات التى ليست فى نظره بظل للواجب الوجود الأحد الصمد . وكان هو قد عرف الله وعرف العقيدة بالله عند نصارى سورية أو مكة ، وعرف ان هناك كتباً سماوية وأن رسلاً موحىً اليهم كانوا يكلّمون أقوامهم بلسان الحق تعالى ، وانه كلما ضل الناس عن الصراط المستقيم كانت تأتى رسل فتهيب بهم اليه وتذكرهم بالحقيقة السرمدية . فالديانة التى كان يبعث الله بها الرسل لم تزل واحدة وانما كان البشر يحرفونها عن مواضعها فيعود المرسلون ويردّونها الى أصلها . فالأمة العربية كانت لذلك العهد فى ابّان ضلالها أفلم يكن هذا هو الوقت الذى حانت فيه رحمة البارى تعالى أن تتدارك هذه الأمة ؟

وأحبّ محمد فى تلك الفترة العزلة ، فكان يشعر فى خلوته بجبل حراء بسرور عميق يتزايد يوماً فيوماً ، فكان يقضى هناك الأسابيع وليس معه الا قليل من الغذاء لأن نفسه كانت تلتذ بالصوم والتهجُّد ، وترتاح الى التأمل والتبحر ، وأصبح سواءً عنده الليل والنهار والحلم واليقظة . وكان يقضى ساعاتٍ طوالاً جاثياً على رُكَبهِ فى جوف الليل أو مضطجعا فى عين الشمس ، وأحياناً يمشى فى شعاب تلك الجبال وبينما كان يسير كان يسمع أصواتاً خارجة من تلك الصخور وكانت تلك الصخور تناديه « يارسول الله »

وعندما كان يعود الى بيتهِ كانت خديجة تغتمّ لما تراه عليه من حالة الاضطراب والصمت . وكان يغيب أحياناً عن حسّه ويصيبه سكات وينقطع نفَسهُ ولا يزال حتى يأخذه الوسن فيهجع ثم يعود وقد تصاعدت أنفاسه فيرى فيما يرى النائم شخصاً ملأ الأفق فوق رأسه ، ودنا منه وفتح له ذراعيه يريد أن يمسكه فيستيقظ محمد مذعوراً والعرق يتصبب منه . فتأخذ خديجة بمسح جبينهِ وتسأله عن حاله بصوت هادئ لئلاّ تذعره فلا يجيبها أو يجيبها بكلمات لا تفهمها

وبقى نحوا من ستة أشهر على هذه الحالة الى أن ضنى جسمه ، وصار يتخلّج فى مشيه ، وانتشر شعره ، وتغير نظرهُ ومنظره ، فاستولى عليه الجزع . وخشى أن يكون أصابه مسّ ، وصارت تجرى على لسانه كلمات بدون اختيار كان يخشى أن تكون من الشعر الذى يوسوس به الجن وكان هو بفطرتهِ يكره الشعراء الذين فى كل واد يهيمون

ويقولون مالا يفعلون. وأخيراً قال لخديجة : انى أخاف أن يكون بى مسّ ، وقد صرت لا أقدر أن أحمل هذا العبء ، وانى أرى نفسى كأنّ بى لَمماً ومن كان يظن انى سأصبح شاعراً أو يستولى علىّ الجن . لا تقولى هذا لأحد أصلاً .

وكانت خديجة تنتظر هـذه النجوى بأمل وبوجل . وما كانت تقدر أن تطمئن قلبه وهى نفسها فى قلق عليه . ولكن هـذه المرأة كانت كأنها قد خُلقت لتؤيده ، ولتُسرّى عنه من همومه ، وكانت فيها متانة الحلائل الفاضلات والأمهات المَلاءى بالْحَنَان ، فقد كان هذا الرجل أفتىَ منها سناً فعطفت عليه بكل مافى قلبها من الحبّ والرحمة ، وازداد حنوُّها عليه لأنها رأته بهذه الحالة من الضعف والهزال، بعد أن كان ذلك الرجل القوى وذلك الزوج الحبيب . فكيف يمكنها أن تتأخر عن تثبيت فؤاده بكل مايمكنها فقالت له :

يا أبا القاسم ! ألست أنت الأمين كما سماك الناس؟ ألست بالرجل الصادق المخلص المعتمد عليه . انك أنت الذى لم تغشّ أحداً فلا يمكن ان الله يتخلى عنك . أفلم تكن أنت الرجل الصالح الصابر البرّ الكريم . أفلم تكن رءوفاً بأهلك ؟ أفلم تطعم المسكين؟ وتكسُ العريان وتُعن ابن السبيل وتَحمِ الضعيف ؟ انه لن يدَعَك الله عرضة لوساوس الشياطين الكاذبين ولاَ للجن اللاعبين . فقال لها : اذَن مَن هذا المخلوق الذى جاءنى ولا يزال يظهر لى ، من ذا الذى لا يقول لى اسمه ولا أقدر أن أتوارى منه ؟

و بينما كان يقول لها هذه الكلمات اشتد به البحران وارتجف ، وعلت وجهه الحمرة ، ثم عقبتها الصفرة وسمع بآذانه دويا واتّسعت أحداقُه وقال : هذا هو قد جاء

وكان حينئذ مُستيقظاً ولم يكن نائما ليقال ان ذلك حِلم من الأحلام . فجاءت خديجة وغطته بكسائها وضمته اليها وسألَتْه أفلا تزال ترىَ ؟ فقال لها : لم أعُد أرى

اذن هو ليس هـذا من الجن الخبثاء ولا من الشياطين . أفلا تراه احتشم طهارة النساء وذهب . اذن ليس الا ملكاً من ملائكة الله

ثم جاء شهرُ رمضان وتكامل الهلال وتألق ثم أخـذ يتراجع . ففى احدى الليالى بينما كان محمد نائماً فى أحد كهوف حرآء ، عاد فتجلى عليه ذلك الشبح وفى يده قطعة من الحرير عليها كتابة ، وقال له ذلك الشخص : اقرأ . فاجابه : لست بقارئ فالقى الشبح نفسه عليه ووضع له قطعة الحرير حول عنقه ثم أعاد عليه القول : اقرأ . فأجابه لست بقارئ ، فأعادها

عليه ثالثة اقرأ : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ »

فردد محمد هذه الكلمات وأحس بالنور قد أشرق على قلبه ورأى قطعة الحرير المغطاة بالاشارات أمام عينيه ، وبرغم أنه كان أمياً رأى نفسه يفهم تلك الكتابة وقُذف فى رُوعه مجموع كتاب ملآن بالأسرار الالهية . وكان هذا الملك قد ثبّتَ كل ما كان يجول فى أفكاره منذ أشهر فالله تعالى قد خلق الانسان وأوحى اليه حقائق تجتاز مسافة عقله الطبيعى . لذلك الله قد علم الانسان بالقلم وعلمه مالم يعلم . هذا هو سرّ الوحى وهذا هو سرّ الكلمة المكتوبة الذى كان بشديد التأثير فى الرجل الأمىّ ، لا سيما وقد كانت الكلمة المكتوبة وحياً الاهيًّا اذَن العرب سيكون لهم بعد اليهود والنصارى كتاب مقدس يقرأونه ، ترتيلاً وشَريعة الاهية تهديهم الى طريق النجاح

ثم ذهب ذلك الشبح الذى تجلى على محمد فاستيقظ وهو موقن بان كتابا قد كُتب فى قلبه فخرج من الغار يجرى بين الشعاب ، ووصل الى ذروة الجبل فسمع صوتاً من السماء يقول له : « أنت رسول الله » فرفع محمد عينيْه فاذا الملك فى الأفق بصورة بشريّة وهو يتلألأ نوراً فحوّل وجهه فبقى يرى المنظر نفسه وكان كيف توجه يرى الملك أمامه ماثلاً مُتلألئاً الى حد أنه أصبح يرى المَلك أمامه دائماً ينظر اليه ويحدّق فيه ببصره . فوقع الرعب فى قلب محمد وجثا على الأرض ووضع يديْه على رأسه وغاب عن حواسه . وكانت خديجة قد استبطأت رجوع زوجها الذى كان ذهب وما معه الا زاد قليل فأرسلت فى أثره أحد عبيدهَا فبحث فى الجبل ونادى هنا وهناك ولم يجد أحداً وعاد فأخبرها فازدادت قلقاً . وبينما هى على تلك الحالة اذ دخل محمَّد وعلى وجهه علامة الاعياء ، ونظره غريب وأثوابُه متشعثة ، وبدون أن يتكلم بكلمة واحدة رمى نفسه فى حجر خديجة واضطجع على ركبتيها أشبه بالولد الذى يمسّه الجهد فسألته خديجة : أين كنت يا أبا القاسم فقد أرسلت فى أثرك ووصلوا الى الجبل فلم يجدوك . فأخبرها بكل ماوقع معه وأفضى اليها برُعبْه واضطرابه وشكوكهِ . فقالت له : قسماً بمَن نفسُ خديجة بيده انى لأرجو ان تكون أنت رسول الله . فالله لا يسمح بان تكون أنت على ضَلال . أفلم تكن برّاً وفياً صادقاً تقيّاً واصلا للرحم ، مَوْئلا للضعفاء ، محُسِنا للفقراء ، قارياً للضيوف ؟ كلا ان الله لن يخذلك . فأصابت محمداً رعْدة وَعاوده

الرعب . وقال لها : بادري بتغطيتي وكرّر عليها القول فألقت عليه كِساء من الصوف غطّى جميع جسمه . وما زالت بجانبه الى أن أخذه النوم . فعند ذلك ذهبت خديجة الى ابن عمها ورَقة ، وكان يعرف كتب اليهود والنصارى و يعلم الحكمة ويمكنه أن يُزيل من حيرتها . وكانت خديجة تحب بعلها حباً جمّاً وتؤمن به . ولكنها شاهدت هذه المرة شيئاً عجباً حيّر عقلها. فلما أخبرت ورقة هتف قائلاً : ان كان ما قلتِه صدقاً فمحمد سيكون نبيّ هذه الأمة . وهو لا شك الرسول المنتظر ، وان الملك الذى تجلى عليه هو الناموس الأكبر ، وهو الذى كان يبعثه الله الى موسى وهو الذى بواسطته يوحى الله الى الأنبياء . ثم قال ورقة لخديجة : ثم ماذا قال الملك لمحمد ؟ أأمَرَه بان يبلغ دعوته ، أأشار اليه بتبليغ رسالة مبيِّنة ؟ أألقى اليه أن يدعوا الناس الى الله ؟ فانني أود أن أعرف ذلك حتى أكون أول من آمن بمحمد . اذهبِى الى زوجك وسكّنى فؤاده وأزيلى مخاوفه

فرجعت خديجة الى بيتها فرأت محمداً لايزال هاجعا فتركتْه على حاله واذا به يرتجف عودا على بدء والعرَق يتصبب منه ثم جلس وهو يضطرب ، وكان الملك قد جاءه ثانية فقال له : قمْ . فقال محمد : قمت فأصنع ماذا ؟ قال الملك : « يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

فقالت له خديجة لماذا لاتضطجع وتستريح ؟ فقال لها محمد : قد ذهب النوم وذهبت الراحة وقد عاد الملك وهو يأمرنى أن أدعو البشر الى الله وأن أعبده . فمن أدعو ياترى ومن يؤمن بى ؟ ثم حنى رأسه حزينا وسكت . فقالت له خديجة : ان لم يؤمن بك أحد آمنت بك وحدى

وبعد ذلك بمدة ذهب محمد الى الكعبة فصادف ورقة يطوف فسأله ورقة عما جرى معه فأخبره بالقصة كلّها فما أتمها حتى هتف ورقة قائلا : « والذى نفسى بيده أنت رسول هذه الامة وما جاءك الا الناموس الذى جاء من قبل الى موسى ، انى سأكون معك وآخذ بيدك فيما سيحل بك من النوائب وسأنصرك على قومك »

فقال له محمد: وماذا تريد أن تقول بهذا ؟ فقال له ورقة : نعم لم يأت أحد بما أتيتَ به الا عُودى ، فسيقاتلونك قتالاً شديداً ، وسيغرّبونك ، وسيقولون انك مجنون وانك

كذاب . آه لو كنت فى ذلك الوقت شابا أو لو كنت أحيا الى ذلك الحين ! ثم أخذ برأس محمد وقبّله وسكّن من رَوْعه .

وكان محمد محتاجاً الى جمع قواه ، وكان يجاهد نفسه قبل أن يحتاج الى مجاهدة الناس . وكان الوحى قد انقطع ولم تتجدّد معه تلك الرؤية التى رآها فوقع فى حيرة عظيمة ، وصار يحدث نفسه : أفترانى كنتُ فى حلم ! وثقلت عليه هـذه الحالة جداً فرجع الى جبل حراء يريد أن يعلم هل تُعاوده تلك الرؤية التى رآها قبلاً أم لا ! واشتد عليه الأمر جداً وصار يرى نفسه خلاء بعد أن كانت ملاء . فأخذ يَهيم فى الجبال وجعلت تتقاذفهُ أمواجُ الريب وهو لايرى منفذاً مما كان فيه الى أن تمنى الموت . ولـكن بينما هو فى أقصى درجات الشدة يكاد يقذف بنفسه فى مهاوى الجبل ، اذ سمع صوتاً يقول له : أنت رسُول الله حقاً ، فالتفت فاذا بالملك يمسكه أن يقع وقد تكرر عليه هذا الصوت مراراً فعاد الى بيته فأخبر خديجة بما رآه وسمعه . فأخـذت خديجة تثبت فؤاده . ثم بعـد ذلك بمدّة جاءه الملك فتلاَ عليه « وَالضُّحَىٰ وَالَّيلِ إِذَا سَجَىٰ مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَئَاوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ »

فما كان أعظم تلك البشرى لتلك النفس التى لم تـكن تستطيع أن تعيش الا فى اليقين . فلم تـكن حلاوة تلك التّعزية بما نزل عليه من لطف الوحْى هى المؤثّـر الأكبر فيه وانما كان زوال الحيرة وتحقق المصير . لقد أمر بأن يحدث بالنعمة فهو سيحدّث بها . ولقد أوحى اليـه الملك الصلاة والعبادة وأفهمه أن الانسان لأجل أن يصلى لله تعالى يجب أن يكون طاهراً الخ

***

وأكمل « درمنغهم » قصة مبدأ الاسلام على الوجه الذى يعلم منه القارئ أنه لم يشك فى أن محمـداً كان صادقاً وانه لم يخالجه عارض من شك فى آخر الأمر بنزول الملك عليه والوحى اليه .

ولنقابل ماقاله بروايات أصحاب السير ، فنجد ابن سعد فى الطبقات الـكبرى يذكر أنه نزل الملك على رسول الله عليه السلام بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان

ورسول الله يومئذ ابن أربعين سنة . وكان أول ما بدئ به رسول الله من الوحى الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح . فمكث على ذلك ما شاء الله وحبّب اليه الخلوة فلم يكن شيء أحب اليه منها . وكان يخلو بغار حراء يتحنّث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو فى غار حراء . وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان باجياد اذ رأى ملكا واضعاً احدى رجليه على الأخرى فى أفق السماء يصيح يامحمد أنا جبريل يامحمد أنا جبريل . فذعر رسول الله من ذلك وجعل يراه كلما رفع رأسه الى السماء ، فرجع الى خديجة فأخبرها خبره وقال : ياخديجة والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيء قط ولا الكهّان ، وانى لأخشى أن أكون كاهناً . قالت : كلا يا ابن عمّ لا تقل ذلك فان الله لا يفعل ذلك بك أبداً انك تصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدى الأمانة وان خلقك لكريم . ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل وهى أول مرة أتته فأخبرته ما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة : والله ان ابن عمك لصادق وان هذا لبدء نبوة وانه ليأتيه الناموس الأكبر فمُريه أن لا يجعل فى نفسه الا خيراً . وقالوا ان رسول الله قال : ياخديجة انى أرى ضوءاً وأسمع صوتاً لقد خشيت أن أكون كاهناً . فقالت : ان الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله انك تصدق الحديث وتؤدى الأمانة وتصل الرحم . وبسند آخر عن ابن عباس : ياخديجة انى أسمع صوتاً وأرى ضوءاً وانى أخشى أن يكون فىّ جنَنٌ . فقالت : لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا ابن عبد الله . ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك فقال : ان يك صادقاً فهذا ناموس مثل ناموس موسى . فان يبعث وأنا حى فسأعزره وأنصره وأومن به .

وقالوا ان أول ما أنزل على النبى عليه السلام : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ » . قالوا : وانه لما نزل عليه الوحى بحراء مكث أياماً لايرى جبريل فحزن حزناً شديداً حتى كان يغدو الى ثبير مرة والى حراء أخرى ، يريد أن يلقى نفسه منه ، فبينا رسول الله كذلك عامداً لبعض تلك الجبال اذ سمع صوتاً من السماء فوقف صعقاً للصوت ، ثم رفع رأسه فاذا جبريل على كرسى بين السماء والأرض متربعاً عليه يقول : يامحمد أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل . فانصرف رسول الله وقد أقرّ الله عينه وربط جاشه ثم تتابع الوحى وحمِى . وقالوا انه سمع :

يامحمد لتنمْ عينك ولتسمع أذنك وليَع قلبك . قال النبي ﷺ : فنامت عيني ووعى قلبي وسمعت أذني . وكان النبي اذا نزل عليه الوحي كرب له وتربد وجهه . وقيل : كان اذا أوحى اليه وُقد لذلك ساعةً كهيئة السكران وروى عن رسول الله ﷺ : كان الوحي يأتيني على نحوين يأتيني به جبريل فيلقيه عليّ كما يُلقي الرجل على الرجل فذلك يتفلّت مني ويأتيني في شيء مثل صوت الجرس حتى يخالط قلبي فذاك الذي لا يتفلّت مني . وسأله الحارث ابن هشام : يارسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّه عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة : لقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصّد عرقاً. وقال ابن الأثير : قالت عائشة رضى الله عنها كان أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة كانت تجيء مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان بغار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ثم يرجع الى أهله فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق فأتاه جبريل فقال : يامحمد أنت رسول الله فقال رسول الله ﷺ : فجثوت لركبتي ثم رجعت ترجف بوادري فدخلت على خديجة فقلت : زملوني زملوني . ثم ذهب عني الروع . ثم أتاني فقال : يامحمد أنت رسول الله فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق فتبدّى لي حين هممت بذلك فقال : يامحمد أنا جبريل وأنت رسول الله . قال : اقرأ . قلت : وما أقرأ . قال : فأخذني فغتّني (١) ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . فقرأت فأتيت خديجة فقلت : لقد أشفقت على نفسي وأخبرتها خبري فقالت : أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً فوالله انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت بي الى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان قد تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل فقالت : اسمع من ابن أخيك . فسألني فأخبرته خبري فقال : هذا الناموس الذي أنزل على موسى ابن عمران ليتني كنت حياً حين يخرجك قومك قلت : أمخرجيّ هم ؟ قال : نعم انه لم يجيء أحد بمثل ما جئت به الاعودي ولئن أدركني يومك لأنصرنّك نصراً مؤزّراً . ثم ان أول ما نزل عليه من القرآن بعد اقرأ ، ن والقلم وما يسطرون ، ويأيها المدّثر ، والضحى . وقالت خديجة لرسول الله فيما أكرمه الله به من نبوته : يا ابن عم أتستطيع أن تخبرني

(١) غته ضمه شديداً حتى يكاد يخنقه

بصاحبك هذا الذى يأتيك اذا جاءك ؟ قال : نعم . فجاءه جبريل فأعلمها . فقالت : قم فاجلس على فخذى اليسرى فقام ﷺ فجلس عليها فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم . قالت : فتحوّل فاقعد على فخذى اليمنى . فجلس عليها فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم . فتحسرت فالقت خمارها ورسول الله ﷺ فى حجرها . قالت : هل تراه ؟ قال : لا . قالت : يا ابن عم اثبت وأبشر فوالله انه ملك وما هو بشيطان اه

ليتأمل القارئ فى شهادة خديجة لرسول الله بصدق الحديث وتأدية الامانة وسائر مكارم الأخلاق وتواتر ذلك عنها وهى أعلم الناس به وأقربهم اليه وطالما اعترف مؤرخوا الافرنج المنصفون بأن هذا من أوضح الدلائل على صدق محمد وأمانته .

***

ثم نعود الى كلام « درمنغهم » فهو يقول ان محمداً لم يعتمد فى نبوّته على المعجزات وكانوا يقولون له : ان كنت نبياً فاعمل لنا من خوارق العادات ما هو كذا وكذا ، فكان يجيبهم ان رسلا كثيرين جاءوا بالمعجزات وكذبهم البشر ، وأنا مهما جئتكم بالمعجزات فلن تؤمنوا مادامت قلوبكم قاسية ، وما معجزتى الا القرآن الذى هو موحى الى رجلٍ أمّى وما تقدر الانس ولا الجن أن تأتى بمثله .

ثم هاجم محمد الأصنام التى كان يعبدها العرب كالهبل، ومناة ، واللات والعزّى ، وهزأ بها وبمن يعتقد بها وبصنم العجين التى كانت تعبده بنو حنيفة وتأكله اذا جاعت،و بالأنصاب والأزلام ، ونهى عنها وعن الفسق والفجور والقسوة والطمع والربا وأحدث انقلابا فى المجتمع الجاهلى الى آخر ما ذكره عن مبادئ الاسلام .

وانا لذاكرون بعض ما جاء به هذا الكاتب المسيحى الكاثوليكى من الملاحظات التى تستحق الاعتبار وتدل على انصاف صاحبها للاسلام . فقد ذكر ما جاء فى القرآن من وصف النعيم وما فى الجنة من الأشجار والمياه الصافية والفاكهة ، وأنهار العسل واللبن ،والحور العين قاصرات الطرف اللائى لم يطمسهن انس ولا جان الى غير ذلك فعقب على هذا بقوله : ان الناس يأخذون هذه الأوصاف على ظاهرها وعلماء الاسلام ، عدا بعض المتصوفة ، لا يفرقون بين جنة آدم والجنة التى وعد الله بها الأبرار . ولا يزال هذا الأمر أيضاً غير موضح فى المسيحية نفسها . ولا يجب أن يؤخذ من هذا أنه لا يوجد فى الاسلام من يعتقد بكون هذه

الأوصاف انما هى اشارات ورموز ، وكذلك لا يؤخذ منه أن جميع ملاذ الآخرة هى حسيّة فقد جاء فى القرآن ما يفيد أن أفضل النعيم هو مغفرة الله لآثام البشر ثم سلام الله وصلواته على المتقين والوجود فى الحضرة الالهية . وقد قال محمد كما قال القديس بولس : ان الله قد أعدّ لعباده ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقد جاء فى القرآن : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً)

ذكرنا هذه الملاحظة من ملاحظات هذا الرجل المسيحى لأن كثيراً من قومه يعيبون القرآن فى الوعد الذى فيه للمتقين باللذات الحسية ، وينسون أن الخلق لا يفهمون غيرها وان أمور الآخرة مع ذلك ليست من أمور هذه الدنيا . وينسون ما فى القرآن من الآيات الدالة على أن أعظم النعيم هو رضا الله (ورضوانٌ من الله أكبر) وان رؤية الحق تعالى هى مما وعد به أهل الجنة .

وقد ذكر ملاحظة أخرى وهى أن القرآن أذن المسلمين فى الزواج بالمسيحيات وان هذا كما قال الشيخ عبده من علامات الاخاء ، وان فى الاسلام مبادئ كثيرة قد اعتقدت بها النصرانية منها خروج آدم من الجنة لكونه عصى أمر ربه فى الأكل من الثمرة الممنوعة . وكذلك قضية سقوط ابليس الذى استكبر أن يسجد لآدم فى عقيدة الاسلام يماثلها فى النصرانية سقوط الشيطان الذى أبى أن يعتقد بالكلمة المتجسدة . ومما اتفقت فيه العقيدتان رسالة نوح وابراهيم وموسى والأنبياء والكتب المقدسة والملائكة والمسيح والدجّال واليوم الآخر والبعث والحشر والحساب . وترى الاسلام فى هذه كلها أقرب الى النصرانية منه الى اليهودية .

قال و بين المسلمين الأولين والمسيحيين الأولين مشابهة شديدة فى تحمّل الاضطهاد وفى حب الموت لاجل الدين أى الاستشهاد .

قال : أما القول بأن الاسلام يتضمن كالنصرانية عقيدة التجسّد والفداء والحبل بلا دنس الخ . فهذا فيه نظر . الا أنه مما لامشاحة فيه أن القرآن يقول بمسيحية عيسى وولادته من بطن عذراء بدون أب ورسالته ومعجزاته وصعوده الى السماء والافخارستيا أى سر القربان المقدس اذ فيه سورة المائدة .

قلنا ليس التشابه واقعاً بين ما يقوله النصارى — الا البروتستانت — فى سر القربان

المقدس واستحالة الخبز بمجرد التقديس الذى يقدسه القسيس الى جسد الرب ، واستحالة الخمر الى دمه فعلاً لا رمزاً ، و بين قول القرآن فى المائدة . والذى قاله تعالى فى المائدة هو هذا : « إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ » فأنت ترى أن استحالة الخبز والخمر الى جسد الرب ودمه ليس لها أثر هنا . وان كان المقام مقام مائدة . ولعل بعض الصوفية ينظرون الى هذه المائدة لا بمعناها الظاهر بل بالمعنى المجازى .

ثم يقول « درمنغهم » ان القرآن يطهر مريم تطهيراً عظيما من كل دنس . قلت : نعم قال الله تعالى « واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) .

و يقول ان لعيسى عليه السلام مكاناً مشتنى فى القرآن ذلك بأنه مولود على غير الأحوال البشرية المعتادة ، وانه رسول الله الوحيد الذى فى القرآن يخاطب الحق و يحاوبه ، وانه كلمة الله الحيَّة وليس بمجرد واسطة للرسالة . قلنا : ان حكم عيسى بن مريم عليه السلام فى القرآن ظاهر لا يحتمل التأويل ، وهو أنه خلقه الله مباشرةً على غير المعتاد من ولادة البشر ولكنه رسول الله وعبد من عبيد الله لا يزيد على ذلك وكونه كلمة الله وروحا من الله غير ناف عبوديته لله الواحد الذى لا اله غيره قال الله تعالى « يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَاتَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَافِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً »

ثم يقول « در منغهم » ان تأييد روح القدس لعيسى عليه السلام ليس مجرد تاييد ظاهر قاصر على تبليغ الشريعة مؤيدة بالمعجزات كما جرى لموسى عليه السلام ، ولا بالتجليات العليا والعلوم اللدنيّة كما جرى لمحمد عليه السلام ، وانما هو تأييد تام تنزّه به عيسى عن الخطأ على حين ان محمداً لم يدّعِ لنفسه العصمة

والذى نعلمه ان الاسلام يعصم الأنبياء جميعاً عن الكبائر وهذا لا يمنعهم من ان يستغفروا الله بكرة وأصيلا . وقد كان محمد ﷺ من أكثرهم عبادة واستغفاراً وكان يصلى حتى ترم رجلاه .

ثم يقول « در منغهم » ان القرآن يقول فى المسيح ماتقول الكنيسة ، أى انه كلمة الله وروح الله نزل فى بطن مريم كما أنه بشر تام البشرية . وانما ينتقد التجسد والتثليث على ما كانوا يعتقدون يومئذٍ بهما ! وبحسبما كان يقول المبتدعة — وفى الأصل الهراطقة — ولا يستطيع المسيحى الا أن يوافق على مايقول القرآن من أنه كبر مقتاً عند الله القول بثلاثة مؤلف منها الاله ، مريم والمسيح والله : (واذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله) فلقد كانت فى الشرق نِحَل تعبد مريم عبادة حقيقية وقد روى القديس ابيفانوس ان الكولوريديين Collyridiennes كانوا يقدمون خبزاً لمريم على سبيل العبادة ثم يأكلونه

اننا ذكرنا قول « در منغهم » هذا لا لنوافقه فيه جميعه بل لنبيّن ان القرآن لم يخطئ فيما جاء فيه من الاشارة الى عبادة مريم بل الذين خطأوا القرآن فى ذلك مخطئون . فقد وجدت نِحَل تعبدها فى القديم ولا تزال فى أيامنا هذه يصلى لها بصلوات خاصة بها وكيف تكون العبادة غير هذا ؟ والاله هو المعبود . هذا معناه بالعربية . فقوله تعالى: (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين) معناه : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى معبودين

ثم يزعم « در منغهم » أن قول المسلمين بان القرآن غير مخلوق هو كقول المسيحيين ان المسيح كلمة الله موجود من الأزل ، قال وقد كان القديس يوحنا الدمشقى يقول : اذا قلتم ان الكلمة وروح الله هما غير مخلوقين فنحن معكم على وفاق . وان قلتم انهما مخلوقان أفتريدان أن تقولا انه كان وقت من الأوقات كان الله فيه بدون كلمة وبدون روح ؟

وهنا بدون أن ندخل فى هذا البحث الطويل العريض الذى ربما لاينتهى وبدون

أن نذكر قول المسلمين ماخلا المعتزلة بعدم خلق القرآن ، وقول النصارى بكون الكلمة هى من الأزل وأنها هى المسيح ، نكتفى بأن نقول ان قوله تعالى ان عيسى عليه السلام هو من روح الله معناه أنه آية من آيات الله وان الله أوجده رأسا بلا أب وان قوله «كلمة الله» معناه انه وجد بكلمة التكوين «كن» وفى هذا فرق كبير عما يعتقده المسيحيون من أزلية الكلمة ومن ثمة بأزلية المسيح (١) وكيف نطبّق أزلية المسيح على قوله تعالى : « قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً » وقوله تعالى : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وقد حاول «در منغهم» أن يوفق بين الديانتين فى عقائد كثيرة الى أن وصل الى قضية الصلب فقال انها أشدّها اشكالاً ، وذلك أن الاسلام التاريخى لايعرف سر الفداء . وربما لم يجد حاجةً للكلام على الفداء لانه موجود فى الانجيل والانجيل مصدّق بالقرآن .

وعلى كل حال لا ينظر الاسلام الى المسيح كمخلّص للبشر بدمه ولا يعرف قضية الحب الالهى لخلقه الى حد أن يبعث الله ابنه الوحيد لخلاصهم فان الاسلام يريد أن ينزه الالوهية تنزيهاً عظيماً ويجعل الله بائنا عن خلقه الا أنه بهذا وقع فى التجريد التام وفاته ذلك المبدأ العظيم فى النصرانية وهو « ان الله محبة »

فالمسلمون لا يقدرون أن يعتقدوا ان الله الذى يحب المسيح يتركه يُصلب ، كما ان اليهود لا يقدرون ان يفهموا المسيح الا ملكاً أرضيّاً فاتحاً . على ان القرآن يقول ان من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جيعاً وهذا فيه مايشير الى قول بولس الرسول وهو « انه بخطيئة واحد قد عمّ الذنب الجميع كذلك بكفارة واحد يتطهر الجميع وتحصل الطهارة التى هى مصدر الحياة »

نقول ان كل هذه المباحث اذا أخذ بها الانسان لا تنتهى وكتابنا هذا كتاب تاريخ لا مثار جدل وحسبنا أن نسرد أقوال الفرق المختلفة مع الملاحظات الضرورية فقط فلا نستطيع هنا أن نستخرج من قوله تعالى : « أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً » الدليل

(١) راجع فى هذا المبحث كتب المتكلمين والمفسرين ولا سيما تفسير المنار لحجة الاسلام وأستاذ العصر السيد رشيد رضا

الذي حاول «درمنغهم» استخراجه . بل معنى هذه الآية صريح وهو مبدأ العدل التام الشامل فقتل نفس بغير حق هو قتل لجميع العالم بغير حق . وهذا امرٌ بديهي لا جدال فيه لأن النفس هنا تمثل النوع الانساني . وكذلك من أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً لأنه يكون قرر الحياة لا للفرد بل للجمع ، وهذا الاحياء هو باجراء العدل التام الشامل وهو من باب (ولكم في القصاص حياة) وليست هذه المسئلة في شيء مما قاله بولس الرسول الذي يقول بما يسميه المسيحيون بالخطيئة الأصلية أي معصية آدم الشامل وزرها لجميع أبنائه ، مما استلزم ارسال الله ابنه الى الأرض وصلبه فداء لأبناء آدم ، وتخليصاً لهم من تبعة معصية ارتكبها أبوهم . نعم هذا ركن العقيدة المسيحيّة ، لكنه لا يلتئم أصلاً مع عقيدة الاسلام التي لا يؤاخذ فيها انسان الا بذنبه ، ولا يسري وزره لا من والد الى ولد ولا من ولد الى والد ولا من أخ الى أخ (ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى) فالعقيدتان متباينتان أشد التباين

***

ثم يقول « در منغهم » ان الاسلام ينفي موت المسيح مصلوباً مهيناً بل يقول ان الله قد رفعه اليه ولم يبق في أيدي اليهود الا شبحاً أو شخصاً آخر شُبِّهَ بالمسيح . يقول : فهذه العقيدة التي هي مستغربة عقلاً وتاريخاً ، وهادمة لأجل قصة معروفة في العالم ، والتي بحسبها تكون النصرانية مبنية على وهم من الأوهام ، مستفادة من آية قرآنية متشابهة هي هذه :

« وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَالَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً »

قال : فالمعنى الحقيقي الوحيد لهذه الآية التي تثبت قيامة المسيح أكثر مما تنكر موته ، وتعني برفعه اليه ، وفاته هو ان الله قد ضلّل كيد اليهود وان عيسى لم يقع في أيديهم بل خرج منها مؤيداً منصوراً . وهذا هو عين ماتقوله النصرانية فان اليهود بحسب قول النصارى ، قد أرادوا قتل المسيح وهدم عمله ، و بينما يظنون أنفسهم قضوا عليه اذا به قد عاد فعاش ، وما كان عملهم الا انفاذاً لمشيئة الله وما قصدوا الا الشر فكان من عملهم هذا نجاة العالم .

قال « درمنغهم » : فقول القرآن « ولكن شبّه لهم » يذكّرنا بأقوال العهد الجديد

وبولس الرسول عن حَمَل الله المكفّر عن سيآت البشر وعن آدم الجديد الذى جاء بدل القديم . فاذا فكرنا فى أن المصحف الحالى تاريخه من زمن عثمان والحجاج ، وان سائر المصاحف قد أبطلت ، وان المصحف نفسه لم يكن فيه شكل ولا نقط ، فيقرأ منه كثير على وجهين أمكننا أن نتساءل هل هذه الآية القرآنية المنقوضة بآيات أخرى والتى تؤكد موت المسيح وقيامته وصعوده الى السماء بدون تصريح بعدم وقوع الموت والقيامة الى الآن ومع تعليق ذلك باليوم الآخر هى كافية لحفر هذه الهوة العميقة بين ملتين كل شيء ما عدا هذه العقيدة جامع موحِّد بينهما ؟ ان « درمنغهم » لا يراها كافية

ثم قال : بل اننا لو فرضنا وجوب أخذ هـذه الآية على ظاهرها ، فلا مانع من ذلك بحسب عقيدة الكنيسة نفسها ، لأن آباء الكنيسة ما زالوا يقولون انه ليس ابن الله هو الذى صلبه اليهود وأماتوه على الصليب ، وانما الطبيعة البشرية التى فى المسيح . وهكذا لا يكون اليهود قتلوا كلمة الله الأبدية ، ولكن يكونون قتلوا الرجل الذى يشبهها واللحم والدم المتجسدين فى بطن مريم .

قال فلا يكون القرآن فيما قاله بشأن الصلب الا مؤيداً عقيدة الكنيسة الكبرى ، وهى أن فى المسيح طبيعتين الهية و بشرية ، وان القتل وقع على الطبيعة البشرية فقط وان المسيح سينزل عند قرب الساعة وغير ذلك ، وما كان رد القرآن هذا الاعلى أقوال الهراطقة مبتدعة النصارى الذين كانت مذاهبهم منتشرة وأقوالهم شائعة حتى فى جزيرة العرب ، الى (أن يقول) : ان أحد آباء الكنيسة من أهل القرن الخامس قال : ان جزيرة العرب كانت مجمعاً للبدع المسيحية فكان فيها السابليون Sabelliens والدوسيتيون Docétes الذين كانوا ينكرون الطبيعة البشرية فى المسيح ويقولون ان جسده لم يكن الا شبحاً محضا ، والاريوسيّون الذين كانوا ينكرون ألوهيتهُ ، والايتوخيون واليعاقبة الذين كانوا ينكرون وجود الطبيعتين فيه، والنساطرة الذين كانوا يرون فيه شخصين، والمريميون والكوليريديون Collyridiesn الذين كانوا يعبدون مريم العذراء وأضداد المريميين الذين كانوا ينكرون بكارتها الدائمة الخ . وكانت جميع هذه الفرق فى نزاع دائم وكما يقول المثل الحبشى : «لم يتفق النصارى على شئ الا على ولادة المسيح » .

***

ولا نريد أن نفرغ من هـذه المسئلة بدون أن نعلق بعض الملاحظات على ما قاله « درمنغهم » فيها فأمَّا ذهابه الى أن مراد القرآن بالآية الـكريمة (وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شبّه لهم) انما هو وقوع القتل على الجسد فقط ، وان الله بعد ذلك رفعه اليه ، فان له وجهاً وجيهاً لا سيما وان آية أخرى (اذ قال الله ياعيسى انى متوفيك ورافعك الىّ ومطهّرك من الذين كفروا) تعزّز هذا الرأى وان كان جمهور أهل الاسلام على أن القتل لم يقع لا على الروح ولا على الجسد وان الذى قتل انمـا هو رجل آخر وان قوله تعالى (انى متوفيك) هو من توفّاه الله أى استوفى مدة أجله فى الدنيا .

ومن الناس من يرى أن الصلب وقع ، ولـكن الموت على الصليب لم يقع ، وان المسيح قد أنزل عن الصليب وهو حى ودفن فى المغارة ، على أنه مات وهو لم يكن مات ، فلذلك عند ما جن الليل خرج من المغارة وذهب ، ثم بعد أيام جاء وتلاقى مع الحواريين . ولـكن الذين يرون هذا الرأى يخالفون الاسلام والنصرانية معاً .أما الاسلام فلـكون القرآن لم ينف القتل فقط بل نفى الصلب أيضاً ، ولأن الاسلام يثبت أن الله رفع المسيح اليه ونجّاه من اليهود . وأما النصرانية فلأنّ مدارها كلها على موت المسيح مصلوباً فداءً عن البشر. فان لم يكن مات مصلوباً انهدمت العقيدية المسيحية كلها . وجواب من يرى هذا الرأى أن آية (وما قتلوه وماصلبوه) لا تنفى الصلب نفسه بل تنفى الموت على الصليب ، وان قوله تعالى (وما صلبوه) أشبه بأن تـكون توكيداً لقوله تعالى (وما قتلوه) لأن المقصود ليس نفى رفعه على الخشبة وانما نفى موته عليها ، وان الأظهر أن يكون رفع على الخشبة ساعات ، ثم أنزل عنها وهو حى ، وأخذ الى المغارة ووضع فيها ، وذلك على هيئة أنه مات وانه دفن . والحقيقة أنه لما أنزل عن الخشبة لم يكن مات وانما شبه الموت لليهود وشبه لهم الدفن وان المسيح بعد أن جن الليل خرج فى جوف الليل ومضى الى حيث توارى مدة من الزمن ثم عاد فظهر للتلاميذ وتعشّى معهم العشاء السرّى .

والذين يرجحون هذا الرأى يخالفون عقيدة النصرانية ورواية الأناجيل لـكنهم لا يرون رأيهم مخالفاً للاسلام . وذلك لأنهم يقولون ان قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه) معناه وما قتلوه مصلوباً . وليس بنافٍ أن يكون رفع على الصليب موقتاً تشبيها على اليهود

الذين كانوا يطلبون جزما قتل المسيح . وكذلك خروجه من المغارة ليلاً واختفاؤه عن العيان ليسا مما ينفي رفعه الى السماء بعد ذلك .

وأدلة هؤلاء على هذا الرأى هى :

أولا ان بيلاطس البنطى كان قد حاول انقاذ المسيح بكل جهده هو وامرأته وانه أخذتهما عليه شفقة زائدة ، ولكن لما اشتد صخب اليهود طالبين قتله اضطر أن يأمر بصلبه وهو مكره ، فيجوز أن يكون أوصى قائد المائة بأن يعلق عيسى عليه السلام على الصليب الى أن يكون أظلم الوقت فينزله ويجعله فى المغارة على أنه ميت ويشير اليه بأن يفر من المغارة ليلاً ، ويذهب الى حيث لا يعلم به اليهود . وهكذا يكون أنقذه من الموت ولكن مع ايهام اليهود أنه قتله .

ثانياً — ان الصلب وقع نهار الجمعة بحيث انه فى مساء ذلك النهار يدخل السبت ويقر اليهود فى بيوتهم فيسهل على الذى تولى قضية الصلب أن يوارى عيسى فى المغارة ويسهل له النجاة بدون أن يشعر اليهود .

ثالثاً — ان من العادة فى المصلوبين أن تكسّر أرجلهم تعجيلا لموتهم اذا طال نزعهم وقد ثبت أن القائد الذى عهد اليه بصلب عيسى لم يكسر له رجليه مع أنه كسر أرجل المصلوبين الآخرين اللذين صلب عيسى عليه السلام بينهما . فعدم تكسير رجلى عيسى عليه السلام دليل على نية استحيائه .

رابعاً — ان الصلب كان سبة كبيرة عند اليهود يفدونها بكل ممكن ولذلك جاء أناس من محبى عيسى وبذلوا كل جهدهم لدى بيلاطس لمنع صلبه مثل يوسف حارميتحايم ومثل نيقوديموس ومن هؤلاء من رافقوه الى مكان الصلب وهم الذين أنزلوا الجثة بحسب رواية الصلب فلو لم يكن لهم أمل فى انقاذه لم يرافقوه الى هناك .

خامساً — انهم لما جاءوا الى المغارة نهار الأحد وجدوا الحجر مدحرجاً ولم يجدوا جثة المسيح بل وجدوا ثيابه . فان قيل ان تدحرج الحجر وخروج المسيح من القبر لا ينفيان كون المسيح قد مات لأن المسيح عليه الصلاة والسلام قد قام من الموت بعد أن صلب ومات ودفن وهذه هى العقيدة المسيحية وعند ما قام فى اليوم الثالث خرج من القبر ودحرج

الحجر ، فيرد على هذا أن الذى يقوم من الموت بمعجزة يمكنه أن يخرج من القبر بدون فتح القبر ولا دحرجة الحجر ، ولا سيما اذا كان قد صعد الى السماء ، والصعود هنا بالروح لا بالجسد .

سادساً — ان وجود الثياب فى القبر دليل على أنه قد نزع ثياب الدم التى كانت عليه عند الصلب ، وانه جئ اليه بثياب نظيفة وخرج بها عند ما خرج ، والا فما معنى وجود الثياب الملطخة بالدم فى القبر بعد فقد الجثة ، فان قيل ايصعد بها الى السماء فيجاب بأن الصعود الى السماء انما هو بالروح فليس يحتاج الى تبديل ثياب وما وجود الثياب الا علامة على تبديلها ، وما تبديلها الا علامة على أن المسيح خرج من القبر ليلاً بجسده وتوارى عن أعين اليهود ، وذلك بصورة ليس فيها معجزات ولا خوارق عادات

سابعاً — ان وضع المسيح عليه السلام فى مغارة ، بدلاً من دفنه فى ضريح تحت الأرض ، وهيل التراب عليه هو من جملة الأدلة على ارادة بيلاطس عدم قتله لأنهم لو كانوا دفنوه فى لحد تحت الأرض لما أمكن بقاؤه فى الحياة ، وأما دفنه فى غار فليس الا تخبئة الى أن يكون أظلم الليل

ثامناً — ان اجتماعه بالتلاميذ بعد الصلب دليل على أنه لم يكن مات وان قيل انه مات ثم عاش كما هى العقيدة المسيحية فنحن انما نتكلم الآن عن رأى فئة لا تريد أن تتابع العقيدة بما يصحبها من المعجزات وانما تنظر فى الحادثة الى المعقول والطبيعى بدون معجزات ولا خوارق عادات . فهذه الفئة ترى أن المسيح صلوات الله عليه قد اجتمع بالتلاميذ بعد حادثة الصلب وانه أكل معهم وان توما اشتبه فيه وطلب منه علامة على كونه هو المسيح الذى صلب ولما كان يعلم أنه كانت فى صدره طعنة حربة سأله عنها فأطلعه المسيح عليها ووضع توما فيها اصبعه حتى تحققها . وهذه الفئة ترى من هذا الاجتماع أن الموت على الصليب لم يقع وان « التشبيه » الذى فى القرآن فى آية (ولكن شبه لهم) لم يكن بقتل شخص آخر يشبه المسيح وانما هو تشبيه الصلب الذى جرى بالموت بحيث يسكت اليهود الذين حكم مجلسهم الروحانى على عيسى بالقتل صلباً وكانوا يأبون الا انفاذ هذا الحكم . فخيِّل لهم الرومانيون أنهم قتلوه والحقيقة أنهم لم يقتلوه بل رفعوه على الخشبة وعند الساعة الرابعة بعد الظهر أنزلوه عنها وأدخلوه المغارة حيا . وكان اليهود دخلوا فى السبت فلم يعلموا بشئ

و بعد أن بدَّل المسيح فى المغارة ثيابه خرج منها ليلاً وذهب متوارياً و يوم الأحد وجد الناس المغارة خالية وجسد المسيح عليه السلام مفقوداً ، والحجر متدحرجاً ، وليس هناك غير الثياب الملطخة بالدم . فذهب جماعة من اليهود الى بيلاطس وشكوا اليه الاهمال الذى وقع فى هذا الأمر وقالوا له ان الشائع هو كون النصارى جماعة عيسى قد أخذوا جسده ليلاً ومنهم من قال له : بل الشائع كون قصة موته على الصليب غير صحيحة وانه أنزل عن الصليب حياً(١) ووضع فى القبر على صورة مدفون ، ثم فى جوف الليل فرَّ من المغارة . ومن جملة الروايات أنه بعد أن ظهر للتلاميذ وأكل معهم فارقهم الى حيث لم يرجع الى فلسطين ، وذلك خوفاً من أن تقبض عليه السلطة مرة ثانية وتصلبه وتقتله هذه المرة فعلاً لا تشبيهاً ومن فلسطين ذهب الى الهند أبعد ما يمكنه أن يبعد وانتهت حياته فى الهند ودفن فى شمالى الهند حيث له الآن هناك قبر يزار . وهذا القبر معروف من قديم الزمان وهذه الروايات هى مجرد حدس وتخمين يعززه قرائن وأدلة فى نظر من لا يعتقد بالمعجزات أو من يظن أن هذه الحادثة جرت مجرًى طبيعياً لا معجزة فيه . فأما الذين يعتقدون بالمعجزات فانهم يحلون اشكالات هذه القصة كلها بالقدرة الالهية . والنصارى يقولون انها حادثة مقدَّرة مقرَّرة منذ الأزل وان النصرانية مبنية عليها .

وأما الذين كتبوا حياة يسوع مثل « رنان » وأمثاله ولم يكونوا يقولون بالوهيته ولا بمعجزاته ولا بتقرُّر الفداء من الأزل فقد ذهبوا الى أن الصلب والموت على الصليب وقعا فعلاً ولكن القيامة من القبر لم تقع ووجود شاب لابس ملابس بيضاء فى القبر يقول ان المسيح قام من الموت هذا لم يقع وانما زعم التلاميذ ذلك من شدة تخيّلهم وهيامهم فى حب المسيح الى حد أنهم ظنوه نزل عليهم . وأكل معهم ، وان كل ما ورد من ذلك فى الأناجيل لم يقع وانما هو خيال فى خيال حملهم عليه الحب. و بالاختصار النصارى يقولون ان المسيح مات مصلوباً ودفن فى المغارة وفى اليوم الثالث قام وصعد الى السماء ، وانه بعد قيامه تجلى للتلاميذ وتعشّى معهم وأمرهم بنشر دينه وودَّعهم والمسلمون يقولون انه لم يكن هو المصلوب وانما صلب شخص آخر عوضاً عنه، وان الله رفعه اليه . وهناك رأىٌ من الآرآء هو أنه فى قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه) لا يقصد نفى القتل والصلب عن الجسد وانما يقصد انهم ان

(١) اقرأ عن هذه المسئلة كتاب اميل لودفيغ الألماني المشهور فى علم تراجم الرجال وذلك في آخر كتابه عن المسيح

كانوا قتلوا الجسد فلم يقدروا أن يقتلو الروح وان الله رفع تلك الروح اليه . ورأى آخر انه رُفع . على الصليب الى أن أقبل الظلام فأنزل الى القبر حيا ولكن بصورة ميت . و بعد أن أدخل المغارة جئ اليه بثياب فلبسها وترك الثياب الملطخة بالدم . وكانت مريم أم عيسى ومريم المجدلية و بعض نساء و بعض رجال لم يفارقوا يسوع منذ صلب الى أن خرج من المغارة فالأرجح أنهم هم الذين أتوه بالثياب ليبدلها ثم ان عيسى بعد ذلك بمدة قصيرة جاء واجتمع بتلاميذه وتعشى معهم ثم فارقهم وأبعد فى الأرض خوفاً من الوقوع فى يد الحكومة مرة ثانية وقيل انه ذهب الى الهند وتوفاه الله هناك. وهذا الرأى الأخير مخالف لرواية الاسلام والنصرانية معاً كما أن الرأى الذى قبله وهو الذى معناه أن قول القرآن (وما قتلوه وما صلبوه) لا ينفى موت جسد المسيح على الصليب وانما يعنى روحه و يعنى عمله فى الأرض هو الرأى الوحيد الذى يمكن به التوفيق بين عقيدتى الاسلام والمسيحية . وهو الرأى الذى يحاول تأييده « درمنغهم » لأنه رأى فيه التوفيق بين الديانتين فى أهم ما اختلفتا فيه . وأحسن ما كتبه المسلمون فى مسئلة الصلب رسالة للعلامة السيد رشيد رضا صاحب المنار فمن شاء فليرجع اليها .

***

وقد ظهر فى السنة الماضيه كتاب عنوانه « لأجل فهم حياة يسوع » وفيه بحث تحليلى لانجيل مرقس ألفه الاستاذ بروسبرالفاريك Prosper Alfaric المدرس بجامعة استراسبورغ ذهب فيه الاستاذ المذكور مذهب من يرى ان أكثر ما ورد فى الانجيل المذكور مطبّق عمداً على نبوّات سابقة فى العهد القديم ، سواء كانت الحوادث المروية صحيحة أو غير صحيحة ، وذلك من قبيل الدعاية لا التاريخ . وقد اجتهد هذا المؤلف أن يظهر كل ما هناك من التناقضات تارةً ومن الأخبار المخالفة للطبيعة طوراً وذلك مثل ان الدنيا كلها أظلمت من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة أثناء احتضار السيد المسيح على الصليب . وانه انشق حجاب الهيكل وغير ذلك من الاخبار . ولكن هذا المؤلف هو ممن لا يشتبهون فى موت المسيح على الصليب

وفى هذه السنة ظهر كتاب جديد اسمه « حياة يسوع » للمسيو موريس غوغويل Goguel من علماء فرنسة توخى فيه الرد على الدكتور كوشو Couchoud الافرنسى

وغيره من العلماء الالمان والانكليز والهولانديين الذين لم يجدوا فى الأناجيل حقائق تاريخية قابلة للتمحيص ، بل وجدوا فيها دعاية دينية محضه ، وانتهوا الى القول بان المسيح لم يوجد أصلاً وانما كان رمزاً . فالمسيو غوغويل يبين فى كتابه مافى هذه الاقاويل من المبالغات ، ويذهب الى أن وجود عيسى محقق ، وان الأخبار الواردة فى الاناجيل يمكن ربط بعضها ببعض وأخذ نتيجة تاريخية صحيحة منها . وهو يرى ان ادعاء ان المسيح رمز فيه من المشكلات التاريخية أكثر من القول بأنه وجد بالفعل . نعم المسيو موريس غوغويل يعتقد ان كثيراً من روايات الاناجيل غير واقعية بل هى مطبّقة على التقاليد النصرانية تطبيقاً لمجرد الدعاية أو بحسب الاعتقاد وان هذا فى واد والتاريخ فى واد . ورنان فى كتابه الشهير « حياة يسوع » يعترف بتطبيق بعض الروايات عمداً على النبوات السابقة الا أنه يعتقد موت المسيح على الصليب كما يموت سائر الناس.

***

ثم لنا ملاحظة أخرى على قول « در منغهم » بشأن المصحف . وظنّه ان هناك مصاحف غير المصحف العثمانى قد أُبطلت ! فان كلاماً كهذا يدور كثيراً فى كتب الأوربيين ومنهم من يزعم ان المصحف تعاوره الحذف والتبديل ، وأن الخلفاء الراشدين زادوا فيه ونقصوا كما أرادوا. وهم مطلقون العنان لخيالاتهم فى هذا الموضوع بحسب عاداتهم ويخبطون خبطاً كثيراً كما هو دأبهم اذا تكلّموا عن الشرق والاسلام . وليس بشىء ممّا يظنونه بصحيح. وكل هذا امّا جهلٌ بتاريخ القرآن وامّا تجاهل مقصود منهم فالقرآن كان محفوظاً فى صدور ألوف من الرجال وفى صدور عددٍ كبيرٍ جداً من الصحابة ممن يستحيل تواطؤهم على الكذب . ولما جرت حرب الردة فى اليمامة استحرّ القتل فى الصحابة ، رضوان الله عليهم ، فجاء عمر الى أبى بكر وقال له ، ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وانى لأخشى أن يستحر بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن الا ان يجمعوه وانى لأرى ان يجمع القرآن . فقال أبو بكر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ فقال عمر : هو والله خير . قال أبو بكر : فلم يزل عمر يراجعنى فيه حتى شرح الله لذلك صدرى ، فرأيت الذى رأى عمر . قال زيد بن ثابت : وعمر عنده جالس لا يتكلم ، فقال أبو بكر : انك شاب عاقل ، ولا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبّع القرآن فاجمعه ، قال

زيد : فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبى ﷺ . فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر فتتبعت القرآن اجمعه من الرقاع ، والاكتاف ، والعُسُب وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الى آخرها فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها ، نقل هذا جلال الدين السيوطى فى تاريخ الخلفاء ثم أردف ذلك بقوله : واخرج أبو يعلى عن علىّ قال : أعظم الناس أجراً فى المصاحف أبو بكر ان أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين

وذكر أبو الفداء هذه القصة كما يأتى :

« ثم دخلت سنة ثلاثين وفيها بلغ عثمان ماوقع فى أمر القرآن من أهل العراق ، فانهم يقولون قرآننا أصحّ من قرآن أهل الشام ، لانا قرأنا على أبى موسى الأشعرى وأهل الشام يقولون قرآننا أصح لانا قرأنا على المقداد بن الآسود ، وكذلك غيرهم من الأنصار . فأجمع رأيه ورأى الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذى كتب فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه . وكان مودعاً عند حفصة زوج النبى ﷺ ، وتحرق ماسواه من المصاحف التى بأيدى الناس ، ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف وحمل كلاً منها الى مصر من الأمصار ، وكان الذى تولى نسخ المصاحف العثمانية بأمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله ابن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى ، وقال عثمان : ان اختلفتم فى كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلسانهم »

ولقد رأينا أجمع ما كتب فى هذا المقام كلام الاستاذ الكبير مفخرة العرب ، وحجة الأواخر على الاوائل فى علو طبقة الانشاء ووفرة الأدب ، السيد مصطفى صادق الرافعى فى كتابه « اعجاز القرآن » فانه جمع فأوعى وأصاب المحز وطبق المفصل وهاهوذا مقاله بجاحظىّ بيانه نأثره بحرفه قال :

« وكان بعض الصحابة يكتبون ماينزل من القرآن ابتداءً من أنفسهم أو بأمر من النبى ﷺ ، فيخطّونه على ماتفق لهم يومئذ من العسب [1] والكرانيف[2] واللخاف[3]

(١) جمع عسيب جريدة النخل كانوا يكشطون الخوص عنه ويكتبون في الطرف العريض

(٢) جمع كرنافة بالكسر وبالضم وهى أصول السعف الغلاظ (٣) جمع لخفة وهى صفائح الحجارة

والرقاع ، وقطع الاديم ، وعظام الاكتاف والاضلاع من الشاة والابل ، وكل ما أصابوا من مثلها مما يصلح لغرضهم يكتب كلٌّ منهم ماتيسَّر له أو يسَّرته أحواله . ولكن مما ليس فيه ريب ان منهم قوماً جمعوا القرآن كله لذلك العهد، وقد اختلفوا فى تعيينهم بيد انهم أجمعوا على نفر : منهم على بن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود . وهؤلاء كانوا مادة هذا الأمر من بعد . فان المصاحف التى اختصت بالثقة كانت ثلاثة : مصحف ابن مسعود ، ومصحف أبىّ ، ومصحف زيد ، وكلهم قرأ القرآن وعرضه على النبى ﷺ . فأما ابن مسعود فقرأ بمكة وعرض هناك . وأما أبى فانه قرأ بعد الهجرة وعرض فى ذلك الوقت . وأما زيد فقرأه بعدهما وكان عرضه متأخراً عن الجميع وهو آخر العرض اذا كان فى سنة وفاته ﷺ ، و بقراءته كان يقرأ عليه الصلاة والسلام وكان يصلى الى أن لحق بربه . ولذلك اختار المسلمون ما كان آخراً كما ستعرفه .

وأما على بن أبى طالب ، فقد ذكروا ان له مصحفاً جمعه لما رأى من الناس طيرةً عند وفاة النبى ﷺ . وفى الفهرست لابن النديم انه رأى عند أبى يعلى حمزة الحسينى مصحفا بخط على يتوارثه بنو حسن . ونحن نحسب ذلك خبراً شيعياً لأنه غير شائع . . .

وقبض رسول الله ﷺ والقرآن فى الصدور وفيما كتبوه عليه ، ثم نهض أبو بكر بأمر الاسلام وكانت فى مدته حروب أهل الردة ، ومنها غزوة أهل اليمامة ، والمحاربون أكثرهم من الصحابة ومن القرّاء . فقتل فى هذه الغزوة وحدها سبعون قارئاً من الصحابة (ويقال سبعمائة) وكان قد قتل منهم مثل هذا العدد ببئر معونة (موضع قرب المدينة) فى عهد النبى ﷺ فهال ذلك عمر بن الخطاب ، فدخل على أبى بكر رحمهما الله فقال : ان أصحاب رسول الله ﷺ باليمامة يتهافتون تهافت الفراش فى النار ، وانى أخشى أن لا يشهدوا موطناً الا فعلوا ذلك حتى يقتلوا وهم حملة القرآن ، فيضيع القرآن ويُنسَى ولو جمعتَهُ وكتبتَهُ . فنفر منها أبو بكر ، وقال أفعلُ مالم يفعل رسول الله ﷺ . فتراجعا فى ذلك . ثم أرسل أبو بكر الى زيد بن ثابت . قال زيد : فدخلت عليه وعمر مسربل فقال لى أبو بكر : ان هذا قد دعانى الى أمر فأبيت عليه وأنت كاتب الوحى فان تكن معه اتبعتكما وان توافقنى لا أفعل . فاقتصّ أبو بكر قول عمر وعمر ساكت ، فنفرت من ذلك وقلت يفعل

مالم يفعل رسول الله ﷺ الى أن قال عمر كلمة : وما عليكما لو فعلتما ذلك . فذهبنا ننظر فقلنا : لاشئ والله ماعلينا فى ذلك شئ . قال زيد : فأمرنى أبو بكر فكتبته فى قطع الأدم وكسر الاكتاف والعُسُب .

***

وهذا الذى فعله أبو بكر كانما استحيا به طائفة من القرّاء الذين استحرّ بهم القتل بعد ذلك فى المواطن التى شهدوها لم يعد به ماوصفنا . ولذا بقى ما اكتتبه زيد نسخة واحدة وهو قد تتبع مافيها من الرقاع والعسب واللخاف ومن صدور الرجال وانما ائتمنه أبو بكر لأنه حافظ ، ولأنه من كتبة الوحى ، ثم لأنه صاحب العرضة الأخيرة ، وربما كان قد أعانه بغيره فى الجمع والتتبع ، فإن فى بعض الروايات أن سالم مولى أبى حذيفة كان أحد الجامعين بأمر أبى بكر . أما الكتابة فهى لزيد بالاجماع .

وبقيت تلك الصحف عند أبى بكر ينتظر بها وقتها أن يحين حتى اذا توفى سنة ١٣ صارت بعده الى عمر فكانت عنده حتى مات ، ثم كانت عند حفصة ابنته صدراً من ولاية عثمان . ويومئذٍ اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون فى مصر فأخذ أهل مصر عن رجل من بقية القراء

فأهل دمشق وحمص أخذوا عن المقداد بن الاسود . وأهل الكوفة عن ابن مسعود . وأهل البصرة عن أبى موسى الاشعرى — وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب — وقرأ كثير من أهل الشام بقراءة أبىّ بن كعب ، وكانت وجوه القراءة التى يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الاحرف التى نزل عليها كما سيمرّ بك ، فكان الذى يسمع هذا الاختلاف من أهل تلك الامصار اذا احتوتهم المجامع أو التقوا فى المواطن على جهاد أعدائهم يعجب من ذلك أن تكون هذه الوجوه كلها على اختلاف مابينها فى كلام واحد . فاذا علم ان جميع القرآت مسندة الى رسول الله ﷺ وانه أجازها ، لايمتنع أن يحيك فى صدرهِ بعض الشك ، وان ينطوى منها على شئ اذا هو كان قد نشأ بعد زمن الدعوة و بعد أن اجتمع العرب على كلمةٍ واحدة ، فلا يلبث أن يجرى ذلك الاختلاف مجرى مثله من سائر الكلام فيرى بعضه خيراً من بعضه ويظن منه الصريح ، والمدخول ، والعالى ، والنازل ، والافصح

والفصيح ، وأشباه ذلك و يعتد ما يراه فى القرآن من القرآن . وهذا أمر ان هو استفاض فيهم ثم مردوا عليه خرجوا منه ولا ريب الى المناقضة والملاحاة والى أن يردّ بعضهم على بعض هذا يقول : قراءتى وما أخذت به . وذلك يقول : بل قراءتى وما أنا عليه . وليس من وراء هذا اللجاج الا التفكير والتأثيم ولا جرم انها الفتنة لاتفتأ بعد ذلك من دم .

ولقد نجمت هذه الناشئة يومئذٍ فلما كانت غزوة ارمينية وغزوة أذربيجان ، كان فيمن غزاهما مع أهل العراق حذيفة بن اليمان فرأى كثرة اختلاف المسلمين فى وجوه القراءة وانهم لايجرون من ذلك على أصل فى الفطرة اللغوية كما كان العرب يقرأون بلحونهم ورأى ما يبدر على ألسنتهم حين يأتى كل فريق منهم بما لم يسمع من غيره اذ يتمارون فيه حتى يكفّر بعضهم بعضاً ، ولم يرَ عندهم نكيراً لذلك ولا اكباراً له بل كانوا قد ألفوه بين أنفسهم ، وصار من عادتهم وأمرهم . ففزع الى عثمان (بن عفان رضى الله عنه) فأخبره بالذى رأى . وكان عثمان قد رفع اليه ان شيئاً من ذلك يكون بين المسلمين الذين يقرئون الصّبْية و يأخذونهم بحفظ القرآن ، فينشأون وبهم من الخلاف بعضهم على بعض . فأعظم ، رحمه الله ، أمرَ هذه الفتنة وأكبره الصحابة جميعاً ، لأن الاختلاف فى كتاب الله مدرجة الى مخالفة مافيه ، ومتى اهملوا بعض معانيه لم يكن بدٌّ أن يتصرفوا ببعض ألفاظه ، وانما هو اجتراء واحد فيوشك أن يكون من ذلك مساغ للتحريف والتبديل . فاجمعوا أمرهم أن ينتسخوا الصحف الاولى التى كانت عند أبى بكر وان يأخذوا الناس بها ويجمعوهم عليها حذار تلك الردّة المشتبهة ، واشفاقاً على الناس أن يصيروا كلما رُدّوا الى الفتنة أركسوا فيها . فأرسل عثمان الى حفصة فبعثت اليه بتلك الصحف ، ثم ارسل الى زيد بن ثابت ، والى عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . فأمرهم أن ينسخوها فى المصاحف . ثم قال للرهط القرشيين الثلاثة : ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش فانه نزل بلسانهم .

وفى رواية أخرى عن زيد بن ثابت ان عثمان أمره أن يكتب له مصحفاً بعد أن رفع اليه أمر الاختلاف وقال : انى مدخل معك رجلاً لبيباً فصيحاً فاكتباه وما اختلفتما فيه فارفعاه الىّ فجعل معه ابان بن سعيد بن العاص . فلما بلغا فى الكتابة قوله تعالى : (ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت) قال زيد : فقلت : التابوه . وقال ابان بن سعيد : التابوت .

فرفعنا ذلك الى عثمان فكتب : التابوت .

وفى رواية ثالثة لابن عساكر ان عثمان خطب فى الناس يومئذٍ وعزم على كل رجل عنده شئ من كتاب الله لما جاء به فكان الرجل يجيء بالورقة والاديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ثم دعاهم رجلا رجلاً فناشدهم : أسمعت رسول الله ﷺ وهو أملاه عليك فيقول : نعم . فلما فرغ من ذلك عثمان قال : من أكتب الناس ؟ قالوا : كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت . قال : فأىُّ الناس أعرب ؟ قالوا : سعيد بن العاص . قال : فليملِ سعيد . وليكتب زيد .

ونحسب أن اختلاف هذه الرواية وماجاء بمعناها من وجوه أخرى انما بعث عليه تصور الرواة لابلغ مايكون من صور الثقة فى هذا الأمر حتى يحكموه من نواحيه كلها فانك لاترى منها رواية الا وفيها مبالغة فى التحرى ليست فى الاخرى . والذى يخبر بمثل ذلك الخبر عن القرآن انما يخبر بأمر شديد اذا هو لم يمكن فيه لموضع الثقة ولم يحصنه أشد التحصين حتى لاتجد الشبهة اليه سبيلاً . وظاهر انه من المحال أن تكون كل هذه الروايات هى الواقع قال زيد (فى بعض الروايات عنه) : فلما فرغت عرضته عرضةً فلم أجد فيه هذه الآية « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً » قال فاستعرضت المهاجرين اسألهم عنها فلم أجدها عند أحدٍ منهم ، ثم استعرضت الأنصار أسألهم عنها فلم أجدها عند أحدٍ منهم حتى وجدتها عند خزيمة يعنى ابن ثابت فكتبتها . ثم عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه هاتين الآيتين : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم) الى آخر السورة فاستعرضت المهاجرين فلم أجدها عند أحدٍ منهم ثم استعرضت الأنصار أسألهم عنها فلم أجدها عند أحدٍ منهم حتى وجدتها مع رجل آخر يدعى خزيمة أيضاً فأثبتها فى آخر « براءة » . ولو تمت ثلاث آيات لجعلتها سورةً على حدة . ثم عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه شيئاً . ثم أرسل عثمان الى حفصة يسألها أن تعطيه الصحيفة وحلف لها ليردنها اليها فأعطته فعرض المصحف عليها فلم يختلف فى شيء فردها اليها وطابت نفسه وأمر الناس أن يكتبوا مصاحف فلما ماتت حفصة أرسل الى عبد الله بن عمر فى الصحيفة بعزمةٍ فأعطاهم اياها فغسلت غسلاً .

قلنا وكلام زيد نص قاطع فى أنه كان يحفظ القرآن كله لم يذهب عنه شئ منه اذ كان يعرض مافى المصحف على ماربط فى صدره وثبت فى حفظه ، ثم هو نص كذلك على أن زيداً كان لا يكتفى فى نفسه بل يذهب يستعرض الناس حتى يجد من يؤدى اليه كيلا ينفرد هو بالحفظ خشية أن يكون موضع ظنة وان كان الصحابة رضى الله عنهم قد اجتمعوا على الثقة به فلم يثبت ما أثبته الا بشاهدين أحدهما من حفظ غيره والآخر من حفظه

ثم بعث عثمان فى كل أفق بمصحف من تلك المصاحف، وكانت سبعة فى قول مشهور ، فأرسل منها الى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً وهو مصحفه الذى يسمى الأمام — الأصل فى هذه التسمية ماجاء فى بعض الروايات من أن عثمان لما بلغه اختلاف المعلمين فى القرآن كما أوردناه آنفاً قال : عندى تكذبون به وتلحنون فيه فمن نأى عنى كان أشد تكذيباً وأكثر لحناً . يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس اماما — ثم أمر بما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف أن يحرق ولم يجعل فى عزيمته تلك رخصة سائغة لأحد وكان جمع عثمان فى سنة ٢٥ للهجرة ، وانما أراد عثمان بذلك حسم مادة الاختلاف لأنه أمر يمد مع الزمن وتنشعب الأيام به وهو ان أمن فى عصره لم يدر ما يكون بعد عصره . وقد أدرك ان العرب لا يستمرون عربا على الاختلاط والفتوح وان الألسنة تنتقل واللغات تختلف ثم هو رأى ماوقع فى الشعر وروايته وان الاختلاف كان باباً الى الزيادة والابتداع فلم يفعل شيئاً أكثر من أنه حصن القرآن وأحكم الأسوار حوله ومنع الزمن أن يتطرق اليه بشئ وجعله بذلك فوق الزمن .

ولم تكن المصاحف التى كتبت قبل مصحف عثمان على هذا الترتيب المعروف فى السور الى اليوم فانما هو ترتيب عثمان — وكان تقسيم المصحف ثلاثين جزءاً زمن الحجاج — أما فى ماوراء ذلك فقد رووا أن رسول الله ﷺ كان اذا نزلت سورة دعا بعض من يكتب فقال ضعوا هذه السورة فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا ، فكان القرآن مرتب الآيات غير أنه لم يكن مجموعاً بين دفتين ، فلا يؤمن أن يضطرب نسق مجموعه فى أيدى الناس باضطراب القطع التى كتب فيها تقديماً وتأخيراً . ولم يلزم الناس القراءة يومئذ بتوالى السور وذلك ان الواحد منهم اذا حفظ سورة أو كتبها ثم خرج فى سريته — هى عندهم من خمسة أنفس الى ثلاثمئة — أو أربعمائة — فنزلت سورة أخرى فانه كان اذا رجع ياخذ فى حفظ ماينزل بعد

رجوعه وكتابته ويتتبع مافاته على حسب ماتسهل له أكثره أو أقله فمن ثم يقع فى ما يكتبه تأخير المقدم وتقديم المؤخر . فلما جمعه أبو بكر برأى عمر كتبوه على ماوقفهم عليه رسول الله ﷺ ثم كانوا فى أيام عمر يكتبون بعض المصاحف منتسقة السور على ترتيب ابن مسعود وترتيب أبيّ بن كعب وكلاهما قد سرده ابن النديم فى كتابه الفهرست . وقال ابن فارس ان السور فى مصحف عليّ كانت مرتبة على النزول فكان أوله سورة اقرأ باسم ربك ثم المدثر ثم نون ثم المتدمر ثم تبّت ثم التكوير وهكذ الى آخر المكى والمدنى ولا حاجة بنا أن نتسع فى استقصاء هذا الخلاف

أما ترتيب مصحف عثمان فهو نسق زيد بن ثابت وهو صاحب العرضة الأخيرة ولعله كان ترتيب مصحف أبى بكر أيضاً لما مر فى الرواية عن زيد من أنه قابل بين الاثنين معارضته والله أعلم . ويرجح أن ترتيب زيد الذى نقرأ به اليوم هو مارضيه رسول الله ﷺ ماروى عن عوف بن مالك وعن حذيفة من أنه عليه الصلاة والسلام تهجّد ذات ليلة فاستفتح فقرأ فى نافذته البقرة وآل عمران والنساء والمائدة فى أربع ركعات سورةً سورة على هذا النسق وهو الذى عليه ترتيب زيد . وهذا الخبر يظاهر ماورد فى معناه وانعقد به التصديق من أن ترتيب الآى انما كان توقيفاً منه صلى الله عليه وسلم ومن قصص زيدٍ عن نفسه فى تلك الرواية تعلم انه كان يحفظ القرآن على ترتيبه آية فآية وسورة فسورة — ولم يكن بعد انتشار المصاحف العثمانية وانتساخها على هيئتها الا أن استوثقت الأمة على ذلك بالطاعة وأحرق كل امرئ ما كان عنده مما يخالفها ترتيبا أو قراءة وأطبق المسلمون على ذلك النسق وذلك الحرف ثم أقبلوا يجدّون فى اخراجها وانتساخها . ولقد روى المسعودى انه رفع من عسكر معاوية فى واقعة صفين نحوٌ من خمسمائة مصحف وهى الخدعة المشهورة التى أشار بها عمرو بن العاص فى تلك الواقعة ولم يكن بين جمع عثمان الى يوم صفين الاّ سبع سنوات

وهنا أمرٌ لا مذهب لنا دون التنبيه عليه وذلك أن جمع القرآن كان استقصاء لما كتب واستيعاباً لما فى الصدور فكانوا لا يقبلون الا بشهادة قد امتحنوها أو حلفٍ قد وثقوا من صاحبه والاّ بعد العرض على من جمعوا وعرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأن الصحابة كانوا لا يحسنون التهجّى، وقد يكتبون غير مايقرأون على وجهٍ من وجوه الكتابة أو يكتبون بحرفٍ من القراءات كالذى رواه بن فارس بسنده عن هانى قال : كنت عند

عثمان رضى الله تعالى عنه وهم يعرضون المصاحف فأرسلنى بكتف شاة الى أبىّ بن كعب فيها « لم يتسنّ » و « أمهل الكافرين » و « لا تبديل فى الخلق » قال فدعى بالدواة فمحى احدى اللامين وكتب « لخلق الله » ومحى فأمهل وكتب « فمهل » وكتب « لم يتسنّه » ألحق فيها هاء والقراءة على هذا الرسم

فذهب بعض أهل الكلام ممن لا صناعة لهم الا الظن والتأويل واستخراج الأساليب الجدلية من كل حكم وكل قول الى جواز أن يكون قد سقط عنهم من القرآن شئ حملاً على ماوصفوا من كيفية جمعه وهو باطل من الظن لما علمته من أنباء حفظته الذين جمعوه وعرضوه ثم لما رأيت من تثبتهم فى ذلك حتى جمعت لهم الصحة من أطرافها ثم لاجماع الجم الغفير من الصحابة على أن مابين دفتى المصحف هو الذى تلقوه عن رسول الله ﷺ لم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا اقتطع منه الباطل شيئاً

ونحن فما رأينا روايات تختلف فى شئ من الأشياء فضل اختلاف وتسنم فى الرد والتأويل كل طريق وعر كما رأينا من أمرها فيما عدا نصوص الفاظ القرآن فان هذه الألفاظ متواترة اجماعاً لا يتدارأ فيها الرواة من علا منهم ومن نزل وانما كان ذلك لأن القرآن أصل هذا الدين وما اختلفوا فيه الا من بعد اتساع الفتن وتألُّب الأحداث وحين رجع بعض الناس من النفاق الى أشد من الأعرابية الأولى وراغ أكثرهم عن موقع اليقين من نفسه فاجترأوا على حدود الله وضربتهم الفتن والشبهات مقبلاً بمدبر ومدبراً بمقبل فصار كل من نزع الى الخلاف يريد أن يجد من القرآن مايختلف معه أو يختلف به وهيهات ذلك الا أن يتدسس فى الرواية بمكروه يكون معه التأويل والأباطيل والاّ أن يفتح الكلمة السيئة و يبالغ فى الحمل على ذمته والعنف بها فى أشياء لا ترد الى الله ولا الى الرسول ولا يعرفها الذين يستنبطون من الحق بل لا يعرفون لها فى الحق وجهاً . ونحسب ان أكثر ذلك مما افترته الملحدة وتزيّدت به الفئة الغالية وهم فرق كثيرة يختلفون فيه بغياً بينهم وكلهم يرجع الى القرآن بزعمه ويرى فيه حجته على مذهبه و بينته على دعواه . ثم أهل الزيغ والعصبية لآرائهم فى الحق والباطل . ثم ضعاف الرواة ممن لا يميزون أو ممن تعارضهم الغفلة فى التمييز وذلك سواد كله ظلمات بعضها فوق بعض ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور . وقد وردت روايات قليلة فى أشياء زعموا أنها كانت قرآناً ورفعت على أن رسول الله ﷺ كان

يقرر الأحكام عن ربه اذا لم ينزل بها قرآن لأن السنة كانت تأتى مأتاه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « أوتيت الكتاب ومثله معه » يعنى السنن

وعلى هذا الحديث يخرّج فى رأينا كل ما رووه مما حسبوه كان قرآناً فرفع و بطلت تلاوته على قلة ذلك ان صح لانه يكون وحياً وليس كل وحيٍ بقرآن . على أن ما ورد من ذلك ورد معه اضطرابهم فيه وضعف وزنه فى الرواية وأكبر ظننا أنها روايات متأخرة من محدثات الأمور وان ى هذه المحدثات لما هو أشد منها وأجدى بشأنه . ولو كان من تلك شئ فى العهد الأول لرويت معها أقوال أخرى للأئمة الأثبات الذين كان اليهم المفزع من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانو يومئذ متوافرين وكلهم مُقرِن لذلك قوى عليه وكانوا يعلمون أن المراء فى القرآن كفر وردّة وانكار بعضه انكاره بالجملة . وقد أجمعوا على مافى مصحف عثمان وأعطوه بذل السنتهم فى الشهادة أى قوتها وما استطاعت من تصديق. ونحن من جهتنا نمنع كل المنع ولا نعبأ أن يقال انه ذهب من القرآن شئ وان تأولوا لذلك وتمحلوا وان أسندوا الرواية الى جبريل وميكائيل ونعتد ذلك من السوءة الصلعاء التى لا يرحضها من جاء بها ولا يغسلها عن رأسه بعد قول الله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ولا يتوهمنّ أحد أن نسبة بعض القول الى الصحابة نص فى أن ذلك المقول صحيح البتة فان الصحابة غير معصومين وقد جاءت روايات صحيحة بما اخطأ فيه بعضهم من فهم أشياء من القرآن على عهد رسول الله ﷺ وذلك العهد هو ماهو ثم بما وهل عنه بعضهم مما تحدثوه من أحاديثه الشريفة فاخطأوا فى فهم ماسمعوا ونقلنا فى باب الرواية من تاريخ آداب العرب(١) أن بعضهم كان يرد على بعضٍ فيما يشبّه لهم انه الصواب خوف أن يكونوا قد وهموا . وثبت أن عمر رضى الله عنه شك فى حديث فاطمة بنت قيس بل شك فى حديث عمار بن ياسر فى التيمم لخوف الوهم مع أن عماراً ممن لا يتهم بتعمد الكذب ولا بالكذب وهلة لصحبتهِ وسابقتهِ مع رسول الله ﷺ ولذلك أذن له عمر فى رواية هذا الحديث مع شكه هو فى صحته .

على أن تلك الروايات القليلة فى مازعموه كان قرآناً و بطلت تلاوته ان صحت أسانيدها

(١) هو كتاب لم يصنف فى بابه نظيره من تأليف الاستاذ الرافعى الذي ننقل عنه هذا الفصل

أو لم تصح فهى على ضعفها وقلتها مما لاحفل به مادام الى جانبها اجماع الأمة وتظاهر الروايات الصحيحة وتواتر النقل والأداء على التوثيق . انتهى

وخلاصة القول انهم جمعوا القرآن من الادم والعسب والكرانيف واللخاف وعرضوه على مافى صدور الرجال لا عرضة واحدة بل عرضات متعددة وكان ذلك بين مئات وألوف يستحيل تواطئهم على الكذب أو على زيادة أو على نقصان ولذلك اطمأنت النفوس وثلجت القلوب واقتنعت العقول بان هذا هو القرآن كما أنزل وأصبح مايروى خلاف ذلك لا يعبأ به وأما الاختلاف فى وجوه القراءات فهو شئ آخر لا يتعلق بالكلام الالهى نفسه بل بكيفية قراءته وقد كانت لهجات العرب تختلف بعض الشئ كما لا يخفى

***

ثم نعود الى «درمنغهم» الذى يحاول فى جميع كتابه التألف بين الاسلام والمسيحية فهو يقول فى صفحة ١٣٤ : « ان نفساً قوية طاهرة نظير نفس محمد فى اتصال مع الحقائق التى وجدها هذا الرجل فى نفسه فى أثناء خلواته العظيمة فى الصحراء والجبال كانت تشعر بأن الديانة ليست عبارة عن تأمل مجرد وعن محاضرة ملقاة بل هى حقيقة يراها الانسان من نفسه وكلٌّ من البشر يتمثل الله تعالى كما يقدر ولكن المهم أن يكون ملآن شعوراً بالحقيقة الالهية وأن يسلم نفسه لله وهذا هو الاسلام»

ثم قال : ان الهوّة التى قد احتفرها المسيحيون والمسلمون فيما بينهم لم تكن فى الحقيقة بين الاسلام والنصرانية وانما كانت نتيجة المنازعات المبنية على سوء التفاهم . فأهل الكتاب كانوا بادئ ذى بدء أنصاراً لمحمد ثم لم يفتئوا أن أبوا الاعتراف بنبوّته وأن هزأُوا به كما أن المسلمين هم أيضاً من جهتهم تباعدوا ما أمكنهم عن النصرانية . مفسّرى القرآن بدلاً من أن يظهروا ما بين الديانتين من الموافقات اجتهدوا فى اثبات ما بينهما من المفارقات . فالقرآن اقرب كثيراً الى النصرانية من السنة المروية وعلى كل حال الأحاديث المنسوبة الى الرسول هى التى حفرت هذه الهوّة بين الديانتين وفى هذه الأحاديث من الروايات المدخولة والموضوعات ما هو معلوم (هكذا زعم درمنغهم)

ثم قال : ولما نشبت الحروب مدة قرون متطاولة بين المسلمين والمسيحيين ازداد بينهم سوء التفاهم واشتدت البغضاء كثيراً ، ومما يجب أن نعترف به أن أكثر البغضاء كان من

جهة المسيحيين فقد كان البيزنطيون يحتقرون الاسلام بلا تأمل ولا بحث وجميعهم ما عدا يُوحَنَّا الدمشقي لم يحملوا أنفسهم على درس عقيدة الاسلام وانما حملوا عليه بالطعن والقذف بلا فحص وأخذوا يصوّرون محمداً بصُور غريبة جداً ويشوهون من هذه الصورة ما أمكنهم. (وذكر هنا المطاعن التى كانوا يُوجّهونها الى النبي ﷺ مما أبينا نقله نظراً لسُخفه وسفاهته وسقوطه من نفسه حتى ان درمنغهم نفسه هزأ كثيراً بهذه المطاعن بالرغم من كونه مسيحيًّا معتقداً) فالتناقض الذى بين الملتين كانت قواعدُه الأساسية أخباراً واهية مثل أن محمداً كان صنما من ذهب وأن مساجد المسلمين هى هيا كل ملأى بالتماثيل ! وقد ورد فى أُغنيّة اسمها « أغنية أنطاكية » ما يفيد أن ناظم تلك الأُغنية قد رأى فى تلك الهيا كل محمداً بشكل صنم من ذهب وفضة ، راكباً على فيل ، وهذا الفيل على قاعدة من الفُسَيْفِساء ، ثم ان الأغنية المسماة بأغنية « رولان » والتى تمثل فرسان شرلمان وهم يحطّمون أصنام المسلمين فيها ان المسلمين يعبدون ثالوثاً مؤلفاً من ترڤاغانت Tervagant ومحمد وأَبُّولون (كل شيء خطر فى البال الا نسبة عبادة الثالوث الى المسلمين) ثم ان قصصاً يسمى قصص محمد Roman du Mohamet ورد فيه ما يفيد أن الاسلام يجيز اشتراك جملة رجال فى زوجة واحدة !

ولقد طال أمد هذه البغضاء وهذه الأباطيل كثيراً منذ أيام «رودلف دو لودْهيم» Rudolph de Ludheim الى أيامنا هذه أيام « نيقولا دوكوز Nicolas de Cuse و « ڤيڤيس » Vives و «مراشي» Maracci و «هوتنجر» Hottinger و « بيبليندر » Bibliander و « بريدو » Prideaux فقد مثّل هؤلاء محمداً كرجل كاذب ، والاسلام كعمل من أعمال الشيطان ، والمسلمين كقوم همج ، والقرآن ككتاب منسوج من أوله الى آخره بالمحالات . وكانوا بزعمهم لا يجدون حاجة الى الأخذ والردّ فى هزء كهذا . ثم انّ « بيير لوڤنيرَابْل » Pierre Le Vénerable مؤلف أول كتاب فى أوربا ضد الاسلام ترجم مع ذلك فى القرن الثانى عشر القرآن الى اللاتينية. ثم فى القرن الرابع عشر ظهر « بيير بَاسْكال » فعلم عن الاسلام أكثر من غيره . ثم ان « البابا اينوسَانيُوس الثالث » قال عن محمد انه المسيح الدجال . ولكن فى القرون الوسطى بدأوا ينظرون اليه كرجل مبتدع ممن يقال لهم الهراطقة . ثم ظهر « ريموند لول » Raymond Lulle فى القرن الرابع عشر

و«غليوم بوستل» Postel فى القرن السادس عشر و«رولان» و«غانييه» Roland & Ganier فى القرن الثامن عشر والأب « دو بروغلى » de Brogli و « رنان » Renan فى القرن التاسع عشر وكانت أحكامهم فى هذا الموضوع متفاوتة ليست على وتيرة واحدة . أما ڤولتير فقد كان كتب الرواية المسماة برواية محمد و بناها على غير تحقيق . ثم عاد فصحّح قسماً كثيراً مما وهن فيه ، وقد ارتكب « مونتسكيو » Montesquieu بعد « باسكال » و « مالبرانش » أغلاطاً كثيرة فيما يتعلق بالاسلام نفسه الا أنه كانت له آراء سَديدة وأحياناً عادلة فيما يتعلق بعادات المسلمين ثم ظهر الكونت « دو بالانڤيلييه » De Boulainvilliess و « شول » Scholl و « كوسين دو برسفال » Caussin de Perceval و « دوزى » Dozy و« سبرنجر» Sprenger و « بارْتِلمى سانتيلير » Barthelemy Saint-Hilaire (١) و « دوكاسترى » de Castries و « كارليل » Carlyle وهؤلاء كانوا على وجه الاجمال موافقين للاسلام ولنبيّ الاسلام ، وربما أثنوا عليهما غير أن « دروتى » Droughty فى سنة ١٨٧٦ و « فوستر » Foster سنة ١٨٢٢ قد أفحشا فى الطعن فى الاسلام وفى محمد . ولا يزال للاسلام الى يوْمنا هذا أعداء شديدو العصبية

أما المسلمون فانهم وان كانوا من جهتهم قد درسوا فى دور ازدهار المعارف عندهم الديانة النصرانية درساً أشبه بدرس ڤولتير معتمداً على الأدلة السطحية فقد كانوا هم أيضاً يرمون الى التباعد لا الى التقارب . وكانوا لا يريدون أن يبحثوا فى النصرانية من شدة ازدرائهم بها . وقد صاروا يلقبون « بالكافرين » أهل الكتاب وتلاميذ عيسى الذين جاء فى القرآن أنهم أقرب الناس مودة الى الذين آمنوا . وحتى هذه الساعة يفضل المسلمون أن يروا أولادهم أمواتاً على أن يروهم مسيحيين

فهذه الحواجز الصُّنْعية غير الطبيعية كان علينا نحن أن نهدمها بأيدينا بازالة الأوهام لأن النور يكفى لازالة الأشباح . ويجب علينا أن نفهم أن العبرة انما هى بروح الموضوع فقط . فالعلاقات النّسْبيّة لا تزيل الحقيقة المطلقة ، والوحى الالهىّ يخرج من الأفواه البشرية على حسب الأمكنة والأزمنة . فلا يمكن أن تأتينا الحقيقة دفعة واحدة أو أن تهبط علينا كلها كاملة وانما يحييها ويكمّلها فينا استعدادُنا النفسىّ . قال : ولكلٍّ من الديانات المنزلة

(١) هذا الرجل قال ان محمداً من أعظم العبقريين الذين أنجبتهم البشرية

خاصة تمتاز بها . فالاسلام مظهره التوحيد وهيْمنة الخالق ، وجبروته ورحمته ، والمسيحية خاصتّها المحبّة ، والوثنية نفسها لا تنكر الالوهية ولكنها تراها تحت أشكال أخرى مبعثرة مشوهّة ، منحرفة عن الصراط المستقيم ، وبالجملة فالنصرانية تتضمن الاسلام وتزيد عليه بعض أشياء ولكن كلتا الديانتين غيرُ مناقضة للاخرى كما يُظَنّ . وكان يجب على أتباعهما بدلاً من أن يتصارعوا و يتقاتلوا أن يتنافسوا فى العبادة والفضيلة ونحن نراهم على العكس من ذلك ، لا يشتغلون بتمجيد البارى تعالى ، كما يشتغلون بمعاداة بعضهم بعضاً

وقد جاء فى القرآن شىء من التساؤل عما اذا كان الله نفسه لم يشأ تقسيم البشر مللا ونحلاً الى حد محدود لكن بدون تعصب وشنآن . فقد قال : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً . وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ) ثم يقول : (إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ جَمِيعاً بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ).وقال: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

ثم أخذ درمنغهم يذكر ما فى الاختلاف أحياناً من الفائدة وقال ان المبادىء قد تختلف بالضرورة بحسب الزمان والمكان فيكون اختلافها موافقاً للرقى البشرى . وقد كان الأنبياء بحسب التوراة يتزوجون بزوجات متعددات . وكان المسيحيون الأولون يقاتلون الوثنية والأوثان أشد قتال الا أنهم بعد أن زال خطر الوثنية رجعوا يقدمون للقديسين شيئا من العبادة وهذا ان بقى ضمن حدود الاعتدال ، لا يخلو مما يفيد الحياة الروحية . ولقد منع الاسلام التماثيل والتصاوير فامتدّت صناعة الاسلام فى النقش الى ما لا نهاية له فى تمثيل المخلوقات غير الحيّة كما أن النصرانية أخذت بالصناعة اليونانية فى تمثيل الأجسام البشرية . وكل من الفريقين أتقن الصناعة التى اعتمد عليها ، فكان من ذلك نتيجة سعيدة جداً فى باب المدنية ولم تكن كذلك لو بقيت الصناعة منحصرة فى طرز واحد

ثم قال درمنغهم ان الفتوحات الاسلامية كانت جزاءً وفاقاً للمسيحية الشرقية التى استرسلت الى المجادلات الدينية وطالما كان فى العقاب فوائد ، فان ظهور المسلمين فى الشرق أهاب بالمسيحيين فى أوربا الى الاتحاد لأنهم وجدوا أنفسهم تحت الخطر ان لم يصلحوا أنفسهم وان لم ينهضوا عن المستوى الذى كانوا فيه

ثم قال ان القرآن يؤيد دائماً التوراة والانجيل فلا يمكنه أن يناقضهما وقد جاء فيه

خطاباً للنبي : (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) ثم ذكر درمنغهم قول القرآن فى ابراهيم : (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وعلّل ذلك بقوله ، ان ملة ابراهيم هى ملة جميع المؤمنين بالله

***

ولقد آثرنا تلخيص هذا الفصل من كلام درمنغهم وان كنا لا نوافق على كل ما فيه بتمامه وذلك لأن فيه معلومات كثيرة جليلة يجدر بالمسلمين أن يطلعوا عليها ومن جملتها الأكاذيب التى بقى الافرنج قروناً متطاولة يروجونها فى حق محمد ﷺ ليصرفوا أنظار شعوبهم عن الاسلام ومن جملتها اعتراف المؤلف المذكور برغم كونه مسيحيًّا كاثوليكياً مؤمناً بدينه ان أكثر العداوة بين المسيحيين والمسلمين انما جاء من قبل المسيحيين . وكأنه يرى ذلك غريباً جداً من قوم ، يأمرهم متبوعهم الدينى بأن يحبوا أعداءهم . ولم يكن درمنغهم الفرنسى هو الأوربى الوحيد الذى اعترف بأن المسيحيين هم أشد الفريقين عداوةً وشنآناً وان المسلمين أقرب الى التسامح . فقد قرأت هذا فى مواضع كثيرة من تآليف الاوربيين ومن جملتها تأليف اسمه « مائة مشروع تقسيم لتركيا من سنة ١٢٨١ الى سنة ١٩١٣ » للمسيو « د جوڤارا » Cent projets de partage de la Turquie (1281-1913) Djuvara من وزراء دولة رومانيا مصدر بمقدمة بقلم المسيو لويس رينولت Renault من علماء الحقوق بفرنسة . وقد جاءت فى المقدمة وفى الكتاب معلومات هى فى الدرجة القصوى من الأهمية قد نلمّ ببعضها فى المظان اللازمة . وانما نذكر الآن قول « دجوڤارا » فى الصفحة الثالثة من كتابه وهو : « ان أردنا أن نعدل ونقول الحق وجب علينا أن نعترف بأن هناك عداوةً قد نزل بها القضاء بين المسيحيين والمسلمين وأثقلت دائماً العلاقات التى بين الفريقين وانه برغم روح التسامح الدينى فى العصر الحديث لا يزال خمير هذه العداوة بين هذه الأمم ولا سيما من جهة المسيحيين » وهذا يخالف ما لا يزال يردده بعضهم من ذكر « التعصب الاسلامى » وضربهم به المثل .

ومن أحسن ما فى كلام درمنغهم حسن النيّة وخلوص الطوية وكون هذا الرجل

عمل بكل ما فى قدرته لازالة شدة هذا التنافر الذى بين المسلمين والمسيحيين . ومن يقدر أن لايحمد عملاً كهذا لأن عداوات الأديان بما خالطها من مفاسد السياسة ومن مطامع الرئاسة كانت من أعظم المصائب على البشرية . وقد نقل درمنغهم السيرة النبوية عن كتب المسلمين بدون أدنى تحامل ولا تحريف ولا مكابرة ولا محاولة تعمية أو تغطية للحقائق وكان يستنتج ما يريد استنتاجه بحسب ما يؤديه اليه اجتهاده ولكن بدون غرض ولا خبث وفى صفحة ١٨٣ ذكر أنه وان كان بعضهم يعيب محمداً بشدة ميله الى النساء فانه مما لا مشاحة فيه ان محمداً لم يكن شرهاً ولا خوراً ولا متعصباً ولا منقاداً للمطامع ، بل كان حليما رقيق القلب عظيم الانسانية وأحياناً متردداً اذا لم يكن ثمة عنده ما يعتقده وحياً الهياً اليه . وكان بشوشاً دمث الأخلاق حسن المعشرة ساذج المعيشة يكنس غرفته بيده ويصلح ثيابه ، ويخصف نعله ، ويحلب شياهه ويضطجع فى أرض المسجد وينهض ويفتح الباب لأجل هرّة تريد أن تدخل ، ويعالج ديكا مريضاً ، ويمسح ببردته عرق جواده ويوزع الصدقات بمجرد ما يدخل فى يده شىء من المال ويتجنب كل شىء يظهر فيه بمظهر ملك دنيوىّ ، وكان يمنع الناس أن يجعلوه سيداً ولم يكن عنده لا بلاط ولا وزراء ولا شىء من أبهة الملوك وانما كان عنده بعض أعوان يستشيرهم وبعض كتبة يكتبون له وخاتم من فضة منقوش عليه محمد رسول الله

وقال أيضاً ان محمداً كان يقضى أكثر أوقاته فى الصلاة سواء فى الخلوات أو الجلوات وفى الوعظ وفى الشغل ويقضى نصيباً من وقته مع نسائه ولم يكن يكره التسلى والتفريج عن القلب ، وفى ذات يوم عرض على عائشة أن تذهب وتشاهد أناساً من السودان يلعبون بالسيف والترس فذهبت عائشة بجانبه وتسلت بهذا المشهد وكان عمر أراد أن يطرد هؤلاء اللاعبين فانتهره محمد وقال له : دعهم فلكل أمةٍ أعياد وملاهٍ وهذا هو عيدنا اليوم . وكان أبو بكر أراد منع جاريتين من جوارى المدينة من الغناء أمام عائشة لقصائد فيها ذكر الحروب الماضية الا أن محمداً خالفه فى ذلك وسمح بالغناء . وكان محمد يحب الأطفال كثيرا ويلعب معهم ويترك أولاد بنتهِ يركبون على ظهره حتى فى الصلاة ويلعبون على المنبر وهو يخطب . وكانت مرة فتاة صغيرة لابسة قميصا أصفر تلعب بين يديه وهو يداعبها ويمدح لها ذلك القميص ويستحسنه فمدت اصبعها الى ما بين منكبيه ولمست الشامة

التى يقال لها خاتم النبوة فانتهرتها والدتها فقال لها محمد دعيها . وكذلك كان يحب أن يضع الحلى للبنات الصغار وقد وضع مرة عقوداً وأسورة ليتيمتين من المدينة وتأسف أن لا يكون أسامة بن زيد الحب فتاة فكان يغطيه فى الحلى من رأسه الى قدمه وكان يعجب من كون أهل البادية لايقبّلون أولادهم وكان يقول ان البنات يقين والدهن من نيران جهنم . وكان أنس خادم محمد مدة عشر سنوت ملازماً له وكان يذكر عجيب صبره ويقول انه ما وبخه ولا مرة وكان حسن العشرة مع الجميع حتى مع الذين لم يكن رأيه فيهم حسناً ولم يكن ينطق بكلمة غليظة أصلا . وكان بابه مفتوحاً للجميع الا أنه كان يحب أن يحافظ على خلواته وقد نهى القرآن عن الدخول على الرسول بدون اذن وعن مناداته من وراء الجدران . (يشير درمنغهم الى ماورد فى سورة الحجرات : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

ومما قاله وهو بحث جليل أشار اليه ابن خلدون فى مقدمته وهو ان سلطة النبى برغم علو منزلته عند العرب لم يكن من السهل اجراؤها دائماً على تلك الأقوام التى هى بفطرتها صعبة القياد . قال انه قل أن يوجد فى البشر رجل مطاع كما كان مطاعاً محمد . ولكن العرب المعتادين الفوضى لم يكونو يعلمون شيئاً من النظام وكان يصعب عليهم جداً الانقياد فكان من معجزات محمد أن جمعهم جميعاً فى دائرة الاسلام . وكان فى المدينة المنافقون الذين كانوا فى الباطن أعداء للرسول وكان الأنصار الذين لم يكونوا يتفقون دائماً مع المهاجرين وسواء كان الأنصار أو المهاجرون فكان الجميع لايأتلفون مع الأعراب أهل الوبر وكانت المنافسات والمفاخرات والنخوة سبباً للمخاصمات المستمرة وكذلك كانت تقع المخاصمات من أجل الدعاوى المالية ومن أجل تقسيم الغنائم وكان محمد يصلح جميع هذه الأمور اما بالوحى واما بحسن السياسة . وكانت نزاهته الشخصية مثالاً يقتدون به . وكان محمد شديد الاهتمام بالأعراب وكثيراً ماعنى بايطانهم المدينه وكان يطالبهم بأن يسكنوا فى المدينة ولا يعودوا للبادية واقتفى أثره فى ذلك الخلفاء الراشدون فكانوا يشددون على البوادى واذا سكن

أحدهم فى المدينة لم يسمحوا له أن يبرحها حتى قيل ان بدوياً انتحر من شدة حنينه الى نجعه . وكان النبي يخشى على امته مايقال له « اللبن » أى عيشة الرعاة و بعبارة أخرى البداوة . فأنت ترى كم ظلم بعضهم الاسلام فى اتهامهم اياه بالميل الى البداوة . وطالما أطرى الرسول معيشة المدينة برغم الحمى التى كانت فيها والتى اشتكى منها المهاجرون كثيراً . وطالما تحمل النبي من غلظة البدوى وصبر عليها وقيل ان أحد البدو بال فى المسجد فأرادوا أن يضربوه فنهاهم الرسول وقال لهم دعوه وصبوا سطل ماء حيث بال . وجذبه مرة اعرابىٌّ جذبة شديدة آذاه بها قائلاً له قل لهم يعطونى نصيباً من مال الله الذى بيدك فالتفت نحوه الرسول باسماً وقال لهم ليعطوه نصيباً . ولا شك فى أن البوادى من أبعد الناس عن الديانة وقد ورد هذا المعنى فى القرآن كثيراً ولذلك سكان الحواضر أقرب الى الاسلام من سكان البوادى .

ومما قاله درمنغهم : قال محمد ان الشهيد هو الذى يبذل نفسه فى غير امور الدنيا وقال أيضاً : الجنة تحت ظلال السيوف . وقال بولس ان الموت هو العدو الأخير الذى سيهدم ولا شك ان الأديان انما تزكو وتنمو بدماء الشهداء فالاسلام فى آخر الأمر اختار الجهاد بالسيف لأجل نشر دعوة الحق ولم يكن محمد من الكويكر(١) بل كان يرى ان من الأشياء مالا مناص فيه عن الجهاد والقتال وانه فى هذه الدنيا الملأى بالشرور لا يكون استعمال القوة القاهرة غير جائز الا اذا كان مبنياً على الظلم والبغضاء وليس من الممكن أن يقف الانسان مكتوف الأيدى أمام الشر الصائل . وقد بقى المسلمون مدة عشر سنوات يتحملون ألوان الانتقام فى مكة وأخيراً اضطروا الى هجرة وطنهم وسكنوا المدينة . وكانت قريش تأتمر بمحمد لتقتله وتتحدث بمهاجمة المدينة للقضاء عليه وعلى الاسلام فمن ذلك الوقت وجب على المسلمين أن يَقتلوا و يُقتَلوا وصار القتال فى سبيل الله من أفضل القربات ومن طرق الشهادة (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون و يقتلون) ولا يخلو الأمر من مشابهة بين المسلمين الأولين والمسيحيين الأولين فى الاستباق الى الشهادة ولا شك فى ان الشهيد المسيحى الأول القديس اتيانوس الذى كان يدعو لقاتليه يستحق من الاعجاب أكثر من الشهيد المسلم الأول خُبَيْب

(١) طائفة انكليزية تريد الوصول الى الحق بسلام

الذى كان يدعو على أعدائه (ان الرسول طالما دعا أيضاً لأعدائه أن يهديهم ويردهم الى الصواب) ولكن الفريقين كانوا يموتون فى سبيل ايمانهم معتقدين بأنهم سيكونون شهداء فالمبدأ واحد ولكن الأحوال مختلفة . ففى السلطنة الرومانية كان المسيحيون الأوائل فى بلاد متمدنة ذات ادارة منتظمة رعايا لقيصر الذىأوصاهم المسيح بأن يعطوه ماله فكان لابد لهم من أن ينقادوا لأحكام الدولة كما انقاد سقراط نفسه لحكم دولته . فأما فى بلاد العرب التى كانت فوضى وكانت كلها قبائل فىقتال دائم ولم يكن الواحد يخرج الامتقلداً سيفه أو متنكباً قوسه فكان لابد بضرورة الحال من أن يلجأ المسلمون الى القتال اذ لم يكن أمامهم غير الأسنة مركباً . وهنا نقل درمنغهم كلاماً عن المسيو ماريتين Maritain فى كتابه « أولية التأثير الروحى » وهو ان المسيحيين فى القرون الأولى من النصرانية لم يكونوا يفكرون فى هدم السلطنة الرومانية لأنهم كانوا عاجزين عن اقامة سلطنة مسيحية مكانها . فلذلك لم يكونوا يفكرون الا فى الحياة الأبدية وفى مصالح الآخرة فكانت ثورتهم عقيمة لاثمرة لها الا مجرد الاضطراب الداخلى فلم يبق أمامهم الا نيل الشهادة وهو فى الواقع أحسن حل للمسألة فى مثل تلك الحال التى كانوا فيها .

وكان محمد يقول يجب أن يتم هذا الأمر حتى يقدر الفارس أن يسير من صنعاء الى حضرموت بدون أن يخشى شيئاً سوى الله على نفسه والذئب على غنمه . ولم تكن قضية الجهاد ترمى الى هداية البشر تحت التهديد بالسيف كلا بل جاء فى القرآن : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) . وجاء فى القرآن النهى عن الاعتداء . وكل ماورد فيه مما يتعلق بالجهاد فى آيات متعددة متفرقة هو موقوف على حوادث خاصة معينة وقعت مع النبى وأصحابه . ولا يكون موافقاً للواقع أن يتخذ منها قاعدة عامة يجب تطبيق أحكامها على جميع الأحوال . ومما لاينكر أن الجهاد قد دخل فيه مطامع فى غير الجهة الروحية واتخذه بعض المسلمين وسيلة لكسب حظوظ الدنيا ولكن القرآن يقيم التنكير على هذه الأمور وان كان يسمح بمقابلة الشدة بمثلها . وكثيراً ما حلم محمد وعطف وتجاوز عن السيئات . وفى ظفره الأخير قد أظهر من علو النفس مايندر نظيره فى التاريخ وكان يأمر جنده بأن يتجنبوا الضعفاء والأطفال والشيوخ والنساء ويحظر عليهمأن يهدموا البيوت أو أن ينتهبوا الغلات أو ان يقطعوا الأشجار المثمرة وكان يأمرهم بأن لايسلوا السيوف الا عند الضرورة المطلقة

وكثيراً ما أنكر أعمال بعض أتباعه وجبر مما كسروه وكان يقول لأن يهدى الله نفساً واحداً خير من جميع مكاسب الدنيا (لَأَنْ يَهْدِيَ بِكَ اللهُ رَجلاً وَاحِداً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ).
وكانت الغنائم فى ذلك الوقت هى نتيجة الحرب الطبيعية وكانت هى والتجارة ورعاية المواشى جميع منابع رزق العرب فبديهىٌ أن يكون محمد أباح الغنائم للمسلمين فى حال ضعفهم ولكنه قد جعل للغنائم قواعد وخصص جانباً عظيماً منها بالصدقات وبميرة الجيش وحظر فى تقسيم السبي فصل الاولاد عن امهاتهم ولم يكن فى وسعه أن ينقل العرب عن طباعهم التى فطروا عليها دفعة واحدة وانما كان يهذب منها بقدر امكانه وكثيراً ما كان يحضّ على العفو عند المقدرة وقد روى عنه حديث ان الذى يغفر السيئات يقرب من درجة النبوة .
ولا ينكر أن كثيراً من الصحابة أصبحوا أغنياء وافرين مما غنموه من كنوز الاكاسرة وفتح مصر وغيرها وكان أناس من البدو قد أصبحوا بتلك الفتوحات يلعبون بحلى الملوك الساسانيين وقيل ان الزبير بن العوام مات عن تركة تبلغ نحواً من خمسين مليوناً(١) وكان الرسول يقول لأصحابه وهو يفكر فى المستقبل ما أخشى عليكم من شىء مثل مكاسب الدنيا الفانية . ولما قتل مصعب بن عمير فى وقعة أحد كان من الفقر بحيث لم يجدوا ما يكفنونه به الا خرقة قصيرة لم تكن لتوارى من بدنه الا القسم الأعلى فغطوا سائر بدنه بالعشب . وذكر عند عبدالرحمن بن عوف فقال ، كان خيراً منا نحن الذين أفاض الله علينا من خيرات هذه الدنيا افتراه تعالى اكتفى لنا بها عن الآخرة ؟ وأخذ يبكى

ثم ذكر درمنغهم فى صفحة ٢٧٣ قول « غوته » أكبر شعراء الالمان وهو « ان كان هذا هو الاسلام أفلسنا كلنا مسلمين ؟ »

---

(١) الصحيح أن الزبير رضى الله عنه لم يترك الا أراضى أمر ولده عبد الله بأن يطرحها للبيع لايفاء ديونه وكان عبد الله ابن الزبير يظن أن ثمن هذه الأراضى لا يكفي لايفاء الديون التى كانت علي أبيه الا أنه عند بيع الأراضى كانت أثمانها قد ارتفعت كثيراً فتمكنوا من ايفاء جميع الديون وبقي شيء من الأراضى لورثة الزبير . وكان عثمان ابن عفان وطلحة وعبد الرحمن ابن عوف وغيرهم من الصحابة أصحاب يسار تام وكانت لهم عقارات وأموال ومواش تجعلهم فى صف الأغنياء حتى فى هذا العصر ولكنهم برغم هذه الثروة كلها لم يكونوا يعيشون معيشة التنعم المعروفة للمترفين بل كانوا ينفقون أموالهم فى الدين والمروءة والرفد وقضاء مغارم الضعفاء

ثم قال : لا جرم ان محمداً قد نهض داعياً العرب الى الدين الوحيد اللائق بالاله الواحد ليوقظ بدينه هذا جانباً من آسـية وافريقية وليحطم قيود التقليد ولينبّه فارس التى كانت نائمة ونصرانية الشرق التى كانت ممزّقة بالمجادلات الدينية . ولا جدال فى ان الأنبياء فى العالم هم أشـبه بالقوى الطبيعية العظيمة المحسنة الهائلة التى هى من قبيل الشمس والمطر والزوابع التى تهزّ الأرض ثم تغطيهاخضرة ونضرةً . فيجب على الناس أن يعرفوهم بثمرات أعمالهم وأصدق الشهود عليها هى الصدور الثالجة باليقين والقلوب المطمئنة والعزائم الناهضة والنفوس الصابرة على البلاء والاسقام الأدبية الزائلة والصلوات الطاهرة الصاعدة الى السمآء .

وهؤلاء الأنبياء منفردين بدون قوة مادة وبدون أيدٍ — سوى الأيد الالهى — وبرغم مقاومة الـكبر البشرى لهم تجدهم يأتون بكشف سر الحرية فى أسمى معانيها يقولون بطاعة الخالق لا المخلوق وبالمساواة التامة امام الخالق تعالى وبتقديم المعنى على اللفظ . وهكذا ظهر محمد لا يعرف شيئاً من العلوم غير العلم الأعلى أميًّا طاهراً ساذج الطبيعة طليقاً من قيود الأوهام ، فدعا العلماء أن يفهموا مايقولون ونبـه الذين يقال انهـم حكماء الى سلوك السبل المستقيمة وكان الناس اذا سمعوا ماينطق به مثل : (إِنَّ اللّٰهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) يعودون فيلمسون سر الحياة الذى يحيط بهم متواضعين لله تعالى متوجهين اليه ويعلمون هناك قاعدة تفرق بين الطاعة والمعصية مما يعجز عن الأتيان بمثله الفلاسفة ومدبرو الممالك .

قال درمنغهم : ان محمداً جاء فى أشدّ الأعصر ظلمات حينما كانت المدنيات باجمعها قد تداعت الى الخراب من بلادالغال الميروفنجية الى بلاد الهند وكان الاضطراب شاملاً فتسمَّى محمداً (١) وتلقب بالنبيّ الأميّ . وكان يرى نفسه أداة للوحى ومبلّغاً واعياً يسمع ما يلقى اليه من فم الشخص النورانى الذى يشاهده ومن الصوت الذى يسمعه فيلقيه الى الناس (ما على الرسول الا البلاغ) وهـذا الوحى هو الـكلمة الالهية القديمة التى هى « أم الـكتاب » المحفوظة فى السماء السابعة تحرسها الملائـكة المسبّحون وانما اتخذت بالقرآن قالباً أرضيا — الى أن يقول : اننا نرى القرآن نازلاً بحسب الوقائع موحى به يوماً فيوماً وشيئاً فشيئا وفقا

(١) اشارة الى ما ورد فى التوراة من مجيء البارقليط الذي اسمه أحمد

للضرورات المتجددة ولمصلحة الأمة وكثيراً مانسخ منه الآخر الأول بحسب ضعف البشر واجابةً لرغائبهم وعلى كل حال فكانت الرسالة فى نظر محمد أسمى من الرسول وكانت سورة واحدة من كلام الله أفضل من النبي وعترته . ولما كان لكل نبيٍّ معجزة كانت معجزة محمد القرآن .

ومما لا يقبل المراء ان فى القرآن من سحر البيان مالا يوجد فى كلامٍ غيره على الاطلاق وان فيه من قوة التأثير والعمل فى القلوب مالا يبرح الى اليوم سرّاً مغلقاً حتى انه ليقذف بالخشوع فى قلب أقل الناس خشية وأبعدهم عن التقوى. وكان محمد يتحدى عبقرية العرب أن يأتوا بسورةٍ من مثله . ولم يكن اعجاز القرآن فى مزيتهِ اللغوية من جهة مايسمى اليوم بالأدب بل كان هذا الضرب مما يحتقره محمد وكان يكره الشعراء ويبرأ أن يكون منهم وانما كان اعجاز القرآن فى شدة التأثير وعجز الناس عن الاتيان بمثله

قال درمنغهم : انه لم يبقَ أدنى شك فى صدق محمد . فان جميع حياته برغم بعض أغلاط قد اعترف هو بها تدل على كونه معتقداً بكليتهِ بالرسالة التى عهد بها اليه وأنه وجد من الواجب عليه أن يقوم بهذه الرسالة مهما آده من حملها . وأن جميع ماظهر من هذا الرجل من قوة ايجاد وتناهى عبقرية وحدة ذكاء ومواجهة تامة للحقائق وضبط نفس وشدة ارادة وحسن تدبير واتقان عمل و بالجملة جميع حياته تمنع من أن ينظرَ الى هذا الملهم الصافى الذهن كرجل مصاب بصرع . اهـ

يشير درمنغهم بهذا الى مايزعمه أعداء الاسلام من كون حركة الوحى التى كانت تحصل للنبي ﷺ انما هى من علة جسمانية فيه قال بعضهم انها مرض الصرع . ولكن أكثر الاور بيين اليوم رجعوا عن هذه الفكرة وعلموا أن ﷺ لم يكن مصاباً بمرض الصرع ولا بمرض عصبى آخر وأنه كان معتدل المزاج كامل الخلقة لاشائبة فيه ومن جملة من صرح بهذا القول المستشرق ماسينيون الافرنسى الذى هو كاثوليكى النزعة مثل درمنغهم . أما ما ذكره درمنغهم من أن للنبي أغلاطا كان هو يعترف بها فالمسلمون يقررون العصمة للنبي ولجميع الانبياء صلوات الله عليهم وذلك فى الامور الدينية وهم ينزهونهم عن الكبائر . فوجب ايضاح العقيدة الاسلامية فى هذا الشأن . وأما الكاثوليك فيجعلون العصمة للبابا فى الامور الدينية شرطاً من شروط ديانتهم

ثم قال درمنغهم : ان محمداً لم يكن يلتزم أن يجذب قومه الى عقيدته بجميع الطرق ولم يكن همّه أن يسهل عليهم الامور ليتبعوا دعوته وانما كان يبلغهم رسالته لامعة كالسيف القاطع وكان يفرق بينها و بين آرائه الشخصية . و يقول بعضهم انه لم يكن فى المدينة النبي الخاشع الصابر الذى كان بمكة . وجواب هذا ان الاحوال قد تتغيّر وانه كان حتماً عليه أن يغيّر من خطته لاجل تثبيت دعوته . ور بما يكون أخطأ فى بعض أعماله لأن العمل غير النظر ولكنه على كل حال بقى صادقاً فى دعوته ثابتاً متيناً وان كان قد أخطأ فانه لم يكذب قط . وكيف يكون قد كذب ورسالته كانت تتأيّد كل يوم وتثمر ثمرات لا تكون الا للحقائق .

قال وكانت عظمة محمد الحقيقية هى العظمة الآتية له من الله بالالهام الالهى الذى كان يقذف فى روعه . وأما فيما عدا ذالك فكان يشعر بضعفه وعجزه . وكان يتهجّد الليل و يستغيث بالله و يسأله تعالى دائماً أن لا يخذله . وقالت له زوجته أم سلمة مرة : لماذا لا تفتأ تقول هذا والله قد غفر لك ماتقدم وما تأخر من ذنبك . فاجابها : كيف لا أخشى الله وقد تخلّى مرة عن يونس . وكان يدعو الله قائلاً : اغفر لى ذنوبى الحاضرة والماضية والظاهرة والباطنة وطهرنى من آثامى تطهير الثلج واغسل قلبى كما يغسل الثوب واجعل بينى و بين الاثم مسافة ما بين المشرق والمغرب .

وكان يلقى الى الناس ما يوحى اليه من القرآ من التو بيخ فى مثل قصة الاعمى (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) وفى مواضع أخرى مثل حدته فى خطاب أعدائه وغير ذلك .

ولقد تفنّن بعض علماء النفس من الاور بيين فى تفسير حالة محمد والوحى الذى كان يلقى اليه فذهب بعضهم الى أنه صرع وذهب آخرون الى أنه شدة تخيُّل وكلهم غفلوا عن الوسط الذى كان فيه وعن معيشة المخيّم فى البادية ونسوا مقتضى البيئة التى كان فيها وما من شك فى أن محمداً كان الى وقت بعثته كسائر الناس ليس فيه شذوذ فى شئ وكان مزاجه بغاية الاعتدال وكذلك كان بعد البعثة فى غاية التوازن الا ما كان يحصل له من التغير عند نزول الوحى .

وهـذا شيءٌ غـير خاصّ به بل معهود فى جميع الالاهيـين الحقيقيين وفى أنبياء بنى اسرآئيـل . وقد كان ارمَيْا يقول : أرَى قلبى قد تكسَّر وجميعَ عظامى مضطربة وأرانى كالسكران وذلك بسبب الاله والكلمات المقدسة. وكذلك كان عَمُوس وهو مدَّثِّر كما كان محمد مدثراً يقول الكلمات نفسها . ولم يكن يرى محمـد تلك المرائى لأنه كان مريضاً بل كانت تحصل له تلك الحالة العصبية من بعد تلك المرائى. ولا شك أنه يوجد تشابه بين المرضى بالامراض العصبية و بيْن أصحاب المكاشـفات من الالاهيين الحقيقيين . و يمكن أن يقال ان البنية الضعيفة هى أكثر استعداداً للأحوال الروحية كما أن هذه الأحوال تزيدها ضعفاً . ولكن لم يكن يوجد أثر من هـذا الضعف فى محمد و بقى الى أن بلغ الكهولة من أكمل الناس صحة وأقواهم جسما . فلم يكن يشعر بشىء الا ما كان يحصـل له من التغير فى حالة نزول الوحى ، نعم حصل له مرتين أو ثلاثاً شىء من ضَرْبة الشمس على أثر السـفر فى الضحى وكان هـذا يزول بالحجامة أو بالعلَق. أما الوحى فـكان يُحدث له ألماً شديداً كثيراً ما كان يتجلَّدُ لَهُ و يُخفيه عن الناس بقدر امكانه فلَحَظ أبو بكر مرة الشيب قد بدأ فى لحيته فقال له محمـد : انمـا هى هود والحاقة والقارعة وأخواتها هى التى شيّبتنى . وكان يحصل له بعـد الوحى ثِقَل فى رأسه يعالجه باللذقات والمرَاهم، وكان اذا أحسَّ بدُنوّ الوحى يُغطِّى نفْسه و يتنفَّس تنفساً شديداً و يسمع له غطيط وتحصل له شدة . واذا كان حتى فى الشتاء يتصبب منه العرق. وطلب يعلى بن أمية من عمر أن يُريه النبى فى حال نزول الوحى فجاءهُ الوحى وهو فى الطريق الى مكة وكان أحدُهم ألقى سؤالاً عن مناسك الحج فلم يُحر محمد جواباً ثم لم يلبث أن جاءه الوحى وتغطى بغطاء فدعا عمر يعلى بن أمية ورفع الغطاء عن النبى فاذا به يتنفس تنفساً شـديداً ووجهه شـديد الحمرة . ولما فصم عنه نهض وقال : أين الرجل الذى ألقى علىّ السؤال ؟ ثم أخذ يتلو الآيات النازلة عليه حينئذ وكان نزول الوحى عليه يختلف فى الشكل فـكان يسمع أحياناً كصلصلة الجرس أو كحفيف الأجنحة أو كدوىّ غـير مفهوم تماما ولم يكن يعى كل مايسمع الا بعد انقطاع تلك الجلَبة وكان هذا أشـده عليه وأغرب به مظهراً ، وأحيانا كان الملَك يأتيه بصورة بشرية ، كصورة دحية الحلبى وكان من أجل أهل زمانه أو كصورته هو، وكان يُلقِى عليه القول فيفهمه بدون عناء ، فـكان الوحى بالاجمال على شكلين وقـد نُهى محمد فى القرآن عن أن يُحرّك به لسانه و يُجهد نفسه ليعى تماما الآى التى كانت تلقَى عليه

ولم يكن محمد هو الذى صنع القرآن ، ولا كان مُختاراً فى تنزيل الوحى بل كان يطول عهده به ولا يرى شيئاً . وطالما تمنّى أن يأتيه الملَك فلم يأته

الا أن درمنغهم يعتقد مايعتقده غيره من الاوروبيين من أن القرآن كسائر الكتب المنزلة لم يحرَّر الا بعد نزوله بكثير وانهم حملوا الناس على نسخة واحدة من المصحف وأحرقوا ما عداها وان كثيرا من الآيات لم يقع فيها الترتيب اللازم وانه لايعلَم بالتمام هل أُدخل فى القرآن شئ من الحديث النبوى الذى قاله الرسول من نفسه لا على أنه وحى . وروى أن جعفر قال : انه كان فى القرآن أسماء سبعة رجال من قريش فلم يبق منها الا اسم أبى لهب . ثم ان الشيعة يتّهمون أهل السنة بأنهم حذفوا من القرآن كل ما كان فيه من الآيات الموافقة لعلى ثم أنهى درمنغهم كلامَه فى هذا الموضوع قائلا انه لا يقدر أن يجزم فى هذه المسئلة وانه على وجه الاجمال يرى المصحف الحاضر صحيحا لا شائبة فيه الا ما يتعلق بترتيب الآيات والسور . ولكنه لا يرى الأحاديث النبوية كلها صحيحة ويجزم بأن قسما كبيراً منها موضوع وهذا يوافقه فيه كثير من المسلمين

ثم انه يقول ما يلى : ان محمداً لم يكن يقول فى الصفات الالهية ما يقوله المتكلمون أو اللاهوتيون من التعليلات الطويلة بل كان محمد ثَملاً بالاله لا يرى حقيقة غير الله فالله عنده هو الحقيقة وهو واجب الوجود . ولم يكن العرب ينكرون وجود الله وانما كانوا يتخيّلونه بعيدا عنهم ويتخذون له وسائل من هؤلاء الأصنام فجاء محمد وقلب ذلك الاسلوب فى العبادة وجعل الله حاضرا أمام العقول بدون واسطة وردّ تلك الوسائل من أصنام وجنّة وملائكة الى الوراء وعلم الناس أن الله أقرب الى المرء من حبل الوريد . وكانت عقيدته أنه لا بد من وجودٍ ثابتٍ فى وسط تقلبات الحوادث وكائن خالد يهيمن على جميع ما يقع فى هذا العالم ولا حول ولا قوة الى بالله وانا لله وانا اليه راجعون والله أكبر والله الأول والآخر والباطن والظاهر والأحد والحى القيوم ، القادر الخالق ، العلى الكبير ، المالك المجيد ، ذو الجلال والاكرام ، العظيم القوىّ الصمد ، الحكيم القدّوس ، أحكم الحاكمين ، المنعم ، الأبدىّ ، الوارث ، الشاهد ، المدّبر ، الهادى ، الأمين ، الحافظ ، الناصر ، المعطى ، الرازق ، سميع الدعاء ، الحاسب ، القابض ، الباسط ، العفوّ ، الغفار ، الرحمن الرّحيم . وكان من عقيدة محمد أن الانسان عاجز عجزاً تاماً أمام الله تعالى وانه لا عذر له بين يديه ولكن الله تعالى يعفو

عن كثير وقد كتب على عرشه أن رحمته غلبت نقمته وهو يغفر لمن يغفر ويسرُّ برجوع آثم واحد الى الهدى كسرور اعرابىّ فقد بعيره فى الفلاة وما زال فى أثره الى أن وجده أمامه . ومن عقيدة محمد أن الانسان لا يوجد فى هذه الدنيا الا لعبادة الله تعالى وأن الله غنىٌّ عنه وأنه يجب عليه أن يطلب وجه الله تعالى فى كل شىء وان كلّ شىء هالك الا وجهه تعالى وان فى اشراق النور الالهى على الانسان سلام النفس الداخلى ورضاها ورضى الله تعالى وأن أصل ذلك كله الايمان وان الوصول الى هذه الحالة يكون بالصلاة و بالايثار أى باعطاء ما يعز على الانسان ولو كان به خصاصة

ولئن لم يكن القرآن يقول ما قال يُوحَنا : ان الله كلّه محبة فلم يكن محمد يهمل قاعدة أن الله تعالى يحب مخلوقاته كما تحب الأم ولدها . وكان يقول ان الله يُضاعف الحسنات مائة مرة وقد جاء فى القرآن : « ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ » وكان عنده أن الايمان بدون المحبة وبدون الأعمال يكون ايماناً ميتاً . وكان ينهى عن الغضب والبغضاء والحسد والكبر والغيبة وكان يقول ان أحسن الناس أكظمهم لغيظه « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » وكان يقول ان المسلم من سلم الناس من لسانه ويده . وكان يقول ان المهاجر هو مَن يفرّ مما حرم الله ، وكان يقول احبوا بعضكم بعضاً فى ذات الله ، وكان يقول ان العبد ينال رضا الله بالمحبة وانه تعالى قريب من الداعى اذا دعاه وانه رءوف رحيم . وكان يدعو ربّه ويقول فى دعائه : اننى ألجأ اليك من ضعفى وعجزى أنت يا أرحم الراحمين وملجأ الضعفاء الى مَنْ تَكلُنى ان أنتَ خذلتَنى . وكان عنده أن الدين الحق هو العبادة بالعقل وأن الأعمال انما هى بالنيات وان الذى لا يريد أن يترك الكذب ولا يطهر نفسه فالله فى غنى عن صيامه وجاء فى القرآن : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ اذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » وجاء فى القرآن بشأن الضحايا والقرابين «لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤُها ولكن يناله التقوى منكم» . وكان محمد يقول : انصر أخاك ظالماً أو مظلوما قيل له

يارسول الله فكيف ننصره اذا كان ظالماً . قال : تَرْدَعهُ عن ظلمه . وكان مرة عائداً من غزاة جاهد فيها المشركين فقال رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر فى أنفسنا . وقال : يجب أن يحب الانسان جميع الناس وجميع المخلوقات فان أصغر الطير يسبح بارئ السماوات والأرض ببسط جناحيه

وقد أثرتْ مواعظ محمد هذه فى العرب تأثيراً عظيما وأحدثت انقلابا كبيراً فى المجتمع العربى وفى البيئة الصحيّة وارتفع شأن المرأة عما كانوا عليه وأُبطل البغاء وأُبطلت المخادنة ولم يبطل الرق ولكن وُضعت له شروط . وجعل محمد عتق الرقاب من أعظم الفضائل وقال من أعتق رقبة فان الله يعتق من النار جميع أعضائه . وكان يقول عَبيدُكم اخوانكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تحمّلوهم فوق طاقتهم . وكان ينهى عن أن يقال عبدى وكان يقول لا مَوْلى غيرُ الله . وسأله سائل : هل عند الله ثواب على الرافة بالحيوانات ؟ فقال له : نعم ، يُثيب اللهُ كل من يرْوى ظمأ مخلوق ذى قلب ومَنْ حفر بئراً فله ثواب لكل بعير يشرب منها . وطالما نهى محمد عن العنف فى سوق الدواب وعن قتل الحيوانات الا لموجب . وذكر ابن عمر من أقواله أن الحيوانات يحضرن يوم القيامة للشكوى من ظلمهن وان امرأةً تخدشها هِرَّةٌ فى النار بلا انقطاع لأنها أغلقت عليها الباب حتى ماتت جوعاً وانّ مومساً تدخل الجنة لكونها سقت على حافة بئر كلباً كان سيموتُ عطشاً .

وقد أقبل المتكلمون والأخلاقيون والمتصوفة والفقهاء على أقوال الرسول ومواعظه فأخذوا منها أُسس تعاليمهم كل فريق فى الجهة التى سار فيها ولكنهم بقوا واضعين القواعد العامة نصب أعينهم . واذا كان وقع بينهم اختلافات فلأنهم قد اعتمدوا على أحاديث مختلفة وكل فريق صحح الحديث الذى يرويه . مثال ذلك القدَرية والجبرية فى اختلافهم كل فريق يجتهد أن يتوكأ على شيء من القرآن والسنة . وهذا بعينه قد حصل بين المسيحيين فتجد فى هذه المسئلة الاختلاف بين اللاهوتيين مثل توما الاكوينى وبوسويت والجانسيّين والمولنيين (١)

(١) الجانسينيون Jansinistes نسبة الى جانسين رجل هولاندى كان أستاذاً لعلم اللاهوت فى باريز فى أوائل القرن السابع عشر وله كتاب اسمه « اوغسطنيوس » اشتغل فى تأليفه نحواً من ٢٠ سنة وشرح فيه مذهب القديس اوغسطنيوس فى النعمة (اللطف المخزون) والاختيار وعقيدة القضاء والقدر وكان

فالقرآن يقول ان كل شئ من الله ولكنه ينسب الشر الى ضلال الانسان وقد تجد فيه ما يقوى حرية الانسان وتجد فيه ما يخالفها . فهنا طرفا السلسلة التى لم يقدر الناس الى اليوم أن يعرفوا الحلقات المتوسطة بينهما . ولئن كان المسلمون لا سيما فى عصر الانحطاط أخذوا يميلون الى القول بأنه لا خيرة للانسان فى أعماله فالحقيقة أن القرآن لا يقول بالجبرية وسأل اعرابى محمداً هل يعقل ناقته أم يفلتها متوكلاً على الله فقال له : اعقل و توكل وكان اذا قيل له : اذا كان كل شئ مقدّراً عند الله من الأزل فما فائدة السعى ؟ يكون جوابه : اسعوا فيسهل الله لكم الأمور . و بعبارةٍ أخرى : أعن نفسك يعنك خالقك

ومن المأثور عن النبى ﷺ اعمل للآخرة كأنك تموت غداً واعمل للدنيا كأنك تعيش أبداً . فهذه فى الحقيقة هى الحكمة وهى جماع الفضائل كلها . ومن أقوال النبى ما معناه ان أفطن المسلمين هو من فكر فى أمر الآخرة واستعد لها لما وراءها .

ومن الناس من يقابل الآداب الاسلامية بالآداب المسيحية و يجد هذه أورع من تلك ولا شك أن الاسلام أسمح من المسيحية فيما يتعلق بميول الجسد . وهو لا يطالب الانسان بالمبالغة فى قهر نفسه وهو يرى الصلاة أحسن وصولاً الى الله اذا صدرت عن رجل متمتع بلذاته المشروعة . الا أن هؤلاء الذين يرون الطهارة المسيحية أعلى درجة من الطهارة الاسلامية ينسون تقدم زهاد المسلمين فى الطهارة وانهم لا يقلون فى هذا الأمر عن أحد من نساك الملل الاخرى . وكذلك ينسون تحريم الاسلام للخمر وفرضه صياماً أشد من كل صيام آخر وتشديده على النساء فى صيانة عفتهنّ وفى ملابسهن ما لا يشدده دين غيره . وفى هذه المقايسات بين الأديان لا يجوز الاكتفاء بالنظر الى المبادئ نفسها بل يجب النظر أيضاً الى أحوال الزمان والمكان . فلما كان المسيحيون فى أواخر الدولة الرومانيّة المنغمسة فى الترف كانوا يتجنبون الشهوات التى ابتلى بها غيرهم . ولما ظهر الاسلام على يد أولئك الأعراب البداة الذين كانوا فى شدة من العيش أسرعوا فى اللذات بقدر سذاجتهم الا أنه

مذهبه هذا موافقاً لمذهب المصلح البروتستانتى كلفين وغير مطابق لحرية المرء فى الاختيار وقد تبعه في ذلك علماء مشاهير منهم باسكال من أعظم العبقريين الذين ظهروا فى فرنسة . وكان مولين اليسوعى يقول بخلاف قول جانسين فانقسم اللاهوتيون الى قسمين واشتد الخلاف وطال ودخل فى أدوار مختلفة ولكن الكنيسة قضت على العقيدة الجنسينية)

لما تكوّن المجتمع الاسلامي وتأطّد مست الحاجة الى كبح عنان الشهوات البدنية وظهرت النزعة الصوفية وعلا مقام الزهد

ثم قال درمنغهم : ان القرآن ردد كثيراً معنى كون الدنيا زائلة ومتاعا قليلاً وانها لم تكن الا ممرّاً للآخرة . وكان سلمان الفارسي يقول ما قاله باسكال وهو أن المؤمن أشبه بالمريض الذي يمنعه الطبيب من أن يأكل ما يلذه لأنه يضرّه . وكان النبي يقول : لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً. وعاد النبي اعرابياً مريضاً فقال له : هذا تطهيرٌ لك. فقال له الاعرابي : بل هذه حمى ستأخذني الى القبر . فقال له النبي : هذا الذي أردته . وكان النبي يتهجد كثيراً ويقنت ويجمع نساءه ويعظهن . وكان أصحابه كثيراً ما يتعبدون ويتقشفون وقد بالغ بعضهم في العبادة والزهادة والصوم الى أن نهاهم النبي عن هذا الغلو في العبادة وفي قهر الأنفس .

ولم يكن محمد يرى خيرات هذه الدنيا علامة على المحبة الالهية وكان يقول لأصحابه : ما أخشى عليكم شيئاً أكثر من خيرات الحياة العاجلة (وما عند الله خيرٌ وأبقى) . فقال له أحد أصحابه أيمكن أن يأتي من الخير شر فتوقف محمد في الجواب وكأنما جاءه الوحي وأخذ العرق يتصبب منه ثم سأل قائلا : أين السائل ؟ ثم قال له : أترى شيئاً من خيرات هذا العالم يستحق هذا الاسم . وكان يقول ان خيرات هذا العالم ليست بخيرات ان لم تكن آتية بطريق حلال ولم تكن تُنفَق في سبيل البرّ فان لم تكن كذلك فهي باب للشر وان أغنياكم في هذه الدنيا سيكونون أفقركم في الآخرة ان لم يكونوا أنفقوا أموالهم في سبيل الله . وكان يقول : ان جهنم تقول بملء فيها : انني أنا أضم المتكبرين والأغنياء والجبارين . وكثيراً ما كان محمد ينهى أصحابه عن الطمع في الدنيا ويندّد على الذين يجمعون الأموال ويحرصون عليها وعلى المرابين وعلى التجار الذين لا يراعون وجه الله في مكاسبهم وعلى الحكام الذين يميلون مع الأغنياء في أحكامهم . وكانوا في صدر الاسلام يكرهون الترف والتنعم في الدنيا وربما وصلوا الى تحريم كل ثروة تزيد على اللازم الضروري في حياة الانسان . نعم انهم فيما بعد لم يتقيدوا بهذه القاعدة ولكنّ روح الاسلام الأصلية كانت هي هذه وكانت عظاتُ محمد شديدة التأثير في أصحابه حتى انه وصف عذاب القبر مرة فكاد الحاضرون يصعقون من هول الوصف . وكان يجد أيضاً في وصفه صوراً في غاية الرقة تدخل الى أعماق القلوب اذا

وصف رحمة الله التى لا تتناهى وما أُعد من النعيم للمتقين

وقد أشار درمنغهم فى آخر كتابه عن النبى ﷺ الى تعدد أزواجه وأورد هنا مايعترضه المعترضون ليتنقصوا من قدره ﷺ فقال انه كسائر سادات العرب استكثر من النساء فتزوّج ببعضهن عن مجرد عاطفة ، وتزوج ببعضهن ليتألف بزواجه قلوب القبائل وتكلم عن زواجه بزينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة الذى كان النبىّ قد تبنّاه وكان مراده بذلك أن لايجعل من يتبناه الانسان فى حكم ابنه الحقيقى ولا يحرم عليه التزوج بمطلقته. وقال درمنغهم ان محمداً وان كان وسّع دائرة الحلال فقد ضيّق دائرة الحرام. ثم استوفى درمنغهم سيرة النبى ﷺ بدون أدنى تحامل وان كنا لانتفق معه فى جميع الأفكار. ولم نكن الآن لنستوفى ترجمة كتابه كله وانما نريد أن نختار منه بعض مواضع على سبيل الاستشهاد لأن الكاتب المذكور لم يكن مسلماً لنقول انه كان ينتصر للاسلام حمية على دينه ولم يكن من الكتاب الاوربيين المعروفين ببغض النصرانية ليقال انه انما امتدح الاسلام بسائق بغضائه للدين المسيحى. وانما كان درمنغهم هو من الكتاب المسيحيين المعتقدين بدينهم ولذلك نقلنا كلماته على ماهى عليه ، بدون أن نجتهد فى تحقيق ماأخذها من السنة ورواية الأحاديث الواردة فى المواضيع التى تكلم عليها .فانظر كيف يقول عن قضية النساء فى الاسلام : ان الاسلام قد رفع شأن المرأة فى بلاد العرب وهذه قضية لاتقبل المراء وكان عمر يقول اننا لم نكن نعدّ نساءنا شيئاً فى الجاهلية ولم نزل كذلك حتى نزل كلام الله فى حقهن . وكان الرسول يقول ان أفضلكم أحسنُكم معاملة لزوجته . وكان يوصى النساء بأن يكنّ طوع ارادة أزواجهن ولكنّه كان يشدد جداً على من يغلظ فى معاملتهن وينهى عن تزويج البنات بدون ارادتهن وكان يقول : ان أجر الانسان فى الانفاق على زوجته أكثرُ من أجره فى التصدّق على الفقراء أو الجهاد فى سبيل الله . وكان يقول : اذا وضع الزوج يده فى يد زوجته تساقطت الذنوب من بين أصابعهما . وكان يقول الجنة تحت أقدام الأمهات . وكان النسوة فى الجاهلية لايرثْنَ شيئاً فجعل محمد للمرأة نصف حظ الرجل فى الارث ، ومنع القرآنُ وأد البنات . وكان لايمل من التوصية بالنساء والأيتام وتكلم عما يعُدّه الله من الثواب لمن ربّى أمة وحرّرها وتزوّجها وقد أجاز محمد تعدد الأزواج ولم يكن يمكنه غير ذلك فى بلاد ابراهيم ولكن محمداً لم يأمر بالتزوج بأكثر من واحدة

واشترط القرآن العدل التام بين النساء حتى لو أعطى الزوج لاحدى نسائه ابرة وجب أن يعطى مثلها للاخرى وأجاز الطلاق ولكنه قال انه ما من حلال أكره الى الله تعالى منه (أبغض الحلال الى الله الطلاق) ولا يجوز أن ننسى أن الشريعة الموسوية فى العهد القديم لم تكن تمنع تعدد الزوجات فان كان الاكتفاء بزوجة واحدة قدصار هو القاعدة فى النصرانية فما ذاك الا لأن الاكتفاء بالزوجة الواحدة كان هو المألوف فى البلاد الغربية التى انتشر فيها الدين المسيحى

ونقل درمنغهم على « دوكا سترى » فى كتابه الاسلام صفحة ١٠٩ قال : مما لاشك فيه بحسب قول ريفيل Réville اننا اذا نظرنا الى الزمان والمكان اللذين وُجد فيهما محمد لم نجد اصلاحاً أشرف ولا أجرأ من الاصلاح الذى قام به محمد بحق النساء فالمرأة فى الشرق مَدْيُونة كثيراً لمحمد . وأما مونتسكيو فى روح الشرائع فقد قال : ان تعدد الزوجات فى الشرق واحتجاب النساء والبلوغ قبل الوقت ودخول النساء فى الهرم قبل الوقت ، كل ذلك من الأمور التى نشأت عن تأثير الاقليم .

ثم قال درمنغهم انه هناك محل نظر فى الاعتراض على تعدد الزوجات فى الاسلام فهل هذا التعدد الرسمى هو أسوأ من التعدد غير الرسمى (١) ومن محاسن تعدد الزوجات منع البغاء وتيسيرُ الزواج لجميع النسوة بحيث تصان الأعراض يقول درمنغهم هذا ، ولكن يغلب عليه مشربه الغربى فيقول : كنا نود لو ان محمداً لم يجُز تعدد الزوجات أصلاً . وينكر درمنغهم أشد الانكار قول بعض الناس بأن المرأة ليس لها مقام فى الاسلام ويقول ان هذه التهمة أشبه باتهام النصرانية أنها جعلت المرأة ملعونة وأصلا ومنبعا للشرور . قال : ويكفى أن يذهب الانسان الى بلاد الاسلام ليعلم ماهناك من محبة عائلية وحرمة للنساء خلافاً لما يتقوّل به بعض الاوربيين . ثم ذكر درمنغهم فى آخر كتابه حجة الوداع وقال ان النبى شعر بدنو أجله فخطب المسلمين فى ذلك اليوم خطبة وداع وقال لهم : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً وكأنه علم ان امته ستنشر عقيدته فى الخافقين

وقد وقع ذلك بالفعل وخرج العرب ففتحوا الأقطار واختلطوا بالشعوب ولم يكن يخلو عملهم من شدة ولكنهم كانوا على جانب عظيم من الحكمة وكان فيهم استعداد ليرثوا ممالك

(١) يشير الى ما عليه القوم فى أوربا من المخادنة

الفرس والروم المحتضرة ولم يكونوا كالفاندال والجرمان فى الميل الى العبث والتدمير فتناولوا مصابيح العلم من أيدى الروم والفرس وساروا بها فى فتوحاتهم فكان الاسلام فى احدى يديهم والمدنية اليونانية والفارسية فى الأخرى. وكانت الخلافتان الأموية والعباسية من أمجد أدوار التاريخ . وقد نجح الاسلام فى دعوته لأنه كان مستحقاً للنجاح فانه قد أتى الشرق بالعلاج الذى كان هذا يحتاج اليه . وقد تحمل المسلمون قبل الهجرة ماتحملوه من الانتقام حتى اذا ظفروا عاملوا أعداءهم بالتسامح

نعم ان الشرك لم يكن ليعفو الاسلام عنه . ولكن أهل الكتاب أى اليهود والنصارى كانوا أحراراً أن يعيشوا فى بلاد الاسلام متمتعين بحقوقهم . وكان محمد يقول من آذى ذمياً كنت خصمَه يوم القيامة . واننا نرى القرآن والأحاديث ملأى بالنهى عن الاكراه فى الدين. وقد عمل الفاتحون المسلمون بهذه القاعدة وما دخل الناس فى الاسلام أفواجاً الا لما رأوا فيه من التسامح ولما دخل عمر الى القدس لم يسمح بالحاق أدنى أذى بالمسيحيين وترك لهم كنائسهم بأيديهم وأحسن معاملة بطريقهم وأبى أن يصلى داخل كنيسة القيامة لئلا يأتى المسلمون فيدّعوها قال : فلنقابل بين هذه المعاملة وعمل الصليبيين عندما دخلوا الى القدس وذبحوا المسلمين وغاصت الخيل فى الدماء الى صدورها . قال رُوبرتسون : ان أتباع محمد هم الأُمة الوحيدة التى جمعت بين التحمس فى الدين والتسامح فيه أى أنها مع تمسكها بدينها لم تعرف اكراه غيرها على قبوله . وقال الأب ميشون Michon فى كتابه « رحلة دينية الى الشرق » : انه من المُحزن للأُمم المسيحية أن يتعلموا التسامح الدينى من المسلمين . قال درمنغهم ان فى هذا الكلام مبالغات لان النصرانية أيضاً تأمر بالتسامح الدينى وأحيانا تفوق الاسلام فى ذلك . ولكن المبالغة أيضاً واقعة فى اتهام الاسلام بالتعصب . وقال الشيخ محمد عبده ان التوراة والانجيل والقرآن كتب متطابقة وبها يتمّ التعليم الالهى وتشرق الديانة الحق . وقال مونتس Montaigne : اننا ننشط كل النشاط ونفعل العجائب عندما تكون أنفسنا متنزعة الى الشرور من البغضاء والقسوة والطمع والشح وحب التدمير وبعكس ذلك تفتر همتنا فى الخير وحب الاعتدال وقد وجدت دياناتُنا لمنع الرذائل فكانت النتيجة أن صارت هى التى تحميها وتُغذّيها

وقد تكلم درمنغهم عما كان يفهمه من رسالته الى الخلق فقال انه خُلِق آمراً ناهياً لكنه لم يكن يتقاضى الناس الطاعة لأوامره الا كواسطة يبلغهم أوامر الله تعالى . وكان يقول

ان الأمر لله وحده وكان ينهى الناس أن يعاملوه معاملة الملوك . وقد ظن بعض من كانوا من أعدائه فى البداية إنه لما فتح مكة ستنقلب المسئلة من النبوة الى الملك لكنهم أخطئوا فى هذا الزعم و بقى محمد على مشر به الأول من سذاجة الحال . وكان يقول : لست ملكاً ولكننى رجل من قريش . ولم يُسكره الظفر ، بل عفّ عندما قدر ، ولم يكن المال ولاشئ من غنائم هذه الدنيا ذا قيمة فى نظره وكان يفضل عليها كلها اهتداء رجل واحد الى الاسلام. ولم يكن يؤلمه الا شئ واحد كان يجده فى أعماق نفسه وهو عدم فهم الكثيرين للمقصود من رسالته وانضمام كثيرين اليه لاحباً بها بل التحاقاً بالحزب الغالب . وختم درمنغهم كتابه بقول الأب دو بروغلى De Broglie فى كتابه « أسرار تاريخ الديانات » وهو : «جاء فى التوراة أنه من اسماعيل يخرج شعب عظيم هكذا فى سفر التكوين» . فانتشار الاسلام هو من جملة ماأنجز الله به وعده لأبى المؤمنين

تعليل المؤرخين الاوربيين لسقوط مملكة فارس

والمملكة الرومانية بيد العرب

أكثر المؤرخين الاوربيين يعللون سقوط مملكة فارس وجانب عظيم من السلطنة الرومانية فى أيدى العرب بهذه الأسباب التى ذكرها ستودارد . ثم يذكرون لنجاح العرب السريع أسباباً من شهامة العرب وميلهم الى مكارم الأخلاق ، وسرعة قبولهم للمدنية ، وحسن جمعهم بين السيف والقلم و بين الخشونة والرقة . و بعضهم يعترف بتأثير العقيدة الاسلامية فى هذا النجاح ، و يقدر قدر سواغها فى العقول السليمة وخلوّها من الأسرار غير المفهومة ، الا أن أعداء الاسلام يعيبون عليها هذه المزية و يجعلون خلوها من غير المفهوم «سذاجة». و يعبرون عن ذلك بلفظة « Simplisme » وكثيراً مانقرأ هذا الوصف فى انتقادهم للاسلام ويكررونه كثيراً وهم يزعمون ان انتشار الاسلام بين الأقوام الذين لايزالون على الفطرة الأصلية ، انما سببه هذه السذاجة فى تعاليمه . وبالجملة أعطوا المنطق السديد اسم «سذاجة». وجعلوا السائغ فى العقل السليم نازلاً عن درجة الاسرار التى تعلى شأن الأديان بكونها غير مفهومة بزعمهم وركبوا بهذا مركباً صعباً أصبح مركزهم فيها حرجاً ، لاسيا فى هذا العصر الذى بدأ فيه أتباع الأسرار غير المفهومة يقلون شيئاً فشيئاً ، وصار المطالبون بالدليل والنازعون الى الجلاء هم امة المستقبل

الحضارة الاسلامية ورقى العرب الفكرى

فى القرون الوسطى

للأمير شكيب

— العواصم الاسلامية وعمرانها فى آسية وافريقية والأندلس
— العلوم والفنون والصناعات
— أقوال المستشرق ماكس مايرهوف الألمانى فى كتابه « العالم الاسلامى »
— فن العمارة الاسلامية

اتفق المؤرخون العصريون من أهل أوربة ، على أن بغداد فى القرن الثالث للهجرة كانت أرقى مدن ذلك العصر حضارةً ، وأزخر عمراناً ، وأعظم ثروة ورفاهية ، وأن هارون الرشيد كان أكبر سلاطين ذلك الدهر ، وأن عبد الرحمن الناصر فى القرن الرابع كان أرقى ملوك الغرب من مسلمين وافرنج ، وكانت الأندلس فى أيامه أرقى الممالك كلها .

ويحسن أن أنقل هنا جملة مختصرة حررتها فى رسالتى : « لماذا تأخَّر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ » وهى هذه :

« قد بلغت بغداد فى دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال الحضارة ، واستبحار العمارة وتناهى الترف والثروة ، ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها الى هذا العصر ، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان [١] وكانت البصرة فى الدرجة الثانية عنها وكان أهلها نحواً من نصف مليون .

وكانت دمشق ، والقاهرة ، وحلب ، وسمرقند ، واصفهان ، وحواضر أخرى كثيرة

(١) وهو عدد يندر اليوم فى سكان كبريات العواصم

من بلاد الاسلام ، أمثلة تامة وأقيسة بعيدة فى استبحار العمران .

وكانت القيروان ، وفاس ، وتلمسان ، ومراكش فى المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول أو يناظرها مناظر أو أن يكاثرها مكاثر فى أوربة حتى هذه القرون الأخيرة .

وكانت قرطبة مدينة فذة فى أوربة لا يدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف نسمة . وكان فيها نحو من ألف وسبعمائة جامع ، عدا المسجد الأعظم الذى لما زرته فى هذا الصيف قال لى المهندس الذى كان معى من قِبَل الحكومة الاسبانيولية ، انه يسع بحسب القياس المضبوط خمسين ألف مصلٍّ فى الداخل ، وثلاثين ألفاً فى الصحن ، فجملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين !

ولما ذهبنا الى قصر الزهراء ، رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلمنا أنها تمتد على مسافة تسعمائة متر طولاً ، فى ثمانمائة متر عرضاً . والأسبانيول يقولون لها : مدينة الزهراء . وقال لى المهندسون الموكلون بالحفر فى آثارها ، انهم يرجون الاتيان على كشفها كلها من الآن الى خمسين سنة . وحسبك أن غرناطة التى كانت حاضرة مملكة صغيرة ، فى آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن فى أوربة فى القرن الخامس عشر المسيحى بلدة تضاهيها ولا تدانيها ، وكان فيها عندما سقطت فى أيدى الأسبانيول نصف مليون نسمة ، ولم يكن وقتئذٍ فى أوربة عاصمة تحتوى نصف هـذا العدد . وحمراء غرناطة لا تزال يتيمة الدهر الى اليوم . هـذه لمحة دالة من مآثر حضارة الاسلام وغرر أيامه . والا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون فى الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلود الكثيرة المرصوفة طبقاً فوق طبق » .

وأنا أضيف الى ذلك هنا أن المهندسين الأسبانيول الذين أشرت اليهم ، ذكروا لى أنهم كانوا قد ألَّفوا لجنة مهندسين طافت فى جميع أسبانية للتنقيب عن آثارها القديمة ومبانيها ، فأحصت عدد القلاع التى فيها سبعة آلاف قلعة وحصن ، ثلاثة أرباعها من بناء العرب ، وأنهم لحظوا حصون العرب كلها مبنية على خطوط واحدة يحمى بعضها ظهر بعض يمتد كل خط من الحاضرة من احدى جهاتها ويليه خط آخر من جهة أخرى ، وخط آخر من جهة أخرى وهلم جرا وكل خط تجد الحصن فيه على مساواة الحصن سلسلة متصلة الى ثغور الافرنجة .

وتأمل فيما قاله « كلود فارير » الكاتب الافرنسى المعروف فى مقدمة مجموعة اسمها « افريقية الشمالية » جمعت فيها صور أبدع مبانى العرب فى تونس والمغرب بين الأوسط والأقصى وهو هذا :

« قصور وجوامع وأبراج وحواضر مالئة جميع هذه الأرض التى انتزعها نبىّ الاسلام من ذرية سيبيون الرومانى . لعمرى ان المسلم هو خلافاً لما يزعمه كثير من الجاهلين ليس بالرجل المدمّر . بل انك تجد من تونس الى طنجة وفى فاس وفى مكناس ومراكش ، كما فى القاهرة والقيروان ، بدائع آثار عربية ماثلة فى كل محل بجانب بدائع آثار رومانية تزيدها ولا تنقصها » .

ثم وصف من جملة ماوصف من آثار العرب فى المغرب ، مدرسة دخلها من مدارس فاس ، فقال انها كأجل ما وجد من هياكل يونان القديمة ، لأن جميع قوانين منطق البناء مرعية فيها أشد الرعاية . وقال الكاتبان الافرنسيان المعروفان جيروم وجان تارو : « من لم يشاهد مقبرة الملوك السعديين فى مراكش لم يدرك الى أى أمد وصلت مدنية الاسلام من البداعة » .

واقرأ فى « الاستقصا فى تاريخ المغرب الأقصى » عن آثار الموحدين ثم آثار المنصور السعيدى فى مراكش تجد فيه ما تقرُّ به الأعين .

وأهمُّ من هذا فى هذا الباب « كتاب اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس » تأليف المؤرخ العلامة الغطريف الشريف ابن الشريف أمير العلماء وعالم الأمراء مولاى عبد الرحمن بن زيدان رئيس العائلة السلطانية فى المغرب الذى فيه أوسع وصف لمبانى جده مولاى اسماعيل الكبير ، سلطان المغرب الذى استمرت سلطنته نحواً من خمس وستين سنة ، وبنى فى مكناس وغيرها من القصور والابراج والحصون ، ونسق من الجنان والحدائق ، ما ندر أن سمت الى مثله همة ملك من ملوك العالم .

وممن أجادوا فى وصف العمارة الاسلامية الفيلسوف الافرنسى « غستاف لوبون » المشهور فى تآليفه المتعددة وفى الأيام الأخيرة « رينه غروسه » الذى اشتهر فى علم المدنية الشرقيــة .

وقد ظهر حديثا عن المدنية الاسلامية فى المغرب كتاب ممتع اسمه « مراكش ومدن الفن » Le Maroc et les villes d'art طنجة ، وفاس ، ومكناس ، ومراكش ، والرباط ، مؤلفه « پيار شامبيون » Pierre Champion قد حوى من هـذا الباب خلاصة مايلزم وتضمن ٢٢٧ صورة من صور المبانى الممتازة برونقها ، وبداعة انشائها فى بلاد المغرب الاقصى ويظهران للمؤلف اطلاعاً على العربيــة لنقله كثيراً من الفصول عن تواريخ المغرب ، « كالاستقصا » و « روض القرطاس » وغيرهما ، فضلاً عما نقله عن ابن خلدون الذى لقبه بارسطو القرن الرابع عشر . ولقد كان أكثر ماحـدث عنه مبانى المرينيين فى فاس ، والموحدين والسعديين فى مراكش ، والاندلسيين فى الرباط

«ومما ذهب اليه أن صناعة البناء فى المغرب ترجع الى أصول غريبة بيزنطية ، وقوطية وسورية ، جاءت من الشرق الى القيروان ، فتلمسان ، فالاندلس ، ثم عادت أدراجها من الاندلس الى افريقية . قال وان ماعليه الناس اليوم فى المغرب هو أن صناعة البناء وزخرف المساكن انما هى صناعة أندلسية فى أصلها وان أحسن قصور المغرب وأبهاه هو مابناه الصناع الاندلسيون . قال وقد كان هـذا هو الرأى من زمان ابن خلدون الذى ذكر من جملة كلامه أن فن البناء انما يبقى محفوظا فى الحواضر الكبيرة ، التى يزخر عمرانها ، وأنه فى زمانه انما هو محفوظ فى الاندلس . فالصناع الاندلسيون لا يعملون فى بلادهم فقط بل تجدهم يعملون فى تونس ، والقاهرة ، وغيرهما وانك لتعرفهم من سائر أهالى البلدان الأخرى»

ولعـل الفقرة التى لخصها « شامبيون » هـذا عن ابن خلدون هى مايلى نقـلاً عن المقدمة :

« وأما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من الحضارة ، واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الاندلس ، وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعاً وكرهاً ، وكانت من اتساع النطاق ماعلمت ، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ، ومعظمها من أهل الاندلس ، ثم انتقل أهل شرق الاندلس عند جالية النصارى الى افريقية ، فأبقوا فيها و بأمصارها من الحضارة آثاراً ، ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر ، وما ينقله المسافرون من عوائدها ، فكان بذلك للمغرب وافريقية حظ صالح من الحضارة الخ »

أو هو قد استخلصها من هذه الفقرة الثانية من كلام سيد فلاسفة الاجتماع وهى :

« وهذا كالحال فى الاندلس لهذا العهد ، ، فانا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ماتدعو اليه عوائد أمصارها ، كالمبانى ، والطبخ ، وأصناف الغناء واللهو ، ومن الآلات ، والأوتار ، والرقص ، وتنضيد الفرش ، فى القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع فى البناء ، وصوغ الآنية من المعادن ، والخزف ، وجميع المواعين ، واقامة الولائم ، والأعراس ، وسائر الصنائع التى يدعو اليها الترف وعوائده ، فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها ، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم ، فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار وما ذاك الا لرسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط ، وما بعدها من دولة الطوائف وهلم جراً . فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه فى قطر الا ماينْقَل عن العراق والشام ومصر أيضاً لطول آماد الدول فيها ، فاستحكمت فيها الصنائع ، وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق ، و بقيت صبغتها ثابتة فى ذلك العمران ، لا تفارقه ، وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم وما استكمل لها فى ذلك من الصنائع فى سائر الأحوال ، وان كان ذلك دون الاندلس ، الا انه متضاعف برسوم منها تُنْقَل اليها من مصر ، لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من قطرها الى قطر مصر فى كل سنة ، فصارت أحوالها فى ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الاندلس ، لما ان أكثر ساكنيها من شرق الاندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة الخ »

و بعد أن نقل المسيو شامبيون مانقله عن ابن خلدون فى هذا الباب قال ان الصناعة المغربية والصناعة الاندلسية هما من أصل واحد ، وان كثيراً من القصور والبنايات فى العدوتين هى شقائق وأخوات مثل مدارس فاس ، وقصر اشبيلية ، وحمرآء غرناطة ، لكنه عاد فقال ماملخصه : ان مبانى فاس تمتاز بالصلابة عن مبانى اسبانية ، فان قصور اسبانية يكثر فيها الجصّ والجبصين والقرميد ، وانك تجد جدرانها مغطاة بهذه الأشكال ، وانه يكثر فيها تقليد تعاريج الكهوف ، وتضاريس الفيران ، وخلايا النحل ، وما أشبه ذلك وكله مصنوع فى المادة الرخوة التى تجمد فتصير كالحجر ، وليس الأمر كذلك فى المغرب ، فان الطريق فيه هى النحت فى الحجر رأساً ، وتمتاز صناعة البناء فى المغرب بكثرة الخشب الذى يتفننون فى تزيينه

وترصيعه وتوشيعه الى النهاية ، ويساعدهم على ذلك وجود خشب الأرز الكثير فى جبال الأطلس ، وهو الخشب الذى لا يفنى . وأنهى المسيو شامبيون كلامه فى هذا الموضوع بعد ما ذكر بدائع المغرب لا سيما آثار بنى مرين قائلاً ، ان آثار المغرب قد بقيت محفوظة أكثر جدا من آثار الأندلس .

قال ونحن فى المغرب بازاء صناعة مدنية قديمة قد تداعت الى السقوط ، الا أنها لاتزال مائلة وهى الصناعة الأندلسية . ولقد كانت تمتاز بالصلابة والمتانة فى عصر الجهاد الاسلامى السابق ثم ازدادت ميلاً الى النحافة فى القرن الرابع عشر ، ثم كسبت رونقاً لامعا فى القرن السادس عشر ، ثم كسبت عظمة وقوة تأثير فى القرن السابع عشر ، ولكنها عادت فانحدرت فى أواخر القرن الماضى. وهذا التقسيم يؤيده المسيو پرسپير ريكار Prosper Ricarb الذى هو من المتخصصين فى معرفة الصنائع الوطنية فى المغرب . ثم ذكر فى محل آخر أن المغرب القديم لا يزال حياً ، وأن من جال فيه يجد أحيانا من طرائقه القديمة مايجذبه بل مايدهشه ، فانه قطر طويل عريض ، تتكسر على سواحله الغربية أمواج الاطلنطيك المتلاطمة وفيه السهول الواسعة الممتدة بحذاء جبال من أعلى جبال الأرض ، تشرق عليه شمس شديدة اللمعان الا أنها لطيفة الوقع ، وهناك أمة ذات جمال قديم كما وصفها بهذا الوصف أوجين دولا كروا Eugène de La Croi تلبس أطماراً بالية الا أنها أطمار شريفة ، وأينما ذهبت فى قراها وأريافها تجد من المناظر مايؤثر فى النفس ، ويعيد لك ذكرى التوراة . وتجد فى المدن جموعاً وأعياداً ومواسم مستمرة ، تخيل لك تلك البلاد متحفاً دائماً مفتوحاً . وأهم من كل شىء هذه الحواضر الكبيرة المعمورة التى هى كلها تقريباً مدن صناعة وفن ، وكأن المدن كلها أسواق مضت عليها القرون تلو القرون ، وهى مدّخر للأرزاق ، والمؤونات والمواعين والأدوات ، تصونها صيانة الكنوز جدرانٌ عالية وأسوار شاهقة فكل هذا يؤثر فى النفس ويعلق فى القلب ويجعل لهذه الحواضر المغربية شخصية خاصة بها . (انتهى ملخصاً)

ولم يقسم لى الحظ أن أزور بلاد المغرب وأرى آثار الموحدين والسعديين فى مراكش وبنى مرين فى فاس والاندلسيين فى الرباط ومولاى اسماعيل فى مكناسة وهو الذى آثاره تحاكى آثار رومة العظمى ، كما قال بعض الأفرنج ، وانما بعد السياحة الى الأندلس تمكنت من زيارة طنجة وتطاون ، ومكثت فيهما أيام قلائل برغم انقباض الفرنسيس من وجودى

هناك ، فشاهدت فى طنجة من المبانى السلطانيــة مايستحق التنويه ، ولـكن قصر الوزير المنبهى فى جبل مرشان من تلك البلدة الفريدة فى نحر البحر ، التى هى طنجة ، هو قصر نادر المثال فى دقة الصناعة ، ونيقة الزخرف ، وتمثيل المدنية العربية بأبهى مظاهرها ، وقد شـاهدت فى تطاون أيضاً من منازل سراة البلدة كآل بنونه ، وآل الطوريس ، وغيرهم ماخيل لى اننى لم أزل فى الأندلس بين أبهـاء غرناطة أو مقاصر اشبيلية ، وراقنى جـداً أن الحـكومة الأسبانيولية شادت داراً للعجَزة ومدرسة للصنائع وغير ذلك على النسق الأندلسى المغربى المستفيض فى أبنية أكابر المغرب ، ومما لا ينكر فى هـذا الباب أن المارشال ليوتى الذى هو أعقل مستعمر افرنسى ولربما كان أعقل مستعمر أوربى على الأطلاق ، قد بذل جهده أيام تمثيله الحـكومة الفرنسوية فى المغرب فى المحافظة على الآثار العربيـة القديمة وفى احياء صناعة البناء العربى الأنيق بحيث تجددت فيها الرغبة ووضعت فيها الـكتب وتقيدت منها النفائس بالتأليف والتخليد مما يمكننا أن نذكره بالشكر ، لأنه من قبيل الانصاف الذى طبعت الجبلة البشرية على استحسانه وياليت الأوربيين اطردوا الأنصاف فى سائر الأمور

***

ويجدر بمن أراد أخذ صورة مجملة فى موضوع العمران الاسـلامى أن يقرأ « تاريخ التمدن الاسلامى » لزيدان و « حضارة الاسلام فى دار السلام » لجميل المدور ، وغيرهما من الـكتب الملخصة . وقد أوردت أنا بعض أمثلة فى هذا الموضوع فى رحلتى الحجازية المسماة « بالارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج الى أقدس مطاف »

ولما كان أعداء الاسلام يريدون أن يتنقصوه بأىّ شكل من الأشكال ، فقد حاولوا انـكار أن يكون له مدنية خاصــة به وزعموا أنه مازاد على أن نَقَل ونَسَخ ، وما أشبه ذلك من الأقاويل . ولقد رأيت أن أنقل أيضاً الى هذه الحواشى جملة أوردتها فى رسالة « لماذا تأخر المسلمون » وهى هذه :

« وكم حرر المؤرخون الاوربيون تحت عنوان « مدنية الاسلام » كتبا قيمة ومجاميع صور تأخذ بالأبصار . وان أشد مؤرخى الافرنجة تحاملاً على الاسلام لايتعدّى أن يحاول التصغير من شأن مدنيته ، بانـكار كونه هو أبا عذرتها . فقصارى هـذه الفئة أن يجحدوا كون المســلمين قد ابتكروا علوماً ، وسبقوا الى نظريات صارت خاصة بهم ، وغايتهم أن

يقولوا ان المسلمين لم يزيدوا على ان نقلوا وأذاعوا ، وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب . وهذا القول على اطلاقه مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها ، وحقائق كشفوها ، وآراء سبقوا اليها ، فضلاً عمّا زادوا عليه وأكملوه ، وما وشّوا طرازه ودبّجوه ، وما نشروه من قبره وما نقلوه . ولنفرض انهم أخذوا عن غيرهم فمن استرق شيئا ، وقد استرقّه ، فقد استحقه .

و بعد فلا يعلم الخلق مدنية واحدة من مدنيات الامم الا وهى رشح مدنيات سابقة ، وتراث أقوام درجوا ، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية ، ومجموع نتائج عقول مختلفة الاصول ، ومحصول ثمرات الباب متباينة الأجناس .

وانى لناقل هنا بعض ماقاله المستشرق المحقق « ماكس مايرهوف » الألمانى الذى أتقن هذا الباب فى كتابه « العالم الاسلامى » Le Monde Islamique وهو من نظار المؤرخين ومن كبار الأطباء . فالاستاذ « مايرهوف » يقول ماملخصه : ان العرب لم يحملوا معهم الى العالم لدن الفتوح الا اللسان العربى الذى كان اذ ذاك ، برغم ثروته ، وتعدد مناحى التعبير فيه ، محتاجاً الى الألفاظ العلمية . فبدأ العرب أولاً بخدمة اللغة ، ومن أجل فهم القرآن وضعوا علم النحو . ثم اتقنوا علم الرواية لأجل حفظ أشعارهم من الجاهلية فما بعد . ونبغ منهم بعدالاسلام شعراء كبارمثل عمر بن أبى ربيعة ، والأخطل ، وجرير ، والفرزدق ، ثم أبو العتاهية ، وابن المعتز ، وأبو تمام ، والمتنبى وغيرهم . قال : وعلى وجه الاجمال ، فشعْر العرب لايلائم ذوق أهل الغرب ، فان مبالغات شعرائهم فىأوصاف محاسن الغوانى ، واغراق أبطال البادية فىالمفاخرة ، ليس مما تستعذبه أذواقنا . و بعكس ذلك الوزن ، وحسن النسق ، وملكة التعبير التى عند العرب فهى عذبة الى الغاية وانه من الممكن للشاعر العربى أن يقول ماشاء من طوال القصائد على روى واحد ، ثم ذكر « مايرهوف » فنّ التصوير ونحت التماثيل ، وقال : انه لا يوجد فى القرآن منع صريح لهذه الفنون ، الا أنه يوجد فى الأحاديث النبوية ما يمنع تمثيل المخلوقات الحية ، وهو لا يجزم بصحة اسناد هذه الأحاديث ، ويعتقد أن هذا التحريم راشح الى الاسلام عن شريعة موسى . وعلى كل حال ، فقد تأبّى المسلمون أن يمثّلوا البشر بالحجر ، وحصروا صناعة التصوير فى المخلوقات غير الحية وفى

النباتات . قال : وقد وجدت أبنية من صدر الاسلام مثل قُصَير عَمْرة ، الذى يرجع تاريخه الى بنى أمية ، وفيها تماثيل يدل وجودها على أنهم لم يكونوا يتشددون فى منع التمثيل الى الحد الذى وصلوا اليه فيما بعد . فأما الشيعة ، فقد ذكر « مايرهوف » أنهم لا يتحرجون من قضية التصوير ، واستدل على ذلك بالدول الشيعية التى لم تكن تمنعه أصلا . قال وقد أفضى منع صناعة التصوير والتمثيل الى حصر جهود مهندسى الاسلام فى اتقان صناعة البناء وذكر فى هذا الباب أمثلة ، منها قبة الصخرة فى المسجد الأقصى ، و بين مآخذ أسلوب البناء فى الاسلام ، وتتبع تاريخ هندسة البناء الاسلامية ، والأطوار التى مرت بها ، وأورد أمثلة من آثار سامرا ، والرقة ، وجامع ابن طولون بمصر وجامع القيروان بافريقية ، وجامع قرطبة بالأندلس ، وجامع تلمسان فى الجزائر ، وذكر صناعة البناء الاسلامية فى بلاد العجم ثم فى بلاد الترك ، وأورد أمثلة بارزة كجامع الفاتح فى القسطنطينية ، ثم جامع السلطان سليم فى أدرنة الذى هو من هندسة سنان المشهور ، وقال : ان لسنان هذا ثلاثمائة وثمانية عشر أثراً من أجل الآثار . ولم ينس « ما يرهوف » ذكر حمراء غرناطة ، وقال : انها من أشهر مبانى الدنيا ، وشهد أيضاً بتناهى الذوق فى صنعة بناء المساجد الاسلامية الحديثة فى شمال افريقيا

قال : وبالرغم من حرمة التصوير فى الاسلام فقد ازدهرت هذه الصناعة فى القرن الثامن للمسيح فى العراق وفى فارس ، وكانوا يخرجون كثيراً من الكتب المصورة ، وهذا ناشئ من عدم تشديد الشيعة فى منع التصوير . ولكن اعتماد المسلمين فى النقش والتزيين كان على تمثيل الخلائق غير الحية ، وقد أتقنوا هذا الفن الى الغاية ، سواء فى الحجر أو فى الخشب أو فى النسيج ، وأورد فى هذا الموضوع فوائد قلما توجد فى الكتب ، وكنا نود لو فسح المقام لايرادها ، ولكن هذه الحواشى لا تسع كل ما يجب الاطلاع عليه ، الا أننا ننقل عنه ما ذكره بشأن ترصيع النحاس والفولاذ ، وتخريم الذهب والفضة ، فقد قال ان أسواق اصفهان ودمشق والقاهرة أتت فى هذا الموضوع ببدائع تفوق الوصف ، ومثلها حفر العاج وتقطيع البلور ، وزخرفة الآنية ، وتطريز جلود الكتب ، فانها بأجمعها صناعات امتاز بها المسلمون وقلدهم فيها أهل ايطالية وهكذا دخلت الى أوربة .

قال : ومن الصناعات التى أتى بها الاسلام الى الغرب صنعة الورق ، وقد أخذها

المسلمون عن الصين . وفى سنة ٧٩٤ مسيحية أُنشئ فى بغداد أول معمل للكاغد ، وانقطع استعمال الرّق والبَرْدى. وقد كانت صنعة تجهيز الطيوب والعقاقير والتجارةُ بها من خصائص العرب . وأظهر « مايرهوف » اعجاباً شديداً بمهارة العرب فى الأخذ والعطاء و بُعْد همتهم فى التجارة ، وقال انهم كانوا يستجلبون الجلد والفرو من أقاصى البلاد الشمالية كالروسية و بلاد السكنديناف ، يُستَدل على ذلك بكثرة ما وُجد من النقود العربية فى تلك البلاد . قال : وانهم كانوا يركبون البحار و يبلغون أقاصيها . فقد وصلوا الى أقصى جنوبى افريقيا جنوباً ، والى جزائر الخالدات غرباً ، والى الهند والصين شرقاً .

قال : وان العرب وسائر الشعوب الاسلامية من غير العرب بلغوا شأواً بعيداً فى علم التاريخ . نعم انه يوصف مؤرخو الاسلام بعدم طلاوة الروايات ، و بضعف ملكة النقد ، ولكنهم حريصون جد الحرص على تقييد جميع ما يسمعونه ، وضبط شوارد التاريخ وهم بالاجمال ثقات فيما يروُونه لا سيما عما شاهدوه فى زمانهم ، فتواريخهم عمدة لا يستغنى عنها لأجل معرفة تاريخ القرون الوسطى ، وقد ذكر من مشاهير مؤرخيهم الطبرى ، والمسعودى ، وابن مسكويه ، وابن الأثير ، وأبا الفداء ، والمقريزى ، والسيوطى ، ثم ابن خلدون ، وقال عن هذا انه فيلسوف واجتماعى أكثر مما هو مؤرخ .

ثم ذكر « مايرهوف » تاريخ الفلسفة العربية ، وهو لا يخرج عما رواه سائر المؤرخين من أنهم نقلوا فلسفة يونان ، وترجموا كتب هذه الأمة ، وقال : ان أول فيلسوف عربى هو الكندى وجاء بعده الفارابى وهو تركى الأصل ثم جاء بعدهما ابن سينا وهو فارسى ثم اشتهر من فلاسفة العرب ابنُ رشد من أسبانيا ، وقد ألّف هذا كتباً كثيرة لم يبق أصلها العربى ولكن بقيت تراجمها اللاتينية . قال : وكان لكتب فلاسفة العرب أعمق تأثير فى اللاهوت المسيحى ، وقد كان فلاسفة العرب يرمون الى التوفيق بين الفلسفة اليونانية ومبادئ الدين الاسلامى

ثم ذكر علم الطب فقال ان العرب قلدوا فيه اليونانيين أيضاً ، وذكر مشاهير أطباء العرب كالرازى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن زهر ، وأبى القاسم الزهراوى ، وقال : ان طب العرب كان يعمل به أهلُ أوربة فى القرون الوسطى ، وأشار الى كتاب طبقات الاطباء لابن أبى أُصَيبعة الذى ترجم فيه أربعمائة طبيب منهم كثير من اليهود والنصارى .

قال : وان فضل العرب فى الكيمياء قد فاق فضلهم فى الطب مع بلوغهم فى هذا غاية بعيدة : وان معرفة الحوامض المعدنية ، والأمُونْياك السائل، وغير ذلك من المواد الكيماوية انما بدأت عندهم . فالعرب فى علم الكيمياء كما فى علم الطبيعيات كانوا معتمدين على التجارب وهكذا تمكنوا من كشف حقائق كثيرة

قال : وأما فى الرياضات فان العرب فاقوا أساتيذهم اليونانيين ، وناهيك ان علم الجبر اسمه عربى ، وان محمد بن موسى هو الذى وضع هذا العلم سنة ٨٢٠ ميلادية ، كما ان البيرونى الفارسى وضع علم المثلثات سنة ١٠٠٠ وقد كان للعرب الفضل فى وضع مايسمى : « بالجيب والسهم » و « الخط المماس للدائرة » ، وهم الذين اخترعوا الاسطرلاب ، ووُفقوا به الى أقيسة فلكية وأرضية فى غاية القيمة . وقد عرفوا أيضاً دائرة الأرض بحسب ماهدتهم اليه تحقيقاتهم هذه ، وهم الذين أدخلوا الأرقام الهندية الى أوربة ولذلك تسمى بالأرقام العربية . ثم ذكر طول باعهم فى علم الفلك ومن اشتهر من الفلكيين منهم والامراء والملوك الذين كانوا يُعنون بهذا العلم ويبنون المراصد الفلكية وتُكتَب لهم الأزياج . قال : وقد عرف فلكيو العرب حركة الارض حول الشمس ولكنهم لم يوفقوا لتَبْيِينها لعدم اطلاعهم على قانون جاذبية مركز الارض الذى انكشف لغاليله فيما بعد . قال . وقدالف ابن الهيثم المتوفى فى القاهرة سنة ١٠٣٩ ميلادية كتابا فى علم المناظر مفصَّلا ، لم يبق منه الا ترجمته اللاتينية ، ولهذا العالِم الكبير مؤلفات فى المراءى الكروية والعدسية وغيرها ، ثم ذكر اختراعات كثيرة لهم فى الميكانيكيات وقال ان كتبهم فى هذا الفن كانت مشهورة فى القرون الوسطى . قال : وان اتساع العالم الاسلامى قد أوسع معارف العرب الجغرافية فحددوا العروض والاطوال ، واتخذوا ابرة المغناطيس ، وذكر منهم مشاهير الجغرافيين كالادريسى وأبى الفداء، والقزوينى، والدمشقى ، ثم ذكر أصحاب الرحلات المشهورة كابن جبير وابن بطوطة وأثنى كثيراً على كتاب «معجم البلدان» لياقوت. قال : وكانت للعرب اليد الطولى فى زمانهم فى علوم المعادن والنباتات والحيوان ، وكانوا يعتمدون فى جميعها على التجارب ، وقد تلقى الغرب عنهم معارف وعلوماً كثيرة ، وعرف مالم يكن يعرفه فى ذلك الوقت الى آخر ماقرره الدكتور «مايرهوف» المذكور وهو المانى الجنس، مشهور بطب العيون، وله اليدالطولى فى الاستشراق، وقد أثنى لى عليه وعلى معارفه كثيراً المستشرق الاشهر « سْنُوك هير كرُونيه»

الهولاندى ، وعلمت ان الدكتور مايرهوف مقيم اليوم بالقــاهرة . وأكثر ما أعجبنى من كلامه فى وصف علوم العرب قوله انهم كانوا يعتمدون فى العلم على التجربة وهــذا يخالف مذهب بعض الشعوبيــة المتنطعين الذين لا يَفتأون يقولون ان العرب كانوا يعتمدون فى علومهم على الاَسلوب الغيبىّ ، وعلى التخيلات ، وما أشبه ذلك من الأقاويل الفارغة .

لماذا الاسلام راق بذاته

والشعوب الاسلامية غير راقية ؟

وأقوال البرنس جيوڤانى بورغــيز Jiovanni Borghése الايطالى والفيلسوف كوندوسه Condocet الفرنسى فى المقارنة بين نظام الاسلام والــكثلــكة

للأمير شكيب

نشر البرنس « جيوڤانّى بورغيز من مشاهــير رجالات ايطاليا منذ بضع عشرة سنة كتاباً جليلاً أسماه « ايطالية الحديثة » أحاط فيــه بجميع الموضوعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والأدبية المتعلقة بايطالية وذكر كل ما يهم ايطاليًّا معرفته وعند ما وصل الى المثــل الأعلى الادبى صفحة ٢٧٥ نقل فقرة من كتاب « تقــدم العقل البشرى » للفيلسوف الديموقراطى الافرنسى « كوندوسه » جاء فيها ما يلى مترجماً بالحرف :

« سأذكر كيف أن ديانة محمد التى هى أبسط الديانات فى قواعدها وأقلّها استحالةً فى شعائرها وأكثرها تسامحاً فى مباديها تظهر كأنهــا هى السبب فيما عم قطعةً كبيرة من الــكرة الأرضية من عبودية دائمــة وبلادة ملازمة على حين أننا سنرى تألُّق أنوار العلم وأشعة الحرية تحت ظل أشد الخرافات استحالة وفى محيط التعصب الدينى البربرى » انتهى

قال البرنس بورغيز : ان مراد الفيلسوف كوندوسه بالخرافات المستحيلة والتعصب الدينى البربرى هو الــكثلــكة . ولنترك الآن الخوض فى أفكاره هــذه الشخصية بحق الــكثلــكة وهو المعروف بمباديه الثورية الشديدة ولنــكتفِ باقراره بالدور الاجتماعى

العظيم الذى ادارته الديانة الكاثوليكية . قال بورغيز : «ان هذا الدور كان من العظمة الى ما لا نهاية له فبينما قواعد الكثلكة تنى بحاجة الخلق الى النظام العام فمباديها الأدبية قد حررت المدنية الاوربيـة من الرق ووطدت كرامة العائلة ومقام المرأة بالاكتفاء بالزوجة الواحدة وألجت الاثرة البشرية بدعوة البشر الى مشاطرة المتألمين فى آلامهم » اهـ

ونحن نترك أيضاً للبرنس بورغيز تقديراته هذه بشأن الكثلكة ولا نعترضه فماليس من بحثنا ولكنا نتكلم على هذا اللغز الذى أعيا كثيراً من علماء الاجتماع حلّه وهو تأخر المسلمين فى الأعصر الأخيرة برغم الوسائل الكثيرة التى يقيضها الدين الاسلامى للترقى . وحقيقة الحال أن لجميع الأمم عثرات ونهضات ان تصفحت التاريخ لا تجد أمة قد خلت منها وقد كانت ديانتها فى دورى التأخر والتقدم واحدة . ولما كنا قد حررنا فى هـذا البحث رسالة نشرناها فى العـام الماضى تحت عنوان « لماذا تأخر المسلمون ولماذاتقدم غيرهم[1] » فاننا نحيل من شاء معرفة جوابنا فى هـذا الموضوع عليها . ولا نرى بأساً فى أن ننقل الى «حاضرالعالم الاسلامى» فصلاً منها عنوانه « مدنية الاسلام » فان كثيراً من الناس يوردون ذلك الاعتراض على الاسلام ويقولون ان الشجرة تعرف من ثمارها :

مدنية الاسلام

أما زعم من زعم أن الاسلام لم يتمكن من تأسيس مدنيـة خاصة والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة ، فهو خرافة يموه بهـا بعض أعداء الاسلام من الخارج ، وبعض جاحديه من الداخل . أما القسم الأول فلأجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الاوربية ، وأما القسم الثانى فلأجل أن يزرعوا فى العالم الاسلامى بذور الالحاد ، ونحن لا ننكر تأثير الدين فى المدنية ولكننا لا نسلم بأنه يصح أن يكون لها ميزاناً ، وذلك لأنه كثيراً ما يضعف تأثير الدين فى الأمم فتتفلت من قيوده وتفسد أخـلاقها وتنهار أوضاعها ، فيكون فساد الأخلاق هو علة السقوط ، ولا يكون الدين هو المسؤول : وكثيراً ما تطرأ عوامل خارجيـة غير منتظرة فتتغلب على ما أثلته الشرائع من حضارة وتزلزل أركانها ، وقد تهدمها من بوانيها ،

(١) « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم » وهو جواب اقتراح كتب لمجلة المنار خاصة وطبع فى رسالة خاصة سنة ١٣٤٩ وأعيد طبعه للمرة الثانية فى ١٣٥١ وهو من خير ما كتب فى هذا الباب «الناشر»

ولا يكون القصور من الشريعة . فتأخر المسلمين فى القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة بل من الجهل بالشريعة ، أو من عدم اجراء أحكامها كما ينبغى . ولما كانت الشريعة جارية على حقها كان الاسلام عظيما عزيزاً

ومدنية الاسلام قضية لا تقبل المماحكة اذ ليس من أمة فى أوربة سواء الألمان أو الفرنسيس أو الانكليز أو الطليان الخ الا وعندهم تآليف لا تحصى فى « مدنية الاسلام » فلو لم تكن للاسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه ، مبنية على كتابه وسنته ما كان علماء أوربة حتى الذين عرفوا منهم بالتحامل على الاسلام يكثرون من ذكر المدنية الاسلامية ومن سرد تواريخها ، ومن المقابلة بينها و بين غيرها من المدنيات ، ومن تبيين الخصائص التى انفردت هى بها .

فالمدنية الاسلامية هى من المدنيات الشهيرة التى يزدان بها التاريخ العام ، والتى تغص سجلاتها الخالدة بآثارها الباهرة . وقد بلغت بغداد فى دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال العمارة ، واستبحار الحضارة ، وتناهى الترف والثروة ، ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها الى هذا العصر ، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان . وكانت البصرة فى الدرجة الثانية عنها ، وكان أهلها نحو نصف مليون .

وكانت دمشق والقاهرة وحلب وسمرقند واصفهان وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الاسلام أمثلة تامة ، وأقيسة بعيدة فى استبحار العمران ، وتطاول البنيان ، ورفاهة السكان وانتشار العلم والعرفان ، وتأثل الفنون المتهدلة الأفنان ،

وكانت القيروان وفاس وتلمسان ومراكش فى المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول أو يناظرها مناظر ، أو أن يكاثرها مكاثر فى بلدان أوربة حتى هذه القرون الأخيرة .

وكانت قرطبة مدينة فذة فى أوربة لا يدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف مليون نسمة، وكان فيها نحو سبعمائة جامع عدا المسجد الأعظم الذى لما زرته فى هذا الصيف قال لى المهندس الذى كان معى من قبل الحكومة الاسبانيولية : انه يسع بحسب مساحته خمسين ألف مصل فى الداخل و ٣٠ ألف مصل فى الصحن ، فجملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين .

ولما ذهبنا الى آثار قصر الزهراء رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلمنا أنها

تمتد على مسافة تسعمائة متر طولاً فى ثمانمائة متر عرضاً ، والاسبانيول يقولون: مدينة الزهراء وقال لى المهندسون الموكلون بالحفر على آثارها : انهم يرجون الاتيان على كشفها كلها من الآن الى خمسين سنة . وحسبك أن غرناطة التى كانت حاضرة مملكة صغيرة فى آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن فى أوربة فى القرن الخامس عشر المسيحى بلدة تضاهيها ولا تدانيها وكان فيها عندما سقطت فى أيدى الأسبانيول نصف مليون نسمة . ولم يكن وقتئذ عاصمة من عواصم أوربة تحتوى نصف هذا العدد ، وحمراء غرناطة لا تزال يتيمة الدهر الى اليوم

هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الاسلام وغرر أيامه ، والا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون فى الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلود الكثيرة ، المرصوفة طبقاً فوق طبق

وكم حرر المؤرخون الاوربيون تحت عنوان « مدنية الأسلام » كتباً قيمة ومجاميع صور تاخذ بالأبصار . وان أشد مؤرخى الافرنجة تحاملا على الاسلام لا يتعدى أن يحاول التصغير من شأن مدنيته ، وأن ينكر كونه أبا عذرتها . فقصارى هذه الفئة أن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً وسبقوا الى نظريات صارت خاصة بهم ، وغايتهم أن يقولوا ان المسلمين لم يزيدوا على أن نقلوا وأذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب . وهذا القول مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها وحقائق كشفوها وآراء سبقوا اليها ، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه ، وما نشروه ونقلوه ، ومن استرق شيئاً وقد استرقه فقد استحقه .

وبعد فلم نعلم مدنية واحدة من مدنيات الارض الا وهى رشح مدنيات سابقة ، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية ، ومجموع نتائج عقول مختلفة الاصول ، ومحصول ثمرات ألباب متباينة الاجناس .

***

الرد على حساد المدنية الاسلامية المكابرين

أينسى حساد الاسلام والمكابرون فى عظمة فضله ، الزاعمون أنه انما نقل وتعلم وقلد واقتدى وانه انما صلى وراء غيره : أن المدنية الشرقية يوم ظهر الاسلام كان أخنى عليها الذى أخنى على لبد . وأنه هو الذى جددها وأحيا آثارها ، وأقال عثارها ؟ وأنها بعد ان كانت

قد امحت ولحقت بالغابرين، أبرزها من اصدافها ، وجلاها من بعد ان كانت ملفوفة بغلافها، ونشرها بالخافقين ، و بلّجها كفلق الصبح لكل ذى عينين ، وأضفى عليها لباس الاسلام الخاص ، ودبجها بديباجة القرآن ، التى لم تفارقها فى شرق ولا غرب ، ولا سهل ولا وعر ، حتى حمل ذلك كثيراً من علماء الافرنج ممن لم يعمه الهوى ، ولم يحد فى التحقيق عن مهيع الهدى ، على أن اعترفوا بان مدنية الاسلام لم تكن نسخاً ولا نقلاً وانما هى قد نبعت من القرآن ، وتفجرت من عقيدة التوحيد ؟

فأما ماترجمته حضارة الاسلام من كتب ، وما أخذته عن غيرها من علوم ، وما أفادته فى فتوحاتها من منازع جيلة ، وطرائق سديدة ، فلا يقدح ذلك فى بكارتها الاسلامية ، ومسحتها العربية ، لان هذا شأن الحضارات البشرية باجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض ، ويكمل بعضها بعضاً ، فالعلم الحقيقى ينحصر فى هذا الحديث الشريف : « الحكمة ضالة المؤمن ينشدها ولو فى الصين » [١] وهذه من أقدس قواعد الاسلام

وعلى كل حال لا يقدر مكابر أن يكابر ان الاسلام كان له دور عظيم فى الدنيا سواء فى الفتوحات الروحية أو العقلية أو المادية ، وان هذه الفتوحات قد اتسقت له فى دور لا يزيد على ثمانين سنة ، مما أجمع الناس على أنه لم يتسق لأمة قبله أصلاً . وكان نابليون الأول لشدة دهشته من تاريخ الاسلام يقول فى جزيرة سنتيهلانة : ان العرب فتحوا الدنيا فى نصف قرن لاغيره

وتأمل أيها القارئ فى أن قائل هذا القول هو بونابرت الذى لم تكن تملأ عينه الفتوحات مهما كانت عظيمة :

وتعظم فى عين الصغير صغارها وتصغر فى عين العظيم العظائم

فهذا رجل عظيم جداً استعظم حادث العرب الذى لم يسبق نظيره فى التاريخ ، وقد بقى دور العرب هو الأول فى وقته ، ولبثوا وهم المسيطرون فى الأرض ، لايضارعهم مضارع ، ولايغالبهم مغالب ، مدة ثلاثة قرون أو أربعة . ثم أخذوا بالانحطاط ، وجعلت ظلالهم تتقلص

(١) هذا مضمون حديثين أحدهما « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » رواه الترمذى من حديث أبى هريرة ، ورواه غيره بمعناه مع اختلاف فى اللفظ. والثانى « اطلبوا العلم ولو بالصين . فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه العقيلى وابن عدى والبيهقى وابن عبد البر عن أنس وفيه عند الأخير زيادة أخرى فى فضل العلم وله طرق يقوى بعضها بعضاً

عن البلدان التى كانوا غلبوا عليها شيئا فشيئاً ، وذلك بفتور الهمم ، ودبيب الفساد الى الأخلاق ، ونبـذ عزائم الدين ، واتباع شهوات الأنفس ، وأشـد ما ابتلوا به التنافس على الامارات والرئاسات ، — ولا سيما بين القيسية واليمانية — مما لولاه لدانت لهم القارة الأوربية بأجمعها ، وكانت الآن عربية كما هو المغرب . فالمصائب التى حلت بالمسلمين انما هى مماصنعته أيديهم ، ومما حادوا به عن النهج السوى الذى أوضحه لهم القرآن الذى لما كانوا عاملين بمحكم آيه علوا وظهروا وكانت لهم الدول والطوائل ، فلما ضعف عملهم به وصاروا يقرأونه بدون عمل ، وانقادوا الى أهواء أنفسهم من دونه ، ذهبت ريحهم ، وولى السلطان الاكبر الذى كان لهم ، وانتقصت الأعداء أطراف بلادهم ، ثم قصدوا الى أوساطها .

ولنضرب الآن بعض أمثلة عن الأمم الأخرى لأجـل المقابلة بيننا و بينهم اذ كانت بضدها تتبين الأشياء

— اليونان والرومان قبل النصرانية و بعدها —

كان اليونانيون قبـل النصرانية أرقى أمم الأرض أو من أرقى أمم الأرض ، وكانوا واضعى أسس الفلسفة ، وحاملى ألوية الآداب والمعـارف ، ونبغ منهم من لا يزالون مصابيح البشرية فى العلم والفلسفة الى يوم الناس هذا .

وكان الاسكندر المكدونى أعظم فاتح عرفه التاريخ أو من أعظم الفاتحين الذين عرفهم التاريخ ، حاملاً للأدب اليونانى ، ناشراً لثقافة يونان بين الأمم التى غلب عليها . وما كانت دولة البطالسة التى لمعت فى الاسكندرية بعلومها وفلسفتها الا من بقايا فتوح الاسكندر . ثم لم تزل هذه الحالة الى أن تنصرت يونان بعد ظهور الدين المسيحى بقليل ، فمذ دانت هـذه الأمة بالدين الجديد بدأت بالتردى والانحطاط ، وفقد مزاياها القديمة ، ولم تزل تنحط قرناً عن قرن ، وتتدهور بطناً عن بطن ، الى أن صارت بلاد اليونان ولاية من جملة ولايات السلطنة العثمانية . ولم تعد الى شئ من النهوض والرقى الا فى القرن الماضى ، وأين هى مع ذلك الآن مما كانت قبل النصرانية ؟

أفيجب أن نقول ان النصرانية كانت المسؤولة عن انحطاط يونان هذا ؟؟

ان القائلين بان الاسلام قد كان سبب انحطاط الأمم الدائنـة به لا مفر لهم من القول بان النصرانية قد أدت أيضاً الى انحطاط يونان التى كانت من قبلها عنوان الرقى

ثم كانت رومية فى عصرها الدولة العظمى التى لا يذكر معها دولة ، ولا يؤبه فى جانب صولتها لصولة ، ولم تزل هكذا هى المسيطرة على المعمور الى أن تنصرت لعهد قسطنطين . فمنذ ذلك العهد بدأت بالانحطاط مادة ومعنى ، الى أن انقرضت أولا من الغرب ، وثانياً من الشرق . ولم تسترجع رومية بعد انقراض الدولة الرومانية شيئاً من مكانتها الأولى ، و بقيت على ذلك مدة ١٥ قرناً حتى استأنفت شيئاً من مجدها الغابر . وما هى الى هذه الساعة ببالغة ذلك الشأو الذى بلغته أيام الوثنية

أفنجعل تنصر الرومان هو العامل فى انحطاط رومة وتدحرجها عن قمة تلك العظمة الشاهقة ؟ لقد قال بهذا علماء كثيرون كما قال آخرون مثل هذه المقالة فى الاسلام ، وكلا الفريقين جائر حائد عن الصواب

فان لسقوط الرومان بعد فشو الدين المسيحى فيهم ولسقوط اليونان من قبلهم بعد أن تقبلوا دعوة بولس الى النصرانية أسباباً وعوامل كثيرة من فساد الأخلاق ، وانحطاط الهمم ، وانتشار الخنى والخلاعة، وشيوع الألحاد والاباحة ، ومن هرم الدول الذى يتكلم عنه ابن خلدون ، وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية منضمة اليها غارات البرابرة من الخارج ، فكانت ثمة أسباب قاسرة مؤدية الى السقوط الذى كان لا بد منه ، فلو فرضنا أن النصرانية لم تكن جاءت وقتئذ لم يكن الرومان ولا اليونان نجوا من عواقب تلك الحوادث ولا تخطتهم نتائج تلك الأسباب

فدعوى بعض المؤرخين الأور بيين أن تغلب المسيحية على اليونان والرومان أخنى على عظمتها ، وذهب بمدنيتها ، ليس فيه من الصحيح الا كون الأوضاع الجديدة تذهب بالأوضاع القديمة ، سنة الله فى خلقه ، وانه فى هيعة هذا التحول لابد من اضطراب الاحوال وانحلال القواعد واستحكام الفوضى ، والا فلا أحد يقدر أن يقول ان الوثنية أصلح للعمران من النصرانية (١)

---

(١) علماء المسلمين يعتقدون أن النصرانية على ماطرأ عليها من الوثنية بالتثليث الوثنى القديم أصلح لأنفس البشر من الوثنية الخالصة ولكنها ليست أصلح ولا أقبل للعمران المدنى الذى تتنافس فيه أوربة وغيرها لأنها ديانة مبنية على المبالغة فى الزهد والخضوع لكل حكم دنيوي ، والعمران لا يتم ولا يسمو الا بالسيادة والملك والغنى ، ومن قواعد الانجيل أن الجمل اذا دخل فى ثقب الابرة فالغنى لا يدخل ملكوت السموات ،

وهذه الدعوى كانت تكون أشبه بدعوى أعداء الاسلام الذين يزعمون ان الشرق كان راتعا فى بحابح العمران ، فجاء الاسـلام وطمس المدنيات الشرقية القديمة ! ! لولا أن الحقيقة هى كما قدمنا ان المدنيات الشرقيـة كانت كلها قد انقرضت أو انحطت قبـل ظهور الاسلام بكثير ، وأن الاسلام وحده لا غيره هو الذى جدد مدنية الشرق الدارسة ، واستأنف صولته الذاهبـة الطامسة ، و بعث تلك الحواضر العظمى الزاخرة بالبشر كبغداد والبصرة وسمرقنـد و بخارى ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة وهلم جرا ، ولئن كانت قد بقيت للشرق آثار مدنيات قديمة فان الاسلام هو الذى وطد بوانيها، وطرز حواشيها ، وحمل السيف بيد والقلم بيد الى أبعد ماتصوره العقل من حدود الاقطار التى لم يسبق لشرقى أن يطأها بقدمه

فاذا كان الافرنج الصليبيون من الغرب ، وكان المغول اولئـك الجراد المنتشر من الشرق ، قد تبرّوا ماعلا الاسلام فى تلك الممالك ، ونسفوا عمران هاتيك الحواضر ، وكانت منافسات ملوك الاسلام الداخلية واتباعهم للشهوات ، وامعانهم فى الضلالات ، وبحيدهم عن جادة القرآن القويمة ، وفقدهم مايزرعه فى الصـدور من الاخلاق ، العظيمة ، قد قضت فى الداخل ، على ماعجز عن تعفيته العدو من الخارج ، فليس الذنب فى هـذا التقلص ذنب الاسلام ، ولا التبعة فى هذا الانقلاب عائدة على القرآن ، وانما الذنب هو ذنب الهمج من الافرنج ، وجناية ذلك الجراد الزحاف من المغول ، وانما هى تبعة المسلمين الذين رغبوا عن أوامر كتابهم واشتروا بآياته ثمناً قليلا ، الا النادر منهم

وأيضا فقد تنصرت الامم الاوربية فى القرن الثالث والرابع والخامس والسادس من ميلاد المسيح ، و بقيت امم فى شرقى أوربة الى القرن العاشر حتى تنصرت . ولم تنهض اوربة نهضتها الحالية التى مكنتها تدريجا من هذه السيادة العظمى بقوة العلم والفن الا من نحو أربعمائة سنة . أى من بعـد أن دانت بالانجيل بالف سنة . ومنها بعد أن دانت به

ونعتقد أيضا أن جميع ماجاء به المسيح عليه السلام من الدين فهو حق وكان البشر في أشد الحاجة الى ما فيه من المبالغة فى الزهد والتواضع لمقاومة ما كان عليه اليهود وحكامهم الروم (الرومان) من الطمع والـكبرياء والعتو وأن هذا كان تمهيدا للاسـلام الدين الوسط المعتدل الجامع بين مصالح الدنيا والآخرة فما ذكرناه من اعتقادنا يتضمن اعترافنا بحقيقة دين المسيح فى نفسه وبكونه من عند الله تعالى مع التعارض بينه وبين ديننا الناسخ له ومن وظيفتى أن أبين هذا في حاشية مقال كتب للمنار باقتراح من أحد تلاميذ المنار على أمير البيان

بسبعمائة سنة . ومنها بثمانمائة سنة الخ وهذه هي القرون المسماة فى التاريخ بالقرون الوسطى . ولا نقول ان الاور بيين كانوا فى هـذه القرون بأجمعهم هائمين فى ظلمات بعضها فوق بعض ، بل نقول ان العرب كانوا أعلى كعبا منهم بكثير فى المدنية باقرار مؤرخيهم ، وبرغم أنف لويس برتران واضرابه . ومن الكتب المخرجة حديثاً الشاهدة بذلك التاريخ العام للكاتب الفيلسوف الانكليزى « ولز » و « تاريخ مدنيات الشرق » لمؤلف افرنسى متخصص فى التواريخ الشرقية اسمه « غروسه » فالحقيقة التاريخية المجمع عليها هي واحدة فى هذا الموضوع لم يظهر ماينقضها ولن يظهر ، وهى : ان العرب فى القرون الوسطى كانوا أساتيذ الاور بيين ، وكان الواحد من هؤلاء اذا تخرج على العرب تباهى بذلك بين قومه

— سبب تأخر اوربة الماضى ونهضتها الحاضرة —

أفنجعل هذا التأخر الذى كان عليه الاور بيون فى القرون الوسطى مدة ألف سنة ناشئا عن النصرانية التى كانت دينهم الذى يعضون عليه بالنواجذ ؟

نعم ، ان الأمم البروتستانية منهم تجعل مصدر هـذا التأخر الكنيسة البابوية لا النصرانية من حيث هى . وتزعم أن نهضة أوربة لم تبدأ الا بخروج (لوثير ، وكلفين) على الكنيسة الرومانية .

وأما فولتير ومن فى حزبه من أقطاب الملاحدة فلا يفرقون كثيراً بين الكاثوليك والبروتستانت ، وعندهم ان جميع هذه العقائد واحدة وانها عائقة عن العلم والرقى ، ولهذا قال فولتير تلك الكلمة عند ماذكر لديه لوثير ، وكلفين ، قال : « كلاهما لايصلح أن يكون حذاء لمحمد » يريد أن محمداً ﷺ بلغ من الاصلاح مالم يبلغا أدناه ، مع اعتقاد الكثيرين أن مذهبهما كان فجر أنوار اوربة [1]

(١) ونحن نعتقد هـذا وكان شيخنا الاستاذ الامام وأذكياء مريديه كسعد باشا زغلول يعتقدونه ولكن بمعنى سلبي وهو أن هذا المذهب أضعف حجر الكنيسة على العقول البشرية وتقييدها بتعاليمها وفهمها للدين ورأيها فى الدنيا ، وكان سبب هذا المذهب ماسرى الى اوربة عقب الحروب الصليبية بمعاشرة المسلمين من استقلال العقل فى فهم الدين وعدم سيطرة أحد عليهم فيه كما بينه شيخنا فى كتاب الاسلام والنصرانية « الناشر »

والحق الذى لاارتياب فيه ان النصرانية نفسها لم تكن هى المسؤولة عن جهالة الافرنج المسيحيين مدة الف سنة فى القرون الوسطى بل للمسيحية الفضل فى تهذيب برابرة اوربة

وهؤلاء اليابانيون هم وثنيون . ومنهم من هم على مذهب بوذا . ومنهم من يقال لهم طاويون ، وكثيرون منهم يتبعون الحكيم الصينى كنفوشيوس . ولقد مضى عليهم نحو الفى سنة ولم تكن لهم هذه المدنية الباهرة ولا هذه القوة والمكانة بين الامم . ثم نهض اليابان من نحو ستين سنة وترقوا وعزوا وغلظ أمرهم ، وعلا قدرهم ، وصاروا الى ماصاروا اليه ولم يبرحوا وثنيين

فلا كانت الوثنية اذاً سبب تأخرهم الماضى ، ولا هى سبب تقدمهم الحاضر ، وقد تفاوت اليابان والروسية وتحاربتا فتغلبت اليابان على الروسية . مع ان اليابانيين فى العدد هم نصف الروس ، ولكن مما لاشك فيه ان اليابانيين أرقى من الروس ، والحال ان الروسية عريقة فى النصرانية واليابان عريقة فى الوثنية

فليترك اذاً بعض الناس جعل الأديان هى المعيار للتأخر والتقدم (١)

أفنقول من أجل هذا المثال : ان الانجيل هو الذى أخر الروسية عن درجة اليابان ، وان عبادة الآلهة ابنة الشمس هى التى جذبت بضبع اليابان حتى سبقت الروسية ؟

ان لهذه الحوادث أسبابا وعوامل متراكمة ترجع الى أصول شتى . فاذا تراكمت هذه العوامل فى خير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد ، وأصبحت فضائل أقوم الأديان عاجزة بازاء شرها ، كما أصبحت معايب أسخفها غير مؤثرة فى جانب خيرها

ولسنا هنا فى صدد أسباب تقدم اليابان السريع حتى نبين ان اعتقاد عامتهم « وجود حصان مقدس يركبه الاله فلان » لم يقف حائلا دون تقدمهم المبنى على ماركب فى فطرتهم من الجنسة ، وما أوتوا من الذكاء ، وما أورثهم نظام الاقطاع القديم من التنافس فى المجد والقوة

وعندنا أمثلة كثيرة لاتكاد تحصى فى هذا الباب اجتزأنا منها بما ذكرناه . ولم نكن

(١) هذا صحيح فى جملة الاديان الا الاسلام فقرآنه وتاريخه يثبتان انه هو سبب تقدم أهله حين اهتدوا به وسبب تأخرهم حين أعرضوا عنه ، كما بين هذا أمير الكتاب فى رسالته هذه فأظلم الظلم أن يجعل سبب تأخرهم « الناشر »

لنتعرض لهـذا المقام لولا حملات القسوس والمبشرين وكثير من الاور بيين على الاسلام ، وزعمهم انه هو عنوان التأخر : وانه رمز الجمود ، وتحدثهم بذلك فى الأندية والمجامع ، ونشرهم هذه الافتراءات فى المجلات والجرائد ، وقولهم ان الشجرة تعرف من ثمارها ، وان حالة العالم الاسلامى الحاضرة هى نتيجة جمود الاسلام ، وتحجر القرآن ! « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً »

وحسبك أن المسيو « سان المقيم الافرنسى السامى » فى المغرب ينشر فى العدد الأخير من « مجلة الاحياء » الافرنسية مقالة يتكلم فيها عن يقظة المغرب بعد « ليل الاسلام » ! هـكذا تعبيره

فان كان تأخر احدى الممالك الاسلامية حقبة من الدهر يجب أن يقال فيه « ليل الاسلام » فـكم كان ليل النصرانية طويلا عند مابقيت أوربة المسيحية زهاء ألف سنة وهى فى حالة الهمجية أو مايقرب من الهمجية

لماذا أيها الناس تدخلون الأديان فيما هى براءة منه ؟ ولماذا تقحمونها فى موضوع يكذبكم فيه التاريخ بأماثيله الجمة

ان ادخال الأديان فى هذا المعترك وجعلها هى معيار الترقى والتردى ليس من النصفة فى شيء

المدنية العربية

خدمة العرب لعلم الطب

للامير شكيب

جاء فى مجلة المستشفيات الافرنسية Gazette des Hopitaux بعددها المؤرخ بـ ١٩ مارس ١٩٣٢ أى العدد الصادر منذ شهر لتحرير هذه الاسطر نصّ محاضرة ألقاها الاستاذ الكبير والجراح الشهير البروفسور فورغ Fosgue الذى يُعَد من أشهر جراحى فرنسا ان لم يكن أشهرهم وذلك فى تاريخ الطب عند الاسبانيول وما للأمة الاسبانيولية من المعارج العالمية فى هذا العلم . وقد بدأ الاستاذ محاضرته بقوله : ان المستشفيات والمستوصفات ومراكز التعليم الطبى فى اسبانية قد أصبحت كلها عصرية بتمام المعنى وملكت من الأدوات والأدوية جميع مايملكه غيرُها فى سائر أوربة وليس فى برشلونه مثلاً معمل أو مُعْتَمَل يفترق فى شىء عن المعامل والمُعْتَمَلات التى فى فرنسة . ولكن ليس هنا معترك الرأى ولا المقام الذى يمكننا فيه أن نقدر مزية الامة الاسبانيولية قدرها فى الطب والجراحة ، بل يجب علينا أن نرجع الى الوراء فنتصفح الكتب القديمة ونزور المستشفيات على ما كانت عليه فى شكلها السابق ونقرأ تاريخ الجامعات الاسبانيولية القديمة ونستقصى الحركة العامية عند جيراننا هؤلاء ونخالط نفوسهم ونُدَاخل أوساطهم فاذا اطلعنا على ذلك الماضى ازددْنا معرفة بهذا الحاضر وعلمنا أن اسبانية هى فى غربى اوربة أرض قائمة بنفسها لها مزاياها وخصائصها وانها تمتاز بميزات لايشاركُها فيها غيرُها وأن فيها قوةً حيويةً قومية غير معهودة لكثير من الأمم وان لتلك الأدمغة الحارة من سُرعة الفكر والاستعداد للنضال مايجعل هذه الأمة فريدة فى بابها ، ولأجل أن نفهم هذه الحالة النفسية عند الاسبانيول وجب علينا أن نفهم هذه الحقيقة التاريخية وهى استيلاء العرب على اسبانية وسلسلة الوقائع التى لاتحصى بينهم و بين الاسبانيول الى أن تمكن هؤلاء من استرداد بلادهم . فكما أن بلاد الغال بقيت

نحوا من خمسة قرون تحت حكم الرومان فقد بقيت اسبانية أيضا زهاء ثمانية قرون الى أن تخلصت من حكم العرب ، وهكذا يمكن قياس درجة اتصال الامة الاسبانية بالمدينة الاسلامية هذه المدنية التى كانت حلقة الاتصال بين العالم الاسيوى وأوربا الغربية .

قال ليبرى Libri : احذف العرب من التاريخ يتاخرْ عصرُ التجدد فى أوربا عدة قرون الى الوراء . فى سنة ٧١١ شن العرب الغارة بقوة ضئيلة (سبعة آلاف مقاتل) على اسبانية فنزلوا بها وفتحوها بسرعة الصاعقة واستصفَوا تلك البلاد فى سبع سنوات ولبثوا فيها ثمانية قرون وما زالوا الى ١٤ يوليو سنة ١٢١٢ حتى بدأ فى التاريخ دور تراجعهم أى ان الجزر لم يبدأ الا بعد خمسة قرون من المدّ وذلك فى واقعة لاس ناڤاس دوطولوزا(١) Las Navas de Tolosa وقد رأيت بعينى فى ديرهولغاس Houlgas بقرب برغاش Bergas احدى الولايات التى وقعت فى يد الأسبانيول فى تلك المعركة وشعرت بما عند الاسبانيول من الاحترام لتلك الذكرى والنخوة بها . وكانت طليطلة قد عادت للاسبانيول سنة ١٠٨٥ فصارت مركز الاتصال بين المدنيتين الاسلامية والمسيحية وسنرى مقدار تأثير هذه البلدة كمركز تبادُل للبضائع العقلية وكتب للترْجمة يحج اليه طلاب العلوم من كلّ فج . ثم فى القرنين الأخيرين انكفأ العرب من اشبيلية وقرطبة الى غرناطة فصارت معقلاً للانكماش واجتمع فيها فلولُ العرب . فأصبحت عاصمة ولمعت فيها أنوار شعلة المدنية الاسلامية للمرة الأخيرة . وفى ٢ يناير سنة ١٤٩٢ كان سقوط غرناطة وجلاء العرب الأخير فتركوا كما قال « كلود فرَير » من قصر الحمراء بقية باهرة تتأمل فيها القرون والحقب دهراً طويلا كما ان طليطلة بقيت خزانة كتُب تغذت بترجمتها الفكرة البشرية أعصراً مديدة . لا جرم أن هناك تاريخا نادر المثال لم ينقصه شيء لا من العظمة ولا من طول المدة . ولنتأمل الآن كيف أن هذا العمل المدنى أو الحرث الفكرىّ قد تمّ وبأية الوسائل قد تم وما ذا كان من تأثيره فى ترقية المعارف الطبية

لقد كانت هذه المدنية فى بدأ نشأتها كما قال الأخَوان « طَارُو » Tarroud مدنيةً يونانية لاتينية ، اقتبسها العربُ سريعا وطبعوها بطابعهم الخاصّ . وبهذا المبدأ الشريف

(١) هذه واقعة العقاب التى ظهر بها ملوك أسبانية المتحدون جميعاً على جيش الموحدين ، ولم تقم بعدها للمسلمين فى الأندلس قائمة تحمد

الذى بدأ به العرب باقتباس تلك المدنية ، تظهر جميعُ المعالى الأدبيه التى فى المدنية الاسلامية فانك ترى شعباً من القبائل الرُّحَّل رُعاة الابل ، بسائق دعوة دينية يحملون على الأُمم فيفتحون نصف العالم فى مدّة قرن واحد. ثم يكون أعظمُ همهم، بعد أن وطّدوا هذا الملك الطويل العريض ، أن يضمّوا الى عظمة الفتح عظمة العلم وكما قال لوكلرك Leclerc (١) الذى تأليفه مثال فى النقد الدقيق والاطلاع الواسع : لم يكمل القرن التاسع حتى كان العرب قد ملكوا جميع علم اليونانيين فصارت بغداد مركز الحركة العقلية فى الدنيا وتعددت فيها مكاتب الترجمة ، ثم صارت طليطلة فى القرن الثانى عشر ما كانت عليه بغداد فى القرن التاسع فهما اذاً أهم مراكز الترجمة وانتقال الآراء العلمية . وقد كان فى بغداد نحو مائة مترجم ينقلون كتب يونان الى العربيــة والسريانية فنقلوا تآليف ابقراط ولِيُوس قُوريدوس وجالينوس ورُوفُس وأُوريباس و بُولوس ألأَجِيني وبعد ذلك بثلاثة قرون صارت طليطلة فى أسبانية هى مركز الترجمــة ، وصارت المدنية الاسلامية تُعيد للغرب الديون العقلية التى كانت اقترضــتها من مسيحي الشرق فعادت الافــكار اليونانيــة الى أوربة بواسطة العرب على يد مترجمى طليطلة لا سيما جرار دوكريمون Gérard de Cremone . أما كيفية هــذا النفوذ العلمى الذى اخترق الاقطار الاسلامية واستضاءت به مراكز المدنيــة الاسلامية فى أسبانية بالأشعة الآتية من بغداد فان الاقرب الى العقل فى أسبابها أن هذه المملــكة كانت متصلة من الهند الى المحيط الاطلانطيكى وكان لهــا نصف سواحل البحر المتوسط فــكان الاتصال دائماً بين افريقية وأسبانية من جهة والشرق و بغداد من جهة أخرى . ولا شك أن الحج كان ذا تأثير شديد فى نقل الافــكار والآثار ولم تــكن الرحلة الى الحج فقط . بل كانوا يُعمِلون الرحلة فى طلب العلم لنفسه . وقد عيّن لوكلرك حوادث من هذا القبيل فقال : ان محمد ابن عبدون ذهب من الاندلس الى مصر وكان يمارس التطبيب فى مستشفى الفسطاط وان ولدَىْ يونس الحرّانى ذَهَبا يُحصّلان الطب فى بغداد و بقيا عشر سنوات وعمرو بن حفص ذهب الى القيروان للتحصيل وكما كان يذهب أطباء من الغرب الى الشرق كانت الأطباء تأتى من الشرق الى الغرب وتقصد سلاطين الاسلام فى أسبانية فــكانت الــكتب نظير الطنافس الحريرية والحلى والجواهر يؤتى بها من الشرق الى الأندلس حتى اجتمع فى

(١) طبيب شهير نشأ فى جنيف فى القرن السابع عشر وله تآليف كثيرة منها تاريخ الطب

خزانة قرطبــة زهاء ستمائة ألف مجلد في فهرس يقع في أربعة وأربعــين مجلداً . وكان القرن العاشر هو القرن الذى بلغت فيــه المدنيــة الاسلامية فى الاندلس أوجها فأقبــل الناس على العلم فى جميع أنحاء المملكة العربية وتعددت مصادر الأشعة ولما انفصلت قرطبة عن بغداد كان ذلك سبباً لزيادة لمعانها باستقلالها وأخذ العرب بالتقدم الى الأمام فلم يكونوا يكتفون بمعرفة علوم يونان فحسب ، بل حرثوا هذه العلوم وكشفوا طرقاً جديدة وازداد عدد علمائهم كثيراً كما ان عدد علماء المسيحيين عاد قليلاً . وظهر علماء من اليهود وأخذ عددهم يتزايد وانتقل المسلمون من دور الترجمــة الى دور التوليد ، ومنهم ظهرت نوابغ لذلك العهد مثل الجراح الشهير أبى القاسم خلف بن عباس الزهراوى فان هــذا الرجل كان فذًّا من الطبقة الأولى به بُدئ تاريخ الطب الاسلامى فى أسبانية وكان فذاً منقطع النظير فى الجراحة العربية واليه انتهت الرياسة فى علم الجراحة فى القرون الوسطى (١) وكان مولده ســنة ٩٣٦ مسيحية فى الزهراء المدينة التى شادها عبد الرحمن الناصر وكانت لقرطبة أشبه بقرساى لباريس . وقد بالغ مؤرخو العرب فى وصفها وأصاب لويس بيرتران بقوله انها مبالغات خياليــة فقالوا ان قصر الزهراء كان يحتوى نحواً من ثلاثة آلاف من الخصيان ونحواً من ســتة آلاف من الجوارى وانه وُضع فى بنائها أربعة آلاف عمود من المرمر وانه كان فيها حوض ماء مزيَّن باثنى عشر تمثالا من الذهب مرصعة باللآلئ اهـ .

انتهى كلام الاستاذ فورغ هنا وقبل أن نــكمل ترجمة محاضرته هــذه ، نُحب أن نذكر ملاحظة على ما كتبه بشأن قصر الزهراء أو مدينة الزهراء كما هو الاحرى فنقول ان لمؤرخى العرب ولغيرهم مُبالغات فى الوصف لا سيما اذا كان الموصوف خارقاً للعادة مثل قصر

---

(١) من الغريب أن ترجمة خلف بن عباس الزهراوى قد وردت فيطبقات الاطباء لــكن بصورة مختصرة جداً فهو يقول : خلف بن عباس الزهراوى كان طبيباً فاضلا خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة ، جيد العلاج وله تصانيف مشهورة فى صناعة الطب وأفضلها كتابه الــكبير المعروف بالزهراوي ولخلف بن عباس الزهراوى من الــكتب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف وهو أكبر تصانيفه وأشهرها وهو كتاب تام فى معناه . اهـ ولــكن قد ترجم ابن أبى أصيبعة صاحب هذا الــكلام من أطباء الاندلس عــدداً كبيراً جداً يستدل به على درجة رقي الطب فى الأندلس لذلك العهد كما قال لوكلرك والأستاذ فورغ

الزهراء . ولكن لويس بيرتران المشهور بعداوته للاسلام كاذب فيما يزعم من ان قصر الزهراء لم يكن كما وصفه العرب . نعم ان قضية حوض الماء الذى عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب مرصعة باللئالئ لم نجدها فيما قرأناه من أوصاف مؤرخى العرب للزهراء ولكن مما اتفق عليه المؤرخون ان بناء الزهراء استغرق أربعين سنة من خلافة الناصر وانه كان يشتغل فيها كل يوم عشرة آلاف من العملة وكان يُحمل اليها كلّ يوم الف وخمسمائة حِمْل من مواد البناء وأنه كان فى الزهراء عدة آلاف من الخصيان وعدة آلاف من الجوارى وكانت فيها أجناد ووُصَفاء لا يأخذهم الاحصاء . وبالاجمال كان قصرُ الزهراء مدينة ومن شاء مراجعة ماجاء عن الزهراء فى الكتب فعليه بنفح الطيب وبغيره من الكتب المؤلفة على الاندلس وان أقل المؤرخين مبالغة وأكثرهم تدقيقاً فى الأخبار ابن خلدون قد وصف الزهراء وصفاً مدهشاً لم يكن ليَكْتُبه لولا تيقّنُهُ أن الزهراء كانت كما وصفها . ولقد شاهدت أَنا بعينى خرائب الزهراء سنة ١٩٣٠ فى سياحتى الى الاندلس وكان معى يومئذ المهندس الأسبانى هيرْنَانْدِيس الموكّل بعمليات الحفر فى الزهرآء والدكتور رفائيل كاستيجون من أعضاء أكاديمية قُرطبة فشاهدنا مكان الزهراء والآثار التى انكشفت منها بالحفر وعلمنا مابقى منها محجوباً فقال لنا العالمان الاسبانيان ان الذى انكشف من الزهراء فى مدة عشرين سنة أى منذ باشروا الحفر هو جزء من عشرين من مجموعها وقالا انهم يُخمّنون بخمسين سنة الوقت اللازم لكشف جميع أنقاضها على نسبة العمل الذى عملوه الى الآن . وليس بمستغرب أن يكون ذلك كذلك لأن طول مكان الزهراء يبلغ تسعمائة متر وعرضه يبلغ سبعمائة وكله مغطّى بالأنقاض كما أنه ليس بمستغرب أن يقال انه كان فيها أربعة آلاف عمود من المرمر وذلك بالنسبة الى سعة المكان مما يشاهده الانسان بعينيه فضلا عن مقابلة مايُشاهده بما يقرأه . وفى أعلى الزهراء متحف مؤقت مجموع فيه كثير من قطع الحجارة المخرّمة والآثار النفيسة وقد شاهدنا بين الأنقاض، وهى القسم القليل الذى انكشف كثيراً من الرُّخام ومن القرميد الأحمر وقال لنا الاسبانيول ان أكثر البلاط النفيس والاساطين الثمينة قد نقلت من الزهراء الى أمكنة أخرى فالدّير الذى فى سفح الجبل مبنى أكثرهُ من حجارة الزهراء وعند ما رمموا جسر قرطبة أخذوا كثيراً من حجارتها ولا تكاد يوجد كنيسة مبنية فى قرطبة الا وفيها من حجارة الزهراء وقد كانوا أخذوا من أنقاض الزهراء الى اشبيلية والى غرناطة . بل كان

الموحدون فى أثناء استيلائهم على الاندلس أخذوا من أعمدة الزهراء الى مراكش . وبالاجمال فان الزهراء كانت من أعظم مبانى العالم وهى أعظم من الأسكوريال وأجل ، على حين أن الاسكوريال هو أيضاً من أعظم مبانى الدنيا . ولا يجوز أن يوصف بالمبالغة ماورد من وصف قصر الزهراء الذى يسميه الاسبانيول بمدينة الزهراء والذى أجمع المؤرخون على أنه كان يحتوى على بضعة عشر ألف نسمة من رجال ونساء . ثم نعود الى ترجمة الاستاذ فورغ للجرّاح العربى الشهير المسمى بأبى القاسم . قال : انه كان بحاثة مثابراً على الشغل ، كتب فى حياته مايقع فى ثلاثين مجلداً ، وكتابُه فى الجراحة هو أهمّ تآليفه وهو يستحق أن يكون فى تاريخ الطب المَظهَرَ الأول من مَظاهر الجراحة كعلم مستقل مبنىّ على أساس من الحقائق التشريحية . قال أبو القاسم : اذا كان الطبيبُ يجهل التشريح يقع فى الخطأ ويقتل المريض فقد رأيت طبيباً جاهلا يشرُط خُرّاجاً فى عنق مريض ففتح له شرايين العنق وما زال الدم يفيض حتى مات لساعته . ومما امتاز به أبو القاسم أنه أول من اخترع الجراحة المُصوَّرة فقد جاء فى كتابه نحو مائتىْ صورة عملية . ومن هذا أصبحَ هو العلَم المشار اليه بالبَنان فى هذا الفن . وفى القرن الثانى عشر عند ما ترجم جِيرار دُوكْرِيمُون كتاب أبى القاسم الى اللاتينية صار هو الكتاب المتداوَل فى أيدى الجميع . ومما يدل على قيمته العظمى انأستاذنا القديم غوىدوشولياك Guy de Chauliac من مدينة مونبلييه استشهد بكتاب أبى القاسم أكثر من مائتى مرة . فلا شك اذن ان الجراحة العربية التى تنمى الى أصل يونانى قد كانت نمت نمواً عظما فى الغرب وحسبُك شاهداً على رقى الجراحة العربية كلمات الازدراء التى قالها « لانفرانك » Lanfranc فى أواخر القرن الثالث عشر فانه كان ذهب الى ايطاليا واطلع فيها على ترجمة تآليف أبى القاسم ورجع الى باريس فقال عن جرّاحى باريس : انهم جهلاء ولا يكاد يوجد فيهم جَرّاح واحد عالم بصنعته

عند ما نَصِل الى طليطلة يستولى علينا تأثير المَنظر الطبيعى بمكان طليطلة العجيب المشرف على نهر « تاجُه » مضافا الى منظر الأبنية الباهرة . ولكننا ننسى طليطلة القرن الثانى عشر والثالث عشر مدينة العلم الفاضلة ، مستودع الكتب العربية ، مقر الترجمة الذى منذ بدأ الاحتلال الاسلامى يتقلّص من هناك أصبح مقصداً لحجاج العلم وورّاد المنابع العقلية التى كانت لذلك العهد غيرَ معروفة عند المسيحيين . فقد صارت طليطلة فى الطرف

الغربىّ من المملكة العربية نظيرة لبغداد مركزاً للترجمة والتأليف بعد ثلاثة قرون من عهد ازدهار بغداد

قال لوكلرك مؤرّخ الطب : انه فى ذلك الوقت كان حصل حادثان عظيمان فى قطبى العالم الاسلامى أحدُهما الحرب الصليبية التى ساقت الى الشرق نحواً من مليون مسيحى والثانى زحف الافكار الاسلامية على الغرب بواسطة الاندلس . فقد كان قصَدَ مكاتبَ المسلمين فى أسبانية كثير من طلاب العلم من جميع أنحاء النصرانية عطاشا الى تلك المناهل فوجدوا فى خزائن المسلمين فى الاندلس من التآليف والتراجم العربية ما أحيا بينهم الفلسفة القديمة التى كانوا جهلوها . وكان للفرنسيس يد فى نشر هذه المعارف البشرية لأن اسقفاً افرنسياً هو ريموند داجن Raymond d'agen صار سنة ١١٣٠ رئيساً لأساقفة طليطلة فحق له الفخر بترجمة رسالة الروح لابن سينا اذ بعث فى الناس همة الترجمة لكتُب العرب فخرج منها ثلاثمائة ترجمة من العربى الى اللاتينى . وهكذا انتشرت بيْن الأيدى الكتب الحاوية لفلسفة يونان وفلسفة أعاظم حكماء العرب . وهكذا انسد النقص المظلم الذى كان واقعاً فى الفكر البشرى فى القرون الوسطى وتقدمت مدارس الغرب الى الأمام . ولقد ذكر لوكلرك ان من هذه التراجم الثلاثمائة كان يوجد تسعون كتاباً مُترجماً من العربية الى اللاتينية فى الطب منها أربعة تآليف لأبقراط وخمسة وعشرون لجالينوس والباقى لحكماء الاسلام كالرازى وأبى القاسم وابن سينا وابن زهر . وكان جيرار دوكريمون وهو أعظم المترجين همة ومن أذكى رجال القرون الوسطى قد أكمل فى مدْة خمسين سنة ثلاثة وسبْعين ترجمة أكثرها لكتب طبية ومن جملة هذه الكتُب قانون ابن سينا الذى كان كافياً أن يشغل وحده حياة انسان . ومنها كتب أبى القاسم فى الجراحة التى عملت فى سير هذا الفنِ فى أوربة الى الأمام العمَل الاكبر فقد بقيت طليطلة اذن مدة قرنين كاملين معهداً للتأليف والترجمة من اللغة العربية واشترك فى ذلك اليهود الذين كانوا يُحسنون العربية ومن هذا المرْكز العامىّ الذى هو طليطلة توزَّع مجموع تآليف وأفكار عامة للمعارف البشرية ، وكان لعلم الطب منه الحصة الكبرى

فأذا ألقينْا بنظرنا بصورة مجملة على هذه المدنية الاسلامية فى أسبانية يأخذنا العجب كما قال لوكلرك وكما ورد فى بحث جرى مؤخراً من أن بعض الكتاب المعاصرين أخذوا

ينكرون على العرب العبقرية العِلْمية . والحقيقة أن هذه الملكة العلمية وأن هـذا البحث والتنقيب قد أثبتها العرب لأنفسهم من البداية فى بغداد حيث قرر علماؤها من ذلك الوقت تقريراً صريحاً المبادئ التى ينبغى أن يسير عليهـا العلم وهى السَّيْر من المعلوم الى المجهول وعدم قبول شئ على أنه حقيقة الا بعد ثبوته بالتجربة . اذن منذ القرن الحادى عشر أثبت العرب أنهم كانوا قد ملكوا الطريقة العلميـة الصحيحة ، وليس بصحيح القولُ أنهم ما أَتَوْا بشئ جديد ، ولا أضافوا شيئاً يُذكر على التراث اليونانى اللاتينى ، ولا جرم أنهم بالبداية كان أساس عملهم الترجمة من الكتب القديمة ولكن ليس من العدل أن تقول انهم لم يكونوا الا وسطاء وأنهم لم يكونوا يعلمون ما يترجمون ولم يكن عندهم رُوح التوليد . وعلى هذا أجاب الفيلسوف الألمانى «هُومبُولد» Homboldt بقوله : «ان العرب لم يقتصروا على حراسة كنز المعارف الذى عثروا عليـه بل أضافوا اليه وأوسعوه وفتحوا طرقاً جديدة للبحث فى أسرار الطبيعة »

وكان أطباء العرب أكثرهم من كبار الفلاسفة ومما لا جدال فيـه أن أبا القاسم وابن رشد كانا من الدرجة الاولى فى رجال العالَم وكانا من العلماء الواضعين وأبو القاسم هو الذى سبق الى سدّ الشرايين عند العمليات واخترع طريقة تفتيت الحصى فى المثانة وطريقة استخراج الحصى من مثانات النساء . وأشار عند حصول الفساد المسمى بالغَنْغَرِينَة بالقطع العاجل . وأما ابن رشد الفيلسوف القرطبي الذى كان يشتغل ليـلاً ونهاراً وقيل انه لم يَخْلُ من الشغل بالعلم الا ليلة زواجه وليلة وفاة والده ، فقد كان مفسر فلسفة أرسطو . وفى كتابه الكلّيّات فى الطب أشار الى الدورة الدموية . واذا شاء الانسان أن يزن بحق وعدل مقدار تأثير البضائع العربية فى معاهد الطب فى أوربّة فما عليه الا بمُراجعة برنامج مدرستنا الطبية فى مونبلييه . فاننا نجد فى أواخر القرن الثالث عشر من جملة الكتب التدريسية جدول تراجم لاتينية لكتب عربية جاء بها الأطباء اليهود الذين هاجروا أسبانية الى جنوبى فرنسة وكان فى ذلك الجدول لحكماء اليونانيين كتب من تآليف أبقراط وجالينوس ولحكماء العرب كتب من تآليف ابن سينا والرازى وقُسْطا واسحاق وحُسين . وفى سـنة ١٣٤٠ قرر المجمع الطبي الأوّلية لجالينوس وابن سينا وفى سنة ١٥٠٠ حكموا بالسبق لابن سينا فى خمس محاضرات من أصل عشر ولجالينوس فى أربع ، ولابقراط فى واحدة وفى سنة ١٥٣٤

كانت تآليف العرب الطبية هى المعتمد عليها فى مدارسنا ولم تزل الحالة هى هذه الى القرن السادس عشر حيث أخذوا يترجمون ابقراط من اليونانية رأساً ولم تُحذف تآليف العرب من برامج التدريس عندنا الا فى أواخر القرن السادس عشر. قال المؤرخ الكبير جِرْمان German من مونبيلييه اننا نشهد لكتّاب العرب الذين كتبوا فى المواضيع العامية بمزية الايضاح التام والطريقة التعليمية. نعم ان هؤلاء العرب الذين يرجعون الى نصاب قديم من مدنية اليمن كانت فيهم قابلية عظيمة للثقافة العليا ولم يكن فيهم شيء من البربرية

انتهى كلام الاستاذ فورغ فيما يتعلق بالعرب وبعد ذلك أنهى محاضرته بما يتعلق بحركة علم الطب عند الاسبانيول وقد رأينا مناسباً نشر شهادة هذا الجراح الافرنسى الكبير للعرب فى خدمة العلم عموماً والطب والجراحة خصوصاً وفضلهم فى ذلك على العالم وقوله ان العلم العربى كان مبنيًّا على التجربة والاختبار ونظن فى شهادات مثل هؤلاء الفحول « لوكلرك » و « همبولد » و « جرمان » و « فورغ » وعدد لا يحصى من أمثالهم مقنعا لمن يريد أن يتحقق قضية فضل العرب على أوربة ويعرف هذيان أولئك الثرثارين الذين يحاولون انكار هذه الحقيقة أو يزعمون أن العرب بنوا معارفهم على « الاسلوب الغيبى » وانهم لم يكن للتجربة نصيب من علومهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا

الحركة العلمية فى الحضارة العربية

كما يصفها الفيلسوفان

ولز الانجليزى و درابر الاميركى

للامير شكيب

وممن رأى رأياً عظيماً فى الحضارة العربية الفيلسوف الانكليزى الكاتب المشهور ولز الذى يعد فى طليعة مفكرى هذا العصر . وقد سبق لنا الاستشهاد ببعض كلامه فى شأن البعثة النبوية ، وقولنا انه أصاب فى بعض الآراء لا فى جميعها. وها نحن أولاء نذكر خلاصة رأيه فى حضارة العرب . قال فى كتابه « تجربة فى التاريخ العام » فى مبحث الاسلام ما تلى ترجمته :

« قبل أن نأتى على ذكر الأتراك وعلى ذكر الحروب الصليبية الكبرى التى جعلت النصرانية تقف وجها لوجه بازاء الاسلام ، والتى جعلت كلاًّ من هاتين الملّتين تعادى الاخرى الى هذه الساعة عداوة غير معقولة ، يجب علينا أن نلحظ جيداً الحياة الفكرية التى كانت عليها الأمم الناطقة بالعربية ، والتى كانت قد بدأت تنتشر فى الاصقاع التى كانت الثقافة اليونانية مدت عليها رواقها . فنقول : انه فى القرون التى سبقت ظهور محمد كان الفكر العربى أشبه بالنار تحت الرماد . فلما انكشف عنه الرماد بالفتح الاسلامى ، لمع لمعاناً لم يعهد أن فاقه فيه الا الفكر اليونانى . وهذا فى أسنى أدواره . فجاء الفكر العربى بشكل جديد ، و بقوة جديدة ، وعالج علاجاً شريفاً تنمية العلوم الصحيحة نظير ما عالج اليونانيون. ولقد كان اليونانى أباً للعلم فجاء العربى وحل محله فى هذه الابوّة . وكانت طريقة العربى هى أن ينشد الحقيقة بكل استقامة ، و بكل بساطة ، وان يجلّيها بكل وضوح وبكل تدقيق ، غير تارك منها شيئاً فى ظل الابهام . فهذه الخاصة التى جاءتنا نحن الأوربيين من اليونانيين

وهى نشدْ ان النور انما جاءتنا عن طريق العرب ولم تسقط الى أهل العصر الحاضر من طريق اللاتين .

فانه لما فتح العرب فتوحاتهم اتصلوا بفلسفة يونان ، لا مباشرةً بل بواسطة النصارى النسطوريين الذين كانوا فى شرقى النصرانية ، وكانوا أرقى فكراً من نصارى بيزنطية المشغولين بعلم اللاهوت ، وكان سوىٌّ تثقيفهم أعلى جداً من النصارى اللاتينيين فى الغرب فهؤلاء النساطرة كانوا لعهد الفرس الساسانين أحراراً فى ثقافتهم ، وجاء الاسلام فلم ينزع منهم هذه الحرية . وكانوا قد أخذوا جانباً عظيما من طب يونان ، ثم عزّزوه بتجاربهم . ولما ظهر الاسلام ، صاروا هم الأطباء فى قصور الخلفاء . ومما لا شك فيه أن منهم من كانوا يمارسون الشعائر الاسلامية ، ولا يرون فيها حرجا على أفكارهم . وكانوا قد حفظوا جانباً من مقالات ارسطو مترجمة الى السريانية، وكانت عندهم معلومات قيمة فى الرياضيات. فماذا كانت بجانب علومهم معلومات القديس بنديكتوس مثلاً ؟ فالعرب القادمون من الصحراء بتلك العقول الذكية المولعة بالاطلاع ، اعتمدوا على هؤلاء النساطرة وتعلموا منهم وأضافوا الى ما تعلموه علوماً جديدة .

ولم يكن النساطرة هم المعلمين الذين انفرد العرب بالأخذ عنهم . بل كان اليهود فى جميع حواضر الشرق منتشرين . وكانت لهم ثقافة خاصة بهم ، وملكة راسخة فى العلوم ، فكان كل من الفكر اليهودى والفكر العربى يؤثّر فى الآخر تأثيراً عائداً للخير العام . ومن المعلوم أن اليهود هم ممتازون بسهولة تعلم اللغات ، فقد كانوا قبل الاسلام بألف سنة يتعلمون اليونانية فى الاسكندرية ، ويؤلفون بها الكتب . وهاهم الآن بعد ظهور الاسلام يتقنون العربية ويؤلفون بها . ولقد اختلط العرب باليهود بحيث لا نقدر أن نعرف فى الثقافة العربية أين ينتهى اليهودى وأين يبدأ العربى .

وكان للعرب منبعٌ آخر للعلم ، لا سيما ما تعلق منه بالرياضيات وهو الهند ، فما لا شبهة فيه ان الفكر العربى استفاد كثيراً من تلك الجهة .

ولقد بدأت مظاهر الحركة الفكرية العربية فى دور بنى أمية ، الا أنها فى دور بنى العباس آتت أشهى ثمارها . ولما كان التاريخ هو مبدأ كل فلسفة صحيحة وكبدها ، وكان الرأس والقلب لكل أدب كبير ، كان أكبر كتاب العرب مؤرخين ، ومحررى تراجم ،

وشعراء مشتغلين بالتاريخ . ولما صار التعليم عاما ولم يعد خاصًّا بطبقة دون طبقة ، ظهرت للعرب مؤلفات فى النحو والصرف واللغة لا تحصى .

فكان العالم الاسلامى سابقاً للعالم الاوربى بنحو قرن فى المدنيَّة . وكانت المدارس الجامعة فى البصرة ، والكوفة ، و بغداد ، والقاهرة ، وقرطبة ، وانبثَّت أنوارها فى العالم كله ، وقصدها الطلاَّب من المشرق والمغرب . وقد كان كثير من طلبة العلم فى قرطبة من المسيحيين . ودخلت فلسفة العرب الى أوربة من طريق أسبانية ، وظهرت فى جامعات باريز وأ كسفورد ، وشمالى ايطالية ، وأثَّرت كثيراً فى مجرى الفكر الأوربى ولا سيما فلسفة ابن رشد القرطبي (١١٢٦ — ١١٩٨) التى بلغت الذروة العليا من هذا الموضوع . وكانت فلسفة العرب مبنية على مذهب أرسطو وعلى وضع حد فاصل بين الحقيقة العلمية والحقيقة الدينية مما حرَّر المباحث العامة من رق التحريجات الدينية اللاهوتية التى كانت تعوقها سواء فى النصرانية أو فى الاسلام . ونبغ فى الاسلام فيلسوف آخر هو ابن سينا أمير الأطباء (٩٨٠ — ١٠٣٧)

وكانت الوراقة والصحافة من أزهر الصناعات فى حواضر الاسلام ، مثل دمشق ، و بغداد ، والقاهرة ، والاسكندرية . وفى سنة ٩٧٠ (مسيحية) بلغ عدد المدارس الحرَّة التى تأسست لتعليم الفقراء مجاناً فى قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة .

قال « تاتشر » Tatcher و « شفيل » Schwil فى تاريخ أوربة العام : ان العرب انما بنوا فى العلوم الرياضية على أساس اليونانين ، وأما أصل الأرقام التى يقال لها الأرقام العربية فلا يزال غامضا . وقد كان « بويتيوس » فى زمان تيودوريك الكبير (ملك القوط الشرقيين الذى كان فى ايطالية) استعمل بعض اشارات تشبه الأرقام التسعة التى نحن نستعملها الآن . وكان أحد تلاميذ « جربرت » يستعمل أيضاً اشارات أشد مضاهاة لأرقامنا الحاضرة . وأما الصفر فبقى مجهولاً الى القرن الثانى عشر (المسيحى) اذ اخترعه عربى اسمه محمد بن موسى كان أيضاً هو أول من استعمل الاشارات للكسور ، وجعل للأرقام قيمة متعلقة بمواضعها . ولم يزد العرب شيئاً فى الهندسة على ما قرره اقليدس الا أن الجبر علم هم الذين انفردوا بوضعه . وكذلك أوسعوا علم مساحة المثلثات الكروية ، واخترعوا « الجيب » و « الخط المماس للدائرة » وكان لهم فى الطبيعيات اختراع رقاص

الساعة ، وكتبوا فى علم المرائى ، وتقدموا كثيراً فى علم الفلك ، و بنوا المراصد الفلكية ، وأحدثوا الآلات اللازمة لهذا العلم ، والتى لا تزال معتمد النـاس الى اليوم . وهم الذين حسبوا زواية سمت الشمس ومبادرة نقطة اعتدال الليـل والنهار . فكانت معارفهم الفلكية واسعة فعلاً .

وأما فى الطب فقد بلغوا شأواً فاتوا فيه اليونانيين بكثير . وقد درسوا الفسيولوجيا وعلم الصحة ، وكانت طرق طبهم العملية نظير طرقنا الحاضرة . ولا نزال نحن الى يوم الناس هذا نستعمل كثيرا من أدويتهم . وكان جراحوهم يعرفون التخدير و يعملون العمليات الجراحيـة الصعبة ، و بينما كانت الكنيسة فى أور بة تمنع ممارسة الطب وتعتمد فى شفاء الاسقام على الطقوس الدينية لا غير ، كان العرب ذوى ملكة حقيقية فى الطب . وكان لهم نصيب وافر من علم الكيمياء ، فقد كشفوا كثيراً من المواد التى لم تكن معروفة كالكحول ، والبوتاس ، ونيترات الفضة ، والسليمانى ، وكثيراً من الحوامض . وأما من جهة الصناعة فكانوا أرقى من وجد الى ذلك الوقت يتفنّون فى صنع ما يريدونه فى الذهب والفضة والنحاس والقصدير والحـديد والفولاذ . وكانوا يصنعون الزجاج والخزف الفاخر و يعلمون جميع أسرار الألوان و يتقنون الصباغة ، و يعملون الكاغد للكتابة و يهيئون الجلود بصور متنوعة ، وكانوا يصنعون أنواع الأشربة ، و يستخرجرن السكر من القصب . ثم انه كانت لهم القدم الراسخة فى الزراعة يجرون فيها على طريقة علميـة ، وكانت لهم أساليب راقية فى الريّ (١) ومعرفة بخواص الأسمدة ، وكانوا يلائمون بين الحبوب وطبيعة الأراضى ، و يعلمون من أصناف التطعيم فى الفواكه والأزاهر ما لا يعلمـه سواهم ، وهم الذين أدخلوا الى أور بة أشجاراً ونباتات لم تكن تعرفها ، وحرروا فى علم الزراعة كتباً قيّمة .

ومن أهم ما أتقنه العرب ، وكان له أعظم تأثير فى الحركة الفكرية البشرية ، صنعة الكاغد . والذى يظهر أن العرب أخذوها عن الصين وألقوا بها الى الاور بيين . وقد كانت الكتابة الى ذلك الوقت على الرق والبردى . ثم لما فتح العرب مصراً انقطع و رود البردى

(١) ولا تزال طرق الرىالعربية هى الجارية فى أسبانية الى اليوم لم يزيدوا عليها شيئا

الى أوربة ولهذا تأخرت المدنية الاوربية قرونا عن سائر المدنيات فانه بدون ورق للكتابة يستحيل أن تنتشر المعارف انتشاراً مذكوراً »

وختم ولز فصله عن حضارة الاسلام بجملة نستجلب اليها أنظار القراء ولو كانت الحقيقة التى فيها مؤلمة

قال :

« ان كل هذا النشاط الفكرى حصل فى العالم الاسلامى فى وسط الاضطراب السياسى والقلق فان العرب لم يوفقوا فى وقت من الأوقات الى نظام حكومى ثابت آمن غوائل الاضطراب والانقلاب ، بل جميع الحكومات التى أسسوها كانت مطلقة عرضة للزلازل والمكايد والغيلة والعوارض التى هى من لوازم كل حكومة مطلقة التصرف »

قال :

« الا أنه برغم هذه الهزاهز المستمرة ، وهذا القتل الذى يكاد يكون متصلاً ، وهذه الفتن الطويلة العريضة بين الأحزاب ، كان لروح الاسلام نظام خاص ، مطّرد بادى التأثير فى حياة الأمة ، ماسك بحجزاتها عن التهوّر . ولقد عجزت السلطنة البيزنطية عن زعزعة أركان المدنية الاسلامية . وطول ما كان التركى غير متصرف بأزمّة الاسلام ، كانت حياة الاسلام الفكرية غضة . ولعل الاسلام كان فى ذات نفسه مغتبطاً بأن تكون حياته العقلية مستمرة مطردة برغم ما كانت عليه حياته السياسية من التخبط والتهور »

ولقد ذهب ولز الى أن الاسلام كاد يفتح العالم أجمع لو بقى سائراً سيرته الأولى ، ولو لم تنشب فى وسطه من أول الأمر الحرب الداخلية . فقد كان هم عائشة أن تقهر عليا قبل كل شىء . وقد كان همّ كل من الفريقين العلوى والأموى أن يستولى على الخلافة قبل همه فى بسطة الاسلام فى الأرض ، الى غير ذلك من الآراء التى نجدها فى أكثر كتب المحققين من علماء التاريخ والتى لا نقدر مع الأسف أن نقول انها غير صحيحة .

***

ومن أعظم المؤلفين الذين أجادوا فى موضوع اسلام العلامة « درابر » الأميركى المشهور صاحب كتاب « اختلاف العلم والدين » فقد كتب كتابا نادر المثال فى تاريخ الحركة الفكرية العلمية فى العالم ، وما كان بازائها من العقائد والأديان وما وقع من

المصارعة بين المبدأ العلمى والمبدأ الدينى .

وكنت اطلعت على هذا الكتاب اذ كنت فى الثامنة عشرة من العلم وأجمعت ترجمته الى العربية ، ثم أنجزت ذلك نقلاً عن نسخته الافرنسية التى كان يسهل علىّ الترجمة عنها أكثر من النسخة الانكليزية . ثم انى لأجل زيادة التدقيق والضبط أطلعت عليها العلامة الشهير أستاذ أساتيذ العصر الدكتور ڤانديك ، الذى كان لى عليه تردّد كثير ، وكان له نحوى ميل شديد وكنت ممن يستضىء بآرائه . فالدكتور ڤانديك والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده طيب الله ثراهما ، هما اللذان صححا عزمى على ترجمة هذا الكتاب ، وباشرت ذلك وصرت آتى من الترجمه الى الدكتور بكراس كراس ، وهو يطالعها ويراجعها ويصحح ما يراه محتاجاً الى التصحيح . وقد كان تصحيحه للألفاظ العلمية والاصطلاحات الفنّية التى لم أكن لذلك العهد أركن الى نفسى فيها . ولا تزال تصحيحات الدكتور ڤانديك بخط يده على حواشى المخطوط . وان يسّر الله طبع هذا الكتاب فسأطبع عبارات تصحيحه كما كتبها هو أى منذ ٤٣ سنة . ولقد شهد لى الدكتور يومئذٍ بصحة الترجمة وقال لمن سأله عنى فيها هكذا : « جاء بالصنعة »

وانى لناقل الآن بالحرف قول العلامة « درابر » من كتابه المذكور تحت عنوان : « الفصل الرابع : فى تجدد العلوم فى الجنوب » مترجماً بقلمى القاصر منذ ثلاث وأربعين سنة مصححا بقلم الدكتور العلامة الأشهر ڤانديك الاميركانى عفا الله عنه وجزاه خيراً :ـــ

« قال الامام على: لاحظت كثيراً فى مدة حياتى الطويلة أن الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم . ولعمرى ان هذه الملاحظة الفلسفية البعيدة المرمى التى أتى بها صهر محمد ، لهى عين الصواب . فانه مهما كانت ملامح المرء وتقاطيعه دالة على نَسَبِهِ فان البيئة التى يوجد فيها لهى منشأ طبيعتهِ الفكرية وحد وجهتهِ العقلية . ولما فتح عمرو بن العاص نائب الخليفة عمر ، أرض مصر ، وضمّها الى المملكة العربية ، وجد فى الاسكندرية نحويّا يونانياً اسمه يوحنا فيلوبونوس ، ومعناه « محب الشغل » فحصلت بينهما مودة ، ورغب هذا الرجل الى عمرو أن يتخلّى له عن بقية المكتبة الكبرى ، ممّا لم يكن أخنى عليه الدهر ، ولا ذهب به التعصب ولا أفنته الحروب . فاستأذن عمروٌ الخليفة فى ذلك فأجابه :

« هذه الكتب اما أن تكون موافقة للقرآن ، أومخالفة له ، فان كانت موافقة فنحن

فى غنى عنها ، وان مخالفة فهى ضارة وواجب احراقها » فوُزعت على حمامات الاسكندرية و بعد ستة أشهر لم يبق شئ منها (١)

ومهما وقع من المراء فى هذه المسئلة فما لا شك فيه صدور هذا الأمر عن الخليفة ، لأن عمر لم يكن من الطبقة المشتغلة بالعلوم ، ولم تكن الجماعة التى حوله الا من الرجال المتحمسين فى الدين الذين ليس لهم هوس بشئ آخر . فعمل عمر قد حقق ملاحظة على . ولا ينبغى أن يظن أن الكتب التى كان طمع فيها « محب الشغل » كانت كتب الخزانة الكبرى المنسوبة الى البطالسة ، والى أومانوس ملك برغام ، بل كان قد مضى الف سنة على العهد الذى ابتدأ فيه فيلادلفيوس بجمع كتبه . وكان يوليوس قيصر قد أحرق أكثر من نصفها . وكان بطارقة الاسكندرية قد سعوا سعياً حثيثاً فى احراقها . وقد روى أوراسيوس أنه كان قد شاهد قمطرات المكتبة فارغة ، قبل ان صدر أمر الامبراطور لتاوفيلوس عم القديس كيرلس ، باحراق الكتب بمدة عشرين سنة . وعلى فرض عدم جريان هذه الأحوال . على هذه المكتبة ، فان طول الاستعمال ، وكثرة الممارسة ، وما هناك من العوارض والحوادث اليومية ، والسرقات على طول مدة عشرة قرون متوالية ، لمن الأسباب التى تخنى على كثير من موجود المكتبة . ولا جرم أن يوحنا النحوى لم يكن له طاقة بنصف مليون مجلد . ولم يكن ليقدر أن ينفق عليها انفاق البطالسة والقياصرة . هذا وان المدة التى زعموا استغراق الحريق اياها لا ينبغى أن تكون قاعدة للحساب ، فان ورق البردى سهل الوقد ، ولكن الرق لا يتقد بسهولة ، ولهذا لم يكن الحاميّون يؤثرونه ماوجدوا غيره . وقد كان القسم الاكبر من كتب مكتبة الاسكندرية من الرق المذكور .

وأصح وأوثق من احراق عمر لمكتبة الاسكندرية ، احراق الصيلبيين لمكتبة طرابلس الشام التى قيل انهم وجدوا فيها نحواً من ثلاثة ملايين مجلد . فقد كانت المسئلة دينية من الجانبين . ويقال ان الصيلبيين لما دخلوا القاعة الأولى من المكتبة الطرابلسية ، لم يجدوا الا المصاحف ، فظنوا الأمر كذلك فى سائر القاعات فاضرموا النار فى الجميع . وليعلم ان خبر هاتين الواقعتين لا بد أن يكون وقع فيه شئ من المبالغة . ولكن لا بد أن

(١) كتب الدكتور فانديك على حاشية هذه الجملة : هذه القصة حكاها غريغوريس أبو الفرج وعليها رد ، وعلى كل يشك بها

يكون له أصل من الصحة . وهكذا لا يزال التحمس الدينى له هذه الأمثال . أفلم يحرق الأسبانيول فى المكسيك قطع الكتابات الهيروغليفية تلك الخسارة التى لاتعوض. أفلم يحرق الكردينال كسيمينس فى ساحة غرناطة ثمانية آلاف كتاب عربى ، قسم كبير منها تراجم للعلماء والمؤلفين(١)

ولقد رأينا تأثير الحروب فى انتشار العلوم لعهد البطالسة وما أيقظته غزوات الاسكندر للفرس من الهمم فى طلبها ، وقد كانت النتيجة نفسها لغزوات المسلمين.

ومن الصداقة التى انعقدت بين عمرو بن العاص ، ويوحنا النحوى ، يظهر لك مقدار ميل العرب بطبيعتهم الى حرية الفكر . فانهم ماخرجوا من وثنية الجاهلية الى التوحيد المحمدى حتى استعدت قرائح جميعهم للعلوم الفلسفية ، والفنون الأدبية ، وكان نساطرة سورية ، ويهود مصر ، هم ألذين ينهجون لهم السبيل لذلك . ولقد كنا أشرنا الى ما أصاب نسطور وأصحابه من الانتقام بسبب قولهم بوحدانية الخالق ، تبارك وتعالى ، وانكارهم وجود سماء ذات آلهة والهات ، وقولهم نعوذ بالله من الاعتقاد بملكية السموات مريم العذراء .

***

فهذه العقائد التى كان عليها النساطرة ، سهلت جداً علائقهم مع المسلمين . ولم يكتفِ هؤلاء من مودتهم بمجرد المجاملة ، بل قلدوهم المناصب فى المملكة . وكان النبى نفسه يوصى بهم خيراً . وكذلك الخليفة عمر . وكانت لهما عهود بحسن معاملتهم . ثم فى دور العباسيين وضع هرون الرشيد دور العلم العامة تحت نظارة يوحنا بن ماسويه (٢) وزد على

(١) الذى قرأته في بعض كتب الاسبانيول ان الذى أحرقوه فى غرناطة من الكتب العربية أكثر من هذا العدد بكثير قيل مائة الف كتاب وقيل أكثر وانهم أحرقوا كل الكتب بدون استثناء ، سوى كتب الطب والطبيعة والحساب

(٢) قال فى طبقات الاطباء : كان يوحنا بن ماسويه مسيحى المذهب ، سريانياً ، قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد بانقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون ووضعه أميناً على الترجمة وخدم هرون والأمين والمأمون وبقى على ذلك الى أيام المتوكل . وكانت بنو هاشم لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم الا بحضرته

النساطرة اليهود ، فان هؤلاء عند ما مالت النصرانية الى الأخذ عن الوثنية ثم دخلت فيها عقيدة التثليث ، ازداد نفورهم من النصرانية ، ولم تزدهم القرون الطويلة التى مضت عليهم بالمصائب والنكبات الا استمساكا بعقيدتهم التوحيدية ، ومقتاً للمبادئ الوثنية التى أُشربوا كراهيتها أيام أسرهم فى بابل . فترجموا هم والنساطرة مؤلفات كثيرة يونانية ولاتينية الى السريانى، ثم نقلت هذه الكتب الى العربى وسار النساطرة يعلمون أولاد أمراء الاسلام واليهود أطباء لهم .

وهذا الائتلاف كسر من سورة التعصب الاسلامى ، ودمّث من أخلاق المسلمين ، وأعلى من مستواهم الفكرى ، فجابوا ممالك الفلسفة والعلم بأسرع مما جابوا ولايات المملكة الرومانية ، وعدلوا عن الافكار العامية الى الحقائق العلمية

والحاصل أنه فى ذلك العالم التى أغارت عليه الوثنية ، لم يقم آخذاً بثأر الوحدانية الالهية الا سيف المسلمين . ومما أعان كثيراً على حصول هذه النتيجة عقيدة القضاء والقدر التى فى القرآن « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيّدة »

وقد قال على : لا ريب فى أن جميع أعمال العباد هى بيد الله وحده . فالمسلمون الحقيقيون هم الذين يخضعون لمشيئة الله فيوفقون بين الاختيار المطلق ، وسبق قضاء الله قائلين : « قُدّر علينا القضاء وعلينا وضع ألوانه » ويقولون : « اذا شئنا التسلُّط على قوى الطبيعة لم يلزمنا أن نحاول مقاومتها رأساً ، ولكن تعديل القوة الواحدة بالاخرى» . فهذه العقيدة هيّأت ذويها للقيام باكبر الأعمال فتبدّلت باليأس الاتكال ، واحتقرت الآمال « اليأس حُرّ والأمل عبد »

على أن خوض الغمرات أظهر للمسلمين أن فى الطب مع ذلك تخفيفاً للآلام . وفى الجراحة ضمداً للجروح . وان الذين أشفوا على الهلاك يمكنهم بواسطة العلم أن يعودوا (باذن الله) الى الحياة . وتقرر أن للاختيار المطلق مدخلاً عظيماً فى الحياة الشخصية ، وان الانسان يمكنه الى درجة معلومة أن يصور بأعماله الاختيارية اقدار نفسه ، أما الجماعات فليس لها ضمان شامل ، وانما تحى فى ضمن مملكة النواميس الثابتة

وكان الخلاف بين المسيحية والمحمدية فى هذا المقام عظيما . لأن المسيحى كان مؤمنا بدوام التدخُّل الالهى ولم يكن يعتقد بناموس أزلى أبدى يدور عليه الكون ، وكان يرجو

« م ١٠ — اول »

بصلواته تغيير سير الأشياء ، وان لم تكن صلواته مما يستجاب فبصلوات مريم العذراء والقديسين ، وبحرمة الذخائر المقدسة . وكان اذا رأى صوته ضعيفاً التمس ذلك من الكهنة والاشخاص المشهورين بالتقوى ، وأضاف الى صلواتهم الهدايا والنذور والصدقات . وكانت النصرانية بأسرها تعتقد بامكان انقلاب العالم بحذافيره بواسطة الخوارق والمعجزات . فاما الاسلام فكان بالعكس ، معتمداً على التسليم الطاهر للارادة الالهية . فكانت صلاة المسلم عبارة عن الشكر لله تعالى على ماقدره للعبد وصلاة المسيحى تضرعاً لأجل الانعام بالخيرات المرتجاة وكلاهما اعتاض بالصلاة عن رياضات الهنود واستغراقاتهم فى التأمل . فليس الوجود عند المسيحى الا سلسلة حركات فجائية وحوادث قد تجئ متناقضة بتأثيرالصلوات والقداسات التى تتجاذبها . وليس الوجود عند المسلم الا سلسلة مفاعيل وعلل آخذ بعضها برقاب بعض . فما حركة جسم من الاجسام عند المسلم الا نتيجة حركة سابقة ، وما الفكر عنده الا وليد فكر آخر . ولكل حادث تاريخى عنده منبع فى حادث قبله ولكل عمل بشرى أصل فى عمل آخر . ولم يحدث فى العالم الانسانى شئ الا وقد أُعِدّ من قبل . فهناك تسلسل منطقىّ مطرّد . وان القضاء هو أشبه بسلسلة من حديد كل حادث فيه بمثابة حلقة منها . وهذه الحلقة قد وضعت موضعها منذ الأزل ونحن جئنا الى الدنيا ولا علم لنا ونخرج من الدنيا رغم ارادتنا فلم يبق علينا الا أن نكون منتظرين

وما عدا هذا الرأى بشأن سير الحياة البشرية ، جدّ عند المسلمين رأى آخر بشأن تكوين العالم العضوى . فقد كانوا فى الاول يفهمون من ظاهر القرآن ان الارض رقعة مسطحة مربعة الزوايا ، محاطة بجبال عالية ، وهذه الجبال هى التى تنوط الارض بقبة السماء وتحمل الفلك أيضاً (١) فيجب أن نتأمل تأمل الزهاد فى هذه القدرة الالهية التى بسطت هذه الرقعة الفسيحة المتلألئة التى لا نجد فيها خللاً ولا سقطاً وفوقها السبع الطباق ، وفوق السبع الطباق الله تعالى مستوٍ على عرشه ، تحت صورة رجل عظيم القامة الى النهاية ، عند رجليه ثيران ذات أجنحة نظير ملوك أثور الاقدمين (٢)

---

(١) انما يصدق كلام درابر هذا على أفكار العوام من المسلمين ومن المعلوم ان أفكار العوام لا يعبأ بها .

(٢) وهذا أيضاً كلام عوام بل أكثر العوام لا يقبلونه وقد وجد فى الاسلام فرق قليلة مجسمة الا أن تجسيمها مقرون بعدم تشبيه صفات البارى تعالى بصفات البشر وبان الكيف مجهول

وهذه الافكار لم تكن خاصة بالمسلمين بل وجدت عند غيرهم . وهى مما ينشأ عند الانسان فى بعض أطوار نموه . ولم يطل أجلها فى الاسلام ، بل تبدّل بها المسلمون أفكاراً علمية صحيحة . وكما جرى فى البلدان المسيحية لم يتم هذا الأمر بدون مقاومة حماة المبادئ الدينية . فان المأمون لما عرف كروية الارض أصدر أمره لمن كان عنده من الرياضيين بقياس درجة من الدائرة الارضية ، فقام بعض علماء الدين وعدّوا ذلك فسقاً وخروجا عن الدين ، وأرادوا أن يثيروا العامة عليه ، لكن المأمون لم يبال ماقالوه وثبت فى عمله وأمر فجرى القياس على شواطئ البحر الاحمر وفى سهول سنجار بواسطة الاسطرلاب . وتقرر ارتفاع القطب فوق الافق بمنزلتين مسافتهما درجة على دائرة نصف النهار ، ثم قاسوا بعد المسافة بين المنزلتين فوجدوها مائتى الف ذراع هاشمى فحصل من ذلك لدائرة الارض أربعة وعشرون الف ميل انكليزى . وهو حساب لم يكن بعيداً كثيراً عن الحقيقة

وأمر الخليفة ، استزادة من العلم واستقصاء فى التحقيق ، باجراء قياس آخر بقرب الكوفة فانقسم الفلكيون المأمورون بهذا الامر الى فرقتين ، كل منهما سارت من نقطة معينة فقاست قوس درجة واحدة ، احداهما فى نحو الشمال والاخرى فى نحو اليمين ، ومن ثمة اتصلوا الى نتيجة معلومة . فان كان الذراع الذى جعلوه مقياسا هو الذراع السلطانى فيكون طول الدرجة ثلث ميل . ومن هنا استدل الخليفة على كروية الارض

***

ومما ينبغى التنبيه عليه ان التعصب الدينى فى الاسلام لم يلبث أن أذعن لحرارة البحث العلمى ، و بعد ان كان القرآن فى ظاهر الحال حاجزاً دون تقدم العلوم صار هو الكتاب الكفيل بأعظم الاعمال الممكنة ، وأصبح دليلاً على صحة الدعوة المحمدية(١)

---

(١) انه مما تقضى به أمانة النقل ان أثبت هنا ما كتبه الدكتور فانديك بخطه فى حاشية هذه العبارة فقد قال : ان القرآن يوافق الترفض مع المترفضين وفيه مهرب أو مهارب لمن طلب العلوم . ولا نقدر أن نوافق الدكتور فانديك مع جلالة قدره علي كون القرآن وافق فى شئ من الأشياء علي رفض العلم ، كما اننا لا نقدر أن نوافقه علي كون الأماكن الكثيرة الصريحة التى حث فيها القرآن علي طلب العلم وعظم فيها الحكمة هي مما يقال له مهرب أو مهارب ينفذ منها طالب العلم . اننا لا نقدر أن نؤول هذا القول من العلامة فانديك الا اذا تذكرنا انه كان قسيساً بروتستانتياً ، وان الشهادة الصريحة للقرآن لا تسهل على ذي مقام رسمى فى الكنيسة الا انه مما يجب التنبيه عليه أيضاً ان العلامة فانديك مر بجميع مافاله درابر بحق الكنيسة بدون أن يعلق أدنى اعتراض

انه بعد انتقال النبي الى ربه بنحو من عشرين سنة . تنبهت الأفكار واتسعت الاختبارات بما جرى من فتح سوريا وآسيا الصغرى ومصر ، وشرع الخليفة علىّ ينشط العلوم ، ويروّج سوق المعارف الأدبية ، كما ان معاوية رأس الأمويين قلب صورة الحكم ، فصيّره ارثيًّا بعد أن كان انتخابياً . ونقل كرسى الخلافة من المدينة الى دمشق وهو موقع أحسن توسطا وأمكن مركزا وأدخل فى موكبه الزينة والابّهة وكسر قيود التعصب الشديد وأحب العلم وأهله . وكان أحد مرازبة الفرس قد جاء لينظر عمر بن الخطاب فى المدينة فبصر به مضطجعاً أمام جامع المدينة ، بين المساكين ، ولو دخل على معاوية كما كان يدخل سفراء الملوك لرآه فى قصر فاخر باهر الرياش مزخرف النقوش العربية بين الحياض والأزاهر

ولم يمض نصف قرن على وفاة محمد حتى نقلت الكتب اليونانية المشهورة الى اللسان العربى ، كما انها ترجمت المنظومات الشعرية كالالياذة ، والأوديسا الى اللغة السريانية وخُصت هذه باستعمال العلماء دون غيرهم لما كان فيها من الأخبار الميتولوجية المنافية للعقائد الاسلامية . ثم نقل الخليفة المنصور (٧٥٣ – ٧٧٥) قاعدة ملكه الى بغداد وصيّرها عاصمة زاهية زاهرة ، وقضى كثيراً من أوقاته فى درس علم الفلك ، وشاد مدارس طبية وفقهية . واحتذى على مثاله حفيده هارون الرشيد (٧٨٦) فاصدر أمره باضافة المدارس الى المساجد فى كل أقطار المملكة ، لكن عصر العلم السعيد انما كان فى خلافة المأمون الذى جعل دار السلام حاضرة العلم الكبرى وجمع خزائن كثيرة للكتب وعكف على مدارسة العلماء ومثافنة الحكماء . وقد بقى هذا الذوق المكتسب عند خلفاء العرب الى مابعد انقسام المملكة العربية الى أقسامها الثلاثة فكان العباسية فى آسية والفاطمية فى مصر والأموية فى اسبانية لايتنازعون الرياسة الدنيوية فقط ، بل يتناظرون فى العلوم والمعارف والآداب ويتسابقون فى ميدانها .

وكان العرب فى الأدب عارفين بجميع الفنون التى تشحذ الفكر وتهذب العقل ، وتروض الخاطر : وحق لهم الفخر فيما بعد بأنه نبغ فيهم من الشعراء والأدباء أكثر مما نبغ فى جميع الأمم معاً . وأما تفوقهم فى العلوم فقد كان بالطريقة التى تلقوها عن يونان الاسكندرية ، وليس عن يونان اوربة ، وذلك انهم أدركوا ان مجرد التأمل بعيد عن أن

يبلغ بالانسان الغاية المقصودة ، وأن هذه الغاية لاتنال الا بمراقبة الأمور واختبار الأشياء أى الطريقة التجريبية . وكانوا يرون الجبر والرياضيات آلات للمنطق ، ويلحظ من تآليفهم الكثيرة فى جر الأثقال (الميكانيك) وعلم موازين السوائل (الهيدروستاتيك) وعلم البصريات ، أن حلهم للمسائل العلمية كان دائماً بطريقة الاختبار المباشر أو بالمراقبة الآلية . وهذا هو السبب فى وضع العرب لعلم الكيمياء ، واختراعهم عدة آلات للتقطير والتصعيد والتذويب والتصفية . وكذلك هو السبب فى استعمالهم فى مراقبة الفلك الآلات المدرّجة كالربوع الجيبيّة والأسطرلابات . وقد استخدموا فى الكيمياء الميزان الذى أتقنوا معرفة قاعدته وأنشأوا جداول للثقل النوعى . ولهم الزيجات الفلكية الشهيرة مثل زيجات بغداد ، وقرطبة ، وسمرقند ، وكان ذلك من أعظم وسائل نجاحهم فى الهندسة والمثلثات ، وتوصلهم الى ابتكار علم الجبر ، واتخاذ طريقة الرقم الهندى (١) وذلك كلّه نتيجة اتباع العرب مذهب ارسطو فى الفلسفة دون مذهب أفلاطون لأن الأول تفصيلى والثانى اجمالى .

واعتنى العرب كثيراً بجمع الكتب و بنوا لها الخزائن العظيمة ، وقيل ان المأمون استجلب الى بغداد مقدار مائة حمل جمَل من الكتب . وكان من جملة شروط معاهدة له مع الامبراطور ميخائيل الثالث ، أن يتخلى له عن احدى مكاتب القسطنطينية . وكانت وُجدت فى بعض الخزائن رسالة بطليموس فى الرياضيات السماوية فأمر المأمون بنقلها الى العربية باسم المجسطى . ومازال المأمون يُعنى بأمر المكاتب حتى كانت خزانة كتب القاهرة تشتمل على أزيد من مائة ألف مجلد جيدة النسخ والتجليد . وكان منها ستة آلاف وخمسمائة مجلد فى فنى الطب والفلك لاغير . وكان قانون هذه الخزانة لايمنع اعارة الكتب للدارسين المقيمين بالقاهرة . وكان فيها كرتان احداهما من الفضة الصلبة ، والأخرى من النوع المسمى بسكب الرمل ، يقال ان الاولى من صنع بطليموس و بلغت قيمتها ثلاثة آلاف دينار . ثم مكتبة خلفاء اسبانية وكانت تشتمل على ستمائة ألف مجلد وكان برنامجها وحده فى أربعة

(١) قد كتب الدكتور فانديك بخطه فى حاشية هذه العبارة مايلى : هذا خطأ لأن العرب لم يخترعوا الجبر بل أخذوه عن الهنود كما أخذا منهم الأرقام الهندية . والحقيقة ان هذا رأى من الآراء وقد تقدم لنا نقل كلام عدة من علماء الاوربيين الذين يذهبون الي كون الجبر من اختراع العرب

وأربعين مجلداً ، وكان ماعداها فى الأندلس سبعون خزانة عامة للكتب وكثير من الخزائن الخاصة . ويقال ان أحد العلماء رفض يوما دعوة سلطان بخارى للاقامة ببلاطه ، معتذراً بانه يلزمه لنقل كتبه لا أقل من أربعمائة جمل (١)

وكان فى جميع هذه المكاتب الكبيرة أماكن للنساخة والترجمة بل كان مثل ذلك فى المكاتب الخصوصية فان حنين بن اسحاق الطبيب النسطورى كان اتخذ لنفسه فى بغداد مقاما من هذا النوع (٨٥٠) وترجم ارسطو وأفلاطون وابقراط وجالينوس . وأما فى التآليف الأصلية فكانت عادة الأساتيذ القاء المواضيع على الطلبة ، ثم جمعها رسائل . وكان عند كل خليفة من الخلفاء رواة وقصاصون ، وناهيك بقصصهم التى منها الف ليلة وليلة ، دليلا على ماأوتى العرب من قوة التصور . وعمّ التصنيف جميع الفنون والمواضيع كالتاريخ والفقه، والسياسة ، والفلسفة ، وتراجم الرجال ، وأوصاف الخيل والجمال ، وكانت جميعها تنتشر بدون معارضة الدولة . ولم يحدث الأمر بشأن كتب العقائد ومنع بعضها الابعد ذلك بكثير . وكان العرب يتأنقون الى الغاية فى الورق وألوانه ، والحبر وأنواعه ، ويزينون فواتح الكتب ، ويموهون منها بالذهب على أنواع وأشكال لاتحصى .

فامتلأت المملكة الاسلامية فى مدة قصيرة بالمدارس والمكاتب من بلاد المغول شرقا الى مراكش واسبانيا غربا ، وارتفع فى الطرف الشرقى من هذه المملكة التي كانت تفوق المملكة الرومانية فى مساحتها مرصد سمرقند ، وفى الطرف الغربى منها مرصد الخالدة فى اسبانية (٢)

قال جيبون فى كلامه على ما كان من تنشيط العرب للمعارف : ان امراء المقاطعات كانوا يناظرون الخلفاء فى محبة العلم ، وبسعيهم انتشر العلم من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . وقد أنفق أحد الوزراء مائتى ألف دينار على بناء مدرسة فى بغداد ، أجرى عليها خمسة عشر ألف درهم سنوياً ، وكانت هذه المدرسة عمومية يقرأ فيها ستة آلاف طالب ،

(١) هذا هو الصاحب بن عباد كان وزيراً لمؤيد الدولة ابن بويه ، ولاخيه فخر الدولة بعد مؤيد الدولة . وكتب اليه الملك نوح بن منصور الساماني يعرض عليه الوزارة فى مملكته فأجابه معتذراً وكان من جملة أعذاره استلزام نقل كتبه لاربعمائة جمل

(٢) هو الذى يسميه الاوربيون بالجيرالده فى اشبيلية

يدرسون معا من ولد السيد الرفيع الى ولد الصانع الوضيع وكانوا يُجرون النفقات على التلاميذ الفقراء ، ويؤدون الرواتب الجة للعالمين (١) وكنت ترى العلوم والآداب رائجة الأسواق فى جميع المدن والأمصار ، وكانوا كثيراً مايعهدون بادارة المدارس الى النساطرة واليهود مما يدل على روح التسامح لذلك العهد فلم يكونوا ينظرون الى وطن العالم ، ولا الى دينه بل الى جهة فضله . وكان الخليفة المأمون يقول عن العلماء : انهم صفوة الله فى خلقه ، ونخبته من عباده ، صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة ، فكانوا مصابيح الدجى وسادة البشر ، وأوحشت الدنيا لفقدهم .

واقتدت جميع المدارس الطبية العربيــة بمدرسة القاهرة فى تشديد الامتحان على المخرجين منها ، فلم يكونوا يأذنون بممارسة الطب الا لمن أتقن التحصيل ، وامتحن امتحانا تاما ، وأول مدرسة طبية فى اوربا اقتدت بمدارس المسلمين مدرسة ساليرنا . ولعلنا نخرج عن حدود هذا التأليف لو شئنا تفصيل هذه الحركة العلمية التى وُجدت عند العرب . فانهم وسعوا نطاق العلوم القديمة ووضعوا علوماً جديدة ، وأدخلوا طريقة الهند الحسابية ، وهى من الاختراعات العقلية البديعة لاشارتها الى الأعداد بأرقام عشرة ذات قيمتين ، المستقلة والنسبية ، ولتيسيرها قواعد بسيطة لجميع الحسابات . وأما الجبر أو الحساب المعمَّم الذى موضوعه الكميات غير المعروفة ، والبحث عن علائق الكميات من أى نوع كان حسابياً كان أو هندسياً فقد أخرجوه من ضمن الحدود التى كان حصره فيها ديُوفانتُوس . و بسط محمد بن موسى حل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية ، وعمر بن ابراهيم حــل المعادلات الجبرية من الدرجة الثالثة . والمسلمون هم الذين أوصلوا علم المثلثات الى صورته الحالية ، واعتاضوا بالجيوب عن الأوتار وجعلوه علماً مستقلاً . ومحمد بن موسى الذى ذكرناه هو بعينه مؤلف رسالة المثلثات الكروية . وللبغدادى رسالة فى مساحة الأراضى فى غاية الابداع حتى ظن كثيرون انها نسخة من بعض تآليف اقليدس . وأما فى الفلك فلم ينشئ العرب ازياجاً فقط ، بل رسموا صفائح للنجوم المنظورة وسموا النجوم الكبرى التى فى الكرة السماوية بالاسماء التى تعرف بها اليوم ، وقاسوا مساحة الأرض وطول الدرجة كما تقدم الكلام

(١) يشير درابر هنا الى المدرسة النظامية التى شادها الوزير نظام الملك فى بغداد وشهرتها غنية عن التعريف

عليه ، وفصلوا مسألة انحراف دائرة البروج عن خط الاستواء ونشروا صفائح مرسومة عليها حركة القمر والشمس وهى صحيحة . وقرروا مدة السنة الشمسية وحققوا حركة مبادرة الاعتدال .

وقد أطنب « لابلاس » فى ذكر رسالة علم النجوم تأليف البتّانى وذكر رسالة أخرى جليلة لابن يونس الذى كان فلكىّ الحاكم فى مصر سنة ألف للمسيح تحتوى على سلسلة اختبارات من زمن المنصور فى الكسوف والاعتدال والانقلاب وقران السيارات واحتجاب الكواكب . وهى مراقبات فلكية جليلة أضاءت الألباب فى مسائل تغييرات الكرة السماوية . وعكف الفلكيون العرب على اتقان الآلات الفلكية وقياس الزمان بالساعات المختلفة منها المائية ومنها الشمسية وهم أول من استعملوا لذلك الساعة الكبيرة ذات الرقاص

وأما فى العلوم التجريبية ، فهم الذين وضعوا علم الكيمياء وكشفوا خواص الجواهر التى يتوصل بها الى معرفة طبائع الأجسام ، والحامض الكبريتيك ، والحامض النيتريك ، والكحول ، وجعلوها فى الطب . وهم أول من استعملوا الأقرباذين ، وافتتحوا الصيدليات المجانية وجعلوا فيها المستحضرات المعدنية . وأما فى الميكانيك ، فعرفوا قاعدة سقوط الأجسام وقليلا من الجاذبية . وكان لهم علم بالديناميك أى حركة الأجسام وأنشأوا فى علم السوائل جداول لبيان الأثقال النوعية . وكتبوا رسائل فى الاجرام الطافية والراسبة . وعدلوا فى العلم البصرى عن القول اليونانى القديم بذهاب النور من العين الى الجسم المنظور ، الى القول بانعكاس الأشعة وانحرافها ، وكشف الخازن انحناء الشعاع المارّ بالكوة الهوائية ، محققا اننا نرى الشمس والقمر قبل وجودهما حقيقة فوق الأفق و بعد غيابهما تحته ، وظهرت نتائج هذه الحركة العلمية الكبيرة فى الصناعات فاستفادت منها الزراعة فى ريّ الأراضى وتدميلها وتربية المواشى وانتشرت للفلاحة قواعد مضبوطة فنية ، وأدخلت زراعة الارز والسكر والبن ، واتسعت أعمال المعامل فيما يتعلق بنساجة الصوف والحرير والقطن وصنع الورق والجلد فى قرطبة ومراكش ، وأسيلت الجوامد واستُخرجت المناجم وتسلطت الأيدى على أنواع المعادن وكان لمعمل السلاح فى طليطلة شهرة طائرة .

ولما كان للعرب ولوع خاص بالغناء وقرض الشعر ، قضوا كثيراً من أوقاتهم بمباشرة هـذه الملاذ العقلية ، وهم الذين عرفوا الاور بيين بالشطرنج والهبوا فيهم حب الاقاصيص . وكانت للعرب قدم راسخة فى آداب أسمى من هذه كعلم الاخلاق ، والزهد ، والنسك ، ولهم التواليف النفيسة فى زوال العَظَمات الدنيوية ، واضمحلال المجد الباطل ، وعواقبَ الكفر وأصل الكون ، و بقائه ، وانتهائه . وانا لنعجب غاية العجب مما نجده أحياناً فى كتبهم من التصورات والافكار التى كنا نظنها عصرية محدثة فاذا بهم قد سبقوا اليها . وذلك كمذهب النشوء والارتقاء فى الكائنات العضوية ، فقد كان هـذا المذهب يعلَّم فى مدارسهم وكانوا يذهبون فيه الى أبعد مما نذهب اليوم باطلاقه على الجواهر غير العضوية (١) وكان عندهم مبدأ الكيمياء الأساسى هو التركيب التدريجى فى الاجسام المعدنية قال الخازن : « ان الجهلة حينما يسمعون بتحول بعض الاجسام بطريق التكامل الى ذهب يفهمون انه مرَّ بصور الاجسام المعدنية الاخرى أى أنه كان رصاصاً ، ثم صار قصديراً ، ثم صار من نوع سكب الرمل ، ثم فضة ، الى أن انتهى ذهباً . ولا يدركون ان الفلاسفة يريدون بما يقولونه الانسان أيضاً . اذ لم يصل الى الحالة التى هو فيها الآن بالانقلاب السريع بل بالتدريج كأن مرَّ بصورة العجل ، فالحمار ، فالفرس ، فالقرد ، الى أن انتهى انساناً » . انتهى .

وقد جاء ذكر مدنية العرب أيضاً فى كتاب درابر فى الفصل السادس المتعلق بطبيعة العالم والمقايسة بين ما كان عليه الاور بيون فى القرون الوسطى وما كان عليه العرب قال :

« وقد مضى القسم الاكبر من هـذه القرون على النصرانيـة بالمنازعات على الطبيعة الالهية والاختلاف على السلطة الكنسية » . وهـذه كانت تجد كل حقيقة داخل الاسفار المقدسة فتثبط الناس عن كل بحث . واذا اتفق لزوم النظر فى مسئلة فلكية مثلاً كان يرجع فيها الى فصل للقديس اغسطينوس أو لاكتانسيوس ، ولم يكونوا يجدون حاجة الى مراقبة الاحداث الجوية . وعلى هذه الحال استمر ترجيح العلم الدينى على العلم الدنيوى مدة خمس عشرة مائة سنة اذ فى كل هذه المدة لم يولد فى النصرانية فلكى واحد

أما المسلمون فقد كان عملهم فى هذا المقام أحسن جداً ، فقد بدأوا يعتنون بالعلوم

(١) راجع مقدمة ابن خلدون

منذ افتتحوا الاسكندرية (٦٣٨) فلم يمض على ذلك قرنان حتى درسوا جميع علوم يونان وترجموا كتبهم ، وكان المأمون أمر بترجمة كتاب بطليموس الى العربية ومن بعدها قاس العرب قطر الارض ، ووضعوا جدولاً للنجوم المرئية ، وسموا الكبرى منها بالاسماء التى تعرف بها الى الآن . وقرروا مدة السنة الشمسية ، واخترعوا الساعة بالرقاص ، وكشفوا انكسار النور ، وفعله برؤية الاجرام السماوية ، وقاسوا ارتفاع الهواء الكروى ، وقرروا انه يبلغ ثمانية وخمسين ميلاً . وكذلك عرفوا مسئلة النور الشفقى وتألق الكواكب . وهم الذين بنوا أول مرصد فلكى فى أوربة . وقد صح كثير من رصدهم واعتمد عليه أبرع علماء الرياضة المحدثين . ذكر لابلاس فى كتابه « نظام العالم » ان ارصاد البتّانى تقيم الأدلة الساطعة على اهليلجية فلك الارض ، وان تحقيقات ابن يونس تثبت تغير ميل دائرة البروج على خط الاستواء وانحراف سير المشترى وزحل

كل هذا الذى نذكره ليس الا جزءاً يسيراً من الخدمة الجزيلة التى قدمها فلكيو العرب للعلم ، والعناء الذى عانوه لحل المسائل الطبيعية . هذا بينما ظلمات الجهالة مطبقة على النصرانية وأهلها لايفكر منهم أحد بهذه الأمور ، وانما عنايتهم منصرفة كلها الى المشاجرات الدينية وعبادة الصور وتحول الخبز جسداً ، والخمر دماً ، واستحقاقات القديسين والمعجزات والاعاجيب وشفاء الامراض بالذخائر المقدسة . و بقى هذا الجهل مخيما على أوربة الى غاية القرن الخامس عشر ، ولم يقع التقدم بعد ذلك الى طلب العلم من جهة حب العلم لنفسه والولوع بكشف الحقائق . ولكنه بدأ بمنافسات تجارية وظهر الرحالات الثلاثة كريستوف كولمبوس ، وفاسكو دوغاما ، وفرديناند مجلاّن ، و بأسفارهم تقررت كروية الارض .

وقد حدث كولمبوس عن نفسه بأنه انبعث الى السفر قاصداً الهند من طريق الاطلانتيك وذلك بمطالعة كتب ابن رشد . ووجد بين أصحابه رجل فلورنتى اسمه « توسكانلى » درس الفلك وجاهر بالقول بكروية الارض . ولما ظهر مشروع كولمبوس قام الاكليروس الاسبانيولى وقعد وحكم عليه مجمع طلمنكة Talamanque بالكفر وانما عرضوا مذهبه عند المحاكمة على مقالات القديسين يوحنا فم الذهب ، وأغسطينوس ، وأيرونيموس ، وغريغوريوس ، و باسيليوس ، وامبروسيوس ، ورسائل الرسل والانجيل والنبوّات والمزامير والتوراة الخ » .

هذا ما اخترنا نقله من ترجمة كتاب درابر « اختلاف العلم والدين » وهو كتاب شهير مشحون بالفوائد اذا انتدح لنا الوقت قد نعيد النظر عليه ، ونطبعه مع تعليقات العلامة الدكتور ڤانديك الذى طالع الترجمة كلها

وممن تكلم على مدنيـة العرب وأجاد واشتهر كتابه فى كل ناد ، الفيلسوف الافرنسى الدكتور غستاف لوبون الذى توفى منذ نحو شهرين أو ثلاثة عن ٩١ سنة جزاه الله عن العرب وعن الاسلام خيراً . ولقد لخّصت كتابه فى رسالة وجيزة تذكرة لنفسى ، ثم بلغنى ان الكاتب المصرى المعروف السيد محمد مسعود قد ترجم الكتاب الى العربية ترجمة تامة ، فلهذا قضلت طيّ رسالتى هذه على غرّها ، منتظراً ظهور الترجمة الكاملة .ولقد كان غستاف لوبون من الافرنج المنصفين الذين لم يدافعوا عن حضارة الاسلام فحسب ، بل دافعوا عن حقوق المسلمين وانتقدوا سياسة القهر والهضم التى تعسفهم بها الدول الاوربية المستعمرة . وقد كتب كتابات شافية فى انتقاد قومه الفرنسيس بما يعاملون به مسلمى الجزائر من الظلم، والارهاق ، ونزع الاراضى ، والتشريد الى الصحراء وغير ذلك . ولقد عرفت هذا الرجل بنفسى منذ أربعين سنة ، وذلك فى باريز اذ ذهبت اليه لاشكره على كتابه الذى كان أخرجه حديثاً عن حضارة العرب ، فقال لى وقتئذٍ انى كنت ثانى رجل مسلم جاءه وحدّثه فى هذا الموضوع ، وشكره على صنيعه . ولم تساعدنى الاقدار على ملاقاته أكثر من تلك المرة ولكنى كنت أتتبّع كتاباته وأتمتّع بتصانيفه الكثيرة المفيدة وهو من الفلاسفة الاجتماعيين المعدودين فى هذا العصر

العصبية الفارسيه والاسلام

مهيار الديلمى وبديع الزمان الهمذانى

على ذكر المؤلف استيلاء العرب على فارس

الأمير شكيب

يذهب بعضهم الى كون استيلاء العرب على فارس واباداتهم ملك كسرى ، معما كان سابقا من العداوة بين هاتين الامتين منذ أحقاب متطاولة ، قد كان من نتائجها ايغار صدور العجم على العرب و تربصهم بهم الدوائر حتى يأخذوا منهم بثأرهم . ولما كان دين الفرس المجوسية قد تلاشى أمام الدين العربى المبين ، وعجز عن أن يكون عنصراً للمقاومة ، انتهز الفرس أول فرصة شقاق وقعت فى الاسلام نفسه ونصروا الفئة التى وجدوا أكثر العرب ضدها وهى الشيعة ، ولعبوا دوراً عظيما فى توسيع هذه الفتنة بين العرب من طريق الدين فشفوا احنتهم من العرب لما كان هؤلاء أزالوه من سلطانهم بدون أن يقاوموا نفس الاسلام الذى رأوا برهانه أسطع من أن يكابر ، بل بمقاومة احدى فئتيه التى هى السنة والجماعة والتى كان منها جمهور العرب . لهذا تجد الفارسى يكره العرب و يحتقر كل شئ لهم الا الدين . و ترى مهيار الديلمى يقول (قد جمعت المجد من أطرافه : نسب الفرس و دين العرب) ومع كون الدين الاسلامى يمنع العصبية للأجناس و يضع فوقها اخوة المؤمنين خاصة كانت لا تزال ترى آثار العصبية الفارسية فى بلاد العجم بالرغم من مزج الاسلام للأجناس حتى قال الصاحب بن عباد ، وهو فارسى الأصل خاص العقيدة الاسلامية عند ما جاء أحد الفرس وتلا الأبيات التى يفتخر بها على العرب وجاوبه عليها بديع الزمان الهمذانى : ما رأيت رجلا يفضل العجم على العرب الا وفيه عرق من المجوسية ينزع اليه . ولما رسخت قدم الاسلام فى العجم وزال كل عرق للمجوسية منهم عشقوا التشيع عشقاً كان أعظم عوامله كره العرب ، الى أن كاد الانسان يراهم شيعة قبل كل شئ . ومما ينسب الى الفيلسوف الفرنساوى رنان : ان الفرس هم شيعة أولا ومسلمون ثانياً . ولا شك أن فى هذا القول مبالغة وانما

يصدق على كثير من عامتهم . وبهذه الأيام الأخيرة نجم عندهم كما عند غيرهم من الامم الاسلامية فئة تدين بالقومية وتحارب الجامعة الاسلامية ، ولكنها لا تزال ضعيفة بالقياس الى السواد الأعظم الذى عمدته الاسلام ، بل قد زال من بينهم أكثر النفرة التى كانت عندهم لاهل السنة بما هو نتيجة انحطاط القوة السياسية الاسلامية بأجمعها وشعور العجم بالحاجة الى التضامن مع سائر المسلمين ، سنة الله فى المستضعفين ولن تجد لسنة الله تبديلا

نظرية « القومية العثمانية الاسلامية »

و « القومية التركية الطورانية »

على ذكر المؤلف الترك العثمانيين والطورانيين

الامير شكيب

هذه نظرية الفئة الكبرى من علماء الترك العثمانيين الذين درجوا وقد وافقهم عليها كثير من أدباء الترك المعاصرين مثل عبد الحق حامد بك الملقب بالأديب الأعظم ، وسليمان نظيف بك وأخيه فائق عالى ، وجناب شهاب الدين بك ، وجلال نورى بك ، والشاعر محمد عاكف ، وأنور باشا المؤرخ [1] واسماعيل حقى بك الديار بكرى ، واسماعيل حقى بك الازميرى، ورضا توفيق الفيلسوف ، ومنهم على كمال الذى قتله الكماليون فى أزميد لخياناته وجم غفير من كتابهم ومفكريهم ووزرائهم وشيوخهم ، وهى أن الأتراك العثمانيين وان كانوا من الترك أصلا ومحتداً فقد أصبحوا باختلاط دمهم بسائر الأمم التى ساكنوها من قرون فى غربى آسية وجنوبى أوربا من فرس وعرب وكرد وجركس وكرج وروم وأرمن وبلغار وأرناووط و بشناق الخ ، أمة قائمة بذاتها قد ابتعدت كثيراً عن الترك الأصليين ولا سيما من المغول الذين يقال لهم ياجوج وماجوج، والذين قد اشتهروا بقبح المنظر وغلظ الطبع وكره الحضارة والشغف بسفك الدماء وتخريب الديار ونسف العمران ، مما اتفق المؤرخون شرقاً وغرباً على أنه دأبهم، حال كون الأتراك العثمانيين قد عرفوا بصباحة الوجوه وكرم الأخلاق ودماثة الطباع وحب المدنية والجمع بين شدة البأس ورقة الشمائل ، ويزيدون

(١) هو غير أنور باشا ناظر الحربية وهذا أيضاً ممن يقول بهذه النظرية

على ذلك أن الثقافة التركية العثمانية والأدب التركى العثمانى [1] هما خاصان باتراك آل عثمان لأنهما مقتبسان من الآداب العربية والفارسية ، لأن لغة العرب ولغة الفرس كانتا لغتى العلم والشعر عند الأتراك منذ هاجروا الى غربى آسية ، فلذلك قيل للغة الدولة اللغة العثمانية لافتراقها كثيراً عن لهجة أتراك أواسط آسية ، ولكونها لا تشبه فى شئ لغة المغول فهذه الفئة وان كانت لا تبرأ من الترك المسلمين سكان التركستان الروسى والتركستان الصينى وشمالى فارس ، فهى تبرأ من المغول وتلعن تاريخهم وتقول انهم هم كانوا سبب بوار الشرق وانحطاط الاسلام ، وانهم هم الذين نسفوا عمران البلاد التركية خراسان وما وراء النهر والبلاد الفارسية والبلاد العربية ، فأهلكوا الملايين ودمروا العواصم الكبرى ، ولم تقم للشرق بعد مصيبتهم قائمة . وبعض هذه الفئة مثل أنور باشا المار الذكر يزعم أنه لا يوجد أدنى صلة نسب بين الترك العثمانيين والمغول ويميل الى أن الترك هم أصلا من الجنس الابيض الآرى ، وانما اختلطوا بسبب الجوار بالجنس الأصفر المغولى ، وقد وصف بعض مؤرخى الترك أعمال جنكيز وهولاكو وقومهما بمثل ما وصفها به مؤرخو العرب والفرس والافرنج والروس ، لا بل ألف لهذا العهد رجل اسمه طاهر المولوى كتابا خاصاً بفظائع جنكيز وهولاكو وفجائعهما ، وقال ليس للترك أن يفخروا بمثل هؤلاء المفسدين فى الارض العائثين المدمرين الذين كانوا علة انحطاط الشرق عن الغرب ، وأعظم بلاء وقع على الانسان ، واذا أراد الاتراك المسلمون أن يراجعوا صحيفة احسابهم فيراجعو تاريخ آل طولون بمصر وتاريخ السلاجقة وآل زنكى الاتابكى والدولة العثمانية . وقال جلال نورى صاحب التصانيف الاجتماعية العديدة : الترك العثمانيون هم مسلمون أولا وترك ثانياً

وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية ، تخالف الفئة الاولى فى كل هذه النظريات وأشهر دعاتها ضيا كوك الب ، وأحمد أغايف ، ويوسف آقشورا اللذان قدما من الروسية ، وجلال ساهر ، ويحيى كمال ، وحمد الله صبحى رئيس وجاق « ترك يوردى » ومحمد أمين بك الشاعر الملى ، وكثير من الادباء والمفكرين وأكثر الطلبة والنشء الجديد . وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة وأعرقها مجداً وأسبقها الى الحضارة ، وانهم هم والجنس المغولى واحد فى الاصل ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ،

---

(١) وهم يسمون ذلك بالحرث

ولم يقتصروا فيها على الترك الذين فى سيبريا وتركستان الروس وتركستان الصين وفارس والقوقاس والاناطول والروملى ، بل مبدأوهم مد هذه الرابطة الى المغول فى الصين والى المجار والفنلانديين فى أوربا وكل من يقال انه ينمى الى أصل طورانى ، وهم يقولون بخلاف ما يقول الاولون ، فهم ترك أولاً ومسلمون ثانياً . وشعارهم عدم التدين واهمال الجامعة الاسلامية الا اذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية ، فتكون عندئذ واسطة لا غاية ، وقد غلا كثير من هذه الفئة فى الطورانية حتى قالوا : نحن أتراك فكعبتنا طوران . وهم يتغنون بمدائح جنكيز ، ويعجبون بفتوحات المغول ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم ، وينظمون الاناشيد للأحداث فى وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الاعجاب بها ويرقوا مستوى نفوسهم بزعمهم ، وقد سألت صديقى ورفيقى فى مجلس الامة محمد أمين بك الشاعر الملى ، وهو من أحسنهم أخلاقاً وممن لا يبلغ بهم نزوع العرق الطورانى أن يشنأ العرب وينصب لهم العداوة ، كما هو شأن كثير من رفاقه ، بل ممن سبقت لهم خطب فى المجلس ينوه فيها بفضل العرب ، فقلت له : كل شئ فهمته وانكم طورانيون وانه ينبغى لكل أمة أن تتمسك بجامعتها القومية وتحييها فى صدور أبنائها وان ذلك لا ينافى الاسلام لأن الجامعة الطورانية باعتبار أن الترك مسلمون تقوى الاسلام ولا توهنه ولكن الذى لم أفهمه الى اليوم هو افتخاركم دائماً بجنكيز مع عيثه وتدميره وما جرى من قومه من نسف العمران واكتساح البسائط . فقال لى : « نفتخر به لكون تشكيلاته العسكرية كانت فى غاية الانتظام « تشكيلات عسكرية سى مكمل ايدى » وما يعزى الى المغول من العيث والدعارة فلا يزيد على ما جرى فى الحرب العامة من التخريب الذى اقتضته الدواعى الحربية أفلا ترى ما فعل الألمان فى شمالى فرنسا مع أنهم أرقى أمة متمدنة » هذه هى نظريتهم من جهة ما اشتهر به المغول من العيث والفساد فى الأرض ، وليس هنا محل تبيين الفرق بين تخريبات المغول وتخريبات الألمان فى شمالى فرنسا

وقد امتد الخلاف بين هاتين الفئتين فى الترك الى مواضيع أخر من أهمها مسئلة الرجوع الى اللغة التركية القديمة ، وعلى رأيهم « تصفية » اللغة التركية الحاضرة من الألفاظ العربية والفارسية ، والاعتياض منها بألفاظ تركية مهملة بعدم استعمالها بين الأتراك العثمانيين مع ان استعمال العربى والفارسى هو مما يضعف القومية الطورانية ، وعلى فرض

أن هناك معانى لا توجد بازائها كلمات تركية صرفة فيمكن الأخذ من العربى والفارسى على شرط تتريك هذا المستعار من تينك اللغتين ، وقد دارت على هـذه المسئلة الجلى مباحثات ومناقشات طويلة ، ولا تزال دائرة ، وحزب التصفية هذا هو كما لا يخفى هو الحزب الطورانى كما أن حزب العربى والفـارسى هو الحزب الاسلامى ، واستعملوا فى الاستانة لفظتى « تركجى » و « اسلامجى » للدلالة على هذين الحزبين.

وبرهان الحزب الاسلامى فى مناهضة التصفية هو أولا ان اللسان التركى وان كانت فيه متوفرة أسماء الامور المادية وأفعال الحركات البدنية ، فهو لسان فقير فى الامور العقلية ، قليـل الألفاظ المؤدية للمعانى المجردة ، ان أمكنه أن يفى بحاجة أمة فى حال البداوة وطور السذاجة فلا يمكنه الوفاء باحتياج أمة راقية ودولة عظيمة ، فلا بد له والحال هى هذه ، من الاستعارة من لغة العرب والتوكؤ على لغة الفرس ، لاجل اكمال ما نقصه من تلك الجهة. ثانيا ان الادب التركى الذى نشأ ونما وحررت فيه الكتب الممتعة ، وقصدت القصائد البليغة وصار أدباً معدوداً ، وجال فى ميدانه فحول من الكتاب ونوابغ من الشعراء هم مفاخر أمة الترك انمـا هو هـذا الأدب المقتبس من الفارسى والعربى والذى صار أدباً قائماً بذاته ، أفيحسن أن يغير أسلوبه وتبدل ديباجته ، ويحرم الناس طلاوته ويعدل عنـه الى أدب تركى بحت يرجع الى لغة ليس فيهـا شئ من الاستعداد لتكوين أدب بالغ درجة الرقى كالأدب العثمانى الحاضر ، وعلى فرض المحال أنه تيسر ذلك أفلا يلزم حقب متطاولة لتأسيس أدب جديد ؟ أما كون استعمال العربى والفارسى هو مما يضعف القومية التركية والحال أن مقصد الترك الجدد هو ايقاد شعلتها فى النفوس فالحزب الاسلامى هـذا لا يجد الأدب العثمانى هذا حائلا دون نمو الفكرة التركية بل يجد تقرب التركية من العربية والفارسـية ، عدا كونه أزين لها وأزيد فى محاسنها ، أنفع للاتراك من الجهة السياسية لانه يؤكد الروابط التى تربط العرب والفرس وسائر المسلمين بالامة التركية مما يزيدها قوة ومنعة اذ كان هـذا الحزب لا يزال دستوره فى السياسة هو الاتحاد الاسلامى ، ويرى الاسلام فوق كل شئ ، وقد كان أنور باشا ناظر الحربية يقول اذا كان أتراك التركستان مرتبطين بنا فليس ذلك لكوننا أتراكا مثلهم بل لكوننا مسلمين فحسب

اسلام الفرس ومبدأ التشيع

للأمير شكيب

— العرب والعجم

— القومية الفارسية

— قول المسيو دومومبين صاحب كتاب « تاريخ العالم » .

— الشرع الاسلامى والقوانين الرومانية (استطراد) .

— نظرية الحقوق فى الاسلام لصاوا باشا الرومى .

— العلاقات بين العرب الفاتحين والأمم المغلوبة

— أقوال الكونت دوغوبينو صاحب كتاب «الأديان والفلسفات فى أسية الوسطى»

— الفرق الشيعيّة فى فارس الاخبارية والمجتهدية والشيخية .

— مبدأ الشيعة.

— أبو ذر الغفارى ومعاوية فى الشام .

— التشيُّع عند العرب والعجم .

— النزعة الحالية عند الشيعة وأهل السنَّة الى الوحدة الاسلامية العامة .

— المؤتمر الاسلامى العام فى بيت المقدس .

مع حاشية « المتاولة أو الشيعة فى جبل عامل »

ومن الغريب أن كثيراً من العجم مع تدينهم بالاسلام ، وشدّة استمساكهم بالتشيّع لآل البيت ، لا تزال تجد فيهم فى الأحايين آثار البغضاء للعرب ، وهم يعلمون أن آل البيت الذين يقدسونهم هذا التقديس كله هم عرب أقحاح ، بل هم سنام العرب . ولقد حدثنى من أثق به أنه وُجد من الايرانيين علماء مجتهدون فى مذهب الشيعة ، قضوا حياتهم فى خدمته والدعوة اليه الى أن حانت وفاتهم ، فبيناهم يلفظون أرواحهم تكلموا بما يُنبئ عن شدة بغضائهم للعرب وكان هذا كلامهم الأخير فى الدنيا وهذا هو القياس البعيد فى الشنآن بين الأقوام . وقد كنت أحادث احدى المرار رجلاً من فضلائهم ، ومن ذوى المناصب العالية فى الدولة الفارسية ، فوصلنا فى البحث الى قضية العرب والعجم ، وكان محدّثى على جانب عظيم من الغلوّ فى التشيع الى حدّ أنى رأيت له كتاباً مطبوعاً مصدّراً بجملة « هو العلىّ الغالب » فقلت فى نفسى لا شك أن هذا الرجل لشدة غلوه فى آل البيت ، ولعلمه أنهم من العرب ، لا يمكنه أن يكره العرب الذين آل البيت منهم، لأنه يستحيل الجمع بين البغض والحب فى مكان واحد . ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . ولقد أخطأ ظنى فى هذه أيضاً ، فاننى عند ما سقت الحديث الى مسئلة العربية والعجمية وجدته انقلب عجميا صرفاً ، ونسى ذلك الغلو كله فى علىّ عليه السلام وآله ، بل قال لى هكذا وكان يحدثنى بالتركية : «ايران بر حكومت اسلاميه دكلدر يالكز دين اسلامى اتخاذ ايتمش بر حكومتدر» أى ايران ليست بحكومة اسلامية وانما هى حكومة اتخذت لنفسها دين الاسلام » وكنت أتحدث مرة أخرى الى الأمير «فرمان فرما» عبد الحسين ابن عم الشاه مظفر الدين ، ووالد الأمير فيروز ناظر الخارجية الايرانية لعهد الشاه الأخير من آل قاجار ، وقد كانت بينى و بين الأمير فرمان فرما المشار اليه مودة أكيدة واجتماعات كثيرة ، وكنت أرى فيه أيضاً شيعياً غالياً ، وأحسب أنه لتشيعه الشديد لا يمكنه أن يكون شانئاً للعرب ، وقد غلطت فى هذه أيضاً ، فقد رأيته يجمع بين الأمرين يحب آل البيت أشد الحبّ ، ولا يحب العرب الذين آلُ البيت منهم . وقد صرح لى قائلا : ان العرب عند ما استولوا على فارس أفسدوا أخلاق العجم ، و بذلك أسقطوا تلك الأمة الفارسية العظيمة التى استولوا عليها وأدخلوها فى دينهم ، فلم أستطع على كلامه صبراً ومع أنى كنت أيام معرفتى بهذا الأمير شابا وكان

هو كهلاً ، وكان عندنا ضيفا فى جبل لبنان ، لم أملك نفسى من الحدة وقلت له : لا شك أن أخلاقكم كانت فاسدة من قبل ، ولو لا ذلك ما تغلب عليكم العرب وأنتم أمة منظمة ، وهم أمة آتية من الصحراء من تحت الخيام ، وقد اتفق المؤرخون والعلماء الاجتماعيون أن العرب لم يفتحوا تلك الفتوحات السريعة ، ولم يستولوا على ممالك الفرس والرومان والهند والترك والبربر وغيرهم الا بما كانوا عليه فى صدر الاسلام من الأخلاق العالية .

فانقطع بعد ذلك عن الحديث . وقضيت مما سمعته من هذين الرجلين من كبار العجم أشد العجب ، لأنى كنت أراهما فى غاية التمسك بالاسلام ، وهما يعلمان أن الاسلام عربى المنبت ، وكنت أراهما فى غاية العصبية لعترة على ، وهما يعلمان أنهما من بنى هاشم من صميم العرب ، وأراهما مع ذلك اذا جرى الكلام فى القوميات انقلبا فارسيين متشددين ، لا يريدان أن يعلما عن العرب شيئاً ، فكأن الواحد من هؤلاء له نفسيتان احداهما اسلامية والاخرى فارسية ، وأغرب من هذا أن هذين الرجلين ليسا من الجنس الفارسى الآرى بل من الجنس الفارسى التركى ، لأن فارس كما لا يخفى ترجع الى سلالتين منها السلالة الايرانية الآرية ، ولغتها الفارسية ، ومنها السلالة التركية المغولية ولغتها التركية . ولكن السلالتين اندمجتا أمةً واحدة تحت ظل الدولة الفارسية وصارت الفارسية هى اللغة الرسمية للجميع كما أن التشيع غالب على الفريقين . ولا أقدر أن أقول ان هذه الحالة الروحية فى العجم هى عامة لهم ، وان جميع مجتهديهم وعلمائهم يضمرون العداوة للعرب برغم معرفتهم أن آل البيت هم من قريش ، وبرغم ذهاب الألوف منهم فى كل سنة حجاجاً الى البيت الحرام فى مكة ولكننى لا أشك فى أمر واحد وهو أن القومية الفارسية لم تندثر بالديانة الاسلامية التى جاءت من العرب ، وان هناك عوامل خاصة تجعل الفرس يميلون الى آل البيت ، منها ما تقدم ذكره من أن استيلاء العرب على فارس أوجد فى العجم مناوأة للدولة ، التى استولت على بلادهم ، وأزالت ملكهم ، فلذلك رأيتهم انتصروا لبنى العباس والعلوية ، يوم كانوا يداً واحدة فى حرب بنى أمية الذين كان مركزهم الشام . وما زالوا حتى حولوا الخلافة الى العراق وصارت الدولة العباسية كما يقول كثير من المؤرخين مطبوعة بطابع المدنية الفارسية

ومن الوسائل التى يمت بها العجم الى الاسلام نسب سلمان الفارسى الذى كان من

أكابر الصحابه ، وهو منهم وقد جعله النبي ﷺ من آله فقال : سلمان منا آل البيت . وقد لحظت أنه لما قتل اللعين أبو لؤلؤة الفارسى سيدنا عمر رضى الله عنه وقام عبيد الله بن عمر بعد وفاة أبيه فقتل المارزبان ، وهو الأمير العجمى الذى كان أسيراً بالمدينة وأسلم ، وكان قتل عبيد الله اياه بتهمة أنه كان ذا يد خفية فى دفع أبى لؤلؤة الى قتل عمر ، كان من علىّ رضى الله عنه أن احتج أشد الاحتجاج على قتل عبيد الله بن عمر للمارزبان ، بدون ثبوت تلك التهمة التى وجهها عبيد الله اليه . فكانت هذه القضية من أسباب انحياز عبيد الله الى معاوية . وهى على كل حال مما يتخذه العجم دليلا على سابق محبة علىّ لهم

وكان على بن الحسين بن سيدنا على وهو الملقب بزين العابدين يمتّ الى الفرس بنسب ، لأن أمه هى بنت يزدجرد آخر ملوك فارس . ويقال نقلاً عن أبى القاسم الزمخشرى فى كتاب « ربيع الأبرار » أنه لما جئ الى المدينة بسبى فارس فى خلافة عمر ، كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد ، فباعوا السبايا وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد . فقال له علىّ : ان بنات الملوك لا يُعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة ، فقال كيف الطريق الى العمل معهنّ قال : يُقوَّمْن ، ومهما بلغ ثمنهنّ قام به من يختارُهن . فقُوّمْن ، فأخذهن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لمحمد بن أبى بكر وأزوج الثالثة ولده الحسين فكان له منها ولده زين العابدين .

هذا ولما كان هذا العصر عصر القوميات كما لايخفى ، اقتداء بالأمم الأوربية فى الزمن الأخير كانت القومية الفارسية قد أخذت تشتدّ أكثر من ذى قبل ، وذلك نظير ماحصل عند الترك ، وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم ، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم ، وعن الذئب الأبيض الذى كانوا يعبدونه ، حتى صوّروه فى بعض كتبهم الحديثة وقال لهم المرحوم موسى كاظم شيخ الاسلام — وهو الذى أخبرنى بذلك — ان العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشعر منها الأبدان ولكنهم اقتلعوها بالاسلام وافتخروا بان الله لطف بهم ، وأنقذهم منها ورفعهم عن مستوى تلك السفالات . وأما أنتم فتريدون أن تتناسوا الاعتقاد بالبارى تعالى ، وتتذكروا عبادة الذئب الابيض . . . فيالاسف

فكما حصل عند الترك حصل عند الفرس وصار ناشئتهم يبحثون عن أديانهم

القديمة التى منها الكيومرتية أى تعظيم النور والتحرز من الظلمة ، ومن هنا جاءتهم عبادة النار . ومنها فرقة زرادشت الذى كان يدعو الى وحدانية الله ، ويقول انه خالق النور والظلمة ، وان الخير والشر انما حصلا بامتزاجهما ، وانهما لو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم ، الى غير ذلك من العقائد والأوابد والآثار التى كانت عند قدماء الفرس كالثنوية ، والزردشتية ، والمانوية ، ومنهم من يبحث عن المزدكية التى كانت تدعو الى الالحاد والاباحة .

والذى يظهر ان الميل الى هذه العقائد ليس بجديد فى فارس ، بل انه كانت لم تزل له عقابيل منذ زمان ابن العباس . وقد دلنا التاريخ على ذلك من قيام بابك الخُرَّمى — نسبة الى خرَّمة كسكّرة بلدة بقرب اصطخر — الذى ثار فى أيام المعتصم العباسى وكان يرى رأى المزدكية من المجوس الذين كانوا خرجوا قبل الاسلام وأباحوا المحرمات ، وقتلهم أنو شروان ، ثم ثاروا بعد الاسلام بالمبادئ نفسها وعليهم بابك هذا ، فقتل جند الخلافة واستولى على الحصون ، فسرح اليه المعتصم جيشاً تحت قيادة أبى سعيد محمد بن يوسف ، فاستخلص منه بعض ما كان أخذه . ثم سيَّر اليه الافشين حيدر بن كاوس ملك أشروسنة وكان أبوه أسلم فى زمان المأمون فهزم بابك فى وقعة أرشق ، وفرَّ بابك الى موقان ، ولكن جرته لم تخمد . وفى سنة ٢٢١ ظهر « على بغا » الكبير فى وقعة هشنادس ولحق الافشين بغا بالامدادات . وفى السنة التالية وجَّه المعتصم الى الافشين جعفر بن دينار مدداً ، وأتبعه بايتاخ ، ووجَّه معه ثلاثين الف الف درهم ، وألحَّ الافشين على بابك بالحصار ، واستنزله من معقله بعد حرب تشيب لها نواصى الاطفال ، واحتوى على معسكره ، وأحرق قصوره بالنفط ، وسبى أولاده وعياله ولكن بابك أفلت من يده بدخوله فى غياض قريبة ملتفة الدوح ، لا تسلك فيها الخيل ، ونفذ من هناك الى جبال أرمينية ، فوقع فى يد سهل ابن سنباط من رؤساء تلك الناحية فاسلمه الى الافشين وقدم هذا به و بأخيه على المعتصم فأمر بقتلهما ، وكافأ الافشين بتاج من الذهب ، ووشحه بوشاحين من الجوهر ، ووصله بعشرين مليون درهم وعقد له على السند . وكافأ ابن سنباط بالف الف درهم ومنطقة ذهب مرصعة بالجواهر ، و بتاج البطرقة .

ولابى تمام الطائى فى هذه الوقائع القصائد الطنانة التى هى من أجزل شعره بل من

أجزل الشعر بأسره .

وقيل ان المعتصم أخرج فى حرب بابك الخرّمى من الدراهم خمسمائة وقر ، وقيل أخرج مالا يدخل تحت الحصر . وكل هذا يدل على ما كان لتلك النزعة المجوسية من الخطر فضلاً عن ان بابك راسل ملك بيزنطية وأغراه بغزو بلاد الاسلام ، وسار ملك الروم تيوفيل ابن ميخائيل وأوقع بالمسلمين وأوجف فى ديارهم ، والمعتصم مشغول بحرب بابك ، فاضطر المعتصم أن يغزو الروم تلك الغزاة الشهيرة التى فتح بها عمورية . ولما انتهى المعتصم من أمر بابك الخرّمى ظهر له ان الافشين نفسه كان يكيد سراً للاسلام ، ويجتهد فى هدم الدولة ونقلت له عنه أشياء فيما يتعلق بعقيدة المجوس . جاء فى كتاب « العيون والحدائق فى أخبار الحقائق » : انه لما نمى الى الخليفة المعتصم خبر دسائس الافشين وما كان يراسل به أهل أشروسنة ، أمر بالقبض عليه وعلى ولده الحسن ، ثم أخرجه من حبسه وأحضر جماعة من الاشراف والوجوه ليناظروه على أشياء ، وأُتى بمازيار ، فقيل للافشين : هل كاتبت مازيار؟ قال لا ، فجاو به مازيار فقال . كتبت الينا تقول : ان هذا الدين يعنى دين الاسلام ان اتفقنا أنا وأنتم محونا أثره ، ونعود الى دين آبائنا العجم ، فانكر ذلك ، فاحضر محمد بن عبد الملك الزيات رجلين وكان هو الوزير والمناظر فقال للافشين : لِمَ ضربت هذين ظهراً و بطنا وهذا امام وهذا مؤذن كان فى أشروسنة . قال : نعم ضربتهما لانهما اتخذا بيتاً للاصنام فجعلاه مسجداً وكان بينى و بين الصغد عهد فخشيت من نقض العهد . قال : فما كتابٌ عندك قد زينْتَه بالحرير والجوهر فيه كفر بالله تعالى ؟ قال : هو كتاب ورثته عن أبى فيه آداب الملوك ، وهو دين القوم الذى هو اليوم كفر ، فكنت أسمع الأدب وأترك سوى ذلك ، ووجدته محلّى ، ولم تكن لى حاجة الى أخذ الحلية التى عليه ، فتركته بحاله ككتاب كليلة ودمنة ، وكتاب مزدك . وشهد عليه الموبذ وقال انه كان يأكل المخنوقة ، ويحملنى على أكلها ، و يقول انها أرطب لحماً من المذبوحة ، وقال : انى قد دخلت لهؤلاء القوم (يعنى المسلمين) فى كل ما أكرهه ، وقد أكلت الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل ، غير انى الى هذه الغاية لم تسقط منى شعرة يعنى أنه لم يختتن

ثم وافقه المرزبان بان أهل أشروسنة يكتبون اليه بلسانهم كتابا معناه : الى اله الالهة من عبده فلان بن فلان . قال : بل كذا كانوا يكتبون الى أبى وجدى . قال محمد بن

عبد الملك الزيات : فما أبقيت لفرعون حين قال لقومه : « أنا ربكم الأعلى » . ونوظر على أشياء مثال هذه تدلّ على فساد دينه وفساد ديانته فى الاسلام يطول شرحها .

ثم أمر المعتصم باعادته الى محبسه و بقى فيه نحواً من سنة الى أن مات وصلبوه بعد موته على باب العامة ، ثم أحرق هو والخشبة التى صلب عليها ، وحمل الرماد فطرح فى دجلة ووجد فى داره تمثال انسان من خشب عليه حلية كثيرة من جوهر ، وكتب فيها ديانته

وقال الذهبى فى كتاب « دول الاسلام » : سنة ٢٢٢ التقى الافشين و بابك . فانهزم بابك ولم يزل الافشين يعمل عليه حتى أسره ، وكان بابك بطلاً شجاعا جباراً عنيداً ملعوناً أراد أن يقيم دين المجوس ، واستولى على توزر ، والمدائن ، وقد أنفق المعتصم بيوت الأموال فى حرب هذا . فانفق فى ذلك العام الف الف دينار . وفتح الله مدينة بابك بعد حصار شديد فاختفى بابك وأسر جميع حاشيته وأولاده و بعث اليه المعتصم بالأمان فمزقه وشتم ثم صعد فى الجبل وانفلت الى جبال ارمينية ، فنزل عند بطريق فاغلق عليه البطريق واسلمه للحتف فجاء جماعة فتسلموه . وكان المعتصم جعل لمن أسره حيًّا مائة الف دينار ، ولمن جاء برأسه نصف ذلك ، فكان يوم دخوله بغداد وهو على جمل يوماً مشهوداً . ثم قال الذهبى : سنة ٢٢٦ غضب المعتصم على الافشين وسجنه ثم صلبه الى جانب بابك اتهم بعبادة صنم وكان افلت وخافه أيضاً المعتصم اه . وقد حصلت فى فارس ثورات متعددة غير ثورة بابك الخرّمى اعربت فيها الفارسية المزدكية عن ذات نفسها

والحاصل ان العجم بعد أن دانوا بالاسلام بمدة طويلة ، بقيت أقوام منهم تحن الى دينها الاصلى ، وينزع بها عرق المجوسية . وفى هذا شئ من العداوة التى بين العرب والعجم ومن استكبار العجم الخضوع لدين أصله من العرب . ومثل هذا أيضاً الحنين الذى عند بعض شبان الترك الى ديانتهم القديمة والى عبادة الذئب الأبيض استكباراً لاتباع الأمة التركية ديانةً صادرة عن العرب . وقد بلغنا أن بعض ناشئة المسلمين من أمة الجاوى يبحثون كثيراً عن مذهب بودا الذى كان مذهب الجاوى قبل أن أسلموا ، ويدرسونه وكأنهم يريدون أن يحيوا آثاره . كذلك فى الهند شبان كثيرون من المسلمين يكرهون الجامعة الاسلامية و يفضلون عليها الجامعة الهندية اتباعاً للهنادك .

وعند بعض الناشئة المصرية نزعة محسوسة الى الأوابد المصرية القديمة ، والحضارة

الفرعونية ، وميل الى التفصى من النسبة العربية والحضارة العربية . وكل هـذا تعصباً من هؤلاء الأقوام لقومياتهم بزعمهم وشعوراً منهم بشىء من الكبر عن أن يتبعوا ملةً ليست من سلالتهم . والحال أن الاسلام ليس بدين يفرق بين عربى وعجمى وأن مبدأه الاساسى (انّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) وأن النبى محمداً لم يبعث الى العرب وحدهم بل الى البشر كافة ، فان كانت المساواة تامة فى دين من الأديان أمام الخالق تعالى فهى فى الاسلام.

***

وبعد فما لنا نرى الأوربيين وهم اليوم أرقى الأمم والغالبون على أكثر الكرة الارضية وهم يعلمون أنهم جميعا من الجنس الآرى ، يتبعون ديانة رجل يهودى من الجنس السامىّ المحض ، ولا يستنكفون عن أن يعبدوه وعن أن يؤلهوه . ومنهم من يعبد أُمّهُ ولا يجدون فى ذلك غضاضة ، ولا تأخذهم العزة فى قوميتهم الآرية ، ولا يقولون : مالنا ولعبادات الساميين ! هل سمعنا ان أحداً من الافرنج استكبر ان يتبع سيدنا عيسى عليه السلام كلا . أفلم يكن فى ذلك عبرة للعجم والترك وغيرهم ممن يأبى كبر بعضهم أن يتبعوا دين النبى العربى وهم غير مكلفين أن يؤلهوه ولا أن يقدّسوه تقديس الافرنج للمسيح .

ان هذا والله لعجب عجاب . وأعجب منه ان هذه الفئة سواء من الترك أو من العجم تجعل الافرنج قدوتها فى كل شىء . فياليتها اقتدت بالافرنج فى عدم ادخال العقائد فى القوميات .

***

ولنعد الى قضية العجم وعلاقتهم بالعرب فنقول اننا رأينا فصلاً فى هذا الباب للمسيو « غودفروا دومومبين » صاحب « تاريخ العالم » الذى سبق لنا ذكره ، وهو فصل فيه تعليلات كثيرة على نسق الافرنج المولعين بهذا الاسلوب فى التاريخ ، ولو خبطوا فيه ، الا ان تعليلات « دومومبين » يشبه بعضها أن يكون صحيحاً وفى بعضها نظر . فهو يقول ماملخصه : ان الأمة الاسلامية فى أيام الخلفاء الراشدين بعد أن دان الاعاجم بالاسلام ، لم تكن أخذت شكلاً عامًّا ، ولا رست قواعدها على وحدة تامة ، وانما كانت شعوبا متساكنة ، ودخل بنو أمية وهذه هى الحال . وربما أرادوا أن يجعلوا لهذه الأمة نظاما كافلاً وحدتها . الا أن دولتهم لم تطل كثيراً . وكان العرب مبعثرين فى البلدان التى فتحوها

وكانت منهم فئة هنا وفئة هناك ، ولا يمكن حصر عدد العرب الذين خرجوا للفتوحات . وانما يقال نحو ٢٠٠ ألف رجـل ، وقد اختلطوا بالاهالى الاصليين بالزواج ، وفاضت عليهـم الخيرات من الغنائم وغيرها ، فانغمسوا فى الترف . وكان العمـل كله من زراعة وصناعة فى أيدى الشعوب المغلوبة ، وكان العرب يرون أنفسهم أكرم الشعوب ، وانهم الأمـة المختارة لأجل هداية البشر ، وأنه يجب أن يكونوا جميعاً مسلمين . ولهذا ثقل عليهم بقاء قسم من بنى ثعلب ، وغسان ، وكندة ، على النصرانية ، وأرادوا حملهم على الاسلام، ولـكن الخلفاء لم يشاءوا حملهم عليـه بالعنف ، وضربوا عليهم نوعاً من الجزية : لـكنهم ميزوهم فى ذلك عن الاعاجم (١) انتظاراً لاسلامهم

أما الاعاجم أى البرابرة — ومعنى اللفظتين واحد فالاعاجم بالنسبة الى العرب هم البرابرة بالنسبة الى الرومانيين — فان العرب لم يكونوا ينظرون اليهم كقوم مساويين لهم. ولم يكن عليهم الا أن يؤدوا الجزية ، وهكذا يكونون آمنين على دمائهم ، وأموالهم ، وعقائدهم . فأمّا اشراكهم فى شرف الملة الاسلامية ومنافع الاسـلام فى الدنيا والاخرى فلم يكن فى نظر العرب ضرورياً لانهـم قوم منحطّون عن درجـة العرب . وحسب الاعاجم حريتهم الدينية لانهم أهل كتاب . فأمّا المساواة مع العرب فغير مطلوبة ، والعدالة انما هى بين المسلمين فقط. اهـ

نقول ان كلام « دومومبين » هنا لا يخلو من الخلط لا سيما عنـد ظنه ان العرب لم يكونوا مهتمّين بادخال العجم فى الاسلام ، وانما كان همهم الوحيد اسلام العرب . نعم انه لما كان الخلفاء سائرين على مقتضى الآية الكريمة (لَآ إِكْرَاه فِي الدِّينْ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ) لم يعترضوا أحـداً من الـكتابيّين فى دينه . وهـذا فى الحقيقة من مفاخر الحـكومات الاسلامية لأنه لا يوجـد أنزه ولا أشرف من الحـكومة التى لا تستعمل قوتها القاهرة فى سبيل استجلاب الأمم التى تحت حكمها الى دينها . وأمّا ان الخلفاء ورجال الأمة العربية ، لم يكونوا يرتاحون الى دخول الاعاجم فى الاسـلام ، حتى لا يشركوهم فى منافع الاسلام الدنيوية والأخروية . فلعمرى هذا هو الخلط بعينه . فقد كانت جميع سياسة الخلفاء لا سيما الاتقياء منهم تدور على محور نشر الاسلام . ولما شكا أحد العمّال بمصر من نقص

(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري تجد من هذا البحث ما فيه بلاغ

الجباية بسبب اقبال أهل الذمة على الدخول فى الاسلام أجابه الخليفة عمر بن عبد العزيز : ويحك ان محمداً جاء هادياً ولم يجئ جابياً . وجاء فى فتوح البلدان للبلاذرى انه : لما استخلف عمر بن عبد العزيز كتب الى ملوك ماوراء النهر يدعوهم الى الاسلام ، فاسلم بعضهم . قال : ورفع عمر الخراج على من أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم . ثم بلغه عن عامله على خراسان ، الجراح الحكمى ، عصبية ، وكتب الى عمر انه لا يصلح خراسان الا السيف فانكر ذلك وعزله . وجاء أيضاً فى فتوح البلدان للبلاذرى ان أمير المؤمنين المأمون اغزا السغد وأشروسنة وفرغانة وكان قد ألح عليهم بالغارات أيام مقامه بخراسان ، و بعد ذلك وكان مع تسريته الخيول اليهم يكاتبهم بالدعاء الى الاسلام والطاعة والترغيب فيهما . ثم قال ان المأمون كان يكتب الى عماله على خراسان فى غزو من لم يكن على الطاعة والاسلام من أهل ماوراء النهر ، و يوجه رسله فيفرضون لمن رغب فى الديوان ، وأراد الفريضة من أهل تلك النواحى وأبناء ملوكهم و يستميلهم بالرغبة فاذا وردوا بابه شرفهم واسنى صلاتهم وأرزاقهم . ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ماوراء النهر من السغد والفراغنة والاشروسنة ، وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه ، وغلب الاسلام على من هناك .

قال وحدثنى العمرى عن هيثم بن عدى عن ابن عياش ان قتيبة اسكن العرب ماوراء النهر حتى اسكنهم أرض فرغانة والشاش . اه

قلت : قتيبة بن مسلم الباهلى ولاه الحجاج بن يوسف الثقفى خراسان ، ففتح فيما وراء النهر الفتوحات الكبار ، فهو العربى الكبير الذى فتح بلاد الترك . وكان ذلك مبدأ دخول هذه الأمة فى الاسلام . وأما اسكانه العرب فيما وراء النهر فقد كانت هناك جماعات كثيرة من العرب لدن الفتح طال بها العهد فيما بعد وانقطع ما بينها و بين الأمة العربية فنسيت لغتها واستتركت . وقد حدثنى بعض اهالى كاشغر من التركستان الصينى انه من المعروف عندهم كون كثير من أهالى تلك البلاد يرجعون فى نسبهم الى اولئك العرب الذين فتحوا بلاد الترك . وسمعت مثل هذا من بعض أمراء الطاغستان التى كان العرب يسمونها باب الأبواب . وقالوا لى ان أكثر العائلات الشريفة والعائلات التى كانت حاكمة فى الطاغستان هى من سلائل العرب الفاتحين .

ثم نعود الى كلام المسيو « دومومبين » فى موضوع ثورة العجم على العرب بعد استقرار الاسلام والقائه بجرانه على بلاد الأعاجم ، فهو يقول مامحصّلهُ : ان العرب كانوا يرون أنفسهم أعلى درجة من الأمم التى دانت بدينهم ، ولذلك نجد الاسلام نفسه ميَّز المسلم فى القصاص على الذمى ، كما كان الشأن فى رومة بالنسبة الى البرابرة . وأما فى القضايا المدنية ، فقد كانت أمور أهل الذمة عائدة للقضاة الذين يوليهم الخلفاء. وهكذا دخلت أمور أهل الذمة فى المحاكم الاسلامية ومن هنا كان تأثير القانون الرومانى فى التشريع الاسلامى دخل شيئاً فشيئاً .

وهـذه مسألة مما وهم فيه « دومومبين » كغيره من مؤلفى الأفرنج الذين لم يقدروا أن يتتبعوا سير التشريع الاسلامى وكيفية استنباط الفقهاء للأحكام من الكتاب والسنة ، والاجماع والقياس ، فظنوا خطأ ان ماخـذ التشريع الاسلامى من القانون الرومانى ولقد ألف فى هذه المسئلة صاوا باشا الرومى من علماء الحقوق فى أيام الدولة العثمانية كتاباً ممتعا بالافرنسية اسمه « نظرية الحقوق فى الاسلام » Théorie Du Droit Musulman

قال فى أوله انه هو أيضاً كان يعتقد هـذا الاعتقاد نظير غيره ، ويبنى ذلك على مايعرف من كون بنى أمية لبثوا فى الشام مدة طويلة يعملون بالأحكام التى كانت باقية من أيام الرومانيين . فلا عجب فى أن يكون هو وغـيره قد توهموا أخذ قسم المعاملات فى الشريعة الاسلامية من القانون الرومانى الذى كان به العمل فى سورية ، الا أنه أحب أن يدرس هذا الموضوع درساً دقيقاً ، و يتعرَّف كيفية نشوء التشريع فى الاسلام ، فاستجاد بعض علماء أصول الفقه من الأتراك — وسماهم — وقرأ الفقه الحنفى جيـداً — وذكر الكتب التى طالعها أو راجعها — وتجرد لمعرفة هـذا الأمر مدة طويلة ، فوجد هذا الرأى الذى معناه ان التشريع الاسلامى مأخوذ من القانون الرومانى رأى ضعيف أشبه بأن يكون خيالاً من أن يكون حقيقةً .

قال صاوا باشا فى صفحة ١٦ من كتابه :

« ان الصناعة والتجارة ، لم تكونا مهملتين فى الحجاز . وكان الأشراف يعتنون بهما ، وطالما كانوا يعملون الرحلة الى الشام ، ويجلبون منها مايلزم لبـلادهم ، اذ كانت

المدنية السورية وقتئذٍ أكمل من مدنية الجزيرة العربية ، وكان أشراف قريش الذين من عادتهم التردد الى دمشق وسائر مدن سورية ، يطلعون على الأوضاع الرومانية التي بها معاملاتهم . ولهذا كان مما يرد على خواطر الناس ، حتى الذين منهم يعظمون شأن الشريعة المحمدية ، ان الأحكام التي يتألف منها الفقه الاسلامي انما هي مستعارة من التشريع الذي كان العمل به جارياً قبل الهجرة . فالخطأ في هذه المسألة له وجه لايخفى . فالذي لم يطلع حق الاطلاع على منابع الفقه الاسلامي وتاريخ هذه الشريعة هو معذور اذاً ، اذا ذهب به الظن هذا المذهب فان الأسباب التي تحمل عليه كثيرة أشرت الى بعضها وساشير الى البعض الآخر »

ثم قال :

« ان الخصومات التي كانت تتولد في الاسلام في السنين الأولى من تبسُّطهِ في الشام والعراق ، كانت تنفصل بحسب القانون الروماني تفادياً من وقوف سير العدل ومن الخلل في الأحكام . فالفاتح المسلم رأى أن يوسع القانون الذي جاء به من الحجاز بما استعاره من القانون الذي وجده في البلدان التي فتحها ، ولهذا ذهب أكثر علماء أوربة الى كون الخلافة الاسلامية أدخلت في فقهها أحكاماً كانت احتاجت الى استمدادها من قانون رومة ، لفصل القضايا بين رعاياها . ومما لامرية فيه ان كثيراً من المعاملات التي كانت معروفة في الشام والعراق لاسيما مما يتعلق بالايجار والرهن لم يكن معروفاً في الحجاز . فامراء الاسلام كانوا معذورين في الأخذ من القانون الروماني الذي كان مكملاً في سورية وكان يدرس في أشهر مدرسة للحقوق في ذلك العصر الاوهي مدرسة بيروت التي أسسها الامبراطور يوستينيانوس وكان يدرس فيها « دوروتي » مساعد « تريبونيين » الفقيه المشهور .

هـذه هي المقدمات التي بنى عليها العلماء الاوربيون اعتقادهم بأن تشريع فقهاء الاسلام الذين بدأوا التشريع في أيام الخلفاء العباسيين الأوائل انما هو مجموعة أحكام تضاهي ما كان جارياً به العمل في سورية قبل الفتح الاسلامي . فأنت ترى الأسباب التي حملت على هذا الظن وهي معقولة . الا أن الحقيقة هي غير مافكروا به في اوربة . ويكفي أن ينظر الانسان الى هذه المسألة نظر المدقق ويتابع سير الشريعة الاسلامية في تقدمها وفي أطوارها حتى يعلم استقلال الشرع الاسلامي واصالة منبعه وان هذا ليس من ذاك .

ولا شك أن لكل تشريع منبعاً مختلفاً عن الآخر . ففقه يوستينيانوس هو عمل

مبنى على العقل السليم البشرى ، وقد اصطبغ بالصبغة المسيحية . وأما فقه الامام الأعظم فهو مبنى على كتاب الله (القرآن) وسنة الرسول ولن ترى فى الفقه الاسلامى حكما واحداً غير مدّعم على هذا أو هذه . فاختلاف المنبعين لاريب فيه يظهر لكل من درس تاريخ فقه يوستينيانوس وفقه أبى حنيفة »

ثم دخل صاوا باشا فى الموضوع ، وأورد خلاصة اجتهاد الامام أبى حنيفة وأصحابه أبى يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيبانى ، وزفر ، ثم من بعدهم من الأئمة ، ولخص تاريخ التشريع الاسلامى و بين مآخذه كلها ، وأثبت فلسفة الفقه الاسلامى المعبر عنها بعلم الاصول وقال انه لايقدر انسان أن يعلم مأخذ الشرع الاسلامى ان لم يقرأ أصول الفقه ، وقال انى أدعو من يهمه هذا الموضوع ان لايحكم فيه قبل أن يطالع هذا التاريخ المتسلسل للفقه الاسلامى مطالعة كافية ثم قال : انى أنا مسيحى معتقد بدينى ولكن المسيحى الحقيقى هو الذى يعامل جميع الناس بالحق . ولهذا أنا أفحص الشريعة الاسلامية فحص رجل مسيحى وأقدرها قدرها بدون ضلع ولا ميل فأجدها لذلك جديرة بأعظم الاحترام

وكتاب صاوا باشا هو أحسن كتاب قرأته بلغة أوربية فى هذا الموضوع . والفرق بينه و بين غيره من المؤلفين انه يبنى حكمه على أدلة و براهين ووثائق ونصوص وحقائق تاريخية وان أولئك يبنون على ظنون وتخرصات . وعلى نظر من جهة واحدة ، وعلى قولهم : لابد أن يكون كذا . وهناك أسباب تدعو الى الظن بأنه كذا وكذا . ومن يدرى فقد يكون كذا وكذا . وهذه أشياء لاتصح أن تكون مداراً للأحكام ، ولا يقال لها تمحيص وانما يقال لها تخمين . وما أصدق الآية الكريمة « إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا »

***

ونعود الى كلام « دومومبين » الذى قاطعناه مرتين للرد عليه نظراً لشهرة مكانته فى التاريخ ، فهو يقول : ان العلاقات بين العرب الفاتحين و بين الأمم التى غلبوا عليها لم تكن مبنية على قاعدة المساواة ، وانه من زمان بنى أمية كان أهل الذمة مضطرين أن يضيفوا المسلمين ثلاثة أيام ، و يقدموا لهم المؤن ولخيلهم العلائف ، وانه بعد ذلك فى أيام المتوكل

العباسى حصل ضغط على النصارى واليهود ، وانه بالاجمال كان موقف أهل الذمة موقف ذلة ولم يكونوا ليتحملوه الى الآخر فلم يكن لهم مناص من أحد أمرين اما الخروج على الحكومة الاسلامية أو الدخول فى الاسلام . وكان الخروج على الاسلام أصعب عليهم لأنهم كانوا متفرقين ، وكانت تعوزهم الأسلحة والأعتدة ، وتعوزهم القوة المعنوية ، أيضاً فاختار أكثرهم الشق الثانى ، وهو الدخول فى الاسلام . و بعد أن دخلوا فى الاسلام وصار لهم الحق فى المساواة شرعوا يخاصمون خلافة أهل السنة والجماعة فكانت كل حركة دينية فيها مناهضة للسنة وللخلافة مرجعا لهم يسارعون اليها ، وكانوا هكذا يأخذون بثأرهم فى داخل الاسلام أكثر مما يأخذون بثأرهم فى الخارج عنه .

ثم يقول « دومومبين » يظن الناس أن ظفر الاسلام كان ظفراً محتماً وفتيحة منطقية للتوحيد السامى على النصرانية اليونانية التى تناسب طبائع الاور بيين أكثر من الساميين . ولكن لايجب أخذ هذا القول على اطلاقه . فقد كانت آسية الصغرى من قبل التاريخ المسيحى ميداناً لصراع مدنيّات مختلفة ، وآلهة متعددة . ثم ان أفكار هذه الأمم المتعددة التفت فى أحد الأيام حول رجل يهودى كان مليئاً من تقاليد قومه صلب العقيدة بدينهم ، الا انه كان ساخطاً على المظالم الاجتماعية التى كانت فى أيامه كما انه كان ساخطاً على رجال الدين لما كانوا عليه من الرياء . وكان قلب هذا الرجل مفتوحاً لآلام الشعب ناسياً نفسه كلها لايرى لنفسه عليه حقا ، فكانت نفسه من الجهة الأدبية نفساً الاهية . فدانت آسيا الصغرى بالمسيحية وعبدت اله هذا الرجل الذى كادت تمتزج فيه الطبيعة الانسانية بالطبيعة الالهية . ولم يكن الشعب مهتماً أن يخوض فى قضية كنه هذا الامتزاج الاأن الكهنة حاولوا أن يفهموا هذا المسيح بحسب أفكارهم وأن يؤسسوا له كنيسة . ومن هناك أخذوا بالخوض فى هذه القضية المعقدة مستخدمين لها الفلسفة اليونانية من جهة والفقه اليهودى من جهة أخرى . فدخلوا فيما لانهاية له من تحليل هذه المسألة والتعريف بما كان الاهيًّا وبما كان انسانيًّا فى طبيعة عيسى وتحديد الفاصل بينهما من الزمان والمكان . وجاءوا فى هذه المجادلات الدينية بغلظة وعنف وصلف وتعصب لايحيط بها الوصف ، ودخل معهم فى ذلك الملوك واستخدموا هذه المشاحنات لأغراضهم الدنيوية فانقسم القائلون بالنصرانيه الى ملل ونحل مختلفة متعادية . فكان الآراميون فى العراق ومابين النهرين نساطرة ، وكان نصارى

سورية يعاقبة ، وكان قبط مصر ملكيين ويعاقبة ، وكانت الشعوب بدون شك تشترك فى هذه المباحثات بدون أن تفهم منها شيئاً ، وربما كان كثير من الخلق قد ملوا وسئموا من هذا التمادى كله فى الجدال على طبيعتى المسيح الالاهية والانسانية .

ولقد تقرر ان الاسلام هو عبارة عن كتاب نزل بالعربية على رسول من العرب ، الا أنه من المقرر أيضاً ان عناصر هذه الديانة العربية مشتركة مع عناصر الديانتين اليهودية والمسيحية فهى أخت لهما ، وقد جعل الاسلام عيسى ابن مريم أكبر الأنبياء بعد محمد والذى سيأتى فى آخر الزمان ويؤذن بدينونة البشر . وحفظ الاسلام لمريم أم عيسى مكانا من الطهر عليًّا لم يتضاءل هذا المكان الا بعد أن أخذ المسيحيون يعبدونها عبادة حقيقية ، وبالجملة فان المسيحيين واليهود الذين كانوا يدخلون فى الاسلام لم يكونوا يرون أنفسهم دخلوا فى دين جديد . ولا نعلم تاريخ دخول النصارى واليهود فى الاسلام ، وغاية مانعلم ان بنى أمية لم يكونوا معتنين بنشر الاسلام بين أهل الكتاب ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز انه عُنى بهذا الأمر خاصة ، لكنه لم يلبث فى الخلافة أكثر من ثلاث سنوات ، فماذا يقدر أن يصنع فى مدة قصيرة كهذه ؟ ولم نعلم كيف كان دخول هذه الأقوام فى الاسلام هل بدأ بدخول الرؤساء فانقادت لهم العامة كما حصل بين البرابرة فى أوربة ، أم دخلت الجماعات فى الاسلام فوراً ؟ وعلى كل حال كان الفتح الاسلامى قد قطع مواصلات الأمم المسيحية فى آسية مع القسطنطينية مرجعها الطبيعى . وكانت نار الاسكندرية قد انطفأت أيضاً . فلم يبق مايأتى من الخارج بما يوطد العقيدة المسيحية .

وأما اسلام الفرس فقد بدأ بالامراء وأصحاب الاقطاعات الذين بدأوا بالعلاقات مع رجال الدولة العربية وصار لهم مقام فى الدولة الا ان اسلام الفرس لم يكن كاملاً . بل بقيت بينهم فئات مزدكية تظهر بصور مختلفة . وأما فى مصر فبقيت أمة من القبط . كما انه بقى فى سورية جماعات من المسيحيين على غير اتصال بمركز الكنيسة العام .

فدخول أهل الذمة فى الاسلام قد أحدث انقلاباً عظيماً فى الأمة الاسلامية ، لأن المسلمين الجدد تطلبوا المراكز فى الدولة وتغيرت باسلامهم أنظمة الأراضى والجبايات والجيش وحدث لذلك تأثير كبير فى المجتمع الاسلامى وكثرت الطبقة التى يقال لها « الموالى » . ثم

هناك مسألة أخرى وهى مسألة الرق . فالاسلام يعرف الرق الا انه يحث على تحرير الارقاء . وكان الفاتحون المسلمون يفضلون أن يجدوا أمامهم من يؤدون الجزية واذا وجدوا أقواما من الوثنيين يوجب عليهم الدين الاسلامى أن يُجبروهم على الاسلام أو يستأصلوهم فكانوا يتجنبون اجبارهم على الاسلام كما يتجنبون سفك دمائهم فى أكثر الأحيان . وكانوا يتأولون هذا الأمر بأن مثل هؤلاء هم « صابئة » فالذين ليسوا بنصارى ولا يهود ولا مزدكيين ، كان يقال لهم الصابئون . وأما الارقاء فلما كثر عتقهم تولدت منهم طبقة جديدة . وكان الموالى أيضا يمتّون بالولاء الى رؤساء من العرب . وكل ماجرى من هذه الأمور كان مؤدياً الى المُساواة بين طبقات الأمة الاسلامية . وهكذا ضعف العرب تدريجاً ، و بضعفهم ضعفت الدولة الأموية فانتهز بنو العباس فرصة هذا الخلل وهذا الانقلاب اللذين دخلا على المجتمع الاسلامى وأخذوا بالكيد لبنى أمية ودس الدسائس لقلب دولتهم . ولم يكن أبو مسلم الخراسانى لينجح فى ثورته على الأمويين لو لم يوافق ذلك استعداداً عظيما فى نفوس الأمم التى أسلمت من غير العرب .

ثم قال « دومومبين » ان الحياة تكاملت فى المملكة العربية فى النصف الأول من القرن الثامن المسيحى (أى أوائل القرن الثالث للهجرة) فظهرت المجادلات الكلامية واشتدت وتولدت الفرق . وذكر ان أشراف العرب عادوا فتمسكوا بالدين أكثر من ذى قبل ، وقال ان بنى أمية كانوا اجمالاً متدينين . واستند فى هذا القول على كلام العلامة غولدسهير المستشرق المجرى المشهور الذى كلامه حجة . والحال ان كثيرين من المستشرقين نسبوا اليهم ماعدا واحداً منهم أو اثنين رقة الدين . و « دومومبين » نفسه سبق له ان أشار الى عدم اهتمامهم حاشا عمر بن عبد العزيز بنشر الدين .

ثم قال « دومومبين » انه كان لطائفة قرّاء القرآن لذلك العهد نفوذ عظيم فى المجتمع الاسلامى

وقال ان المركز الدينى لعهد بنى أمية كان الحجاز ، لاسيما المدينة ، وان من الغريب كونها جمعت وقتئذ بين التقوى ، والورع ، وطهارة العقيدة ، و بين اللهو والغناء وأسباب السرور ، فان أشهر المغنين كانوا بالمدينة كما كان أشهر الفقهاء فيها . وهذه ملاحظة صحيحة .

قال : اما اهتداء غير العرب الى الاسلام فمنه ما كان فى أصله من باب المصانعة ، الا ان

منه ما كان بحسب رأيه من باب الاقتناع الوجدانى . وقد كان لهؤلاء المهتدين تأثير عظيم فى تقوية الاسلام وتوطيده . وهو يرى ان علم الحديث وتحرير السيرة النبوية ، قد كانت بدايتهما فى زمان بنى أمية . ومن رأيه ان الدين الاسلامى دين حضرى Religion Citadine وانه توطد بالمساجد الجامعة وهناك كان يجتمع المسلمون والمهتدون الذين اعتادوا مثل هذا الاجتماع فى الكنائس قبل الاسلام

ثم جعل « دومومبين » مقابلة بين تنصر البرابرة الذين دخلوا فى السلطنة الرومانية واسلام الأعاجم وغير العرب ، فقال وهو من أكثر كلامه صواباً :

« ان البرابرة الذين هجموا على السلطنة الرومانية فى الغرب ، انما كانت غاراتهم لأسباب معاشية أى ان ذلك كان حادثاً اقتصادياً صرفاً ، فكانت هذه الأقوام تدخل الى بلاد الرومان ارتياداً للرزق وحباً براحة المعيشة . وكانت كلها منحطة فى الأفكار والعقائد ، وكانت أديانها وثنية . فعندما احتلت انقاض السلطنة الرومانية وجدت جهازاً حيًّا هو الكنيسة فانضوت اليهاودانت بالنصرانية عقيدة الأمة الرومانية المغلوبة وصار البرابرة أنفسهم هم حماة النصرانية .

أما العرب فكانت حادثتهم على العكس من هذه . قد جاءوا بعقيدة دينية أتاهم بها رجل عظيم منهم فلما غزوا الروم والفرس لقنوا هذه العقيدة أُمماً كانت أعلى منهم كعبا فى المدنية . فالمغلوب فى الشرق اتبع دين الغالب ، حال كون الغالب فى الغرب اتبع دين المغلوب .

قال : وان الذين دخلوا فى الاسلام من النصارى واليهود أدخلوا فيه ما كان فى حقائبهم من المباحث اللاهوتية فتولد منها علم الكلام الاسلامى . فقد كانت قبل الفتح الاسلامى مراكز لاهوتية وفقهية شهيرة مثل انطاكية ، و بيروت واورفة ، واسكندرية ، وغزة ، والذين أسلموا أدخلوا علومها فى الاسلام ، وجعلوا تأويل آيات القرآن وفق الحكمة اليونانية وصارت للاسلام فلسفة عالية اشتهرت شرقاً وغرباً الخ .

فهنا نظن المصنف استرسل الى الافتراضات ، والتخرصات على عادة الاوربيين ، اذ انه لم يأت بشاهدٍ واحد معيَّن يثبت افتراضه . والافتراض وحده لاتتولد منه حقيقة مقطوع بها . وقصارى ما نقوله نحن ان الأفكار مشتركة بين البشر ولا سيما اذا كان صقع المفكرين

واحدا ، وكان الاتصال كثيراً . ومما لاشك فيه ان علم الكلام الاسلامى كان مؤيداً بالمنطق وان علم المنطق هو من العلوم التى تلقاها العرب عن يونان فاستعملوها فى أقيستهم العقلية ومباحثهم الدينية ولكن المنطق منه ماهو طبيعى أيضاً يكفى فيه العقل السليم . وما كان المنطق اليونانى الذى يدرس فى المدارس الا الأسماء والاصطلاحات التى وضعوها للصور الفكرية القائمة فى النفوس . هذا هو الفرق بين المنطق المطبوع والمنطق المسموع

ويعجبنى أكثر من كلام « دومومبين » فى هذا الموضوع كلام الكونت « دوغو بنيو » Comte De Gobineau صاحب كتاب « الأديان والفلسفات فى آسية الوسطى » فهذا الكتاب هو ثالث ثلاثة لكتابين آخرين أحدهما « ثلاث سنوات فى آسية » والآخر « الأخبار الأسيوية » من تأليف « دوغو بينو » المذكور المعدود فى مقدمة العلماء الذين أجادوا التأليف فى أحوال ايران وأواسط آسية . ولقد ظهر كتاب « دوغو بينو » « الأديان والفلسفات فى آسية الوسطى » Les Religions et les philosophies dans L'Asie centrale سنة ١٨٦٥ ثم أعيد طبعه سنة ١٨٦٦ ثم أعيد طبعه سنة ١٩٠٠ ونال شهرة عظيمة فى ألمانيا ، ولا سيما أن الاستاذ شيمان L.Scheman الألمانى صدّره بمقدمة اعترف فيها بأن الكونت « دوغو بينو » هو من أكبر مفكرى العصر ، وانه لما ترجمت تآليفه الى الألمانية ، عدّه كثير من الالمان من أعاظم كتّاب القرن التاسع عشر . ونقل عن بعضهم أنه قال : « اننا لا نعرف كاتباً أوربياً فهم حقيقة الشرق الحديث فهم هذا الرجل ولا وصفه بمثل هذا البيان الفصيح » ويقول الاستاذ شيمان : اننا لا ندرى فى كتابه هذا « الاديان والفلسفات فى آسية الوسطى » أىّ شئ نستبدع أكثر من الآخر أسعة أنظاره أم عمق غور أفكاره أم غزارة معلوماته أم متانة رواياته أم سمو بيانه أم لطف أحاديثه الخ

وقد بدأ « دوغو بينو » كتابه هذا بقوله :

« ان جميع أفكارنا وجميع الطرق التى نفكر بها كان منشؤها فى آسية » والشاهد الذى نحن فى صدده من كتاب « دوغو بينو » الذى أقام ثلاث سنوات فى بلاد فارس ونقّب عن علومها وآثارها وصار صدراً لا يبارى فى معرفة شؤون الامة الفارسية هو تاريخ اسلام العجم وأسباب غلبة التشيُّع عليهم فهو يقول تحت عنوان « الاسلام الفارسى » ما يلى ملخصاً :

« ان الديانة الاسلامية التى هى مشتملة على عقائد كثيرة سابقة لها هى موافقة الى الغاية لعقل الشرقيين ، ولكل طبيعة فكرية شرقية. وبهذا السبب نجد الاسلام يتقدم هذا التقدم المدهش فى افريقية . وليس الأمر كذلك فى أوربة حيث هذه العقيدة لا تصادف اقبالاً ولا نعلم أن من الاوروبيين من تقبَّل الاسلام غير جاعات من الارنووط والبشناق . أما فى الهند فان الفاتحين من العرب والغزنويين والمغول والافغان قد لبثوا زمناً طويلاً حتى أدخلوا فى دينهم هذا العدد الذى دخل فيه من أهل الهند . وليس جميع مسلمى الهند من أصل هندى كما أنه ليس أكثر مسلمى الصين من أصل صينى بل أكثرهم متحدرون من أصول فارسيين وآباؤهم كانوا عمَلَة فى خدمة جنكيز وقوبيلاى .

واذا أردنا أن نفصل بين العقيدة الدينية والضرورة السياسية التى طالما عملت باسم العقيدة لا نجد ديناً أسمح من الاسلام بل نقدر أن نقول لا نجد ديناً متحايداً فيما يتعلق بأديان الآخرين أكثر من الاسلام . وفيما عدا الاحوال المستثناة التى اضطرت فيها الحكومات الاسلامية الى اتخاذ الوسائل الممكنة لتوحيد عقيدة رعاياها فعلى وجه الاجمال كان التسامح وكانت الحرية الدينية هما أساس الشرع الاسلامى ، وذلك بسبب أن القرآن يعلم الناس أن معرفة الحقيقة لا تتعلق بارادة الانسان بل بارادة الله .

وما زال المصنف يشرح هذا المعنى الى أن قال : ان الذى يلتزمه الاسلام من الاعتقاد هو وجود اله واحد يوحى ارادته الى خلقه بواسطة الانبياء . فهذا هو الالف وهو الياء فى هذا الدين وما اعتقد الانسان بالله ورسله فانه يبقى متمتعاً بتمام الحرية فى قضايا وجدانه ويجوز له أن يختلف عن سائر المسلمين فى آراء كثيرة وجدانية ويبقى مع ذلك معدوداً من المسلمين ما دام معترفاً بالله ورسله لا يجحد هذه العقيدة علناً . فنتيجة هذا المبدأ العظيم قد كانت أن يقبل كثير من أبناء الملل الأخرى على الدخول فى الاسلام ، ويشاطروا الأمة الفاتحة منافع الايمان به ، وكذلك ان تدخل تحت هذا الغشاء الرقيق من الأسلام آراء وعقائد ومذاهب قديمة لم تكن من الاسلام فى شئ ، ولكن الاسلام وسعَها . ومن أجل هذا تعددت المذاهب الاسلامية ولم تكن فى العدد أقل من مذاهب النصرانية ومنسوب الى نبى الاسلام القول بأن أمته ستفترق الى فرق كثيرة .

وانه لمن الصعب موافقة القائلين بان الدين الاسلامى مانع للترقى الفكرى بل الذى

يظهر لنا ان القضية هي بالعكس ، فان ديانةً جاءت فيها هذه الجملة : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء . وجاء فيها ان الانسان فى اليوم الآخر يحاسب بقدر ما أعطى من العقل . وقد مرّت من ظهورها فى القرن السابع الى أواخر القرن السادس عشر بادوار سعادة مادية عظيمة مصاحبة لحالة رقى علمى وأدبى لسنا فى الحقيقة محيطين بهـا كلها لا يمكن أن يقال انها ديانة مانعة للترقى الفكرى . واذا قيل انه فى العهد الأخير ظهر الاسلام بمظهر انحطاط من هذه الجهة ، فان أسباب هذا الانحطاط لا يؤاخذ بها الاسلام نفسه . فليتأمل الانسان فيما اذا استمرت فى قطعة من أوربة ادارة عسكرية ، مستبدة غاشمة متغشمرة مدة مائتين وخمسين سنة ، كما جرى فى تركيا . أو استمر حكم مماليك غرباء من كرج وشركس وترك وأرنووط كما جرى فى مصر . أو كما حصل قبل سنة ١٧٣٠ فى فارس من غارات الأفغان ومن حكم نادر شاه العسكرى والمظالم التى رافقت تأسيس دولة آل قاجار الحالية ، فلا شك ان هذه القطعة مهما كانت أوروبية فانها لا تثبت أمام هـذه الحوادث ، وان مآلها يكون الى الانحطاط . ولهذا لا أجد تعليلاً غير هذا التعليل لما نراه من انحطاط البلدان الشرقية ، ولا أرى من العدل أن نلقى على الاسلام مسئولية حالة كهذه وانني أردكل الرد نسبة تقييد العقول الى ديانة لمعت فى ظلها للعقل البشرى أدوار سَنيّة . ولا يقدح فى هذا الأمر أن يكون موجوداً فى الاسلام عدد من المشايخ الجهلاء أو الجامدين . أفلم يوجد مثل هؤلاء وأشد منهم تعصباً وأحطُّ فكراً بين خدمة الدين المسيحى فى أوروبا ؟ انه مما لا مشاحة فيه أن روح النقد والبحث والأخذ والرد ، قد رافق الاسلام من بداية أمره وبدأ من محمد نفسه . والآن فى فارس نجد الشيعة الذين هم الأكثرية فى البلاد منقسمين الى ثلاثة أقسام : الاخبارية والمجتهدية والشيخية . ولكل من هـذه الفرق الثلاث آراء جديدة مبنية على مقتضيات الوسط التى تعيش فيه . فالأخبارية يقبلون جميع الأحاديث والآثار المنقولة عن الأنبياء والأئمة ، وبمقتضى هذا المبدأ يمكن هذه الفئة أن تقبل مبادئ وآراء لم يكن أصلها من القرآن،وذلك بأنه اذا ورد فى الأحاديث النبوية ما يوافقها فقد أصبحت مقبولة عند هذه الفرقة . نعم فى هـذا المذهب سعة لا تنكر وان كان الأخباريون يرون أنفسهم أخلص الشيعة ، ويخالفون محدثى العرب والترك من أهل السنة فى شدة تمحيص الأحاديث ، وتجد فى الاخبار التى يعتمدون عليها ويطبقونها على الاسلام أقوالا باقيه من الديانات الفارسية

القديمة والساسانية ، وتراهم يذهبون فى حشر الأجساد مذهباً يخالف الظاهر من الاسلام ، فلا يقولون بأن الاجساد تعود بعد الموت كما هى ، بل يقولون ان البشر بعد الحساب انما يكتسون مظاهر نورانية . وسواء كان الابرار أو الفجار فلا يظهرون فى الابدان التى كانت لهم فى الحياة الدنيا ، وسواء كان نعيم أولئك أو عذاب هؤلاء، فكله هناك من طبعية عقلية محضة لا مادّية . وفئة الاخباريين هـذه ينتسب اليها كثير من الطبقة الوسطى فى الشعب ، فمهما وجد من الأفكار الغريبة عن الاسلام ، وأمكن وضعه تحت اسم واحد من الأئمة تقبلوه بدون مراجعة. ولهذا تجد كبار علماء الدين يردّون عليهم و يفندون مزاعمهم لاسيما فى طهران .

وأما الشيخية فان لهم صلةً بكثير من مبادىء الاخبارية ، وهم وان كانوا يقولون بحشر الأجساد كما فى الاسلام ، فانهم يتابعون الفيلسوف ابن سيناء فى قضية معراج الرسول الى السماء ، وفى معجزة انشقاق القمر ، ويقولون انه لا يجب تلقى هـذه الامور بحسب ظاهرها ، بل يجب حملها على المجاز، ففى مسألة المعراج يقولون انها كانت رؤيا ـ وهذا الرأى على ضعفه موجود فى الاسلام قال به كثيرون وينسب الى معاوية رضى الله عنه وأما فى مسألة انشقاق القمر فيقولون انه كناية لفظية . ومؤسس الطريقة الشيخية هو الشيخ أحمد البحرينى ، عربى الأصل . كان يدرس فى تبريز وتوفى فى كربلاء ، وله تآليف فى علم الكلام لم يصرح فيها بشىء من هذه المبادىء ، ولكن يقال انه كان يستعمل الكتمان ، وانه كان على جانب عظيم من الجراءة فى آرائه . وللعقيدة الشيخية أنصار كثيرون فى الطبقة العالية من رجال الدين وهم يناصبون الاخباريين العداوة و ينتقدونهم أشد انتقاد فى قبولهم جميع الاحاديث والاخبار بدون نقد ولا تمحيص و يحتجون عليهم بالقواعد التى وضعها أئمة الحديث والتى تقتضى مزيد التحرى . وهم فى هذا المعنى قريبون من أهل السنة . وقولنا قريبون من أهل السنة لا ينبغى أن يؤخذ منه أنهم أميل الى السنة من غيرهم بل هؤلاء أيضا يرون أنفسهم من أخلص الشيعة وأصلبهم عقيدة ، فهم فى الحقيقة وسط بين تدقيق أهل السنة الزائد فى الحديث ، وتساهل الاخباريين فيه وهم أشبه بفرقة پوزيت Puséytes » الانكليز الذين هم من أشد الفرق كراهية للكثلكة ، وهم فى الواقع أقرب من غيرهم اليها .

أما فئة المجتهدية فانهم ينتقدون الاخباريين فى سرعة تهافتهم، وسهولة تلقيهم للاخبار بدون تمحيص ويقولون ان الخبر يجب ليكون معمولاً بموجبه أن يستوفى شروط التمحيص المنصوص عليها فى كتب الأئمة ، فمن الوجهة النظرية لا تجدهم يتساهلون فى هذا الموضوع أصلاً وأما من الجهة العملية فتجدهم بالعكس يقبلون كثيراً من الروايات عن معجزات الرسول والأئمة ، ولا يحبون أن ينازعوا فيها أو أن يتحروا فى أسانيدها ، وكذلك لا يقبلون كلام الشيخية فى حملها على المجاز ، ويرجحون فهمها بحسب ظاهرها ، اذ يرون ارخاء العنان فى التأويل بالمجاز والكناية مفضياً الى هدم الدين نفسه ويرون تحكيم العقل فى كل شئ منافياً للايمان وهم كأسيويين يؤمنون بالمعجزات . وأكثر المجتهدين والاجتهاديين هم من طبقة القضاة ، ومأمورى الادارة ، والذين يشتغلون بالعمل أكثر من النظر . وكثيراً مايتحول الانسان فى فارس من مذهب الى مذهب فبينما هو من الشيخيين مثلاً اذ تراه تحول اجتهاديًّا أو اخباريًّا . أما مذهب السنة فهو ضئيل فى فارس والشعور القومى هناك ضده وقد ازداد بغض الشيعة للسنة من أيام الدولة الصفوية ، وكان العامل فى هذه العداوة سياسيًّا أكثر مما كان دينيًّا . وبالاجمال لا توجد ديانة أكثر فرقاً من الاسلام وذلك لسببين الأول : كثرة عدد الفرق، والمعروف بصورة رسمية انها من الاسلام ، والثانى : ان الانسان يمكنه أن يقبل فى جانب مبادئ القرآن آراء كثيرة لم يكن أصلها منه . فسبب هذه الحرية العظيمة التى تجدها فى الاسلام والتى هى منشأ الأخذ من الخارج هى بساطة العقيدة ووجازتها فهى تنحصر فى قول الانسان : لا اله الا الله محمد رسول الله . فمن صرح بهاتين الشهادتين فهو مسلم

ثم أخذ المصنف يذكر تاريخ البعثة النبوية وما قام به الرسول ﷺ من تصحيح العقائد السابقة وأطال فى هذا المقام وقال ان الرسول كان مصلحاً معتدلاً فى اصلاحه . وقال ان الرسول لم يأخذ ماعلمه عن اليهودية من التوراة رأساً وانما أخذ عن التلمود وعما كان دائراً فى عصره بين اليهود . وكذلك قال ان محمداً كان مصيباً فى قوله ان النصارى حرفوا الاناجيل لان النصارى فى عصره وجد منهم من حرّف الانجيل قال : فنبي الاسلام فى نفسه كان يحترم ملتى موسى وعيسى أشد الاحترام الا أنه كان يشدد النكير على اتباعهما الذين أفسدوا العقائد التى كانا قد أتيا بها . فالاسلام بالكتب الثلاثة التوراة بدون تبديل والانجيل

بدون تحريف ، والقرآن الموحى الى محمد بواسطة جبريل ليس الا اعادة دين العرب القديم الى نقاوته الأصلية ، واحياء ملة ابراهيم كما كانت ، وقد ذكر « دى غوبينو » سيرة الرسول الشخصية فى صفحة ٤١ من كتابه فقال : انه كان بين العرب بل بين جميع معاصريه رجلاً متحليا بشمائل زكية ، رصينا ، محباً للعدل ، محباً للانسانية ، حليماً ، نزيهاً ، الى الدرجة القصوى

وأما الفتح الاسلامى وكيف تحولت به فارس مملكة اسلامية و بقيت فارسية فى نفسها وهو الموضوع الذى نحوم حوله الآن فقد علّله بالأسباب التى سبق ان أوضحها بصور مختلفة وهو ان الاسلام مبدأ سهل سمح يسهل أن تدخل تحته مبادىء جديدة طارئة عليه من الخارج أو راشحة اليه من السابق . وأعظم دليل على هذا الأمر هو التشيّع الذى هو دين فارس اليوم . قال : فالعرب عند ما هدموا ملك كسرى فى وقعة القادسية كانوا قد صادفوا أمة فارسية خامرها الفساد فى أخلاقها كما خامر الأمة البيزنطية . وليس هذا بقادح فيما ثبت للعرب الفاتحين حينئذٍ من البسالة الفائقة والحماسة المدهشة وجميع الفضائل العسكرية من اخلاص وصبر وقناعة وعلو نفس و بعد همة و بصيرة بالحرب . وانما نقول انهم لو صادفوا امامهم فى الشرق ماصادفوه فى الغرب من أمم متعلقة بحكوماتها وأقوام مخلصة لأمرائها لما كانت أمكنتهم تلك الفتوح التى فتحوها فى الشرق بهذه السرعة الغريبة ولكان عمرو ابن العاص وخالد بن الوليد وأمثالهما اضطرا الى العودة الى قفارهم . الا أن المملكة البيزنطية كانت قد نخرت بفساد الأخلاق وتمزّقت بالمجادلات الدينية . وكذلك فارس لم تكن أحسن منها حالاً .

ثم ذكر أحوال ديانات العجم يوم ظهور الاسلام فقال مامحصله : ان المجوس كانوا قد أسسوا فى ظل الدولة الساسانية ملةً رسمية ، زعموا أنه لا يجوز أن يكون غيرها فى المملكة وهو خطأ لم يقع فيه الزاردشتية من قبل . ولم يلحظ المجوس ما كان قد تطرّق الى بلادهم من المذاهب الغريبة ، فان العقائد اليونانية والاشورية والمبادىء الافلاطونية الدينية التى تولدت فى الاسكندرية كانت قد شاعت فى جنوبى فارس وغربيها . وأما فى شمالى فارس فالقبائل التى هناك كانت لم تخضع للديانة المجوسية الا على شرط حفظ شعائرها القديمة التى من جملتها عدم وجود طبقة كهنوتية خاصة . وكانت هذه القبائل تتمسك بعاداتها من أن رئيس

العائلة هو الـكاهن الوحيد لها . وكان قد دخل فى فارس أيضاً عقائد مسيحية ويهودية كان لها تبع كثيرون منهم أمراء وقواد ذوو سلطان ، ودخلت أيضاً البوذية والمانوية والبراهمية وهذه الأخيرة كانت منتشرة فى كرمان ومقاطعات هرمز . وكانت المجوسية الفارسية توخت ارضاء جميع المذاهب وفتحت صدرها لـكثير من العقائد المسيحية واليهودية والـكلدانية . ورأت نفسها ديانة سمحة تريد أن تتفادى المنازعات والمجادلات الدينيـة ، فاصابها فى آخر الأمر مايصيب كل ملة تقصـد التوسّع فتقع فى التضييق ، وذلك انها اضطرت أخـيراً الى الاكراه والاضطهاد . ولما كانت هى دين الحـكومة صار كل ساخط على الحـكومة ناقم عليها سوء الادارة ساخطاً على الديانة أيضاً فلما جرت وقعة القادسـية وانتصر العرب على العجم جاءت فرجاً لـكثير من اليهود والمسيحيين الذين كانت الحـكومة الفارسية تضطهدهم ، وكان الدين العربى الجـديد يعدُّهم أهل كتاب ولا يكلفهم الا أداء جزية تريحهم من التـكاليف العسكرية . وكذلك جاءت القادسـية فرجاً لاصحاب المهن والصناعات الذين كانوا يغرّمون غرامات فاحشـة بحجة أنهم يهينون النار أوالماء أو التراب وهو مما لم يكونوا يقدرون أن يتجنبوه لأجل صناعاتهم . فما كان أسرع مثل هؤلاء بطبيعة الحال الى الدخول فى الاسلام

قال : ولا نريد أن نقول بهذا ان الديانة المجوسية كانت قد فقدت كل حكمها بعـد أن وضعت يدها على الدولة مدة أربعـة قرون ، بل كانت قد بقيت لهـا عروق واشجة فى البلاد . ولمـا انهزمت فى معركة القادسية كان انهزامها مرافقاً لانهزام الدولة والوطن . ولم يمضِ على ذلك زمن حتى صارت هى الممثّلة للوطن الفارسى . فقد كان بقى للسلطة القديمة بقايا ذات بال ، وكان من أمراء فارس من لم يزل متمتعاً بماله وجاهه ونفوذ كلمته ، ولم يكن المسلمون يضطهدونهم كما يظن بعض المؤرخين ، فبقيت شوكتهم قوية . فلما جاء بعض أمراء الترك ينازعون خلفاء العرب الملك و يستقلّون عنهم بامارات لهم خاصة ، وجدوا من استعداد زعماء العجم ماوافق سياستهم حتى ان أشـد هؤلاء الأمراء اسـلاماً مثل محمود الغزنوى مثـلاً كان يقوى العجم على العرب وكان الأدب الفارسى لا يزال الا فى صور معلومة فارسـيًّا فى ديباجتهِ فتأيدت بذلك النزعة الفارسـية ، ثم انطلقت الحرية للشعب الفارسى فصاروا يلعنون العرب علنا بلا نكير حتى دخل فى ذلك أحفاد الذين كانوا أول من ابتهجوا بمقدم العرب . وكانت قد تنوسيت الأحقاد القديمة على السلطة السابقة ، بل كان

الشعب الفارسى رجع يتذكرها و يتأوه على ذلك المجد القديم الغابر . ولم يكن بقى لبيت الملك الفارسى الأخير سلالة ليلتفّ الفرس حولها ولكنه كان من الممكن احياء القومية الفارسية نفسها من جديد وتجديد رياسة دينية شبيهة بالتى كانت بفارس قبل الاسلام . و بالجملة شرعت الوطنية الفارسية تظهر فى نشدان صيغة دينية خاصة بها شبيهة بما كان لها من هذا القبيل قبل ان دخلت فى دين العرب

ولم يكن مما يرد على الخاطر أن تنتقض فارس على الاسلام نفسه فان العالم وقتئذ فى نظر الشرقى كان ينبغى أن يكون مسلماً . فالاسلام كان يمثل القوة السياسية والمجد والحضارة معا . وقد يجوز لهم أن لا يبقوا منه الا الاسم فقط ولكنّ هذا الاسم كان لا بد منه . فالفلاسفة كانوا يعملون تحت اسم الاسلام بجميع قواهم لبث مبادئهم ولو خالفته . والأمراء الساسانيون والغزنو يون والديالمة مثل بنى بو يه كان كلٌّ منهم يعمل على شاكلته ولكنهم كانوا جميعاً ينطوون ظاهراً تحت لواء الاسلام . فكانت الحالة هناك كما هى الحالة الآن فى الغرب : كثير من الناس لا يشهدون المراسم الدينية المسيحية ولا يعتقدون بدين المسيح . ولكنهم فى الوقت نفسه لا يبرحون يترنمون بذكر « المدنية المسيحية » و « العالم المسيحى »

وكان جلّ مقصد العجم صدع وحدة الدولة العربية لانهم كادوا يختنقون تحت سلطان هذه الخلافة العربية المنبسطة على البلدان من اسبانية الى الهند . وكانوا يعملون لاستقلال فارس بنفسها استقلالاً داخليًّا فأول مافكّروا به هو انكار مشروعية خلافة أهل السنة ، والظهور بمظهر المناصرة لحقوق آل البيت المهضومة ، متمسكين بمبدأ شرعىّ هو بزعمهم أعظم مشروعية وأعرق فى الاسلام من المبدأ العربىّ نفسه ، فكأنهم صاروا عرباً أكثر من العرب ومسلمين أكثر من خصومهم . قاموا يستظهرون على العرب بمبادئ لا يمكن هؤلاء أن ينكروها بتاتاً ، وهكذا كان منشأ مذهب الشيعة فى ايران وقد صحبَ منشأه معارك وملاحم لا تحصى ولكنه خدم فارس كثيراً فى قضيتها القومية وجدّد كثيراً من منازعها القديمة .

كان النزاع فى ظاهر الحال دائراً على حق العباسيين فى الخلافة وعدمه . ولكن فى الحقيقة كانت النهضة نهضة فارسية محضة . وأخذت كل بلدة تؤلف لنفسها طبقة دينية خاصة

ولما كان وجود طبقة دينية خاصة — كما فى الدين المسيحى مثلاً — غير متفق مع مبادئ القرآن ولا مع سنة الرسول وكان كلٌّ من المسلمين بحسب الكتاب والسنة غير مقيَّد فى عقيدته بأوامر رجال الدين نزع هؤلاء المسلمون من العجم الى طريقة جديدة وهو أن يقولوا ان القرآن لا تسوغ تلاوته ولا تفسيره الا لعلماء الدين الذين يقال لهم اليوم « مُلا » وهذا منزع أخذه الايرانيون عن فلاسفتهم القدماء وعن مَوَابِذتهم المجوس ، وهي حصر الخدمة الدينية فى طبقة معينة لا تتعدّاهم . وهكذا تجدّدت الديانة الساسانية بشكل اسلامى هو مذهب الشيعة . ولما تأسست الدولة الصفَوية فيما بعد لم تكن سوى دولة ساسانية مسلمة . وان تعمقنا فى حقائق الأشياء نَرى ان التشيع عندهم هو القول بالله أزلى أبدىّ واحد لابداية له ولا نهاية . قد خلق الكون على قواعد ثابتة ، وبيَّن لخلقه شروط النجاة والهلاك وسيكون الرجوع اليه ، والرسول هو أكمل المخلوقات والقرآن غير مخلوق بل وُجد منذ الأزل بالارادة الالهية ، وبالجملة فالله والرسول والقرآن يذكروننا هنا بالعقيدة الفارسية القديمة المسماة « الزروانه اكرنه » أى الزمان بدون حدّ . وأما العمل فهو للأئمة آل البيت فهم الذين يحفظون العالم ويهدونه الى صراط مستقيم وليس فى الخارجَ عنهم الا الظالمات . فالاقتداء بهم هو النجاة ، والانحراف عنهم هو الهلاك . وهم اثنا عشر اماماً . واذا تأمل الانسان ، يجد اعتقاد العجم المسلمين فى علىّ أشبه باعتقاد العجم القدماء فى هرمزد المخلّص الحافظ القيوم ، كما أن ذريته أشبه بالملائكة الصالحين الذين فى ديانة زردشت يقاتلون الأرواح الخبيثة . وأما قضية الشيطان والقتال الدائم بينه و بين الأئمة فهى أشبه بقضية أهرمان فى المجوسية القديمة . ولذلك تجد أهل السنة يكرهون هذه الاعتقادات أشد الكره و يرون فيها الاعتقادات المجوسية القديمة ، ولعمرى ليسوا بمُخطئين . ولكنهم لا يقدرون أن يلوموا الا أنفسهم نظراً للسعة التى فى مذهبهم فانهم قد حاولوا أن يدخلوا فى الاسلام من الخلق بقدر استطاعتهم ولم ينظروا الى ما كان المسلمون الجدد يحملون فى حقائبهم ويُدخلون به على الاسلام . انتهى

هذه خلاصة ماذكره الكونت « دوغو بينو » وقد يكون اطلع على أحوال العجم أكثر من كل أوربى . ولكننا لا نقدر أن نتلقى جميع قضاياه بدون فحص وان أصاب فى كثير منها : ومما لا مشاحة فيه ان أهل فارس يغلون فى على وآل البيت أكثر جداً من

الشيعة العرب ، كالزيدية فى اليمن ، والمتاولة فى الشام ، والشيعة فى العراق ولكننا لا نقدر أن نقول ان هذه الخصائص التى لآل البيت وهذه العصمة للأئمة الاثنى عشر غير معروفة أصلاً عند الشيعة من العرب . فان كانت الأسباب السياسية وحدها هى التى حملت أهل فارس على النزوع الى مذهب الشيعة ليقيموا منه خصما لمذهب السنة و يجددوا الدولة الفارسية التى كان العرب قد قضوا عليها ، فماذا نقول فى شيعة العراق وشيعة الشام وشيعة اليمن وكلهم عرب اقحاح ينزع بهم عرق العربية كما ينزع بأهل السنة بدون فرق .

انى لا أخالف هذا المؤلف فى كون الفرس نقلوا كثيراً من عقائدهم القديمة الى الاسلام ، ولا أخالف أيضاً فى كونهم انتقضوا على العرب مراراً ، وحاولوا تأسيس ممالك فارسية فى وجه الخلافة العباسية ، وأنهم أيضاً احتفظوا باللسان الفارسى فى وجه اللسان العربى ، وأن تشيعهم للعلوية انما كان أكثره ناشئاً عن أغراض سياسية فى أصلها، المقصد منها مقاومة الحكم العربىّ . ولقد تقدم لى هذا البحث بعينه فى هذه الحواشى ولم أكن اطلعت عندما حررت ذلك البحث على كتاب الكونت دوغو بينو فأنا اذن متفق معه فى المبدأ ، وانما أخشى أن يكون مبالغاً فى بعض الأمور وذاهباً فى اطلاق الحكم مذهب الأور بيين بنى جلدته ، فيما يتكلمون به عن الشرق . فالتشيع لم يبدأ فى فارس بل بدأ فى الحجاز نفسه أى فى موطن العرب ، وظهر بعد ذلك فى الشام بواسطة أبى ذرّ الغفارى ، وقد سبق لى بحثٌ وافٍ فى هذا الموضوع نشرته فى مجلة المقتطف سنة ١٩١٠ مسيحية وجاذبنى فيه الحبل المجتهد الكبير ثقة الاسلام التبريزى الذى استشهد بيد الروس عند مادخلوا اذربيجان العجم بعد ذلك التاريخ بأشهر قلائل .

وكذلك نشر الاستاذ المحقق الشيخ احمد رضا من علماء جبل عامل مقالات ممتعة فى المقتطف عن أصل التشيُّع فى القطر الشامى ذكر فيها أنه لما نفى أبو ذر الغفارى من المدينة الى الشام بأمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، أقام أبو ذر فى دمشق ينشر دعوته العلوية ، وآراءه الاشتراكية فى عدم جواز استئثار الأغنياء بالأموال دون الفقراء ، واستجاب دعوته قوم فى دمشق لا تزال أعقابهم الى اليوم . ثم انه كان يخرج الى الساحل فكان له مقام فى قرية الصرفند القريبة من صيداء ومقام آخر فى قرية ميس المشرفة على غور الاردن وكلتاهما من قرى جبل عامل . والمقامان الى الآن معروفان. فكان له من ذلك

الوقت فى هذه الديار من استجاب دعوته فى التشيّع وكان معاوية استغاث بعثمان من أبى ذر وكتب اليه ان أبا ذر أفسد علينا الشام فأمره بردّه الى المدينة ، فأرسله اليها مهاناً على بعير ضالع بلا غطاء ولا وطاء ، بعد أن شتمه ونال منه ما اشتهى ، كما ذكر ابن الأثير فى كامله ، والطبرى فى تاريخه ، وان كرها أن يذكرا أسباب نفيه بعد ذلك الى الربذة ، الا مانسباه الى أبى ذر من الآراء الاشتراكية . قال صديقنا الاستاذ الشيخ احمد رضا : ولا يمكن التسليم بأن الأمر الذى أحرج معاوية فأخرجه عن حلمه حتى فعل بأبى ذر مافعل هو رأيه هذا وحده ، بل هو أمرٌ أهمّ من هذا وأعظم ، وهو الدعوة الى العلوية التى كانت تقضى على آمال معاوية كلها . قال : وكان أبو ذر معروفاً بميله الشديد الى الهاشميين عامة والى على خاصة ، وكان ممن تخلف مع على عن البيعة يوم السقيفة ، على مارواه أبو الفداء وغيره ، بل هو أول من أطلق عليهم اسم الشيعة . ورد فى كتاب الزينة فى تفسير الألفاظ المتداولة بين أرباب العلوم لأبى حاتم الرازى كما نقله عنه صاحب الروضات : « ان أول اسم ظهر فى الاسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الشيعة ، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة وهم : أبو ذر وسلمان الفارسى والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر ، الى أن آن أوان صفين فاشتهر بين موالى على عليه السلام »

قال الشيخ احمد رضا : « أما الشيعة فى ايران والعجم فقد كان مبدأ أمرها فى أوائل الدعوة العباسية ولم تكن يومئذٍ ثابتة الأركان ولا فى زمان بنى بويه ، والدولة العلوية هناك الى أن انقضى أمر الخوارزمية فى ايران ، وأقام المغول حكومتهم فى قلب ايران ، وتعاقبت ملوكهم الى زمان السلطان الجايتو محمد المغولى الملقب بشاه خدابنده ، فهو الذى أظهر التشيع فى ايران ودعا اليه وأمر بان يخطب بأسماء الأئمة الاثنى عشر على المنابر . (الى أن قال) : ولكن دولة العجم لم تصبح شيعية محضة قبل زمن الشاه عباس الكبير الصفوى الذى كان فى القرن العاشر (للهجرة) وكان صاحب الفتيا لديه بل مرجع ايران فى زمانه المحقق الكركى العاملى . ويقول جودت باشا فى تاريخه ان الشاه عباس هو الذى بث مذهب التشيُّع فى ايران وأقام الدولة الصفوية على أساسه . اه

أقول ان هذه الروايات التى نقلها الاستاذ الشيخ أحمد رضا العاملى من أعضاء مجمعنا العلمى العربى تطابق المشهور والمأثور فى التواريخ المعتبرة ، الا انى لا أعلم من أين نقل ان

أبا ذر الغفاري رضي الله عنه كان يختلف الى الساحل والى مشارف الغور هل عثر لذلك على نصوص أم هو من الأخبار المتواترة بين شيعة جبل عامل ؟ لست أعلم .

أما الذي في طبقات ابن سعد من خبر أبي ذر الغفاري ، فهو أنه جاء الى دمشق وأنه اختلف مع معاوية . قال : أخبرنا هشيم قال أخبرنا حصين عن زيد بن وهب قال : مررت بالرّبذة (١) فاذا أنا بأبي ذر قال : فقلت ماأنزلك منزلك هذا ؟ قال كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » قال معاوية نزلت في أهل الكتاب قال : فقلت نزلت فينا وفيهم . قال فكان بيني وبينه في ذلك كلام . فكتب يشكوني الى عثمان . قال فكتب اليّ عثمان : أن أقدم المدينة ، فقدمت المدينة وكثر الناس عليّ كأنهم لم يروني قبل ذلك . قال : فذُكر ذلك لعثمان فقال لي : ان شئت تنحّيت فكنتَ قريباً فذاك أنزلني هذا المنزل ولو أُمّر عليّ حبشيّ لسمعت ولأطعت .

وروى ابن سعد حديثاً آخر قال أخبرنا يزيد بن هارون قال أخبرنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين أن رسول الله ﷺ قال لابي ذر : اذا بلغ النبأ سَلْعاً فاخرج منها ونحا بيده نحو الشام ولا أرى أُمراءك يدَعُونك . قال يارسول الله : أفلا أقاتل من يحول بيني وبين أمرك ؟ قال : لا . قال : فما تأمرني قال : اسمع وأطع ولو لعبدٍ حبشي . قال : فلما كان ذلك خرج الى الشام فكتب معاوية الى عثمان : ان أبا ذر قد أفسد الناس بالشام . فبعث اليه عثمان فقدم عليه ثم بعثوا أهله من بعده فوجدوا عنده كيسا أو شيئاً فظنوا انها دراهم فقالوا ماشاء الله فاذا هي فلوس (قطع نحاسية صغيرة) فلما قدم المدينة قال له عثمان : كن عندي تغدو عليك وتروح اللقاح . قال . لاحاجة لي في دنياكم . ثم قال : ائذن لي حتى أخرج الى الرّبذة ، فأذن له فخرج الى الربذة وقد أُقيمت الصلاة وعليها عبدٌ لعثمان حبشيّ فتأخر فقال أبو ذر تقدّمْ فصَلّ فقد أمرت أن أسمع وأطيع ولو لعبد حبشي فأنت عبد حبشي . قال ابن سعد : أخبرنا يزيد بن هارون قال أخبرنا العوام بن حوشب

(١) الربذة من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز اذا رحلت من فيتد تريد مكة وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري رضي الله عنه واسمه جندب بن جنادة وكان قد خرج اليها مغاضباً لعثمان بن عفان رضي الله عنه فأقام بها الى أن مات في سنة ٣٢ . عن معجم البلدان بحرفه

قال حدثنى رجل من أصحاب الآجر عن شيخين من بنى ثعلبة رجل وامرأته قالا : نزلنا الربذة فمرّ بنا شيخ أشعث أبيض الرأس واللحية فقالوا : هذا من أصحاب رسول الله ﷺ . فاستأذناه أن نغسل رأسه فأذن لنا واستأنس بنا فبينْا نحن كذلك اذ أتاه نفر من أهل العراق ، حسبتُهُ قال من أهل الكوفة فقالوا يا أبا ذر : فعل بك هذا الرجل وفعل ، فهل أنت ناصب لنا راية فلنكمل برجال ماشئت . فقال : يا أهل الاسلام لاتعرضوا علىّ ذاكم ولا تذلوا السلطان فانه من أذل السلطان فلا توبة له ، والله لو أن عثمان صلبنى على أطول خشبة أو أطول حبل لسمعت وأطعت وصبرتُ واحتسبت ، ورأيت ان ذاك خيرٌ لى . ولو سيرنى مابين الافق الى الافق أو قال مابين المشرق والمغرب ، لسمعت وأطعت ، وصبرت واحتسبت ، ورأيت انذاك خيرٌ لى ، ولو ردّنى الى منزلى لسمعت وأطعت وصبرتواحتسبت ورأيت ذاك خيراً لى . قال أخبرنا الفضل بن دكين قال حدثنا جعفر بن برقان عن ثابت بن الحجاج عن عبد الله بن سيدان السلمى قال : تناجى أبو ذر وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما ثم انصرف أبو ذر متبسماً فقال له النـاس : مالك ولأمير المؤمنين ؟ قال : سامع مطيع ولو أمرنى أن آتى صنعاء أو عدن ثم استطعت أن أفعل لفعلت . وأمره عثمان أن يخرج الى الربذة . هذا وقد نقل ابن سعد بأسانيد متعددة قول رسول الله ﷺ : ماأقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبى ذرّ . ولهذا الحديث فى بعض الروايات تتمة وهى : من سرّه أن ينظر الى زهد عيسى بن مريم فلينظر الى أبى ذر . ونقلوا عن أبى ذرّ انه قال أوصانى خليلى بسبع : أمرنى بحب المساكين والدنو منهم ، وأمرنى أن أنظر الى من هو دونى ولا أنظر الى من هو فوقى ، وأمرنى أن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرنى أن أصل الرحم وان أوذيت ، وأمرنى أنأقول الحق وان كان مُرّاً ، وأمرنىأن لا أخاف فى الله لومة لائم ، وأمرنى أن أكثر من لاحول ولا قوة الا بالله ، فانهن من كنز تحت العرش . وكان ينفق كل مابيده ويقول : ان خليلى عهد الىّ أىُّ مال ذهب أو فضة أُوكى عليه ، فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله . ولقى أبو موسى الأشعرى أبا ذر فلزمه ، فجعل الأشعرى يقول له : أنت أخى ومرحبا بأخى . وجعل أبو ذر يقول له : اليك عنى لست بأخيك انما كنت أخاك قبل أن تُستعمل .

لقد نقلنا هذه الأحاديث مكتفين بها عن غيرها من أخبار أبى ذرّ لاجل أن نعرف

القارئ بحقيقة حال أبي ذر فقد ثبت انه كان شديداً في الحق لا يخاف فيه لومة لائم ، وانه كان زاهداً في الدنيا ، وكان على منزع اشتراكي يميل الى الفقراء والمساكين ، ويكره ادخار الأموال ، لكنه برغم خلقه هذا كان يرى الطاعة للسلطان ، كأنه كان يذكر دائماً ما أوصاه به الرسول ﷺ وهو : اسمع وأطع ولو لعبد حبشي . فأما ذهابه الى الشام فالشائع ان عثمان نفاه اليها وليس في الطبقات الكبرى لابن سعد تصريح بأنه نفاه الى الشام وانما هناك ايماء بانه رأى مالم يعجبه وهو في المدينة فخرج الى الشام ، ثم اختلف في الشام مع معاوية . فكتب معاوية الى عثمان يقول له : ان أبا ذر أفسد الناس علينا . فأمره برده الى المدينة . ولم أقف على أثر في الطبقات لسكناه بجبل عامل وساحل صيداء ، ولكن قرأت خبراً يدل على أن أبا ذر جاء بيت المقدس .

وعلى كل حال خبر أبي ذر الغفاري بانه كان من شيعة عليّ خبر شائع بين الناس ، ومن الثابت ان التشيع بدأ عند العرب قبل العجم ولكن الغلو في التشيع بدأ عند العجم . ويجوز أن يكون هذا الغلو في التشيع ، وهذا الاعتقاد في عصمة الأئمة ، والقول بان ادارة الكون هي في يدهم ، من آثار الديانات الفارسية القديمة كما ان الأسباب السياسية التي أشرنا اليها سابقاً من نزوع العجم الى الأخذ بثأرهم من العرب كانت أيضا عاملة في نشر التشيع في فارس . وأما كون غلبة التشيع الحقيقية على تلك المملكة لم تقع الا في عهد الدولة الصفوية ، فهذا يقع الاجماع عليه ويؤيده الكونت دوغوبينو في كتابه الذي ذكرناه . ويصرح به الاستاذ الشيخ احمد رضا ومن قبل هذا الدور لم يبلغ التشيع هذه الدرجة من القوة في فارس بل نجد في التواريخ مايدل على العكس

وفي رسائل أبي بكر الخوارزمي رسالة الى جماعة الشيعة بنيسابور يعدد فيها جميع ماجرى من المحن والمظالم على آل البيت ولو انتدب أحد علماء التاريخ لشرحها لجاء منها كتاب كبير وفيها يقول : « ونسأل الله أن لايحشرنا على نصب أصفهاني ولا على بُغض لأهل البيت طوسي أو شاشي » وهذا يدل على ان التشيع لم يكن غالبا على تلك البلاد كما هو اليوم . بل كان في العجم نواصب وكان بلد كبير مثل أصفهان معروفاً بشدة العداوة لآل البيت وهذا بشهادة رجل من كبار المتشيعين وأدباء عصره كابي بكر الخوارزمي . أما الدلائل التي يستخلصها الانسان من التواريخ على استعداد العجم للتشيع فهو اتفاق

المؤرخين على كون الخلافة العباسية انما قامت بالأعاجم أيام كانت الدعوة الهاشمية واحدة لم يفترق فيها بنو العباس عن بنى أبى طالب . ولقد قال المسيو هوار المستشرق الفرنسى صاحب « تاريخ العرب » ان العجم فى وقعة الزاب أى الوقعة التى انهزم بها مروان بن محمد آخر بنى أمية ، أخذوا بثأرهم عن يوم القادسية . ثم انه ظهر أن آل برمك برغم كل ما كانوا عليه من الحظوة فى زمان المنصور والرشيد كانوا فى الباطن يميلون الى آل البيت ، حتى قيل ان سبب نكبتهم هو اطلاق جعفر بن يحيى البرمكى سبيل يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على رضى الله عنهم بدون اذن الرشيد ، بعد أن دفعه الرشيد اليه وجعل اعتقاله فى داره . وكذلك يعلم الناس أن بنى بويه كانوا شيعة وانهم بعد استيلائهم على بغداد والتزامهم نصرة الخلافة العباسية والعمل تحت لوائها لم يزالوا شيعة .

* * *

أما الحالة الراهنة الآن فى فارس وهو الذى يهم التعريف به ، اذ كان من أهم موضوعات حاضر العالم الاسلامى ، فهى ان الدولة الفارسية لاتزال دولة اسلامية وحامية للتشيع فى الاسلام . ولما كان ضعف الأمة الواحدة يزيل مابين أحزابها المختلفة من الأحقاد فقد كان من نتائج ضعف الأمة الاسلامية فى العصر الحاضر ، زوال كثير من البغضاء التى كانت عند العجم لأهل السنة ، وزوال مثل ذلك من أهل السنة للشيعة ، وقد يورث الخير شراً والشرّ خيراً ، ولقد لحظ كل من ساح فى بلاد العجم حتى من الاور بيين ان الأمة الفارسية فى العصر الحاضر تشعر بشعور العالم الاسلامى جميعه ، فتهتمّ لتركيا ، ولبلاد العرب، ولمصر ، وللمغرب ، ولكل بلاد الاسلام اهتماماً أكيداً ، ويكربها مايكرث المسلمين ، ويسرها مايسرهم ، وسمعت مرة الأمير العلامة الجليل أرفع الدولة رضاخان ممثل فارس فى جمعية الأمم يقول من خطبة له فى جلسة عمومية : ان فارس تمثل فى عصبة الأمم العالم الاسلامى المؤلف من أربعمائة مليون نسمة . وقد كان من دلائل القرب بين الشيعة والسنة عقد الحكومة الفارسية الحاضرة معاهدات صداقة بينها وبين تركيا ، وبينها وبين العراق ، وبينها وبين الحجاز ونجد ، وبينها وبين مصر ، وكلها حكومات سنيّة . وفى أواخر السنة الماضية عندما انعقد المؤتمر الاسلامى فى القدس الشريف شهده جماعة من أعيان الشيعة كالسيد الطباطبائى ، والسيد الحسين آل كاشف الغطاء ، وجماعة من علماء الشيعة فى العراق ،

وجاعة من علماء الشيعة العاملين منهم الاستاذان الشيخ سليمان ظاهر ، والشيخ احمد رضا وغيرهم ، وقد صلى أعضاء المؤتمر الممثلون لجميع العالم الاسلامى مرتين بامامة المجتهد الـكبير السيد حسين آل كاشف الغطاء ، ولم يخطر ببال أحـد الاعتراض على ذلك بل ابتهج به المسـلمون جميعاً وصرح رياض بك الصلح مفخر شبان سوريا بأنه اليوم قد انبثق فجر الوحدة الاسلامية .

نعم ان فى فارس اليوم نزعة لادينية تبحث فى وقت واحد عن الالحاد فى الدين ، وعن تاريخ فارس القديم ، وتريد التجدُّد العصرى بزعمها ، واحياء الفارسية التى مرّت عليها ألوف من السنين أى الحديث الأحدث مع القديم الأقدم تحاول الجمع بينهما ولـكنها لاتبلغ درجة الفئة المماثلة لها فى تركيا من جهة الغلو فى التجدد مع احياء التركية القديمة . وكلتا الفئتين لا تقدران على زعزعة الاسلام لافى فارس ولا فى تركيا

***

وهذا ما كنا نشرناه فى مجلة المقتطف عن الشيعة تحت عنوان « المتاولة أو الشيعة فى جبل عامل [١] :

اطلعت فى المقتطف على ما كتبه حضرة الفاضل الشيخ أحمد رضا من أدباء جبـل عامل بشأن طائفة الشيعة المعروفة بالمتاولة فى هذا الجبل وتأملت فيما أورده من تاريخ ظهورها فيـه مع سبب اشتهار الشيعة فى بر الشام دون غيرها باسم « المتاولة » الى غـير ذلك من التنقيبات الحرية بالاعتبار فآثرت أن أضم الى هـذا البحث بعض ما خطر لى فيـه اتماماً للفائدة ووفاء بالبلاغ لامن قبيل الاعتراض ولا على جهة المحاجة بل من قبيل اضافة رأى الى الآراء والقاء دلو بين الدلاء فأقول :

ذكر الـكاتب أن لقب متاولة مشتق على غير القياس . من تولى أى اتخذ ولياً لانهم تولوا آل البيت النبوى رضوان الله عليهم أى اتخذوهم أولياء أو هو مشتق من توالى أى تتابع نظراً لتواليهم خلفاً عن سلف فى موالاة العترة المصطفوية . والذى أراه أن التوجيـه الأول هو الأقرب وانه هو الاصل فى التسمية فان تولى يأتى فى اللغة بمعنى اتبع كما يأتى بمعنى انصرف فـكأنه من الاضداد وهذا منزع معروف للعرب وقد جاء منه فى الـكتاب العزيز بمعنى الاعراض « وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم » وجاء بمعنى الاتباع : « ومن يتولهم منكم

(١) مقتطف أغسطس سنة ٩١٠ ص ٧٣٩

فانه منهم » أى يتبعهم و ينصرهم . والشيعة قد تولوا آل البيت أى اتبعوهم فقيل فى اسم الفاعل متولى وتحرفت الكلمة بطول الزمن على ألسنة العامة فقيل « متوالى » وجعوه متاولة وكان الاولى أن يقال فيه متولية . والوجه الثانى هو من توالى فى حب آل البيت أى تتابع فيكون اسم فاعله « متوالى » ولا تحريف عندئذ فيه من جهة مفرده لكن يبقى التحريف فى جمعه اذ لا جمع لمتوالى على متاوله بل جمعه الصحيح متوالية وقد سمعت وجهاً ثالثا من فم استاذنا الامام الشيخ محمدعبده المصرى أكرم الله مثواهوهو أنهم كانوا يقولون للعلوى «مُتْ وليًّا لعلىّ» وكان يحرض الشيعة بعضهم بعضا على الثبات فى حب آل البيت بهذا الكلام فصيغت من ذلك كله كلمة «مُتَوَلِّى » ثم صارت بتوالى الأيام مُتَوالى وكلها وجوه غير بعيدة والغرابة ليست فيها بل فى كون هذه اللفظة غيرمعروفة الا لشيعة بر الشام بل لشيعة جبل عامل وجبل لبنان وبعلبك . ففى العراق شيعة لا يقال لهم متاولة وفى اليمن شيعة يقال لهم الزيدية ولايقال لهم متاولة وفى العجم شيعة أكثر من كل محل ولا يقال لهم متاولة و بين مسامى الهند ملايين من الشيعة ولا يعرفون بلقب متاولة . وأغرب من هذا أن فى نفس دمشق الشام محلة يقال لها الخراب سكانها من العلويين ويقال لهم هناك روافض ولا يقال لهم متاولة و بالاجمال فالشيعة فى جميع بلاد الاسلام تحت ألقاب شيعة وعلوية وامامية وجعفرية وزيدية واثنا عشرية وغير ذلك وكلمة متاولة مخصوصة بشيعة بر الشام

على أن المجانسة فى المعنى بين التشيع والموالاة ظاهرة بل المعنى واحد فى اللفظتين والولى أو المتولى هو المشايع أو المتشيع ورد فى كتاب «غاية الاختصار فى أخبار البويوتات العلوية المحفوظة من الغبار » للسيد الشريف تاج الدين بن محمد بن زهرة الحسينى نقيب حلب قوله كل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيعة وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره و يقال شايعه كما يقال والاه من الولى والمشايع

هذا ما حضر لى الآن من جهة كلمة متاولة وأنا موافق لصاحب البحث على كونها حديثة العهد جرت على الألسنة منذ مائتى سنة فقط لأن المؤرخين لم يذكروا هذه اللفظة عند ذكر شيعة بر الشام مع كون هذه الطائفة موجودة فى القطر منذ أوائل الفتح الاسلامى

أما ما ذكره من جهة مبدأ التشيع فى الشام وانه من سيدنا أبى ذر الغفارى الذى نفاه الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنهما الى الشام وكان يخرج الى الساحل وله مقام بقرية

الصرفند ومقام آخر فى مشارق الغور الى غير ذلك فهو قول متواتر بين الناس وربما كان أقرب الاقوال الى الصحة ولكن كنت أحب أن يكون الكاتب أورد النصوص التاريخية من أمهات الكتب أو نقل من الروايات ما فيه زيادة تفصيل وشفاء للغليل فان التاريخ المعروف لدينا قصير العبارة جداً عن هذا الحادث وهذه الظلمة فيه هى التى أضلت كثيراً من المؤرخين فى حقيقة أصل الطائفة الشيعية فى جبل عامل ، وحملت بعضهم على الظن أنهم قوم أتوا من العجم فلا انكار أن أبا ذر كان موالياً لعلى أى كان شيعياً وانه من المتخلفين عن مبايعة الصديق يوم السقيفة وله فى ذلك شركاء من الصحابة نصت على ذلك الأمهات . فأما مقامه بالشام فغاية ما ذكروه فيه أنه كان ينكر على معاوية جمع الأموال ويشنع عليه بهذا السبب حتى شكاه معاوية الى عثمان فنفاه الى الربذة . ذكر أبو الفداء فى حوادث سنة ٢٥ وفاة أبى ذر الغفارى واسمه جندب بن جنادة قال : « وكان بالشام ينكر على معاوية جمع المال ويتلو « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ » الآية فكتب معاوية الى عثمان يشكوه فكتب اليه عثمان أن اقدم المدينة فقدم الى المدينة فاجتمع الناس عليه وصار يذكر ذلك ويكثر الشناعة على من كنز الذهب والفضة فنفاه عثمان الى الربذة » أما تسمية هذا الجبل بجبل عامل أو جبل عاملة فلم أجد الكاتب تعرض لها مع أن فيها ما يثبت كون سكان هذا الجبل عرباً لا عجماً وذلك لأن مؤرخى العرب اتفقوا على كون حمير وكهلان وأشعر وعمرو وعاملة هم ولد قحطان وان أباهم هو يشجب ابن يعرب بن قحطان وان من حمير التبابعة و بنى شعبان وقضاعة ومن كهلان الازد وطيء ومذحج وهمدان وكندة ومراد وانمار . ومن كل من هؤلاء بطون وأفخاذ كثيرة . وأما أشعر فهى القبيلة التى ينسب اليها أبو موسى الأشعرى وأما عمرو فمنهم لخم وجذام وأما عاملة فخرجوا الى الشام و نزلوا بالقرب من دمشق بجبل عرف بجبل عاملة ، ومنهم عدى بن الرقاع الشاعر وعلى هذا يكون أصل مكان هذا الجبل من عرب اليمن وربما يكون نزل فيهم أيضاً قوم من السكاسك وهى قبيلتان على ما حققه ابن الجوّانى النسابة. الاولى من كندة والثانية من حمير وهم بنو زيد بن واثلة بن حمير ويلقب بزيد السكاسك وكلاهما باليمن والذى حملنى على هذا الظن وجود أرض يقال لها السكسكية الى الجنوب من الصرفند على سيف البحر

وقد ورد ذكر جبل عامل فى مواضع كثيرة . قال ياقوت فى معجم البلدان عند ذكر هونين: بلد فى جبال عاملة . وقال عند ذكر تبنين : بلدة فى جبال بنى عامل المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور . وورد فى تاريخ ابن الأثير عند ذكر حصن الافرنج تنين : ان الملك العزيز خرج من مصر لنجدة المسلمين فى الشام ورحل هو والعساكر الى جبل الخيل (الخليل) ويعرف بجبل عاملة

ومن الغريب أنه لم يرد فى الكتب القديمة ذكر هذا الجبل باسم بلاد بشارة كما هو معروف به اليوم والشيخ احمد رضا يقول ان نسبة هذه البلاد هى الى أحد حكامها فى العصور الوسطى قيل انه من الأمراء بنى معن وقيل هو بشارة بن مقبل القحطانى وان كل ذلك لم يقم عليه برهان وقوله هذا هو الصحيح أما الامراء بنو معن فلم نجد فى تاريخهم من اسمه بشارة . وأما بشارة بن مقبل القحطانى فحبذا لو ورد شئ من تاريخه لنعلم أين كان مقره ومن كان صاحب هذا الاسم اذ لو عرفنا شيئاً من أمره لكان يمكن ترجيح هذه الرواية على غيرها وما دام صاحب هذا الاسم مجهولا فالأولى أن تكون هذه البلاد منسوبة الى حسام الدين بشارة من أمراء الدولة الأيوبية قال ابن شداد فى سيرة صلاح الدين يوسف انه أتى عكا فأقام بها معظم سنة ٨٥ ورتب بها بهاء الدين قراقوش والياً وأمره بعمارة السور ومعه حسام الدين بشارة وقال أيضاً انه فى سادس عشر جمادى سنة ثمان وثمانين وصل كتاب من حسام الدين بشارة يذكر أنه تخلف فى صور مائة راكب وانضم اليهم من عكا خمسون وخرجوا لشن الغارات فى البلاد الاسلامية فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف وجرى بينهم قتال شديد

وقد ورد ذكر حسام الدين بشارة مرة ثالثة فى تاريخ ابن شداد عند حلف اليمين للافضل بن صلاح الدين بعد وفاة والده وظهر من كلامه أنه كان من أكابر أمراء تلك الدولة فلا يمنع أن يكون تولى هذه البلاد ونسبت اليه وهو أقرب وجه فى هذه النسبة حتى يقوم ما يدل على رجحان خلافه

أما كون التشيع فى جبل عامل هو أقدم من العجم بل فى كل قطر حاشا الحجاز فمن الحقائق التى لا خلاف فيها بل التشيع فى العجم أحدث منه فى سائر بلاد الاسلام . فجودت باشا فى تاريخه يقول ان الشاه عباس هو الذى بث مذهب التشيع فى ايران وأقام الدولة

الصفوية على أساسه . والمحبي يقول ان الشاه عباس بن السلطان محمد خدابندة بن طهماسب ابن الشاه اسماعيل بن سلطان حيدر ينتهي نسبه الى الامام علي وان أول من بالغ في التشيع وأظهره هو السلطان حيدر وكان ذلك سنة ست وتسعمائة وهذا مخالف نوعاً لما قاله جودت باشا وعلى كلا القولين فالتشيع في العجم غير قديم كما أنه في العرب وفي بر الشام لم يكن ظاهراً بل كانت الشيعة تتمسك بحبال التقيّة خوفاً على أنفسهم . ولذلك نجد المؤرخين يتجانفون عن نسبة علماء الشيعة الى التشيع الا اضطراراً فقد ترجم المحبي محمداً بن علي بن محمود الشامي العاملي المعروف بالمشغري ونقل عنه ماقاله بن معصوم في السلافة من الثناء والاطراء وذكر أنه خرج من الشام الى العجم ولم يذكره بتشيع ولا رفض وكذلك ترجم حسناً ابن زين الدين الشهيد العاملي الشهير بالشامي ولم ينسبه الى التشيع وذكر حفيده زين الدين ابن محمد بن حسن كذلك . انما في ترجمة محمد بن علي بن احمد المعروف بالحريري وبالحرفوشي العاملي الأديب الشاعر ذكر اخراجه من دمشق وسعي يوسف بن أبي الفتح عند الحكام بقتله بنسبة الرفض اليه وانه سار الى بلاد العجم وان سلطانها الشاه عباس صيره رئيس العلماء في بلاده . كذلك عند ما ترجم محمد الخ العاملي الشامي نقل عن ابن معصوم صاحب السلافة أنه قدم من مكة في سنة سبع أو ثمان وثمانين وألف وفي الثانية منهما قتلت الأتراك جماعة من العجم لما اتهموهم به من تلويث البيت الشريف وان المترجم خاف على نفسه فالتجأ الى السيد موسى بن سليمان ونجا . وذكر المحبي أن ممن قتلوا بتلك التهمة السيد محمد مؤمن وكان رجلا متعبداً الا أنه معروف بالتشيع

ولما وصل الى ترجمة فريد عصره بهاء الدين العاملي صاحب الكشكول ذكر أنه ولد ببعلبك غروب شمس الأربعاء لثلاث عشرة بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وانتقل أبوه الى بلاد العجم وما زال يتدرج في سلم الفضل الى أن ولي مشيخة الاسلام في تلك الديار . وقال « وغالت تلك الدولة في قيمته واستمطرت غيث الفضل من ديمته فوضعته على مفرقها تاجاً وأطلعته في مشرقها سراجاً وهاجاً وتبسمت به دولة سلطانها شاه عباس واستنارت بشموس رأيه عند اعتكار حنادس الباس فكان لا يفارقه حضراً ولا سفراً الخ » ثم نقل عبارة الطالولي في حقه التي أطراه فيها بما لم يسمح به لأحد وقال ان شاه عباس طلبه لرياسة علماء بلاده لكنه لم يكن على مذهب الشاه في الزندقة لانتشار صيته في

سداد دينه الا أنه غالى فى حب آل البيت . وذكر المحبى أنه لما نزل الشام نزل بمحلة الخراب وهى الآن محلة الشيعة . ونقل فى حقه عبارة للشيخ أبى الوفاء العرضى وهى أنه لما قدم حلب فى زمان السلطان مراد بن سليم حضر دروس الوالد أى الشيخ عمر وهو لا يظهر أنه طالب علم حتى فرغ من الدرس فسأله أدلة تفضيل الصديق على المرتضى فذكر حديث ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين أفضل من أبى بكر فردّ عليه وأخذ يذكر أشياء كثيرة تقتضى تفضيل المرتضى فشتمه الوالد وقال له (رافضى شيعى) وسبّه فسكت ثم ان صاحب الترجمة أمر بعض تجار العجم أن يصنع وليمة يجمع فيها بين الوالد و بينه فصنعها ودعاهما فأخبره أن هذا هو المنلا بهاء الدين عالم بلاد العجم وقال للوالد : شتمونا فقال له : ما علمت أنك المنلا بهاء الدين . ثم قال : أناسنى أحب الصحابة ولكن كيف أفعل سلطاننا شيعى و يقتل العالم السنى . قال المحبى ولما سمع بقدومه أهل جبل عامل تواردوا عليه أفواجا أفواجاً نخاف أن يظهر أمره فخرج من حلب

ومن هنا يظهر أن الشيعة كانوا لا يزالون معتصمين بالتقية مكتمين لأمرهم مئين من السنين لأنه لا جدال فى كونهم موجودين فى الشام من أوائل الفتح الاسلامى ومع هذا فالمؤرخون لا يذكرون هذا الأمر الا عَرَضاً وربما لم يذكروه أصلا . ومما يدل على القدم والتكتيم كون الاسماعيلية والدروز قد خرجوا من الشيعة و يقال انهم خرجوا من الشيعة السبعية أى القائلين بالأئمة السبعة وقع ذلك فى أواخر القرن الرابع للهجرة وأوائل القرن الخامس فى أيام الدولة الفاطمية الغالية فى التشيع . فالشيعة كانوا فى هذه الجبال قبل هذه الطوائف التى خرجت منهم ومنازل الفريقين لا تزال متناوحة مما يستدل على وحدة الجرثومة فضلا عما بين كثير من عشائر الفريقين من القرابات والكلالات والانساب المتحدة فى الأصل متواتراً ذلك خلفاً عن سلف يؤيد كون هذه الطوائف راجعة فى أصلها الى العرب والله تعالى من وراء العلم

التشيع

أيهما فيه أقدم الشام أم العجم (١)

طالعت ما ورد فى المقتطف من أحد فضلاء تبريز جواباً على ما سبق لى ولأحمد افندى رضا من أدباء جبل عامل بان التشيع هو فى الشام أقدم منه فى كل قطر حاشا الحجاز فالفاضل التبريزى يريد أن مجرد الاستدلال العقلى على أقدمية التشيع فى الشام باقامة أبى ذر الغفارى فى نواحيه ومخالفته لخليفة عصره هو غير سديد اذ أهالى مصر حينئذ يجب أن لا يتأخروا عن أهل الشام فى التشيع لأن محمد بن أبى بكر كان عندهم وهو من ألد الخصوم لعثمان (رضى الله عنه) ويقول أيضاً ان مبدأ التشيع فى العجم هو فى أيام الدعوة العباسية اذ معلوم ما ظهر من ميل أهل خراسان الى تأييد أمر العلوية وان تلك البلاد كانت منذ ذاك الوقت مركزاً لعلماء الامامية. وانه اذا ورد فى تاريخ المحبي وتاريخ جودت باشا ظهور التشيع فى فارس فى أيام السلطان حيدر أو الشاه اسماعيل فربما كان مقصدهما عموم التشيع جميع ايران وجعله مذهباً رسمياً

والجواب على ذلك أن التشيع بدأ منذ أيام سيدنا على كرم الله وجهه فلما وقعت الحرب بينه و بين سيدنا معاوية انقسم المسلمون حتى الصحابة الكرام (رضى الله عنهم) قسمين قسم كان مع على وقسم كان مع معاوية و وقع هذا الانقسام نفسه فى الحجاز ثم فى الشام التى لم يطبق جميع أهلها على مناوأة على يومئذ فكان منهم من بقى على موالاته فلهذا قلنا ان الشام فى التشيع أقدم من فارس

ولم يكن الاسلام نفسه لذلك العهد قد تبسط فى فارس حتى ينبسط فيها مذهب من مذاهبه فان لم يكن ثبت الأصل فكيف يثبت الفرع ؟

نعم ظهرت الدعوة العباسية فى خراسان ومرو فى أواخر الدولة الأموية حينما هب بنو هاشم لاستعادة الخلافة من بنى أمية فوجدوه فى ذلك السواد وهو خراسان ملبياً لدعوتهم وناصراً لكلمتهم ، وتم الخروج على الأمويين ، ودالت الدولة للهاشميين فأخذها منهم أبناء

(١) المقتطف يناير ١٩١١ ص ٤٧

العباس وكانوا فى الأول يداً واحـدة مع أبناء عمهم العلوية ، ولـكن لايصح أن يقال ان الدعوة العباسية هى نفس الدعوة العـلوية ، بل يقال هما شعبتان من أصل واحد ، وان الدعوة العباسية هى غير التشيع . وعلى فرض كان ذلك كذلك فأين الأيام التى يقول عنها مناظرنا الفاضل وهى أيام اجابة العجم لدعوة بنى العباس من ايام انقسام أهل الحجاز والشام بين على ومعاوية . فان بين العهدين نحواً من قرن واحد فقد كانت خلافة الامام على سنة ٣٥ وكانت خلافة أبى العباس السفاح العباسى سنة ١٣٢

فاذا ثبت ان أهل الشام انقسموا بين على ومعاوية فى أثناء حرب صفين فقد ثبت ان التشيع ظهر بينهم لذلك العهد ، وأما التشيع فى بلاد العجم فلو عددنا القيام بأمر بنى العباس تشيُّعاً علوياً محضا وهو ليس كذلك فلم يظهر الا فى أواخر دولة بنى أميَّة أيام مروان ابن محمد . ولهذا حكمنا بسبق الشام للعجم فى تاريخ الشيعة . وهناك دليل آخر . وهو انه لو كان أهل فارس مشايعين لآل على فى قيامهم بدعوة بنى العباس لما قاموا بمبايعة رجـل عباسى حين كان يوجد من العلوية من يطلب هذا الأمر لنفسه وانما كان القائمون يومئذ بنصرة العلوية هم من العرب لامن العجم

فلما وقع الانقسام بين العلوية والعباسـية وخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين (الحسن) بن على بن أبى طالب وهو الملقَّب بالنفس الزكية و بالمهدى على أبى جعفر المنصور أخى السفاح تبعه أهل المدينة وقاتلوا من دونه حتى قتل ولم يكن خروجه فى العجم ولا قاتل معه أحد من فارس ثم خرج أخوه ابراهيم فى البصرة طالباً البيعة له قبل أن يبلغه خبر قتله وأجاب دعوته خلق وانهزم من أمامه سفيان بن معاوية أميرها واستولى على الاهواز وواسط وسار الى الـكوفة وقد أحصى ديوانه مائة ألف وكاد يتم له الفوز لولا ماقضى الله من هزيمته أخيراً وقتله وذلك سـنة ١٤٥ ولم نقرأ انه قام بنصرته أحد من خراسان ولا فى مرو ولا فى جميع فارس

ثم خرج الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب (رضوان الله عليهم أجمعين) وذلك فى خلافة الهادى بن المهدى العباسى ، وكان ظهوره فى المدينة والتف عليه جماعة من آل البيت ومن أهل المدينة وبايعوه وخرج الى مكة فالتقى بجماعة من بنى العباس ومعهم من حج من رجالهم وقوادهم فاقتتلوا ووقعت الهزيمـة على الحسين وقتل

وانهزم أصحابه وأفلت منهم ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وأتى مصر ، فأرسله واضح عامل البريد وكان شيعيا على البريد الى المغرب . وبلغ ذلك الهادى فضرب عنق واضح . ومات ادريس بالمغرب وولد له ادريس الأصغر الذى أسس دولة الأدارسة بالغرب مما ليس هنا محل تفصيله . ولم يكن لفارس أقل نصيب من هذه المظاهرات لآل البيت يومئذ بل انحصرت فى الحجاز والعراق والغرب

وسنة ٢٠١ عندما أوصى المأمون بولاية عهده الى الامام على بن موسى الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ولقبه الرضا من آل محمد وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس الخضرة شعار العلويين وكتب بذلك الى الآفاق صعب ذلك على بنى العباس وامتنع بعض أهل بغداد عن البيعة وأدى الأمر الى فتنة وبويع ابراهيم بن المهدى بالخلافة وكان المأمون فى مرو فسار الى العراق وجرت حروب وانهزم الثائرون على المأمون فلم يسمع ان عرقاً فى العجم نبض لهذه الحادثة مع ان المأمون دخل بغداد ولباسه الخضرة وطاوعه الأكثرون وصار أهل العراق يدخلون عليه فى الثياب الخضر ويحرقون كل ملبوس يرونه من السواد . ولولا وفاة الامام على الرضا سنة ٢٠٣ لربما بقى المأمون على عزمه فى التخلى عن الأمر للعلوية . فلو كان التشيع يومئذ واشج العروق فى أرض العجم لما سبقهم أحد الى الموالاة والمظاهرة ولتقدموا فيه على العراقيين الذين هم أولى بنصرة بنى العباس

ولما ظهرت الدولة العلوية الفاطمية وهى أول دولة علوية حقيقية استوثق لها الأمر ولم تكن أيامها نزق ثائر ولا فتنة خارج بل دولة راسخة متأثلة زاحمت دولة بنى العباس بالمناكب ابتدأت سنة ٢٩٦ واستمرت الى سنة ٥٦٧ كان أول ظهورها فى افريقية وامتدت منها الى مصر والشام والحجاز ، حتى خطب بدعوتها الأمير الساسيرى فى العراق وعلى منابر بغداد مدة غير قصيرة فكان العرب هم القائمين بالدعوة الفاطمية يومئذ ولم يكن العجم القائمين بها

ثم ان عبد الله القداح الذى كان من كبار دعاة هذه الدولة سار من نواحى اصفهان الى الأهواز والبصرة ثم الى سلمية من أرض حمص داعياً فكان قصدُه بلاد العرب . وبديهى انه لو وجد فى بلاد العجم يومئذ مثاراً لدعوة أو مستورى لزند لما رحل عنها الى

غيرها ثم خلفه ابنه احمد فصحبه رستم بن حوشب من أهل الكوفة فاختار لبث دعوته اليمن وهناك التقى ابن حوشب بأبى عبد الله الشيعى فاصطحبا واتفقا على بث الدعوة فى افريقية فسار أبو عبد الله الشيعى اليها وأجابت دعوته قبائل كتامة وقاتل بنى الأغلب فقهرهم فكانت هذه البلاد منبتا لأكبر دولة علوية شيعية وذلك قبل الدولة الشيعية الصفوية القائمة ببلاد العجم بستمائة سنة .

وفى سنة ٢٥٠ عند ماظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بالكوفة واستولى عليها ولكن خانه السعد فظفرت به جيوش العباسيين وقتل وحُمل رأسه الى الخليفة المستعين ولا نعلم فيما يحضرنا من التاريخ وان يكن ما نعلمه فيه أقصر من أن يسمى علماً ، ان دولة علوية قامت فى العجم فعلا الى زمان الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن زيد بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الذى قام بطبرستان وكثر جمعه واستولى على طبرستان وجرجان وسمى بالداعى الى الحق وذلك سنة ٢٥٠ وقتل سنة ٢٨٧ وقام بعده الناصر الحسن بن على المعروف بالاطروش وتوفى سنة ٣٠٤ وقام من بعده الحسين بن القاسم العلوى ويلقب بالداعى وقتل سنة ٣١٦ وانقرض بموته ملك العلويين فى هاتيك الديار

ولا أريد أن أقول بهذا ان التشيع لم يعرف فى العجم الا فى هذا العهد بل انما أقصد كونه عرف هناك بعد الشام كما قدمنا وانه أيضاً لم يكن فى العجم شائعا كما هو اليوم يشهد بذلك التاريخ وظهور الجم الغفير من أئمة أهل السنة من بلاد العجم . أما ابتداؤه فى العجم فيرجع الى أواخر القرن الأول قال ياقوت الحموى عند ذكر قمّ مايأتى : ذكر بعضهم ان قمّ بين اصبهان وساوه وهى كبيرة حسنة طيبة وأهلها كلهم شيعة امامية ، وكان بدء تمصيرها فى أيام الحجاج بن يوسف سنة ٨٣ وذلك ان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس كان أمير سجستان من جهة الحجاج ثم خرج عليه وكان فى عسكره سبعة عشر نفساً من علماء التابعين من العراقيين فلما انهزم أتى الأشعث ورجع الى كابل منهزماً كان فى جملة اخوة يقال لهم عبد الله والأحوص وعبد الرحمن واسحق ونعيم وهم بنو سعد بن مالك بن عامر الأشعرى وقعوا الى ناحية قم وكان هناك سبع قرى اسم احداها كمندات فنزل هؤلاء الاخوة على هذه القرى حتى فتحوها وقتلوا أهلها واستولوا عليها وانتقلوا اليها واستوطنوها

واجتمع اليهم بنو عمهم وصارت السبع قرىً سبعة محال بها وسميت باسم احداهما كمندات فأسقطوا بعض حروفها فسميت بتعريبهم قُمًّا . وكان مُقدَّم هؤلاء الاخوة عبد الله بن سعد وكان له ولد قد ربى بالكوفة فانتقل منها الى قم وكان اماميا وهو الذى نقل التشيع الى أهلها فلا يوجد سنى قط . ومن ظريف مايحكى انه ولى عليهم وال وكان سنياً متشدداً فبلغه انهم لبغضهم الصحابة الكرام لايوجد فيهم من اسمه أبو بكر قط ولا عمر فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم بلغنى انكم تبغضون صحابة رسول الله ﷺ وانكم لبغضكم اياهم لاتسمون أولادكم بأسمائهم وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئونى برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ويثبت عندى انه اسمه لأفعلن بكم ولأصنعن" . فاستمهلوه ثلاثة أيام وفتشوا مدينتهم واجتهدوا فلم يروا الا رجلاً صعلوكا حافياً عارياً أقبح خلق الله منظرا اسمه أبو بكر لأن أباه كان غريبا استوطنها فسماه بذلك فجاءوا به فشتمهم وقال: جئتمونى بأقبح خلق الله تتنادرون عليه وأمر بصفعهم فقال له بعض ظرفائهم : أيها الأمير اصنع ماشئت فان هواء قم لايجيء منه من اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا . فغلبه الضحك وعفا عنهم اه .

وقد سمعت هذه النادرة نفسها من فم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رواية عن استاذه الامام الكبير الشيخ جمال الدين الافغانى أكرم الله مثواهما

وعلى هذا فيكون التشيع فى بلاد العجم مخصوصا بقم و بعض أماكن وكانت تقع بين الشيعة وأهل السنة هناك الحروب والفتن كما يستدل عليه من التاريخ . وفى الثلث الأول من القرن الرابع غلب بنو بويه على العراق واستبدوا بأمر الخلافة وصار الخليفة آلة فى يدهم وكانوا شيعة وأصلهم من الديلم و بقيت دولتهم الى سنة ٤٤٧ ولكن لم يغلب بواسطتهم التشيع على بلاد العجم ولا على بلاد العراق . وما غلب التشيع على الأقطار الايرانية وصار مذهب الدولة الرسمى الا فى أيام الملوك الصفوية فى أواخر القرن التاسع كما ذكر المحبى وجودت باشا وغيرهما من المؤرخين

أما التشيع فى جبل عامل وأطراف جبل لبنان من بلاد الشام فلا تزال الأدلة تقوم على كونه فيها من لدن الفتح. وقد يأتى التاريخ فى أثناء سرد الحوادث وتأتى كتب السير والتراجم بما ينبئ عن استتبابه فيها منذ ظهوره الى الآن . من ذلك ماورد فى طبقات الشافعية للعلامة السبكى فى ترجمة الفقيه أبى الفتح نصر بن ابراهيم المقدسى المعروف بابن أبى

حافظ وهو قوله تفقه على الفقيه سليم [١] ثم دخل الى ديار بكر وتفقه على محمد بن بيان الكازرونى ودرس العلم ببيت المقدس مدة ثم انتقل الى صور وأقام بها عشر سنين ينشر العلم مع كثرة المخالفين له من الرافضة . ثم ذكر وفاته فى سنة ٤٩٠ بدمشق .

وقال ياقوت الحموى عند ذكر الكرك : قرية فى أصل جبل لبنان وليس هو القلعة التى يقال لها الكَرَك بفتح الراء ونسب اليها أبا الرضا الكركى . وقال كان ثقة فى الحديث ، متقناً لما يكتبه الا أنه كان رافضياً مات سادس عشر ذى الحجة سنة ٥٦٢

كذلك فى رحلة ابن بطوطه فى القرن الثامن مايدل على وجود الشيعة فى هذه الأماكن [٢] ومن هنا استدللنا على كون التشيع معروفا فى جبال الشام من أيام أمير المؤمنين على كرّم الله وجهه الى يومنا هذا فلا يسبق الشام فى هذا المعنى قطر الا الحجاز ولا يساويها فيه الا الكوفة

***

وكتب الاستاذ الشيخ احمد رضا فى خطط الشام المجلد ٦ ص ٢٥١ بعنوان (الشيعة) (بلا توقيع) نفى به ماقاله بعض الكتاب من أصل مذهبهم من بدعة عبد الله بن سبا وتبسط قليلا فى الدليل على وجودهم فى زمن على عليه السلام فى جبل عامل

ومما جاء به ماورد فى كتاب الروضة والفضائل لشاذان بن جبرائيل القمى رواية مسندة الى عمار بن ياسر وزيد بن ارقم تدل على أنه كان زمن خلافة على عليه السلام قرية فى الشام عند جبل الثلج تسمى « أسعار » أهلها من الشيعة . وأسعار هذه خرابة بين مجدل شمس وجبانا الزيت. وهناك نهر يعرف بنهر أسعار وهى على طريق القادم من الشام الى جبل عامل.

وذكرت منازل الشيعة فى بر الشام . ثم معتقدات الشيعة وما خالفوا فيه أهل السنة أو خالفهم فيه أهل السنة .

---

(١) يريد سليما الرازى الشهير بصور

(٢) (المقتطف) وقد ورد ذكر الشيعة فى رحلة ابن جبير وكان فى دمشق سنة ٥٨٠ للهجرة قال : « وللشيعة فى هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى منهم الرافضة وهم السبابون ومنهم الامامية والزيدية وهم يقولون بالتفضيل خاصة ومنهم الاسماعيلية والنصيرية وهم كفرة فانهم يزعمون الالهية لعلى رضى الله عنه ومنهم الغرابية وهم يقولون ان علياً رضى الله عنه كان أشبه بالنبى صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب»

ترجمة القرآن الى غير العربية

على ذكر المؤلف الترك وعلاقتهم بالاسلام والحضارة الاسلامية

للامير شكيب

— الترجمة الى التركية
— قصة محمود بن سبكتكين .
— فتوى الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية .
— مقال الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر سابقا .
— ما لجواز الصلاة بالترجمة من التأثير فى الأمم الاسلامية غير العربية .
— مقابلة بين العربية للمسلمين واللاتينية للامم الكاثوليكية

ثم فى سنة تجديد طبع هذا الكتاب أى سنة ١٩٣٢ مسيحية بدأوا يجربون اقامة الصلاة نفسها باللغة التركية ، ويقرأون القرآن بالتركية مترجماً وقد أحدثت هذه المسئلة ضوضاء فى تركيا وفى العالم الاسلامى كما لا يخفى . ورأى الأتراك الجدد هو أن الأتراك لا يقدرون أن يفهموا القرآن بالعربية فما صلاة انسان لا يفهم ما يتلو ؟ ورأى الأتراك المحافظين وسائر المسلمين هو أنه لا بأس فى ترجمة القرآن الى التركية ، وتفسيره بالتركية ، ليفهمه الترك الا أنه لا بد من الصلاة به فى أصله العربى ، وذلك لأن الترجمة قد تنحرف بالكلام الالهى عن معناه الأصلى ، ولأن الترجمة تفقد الأصل كثيراً من فصاحته وبلاغته ، وعلى كل حال يرى هؤلاء أن الصلاة بالقرآن مترجماً الى التركية بدعةٌ سيئة . وأنصار الصلاة بالقرآن المترجم يحتجون على جوازها برأى الامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه . ومن الناس من يقول : ان أبا حنيفة كان أجاز الصلاة بقرآن مترجم ، الا أنه رجع عن رأيه هذا فيما بعد .

ولقد نقل ابن خلكان فى وفيات الأعيان قصة جرت أمام السلطان محمود بن سبكتكين وهو أنه جمع العلماء بين يديه فى مدينة مرو وانتدبهم للمقابلة بين مذهبي أبى حنيفه والشافعى فقرّروا أن يصلى أحدهم ركعتين على مذهب أبى حنيفة ، وآخر ركعتين على مذهب الشافعى لينظر السلطان فيهما و يختار فصلّى القفّال المروزى صلاة الشافعى بالطهارة المسبغة ، وأتى بالأركان والهيئات والسنن والآداب الخ وقال : هذه صلاة لا يجوّز الشافعى غيرها . ثم صلى صلاة الحنفية وتساهل فى الطهارة واللبس والنية والاتيان بالاركان والهيئات الى غير ذلك مما حكاه ابن خلكان ، نقلاً عن امام الحرمين أبى المعالى الجوينى ، ومن جملة ذلك أنه قرأ آية من القرآن بالفارسية « دوبركك سبز » ثم قال : هذه صلاة أبى حنيفة . فأنكر علماء الحنفية أن تكون هذه صلاة أبى حنيفة ، فطلب القفّال احضار كتب أبى حنيفة فأُحضرت وقرئ ما يتعلق منها بالصلاة فوجد طبق ما فعل القفّال فأعرض السلطان عن مذهب أبى حنيفة وتمسك بمذهب الشافعى رضى الله عنهما . وهذه الرواية التى رواها ابن خلكان فيها نظر من جملة وجوه ، الاول ان كل من قرأ « وفيات الأعيان » من أوله الى آخره يلحظ عند ابن خلكان تحاملاً ظاهراً على أبى حنيفة ، والحنفية ، وتعصباً شديداً للشافعية الثانى أن امام الحرمين ، والقفّال المروزى ، كلاهما أيضاً شافعى يريد اظهار مزية مذهبه ، الثالث أننا لا نعتقد جواز صلاة الحنفية على الوجه الذى زعمه القفال الا فى حال الضرورة . وليس هذا بقادح فى المذهب الحنفى اذ كان الاسلام كله يراعى الضرورات ويقدّرها بقدرها ، ولذلك جاء فى الحديث « انما بعثت بالحنيفية السمحة » . بقى أن ترجمة القرآن الى الألسن الأخرى لا خلاف فى جوازها عند الحنفية . أما الصلاة بالترجمة فلو كان هذا الرأى هو المعول عليه فى المذهب الحنفى لكان الأتراك منذ ألف سنة أى منذ اسلامهم يصلون بالتركية وليس الحال كذلك ولقد بلغنا أن مشيخة الأزهر بمصر ألفت لجنة خاصة بموضوع ترجمة القرآن للبحث فيه واصدار القرار الذى تطمئن به خواطر المسلمين فى هذا الشان وسنرى ما يكون من هذه اللجنة . أما « دو بركك سبز » فهى ترجمة ورقتين خضراوين أى قوله تعالى (مدهامتان)

وأما الترجمة التى أخرجوها بالتركية للقرآن الكريم فلا يكاد التركى نفسه يقرأها لا لركاكتها فى نفسها بل لركاكتها فى جانب الأصل

***

ولما كانت مسالة ترجمة القرآن قد أخذت دوراً عظيما فى هــذه الأيام ، وكان الامر جداً ليس بهزل ، أحببنا أن لا يخلو هذا الـكتاب من خُلاصة أثيرة فى هــذا الموضوع . فاباحة ترجمــة القرآن والصلاة بالترجمة يتولد عنهــا محاذير كثيرة ، لان القرآن ينبغى أشد المحافظة على أصــله ، وهو قد نزل بلسان عربى مبين ، ولا يمكن فهم حقيقة اعجازه وخوارق فصاحته و بلاغته الا باللسان العربى الذى نزل به ، فاذا تعاورت الايدى كتاب الله بالترجمة مع ما فيها من الوعورة ومن تعذر تطبيقها على الأصل ومن اختلاف مناهج البيان بين اللغات لم يخــل الأمر من وقوع تحريف فى كتاب الله . كما أن تحريم الترجمــة البات ومنع الصلاة بهــا حتى للعاجز ، يكونان من العقبات فى وجه انتشار الاسلام الذى أربعــة أخماس أتباعه وربمــا أكثر من ذلك هم من الأمم الأعجمية ، فـكانت الحـكمة تقضى بالتوسط بين الأمرين ، وهــذا ما فعله الامام الاعظم أبو حنيفة رضى الله عنه . نعم انه فى أول الامر قد أفرط فى التوسيع والرخصة وعلى ما يظهر أجاز الصلاة بالترجمة حتى لغير العاجز ولـكنه عاد فيما بعد الى رأى صاحبيه أبى يوسف ومحمد ، وهو منع الصلاة بالترجمة على القادر الذى يمكنه أن يتلو ما تيسر من القرآن نفسه واجازة ذلك للعاجز .

ومن حيث انه قد سبق هذا البحث منذ بضع سنوات وصدرت فيه فتوى للاستاذ العلامة الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية فلا بأس من أن نورد هنا خلاصة هذه الفتوى . فقد نقل الاستاذ بخيت ما قيل فى قضية ارشاد المسلمين لاهل الـكتاب ، وتعليمهم القرآن ، فقال ان أبا حنيفــة يرى جواز تعليم الحربىّ والذمىّ القرآن والفقــه رجاء أن يرغبوا فى الاسلام . وقد أخذ أبو حنيفة هذا من قوله تعالى « وَانْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسمَعَ كَلَامَ اللهِ » ومن أنه رُوى كون النبى ﷺ مر على ابن ابىّ ، قبل أن يُسلم ، وفى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين فقرأ عليهم القرآن . وأما الامام مالك فمنع تعليم القرآن غير المسلمين . وأما الامام الشافعى فله فى المسئلة قولان . ويظهر أن الشافعى يجيز تعليم القرآن لمن يُرْجى منه الرغبــة فى الاسلام ويمنعه اذا حصل الظن بأن المقصود منه هو الطعن فى الدين

والذى يظهر من كلام الشيخ بخيت لا مجرد ترجيح الجواز لترجمــة القرآن فقط بل

الحثّ على ترجمة كتاب الله ترجمة صحيحة ، تفاديا من التحريف والتشويه اللذين يتعمدهما أعداء الاسلام ، وعلماً بأن كثيرين من الملل الأخرى يتشوقون الى الاطلاع على حقيقة القرآن ، وهذه التراجم الفاسدة المنتشرة فى أوربا تضلل عليهم الطريق التى بها يتصلون الى الحق . ويقول الشيخ بخيت ان ترجمة القرآن للتعليم والتفهيم والتعلم والتفهّم والانذار والتبليغ قد أجازه الحنفية والحنابلة وأجازه الشافعى فى قول بلا تفصيل ولكن منعه مالك . وأما اعتياد قراءة القرآن بغير العربية التى نزل بها ، أو كتابة المصحف بلغة أخرى غير العربية ، أو بالعربية مخالفة لخط المصحف العثمانى ، فهذا ممنوع أشد المنع اتفق الأئمة فى ذلك . وقضية ألفاظ القرآن وكتابته وترتيب سوره وآياته انما تؤخذ بطريق النقل عن الشارع ، أما الصلاة بترجمة القرآن ، فان كان قادراً على أن يتلو شيئاً منه لم يجز له أن يقرأ بالترجمة ، وأما ان كان عاجزاً عن قراءة أى شىء منه بأصله جازت الصلاة بالترجمة . وهذا الجواز للعاجز فى قول الحنفية فقط . أما عند غيرهم فلا يجوز مطلقاً . ولا يسقط فرض الصلاة عن المكلف اذا أقامها بالترجمة

أما الاستاذ الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الازهر سابقا فقد نشر فى هذه الايام مقالاً طويلاً استقصى فيه هذه القضية ، ونقل عن شمس الأئمة السرخسى هذه العبارة : وأصل هذه المسئلة اذا قرأ فى صلاته بالفارسية جاز عند أبى حنيفة رحمه الله ويُكرَه ، عندهما أى عند الصاحبين لا يجوز اذا كان يُحسن العربية . واذا كان لا يُحسنها يجوز . وأبو يوسف ومحمد رحمهما الله قالا : القرآن معُجز والاعجاز فى النظم والمعنى . فاذا قدر عليهما فلا يتأدى الواجب الا بهما ، واذا عجز عن النظم أتى بما قدر عليه ، كمن عجز عن الركوع والسجود يصلّى بالايماء ، وأبو حنيفة رحمه الله استدل بما رُوى أن الفرس كتبوا الى سلمان الفارسى رضى الله عنه أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية ، فكانوا يقرأون ذلك فى صلاتهم حتى لانت ألسنتهم للعربية

ونقل الشيخ المراغى عن شرح الكنز للزيلعى هذه العبارة : وأما القراءة بالفارسية فجائزة فى قول أبى حنيفة . وقال أبو يوسف ومحمد لا تجوز اذا كان يحسن العربية لان القرآن اسم لمنظوم عربى لقوله تعالى : (انَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنا عَرَبيًّا) . وقال تعالى : (انَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا) والمراد نظمه ، ولأبى حنيفة قولُه تعالى : (انَّ هَـذَا لَفِى الصُّحُفِ

الأُولَى صُحُفِ ابْرَاهِيمَ وَمُوسَىَ) وصحف ابراهيم كانت بالسريانيـة ، وصحف موسى كانت بالعبرانية فدَلَّ على كون ذلك قرآناً : الى أن يقول : ويجوز بأى لسان كان وهو الصحيح لأن المُنزَل وهو المعنى عنـده لا يختلف باختلاف اللغات . والصحيح ان القرآن هو النظم والمعنى جميعاً لانه معجزة للنبىّ ﷺ ، والاعجاز وقع بهما جميعا الا أنه لم يجعل النظم رُكناً لازماً فى حق جواز الصلاة خاصة رُخصة ، لأنها ليست بحالة الاعجاز . وسُئل عمر النسفى عمن لا يحسن الفاتحة بالعربية ويقدر على التكلم بالفارسية أو لغة أخرى يتأدى بها معنى القرآن ، هل يكلَّف تعلم تلك اللغة غير العربية فقال نعم ، لان تعلم القرآن فرض لاقامة الصـلاة . ومذهب أبى حنيفة أن القرآن لا يختص بالنظم العربىّ فى قوله الأول الذى رجع عنه فيُفرَض عليه تحصيل ذلك كما يفرض عليـه تعلم القرآن بالنظم العربى لمن قدر عليه . وعندهما (أى عند الصاحبيْن) تجوز قراءة القرآن بغير العربية اذا كان لا يحسن العربية فقد وافقاه أى ان الصاحبين وافقا أبا حنيفة فى أنه يصير قرآنا عند العجز عن أدائه فيُفرض ذلك عليه بالاجماع فى هذه الحال

نقل المراغى أن الحبيب العجمى صاحب الحسن البصرى قـدس الله سرهما كان فى الصلاة يقرأ القرآن بالفارسية لعدم انطلاق لسانه بالعربيـة . ونقل أيضاً عن أبى حنيفة فى الرجل يفتتح الصلاة بالفارسية أو يقرأ بالفارسـية أو يذبح ويُسمّى بالفارسـية وهو يحسن العربية قال الامام : يجزئه فى ذلك كله .

وقال أبو يوسف ومحمـد : لا يجزئه فى ذلك كله الا فى الذبيحة ، وان كان لا يحسن العربية أجزأه . قال الصدر الشهيد فى شرحه على الجامع الصغير لمحمد بن الحسن . وهذا تنصيص على أن من يقرأ القرآن بالفارسـية لا تفسد الصلاة بالاجماع ، ونقل عن معراج الدراية ان ترجمة القرآن تسمى قرآناً مجازاً ، فيقال ليس ذلك بقرآن وانما هو ترجمة . قال : وانما جوّزناه للعاجز اذا لم يُخل بالمعنى لانه قرآن من وجه ، باعتبار اشتماله على المعنى فالاتيان به أَولى من التّرك اذ التكاليف بحسب الوسع وهو نظير الايماء .

والشيخ مصطفى المراغى يرى فيما يظهر فى هذه المسئلة رأى الصاحبين أى جواز الصلاة بترجمـة القرآن للعاجز قياساً على جوازها بالايماء لمن عجز عن القيام . ولـكن الشيخ المراغى لا يقطع بكون أبى حنيفة رجع عن رأيه الأول اذ يقول ان رواية الرجوع رواها أبو

بكر الرازى مرة ، ورواها نوح بن مريم وعلى بن الجعد ، وقد أُغفلت مرة واحدة فى كتاب الامام محمد . وأُغفلت أيضاً فى شرح المبسوط للسرخسى وفى كتب قاضيخان

والشيخ المراغى لا يريد بهذا ترجيح عدم رجوع أبى حنيفة ولكنه يقصد أن رجوع أبى حنيفة الى رأى صاحبيه لم تتفق فيه الروايات . قال : فاذا نظرنا الى ذلك نراهم ، أى علماء الحنفية ، متفقين على أن التكليف بالوسع ، وأن الترجمة للعاجز هى التى فى وسعه ، وانها خلف عن النص العربى يقام مقامه عند العجز كما يقام الايماء عند العجز مقام الركوع والسجود ، ولم نعهد فى التشريع ان المكلف مُخيَّر فى الخلف . بل الذى عهدناه أن الخلف يأخذ حكم الأصل و يحل محله . واذا تأملت قولهم : ان المعنى لا يختلف باختلاف اللغات تراهم يريدون أن لا تخلو الصلاة من القرآن اما بلفظه ومعناه واما بمعناه فقط فهم حريصون على أن تكون المناجاة لله بكلامه أو بمعنى كلامه وهم حريصون على تحصيل المقاصد ، وجعل الصلاة صورةً حية مملوءة بالشعور بجلال الخالق وعظمته ، وفى معانى القرآن الكريم من العظات والعبر مايملأ القلب روعة ورهبة وخشية ، و بركتُها لا يمكن أن تذهب بنقلها الى لغة أخرى والمناجاةُ بالمعانى خير وأبقى من وقوف المكلف صامتاً .

ثم أورد الاستاذ المراغى عدداً من الآى الكريمة وقال انه لا يتردد لحظة واحدة عن القول بان جمال معانى هذه الآيات لا يمكن أن يفارقها فى اللغات الاخرى ، نعم قد تضيع روعة هذه الألفاظ ، ولكن تبقى روعة المعانى والمناجاة محتاجة الى هذه الروعة ، ولا يسع مُنصفاً الا الاعجاب بآراء فقهاء الحنفية فى هذه المسئلة ولله هم حيث قالوا : ان الصلاة حالةُ مناجاة لا حالة اعجاز وللعالم الاسلامى الحق فى أن يفخر باولئك العلماء الذين استنبطوا هذه القواعد وهذه المدارك الدقيقة . وفى الحق ان فقهاء الحنفية هم الملجأ دائماً فى حل المعضلات الاجتماعية ولا نستطيع أن نفيهم حقهم من الثناء

واعترض الاستاذ المراغى على من قال بعدم جواز الصلاة بالترجمة بناء على أن الترجمة ليست قرآناً وان ما كان كذلك كان من كلام الناس . قال المراغى : وهو غير صحيح ، لان الترجمة وان كانت غير قرآن بالاتفاق ، تحمل معانى كلام الله ، ومعانى كلام الله ليست كلام الناس ، وعجيب أن تُسلَب من معانى القرآن صفاتُها ، وجمالها ، وتوصف بأنها من جنس كلام الناس بمجرد أن تُلبَس ثوباً آخر غير الثوب العربى كأن هذا الثوب هو كل شئ .

ونحن نوافق الشيخ المراغى فى أن الصلاة بالترجمة للعاجز خير من السكوت ، ومن عدم تلاوة شئ لا من الأصل ولا من المعنى . ولكننا نخشى من أنه اذا فتح هذا الباب على مصراعيه ، كثر العدول عن أصل القرآن الى الترجمة لما فى ذلك من السهولة على الأعاجم . ويؤيدُ ذلك الشعوبيةَ ممن يكرهون العرب لمآرب سياسية ، فينتهى الأمر أخيراً بعدول مئات ملايين من المسلمين عن الصلاة بالقرآن الأصلى الى الصلاة بتراجم مهما بالغ المترجمون فى تحريرها والتدقيق بها ، فلن تكون شيئاً بالنسبة الى الأصل.

وقول الاستاذ المراغى ان للمعانى روعة لا يسلبها اياها اختلاف الالفاظ ، نُجيب عليه بأن روعة المعانى لا يبقى منها الا القليل اذا لم تُلبَس القوالب اللائقة بها . وقد أجمع أرباب البيان فى الشرق والغرب على أن النقل من لغة الى أخرى يذهب بأكثر فصاحة اللغة المنقول منها لا سيما اذا كانت الترجمة حرفية . فاصرار القائلين بعدم جواز ترجمة القرآن مبنى على خوفهم من تعدد القرآن وعلى مايلحظون من دخول السياسة فى هذا الموضوع أى ان أقواماً أرادوا الابتعاد عن الاسلام من أصله ، فعجزوا عن ذلك لتمكن الاسلام فى صدور الأمم التى يديرون هم شئونها ، فرجعوا الى أسلوب آخر وهو ترجمة القرآن والصلاة بالترجمة لتكون لهم الخطوة الأولى فى الابتعاد عن العرب وعن الاسلام معاً .

وربما كان الاستاذ المراغى لا يعلم من هذا الأمر كل مانعلمه نحن ، فهذه المسئلة ليست بحديثة ، ولقد بدأت المناقشة فيها بين رجالات الاتراك فى أيام الحرب العامة . وكان منهم نفرٌ جاهَر بوجوب التفصى من الاسلام من أصله ، فاقام الآخَرون عليهم النكير ، و بينوا لهم استحالة هذا الأمر وأن التشبث به يفضى الى ثورة تأتى على الحرث والنسل ، لان الاتراك لا يرضون بالاسلام بدلاً . فعند ذلك قال اولئك الملاحدة الذين كانوا يريدون القضاء على الاسلام : اذا كان لا بد من أن نبقى مسلمين . فليكُنْ اسلامُنا تُركياً . ولنرفع منه كلّ مافيه رائحة عربية

وكان رأس القائلين بهذه المقالة الفاسدة ضياء كُوكْ أَلْب المفكر المشهور عندهم الذى توفى بعد الحرب والله المستعان ، وقد بقيت هذه الافكار تعمل فى تركيا الى أن انتهت الحرب ، ثم الى أن تأسست أنقرة وأخذت بالسياسة اللادينية المحضة التى يكون من العبث محاولة تغطيتها والمكابرة فيها — كما يفعلُ بعضهم — فكان من جملة ماقامت به الفئة الكمالية من الأعمال الرامية الى ابعاد الترك عن الدين الاسلامى والثقافة العربية ، السعى

بترجمة القرآن الى التركية واجازة الصلاة بها . وهمْ لا يقيدون هذا الجواز بالعجز ، بل يريدون أن يجعلوه عاما للقادر والعاجز معاً حتى يصير هو القاعدة ، وربما ينقلب الى الضد اذا طالت أيام الملاحدة فى أنقرة فتصير الصلاة بالقرآن الاصلى ممنوعة ، وربما يعاقب حينئذ عليها كما يمنعون الآن عرب ولاية اطنه من التكلّم بالعربية والكتابة بها . ولنا شواهد على ذلك منع حكومة أنقرة الحج ، وهو من أركان الاسلام ، والغاؤهم الشريعة الاسلامية بأسرها فى المعاملات، واقامتهم الأمة التركية على القانون السويسرى المدنى. فمن يفعل هذه يفعل تلك ولا يبعد عنه شئ . واذا جازت عادة الصلاة بالتركية فى الاناضول عمت جميع الأمم التى لا تتكلم بالعربية ، كسامى أوربا من أرناءوط و بشناق وأتراك وتتر ، ثم صارت الى العجم والى الهند والصين والجاوه. ولو كانت قضية الصلاة بالترجمة هى بتلك الدرجة من السهولة عند علماء الحنفية الذين لم يكونوا يجهلون رأى الامام الاعظم وصاحبيه ، لكانوا أجازوا الصلاة بالتركية من قديم الزمان ، والحال انهم لم يكونوا يصلون الا بأصل القرآن ولا يزالون كذلك .وكانوا يرون أن الانسان مهما بلغت به الأمية والسذاجة فلا يعجز عن حفظ بعض آيات يلقنه اياها والداه أو شيخ محلته أو رجل من اخوانه .

وبالاختصار فنحن على رأى أبى يوسف ومحمد الذى رجع اليه أبو حنيفة من جواز الصلاة بالترجمة للعاجز ، لكن بعد أن يتحقق عجزه التام عن حفظ شيء من القرآن وهو مع ذلك مكلف أن يتعلم شيئاً منه يقيم به صلاته ولكنَّنا لانرى التوسع فى الجواز لما نخشى فيه من انقلاب المسئلة الى دسيسة سياسية قومية يتسع خرقُها باسم المذهب الحنفى ، ونرى أن الأولى باخواننا الترك أن يستمروا على ما كانوا عليه الى الآن من أمر الصلاة بالعربية ، وأما اذا كانوا يريدون فهم معانى القرآن وهو أمر لازم فيقدرون أن يترجموه وأن يترجموا تفاسيره الكثيرة فيفهموا من معانيه مايستعجم عليهم . وهانحن أولاء نرى الأمم الكاثوليكية ومنها أمم راقية فى سلم المدنية ، وراقية جداً ، مثل الفرنسيس والبلجيك والنمسويين ، وما يزيد على الثلث من الألمان ، ونحو من الربع من الهولانديين ، ثم امة المجر ، وأمة التشيك ، والبولونيين ، ثم الايرلانديين ، ثم الامة الايطالية ، والامة الاسبانيولية ، والامة البرتغالية ، وجميع سكان أميركا الجنوبية ، وأهل أميركا الوسطى ، وخمسة وعشرين مليوناً من أميركا الشمالية ، وجميع هذه الأمم تقيم شعائرها الدينية الكاثوليكية باللغة اللاتينية ، بدون أن تفهمها ولا يفهمها من كل أمة منها الا نزر لايُذكر ، وانما يفسرون لهم مايريدون

فهمه من الشعيرة الدينية من اللاتيني الى ألسنتهم ، اذن هذه سبيل ليس الاسلام فيه بأوحد ، فكما ان اللغة اللاتينية هي لغة دينية لثلاثمائة وخمسين الى أربعمائة مليون مسيحي كاثوليكي فاللغة العربية هي اللغة الدينية ويجب أن تبقى اللغة الدينية لثلاثمائة وخمسين الى أربعمائة مليون مسلم . بل العربية أولى بهذا التخصص لأن كتاب الاسلام السماوي انما نزل بها ، ولم يكن كتاب النصارى السماوي قد كُتب باللاتينية من أصله ، بل اللاتينية هي لغة الكنيسة الرومانية ، قد ترجموا الانجيل اليها من اللغات السامية . ثم ان العربية هي لغة حية يتكلم بها نحو سبعين مليوناً من البشر ، واللاتينية لم يبق واحد في الدنيا يتكلم بها بل صارت من قبيل الآثار التاريخية .

ثم أورد الاستاذ المراغي أقوالاً عن الصدر الشهيد ، وعن شارح الهداية وعن الزيلعي ، وعن أبي يوسف ما يُستظهَر به على جواز قراءة شيء من ترجمة القرآن بعد تلاوة الفرض من النص العربي ، وقال ان هذه النصوص صريحة ، لاتحتمل التأويل ، دالة على جواز ضمّ الترجمة الى النصّ العربي ، المفروض للقادر على العربية ، ولكنه أورد نصوصاً أُخرى على عدم جواز قراءة الترجمة مع الأصل ، ويظهر أنه وقع خلاف بين الفقهاء في ذلك ، وقد رجّح صاحبُ الفتح فساد الصلاة التي تكون بهذه الصفة اذا كان المقروء من الترجمة قصةً أو أمراً أو نهيا وقال بالجواز اذا كان المقرُوء ذكراً أو تنزيهاً ، والاستاذ المراغي يرى رأي صاحب الفتح هذا اذا لم يكن هُناك عذر من عدم احسان النطق بالعربية .

وأما الترجمة من حيث هي فاننا نوافق الشيخ المراغي والشيخ بخيت وغيرهما ممن أجازوها استناداً على أقوال العلماء والأئمة والسلف الى سلمان الفارسي ، ونقول مع الشيخ المراغي انه قد استفاد من ترجمة القرآن كثيرون من العلماء الذين لم يكونوا يدينون بالدين الاسلامي ، فبعضهم آمن به وخرج من الظلمات الى النور ، وبعضهم لم يصل الى تلك الدرجة لكنه غيّر رأيه في الدين الاسلامي وفي النبي ﷺ ، ووضع الاسلام موضع الكرامة وبحث فيه البحث اللائق بجلاله . قال : وأظنني أعبث اذا شرعت أُبين الفوائد التي تعود على الاسلام نفسه من اظهاره ونشره على الأمم المتحضرة ، بلغاتها ، ولكن يجب أن تُراقَب تلك التراجم . قلنا : في عصر كالعصر الذي نحن فيه لايختلف في هذه المسئلة اثنان .

محاصرات العرب للقسطنطينية

على ذكر المؤلف تهديد الترك للقسطنطينية قبل فتحها

الأمير شكيب

ان العرب منذ فتحوا الشام فكّروا فى فتح القسطنطينية لأنها كانت لذلك العهد عاصمة النصرانية ، وكان الاسلام لو فتحها تغلب على شمالى اوربة بلا نزاع . ومن الأحاديث النبوية المروية : «لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» وهذا الحديث على ضعفه متداول بين الناس . ويقال انه مذكور فى الجامع الصغير للسيوطى . وهو منقوش على الحجر فى جامع آيا صوفيا باسطامبول . وكيف كان الأمر فالمسلمون تنبهوا من بدء الاسلام لأهمية القسطنطينية ، وسنة ٦٥٣ جهز العرب اسطولا عظيما فى ميناء طرابلس الشام ، عقدوا له لبسر بن أبى أرطاة لأجل غزو القسطنطينية . فتلاقى هذا الأسطول بأسطول الروم وهزمه . الا أن الاسطول العربى فى هذه الغزاة لم يبلغ القسطنطينية . وفى سنة ٤٤ للهجرة وفق ٦٦٤ للمسيح غزا الاسطول العربى القسطنطينية بقيادة بسر بن أبى أرطاة المذكور ، ووصل اليها كما رواه الطبرى . ثم ان فضالة بن عبيد غزا خلقيدونية — ماجاور البوسفور من آسيا الصغرى — حيث وافاه يزيد بن معاوية ، وقد جعل المؤرخ تيوفان هذه الغزاة فى سنة ٦٦٦ للمسيح ولكن الياس النزّبى قال : ان السنة التى حاصر فيها يزيد بن معاوية القسطنطينية كانت سنة ٥١ للهجرة وفق سنة ٦٧٢ مسيحية . وقد جاءها يزيد براً ، وكان بسر بن أبى أرطاة ماسكاً البحر ، وقد انتشرت السفن الحربية العربية على طول ساحل بحر مرمرة ، وهاجم العرب القسطنطينية بين شهرى ابريل وسبتمبر ، ولم يتمكنوا من فتحها فلما جاء الشتاء انكمشوا الى جهة « قيزيقيا » فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى . وفى الربيع عاودوا حصار تلك العاصمة ، ويقال انهم لم ينصرفوا عن القسطنطينية الا بعد حروب استمرت سبع سنوات ، وكان أعظم عامل فى فشلهم النار الاغريقية التى أحرقت جانباً من الاسطول كما ان جانباً آخر منه غرق فى أثناء الرجوع .

وليس عندنا كل التفاصيل اللازمة عما جرى من الوقائع فى هذه السنوات السبع . والمرجَّح ان الجيش العربى الذى جاء من البرّ بدأ بالحصار سنة ٦٦٧ وأن الاسطول أقلع عن القسطنطينية سنة ٦٧٣ ومؤرخو العرب يجعلون غزاة القسطنطينية هذه من سنة ٤٨ الى سنة ٥٢ للهجرة ومنهم من يمدّ ذلك الى سنة ٥٥ ويقولون ان أبا أيوب الانصارى رضى الله عنه توفى فى حصار القسطنطينية سنة ٥٠ ومنهم من يقول سنة ٥١ ومنهم من يقول ٥٢ والذى فى الطبقات الكبرى لابن سعد انه توفى سنة ٥٢ وهو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد ابن عوف من بلْحارث بن الخزرج شهد بدراً ، وأُحُداً ، والخندق ، والمشاهدَ كلها مع رسول الله ﷺ وخرج غازياً فى زمان معاوية . قال فى الطبقات : فمرض فلما ثقل قال لأصحابه ان أنا متّ فاحملونى ، فاذا صاففتم العدوّ فادفنونى تحت أقدامكم ، وسأحدثكم بحديث سمعتُه من رسول الله ﷺ لولا ماحضرنى لم أُحدثكم سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة . قال ابن سعد : ولما مرض أتاه يزيد بن معاوية يعودُه فقال : حاجتك ؟ قال : نعم ، حاجتى اذا أنا متّ فاركب بى ثم سُغ بى فى أرض العدو ماوجدت مَساغا ، فاذا لم تجد مساغاً فادفنى ثم ارجع . فلما مات ركب به ثم سار به فى أرض العدو وما وجد مساغاً ثم دفنه ثم رجع . قال ابن سعد أخبرنا عمرو بن عاصم قال أخبرنا همام عن عاصم بن بهدلة عن رجل من أهل مكة ، ان أبا أيوب قال ليزيد بن معاوية حين دخل عليه : أقرئ الناس منى السلام ولينطلقوا بى فليبعدوا ما استطاعوا . قال فحدث يزيد الناس بما قال أبو أيوب ، فاستسلم الناس فانطلقوا بجنازته ما استطاعوا قال محمد بن عمر : وتوفى أبو أيوب عام غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية فى خلافة أبيه معاوية سنة ٥٢ وصلى عليه يزيد بن معاوية ، وقبره بأصل حصن القسطنطينية بأرض الرُّوم فلقد بلغنى ان الروم يتعاهدون قبره ويرمّونه ويستسقون به اذا قحطوا انتهى ماجاء فى الطبقات .

ثم ان الأتراك عند مافتحوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣ بقيادة السلطان محمد الفاتح عثروا على قبر أبى أيوب الأنصارى و بنوا عليه قبة وجعلوا عنده جامعاً وجاء فى الانسيكلوبيدية الاسلامية ان ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبى أيوب. قلت كانت وفاة ابن قتيبة فى ذى القعدة سنة سبعين ومائتين وقيل ست وسبعين ومائتين على مافى وفيات الأعيان . والحال ان وفاة محمد بن سعد صاحب الطبقات كانت يوم الأحد لأربع خلوْن من جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين أى قبل وفاة ابن قتيبة كما فى وفيات الأعيان أيضاً . فيكون جزم أصحاب

الانسيكلو بيدية الاسلامية بأن ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبي أيوب الانصارى هو بغير محله ، لأن ابن سعد سابق لابن قتيبة وأنت ترى انه قد ذكره ، وأما قضية كون الروم حفظوا قبره وكانوا يستسقون به فى القحط فقد جاء فى الانسيكلوبيدية المذكورة نقلُها عن الطبرى وابن الأثير وابن الجوزى والقزوينى والحال انها مذكورة فى طبقات ابن سعد الذى تقدّم فى الزمن هؤلاء جميعاً . وقد جاءت هـذه القصة مع ترجمة أبي أيوب فى كتاب تركى للحاج عبد الله اسمه « الآثار الماجدية فى المناقب الخالدية » طبع استانبول سنة ١٢٥٧

وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية ان الهدنة بقيت بين العرب والرُّوم نحواً من أربعين سنة الى أن تولى سليمان بن عبد الملك فاحمل فى غزو القسطنطينية وجرّد لها جيشاً كثيفاعقد عليه لأخيه مسلمة فجاءها من البرّ وجاء الأسطول العربىّ من البحر وكان الخليج المسمى بقرن الذهب مسدوداً بسلسلة حديدية ، فاستمر هذا الحصار سنة كاملة وكان ابتداؤه فى ٢٥ اغسطس سنة ٧١٦ وهذه المرة خاب العرب أيضا فيما قصدوا اليه وذلك بفقد الاقوات وبزحف البلغار من جهة الشمال مُناصرين للروم . وقد جاء ذكر هـذه الغزاة فى تاريخ الطبرى وتاريخ ابن الأثير واستوفاها ابن مسكويه ويقال انه وجدت عين ماء اسمها عين مسلمة عند الدردنيل حيث كان الأمير مسلمة قد خيّم بعسكره ذكر ذلك المسعودى وابن خرذادبه وقيل ان مسلمة بنى جامعا فى ذلك المكان . وذكر ابن قتيبة ان رجلا اسمه عبدالله بن الطيب سل سيفه وأثبته فى باب القسطنطينية.وهذا الرجل كان من أصحاب مسلمة. ولم ينصرف مسلمة من حصار القسطنطينية حتى اجبر أمبراطور الروم على التعهد ببناء بيت لأسرى العرب بجوار قصر الأمبراطور . وكذلك كان مسلمة هو البانى لأول جامع فى القسطنطينية نقل ذلك المقدسى وابن الأثير ويقال انه هو الذى بنى برج غلطه ، وروى « حاجى خليفة » فى تقويم التواريخ انه هو الذى بناه سنة ٩٧ للهجرة انتهى

قلت ذكر المسعودى فى مروج الذهب خليج القسطنطينية فقال انه يضيق عند المدينة فيصير عرضه نحواً من أربعة أميال وعليه العمائر وينتهى فى ضيقه الى الموضع المعروف بالاندلس (١) وهناك جبال ، وعين ماء كثير ماؤها موصوف تعرف بعين مسلمة بن عبد الملك . وكان نزوله عليها حين حاصر القسطنطينية وأتته مراكب المسلمين فى فم هذا

(١) هذا تحريف للفظة الدردنيل فيما يظهر لنا أوغلط طبع فى النسخة المطبوعة بالمطبعة الازهرية بمصر سنة ١٣٠٢

الخليج مما يلى بحر الشام . ومنتهى مصبّه مضيق (هو الدردنيل) وهناك برج يمنع من فيه من يرد من مراكب المسلمين فى الوقت الذى للمسلمين فيه مراكب تغزو الروم وأما الآن فمراكب الروم تغزو بلاد الاسلام ولله الأمر من قبل ومن بعد . انتهى كلام المسعودى وهو مما حرره سنة ٣٣٠ للهجرة . فكيف كان يقول لو عاش لهذا العصر ؟

ثم جاء فى الانسيكلوبيدية الاسلامية ان العرب حاصروا القسطنطينية فى زمن هرون الرشيد ووصل الجيش العربى الى اسكدار ، أى القسم الاسيوى من المدينة فاضطرت الامبراطورة « ايرانه » — والمسعودى يقول لها ارينى — التى كانت كافلة ابنها قسطنطين السادس لصغر سنه ان تطلب الصلح وتؤدى للخليفة الجزية . روى ذلك تيوفانوس ، والبلاذرى ، والطبرى ، وابن الأثير . وقال هؤلاء ان هذه الغزاة جرت سنة ١٦٥ للهجرة . قلت ان البلاذرى يذكر ان المهدى أغزا ابنه هرون الرشيد الروم سنة ١٦٥ فنزل على الخليج . ثم نقلت الانسيكلوبيدية عن « اوليا » عن محيي الدين الجالى ان العرب حاصروا فى أيام المهدى والرشيد القسطنطينية أربع مرّات .

وأما الجامع المنسوب الى مسلمة بن عبد الملك فى القسطنطينية فلم يعرف مكانه . وقيل انه هدم فى أثناء فتنة ، وذلك سنة ١٢٠٠ مسيحية. وقيل ان الصليبيين انتهبوه سنة ١٢٠٣ وذكر ابن الأثير ان الأمبراطور قسطنطين « مونوماك » كان قد رمّم هذا الجامع بناءً على رغبة طغرل بك السلجوقى وذلك سنة ٤٤١ ، وقال أبو الفداء انه سنة احدى وأربعين وأربعمائة أرسل ملك الروم الى السلطان طغرل بك هدية عظيمة وطلب منه المعاهدة فأجابه اليها وعمر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرل بك . اه .

وقال ابن خلكان فى الوفيات فى ترجمة السلطان طغرل بك : «ومن محاسنه المسطورة انه سير الشريف ناصر الدين بن اسمعيل رسولاً الى ملكة الروم وكانت على الروم اذ ذاك امرأة فاستأذنها فى الصلوات الخمس بجامع القسطنطينية وبالجماعة يوم الجمعة فأذنت له فى ذلك فصلى وخطب للامام القائم (العباسى) وكان رسول المستنصر العبيدى صاحب مصر حاضراً فأنكر ذلك وكان من أكبر الأسباب فى فساد الأحوال بين المصريين والروم »

وجاء فى الانسيكلوبيدية الاسلامية نقلاً عن المقريزى ان الأمبراطور ميخائيل « باليولوغ الثامن » بنى سنة ٦٦٠ للهجرة فى القسطنطينية جامعاً أهدى اليه الملك الظاهر بيبرس مفروشات نفيسة

فتح الترك للقسطنطينية

وخلاصة خططها

الأمير شكيب

ومضى على حصار العرب للقسطنطينية واحتلالهم لضفاف البوسفور ستمائة سنة قبل أن حاصرها الاتراك لأول مرة لعهد بايزيد الأول العثمانى ، وذلك سنة ١٣٩٦ . وبينما كان بايزيد الاول ماسكا بخناقها بلغه قدوم جيش افرنسى مجرى تحت قيادة سجيسموند الأول ملك المجر لنجدة القسطنطينية فنهد اليهم بجيشه والتقى الجمعان فى نيقوبوليس من بلاد البلغار الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٣٩٦ فكانت الدبرة على الفرنسيس والمجر . واستؤصل جيشهم قتلا وأسراً . وقرأت فى بعض تواريخ الفرنسيس انه حصلت فى تلك البلدة معركتان احداهما سنة ١٣٩٣ انهزم فيها سيجيسموند ملك المجر . والثانية سنة ١٣٩٦ انهزم فيها المجر والافرنسيس معاً . وعاد بايزيد الى التضييق على القسطنطينية الى أن ارتضى امبراطور الروم بشروط ابن عثمان ، وذلك سنة ١٤٠٠ وكان من جملة تلك الشروط التخلى عن حارة فى تلك العاصمة لتكون مسكناً للمسلمين ، والاذن فى بناء مسجد جامع ، ونصب قاضٍ شرعى لفصل دعاوى المسلمين . ولما جاء تمرلنك وتغلب على السلطان يلدرم بايزيد وأخذه أسيراً نشقت فروق نسيم الفرج الا أن ذلك لم يستمر الى الآخر بل سنة ١٤٢٢ جاء السلطان مراد الثانى وحاصر القسطنطينية وضيق عليها فلم يقدّر له فتحها فارتضى بالصلح مع الامبراطور . وخلفه ابنه محمد الثانى فزحف اليها سنة ١٤٥٢ وبنى بجانبها حصن « روملى حصار » وبدأ الحصر فى ٩ ابريل سنة ١٤٥٣ وافتتحها فى ٢٩ مايو وكان أكثر الحاح الأتراك فى الهجوم من جهة البر بين باب طو بقبو وباب أدرنة

فان مدافعهم الثقيلة فتحت ثُلَماً تعذر على الروم سدّها . وكان خليج قرن الذهب مسدوداً بسلسلة حديدية فنقل الترك أسطولهم من جهة طوله بغجه وأصعدوه فى البر الى أكمة بك أوغلى وأنزلوه الى الساحل المسمى بقاسم باشا وأزلقوه على الشحم الى الخليج واستولوا عليه وكشف المولى آق شمس الدين قبر أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه . وانتهب الأتراك البلدة ثلاثة أيام ثم دخلها السلطان محمد الفاتح فى اليوم الرابع ، وارتفع النهب وعم السكون ، ونودى بالأمان ، وصلى السلطان الجمعة فى كنيسة أياصوفيا بعد أن حولها جامعا . وكان الجنويون فى غلطة ولهم فيها محلة خاصة بهم فتسلمها الأتراك منهم . وجاء تاريخ فتحها مصادفاً بحساب الجمل لآية « بلدة طيبة » أى (٨٥٣) وهى سنة فتحها بالحساب الهجرى . ولم يملك الاسلام فى الحقيقة بلدة أجلّ منها ، ولا خطّةً أهمّ موقعاً ، ولا مدينة أطيب نجعة . وقيل ان أجل مدن العالم منظراً اذا أقبل المسافر عليها ثلاث نابولى فى ايطالية ، وأشبونة عاصمة البرتغال ، والاستانة وهذه أجل الثلاث . وأما أهميتها الجغرافية والسياسية فلم تكن لبلدة أخرى فى المعمور واقعة بين البحرين الاسود والأبيض ، وواصلة بين البرّين آسية وأوربة أمامها بوغاز ووراءها بوغاز ومن ملكها فقد تبوّأ ملكا كبيراً وكرسيا عالياً منيفا ومن شرقيها البوسفور ومن غربيها بحر مرمرة المنتهى بمضيق الدردنيل ، واذا تحصّن كل منهما كما يجب أصبح العبور منهما فى حكم المستحيل تقريباً . ولقد تمكن الأميرال الانكليزى (١) دوكفورت من اجتياز الدردنيل بغتةً ووصل الى الاستانة ولم يجرأ أن يهاجمها وقفل راجعاً ولكن حصون الدردنيل لم تكن وقتئذ فى المنعة التى صارت اليها فيما بعد . وقد ظهر أن فرنسة وانكلترة وجهتا فى الحرب العامة الى الدردنيل جيوشاً جرارة وأساطيل قلما اجتمعت فى حرب بحرية وانهما بذلنا لاختراق هذا المضيق من الجهود ما ندر مثله فى تاريخ الحروب وانتهى الأمر بأن الجيوش العثمانية دحرتهما الى الوراء واضطرتهما الى الرجوع والانقلاع أخيب ما كانتا ، بعد أن فقدتا بين قتيل وجريح وضائع ثلاثمائة وخمسة وعشرين ألف مقاتل (٢)

(١) فى ٢٠ فبراير سنة ١٨٠٨

(٢) راجع الكتاب المؤلف على حرب الدردنيل التابع لسلسلة وثائق الحرب العامة بالافرنسية)

فالعرب فى صدر الاسلام لم تخف عنهم أهمية هـذه المواقع ولذلك زحفوا اليها عن أبعاد شاسعة ، وأعملوا فى غزوها قوات هائلة . ولما ملك آل عثمان بلاد الأناضول ثم اجتازوا البحر الى الروملى حصروها من البرين ، ولم يزالوا يعملون فى استخلاصها لأنفسهم الى أن قيض الله ذلك الفتح العظيم لمحمد الثانى ابن مراد ، وكان من أعاظم السلاطين تولى الملك فى حداثة سنه فى عهد أبيه وأصلى الأعداء المعارك الكبرى ، مثل معركة قوصوه التى هزم بها المجر والامم البلقانية ، ثم انه جلس على كرسى السلطنة بعد وفاة أبيه وهو ابن ٢٢ سنة وفتح القسطنطينية العظمى وهو ابن ٢٤ سنة .

قال البارون « كارادوڤو » Baron Carra de vaux فى كتابه « مفكرو الاسلام » فى الجزء الاول منه عند ترجمة محمد الفاتح : ان هذا الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقاً ، ولا تيسّر بمجرد ضعف دولة بيزنطية ، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم له كل ما كان فى عصره من قوة العلم . فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهد بالايجاد ، فأعمل فى تركيب أضخم المدافع التى يمكن تركيبها يومئذ وانتدب مهندساً مجريًّا ركب له مدفعاً كان وزن الكرة التى يرمى بها ٣٠٠ كيلو ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل ، وقيل انه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتمكنوا من سحبه وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه ، ولما زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثمائة ألف مقاتل ومعه مدفعية هائلة وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر ١٢٠ سفينة حربية . وهو الذى من قريحته تصوّر سحب جانب من الاسطول من البرّ الى الخليج وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم ٧٠ سفينة أنزلها فى البحر من جهة قاسم باشا . وبعد حصار ٥٠ يوما هدمت مدافعه أربعة أبراج ، وفتحت ثلمة عظيمة من جهة باب سان رومان وقام السلطان بالقحمة الأخيرة بنفسه وسار على رأس جيشه وبيده قضيب من حديد الى أن دخل قصر امبراطور الروم فأنشد قول الشاعر الفارسى : العنكبوت تنسج خيوطها فى القصر الملوكى والبوم يسمع صداه على أبراج افراسياب ولما دخل كنيسة أياصوفيا لم يسمح بمحو الفسيفساء التى بها صور أشخاص وانما أمر بأن تغطّى بالجص الخ »

وازدادت عمارة فروق فى زمان آل عثمان ، وأسكن فيها محمد الفاتح أقواماً من أطراف مملكته لا سيما من بلاد القرمان ومن الجزر وعاد اليها كثير من الروم الذين كانوا غادروها ، و بعد وفاة الفاتح جاءها اليهود المطرودن من أسبانية ومعهم جماعة من العرب . وما زالت هذه البلدة تنمو وتعظم حتى صارت عاصمة العالم الاسلامى ومن عُظْمَيات عواصم العالم كله و بلغ عدد سكانها فى هذا العصر مليوناً ومائتى ألف نسمة. الا أنه من المؤسف كون حكومة تركيا الجمهورية الحاضرة قد أهملت هذه البلدة الطيبة التى لا نظير لها اهمالاً زائداً ونقلت مقر الحكم الى أنقرة فرجعت الاستانة القهقرى و نزل عدد سكانها من مليون ومائتى ألف الى سبعمائة ألف وقيل الى ستمائة ألف وان اهمال الحكومة التركية لمثل الاستانة لمن الأغلاط السياسية التى لا جدال فيها .

***

ولقد شاد بنو عثمان فى الاستانة أو اسطنبول من الجوامع والقصور والأبراج والحصون والمدارس والتكن والمعاهد الخيرية ما يليق بعاصمة فريدة نظيرها ، وأهم ما فيها من المبانى الجوامع التى لا توجد فى سواها والتى تجد منائرها العديدة سامقة فى الفضاء من كل جانب فتكسب بها اسطنبول منظراً لا يجده ناظر فى غيرها لا شرقاً ولا غرباً

ومن أهم هذه الجوامع جامع الفاتح الذى أتم بناءه هو رحمه الله سنة ٨٧٥ للهجرة و بنى بجانبه ثمانى مدارس وعنده القبة التى دفن فيها الفاتح ومدافن أخرى لآله يقال ان منها مدفن الاميرة الصربية مارى ابنة جورج برانكوفيه التى كان تزوج بها مراد الثانى وماتت وهى باقية على دينها .

ثم جامع بايزيد بقرب باب السرعسكرية و فيه مدفن السلطان بايزيد بن محمد الفاتح و بعض عائلته .

ثم جامع السليمية بناه السلطان سليم الأول مشرف على محلة الفنار وفيه تربة السلطان المذكور ، وتربة السلطان عبد المجيد ، والد السلاطين مراد وعبد الحيد ومحمد الخامس ومحمد السادس .

ثم جامع الشاهزاده بناه السلطان سليمان سنة ٩٥٥ للهجرة وهندسه المعمار سنان المشهور وفيه مدفن الأمير محمد بن السلطان ومدفن أخيه جها نكير .

ثم جامع السليمانية ، وهو من أجل وأشهق وأفخم جوامع الدنيا بناه السلطان سليمان القانونى وكان المهندس له المعمار سنان ، وانتخب له أعلى قمة من الجبال التى عليها الاستانة و بنى حوله أر بع مدارس وعمارات أخرى وفيه مدفن سليمان الأول القانونى وسليمان الثانى وأحمد الثانى . وهذا الجامع فيه من الصنعة الهندسية فى بنائه ما لا يوجد فى أياصوفيا

ثم جامع السلطان أحمد بناه أحمد الأول وهو قريب من أياصوفيا وله ست منائر وفيه مدفن السلطان أحمد الأول وولديه عثمان الثانى ومراد الرابع

ثم جامع « ينى جامع » بقرب الجسر الواصل بين اسطنبول والغلَطَة وقد بدأت به السلطانة كوسم ثم أكملته السلطانة خديجة والدة محمد الرابع وذلك سنة ١٠٧٤ للهجرة وفى هذا الجامع مدافن السلاطين محمد الرابع ومصطفى الثانى وأحمد الثالث وعثمان الثالث . ولا تزدحم الجماعات فى مسجد ما تزدحمه فى هذا الجامع نظراً لقربه للجسر ومركز حركة الخلق .

ثم جامع النور العثمانى بدأ بناءه محمود الأول وأكمله عثمان الثالث .

ثم جامع لا له لى وفيه مدفن سليم الثالث

ثم زيرك جامع وأصله كنيسة حوّله الفاتح الى جامع .

ثم جامع محمود باشا بقرب النور العثمانى بناه أحد الصدور العظام سنة ٨٦٨ للهجرة

ثم جامع مراد باشا بناه أحد وزراء الفاتح سنة ٨٧٠

ثم جامع وفا بناه بايزيد الثانى سنة ٨٨١ للشيخ مصطفى وفا .

ثم جامع داود باشا على بحر مرمره تاريخ بنائه سنة ٨٩٠

ثم جامع خوجه مصطفى باشا فى سماطيه أصله كنيسة بيزنطية تحولت جامعاً سنة ٨٩٥

ثم جامع عتيق على باشا فى شمبرلى طاش بنى سنة ٩٠٢

ثم جامع مهرماه ابنة السلطان سليمان فى أعلى نقطة من المدينة بقرب باب ادرنة بنى

سنة ٩٦٥ وهندسه المعمار سنان

ثم جامع رستم باشا عند الخليج بناه رستم باشا الصدر الأعظم فى زمن سليمان الاول وهـذا الجامع هو من بناء سنان ايضاً وفيه من صنعة الخزف القاشانى نفائس لا توجد فى غيره .

ثم جامع الصدر الأعظم « الصوقولى » كمل بناؤه سنة ٩٦٩ .

ثم جامع فتحية أصله كنيسة تحول جامعاً فى زمان مراد الثالث سنة ١٥٨٧

ثم جامع جراح باشا كان بناؤه سنة ١٠٠٢ للهجرة .

وفى اسطنبول القديمة نحو من خمسمائة جامع وبديهى أنه غير داخل فى هـذا العدد الجوامع التى فى غلطه و بك اوغلى و بشكطاش ونشان طاش والقرى التى على البوسفور من الجانبين فهناك جوامع أيضاً تحصى بالمئات . ومنها جوامع فى الغاية من الاتقان والبداعة وكلها لها المنائر الرفيعة المستديرة الضاربة فى الهواء البالغة الحد فى البهاء والتى هى زينة هذه العاصمة . ومن أشهر هـذه الجوامع « النصرتية » فى الطوبخانه وجامع « جهانكير » فى « الفندقلى » وجامع « بشكطاش » وجامع « يلديز » وغيرها .

ولنتكلم الآن على جامع أيا صوفيا وهو الدرة الدهماء واليتيمة الطائر ذكرها فى الغبراء فنقول :

***

ان هذا الجامع لا يزال أعظم جامع فى القسطنطينية ، كما أنه كان أعظم وأجل كنيسة فى الشرق ، ومن أعظم وأجل كنائس العالم . والأصل فى هندسة قبته المشهورة بعظمتها مأخوذ من الهندسة التى كانت معروفة قديماً فى العراق أى انها هندسة آسيوية لا أوربية كان أتى بها البنّاؤن من العراق الى بلاد الروم وغلبت على كنائسهم ، وعدلوا بعدها عن طرز البناء اليونانى القديم . أما حلية أيا صوفيا الداخلية فهى من الصناعة السورية . فهى اذاً من جميع الوجوه تضرب فى بنائها الى عرق آسيوى . ولقد صار طرزها هو المعول عليه فى بناء الكنائس الارثوذكسية كلها ولا سيما فى الروسية . ولم يحدث فى الهندسة طرز يفوقه وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية ان بعض كنائس الغرب أيضاً مثل كنيسة مار مرقس فى

البندقية مبنية أيضاً على طرز أيا صوفيـا . قالت : وان أجـل جوامع الأتراك فى الروملى — كجوامع أدرنة مثلاً — لاتخرج عن طرز أيا صوفيا الا قليلاً .

وأول من أسس أياصوفيا هو الامبراطور قسطانس ابن الامبراطور قسطنطين الكبير وذلك سنة ٣٦٠ مسيحية ، وكانت تسمى حينئذ بالكنيسة الكبرى . ثم أصابتها جوائح من حريق وزلزال ثم أعيد بناؤها سنة ٤١٥ ثم احترقت فى أثناء فتنة احترق بها جانب كبير من المدينة. وعندها قرر الامبراطور يوستنيانوس تجديد بنائها والسخاء عليها بالأموال الطائلة وحشد لها الصنّاع وجمع مواد البناء من أطراف المملكة لا سيما من انقاض الهيا كل القديمة التى كان النصارى قد دمّروها بعد تنصُّر الدولة . واستجاد يوستينانوس لهندسة الكنيسة مهندسين من أشهر بنائى ذلك العصر وكل عصر وهما « انيتميوس تراليس » و « ايزدوروس ميله » فتوخّيا فيها الطريقة التى تقيها الحريق وتأثير الزلازل التى تكثر فى القسطنطينية وعقدا لهـا هذه القبة العجيبة . وتم بناء أيا صوفيا سـنة ٥٣٧ واحتفل يوستنينوس بافتتاحهـا فى يوم عظيم أبلغ فيـه الأبهة منتهاها وهتف يومئذ : سليمان قد غلبتك . ولم يكن فى قوله هـذا مبالغاً . ثم حصلت زلزلة سقط بها جانب من القبة وذلك فى زمن يوستنيانوس نفسه ، فجددوا بناءها ورفعوها نحو ٢٠ قدماً واحتفلوا بافتتاح البناء سنة ٥٦٣ . ويقدّر داخل أياصوفيا بخمسة وسبعين متراً طوالاً وسبعين متراً عرضاً ويقدّر علو القبة بستة وخمسين متراً ، ولما كانت الجدران لا تكفى لتوطيد القبة الى الدرجة المطلوبة فقد أرسلوها أيضاً على أساطين أربع مرتبطة بعضها ببعض بأعمدة أصغر منها وبقسى شديدة وعدد أعمدة الكنيسة التى يتوكأ عليها البنيان ١٠٧ أعمدة كلها من ذوات الألوان النادرة والرخام المجزع . وكانت القبة والحيطان مزيّنة كلها بالفسيفساء المذهبة الآخذة بالأبصار وعلى الحيطان صور عيسى ومريم عليهما السلام والأنبياء والرسل والملائكة وان القلم ليعجز عن اعطاء تلك المناظر حقهـا من الوصف . وكان القسوس والوفَهَة (١) الذين يخدمون فى أياصوفيا لعهد يوستنيانوس ٤٢٥ شخصاً وكان لها مائة بواب . وقيـل انه لمـا فتح الأتراك القسطنطينية كان وفَهَة أياصوفيا ٨٠٠ شخص

وسنة ٩٨٩ مسيحية حصل زلزال أضرّ بقبة أياصوفيا ثم ترممت . وسنة ١٢٠٤ انتهب

(١) الوافه قيم البيعة

اللاتين الصليبيون هذه الكنيسة وجرّدوها من حلاها وذلك فى أثناء مقامهم بالقسطنطينية وأ كثر ترميمات أيا صوفيا للعهد البيزانطى وقعت فى القرن الرابع عشر اذ بنيت حول الكنيسة جدران وأجنحة جديدة لتوطيد الجدران القديمة .

وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية أن أول مسلم كتب عن أيا صوفيا هو أحمد ابن رست من رجال القرن الثالث للهجرة وذلك فى كتابه « كتاب الأعلاق النفيسة »وكان يسمى أيا صوفيا بالكنيسة العظمى ويصف كيفية ذهاب امبراطور بيزانطية الى الكنيسة أيام الآحاد والاعياد بذلك الاحتفال العظيم وكيف كان الاسرى المسلمون يؤتى بهم الى تلك الحفلة ليهتفوا للملك قائلين : «أطال الله حياة الملك»وذكر هذا الكاتب شيئاً فى غايةمن الدقة فقال انه يوجد فى مدخل الكنيسة الغربى مجلس وأربعة وعشرون باباً صغيراً فكلما مضت ساعة من الأربع والعشرين ساعة ينفتح باب من هذه الابواب من نفسه ثم ينغلق لنفسه . ولم يذكر هذه النادرة أحد غير أحمد المذكور . ولم نجد بعد ذلك لأحد من مؤلفى الاسلام كتابة عن ايا صوفيا حتى القرن السابع للهجرة فقد جاء لشمس الدين محمد الدمشقى كلام وجيز على أيا صوفيا . ثم جاء ذكر أياصوفيا فى رحلة ابن بطوطة الذى زار الاستانة لكن ابن بطوطة يقول انه لم يدخل الى داخل الكنيسة لأنه كان من العادات المرعية عندهم ان كل من دخل اليها لا بد له من أن يسجد للصليب وهو أبى أن يفعل ذلك .

ولما دخل الاتراك القسطنطينية فى ٢٩ مايس ١٤٥٣ التجأ جميع الاهالى الذين لا يحملون السلاح والنساء والأولاد الى أيا صوفيا وهم يعتقدون أنه متى وصل الترك الى عمود قسطنطين الكبير يظهر ملك فى السماء فينهزمون نكوصاً على الأعقاب ويعودون من حيث أتوا . ولكن الترك دخلوا الكنيسة وأخذوا جميع تلك الخلائق أسرى . وليس بصحيح ما يزعمه بعضهم من أنهم ذبحوهم. فالترك لم يذبحوا هناك أحداً وما لبثوا أن أطلقوا سبيل أولئك الأسرى . ولما جاء محمد الفاتح ترجّل عن جواده ودخل أيا صوفيا وارتفع صوت الأذان فى داخل الكنيسة وسجد السلطان ومن معه للاله الواحد وتحول هيكل قنسطنس ويوستنيانوس مسجداً للاسلام .

أما ما أدخله المسلمون من التغييرات على أيا صوفيا فهو أنهم غطوا الصور التى كانت على الحيطان والفسيفساء البديعة الباهرة المبثوثة على الجدُر والاقبيةوذلك بالجص الذى يمنع

من ظهورها للعيان لما فى دين الاسلام من تحريم الصور فى أماكن العبادة وكذلك رفعوا الحاجز الذى كان بين القسيسين والاهالى . ولما كانت الكنائس البيزانطية موجهة فى بنائها الى القدس وكان المسلمون فى صلواتهم يولون وجوههم شطر مكة كان لابد للمسلمين فى أياصوفيا من أن ينحرفوا قليلا عن الجهة الشرقية الى الجهة الجنوبية . ولقد دعم المسلمون أيا صوفيا بجدران جديدة فبنى محمد الفاتح دعائم لتقوية الحائط الجنوبى الشرقى من المسجد و بنى أيضاً احدى المنائر الأربع الموجودة الآن والتى هى من أجمل ما يرى فى سماء الاستانة ثم بنى سليم الثانى المنارة الثانية و بنى مراد الثالث المنارتين الأخريين فتتامّت أربع منائر . وكان لمراد الثالث فى أيا صوفيا آثار كثيرة فهو الذى جعل عند الباب حوضين يسع كل منهما ١١٥٠ ليتراً من الماء لأجل الوضوء وجعل فى الداخل مصطبتين عاليتين يتلى فوق احداهما القرآن طول النهار و يؤذن بالصلاة فوق الأخرى ووضع مراد الثالث محل الصليب الذى بأعلى القبة هلالاً أنفق على تمويهه بالذهب أموالا طائلة وقطر هذا الهلال خمسون شبراً فهو يرى من مسافات بعيدة.

وقد بنيت الى الجنوب من المسجد قباب لأجل دفن السلاطين أقدمها قبة سليم الثانى و بجانبها مدفن ابنه مراد الثالث وحفيده محمد الثالث . وهناك أيضاً مدفن مصطفى الأول ثم ابن أخيه السلطان ابراهيم . وممن اعتنى أشد الاعتناء بأيا صوفيا السلطان مراد الرابع فشاد عضائد كثيرة للجدران وفى أيامه كُتبتْ على الجدران الداخلية من المسجد الآيات القرآنية بتلك الحروف التى لا يوجد أكبر منها وكلها مموّهة بالذهب وهى من خط ذلك الخطاط الشهير بيشكجى زاده مصطفى شلبي فمن هذه الأحرف حرف الالف مثلا طوله عشرة أذرع وهذا عدا بداعة الخط واشتباك حروفه ، وتعليق بعضها على بعض ، مما يدهش الابصار و يتنافس به أدباء الترك ، وقد كتبت أيضاً بهذا الخط نفسه أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة . أما المنبر الذى فى أيا صوفيا فهو احدى يتائم الصنعة وهو أيضاً من آثار مراد الرابع . وقد شيّد أحمد الثالث مقصورة لصلاته مرتفعة مشتبكة من جهة المسجد . ثم ان السلطان محمود الأول جعل بجانب المسجد سبيلا للماء ومدرسة وذلك الى الجنوب منه وجعل أيضاً خزانة للكتب هى فى نفس الجامع . ومن بعد مراد الرابع فاتح بغداد تأخرت أحوال أيا صوفيا بالتأخر العام الذى أصاب المملكة و بقيت الحال على ما هى عليه الى أيام السلطان

عبد المجيد الذى سنة ١٨٤٧ عهد الى الاخوان « فوساطى » من البنائين الطليان بترميم ما يجب ترميمه من المسجد فلبثوا مدة سنتين يشتغلون ولم يبقوا على الحيطان الا الجص الذى يحجب الصور البشرية وجلوّا الحيطان المموهة بالذهب والنقوش الساطعة ، وكذلك فى زمان عبد المجيد جرى رفع المنائر الأربع وبالجملة فكان ترميم السلطان المشار اليه لجامع أيا صوفيامن أجلّ مآثره .

ولقد توالت الزلازل على الاستانة المعروفة بكثرة زلازلها ولم يصب أياصوفيا من هذه الاهتزازات الارضية منذ القرن الخامس للمسيح الى الآن أذى يذكر وذلك بفضل الدعائم الكثيرة التى أقامها البيزانطيون سابقاً والاتراك لاحقاً وشدوا بها جدران الجامع صفاً وراء صف . وأجمل مايكون مسجد أياصوفيا فى شهر رمضان اذ تحتشد الألوف من المصلين لصلاة العصر وكذلك الألوف لصلاة التراويح بعد العشاء وأعظم حفلة تقع فيه فى الليلة السابعة والعشرين من رمضان أى ليلة القدر . وكان السلطان عبد الحميد الثانى يأتى الى أياصوفيا فى أواسط رمضان بعد الاحتفال المعروف بزيارة البردة الشريفة فى سراى « طوب قپو » .

وقد كتبت على مسجد أياصوفيا تآليف خاصة به ، منها كتاب ظهر فى زمن الفاتح من تأليف احمد بن احمد الجيلانى مأخوذ منه قسم عن اليونان وقد حرره المؤلف بالفارسى . ثم ترجمه أديب اسمه نعمة الله الى التركى وهذا التأليف تجدهُ فى خزانة أياصوفيا تحت رقم ٣٠٢٥ ، وروى الكاتب شلبى صاحب كشف الظنون أن الفلكى عليًّا بن محمد الكُشْجى الّف أيضاً لعهد السلطان الفاتح كتاباً آخر بالفارسى على أياصوفيا لكننا لم نتحققه . ثم انه يوجد فى خزانة كتب برلين تأليف ثالث عهده ٨٨٨ للهجرة فى الموضوع نفسه هوملحق بتاريخ الدولة العثمانية الا أن اسم المؤلف غير مذكور فيه

ثم هناك مجلد اسمه « تواريخ قسطنطينية » فيه كتابان فى الموضوع وفيه أقاصيص كثيرة تتعلق بالجامع وأسباب بناء هذا المعبد فى الاصل والاموال التى أنفقت عليه . ثم انه موجود تأليف آخر اسمه « تواريخ قسطنطينية وأياصوفيا » لعلى العربى الياس بدأ به سنة ٩٧٠ لعهدالسلطان سليمان القانونى . ويقول على العربى الياس ان البناء الذى هندس بناية أياصوفيا بأمر الامبراطور يوستينيانوس كان اسمه اغناطيوس وبالجملة نجد تاريخ هذا الرجل أو فى الكتب بموضوع أياصوفيا وان كان مقصراً عن الوفاء بتحقيقاتنا العصرية . اه

هذا مانقلتاه عن الانسيكلو بيدية الاسلامية بشأن أياصوفيا أشهر جامع فى القسطنطينية وذلك على وجه الاختصار . وفى الاستانة غير بعيد عن هذا الجامع جامع آخر اسمه أياصوفيا الصغير بناه أيضاً الامبراطور يوستينيانوس باسم القديسين سرجيوس و باخوس . وقد تحول فى زمان محمد الفاتح أيضا الى مسجد .

ثم ان تاريخ أياصوفيا الذى أشارت اليه الانسيكلو بيدية من تأليف الجيلانى قد جاء ذكره فى كشف الظنون وجاء ذكر التاريخ الآخر للكُشْجى قال : «تاريخ أياصوفيا مختصر نقله احمد بن احمد الجيلانى حين الفتح من اليونانية الى الفارسية وأهداه للفاتح . ثم نقله نعمة الله بن احمد من الفارسية الى التركية وللمولى الفاضل على بن محمد الكشجى المتوفى سنة ٨٧٩ تأليف لطيف بالفارسية ألفه للفاتح المرحوم » .

* * *

وفى القسطنطينية جوامع أخرى كانت كنائس منها « كليسه جامع » و « كول جامع » أى جامع الورد وغيرهما . ولا يزال فيها خمسون كنيسة منها كنائس باقية من القرن الثالث عشر .

وأما الجامع المسمى « بسلطان أيوب » فى الخليج الذى هو أقدس مكان عند الاتراك فهو الجامع المبنى على ضريح الصحابى الجليل أبى أيوب خالد الانصارى رضى الله عنه .

وقد تقدم لنا خبر وفاة أبى أيوب فى أثناء حصار القسطنطينية وما أوصى به يزيد بن معاوية من جهة دفنه ، ثم انه لما جاء محمد الفاتح وحصر هذه البلدة الطيبة وفتحها انكشف للمولى آق شمس الدين ضريح أبى أيوب ، وشاد الفاتح رحمه الله سنة ٨٦٣ جامعاً عند ضريح الصحابى المجاهد . ثم فى سنة ١٢١٣ الى سنة ١٢١٥ تجدّد بناء هذا الجامع على صورته الاصلية ، وكان من عادة سلاطين آل عثمان أنه عندما يتولى أحدهم السلطنة يذهب الى جامع أبى أيوب المشار اليه و يتقلد فيه السيف باحتفال عظيم ، ويكون تقليد السيف من يد الشلبى شيخ الطريقة المولوية التى مركزها قونية .

هذه هى العادة التى أدركناهم عليها الا أنه لما تولى السلطنة السلطان محمد وحيد الدين الملقب بمحمد السادس ابن السلطان عبد المجيد بن محمود وهو الذى أعلنت تركيا الجمهورية

بعد خلعه كان الذى قلده السيف السيد احمد الشريف كبير السادة السنوسية والمجاهد الشهير بهذا العصر .

هذا وبجوار جامع أبى أيوب مقبرة فيها مدافن كثير من أميرات آل عثمان ، وكثير من الوزراء والعلماء والشعراء ورجال الدولة نظراً لكون الناس فى الاستانة يتبركون بهذا المكان المنسوب لصاحب رسول الله ﷺ ويحبون أن يدفنوا فيه . ومن جملة من دفنوا فيه أحد أعمام محرر هذه السطور وهو العالم الكبير المرحوم الأمير محمد الأمين الارسلانى الذى كان عضواً فى مجلس شورى الدولة وتوفى فى الاستانه شاباً عن ٣١ سنة وذلك سنة ١٢٨٨ هجرية (١)

ومن المدافن الشهيرة فى الاستانة مدافن السلاطين مثل« سلطان محمود تر به سى» فى « ديوان يولى » وفيها دفن السلطان محمود الثانى المتوفى سنة ١٨٣٩ مسيحية وولده السلطان عبد العزيز المتوفى سنة ١٨٧٧ ، وتربة السلطان عبد الحميد الأول المتوفى سنة ١٧٨٩ وهى فى « بغجه قبوسى » وفيها دفن السلطان مصطفى الرابع المتوفى سنة ١٨٠٧

ومن الأمكنة الدينية المشهورة فى الاستانة التكايا ، وهى التى يقال لها الزوايا عند العرب . وهذه كان يبلغ عددها ٢٦٠ تكية فى البلدة وقرى البوسفور أشهرها تكية المولوية فى « ينى كوى » وتكية السنبلى فى جوارها ، ثم تكية هذه الطريقة فى « بك أوغلى » وهى من أشهر تكايا تركيا وأقدمها ، بنيت سنة ٨٩٧ للهجرة ثم احترقت منذ مائة وسبع وستين سنة وأعاد بناءها بشكلها الحاضر السلطان سليم الثالث وذلك سنة ١٢١٠ وفيها قبر احمد باشا المهتدى الافرنسى الذى كان اسمه الكونت دو بونفال de Bonneval والذى هو من آل « ليموزين » العائلة العريقة المعروفة بفرنسة من القرن الحادى عشر والتى اشتهر منها عدة من القواد الأبطال ، ومنهم « كلود اسكندر » هذا الذى ولد سنة ١٦٧٥ وتوفى سنة ١٧٤٧ وكان فى الجيش الافرنسى فجرت معه حادثة أوجبت غضبه ففارق فرنسة ودخل فى خدمة أوستريا واشتهر فى محاربة الاتراك ، و بعد مدة من الزمن وقع أسيراً فى أيديهم فى بوسنه ثم أسلم وجعله الاتراك قائداً باسم احمد باشا . ولما مات دفن فى هذه التكية . ومن المدفونين فيها اسماعيل الأنقروى شارح المثنوى

(١) راجع ترجمة الأمير محمد ارسلان عند ذكر الأمراء الارسلانيين فى دائرة المعارف للبستانى

وأما المدارس القديمة التى تعلّم فيها العلوم الشرعية والآداب الشرقيـة فـكانت نحو ١٧١ مدرسة أشهرها مدرسة أياصوفيا وفيها ١٥٠ طالباً ومدرسة السلطان احمد وفيها ٢٠٠ طالب والسليمانية وفيها ٦٥٠ طالبا والمحمدية وفيها ٩٠٠ طالب وكان مجموع طلبة هذه المدارس نحواً من سبعة آلاف

***

ولما آل الحـكم فى تركيا بعد الحرب العامة الى مصطفى كمال باشا وانقلب من السلطنة الى الجمهورية والى جمهورية لادينية Laïque أقفلت هـذه الجمهورية التـكايا وألغت الطرق وأغلقت المدارس الدينية والشرعيـة ، ورفعت التعليم الدينى من مكاتب الحـكومة ، وقامت بأعمال وأحداث كثيرة من هذا القبيل مما سيأتى ذكره فى محله .

وفى الاستانة مستشفيات ودور للمجانين كانت من القـديم تابعة للجوامع ثم جعلتها الحـكومة التركية على الطريقة العصرية

أما خزائن الـكتب فهى ٤٥ خزانة فيها ٦٤١٦٢ مجلداً كلها كتب اسلامية أكثرها مخطوط بالقلم. وأشهر هـذه الخزائن الخزانة التى فى سراى السلاطين فى طوب قبو . ثم خزانة أياصوفيا . ثم خزانة الفاتح . ثم خزانة النور العثمانى . ثم خزانة أسـعد افندى . ثم خزانة الـكوبريلى. ثم خزانة راغب باشا. ومن الخزائن المعروفة خزانة بايزيد وفيها كان بعض أجزاء كتاب الاكليل النادر الوجود للهمدانى اليمانى. وخزانة عاشر افندى بقرب «ينى جامع» وفيها وجدت أنا منذ أربعين سنة رسالة « الدرة اليتيمة » لعبد الله بن المقفع ورسائل أبى اسحق الصابى رئيس كتاب ديوان الخلافة لعهد الطائع العباسى ونسخت هذين المخطوطين بخط يدى وطبعتهما وكانت هذه طبعتهما الأولى . ولقد علمنا أن حكومة تركيا الحاضرة جمعت أكثر هذه الـكتب فى مكتبة واحدة بدار الفنون . وأما مكتبة السراى فمنها قسم فى الخزانة الخاصة بها ومنها قسم فى « بغداد كوشك » ويقال ان فيها مخطوطات لاتينية ويونانية ذات قيمة عظيمة . ولقد أتيح لى أن أدخل الى هذه المـكتبة والى خزانة التحف السلطانية وأن أرى كثيراً من الـكتب النفيسة فى أجلادها المذهبـة وخطوطها التى تحير العقول ، ولا عجب فعن الملوك ولا تسل . وأىّ الملوك : سلاطين آل عثمان الذين ملـكوا نحواً من سبعمائة سنة مملـكة من أكبر ممالك العالم . وكذلك الجواهر والدرر اليتيمة التى فى خزانة آل عثمان قلما

يوجد مثلها فى خزائن الملوك . ولا شك فى أنها تقوم بملايين كثيرة من الجنيهات . وفى أثناء الحرب العامة نقلت الدولة الجواهر التى كانت فى « الحرم النبوى بالمدينة » المنورة الى خزانة طوب قبو . وفى السراى من النفائس مالا يحصى ومن جملتها ١٢ ألف قطعة خزف صينى من النادر الاندر الذى صار مثله كالكبريت الأحمر كان المرحوم على الباشهانبه التونسى قد عهد اليه بجمعها وتنضيدها لسعة معرفته بالخزف المذكور وهو الذى قال لى انه لا يظن فى الدنيا كلها مجموعة خزف صينى فى نفاسة هذه المجموعة لا فى الكيفية ولا فى الكمية

***

وأما المخلفات النبوية التى أخذها السلطان سليم العثمانى من آخر خلفاء بنى العباس عندما فتح مصر ، فلها فى سراى طوب قبو كوشك خاص بها وأهمها البردة الشريفة ، التى أعطاها الرسول ﷺ كعباً بن زهير عندما أنشده « بانت سعاد » وهى فى سفط ثمين كان السلطان سليم رتّب عندها ١٢ حافظاً يقرأون كتاب الله بالمناوبة بحيث لا تنقطع التلاوة لا ليلاً ولا نهاراً . وكان السلاطين يحتفلون بزيارتها فى وسط رمضان فى يوم مشهود يكون فيه السلطان وأمرآء الأسرة المالكة والوزراء والقواد وأعضاء مجلسى الأعيان والنواب وقد حضرت هذه الحفلة مراراً وكان السلطان يجلس على دكة وأمامه الصندوق الذى فيه السفط الذى فيه البردة وهم يقولون لها «خرقة سعادت». ثم يتقدم الرجال المدعوون للحفلة واحداً بعد واحد بالترتيب بحسب برنامج معلوم فيرقى الواحد منهم درجة الدكة ويصير أمام الصندوق ، وينحنى ، ويقبل الصندوق من أعلاه ويكون السلطان قد تناول منديلاً فمسح به على وجه الصندوق فيناوله اياه وينصرف سائراً من غير الجهة التى جاء منها . فيرقى غيره وهلم جرّا الى أن تنتهى هذه المراسم والسكوت التام والخشوع العظيم سائدان عليها بحيث لا يسمع الانسان فيها الا صوت قارئ يتلو القرآن فى وسط البهو الذى فيه الحفلة . لعل اخواننا الوهابيين يستهجنون هذه المراسم ولا يرون تقبيل الآثار النبوية أو الأصونة التى فيها مما يستحب شرعاً الا أنه ليس شئ من هذه الأمور منويا به غير مجرد التذكر والتبرك وانما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى .

ثم ان سراى طوب قبو هذه هى فى الواقع عبارة عن بلدة كبيرة فى طولها وعرضها ومبانيها وحدائقها وميادينها وساحاتها وفيها اكشاك وقصور وصروح بغاية الأبهة اذا طاف

بها الانسان طول النهار لا يأتى على آخرها . وفيها مساكن حرم السلاطين والغرف الخاصة بكل واحد منهم ومما أدهشنى وأنا أطوف فيها انى لم أكد أمرّ بغرفة ولا ببهو ولا بأيوان من هذه القصور الملكية الا رأيت على جدران ذلك المكان آيات قرآنية أو أحاديث نبوية بأجل الخطوط المذهبة . وقد رأيت القصيدة المعروفة بالبردة الشريفة منقوشة باحرف كبيرة مموهة بالذهب من أولها الى آخرها فى ايوان واحد . ومن شاء أن يزور هذا المكان لم يكن له بد من أن يطوف به بمعرفة دليل يعرّفه تاريخ كل محل ونسبته ووقت بنائه ومن كان من السلاطين يسكن فى هذا القصر وأية حادثة وقعت فى تلك الساحة وأىّ اجتماع جرى فى ذلك البهو الى غير ذلك . وقد كان دليلنا يوم طفنا فى سراى طوب قبو المؤرخ العليم بالخطط احمد رفيق بك المشهور الذى كان يشرح لنا كل مايتعلق بكل محل من الوقائع فشهدنا بواسطته التاريخ مجسّماً .

وللسلاطين العثمانيين ، عدا سراى طوب قبو ، سرايات كثيرة متناهية فى الفخامة ، منها سراى « طولمه بغجه » التى كان يسكن فيها المرحوم السلطان محمد رشاد ، وفيها البهو الكبير العديم النظير الذى تجرى فيه مراسم الأعياد وتستقبل به الملوك . ومنها سراى « جراغان » وقد احترق جانب منها . ومنها سراى « يلديز » التى كان يسكنها السلطان عبدالحميد الثانى وهى على رابية من أبدع روابى الاستانة ولها حديقة واصلة الى البحر . وكان يصيف فيها السلطان رشاد أيضا . وقد وقعت لنا مقابلة السلطان رشاد مرتين فى سراى يلديز ومرة فى سراى طولمه بغجه هذا عدا المقابلات الرسمية . ومن السرايات الفخمة فى الاستانة سراى « بكاربك » فى الشاطئ الاسيوى من البوسفور وهى التى مات فيها السلطان عبد الحميد الثانى بعد خلعه . ومنها كوشك « كوك صو » وغير ذلك من السرايات والقصور والصروح والمقاصف التى تدهش كل من رآها وفى الاستانة ثكُنٌ عسكرية كثيرة لاتكاد تحصى الا أن أعظمها الثكنة السليمية فى اسكدار يقال انها من أعظم ثكن الدنيا .

وفيها « الطوبخانه » وهى معمل المدافع والأسلحة وأول من أسس الطوبخانه محمد الفاتح ثم زاد فيها سليمان القانونى . وما زالت السلاطين تهتمّ بها وتزيد فيها . وسنة ١٩١٢ زرتها بنفسى وتفقدت أعمالها وكان مديرها رجل اسمه ناظم باشا فعلمت منه انها تصنع فى كل اسبوع عشرة مدافع و ١٢٠ بندقية ومقداراً من العلف للبنادق ومن القنابر للمدافع ،

ولـكن ذلك لم يكن شيئا بالنسبة الى احتياجات السلطنة فلذلك كانت الدولة العلية توصى على مدافعها و بنادقها فى معامل ألمانيا . وقد علمت ان الدولة قد كانت أوسعتها فى أثناء الحرب العامة وأدخلت فيها ز يادات كثيرة .

وفى الخليج « الترسانة » وهى محرفة عن « دار الصنعة » وكان العرب يسمون كل مكان تبنى فيه المراكب البحرية بدار الصنعة فأخذ هذه الكلمة الافرنج وحرفوها وقالوا « ارسنال » وأخذها الترك وحرفوها وقالوا « ترسانة » وقد كان مؤسس الترسانة فى اسطنبول السلطان سليم الأول سنة ٩٢٢ (١٥١٦) ثم زادفيها القانونى ثم زاد فيها حسن باشا الجزائرى فى زمن عبد الحميد الأول ثم زاد فيها حسين باشا فى زمن سليم الثالث . وهناك دار نظارة البحرية العثمانية . وأما الآن فقد جعلت حكومة أنقرة دار الصنعة فى خليج ازميد .

وفى الاستانة مكاتب ودور علم كثيرة أشهرها دار الفنون فى اسطنبول ومكتب « غلطه سراى » فى بك اوغلى ، والمكتب العسكرى فى « شيشلى » ومكتب البحرية فى جزيرة « خلقى » فى بحر مرمره . وكلها قد نبغ منها الألوف من رجال العلم والأدب والسيف والقلم .

وفى الاستانة أسواق عظيمة شهيرة لاتوجد فى حاضرة شرقية غيرها . منها السوق الكبيرة التى بدأها محمد الفاتح وسوق مصر التى بناها سليمان القانونى وغيرهما . وكذلك فيها خانات شهيرة مثل خان « والده سلطان » و « بيوك ينى جامع » وفيه ٣٥٠ غرفة و« سنبللى خان » وخان محمود باشا وغيرها ، و يقدر عددمافيها من الخانات بمائتين .

ثم ان القسطنطينية من قديم الزمان كانت فى حاجة للمياه نظراً لوفرة سكانها وضخامة عمرانها . فقياصرة الروم كانوا جلبوا لهـا المياه من الخارج على الحنايا والقناطر العظيمة أولهم الأمبراطور هادريان ثم ڤالنس . ولما جاء المسلمون ازداد احتياج الأهالى الى الماء كما هو بديهى فجرّ اليها الفاتح مياهاً جديدة ثم جرّ لها القانونى بواسطة مهندسه سنان خمسة ينابيع عقد لها خمسة مجار فوق القناطر وجمعها فى حوض كبير . و بنى عثمان الثانى حوض برغوس سنة ١٦٢٠ و بنى أحمد الثالث السد — والأتراك يقولون بند — الذى فى الوادى المسمى بغابة بلغراد . وسنة ١٧٣٢ بنى محمود الأول سد « بغجه كوى » الذى منه مياه بك اوغلى وغلطه والطوبخانه . وفى طرف بك اوغلى الى جهة شيشلى محل يقال له « تقسيم »

منه تقسيم المياه التى جرّها محمود الأول .

وفى الاستانة حياض مياه قديمة من عهد الروم دثر أكثرها واعتيض منها بالعيون التى هى من أجل مارأته العيون والسبل المبنية بالمرمر البالغة الحد فى بداعة الصنعة مثل سبيل السلطان أحمد الثالث الذى بقرب « باب همايون » الذى تاريخه سنة ١١٤١ .

ويقدر عدد حمامات الاستانة بنحو من ١٥٠ حماماً عدا حمامات القرى الملحقة بالاستانة .

هذا وكان العرب يقولون للقسطنطينية « فروق » كصبور وقد وردت كذلك فى معاجم اللغة وكأنهم أخذوها من قوله تعالى (وَاذْ فَرَّقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ) أى فلقناه فان البحر يفرقها بين آسية وأوربة بمضيق البوسفور ثم يفرق القسم الاوربى منها بالخليج المسمى بقرن الذهب الذى فيه دار الصنعة أو الترسانة وفى آخره قبر خالد الانصارى رضى الله عنه .

وهذا الخليج يفرق بين القسم المسمى باسطنبول الأصلية وغلطه . وكانت غلطه من أيام الروم مسكن الجنويّة وأصناف اللاتين . ولما فتح الترك الاستانة انتقل كثير من الروم والأرمن اليها ، ثم لما بنيت الطوبخانه وهى من قسم الغلطه جاءها كثير من المسلمين وهكذا تحولت كنيسة ماربولس جامعاً منذ سنة ١٥٢٥ وقيل ١٥٣٥ وهى المسجد الذى يقال له اليوم « عرب جامع » ويقول بعضهم انه كان جامعاً فى أثناء حصار العرب للقسطنطينية . وتحولت كنيسة مارا فرنسيس الى جامع سنة ١٦٩٧ وهو المسجد المسمى بجامع الوالدة . وللاتراك ١٤ جامعاً فى غلطه منها أربعة كانت كنائس .

***

ولقد ذكر ياقوت الحموى فى معجم البلدان هذه العاصمة الشهيرة وقال انها دار ملك الروم ، وان الحكايات عن عظمها وحسنها كثيرة ولكن ياقوت لم يعطها حقها وربما كتب فى وصف بلدة لاتبلغ مقدار حارة من حارات القسطنطينية أكثر مما كتب عن القسطنطينية ، ولعله تجنّب الأطناب فى شأنها خشية أن ينسب اليه التعصب للرومية لأنه رومى وخشى أن يقال انه لايزال فيه عرق من الرومية ينزع اليه . وقد روى ياقوت ثلاثة أبيات جاء فيها ذكر القسطنطينية قال انها لأبى العيال الهزلى رثى ابن عم له قتل فى القسطنطينية وهى هذه :

ذ كرت أخى فعاودنى ... رُداع القلب والوصب
أبو الأضياف والأيتا ... م ساعة لايعــدّ أب
أقام لدى مدينــة آ ... ل قسطنطين وانقلبوا

قال ياقوت وهى اليوم بيد الأفرنج غلبوا عليها الروم وكان ياقوت حيــا فى أوائل القرن السابع للهجرة . ولنختم كلامنا على القسطنطينية بذكر قضية ينبغى أن تعرف فى العالم الاسلامى وهى انه لما تقررت فى معاهدة لوزان المنعقدة بين تركيا ودول الحلفاء سنة ١٩٢٣ مبادلة السكان بين تركيا واليونان بحيث يخرج المسلمون الذين فى بلاد الروملى الى تركيا ويخرج الأروام الذين فى تركيا الى بلاد اليونان ، وجرت المبادلة بالفعل استثنى من ذلك الأروام الذين فى القسطنطينية وهم يناهزون مئتى الف نسمة واستثنى بمقابلتهم المسلمون الذين فى تراقيا الغربية لأن الدول الأوربية واليونان أَبَيْنَ اخلاء القسطنطينية من المسيحيين فابت تركيا أن تجعل ذلك بدون عوض ولما كان مسلمو تراقيا يعز عليهم فراق وطنهم جعلوا هؤلاء فى مقابلة هؤلاء .

فهذا ماا كتفينا به من أخبار هذه البلدة الطيبة أدامها الله دار اسلام . ولقد رجعت الحكومة التركية الآن تطلق عليها اسمها القديم استامبول وأعانت انها لاتقبل المكاتبات التى ترد عليها تحت اسم القسطنطينية Constantinople وأوجبت أن يكتب استامبول Stamboul وذلك لأن الأتراك يرون فى اسم القسطنطينية تذكاراً لملك الروم فيها ويرون اسم استامبول هو الاسم الذى يطلقه الأتراك عليها . وحقيقة الحال ان اسم استامبول كان معروفاً للقسطنطينية من عهد الروم وقد نقل ياقوت الحموى عن ابن خرداذبة انه يقال لها اسطنبول ومن المعلوم ان ابن خرداذبة عاش فى أوائل القرن الثالث للهجرة وكان فى أيام الخليفة المعتمد العباسى ويقال انه كتب كتابه المسالك والممالك فى نواحى سنة ٢٣٢ . اذاً يكون اسم استامبول أو اسطنبول قديماً ومن العجيب أن ينفر الأتراك الأنقريون من اسم القسطنطينية بحجة انه اسم غربى وهم يحبون أن يقلدوا الأوربيين فى كل شىء وقد أخذوا يكتبون اللغة التركية بالحروف اللاتينية وأدخلوا فيها كلمات لاتحصى من اللغات الأوربية وهذه الكلمات ليست من الأعلام بل من الكلمات المعتادة التى كان يمكنهم الاستغناء عنها لوجود ألفاظ لها فى العربية فآثروا الألفاظ الاوربية على الألفاظ العربية حباً بالتفرنج لاغير ،

فكيف نسوا هذا كله ورجعوا يحاولون اثبات تركيتهم فى احياء لفظة واحدة هى لفظة « استانبول » أو اسطنبول . ان هذا المنطق الانقرى لعجيب

هذا ولما كانت ألسن البنيان هى أدل الدلائل على همم الملوك فلا شئ أدل على علو همم السلاطين العثمانيين من هذه الجوامع العظيمة التى شادوها فى اسطنبول آيات باهرة للناظرين وآثاراً خالدة فى الأولين والآخرين .

فهذه الجوامع عدا فائدتها المعنوية من جهة الصلاة التى هى عمود الدين وكونها مجمعاً للالوف وعشرات الالوف من جماعات المصلين هى أيضاً الملاجئ الوحيدة فى الاستانة عند نزول النوازل سواء كانت من حريق أو زلزال أو حرب أو آفة سماوية أخرى . ومن المعلوم ان القسطنطية فى القديم والحديث عرضة للزلازل ولا تزال الزلازل تختلف اليها ، ولذلك اعتمد أهلها على البناء بالخشب لأن خطر الأبنية الخشبية فى الزلازل أقل جداً من خطر الأبنية الحجرية . ولكنهم بهذا الأمر تعرضوا لخطر آخر هو الحريق الذى لاتخلو منه الاستانة ليلة واحدة . وكثيراً ماحدث من الحرائق ما أفنى قسما كبيراً من تلك العاصمة ، ومرة احترق ثلث الاستانة فى حريق واحد . وفى أيامنا هذه جرت حرائق كان يبقى بعدها مائة الف نسمة أو يزيدون بدون مأوى . فعند ماتحصل حرائق كهذه لم يكن للاهالى الباقين بدون مأوى وهم ألوف أو عشرات الألوف ملجأ الا الجوامع والمدارس التى حولها فانها مبنية كلها بالحجر الأصم المنحوت بناء هو المثل البعيد فى الاحكام بحيث مضت عليها القرون ولم تتأثر لابقدم ولا بزلزال ولا بحريق فتجدها كالقلاع بل أشد متانة ، ولولا هذه الجوامع وهذه المدارس لكان مصير أصحاب البيوت المحترقة لاسيما فى فصل الشتاء من أفجع مايتصوره العقل فان بيوت الافراد لتعجز عن استيعاب خمسين ألفا ومائة ألف من النسمات الباقية بدون مأوى . وكذلك فى أثناء الحروب كان يهاجر المسلمون الذين فى ثغور المملكة الى الاستانة بعيالهم وهم ألوف مؤلفة فتضيق عليهم الارض بما رحبت ولا يسعهم غير هذه الجوامع . ولقد شهدت أنا بنفسى هذا الأمر فى أثناء الحرب البلقانية فقد كانت مصر أرسلت بعثة للهلال الأحمر المصرى لأجل مداواة الجرحى العثمانيين على رأسها المرحوم محمد باشا الشريعى وكامل باشا جلال ، وجاءنى أنا أيضا من الأمير محمد على توفيق رئيس الهلال الاحمر المصرى تفويض بان أكون من المراقبين على أعمال تلك البعثة فى الاستانة .

وفى ذلك الوقت تقدمت عساكر الدول البلقانية واخترقت حدود تركيا فاجفل الاهالى المسلمون من أمامها والتجأوا من كل صوب الى الاستانة لايلوون على شئ ولم يكن فى أيديهم شئ تقريباً فدخل الاستانة نحو من مائة وثلاثين ألف نسمة مسلمة من الروملى فأنزلتهم الحكومة فى هذه الجوامع التى لولاها لكان خطبهم لايوصف ولكن كانت الحكومة أوانئذٍ باحتياجها لمئونة جيوشها عاجزة عن اعاشة هؤلاء المهاجرين القادمين بغتة وليس بأيديهم شئ يسد أرماقهم . فعند ذلك توالت برقياتى الى الامير محمد على توفيق رئيس الهلال الاحمر المصرى والى الامير عمر طوسون رئيس لجنة اعانة الدولة بمصر والذى نجده على رأس كل مأثرة فى خدمة الاسلام ، ففى الحال أرسلوا مبالغ وافرة من المال وأمكننا أن نوزع على هؤلاء البؤساء اعانات أصابَ النفس الواحدة منها ثلاثة ريالات مجيدية فكانت العائلة المؤلفة من عشرة أنفس تقبض ثلاثين ريالا مجيدية ، وكانت بعثة الهلال الأحمر المصرى بالاشتراك مع لجنة من قبل امانة البلدة توزع هذه الأموال على المهاجرين بموجب قوائم كانت تعد من قبل بعددهم و بأسمائهم ، ومن حيث انى كنت دائما حاضراً تلك التوزيعات أمكننى أن أشاهد أكثر تلك الجوامع وتلك المدارس التى كانت هذه الألوف المؤلفة من المهاجرين قد أنزلت بها وعلمت أىّ غناء تغنيه هذه المبانى الخالدة وتأملت فى فضل أولئك السلاطين الذين لولم يؤثروا فى الأرض الاهذه الآثار العظيمة وحدها لكفاهم ذلك فخراً فى هذه الدنيا وأجراً فى الآخرة . فكيف وقد ضموا الى هذه الآثار الباهرة تلك الفتوحات التى انصات الزمان بذكرها وارتعدت لها الدول الاوربية بأجمعها وعاش الاسلام زمناً مديداً آمناً فى ظلها فلا ينكر فضائل هذه الاسرة الا المكابر الجاحد الذى يحاول أن يستر نور الشمس بيده ولكنّ التاريخ شاهد خالد أمين لا يكذب أهله .

التسامح والتعصب بين الاسلام وأوربة

على ذكر المؤلف بلوغ الترك أسوار فينا سنة ١٦٨٣

للأمير شكيب

مازلنا نؤكد أن الأوربيين فى عهد الحروب الصليبية وفيما بعدها بقرون لم يكونوا أقل من الترك تعصباً ولا جفاء وأن تاريخهم فى الحروب الصليبية وما جرى منهم عند فتح القدس من ذبح ٧٠ الف مسلم فى المسجد الأقصى حتى سبحت الخيل الى صدورها فى الدماء ومن استئصالهم شأفة المسلمين من الاندلس ، وصقلية وجنوبى فرنسا وسردانية ؛ مع أنهم كانوا يحصون فى هذه البلدان بالملايين تاريخ شاهد بصحة مانقول ، فقد عفى الأوربيون كل أثر للاسلام فى أوربا ولم يرضوا أن يبقى فيها مسلم واحد ، حال كون الترك الذين يقال انهم برابرة بقى تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون فى أوقات عديدة أن يستاصلوهم أو ان يحملوهم على الجلاء ، كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب . وقد يقال ان الذى منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الاسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدى الذى يمنع الاكراه فى الدين ويرضى من المعاهد بالجزية وقالوا ان السلطان سليمان القانونى كان فكر فى سوء المغبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار والأرمن وغيرهم فى الممالك العثمانية ، وأحب اخراجهم ، وقيل بل السلطان سليم ؛ وكان كل مرة يعترض فى ذلك شيخ الاسلام ويقول : ليس لنا عليهم الا الجزية . والجواب قد يكون ذلك ويثبت ان الاسلام هو الذى هذب الاتراك وحال بينهم و بين طرد المسيحيين من ديارهم ؛ فلماذا ياليت شعرى لم يهذب الانجيل الشريف أقوام أوربا ولم يمنع البابا اسكندر السادس وأساقفة الكنيسة فى اسبانية ، والملك فرديناند ، والملكة ايزابلا ، وغيرهم من الملوك المشهورين بالكثلكة من نصب ديوان التفتيش وارتكاب تلك الفظائع فى العرب واليهود ممن بقى على ديانته سراً الى أن جلوهم باجمعهم عن ذلك القطر الذى اوطنه العرب

زهاء ٨٢٠ سنة ، مع أن الانجيل كما لا يخفى لا يجيز شيئا من هذه الأفعال بل يوصى الناس بحب الأعداء فكيف تتألف مع شريعة الانجيل التى هذا مبلغ وداعتها وتسامحها قضية تحريق الناس بالنار لأجل عقائدهم . . . . .

لا نريد أن نعزو الى هذا المؤلف التحامل أو التعصب فيما جعله نتيجة عمل الترك بل نشهد بكونه من أوفر المؤلفين الأور بيين انصافاً وتحرياً ، ولكن ثمة أمور لا يزال الأوربى مهما بلغ من انصافه وحرية فكره غافلاً عنها أو هو لما يعتقده من علو قومه وكونهم مجبولين من طينة هى غير طينة الآخرين ، لا يقدر أن ينظر الى عيوب قومه وآثام بنى جلدته بالعين التى يرى بها عورات غيرهم من الأقوام . فقد جرت لنا مباحثات طويلة مع كثير من علماء الافرنجة فى موضوع التسامح وعدمه ، فكنا نراهم يعتقدون أنه لا يوجد فى الدنيا أقل تسامحاً وسجاحة من أهل الشرق فاذا ذكرناهم بما فعلوه بعرب الاندلس قالوا : ذلك شئ آخر . والى الآن لا نفهم لماذا هو شئ آخر . و بعضهم يقول هذه حوادث جرت فى القرون الوسطى . فاذا سلمنا بكونها جرت فى القرون الوسطى فماذا يقولون فى الموبقات والفظائع التى جرت من الجنس الأبيض الاوربى فى هذا العصر نفسه سواء فى القرن التاسع عشر أو القرن العشرين مما فعلوه فى مستعمراتهم بأفريقية الوسطى وشمالى أفريقية والكونغو والسودان المصرى و بما فعلوه فى الهند وغيرها من آسية ، بل بما وقع بمعرفة منهم فى الروملى أثناء الحرب البلقانية بل بما أوقعه بعضهم ببعض فى الحرب العامة . . . . . هذا كله لم يقع فى القرون الوسطى ، ولا فى الجاهلية الاوربية ، بل جرى فى عصر النور و بحبوحة الحضارة وعنجهية التهذيب الاوربى . نعم لا نفهم كيف اذا ذبح الترك الأرمن يكون ذلك توحشاً و بربرية وتمتلئ الصحف بألفاظ القسوة والوحشية والهمجية ، وتقوم القيامة ، فاذا ذبح البلقانيون مسلمى الروملى واستباحوا حرمهم ، أو الأروام مسلمى غربى الاناضول ، لم نجد شيئاً من تلك القيامة ولا هاتيك النعرة وان عبر عنها بشئ قيل انها حوادث مؤسفة أو ماجريات لا تخلو منها حرب أو مقابلة بالمثل لاعتداءآت سبقته و يجتهد كل الاجتهاد فى تغطيتها وجر ذيول النسيان عليها. هذا الذى نعترض عليه وقلما نجد عليه جواباً سديداً ولكن ليس صاحب هذا الكتاب بالذى يتعمد تعمية الحقائق

الفرق بين الخلافة والملك

— * —

هدى الخلفاء الراشدين

— * —

سيرة عمر بن الخطّاب

على ذكر المؤلف الخلافة الراشدية والشورى الاسلامية

للامير شكيب

الخلافة فى الاسلام ليست بملك ولا سلطنة ، وانما هى رعاية عامة للامة لاقامتها على الشرع الحنيف ، وردع القوى عن الضعيف فى الداخل ، وصيانة الاسلام ودفع المعتدى عليه من الخارج . وهى لا تنعقد الا بارادة الأمة. والسلطان الذى يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمّة لا سلطان له عليها الا منها . وقد فهم لوثروب ستودارد هذا الباب حق الفهم وعرّف الخلافة التعريف الصحيح بخلاف كثير من الاوربيين الذين يتبجّحون بزعمهم أن مبدأ كون السلطان القومى من الأمة انما هو من الأوضاع الغربية الاوربية قاتلهم الله ما أجهلهم بتاريخ الشرائع ، وما أجرأهم على الخلط . ومن أغرب الامور أن كثيراً من الشرقيين ومن المسلمين أنفسهم يتابعون الافرنج فى هذا الوهم ولا يعلمون قاعدة الاسلام فى هذا الموضوع . ولو تأملوا ما كان عليه الخلفاء الراشدون الأربعة ، وهو أشد صور الحكم الاسلامى انطباقاً على الشرع ، لرأوه أمراً شعبياً محضاً وديموقراطيًّا بحتاً وأبعد شئ عن السلطان المطلق والقرآن صريح فى قوله تعالى : « وشَاوِرْهُمْ فى الأَمْر » وقوله « وأمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ »

نعم ان الخلفاء الراشدين لم يقع انتخابهم الى أجل مسمى نظير رؤساء الجمهوريات ولم يكن العرب لذلك العهد بسذاجة البداوة يعرفون هذا الضرب من الحكم ولكنه لا جدال فى أن الخليفة أو أمير المؤمنين لم يكن شخصاً مقدساً غير مسئول كما هو عند الاوربيين ولم تكن له مزية شخصية على سائر الامة وكان اذا أخطأ يقيد من نفسه . ولم يخطر ببال أحد من الخلفاء الراشدين أن يورث أولاده الخلافة بل كانوا يلقونها عن ظهورهم القاء من يريد الخلاص من تبعتها فاذا كان الانسان يريد أن يعرف ثمار شجرة الاسلام فليتأمل فى سيرة الخلفاء الراشدين فانها المرآة الحقيقية لروح الاسلام . ويناسب أن نذكر هنا بعض الآثار الواردة فيما كان الخلفاء الراشدون يفهمون من هذا الامر . جاء فى الطبقات الكبرى لمحمد ابن سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال حدثنى قيس بن الربيع ، عن عطاء بن السائب عن زادان عن سلمان أن عمر قال له : أَمَلِكٌ أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : ان أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر . ثم قال أخبرنا محمد بن عمر ، قال حدثنى عبد الله بن الحارث ، عن أبيه ، عن سفيان بن أبى العوجاء قال : قال عمر بن الخطاب : والله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك ؟ فان كنت ملكا فهذا أمر عظيم ، قال قائل : ياأمير المؤمنين ان بينهما فرقاً ، قال ما هو : قال الخليفة لا يأخذ الا حقاً ولا يضعه الا فى حق فأنت بحمد الله كذلك ، والملك يَعسِف الناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا . فسكت عمر . ولما بويع أبو بكر قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فانى وليت هذا الأمر وأنا له كاره والله لوددت أن بعضكم كفانيه ، ألاَ وانكم ان كلفتمونى أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله ﷺ لم أقم به . كان رسول الله عبداً أكرمه الله بالوحى وعصمه به ألا وانما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم فَرَاعُونى فاذا رأيتمونى استقمتُ فاتّبعونى وان رأيتمونى زُغْتُ فقوّمونى » وكان عمر فيما رُوى قد خطب الناس وقال لهم : «من رأى فىّ اعوجاجاً فليقوّمه» فقام واحد ممن سمعوه من الجمع وقال له : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا. فقال عمر : «الحمد لله الذى جعل فى هذه الامة من يُقوّم اعوجاج عمر بسيفه» . ولما بويع أبو بكر كان منزله بالسنْح فى ضواحى المدينة فأقام هناك بعد ما بويع له ستة أشهر أحياناً يغدو على رجليه الى المدينة ويركب أحيانا

فرسا له و بقى زمنا بعد الخلافة يغدو الى السوق فيبيع و يبتاع بنفسه وكان قبل الخلافة يحلب أغناماً لجيرانه فلما بويع له بها قالت جارية من الحىّ : الآن لا تَحلب لنا مَنائح دارنا . فسمعها أبو بكر رضى الله عنه فقال : بلى لعمرى لأَحلبنها لكم وانى لأرجو أن لا يغيّرنى ما دخلت فيه عن خُلق كنتُ عليه ، فكان يحلب لهم فربما قال للجارية : ياجارية أتحبّين أن أُرغى لكِ أو أُصرّح . فربما قالت أَرغِ وربما قالت صَرِّح . فأىّ ذلك قالت فعل . فمكث كذلك بالسُّنْح ستة أشهر ثم نزل الى المدينة فأقام بها ونظر فى أمره فقال : لا والله ما يُصلح أمرَ الناس التجارةُ وما يصلح لهم الى التفرغ والنظر فى شأنهم واستنفق من مال المسلمين ما يُصلحه و يصلح عياله يوماً بيوم وكان الذى فرضوا له كلّ سنة ستة آلاف درهم فلما حضرته الوفاة قال : رُدُّوا ما عندنا من مال المسلمين فانى لا أُصيب من هذا المال شيئاً وان أرضى التى بمكان كذا للمسلمين بما أصبتُ من أموالهم ، فدُفع ذلك الى عُمَر ولَقوح وعبد صيقل وقطيفة فقال عمر لَقد أَتعبَ مَن بعده .

بمثل هذه العفة و بمثل هذه الطهارة و بمثل هذه البساطة فى المعيشة تولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه قيادة الأمة العربية لأول ظهورها بالاسلام وظهور الاسلام بها . وسار على أثره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان آية الله الكبرى فى العدل والزهد والاغلاظ فى الحق والشدة على الأقوياء والرأفة بالضعفاء وبأخلاقه هذه اتسق للاسلام ما اتسق من الفتوحات كما أنه بثبات أبى بكر عجزت الردة أن تجرى مجراها فى العرب . وكان عمر من سذاجة العيش بالمقام الذى لايصل اليه أحد. سئل عمر عما يستحله لنفسه من بيت مال المسلمين فقال : يحل لى حلتّان حلة فى الشتاء وحلة فى القيظ وما أحجّ عليه وأعتمر من الظهر وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم . وقال عمر مرة : انى أنزلت نفسى من مال الله منزلة مال اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف .

وورد فى الآثار أن عمر مكث زماناً وهو فى الخلافة لا يأكل من المال شيئاً حتى دخلت عليه فى ذلك خصاصة وأرسل الى أصحاب رسول الله فاستشارهم فقال قد شغلت نفسى فى هذا الأمر فما يصلح لى منه فقال عثمان بن عفان : كُلْ وأَطعِمْ . وقال مثل ذلك سعيد

ابن زيد . فقال عمر لعليّ : فما تقول أنت في ذلك . قال غداء وعشاء . فأخذ عمر بذلك . وجاء في طبقات ابن سعد أن عمر كان يقوت نفسه وأهله ويكتسي الحلة في الصيف ولربما خُرق الازار حتى يرقعه فما يبدّل مكانه حتى يأتي الابّان وما من عام يكثر فيه المال الا كانت كسوته فيه أدنى منها في العام الذي قبله . فكلمته في ذلك حفصة ابنتُه فقال لها : انما أكتسي من مال المسلمين . وقالوا ان عمر كان يستنفق كل يوم له ولعياله درهمين فقط، ثم ان عمر حج البيت فأنفق في حجته ستة عشر ديناراً فقال لابنه عبد الله : ياعبد الله ابن عمر أَسرَفْنا في هذا المال ، وكان الدينار باثني عشر درهماً ، ومن الروايات عن زهد عمر أن أبا موسى الأشعري أهدى لعائلة عمر طنفسة نحو ذراع وشبر فدخل عمر الى البيت فقال : أنّى لكم هذا فقالت امرأته : أهداها لنا أبو موسى الأشعري . فأخذها عمر فضرب بها رأسها ثم قال عليّ بأبي موسى الأشعري وأَتعبوه . فأُتي به قد أُتعب وهو يقول : لا تعجل عليّ يا أمير المؤمنين . فقال عمر : ما يحملك على أن تهدي لنسائي . ثم أخذها عمر فضرب بها فوق رأسه فقال : خذها فلا حاجة لنا فيها

ومن أخبار عمر في زهده وتقشفه انه لما كان عام الرّمادة ، وهو عام المجاعة ، ركب دابة فراثت شعيراً فرآها عمر فقال : المسلمون يموتون هُزْلاً وهذه الدابة تأكل الشعير لا والله لا أركبها حتى يحيي الناس ، وتواترت الروايات على انه ما أكل سمناً ولا زيتاً ولا ذاق لحما حتى انتهت المجاعة . وروى أنس بن مالك انه حرّم على نفسه السمن عام الرمادة وكان يأكل الزيت وانه تقرقر بطن عمر يوماً فنقر بطنه بأصبعه وقال : تقرقر انه ليس لك عندنا غير هذا حتى يحيي الناس . وكان في أثناء المجاعة يختلف الى بيوت الفقراء ويحمل لهم الطعام على ظهره ، وجاء حديث عن عياض بن خليفة قال : رأيت عمر عام الرمادة وهو أسود اللون ولقد كان أبيض فنقول ممّ ذا ؟ فقالوا انه كان يأكل السمن واللبن فلما أمحل الناس حرّم ذلك على نفسه فأكل بالزيت وأجاع نفسه كثيراً فتغير لونه . وقالوا يومئذ انه لولم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننّا أن عمر يموت همًّا بأمر المسلمين . ونظر عمر عام الرمادة الى بطيخة في يد بعض ولده فقال بَخْ بَخْ يا ابن أمير المؤمنين تأكل الفاكهة وامة محمد هَزْلى فخرج الصبي هارباً و بكى . فسأل عمر كيف حصل الولد على هذه البطيخة فعلم انه

اشتراها بكفّ من نوًى . وكان عمر يُطعم عام الرمادة (فى المدينة) بضعة آلاف كل يوم على سُفرتهِ ، ويرسل القوت الى المحاويج الذين لا يقدرون أن يأتوا اليـه والى المرضى والصبيان ، وكان عدد هؤلاء نحواً من أربعين ألفاً .

وأخبارُه فى الزهد والتقشف كثيرة متواترة فمن شاء استقصاءها فعليه بكتب السير . وقيل انه دخل مرة على رجل فاستسقاه وهو عطشان فأتاه بعسل فقال ماهذا فقال : عسل فأبى أن يشرب به وقال لايكون فيما أُحاسب به يوم القيامة . وحـدّث يسار بن نُمَيْر قال : مانخلت لعمر الدقيق قط الا وأنا له عاص ، وحدّث السائب بن يزيد قال : رأيت على عمر ابن الخطاب ازاراً فى زمن الرمادة فيه ستّ عشرة رقعة . وقال أنس بن مالك : رأيت عمر ابن الخطاب وهو يومئـذ أمير المؤمنين وقد رقع بين كتفيه برقاع ثلاث لبّدَ بعضها فوق بعض . وحدّث علىّ بن زيد عن أبى عثمان النهدى قال : رأيت ازار عمر قد رقعه بقطعة من أدَم . وأبطأ عمر جمعة بالصلاة فخرج فلما ان صعد المنبر اعتذر الى الناس فقال انما حبسنى قميصى هذا لم يكن لى قميص غيره ، كان يخاط له قميص سُنبلانىّ لايجاوز كمُّه رُسْغ كفيه . وحدّث عامر بن عبيدة الباهلى قال : سألت أنسا عن الخزّ فقال : وددت ان الله لم يخلقه وما أحد من أصحاب النبى ﷺ الا وقد لبسه ماخلا عمر وابن عمر . وحقيقة الحال ان مشرب عمر هذا فى التقشف والتقتير على نفسه انما كان مشرباً خاصا يحمله عليه شدة الورع وتصوره ، وهو أمير المؤمنين ، ان فى أمته أناسا كثيرين يعيشون فى شظف فكان يأبى أن يكون فى رعيته من يجوع وهو يشبع ومن يأتزر بالادم وهو يلبس الخز . والا فان عمر رضى الله عنه لم يكن يجهل ان الله تعالى قد أحل الطيبات من الرزق وانه لو حمل نفسه على الرفاهية بدون اسراف لجاز له شرعاً .

وما ذكرنا هذه النتف من أخبار زهد عمر وشظف معيشته وخشونة مأكله وملبسه وتورعه الزائد فيما يستحقه من بيت مال المسلمين الا لنظهر مابين الخلافة والملك من الفرق ونثبت ان الخلافة فى الاسلام انما هى رعاية لابد منها لحفظ المجتمع وليس للراعى فيها أدنى مزية على الرعية فى شئ عائد الى شخصه . وقد كان الخلفاء الراشدون بما تلقوه من تربية النبى ﷺ لهم يفهمون حق هـذه الرعاية ويعلمون أنهم انما هم خَدَمة للامة ومسئولون

عن الدقيق والجليل من أمرها . وكان عمر يقول لو مات جمل ضياعاً على شط الفرات خشيت أن يسألنى الله عنه ، وكان يقول : «أيُّما عامل لى ظلم أحداً فبلغتنى مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته» . وكان يقول : «الرعية مؤدية الى الامام ما أدّى الامامُ الى الله فاذا رتع الامام رتعوا» . وخرج عمر بن الخطاب الى مكة فما ضرب فسطاطاً حتى رجع لأنه كان يستظل بالنطع . وقال عامر بن ربيعة : صحبت عمر بن الخطاب من المدينة الى مكة فى الحج ثم رجعنا فما ضرب فسطاطا ولا كان له بناء يستظل به انما كان يلقى نطعا أو كساءً على شجرة فيستظل تحته ، وحدث الربيع بن زياد الحارثى قال : شكا عمر طعاماً غليظاً أكله فقال الربيع : يا أمير المؤمنين ان أحق الناس بطعام لين ، ومركب لين ، وملبس لين لأنت . فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه وقال : أما والله ما أراك أردت بها الله وما أردت بها الا مقاربتى هل تدرى ما مثلى ومثل هؤلاء ؟ قال : وما مثلك ومثلهم . قال : «مثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم الى رجل منهم فقالوا له : أنفق علينا . فهل يحل له أن يستأثر منها بشىء» قال : لا يا أمير المؤمنين.قال : «فكذلك مثلى ومثلهم» . ثم قال عمر : «انى لم أستعمل عليكم عمالى ليضربوا أبشاركم ، وليشتموا أعراضكم ، ويأخذوا أموالكم ، ولكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلااذن له عليه ، ليرفعها الىّ حتى أقصّه منه» . فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين أرأيت ان أدّب أميرٌ رجلا من رعيته انقصه منه فقال عمر : ومالى لاأقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقصّ من من نفسه . وحدث الأحنف قال : كنا جلوساً بباب عمر فمرت جارية فقالوا سرّية أمير المؤمنين فبلغ ذلك عمر فدعانا فأتيناه فقال : ماذا قلتم . قلنا لم نقل بأسا ، مرّت جارية فقلنا هذه سرية أمير المؤمنين فقال : ماهى لأمير المؤمنين بسرية وما تحلّ له انها من مال الله . فقلنا فماذا يحل له من مال الله فقال : أنا أُخبركم بما أستحل منه : يحل لى حلتان حلة فى الشتاء وحلة فى القيظ وما أحج عليه وأعتمر من الظهر وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا أفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم . وكلّم الناسُ حفصةَ أن تكلم أباها بأن يلين من عيشه شيئا فقالت : يا أمير المؤمنين ان قومك كلمونى أن تلين من عيشك فقال : غششتِ أباك ونصحتِ لقومكِ . وأبى عمر أن

يجعل الخلافة فى ابنه وقال : ان أقواماً يأمروننى أستخلف وان الله لم يكن ليضيع دينه وخلافته والذى بعث به نبيه فان عجل بى أمر فالخلافة شورى بين هؤلاء الرهط الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . وكان من جملة وصاياه قبل وفاته : «أوصيكم بكتاب الله فانكم لن تضلوا ما اتبعتموه ، وأوصيكم بالمهاجرين فان الناس يكثرون و يقلون ، وأوصيكم بالأنصار فانهم شعب الاسلام الذى لجأ اليه ، وأوصيكم بالأعراب فانهم أصلكم ومادتكم» . وقد جاء فى هذا الحديث رواية أخرى وهى أصلكم ومادتكم واخوانكم وعدوّ عدوكم ، وأوصيكم بأهل الذمة فانهم ذمة نبيكم وأرزاق عيالكم .

ولما طعن أبو لؤلؤة الفارسى عمر وهو يصلى قال : من قتلنى فقيل له غلام المغيرة ابن شعبة وكان نجاراً فقال عمر : قاتله الله ، والله لقد كنتُ أمرت به معروفاً ثم قال : الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الى الاسلام . ثم قال لعبد الله بن عباس : لقد كنتَ أنت وأبوك تحبان أن تكثرا العلوج فى المدينة . فقال له ابن عباس مايفيد انهم ان شاء أخرجوهم من المدينة فقال له عمر : أبعد ماتكلموا بكلامكم وصلوا بصلاتكم ونسكوا نسككم . ولما أيقن بالموت قال لابنه : ياعبد الله بن عمر أنظركم علىّ من الدين. فحسبه فوجده ستة وثمانين ألف درهم فقال : ياعبد الله ان وفى لها مال آل عمر فأدّها عنى من أموالهم وان لم تف أموالهم فاسأل فيها بنى عدى بن كعب(١) فان لم تف من أموالهم فاسأل فيها قريشاً ولا تعدهم الى غيرهم . وقالوا له حين حضره الموت : استخلف . فقال : لا أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فايهم استخلف فهو الخليفة من بعدى فسمى عليا ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن ، وسعداً .
ووردت رواية أخرى فى وصاته عند موته فى معنى الرواية السالفة ولكنها تختلف ببعض ألفاظ قال عمر : أُوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله والمهاجرين الأولين أن يحفظ لهم حقهم ، وأن يعرف لهم حرمتهم وأوصيه بأهل الأمصار خيراً ، فانهم ردْء الاسلام وغيظ العدو وجُباة المال أن لايؤخذ منهم الا فضلهم عن رضى منهم ، وأوصيه بالأنصار الذين تبوءُوا الدار والايمان أن يقبل من محسنهم و يتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيه بالأعراب خيرا فانهم

(١) بنو عدى هم الفخذ الذين من قريش ينسب عمر بن الخطاب اليهم

أصل العرب ومادة الاسلام ، وأن يؤخذ من حواشى أموالهم فيرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم وأن لايكلفوا الا طاقتهم ، وأن يقاتَل من ورائهم ودعا الستة الذين جعل الأمر شورى بينهم فلم يكلم منهم الا عليا وعثمان فقال ياعليّ لعل هؤلاء القوم يعرفون لك قرابتك من النبى ﷺ وصهرك وما آتاك الله من الفقه والعلم ، فان وليت هذا الأمر فاتق الله فيه . ثم دعا عثمان فقال : ياعثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك وشرفك فان وليت هذا الأمر فاتق الله ولا تحملن بنى أبى مُعَيط على رقاب الناس . ثم قال : ادعوا لى صهيبا فدُعى فقال : صلّ بالناس ثلاثاً وليخل هؤلاء القوم فى بيت فاذا اجتمعوا على رجل فمن خالفهم فاضربوا رأسه .

قلت فمن تأمل فى قول عمر : وان يؤخذ من حواشى أموالهم فيُرَد على فقرائهم رأى فيه منزعاً اشتراكيًّا لا ريب فيه الا أنه منزع اشتراكى حكومى يصدق عليه مايعبرعنه الافرنج اليوم بلفظة Étatisme ثم ان الدول الاوربية اليوم قد اضطرت كلها الى سلوك هذه السبيل وما هذه القوانين الاجتماعية التى يسمونها Lois sociales والتى معناها أن يؤخذ من الميزانية المالية العامة لاغاثة المعوزين والمرضى منهم والباقين بدون عمل Chomeurs أو Trbeitlos الا من هذا الضرب

ثم روى ان سعيد بن زيد قال لعمر : لو اشرت برجلٍ من المسلمين ائتمنك الناس فقال عمر : قد رأيت من أصحابى حرصاً سيئاً وانى جاعل هذا الأمر الى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . ثم قال : لو أدركنى أحد رجلين فجعلت هذا الأمر اليه لوثقت به سالم مولى أبى حذيفة ، وأبى عبيدة بن الجراح . وقيل انه قال : مَن أستخلف لو كان أبو عبيدة بن الجراح فقال له رجل : يا أمير المؤمنين فأين أنت من عبد الله بن عمر فقال : قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا أستخلف رجلاً ليس يحسن يطلق امرأته ؟؟

قلت : أما أبو عبيدة عامر بن الجراح فقد صحّ عن رسول الله ﷺ انه لما قدم عليه أهل اليمن وسألوه أن يبعث معهم رجلاً يعلمهم السنّة والاسلام أخذ بيد أبى عبيدة بن الجراح وقال : هذا أمين هذه الأمة . وعن أنس بن مالك ان النبى ﷺ قال : الا أن لكل

أمة أميناً وان أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وفى حديث عن أبى هريرة ان النبى ﷺ قال : نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح . وقيل ان عمر قال : لجلسائه مرة : تمنّوا . فتمنى كل واحد بما حضره فقال عمر : لكنى أتمنّى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبى عبيدة بن الجراح . وعن شهر بن حوشب أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح فاستخلفته فسألنى عنه ربى لقلت : سمعت نبيّك يقول : هو أمين هذه الأمة . وعن ثابت بن حجاج أنه قال . لاستخلفته وما شاورت فان سُئلت قلت : استخلفت أمين الله وأمين رسوله . وجاء فى الطبقات الكبرى لابن سعد : فى ترجمة أبى عبيدة بن الجراح : ان عمر بن الخطاب أرسل اليه بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار : وقال للرسول : أنظر مايصنع . قال فقسمها أبو عبيدة . قال ثم أرسل الى معاذ بن جبل بمثلها وقال للرسول مثلها قال فقسمها معاذ الا شيئاً قالت امرأته نحتاج اليه . فلما أخبر الرسول عمر قال : الحمد لله الذى جعل فى الاسلام من يصنع هذا .

وكانت وفاة أبى عبيدة رحمه الله فى طاعون عمواس فى خلافة عمر سنة ١٨ وكان أمير الجيش الذى فتح الشام ودفن فى غور بيسان المنسوب اليه ، و بلغ من برّه بأهله أنه قال : وددت انى كبش فذبحنى أهلى فأكلوا لحمى وحسوا مرقى

وهو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن اهيَب بن ضبة بن الحارث بن فهر أى من قريش ، ورُوى عنه رضى الله عنه أنه قال وهو أمير على الشام : يا أيها الناس انى امرؤ من قريش وما منكم من أحد أحمر ولا اسود يفضلنى بتقوى الا وددت انى فى مسلاخه (١).

وأماسالم مولى أبى حذيفة فعلى احدى الروايات هو ابن عتبة بن ربيعة ، وعلى رواية أخرى سالم بن معقل من أهل اصطخر كان مولى ثُبَيْتَة بنت يعار الانصارية ، وهو يذكر فى الانصار لعتق ثبيتة اياه ، ويذكر فى المهاجرين لكونه مولى أبى حذيفة زوجها الذى تبنّاه وربّاه حتى صار يقال له سالم بن أبى حذيفة . وعن مالك بن الحارث كما ورد فى الطبقات ان زيد بن حارثة كان معروفاً بنسبه ، وأما سالم مولى أبى حذيفة فلم يكن يعرف نسبه ، فكان يقال سالم من الصالحين . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد آخى بينه و بين أبى

(١) يريد أن يكون في جلده أى يريد أن يكون ذلك الرجل .

عبيدة بن الجراح

ومرادى بهذا الذى نقلتهُ فى عرض البحث عن حقيقة الخلافة وفى عرض الكلام عن عمر بن الخطاب وعن أبى عبيدة وعن سالم مولى أبى حذيفة رضى الله عنهم انه ليس من أمة على وجه الارض بلغت بها الديموقراطية مابلغته فى الاسلام،فأنت ترى ان الامام عمر الذى يقول الرسول فيه : « لو كان نبيٌّ بعدى لكان عمر » قد رشح لخلافته على المسلمين مولى أصله اعجمى وقيل ان نسبه الاصلى غير معروف وهو سالم مولى أبى حذيفة . وأنت ترى ان أمين الامة أبا عبيدة بن الجراح يقول انه قرشى لكنه يتمنى أن يكون فى جلد زنجى اذا كان هذا يفضله فى التقوى . وقد جاء فى الأثر انه لما قدم المهاجرون الأولون من مكة الى المدينة نزلوا بالعصبة الى جنب قُباء فأمّهم سالم مولى أبى حذيفة لأنه كان أكثرهم قرآناً ، وكان بينهم يومئذٍ مثل عمر بن الخطاب وأبو سلمة بن عبد الأسد . فقد ثبت من هنا انهم لم يكونوا يعملون الا بآية (انَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ) وان التقوى هى المزية الأولى فى الاسلام لا يعد لها حسب ولا نسب . ومن أقوال عمر المشهورة : والله لو جاءت الاعاجم بالاعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة فلا ينظر رجل الى القرابة وليعمل لما عند الله فمن قصَّر به عمله لا يسرع به نسبه

ولعمرى ان الذين يجزمون بأن الخلافة لا بد أن تكون فى قريش ويذهبون الى أن كل خلافة ادعاها غير قرشى فهى غير صحيحة ، مهما كان من فضله ، وكفايته قد يجدون فى قول عمر (لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيًّا لوليته أو لاستخلفته) مالا ينطبق عليه جزمهم وما يجعلهم يتفكرون

ثم نعود الى حديث الشورى فنقول ان عمر أوصى عثمان بأنه ان ولى هذا الامر لا يحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس ، وأوصى علياً بأنه ان ولى هذا الامر لا يحمل بنى هاشم على رقاب الناس ثم قال للستة : قوموا فتشاوروا فامرّوا أحدكم . قال عبد الله بن عمر : فقاموا يتشاورون ، فدعانى عثمان مرةً أو مرتين ليدخلنى فى الامر ولا والله ما أحب انى كنت فيه علماً انه سيكون فى أمرهم ماقال أبى والله لقلّما رأيته يحرك شفتيه بشىء الا كان

حقاً (١) فلما أكثر عثمان عليّ قلت : ألا تعقلون أتؤمرّون وأمير المؤمنين حى . فوالله لـكأنما أيقظت عمر من مرقد . فقال عمر : امهلوا فان حـدث بى حدث فليصلِّ بكم صهيب ثلاث ليال ثم أجمعوا أمركم فمن تأمَّر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه

ولما طعن أبو لؤلؤة عمر ثلاث طعنات وطعن من يليه قال عمر : أدركوا الـكلب فقد قتلنى . فادركوه فانتحر أبو لؤلؤة بخنجره الذى طعن به الامام ثم أدرك عمر النزف فقال : قولوا لعبد الرحمن بن عوف ليصلِّ بالناس . فاحتمل الناس عمر الى بيته وفيهم عبد الله بن عباس قال ابن عباس : فلم أزل عنـد عمر ولم يزل فى غشية واحـدة حتى أسفر الصبح فلما أسفر أفاق فنظر فى وجوهنا فقال : أصلّى الناس ؟ فقلت : نعم . فقال : لا اسلام لمن ترك الصلاة . ثم دعا بوضوء فتوضأ ثم صلى ثم قال : أخرج يا عبد الله بن عباس فسل من قتلنى؟ فخرجت حتى فتحت باب الدار فاذا الناس مجتمعون جاهلون بخـبر عمر . فقلت : من طعن أمير المؤمنين ؟ فقالوا : طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شـعبة . فدخلت فاذا عمر يُبِد فىّ النظر يستأنى خبر مابعثنى اليه فقلت : أرسلنى أمير المؤمنين لاسأل من قتله فـكلمت الناس فزعموا انه طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ثم طعن معه رهطاً ثم قتل نفسه . فقال عمر : الحمـد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجُّنى عنـد الله بسجدة سجدها له قط ما كانت العرب لتقتلنى

و يقال ان عمر لـما طعنه أبو لؤلؤة أول طعنة ظن كلباً قد عقره ولم يعلم أن رجلاً طعنه الا عند الطعنة الثالثة. وكان أبو لؤلؤة من سبى نهاوند أى فارسياً وكان اذا جاء السبى الى المدينة نظر الى الصغار منهم وجعـل يمسح رؤوسهم و يبكى و يقول : ان العرب أكلت كبدى . فظاهرٌ أنه ما حمله على قتل عمر الا حب الانتقام من العرب الذين كانوا هزموا العجم لا سيما فى واقعة نهاوند وأزالوا ملك الأكاسرة وكان كل ذلك فى زمان عمر . فهى احنة فى صدر فارسى عن زوال ملك قومه وسبى من سبى منهم واستذلال العرب اياهم فتشفّى

(١) قلت ومما تحقق من كلامه رضى الله عنه ان أقارب عثمان رضى الله عنه عثوا فى أيامه فكانت تلك الفتنة التى أدت الى قتله والى ماعقب ذلك من الفتن والمصائب التى وقفت بسير الاسلام الى الامام ، ولم تزل تفعل فى هذه الأمة فعلها الى اليوم

منها بقتل أمير العرب الذين أذلوا قومه . وكان عمر لما دخل عليه أمراء العجم أسرى وفيهم الهرمزان قد قال لهم : الحمد لله الذى أعز الاسلام وخذلكم . فيظهر أنها بقيت هذه الكلمة تعمل فى قلوبهم . وكان عمر لا يأذن لسبي قد احتلم فى دخول المدينة حتى كتب اليه المغيرة ابن شعبة وهو على الكوفة يذكر له غلاما عنده صَنَعاً و يستأذنه أن يدخله المدينة ويقول ان عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس انه حداد نقّاش نجار فأذن له عمر فى ارساله الى المدينة وضرب عليه المغيرة مائة درهم كل شهر فجاء الى عمر يشتكى اليه شدة الخراج فقال له عمر : ما ذا تحسن من العمل فذكر له الاعمال التى يحسن فقال له عمر : ما خراجك بكثير فى كنه عملك فانصرف ساخطاً يتذمّر فلبث عمر ليالى ثم مرّ به العبد فدعاه فقال له ألم أحدَّث أنك تقول لو أشاء لصنعت رحًى تطحن بالريح ؟ فالتفت العبد ساخطاً عابساً الى عمر ومع عمر رهط فقال : لاصنعن لك رحًى يتحدث بها الناس . فلما ولى العبد أقبل عمر على الرهط الذين معه فقال لهم : أوعدنى العبد آنفا . فلبث ليالى ثم اشتمل أبو لؤلؤة على خنجر ذى رأسين نصابه فى وسطه فكمن فى زواية من زوايا المسجد فى غلس السحر فلم يزل هناك حتى خرج عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر فلما دنا منه عمر وثب عليه فطعنه ثلاث طعنات احداهن تحت السرة خرقت الصفاق وهى التى قتلته ثم انحاز أيضاً على أهل المسجد فطعن من يليه حتى طعن سوى عمر أحد عشر رجلا ثم انتحر بخنجره . وعن عمرو بن ميمون قال : شهدت عمر حين طعن ، أتاه أبو لؤلؤة وهو يسوى الصفوف فطعنه وطعن اثنى عشر معه هو ثالث عشر فأنا رأيت عمر باسطاً يده وهو يقول : أدركوا الكلب فقد قتلنى فماج الناس وأتاه رجل من ورائه فأخذه ومات ستة أو سبعة ممن طعنهم فحمل عمر الى منزله فأتاه الطبيب فسقاه نبيذاً فخرج من احدى طعناته فسقاه لبناً فخرج فقال له الطبيب : أوص بما كنت موصياً فوالله ما أراك تمسى . وفى رواية أبى الحويرث أن أبا لؤلؤة عندما قال له عمر : الا تجعل لنا رحًى ؟ أجابه : بل أجعل لك رحًى يتحدث بها أهل الأمصار . ففزع عمر من كلمته وكان على بن أبى طالب معه فقال له عمر : ما تراه أراد ؟ فقال : أوعدك ياأمير المؤمنين . قال عمر : يكفيناه الله قد ظننت أنه يريد بكلمته غوراً .

وقالوا انه لما طعن عمر اجتمع اليه البدريون المهاجرون والأنصار فقال لابن عباس :

اخرج اليهم فسلهم عن ملأ منكم ومشورة كان هـذا الذى أصابنى . فخرج ابن عباس فسألهم فقال القوم : لا والله لوددنا أن الله زاد فى عمرك من أعمارنا . ولما طعن عمر كان كلامه : وكان أمر الله قدراً مقدوراً وقال : ألم أقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج أحداً فغلبتمونى . ولم يترك عمر صلاة الفجر بعد أن طعن وصلى وجرحه يثعب دماً ، وقال عند ذلك : لاحظ فى الاسلام لمن ترك الصلاة . ولما أيقن عمر بالموت وارتج البيت بكاء قال : والله لو أن لى ما على الأرض من شئ لافتديت به من هول المطلع . فقال ابن عباس : والله انى لأرجو أن لا تراها الا مقدار ما قال الله « وانْ منكمْ الاّ وَاردُها » ان كنت ما علمنا لأمير المؤمنين وأمين المؤمنين وسيد المؤمنين تقضى بكتاب الله وتقسم بالسوية فأعجبه قوله واستوى جالساً وقال : أتشهد لى بهذا يا ابن عباس ؟ قال نعم . وفى رواية أخرى أنه لما شرب عمر اللبن وخرج من جرحه بكى وأبكى من حوله فقال : هـذا حينٌ لو أنّ لى ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلع . قالوا : وما أبكاك الا هـذا ؟ قال : ما أبكانى غيرهُ فقال له ابن عباس : يا أمير المؤمنين والله ان كان اسلامك لنصراً وان كانت امامتك لفتحاً والله لقد ملأت امارتك الأرض عدلاً ما من اثنين يختصمان اليك الا انتهيا الى قولك . فقال عمر : أجلسونى فلما جلس قال لابن عباس : أعِد علىّ كلامك . فلما أعاد عليه قال : أتشهد لى بذلك عند الله يوم تلقاه ؟ قال ابن عباس : نعم ففرح عمر بذلك وأعجبه . وحق عمر أن يفرح بشهادة مثل عبد الله بن عباس

وروى عن عبد الرحمن بن أبى بكر أنه قال حين طعن عمر : مررت على أبى لؤلؤة ومعه جفينة والهرمزان وهم نجىٌّ فلما بغتّهم ثاروا فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه وسطه فانظروا ما الخنجر الذى قتل به عمر ؟ فوجدوه الخنجر الذى نعته عبد الرحمن بن أبى بكر فانطلق عبيد الله بن عمر حين سمع ذلك من عبد الرحمن ومعه السيف فأتى الهرمزان فقال له امض معى حتى تنظر الى فرس لى فلما مضى بين يديه علاه بالسيف قال عبيد الله بن عمر : فلما وجد حرّ السيف قال لا اله الا الله . وأما جفينة ، فكان من نصارى الحيرة وكان ظئراً لسعد بن أبى وقاص ، وكان يعلم الكتاب بالمدينة فجاءه عبيد الله بن عمر وقتله أيضاً ، ولما علاه بالسيف صلّب بين عينيه ثم انطلق فوجد ابنة صغيرة لأبى لؤلؤة تدعى

الاسلام فقتلها فاجتمع عليه المهاجرون والأنصار ونهوه و توعدوه فازداد غضباً وعرّض ببعض المهاجرين فلم يزل عمرو بن العاص به حتى أخذ منه السيف . ثم أقبل سعد بن أبي وقاص فتشاجر هو وعبيد الله وتناصيا حتى حجزوا بينهما . ثم أقبل عثمان بن عفان قبل أن بويع فتناصيا أيضا فحجز الناس بينهما . وأظلمت الأرض على الناس ذلك اليوم . ثم بويع عثمان بالخلافة فدعا المهاجرين والأنصار فقال : أشيروا عليّ في قتل هذا الرجل الذى فتق فى الدين ما فتق . فاجتمع المهاجرون على كلمة واحدة يشايعون عثمان على قتله ، وجلّ الناس الأعظم مع عبيد الله يقولون عن الهرمزان وجفينة : أبعدهما الله ويقولون : أما كفى قتل عمر فتريدون أن تتبعوا عمر ابنه . فكثر فى ذلك اللغط والاختلاف الى أن جاء عمرو ابن العاص الى عثمان فقال له : يا أمير المؤمنين ان هذا الأمر قد كان قبل أن يكون لك على الناس سلطان فأعرض عنهم فسمع عثمان كلامه ووُدِى الرجلان والجارية وأمسك عثمان عن قتل عبيد الله بن عمر وتفرق الناس وكان عثمان يقول لعبيد الله بن عمر وهو يناصيه : قاتلك الله قتلت رجلا يصلى (١) وصبية صغيرة وآخر من ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فى الحق تركك (٢) . وقيل ان عثمان وسعداً كانا يومئذ أشد أصحاب رسول الله على عبيد الله بن عمر وما كفّ عثمان عن قتله الا بما قاله له عمرو بن العاص . وأما دفن عمر رضى الله عنه بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر الصديق رضى الله عنه فان عمر استأذن عائشة فى ذلك فأذنت له ، ثم دعا ابنه عبد الله بن عمر فقال له : يا بُنيّ انى قد أرسلت الى عائشة أستأذنها أن أُدفن مع أخوَيّ فأذنت لى وأنا أخشى أن يكون ذلك لمكان السلطان فاذا متّ فاغسلنى وكفّنّى ثم احملنى حتى تقف بى على باب عائشة . فتقول هذا عمر يستأذن الخ فان أذنت فادفنّى معهما والا فادفنّى بالبقيع . قال ابن عمر فلما مات أبى فحملناه حتى وقفنا به على باب عائشة فأذنت بدفنه بجانب رسول الله وبجانب أبيها وكان قد دفن أبو بكر على مساواة منكب رسول الله ﷺ فدفن عمر على مساواة حقويه . وكانت وفاة عمر عن ثلاث وستين سنة وقيل عن ٦٠ وقيل عن ٥٥ سنة

(١) يعني الهرمزان

(٢) يعنى بالآخر جفينة النصرانى

وقد طعنه أبو لؤلؤة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ وكانت مدة خلافته ١٠ سنوات وخمسة أشهر واحدى وعشرين ليلة — وأبو الفداء يقول عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيالم — من متوفى أبى بكر رضى الله عنهما

تولى الأمر عشر سنوات فملأ بها الأرض فتوحات ونصب للاسلام بضعة عشر ألف منبر، فياليت شعرى ماذا كان تم للاسلام من الظهور لو عاش فى الامارة ٢٠ سنة أو ٣٠ سنة أو أكثر وقبل أن فاضت روح عمر بساعة قال لأبى طلحة الأنصارى : يا أبا طلحة كن فى خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى فانهم فيما أحسب سيجتمعون فى بيت أحدهم فقم على ذلك الباب بأصحابك فلا تترك أحداً يدخل عليهم ولا تتركهم يمضى اليوم الثالث حتى يؤمّروا أحدهم اللهمّ أنت خليفتى عليهم . فما دفن عمر حتى عمل أبو طلحة بما أوصاه به الى أن بويع عثمان بن عفان . وغسل عمر ثلاثاً بالماء والسدر وكان أوصى بأن لا يغسلوه بمسك وصلى على عمر فى مسجد الرسول بين القبر والمنبر، وكان المصلى عليه صهيب، قيل ان عمر أوصى بأن يصلى عليه صهيب فعملوا بوصيته . ولما صلى عليه جاء عبد الله بن سلام فقال : لئن سبقتمونى بالصلاة عليه لا تسبقونى بالثناء عليه فقام عند سريره وقال : نعم أخو الاسلام كنت ياعمر جواداً بالحق بخيلاً بالباطل ترضى حين الرضى وتغضب حين الغضب، عفيف الطرف، طيب الظرف، لم تكن مدّاحاً ولا مغتاباً، ثم جلس . وأورد محمد بن سعد فى الطبقات حديثاً عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ساقه من ثلاثة عشر طريقاً بأسانيد مختلفة مع اختلاف قليل فى لفظ الحديث وهو : أتى علىّ وعمر مسجىّ فقال : ما على وجه الأرض رجل أحبّ الىّ من أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجىّ . وقال عبد الرحمن بن غنم يوم مات عمر : اليوم أصبح الاسلام مولياً ما رجل بأرض فلاة يطلبه العدو فأتاه آتٍ فقال له : خذ حذرك بأشدّ فراراً من الاسلام اليوم . وعن زيد بن وهب : أتينا عبد الله بن مسعود فذكرنا عمر فبكى حتى ابتلّ الحصى من دموعه وقال : ان عمر كان حصناً حصيناً للاسلام يدخلون فيه ولا يخرجون منه فلما مات عمر انثلم الحصن فالناس يخرجون من الاسلام . ومما قال ابن مسعود : لو اعلم عمر يحب كلباً لأحببتهُ والله انى أحسب العِضاه قد وجد فقد عمر . و بكى سعيد بن زيد يوم مات عمر

وقال : اليوم يهى أمر الاسلام . وفى رواية قال : على الاسلام أبكى ان موت عمر ثلم الاسلام ثلمة لا ترتق الى يوم القيامة . ولأبى عبيدة بن الجراح فى عمر بن الخطاب كلام قد صح كله قال : اذا مات عمر رقّ الاسلام ما احب أن لى ما تطلع عليه الشمس أو تغرب وانى أبقى بعد عمر فقال قائل : ولم ؟ قال : سترون ما أقول ان بقيتم اما هو فانه ولى وال بعد عمر فأخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يطع له الناس بذلك ولم يحملوه وان ضعف عنهم قتلوه وعن الحسن بن على : أى أهل بيت لم يجدوا فقد عمر فهم أهل بيت سوء . وعن حذيفة : كان الاسلام فى زمن عمر كالرجل المقبل لا يزداد الا قرباً فلما قتل رحمه الله كان كالرجل المدبر لا يزداد الا بعداً . وقال أنس بن مالك نقلاً عن أبى طلحة وقد رأى أصحاب الشورى وما يصنعون : لأنا كنت لأن تدافعوها أخوف منى من أن تنافسوها فوالله ما من أهل بيت من المسلمين الا وقد دخل عليهم فى موت عمر نقص فى دينهم وفى دنياهم

وقيل فى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذا الرثاء :

جزى الله خيراً من أمير و باركت ... يد الله فى ذاك الأديم الممزَّقِ
فمن يَسعَ أو يركب جناحَىْ نعامةٍ ... ليُدْرِكَ ما قَدَّمْتَ بالامس يُسْبَقِ
قضيت أموراً ثم غادرتَ بعدها ... بَوائقَ فى أكمامها لم تَفَتَّقِ

ولم يعرف قائل هذه الابيات . وقيل انها سمعت فى موسم الحج قبل وفاة عمر . وعلى كل حال فهى من الشعر الذى يصح أن يوصف بقوله :

وان أَحْسَنَ بيتٍ أنت قائله ... بيت يقال اذا أنشدته صدقا

فانه قلما وجدَ امام أجدر بسلام الله من هذا الامام . وانه مهما جد الخلفاء والملوك العادلون فلم يدركوا شأوه . أما البوائق التى أشار اليها صاحب الابيات الثلاثة فقد بدأ ظهورها فى زمن عثمان رضى الله عنه بسبب أقاربه بنى أبى مُعَيْط وتفتَّقت فى حرب الجمل وحرب صفين ، وغير ذلك من الفتن التى عقلت الاسلام عن التقدم فى الارض بعد أن كاد يغلب عليها .

وعمر بن الخطاب هو أول من سمى بأمير المؤمنين ، وهو أول من كتب التاريخ فى شهر ربيع الاول سنة ست عشرة كتبه من هجرة النبى ﷺ من مكة الى المدينة وهو أول من جمع القرآن فى المصحف وهو أول من سنّ قيام شهر رمضان ، وجمع الناس على

ذلك وكتب الى الآفاق فى شهر رمضان سنة أربع عشرة وجعل للناس بالمدينة قارئين قارئا يصلى بالرجال وقارئا يصلى بالنساء . وهو أول من ضرب فى الخمر ثمانين جلدة واشتد على أهل الريب والتهم ، وأحرق بيت رويشيد الثقفى وكان حانوتاً ، وغرّب ربيعة بن أمية بن خلف الى خيبر وكان صاحب شراب فلحق ربيعة بأرض الروم وارتد . وكان عمر أول من عسّ فى عمله بالمدينة وكان له عصا اسمها الدِّرّة يؤدب بها ولقد قيل بعده : لدرة عمر أهيب من سيفكم . وهو أول من فتح الفتوح وهى الأرضون والكور التى فيها الخراج والفئ فتح العرق كله السواد والجبال واذربيجان وكور البصرة وأرضها وكور الأهواز وفارس وكور الشام ما خلا أجنادَيْن فانها فتحت فى خلافة أبى بكر الصديق ، وفتح عمر كور الجزيرة والموصل ومصر والاسكندرية وقتل رحمه الله وخيله على الرى بفارس وقد فتحوا عامتها . وهو أول من مسح السواد وأرض الجبل ووضع الخراج على الأرضين والجزية على جماجم أهل الذمة ، فوضع على الغنى ٤٨ درهماً وعلى الوسط ٢٤ وعلى الفقير ١٢ درهماً و بلغ خراج السواد والجبل فى عهده ١٢٠ مليوناً . وهو أول من مصّر الأمصار الكوفة والبصرة والجزيرة والشام ومصر والموصل وأنزلها العرب . وهو أول من استقضى القضاة فى الأمصار وهو أول من دوّن الديوان وكتب الناس على قبائلهم وفرض لهم الأعطية من الفئ وقسم القسوم فى الناس وفرض لأهل بدر وفضلهم على غيرهم ، وفرض للمسلمين على أقدارهم وتقدمهم فى الاسلام . وبدأ بالأقرب للأقرب لرسول الله ﷺ بنى هاشم ثم بنى تيم ثم بنى عدى . فجاء بنو عدى رهط عمر فقالوا أنت خليفة رسول الله فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم قال : بخٍ بخٍ بنى عدى أردتم الأكل على ظهرى لأَنْ أذهب حسناتى لكم لا والله حتى تأتيكم الدعوة ولو أن تكتبوا آخر الناس والله ما أدركنا الفضل فى الدنيا ولا ما نرجو من الآخرة الا بمحمد ﷺ فهو شرفنا وقومه أشرف العرب ثم الأقرب فالأقرب . وكان القوم اذا استووا فى القرابة برسول الله ﷺ قدم عمر أهل السابقة وكان أبو بكر قد سوّى بين الناس فى القسم فقيل لعمر فى ذلك فقال لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه . فبدأ بمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار وفرض لمن كان له اسلام كاسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ، ومن شهد أُحُداً فرضا واحداً وكان عمر أول من حمل الطعام فى السفن من مصر الى الحجاز وكان يخاف على المسلمين

فى بادئ الأمر من ركوب البحر فنهاهم عنه اشفاقا عليهم ولكنهم ركبوه فيما بعد عند اتساع الفتوحات وكان اذا بعث عاملا على مدينة كتب ماله واذا عزل عاملا قاسمه ماله وجعل ذلك القسم فى بيت المال ومن هؤلاء الذين قاسمهم مالهم سعد بن أبى وقّاص وأبو هريرة . وكان يستعمل مثل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان والمغيرة بن شعبة ويدع من هو أفضل منهم مثل عثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف وذلك لاشراف عمر على أولئك وهيبتهم له وقيل له : مالك لاتولى الأكابر من أصحاب رسول الله عليه السلام فقال : أكره أن ادنسهم بالعمل . واتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه يعين به المنقطع والضيف ينزل بعمر . ووضع فى السبل بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويُحمَل من ماء الى ماء . وزاد عمر فى مسجد رسول الله ﷺ ووسعه لما كثر الناس بالمدينة ووضع نصب عينه أن لايجتمع فى جزيرة العرب دينان فأجلى اليهود منها الى الشام ، وأخرج نصارى نجران وأنزلهم ناحية الكوفة وأعطاهم بدل أملاكهم فى نجران . وخرج الى الشام سنة ست عشرة وقسم الغنائم بالجابية وحضر فتح بيت المقدس ، وأبقى كل شئ هناك على حاله وأمتع المسيحيين واليهود بحريتهم الدينية ، وأبى أن يصلى فى كنيسة القيامة عندما أدركته الصلاة مع أن البطريرك دعاه لذلك بل خرج من الكنيسة وصلى فى مكان آخر حتى لايأتى المسلمون من بعده فيقولوا هنا صلى عمر فيأخذوا الكنيسة من أيدى النصارى . وحجّ عمر بالناس عشر سنين . ولم يكن عمر يريد اشتغال المسلمين فى الزراعة ولم يكن ذلك منه اهمالاً لهذه بل كان أول من يَقْدِرُها قدرها ولكنه لم يشأ أن يشغلهم فى ذلك الوقت عن الفتوحات ، وكان يعلم أنهم لو اشتغلوا بالزراعة لأحبوا أراضيهم ففترت هممهم وتخلفوا عن الجهاد وهو يعلم أنه اذا اتسعت الفتوح وضرب الاسلام بجرانه فى المشارق والمغارب أمكن المسلمين فيما بعد أن يتعاطوا الفلاحة ويحسنوها . وكان عمر يقول عن الامارة انها أمر لايصلح الا بالشدة التى لاجَبَرِيَّة فيها وباللين الذى لاوهن فيه . وكانت هيبة عمر فى صدور الناس فوق تصور العقل لما كانوا يعلمون من أنه لايرعى فى الحق خليلا . واجتمع مرة على ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وقالوا لعبد الرحمن بن عوف وكان أجرأ الصحابة على عمر . ياعبد الرحمن لو كلمت أمير المؤمنين فانه يأتى الرجل طالب الحاجة فتمنعه هيبته أن يكلمه فى

حاجة حتى يرجع ولم يقض حاجته . فدخل عليه فكلمه فقال : يا أمير المؤمنين لِنْ للناس فانه يقدم القادم فتمنعه هيبتك أن يكلمك فى حاجته حتى يرجع ولم يكلمك قال : ياعبدالرحمن أنشدك الله أعلى وعثمان وطلحة والزبير وسعد أمروك بهذا قال اللهم نعم قال : ياعبد الرحمن والله لقد لنت لهم حتى خشيت الله فى اللين ثم اشتددت عليهم حتى خشيت الله فى الشدة . وكان رحمه الله من أشد خلق الله تواضعاً وأخشعهم لله قيل انه رقى المنبر ذات يوم فحمد الله ثم قال أيها الناس لقد رأيتنى ومالى من اكال يأكله الناس الا أن لى خالات من بنى مخزوم فكنت أستعذب لهن الماء فيقبضن لى القبضات من الزبيب. ثم نزل من على المنبر فقيل له ما أردت بهذا يا أمير المؤمنين فقال : انى وجدت بنفسى شيئا فأردت أن أطأطئ منها . وكان مرةً ماراً بضحيان فقال لأصحابه لا اله الا الله المعطى ماشاء من شاء كنت أرعى ابل الخطاب فى هذا الوادى فى مدرعة صوف وكان فظاً يرعبنى اذا عملت و يضربنى اذا قصرت وقد أصبحت وليس بينى و بين الله أحد . وقال مرة أحب الناس الى من رفع الى عيوبى . ورأى الهرمزان عمر نائماً فى المسجد فقال هذا والله الملك الهنئ .

***

هذه نبذة من سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أكثرها متواتر أجمعت عليه الرواة وان وقع اختلاف فى بعض الروايات من جهة اللفظ فلم يقع من جهة المعنى بحيث لايخامر الانسان شك فى أن سيرة عمر كانت هى هذه كما وصفها الناس بالتواتر خلفا عن سلف ، ولولم تكن هذه سيرته حقاً لما كانت هيبة الاسلام بلغت تلك الدرجة التى بلغتها فى أيامه ولو لم يكن عمر ذلك الأمير العادل الذى لاتأخذه فى الحق لومة لائم لما كان العدل العمرى مثلاً سائراً بين الناس الى يوم الناس هذا . ولقد أردنا بنقل هذه الشواهد من سيرته رحمه الله تعريف حقيقة الخلافة فى الاسلام واثبات أنها ليست فى شئ من الملك العضوض الذى جد بعد الخلفاء الراشدين والذى عليه ملوك الأعاجم فسيرة عمر هى مثال بارز يأخذ منه القارئ صورة حقيقية عن كيفية الاسلام فى زمان الخلفاء الراشدين وعن روح الامارة التى أمرهم بها الشارع ﷺ فكانوا كلما تمشوا عليها أفلحوا وسادوا وكلما انحرفوا عنها وهنوا وفشلوا (إِنَّ اللهَ لَايُغَيِّرُ مَابِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

الفصل الاول من الكتاب
في اليقظة الاسلامية

في القرن الثامن عشر كان العالم الاسلامى قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ ، ومن التدنى والانحطاط أعمق دركة ؛ فاربدّ جوه وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجا من أرجائه وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ؛ وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربى ؛ واستغرقت الأمم الاسلامية فى اتباع الاهواء والشهوات ؛ وماتت الفضيلة فى الناس ؛ وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ؛ وانقلبت الحكومات الاسلامية الى مطايا استبداد وفوضى واغتيال ؛ فليس يرى فى العالم الاسلامى ذلك العهد سوى المستبدين الغاشمين كسلطان تركية وأواخر ملوك المغول فى الهند ؛ يحكمون حكما واهناً فاشى القوة متلاشى الصبغة ؛ وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التى هم فى حكمها وينشئون حكومات مستقلة ولكن مستبدة كحكومة الدولة التى خرجوا عليها ؛ فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون اخضاع من فى حكمهم من الزعماء هنا وهناك ؛ فكثر السلب والنهب ؛ وفقد الأمن ؛ وصارت السماء تمطر ظلماً وجوراً ، وجاء فوق جميع ذلك رجال الدين المستبدون يزيدون الرعايا ارهاقاً فوق ارهاق ، فغلت الأيدى ؛ وقعد عن طلب الرزق ؛ وكاد العزم يتلاشى فى نفوس المسلمين ؛ وبارت التجارة بواراً شديداً ؛ وأهملت الزراعة ايما اهمال .

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء ؛ فالبست الوحدانية التى علمها صاحب الرسالة الناس سجفاً من الخرافات وقشور الصوفية ؛ وخلت المساجد من أرباب الصلوات وكثر عديد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان الى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم فى الحج الى قبور الأولياء ؛ ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ؛ وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يشرب الخمر والأفيون فى كل مكان ؛ وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء . ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرهما

من سائر مدن الاسلام ، فصار الحج المقدس الذى فرضه النبى على من استطاعه ضربا من المستهزآت ، وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطا بعيد القرار ، فلو عاد صاحب الرسالة الى الأرض فى ذلك العصر ورأى ما كان يدهى الاسلام ، لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين ، كما يلعن المرتدّون وعبدة الأوثان (١)

وفيما العالم الاسلامى مستغرق فى هجعته ومدلج فى ظلمته ، اذا بصوت قد يدوى من قلب صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ، يوقظ المؤمنين ويدعوهم الى الاصلاح والرجوع الى سواء السبيل والصراط المستقيم ، فكان الصارخ هذا الصوت انما هو المصلح المشهور محمد بن عبد الوهاب الذى أشعل نار الوهابية فاشتعلت واتقدت ، واندلعت ألسنتها الى كل زاوية من زوايا العالم الاسلامى . ثم أخذ هذا الداعى يحض المسلمين على اصلاح النفوس واستعادة المجد الاسلامى القديم والعز التليد ، فتبدت تباشير صبح الاصلاح ثم بدأت اليقظة الكبرى فى عالم الاسلام .

وُلد محمد بن عبد الوهاب فى نجد الواقعة فى قلب الصحراء العربية ، حوالى سنة ١٧٠٠ م وكانت نجد فى ذلك العصر ، على انحطاط العالم الاسلامى وتدليه ، أنقى البلدان اسلاماً وأطهر الأقطار دينا . وقد عرفنا فيما أسلفنا من الكلام كيف كانت تنتقل الخلافة من دور الشورى الى دور الاستبداد الشرقى وكيف أخذ على أثر ذلك العرب الأحرار أباة الضيم يعودون أدراجهم الى الصحراء حيث امتنعوا بحريتهم فى حرز بلادهم وموطنهم ، وصدوا عنهم كل حامل عليهم . فلا خليفة ولا سلطان غرّر بنفسه يوما لاختراق تلك الصحارى الرملية المحرقة والتوغل فى فيافيها المهلكة حيث الموت الكريه كامن على الدوام لكل طامع غريب دخيل . فالعرب هناك لم يعرفوا قط حاكما عليهم ، بل دأبهم دوما الحل والترحال وارتياد المنتجعات فى مختلف الواحات فى قلب الصحراء . وفى هذا الحصن المنيع

(١) لو أن فيلسوفاً تقريساً من فلاسفة الاسلام ، أو مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية ، أراد تشخيص حالته فى هذه القرون الأخيرة ما أمكنه أن يصيب المحز وأن يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الأميركى ستودارد . (ش)

استطاع العرب منذ القديم الاحتفاظ بفضائلهم الدينية لا تشوبها شائبة ، ورابطتهم السياسية لا تنفخ فى بنيانها ريح . أما البـدو الرحل فالزعامة فيهم لشيوخهم الذين يتولون القيام على أحكامهم وتدبير شؤونهم . وأما الحضر فى الواحات فالزعامة فيهم على الغالب لشيوخ الأسر العليا منزلةً ومكانةً ، بيد أن مبلغ ما فى أيدى هؤلاء الشيوخ من السلطة المطاعة حق الطاعة انما هى سلطة صورية واهنـة ، لا تقوى على الدوام على الوقوف فى وجه تيار العادات القومية والعرف . وجل ما استطاع الترك اخضاعه من بلاد العرب هو أنهم بسطوا شيئاً من سلطانهم على الأماكن المقدسة الحجازية وساحل البحر الأحمر . أما نجد ، البلاد الداخلية ، فقد ظلت حرة مستقلة . وما برح عرب الصحراء فيها يغالون فى الاحتفاظ بما يتحدر اليهم من آبائهم وأجدادهم من فضائل الدين ووحدة السياسة وعروة الجامعة ، فلذلك ما انفكوا قط ينعون على العالم الاسلامى سقوطه فيما نهت الرسالة عنه وهم يزيدون استمساكا بالاسلام على أصله وجوهره ولبابه ، وذلك حقاً مما يلائم طبائعهم ويتفق مع أمزجتهم .

هكذا كانت حالة نجد لما ولد فيها ابن عبد الوهاب . واذ كان منذ أول شأنه شديد الميل الى الاطلاع والتفقه فى الدين ، لسرعان ما اشتهر ذكرهُ وذاع اسمهُ ، فعرف بعلم وافر قواما على التقوى . فحج الى مكة فى أوائل عمره وطلب العلم فى المدينة المنوّرة ، وساح الى كثير من البلاد المجاورة حتى فارس ثم عاد الى نجد مشتعلا غضبا دينيا لما رآه بأم عينه من سوء حالة الاسلام ، فصحت عزيمته على القيام بدعوة الاصلاح . فقضى سنين عديدة راحلا من بلاد الى بلاد فى شـبه الجزيرة ، فبشر بالدعوة ، موقظا النفوس ، حتى استطاع بعد جهاد طويل أن يجعل محمداً بن السعود ، وهو أكبر أمراء نجد وأعلى زعمائها كعباً وشأنا يقبل الدعوة ويدخل فيها ، فاكتسب ابن عبـد الوهاب بذلك مكانة أدبية عاليـة ومنزلة اجتماعية رفيعة وقوة حربية لا يستهان بها ، فاستفاد من ذلك استفادة جليلة قد مكنته من بلوغ غايته وادراك غرضه . فتكونت على التوالى وحدة دينية سياسية فى جميع الصحراء العربية شبيهة بتلك الوحدة التى أنشأها صاحب الرسالة ، وفى الواقع فان المنهج الذى نهجه ابن عبد الوهاب ليشبه شبها كبيراً ذاك الذى نهجه الخلفاء الراشدون كأبى بكر وعمر . ولما مات سـنة **١٧٨٧** خلفه ابن السعود فـكان خير خليفة للمصلح الاسلامى الـكبير ، واقتفى الوهابيون آثار خـلافة الراشدين ، وعلى ما كان فى يد ابن السعود من القوى الحربيـة

العظيمة ، فان ذلك ما كان ليصرفه عن أن يكون على الدوام نازلا على رأى الجماعة وشوراها ، فلم يمتهن حرية أتباعه و بنى قومه ، وكانت حكومتـه على عنفها مكينة عادلة فانقطع التعدى وأمن الناس السرقات وانتشر الأمن وسادت الطمأنينة والراحة . وعكف على العلم والتهذيب ، فكان فى كل واحة مدرسة ، وفى كل قبيلة بدوية عدد من المعلمين

و بعد أن أخضع ابن السعود نجداً ، وتم له الأمر فى كاملها : أخذ يستعد ليقوم بعمل أكبر ألا وهو اخضاع جميع العالم الاسلامى . ونشر الاصلاح فيه . فجعل نصب عينه فى المقام الأول تحرير الأماكن المقدسة الحجازية . فكرّ على الحجاز فى صدر القرن التاسع عشر بمقاتلته الشجعان المشتعلين غيرة « دينية» . وكان له ما أراد من الاستيلاء على الأماكن المقدسة ، فلم تستطع قوة الوقوف فى وجه الوهابيين وهم يحملون على الترك ، والترك فى نظرهم أهل الارتداد والجحود ، ومغتصبو الخلافة اغتصاباً ، وحقها أن تكون أبداً فى العرب . و بينما كان ابن السعود سنة ١٨١٤ يعد العدة لفتح سورية وهمته متينة ؛ كان يخيل الى العالم منـه أن الوهابيين متدفقون على الشرق تدفقاً ، وصانعون ما شاءه الله من الاصلاح فى الاسلام

غير أن ذلك ما قـدر ليكون . فلما أيقن سلطان تركية أنه لا يستطيع القضاء على الوهابيين استصرخ بطلا من مشاهير الأبطال ، وهو محمد على ، واستكفاه أمر القضاء عليهم وكان هذا المقدام الالبانى سيد مصر وأميرها ، وواقفاً حق الوقوف على قدرة أوربة وشدة بأسها وتفوقها ، فدعا اليه ضباطاً من أهل الغرب فنظموا له جيشاً قويا ، ودربوه تدريباً على الطراز الغربى ، وجهزوه بمعدات الاسلحة الغربية . وكان غالب هذا الجيش مؤلفاً من المقاتلة الألبانيين الاشداء ، فسرعان ما أجاب محمـد على نداء السلطان فأيقن حينئذ أن الوهابيين على شدة غيرتهم الدينية وحماستهم لن يستطيعوا بعد الوقوف فى وجه البنادق والمـدافع الأوروبيـة يطلق عيارها جنود مجربون . وما هى الا مـدة قصيرة حتى استردت الأماكن المقدسة الحجازية ، ورد الوهابيون على اعقابهم فانقلبوا الى الصحراء ، فاختفت الامبراطورية الوهابية الوليدة للحال اختفاء السراب ، وأرخى الستار على الدور السياسى

الوهابى (١)

بيد أن خاتمة هذا الدور السياسى كانت فاتحة الدور الدينى ، فقد ظلت نجد بؤرة تشتعل فيها نار الغيرة الدينية ، ومنبثق نور تنبعث منه الاشعة الوهاجة الى كل ناحيـة من نواحى الأرض ، وما فتئ الوهابيون منذ قضى على قوتهم السياسية يبثون روح الحركة الدينية فى مئات الألوف من الحجيج الوافدين كل عام الى مكة والمـدينة من كل قطر من أقطار العالم الاسلامى ، فيقتبس هؤلاء ناراً وهابية ثم يعودون الى أوطانهم يشعلون بها ما استطاعوا اشعاله فى سبيل الإصلاح . وهكذا قد استطاع الوهابيون أن يبذروا بذوراً تلاها الاختمار الشديد للثورة الدينية فى كل فج اسلامى ، حتى بلغت دعوتهم الدينية أقصى المعمور فقام فى شمالى الهند الزعيم الوهابى المغالى السيد احـمد (٢) مستنفراً مسلمى بنجاب وأنشأ دولة وهابية . فـكان هذا الزعيم يعد عدته لفتح سائر شمالى الهند فحالت منيته بينه و بين ذلك ، واضمحلت الدولة الوهابية الهندية سنة ١٨٣٠ غير أنه لما جاء الانـكليز يفتحون البلاد عانوا الأمرّين من بقايا النار الوهابية الـكامنة فى الرماد ، وظلت هذه النار مخبوءة الى ما شاء الله فـكانت عاملا من عوامل « الثورة الهنـدية » ، ثم استطار من شررها ما تناول أفغانستان وسائر القبائل الهندية عند الحدود الشماليـة الغربية فأشعلها أيما اشعال . وفى تلك الغضون قام السيد محمد بن السنوسى فى الجزائر وأتى مكة ورضع أفاويق الوهابية فيها ، ثم أخذ يجاهد فى سبيل انشاء الطريقة الدينية المعروفة باسمه تمهيداً للجامعة الاسلامية . وفى ذلك الأوان أيضا نشأت الدعوة البابية (البهائية) فى بلاد فارس ، وهذه الدعوة وان كانت بتعاليمها بعيدة عن تعاليم الوهابية ، غير أنها بلا مشاحة حاملة روحاً كروح الوهابية كأنها منعكس لها .

وخلال جيل تلا اتسعت الدعوة الوهابية بأفقها ومضطربها اتساعا كبيراً ، وتطورت تطوراً عظيما حتى صارت تعرف باليقظة الاسلامية ، ثم اتسعت دعوة اليقظة الاسلامية بأفقها أيضاً حتى تعددت متجهاتها ومناحيها ، وأهم هـذه المتجهات انما هى الدعوة الـكبرى

---

(١) اقرأ ما يأتى فى الدعوة الوهابية وحركتها :

الاسـلام بالقرن التاسـع عشر A Le Chatelier, l'Islam au XIXe siècle (Paris 1888)

معتقد الوهابية A. Chodzko "Le d'éisme des Wahabis" Journal Asiatique

(٢) هو غـير « السر السيد احمد » من عليكرة المسلم الهندى الحر المعدود من رجال منتصف القرن التاسع عشر

المعروفة بالجامعة الاسلامية . واننا سنفرد قسما مخصوصاً فى غير موضع من هذا الكتاب للكلام على هذه الدعوة الكبرى نبين فيه سيرها وخطورتها السياسية ، مكتفين الآن بالكلام على سائر وجهات اليقظة الاسلامية ومبلغ مكانتها الدينية والتهذيبية (١)

فالدعوة الوهابية انما هى دعوة اصلاحية خالصة بحتة. غرضها اصلاح الخرق ، ونسخ الشبهات ، وابطال الأوهام ، ونقض التفاسير المختلفة والتعاليق المتضاربة التى وضعها أربابها فى عصور الاسلام الوسطى ، ودحض البدع وعبادة الأولياء ، وعلى الجملة هى الرجوع الى الاسلام والأخذ به على أوله وأصله ، ولبابه وجوهره، أى انما الاستمساك بالوحدانية التى أوحى الله بها الى صاحب الرسالة ، صافية ساذجة ، والاهتداء والائتمام بالقرآن المنزل مجرداً وأما ماسوى ذلك فباطل وليس فى شئ من الاسلام . ويقتضى ذلك الاعتصام كل الاعتصام بأركان الدين وفروضه وقواعد الآداب ، كالصلاة والصوم وغير ذلك ، والكون على السذاجة التامة فى أحوال المعيشة ، وتحريم اتخاذ الملابس الحريرية ، والتأنق فى الأطعمة ، وشرب الخمر والقهوة ، والأفيون والتبغ ، وغير ذلك مما بعضه من أسباب السرف وبعضه الآخر من المضار المفسدة لسلامة العقل ، وليس هذا جميع مافى الأمر ، بل عد الوهابيون المبانى الدينية المزخرفة من نواهى الاسلام . فهدموا قبة قبر الرسول فى المدينة المنورة ، وخربوا مآذن المساجد ، فهم على ايغالهم فى الاعتصام بالفروض الدينية وقواعد الآداب، كانوا على ضعف شديد فى المدارك و بعد فى التعصب . فلذلك كان من حسن حظ الاسلام أنهم باءوا بخسران سلطتهم السياسية ، فقصروا مساعيهم ودعوتهم على التعاليم الدينية الأدبية فحسب

وقام على أثر ذلك عدد من النقدة،اتخذوا الوهابية دليلا لكلامهم وقالوا انما الاسلام بجوهره وطبائعه غير قابل للتكيف على حسب مقتضيات العصور ومماشاة أحوال الترقى والتبدل ، وليس إلفاً لتطورات الأزمنة وتغيرات الأيام ، بيد أن نقدهم هذا لفاسد باطل ولا

(١) لاينكر أن الوهابية هى نهضة فى الاسلام عظيمة ممتدة فى أكثر بلاد العرب وفى الهند والقائمون بها أولو تعصب شديد، وربما أفرطوا فى مباديهم وغلوا فى عقائدهم شأن جميع المذاهب التى لايقف أتباعها عند الحد الذى وضعه أصحابها . ولكن المقرر أنها حركة انابة الى العقيدة الحق وهدي السلف الصالح واقتفاء أثر الرسول (ص) والصحابة ، ونبذ الخرافات والبدع ، وحظر الاستغاثة بغير الله ، ومنع التمسح بالقبور والتعبد عند مقامات الأولياء ، ولذلك يسمونها عقيدة السلف، ويلقب الوهابيون أنفسهم سلفيين ، وأكثر اعتمادهم فى الاجتهاد على الامام احمد بن حنبل ، والامام ابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية . (ش)

مسوغ له . اذ قد فاتهم أن الدور الأول لكل أصلاح دينى انما هو الرجوع الى حالة أصل ذلك الدين المراد اصلاحه ، والاستمساك به على حاله الأولى استمساكاً لايحتمل نقد ناقد ولا اتهام متهم . فالمصلح الدينى لايرى سبيلا للقيام بالاصلاح و بلوغ الغاية ، الا بنسخ جميع البدع والأوهام اللاصقة بالدين ، دون اعتبار صفاتها وماهيتها . ليعتبرن العاقل اللبيب أنه لما بدأ الاصلاح البروتستنتى عندنا انما كان مبدؤه على هذه الطريقة ، فقد نبذ المتعصبة المتشددة من البروتستنت المعروفين « بالمتطهرين » المصلح الكبير « أراسيموس » (١) واتهموه بالباطل ، وشددوا عليه النكير ، متعامين قائلين ان الحركة الاصلاحية انما هى افتراء على الدين الصحيح ، ولا شأن لها سوى ابدالها « البابا » المعصوم بالتوراة المعصومة

وأخذت اليقظة الاسلامية تنتشر انتشاراً مزداداً، ومبادىء التجدد والاصلاح الحقيقى تنمو نمواً مطرداً.وكان مما لاشك فيه وأمره طبيعى أن عادت الحرية العقلية الى الظهور شيئا فشيئاً ، فلم يجهد المصلحون المسلمون فى أوائل القرن التاسع عشر كثيراً حتى أدركوا المعتزلة ، فاستكشفوا دفائنها ونفخوا فيها نسمة روحية فصارت الى الحياة . وقد سبق لنا فأتينا على وصف النزاع الذى قام مشتداً بين أرباب مذهب النقل والسنة والتقليد من جانب وأرباب مذهب العقل أعنى المعتزلة من جانب آخر فى أوائل عهد الاسلام ، فكانت الغلبة لأتباع المذهب الأول ، فاختفت المعتزلة وامحت آثارها امحاء حتى عادت فظهرت اليوم الى الوجود بظهور المصلحين الأحرار ، الذين مافتئوا يؤيدون مذاهبهم وآراءهم الاصلاحية ببراهين أولئك الجهابذة السابقين من المعتزلة ، و بأحاديث و بآيات من الكتاب . فمن ذلك استشهادهم على قبول الاصلاح فى الاسلام بما هو مأثور عن صاحب الرسالة من قوله : «انما أنا بشر ، اذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشئ من رأيى فانما أنا بشر » . رواه مسلم بهذا اللفظ عن رافع بن خديج . وقوله أيضاً « انكم فى زمان من ترك فيه عشر ماأمر به هلك ، ثم يأتى زمان من عمل منهم عشر ماأمر به نجا » رواه الترمذى عن أبى هريرة . وروى أحمد فى مسنده عن أبى ذر مرفوعاً : « انكم فى زمان علماؤه

(١) هو سيديريوس اراسيموس (١٤٦٧ — ١٥٣٦ م) أحد الابطال الثلاثة في الاصلاح الانكليزى على عهد آل تودور . وزميلاه يوحنا كوكف (١٤٦٦ — ١٥١٩ م) وتومامور (١٤٧٨ — ١٥٣٦ م) — (المعرب)

كثير وخطباؤه قليل من ترك فيه عشر مايعلم هوى ـ أوقال هلك ـ وسيأتى على الناس زمان يقل علماؤه ويكثر خطباؤه ، من تمسك فيه بعشر مايعلم نجا (١) »

وقبل أن نشرع فى الكلام على آراء هؤلاء المصلحين المسلمين وما قاموا به من الاعمال فى سبيل الاصلاح ، يجدر بنا أن نبحث بحث الممحص الخبير فى نقود النقدة الغربيين ، القائلين ان الاسلام بطبائعه غير قابل للاصلاح، وبماهيته غير مستعد لايلاف روح العصور المترقية بترقى الحضارة والعلوم ، اذ لم ينفرد الجدليون النصارى (٢) وحدهم فى هذه النقود وما يدور حولها أخذاً ورداً بل شاركهم فى ذلك غيرهم فى أبناء الفرنجة كأتباع مذهب العقلية وفيهم « رينان » الفرنسى (٣) ونفر من أعاظم الرجال الذين تقلدوا مناصب الأحكام العالية فى العالم الاسلامى نظير اللورد كرومر (٤) واضرابه . أما هذا الأخير فقد أوجز رأيه بقوله : « الاسلام غير قابل للاصلاح ، أعنى ان الاسلام مجدداً مصلحا انما هو غيره حاضراً بل هو شئ آخر »

وعلى هذا فيجب علينا أن نتدبر حق التدبر أقوال هؤلاء النقدة لوقوفهم أكثر من غيرهم على شؤون الاسلام ، ولأن منهم من عرف المسلمين فى ديارهم عهداً طويلا . على أنه بعد اقامة الوزن لهذا كله لايتردد الباحث المقارن فى تاريخ الأديان ، ولا سيما فى آراء المصلحين المسلمين الحدثاء ، وما استطاعوا القيام به من الاصلاح من القرن الماضى ، أن يدحض جميع هذه المتهمات ادحاضا ، ويجبه أربابها بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة جبهاً

يجب ألا يغرب عن البال أن الاسلام فى يومه هذا انما يجتاز دوراً كذلك الدور الذي قد اجتازته النصرانيــة فى أوائل عهد الاصلاح فى القرن الخامس عشر . فالدوران حقا

(١) نقلنا هذه الاحاديث بنصها الحرفى كما أرشدنا اليها حضرة الاستاذ العلامة السيد محمد رشيد رضا

(٢) اقرأ كتب القس المرسل س . م . زويمر Rev. S.M. Zwemer الآتيــة : —
« بلاد العرب أو مهد الاسلام » Arabia,The Cadle of Islam (Edinbourg' 1900)
« مفندات الاسلام » Reproach of Islam. (London 1915) و « العالم الاسلامي اليوم »
The Mohemmedan World of To-day وهى مجموعة محاضرات وخطب تليت فى مجمع المرسلين البرتستنت المعقود فى القاهرة سنة ١٩٠٦

(٣) كتاب « الاسلام والعلم » Renan, l'Islamisme et La Science (Paris 1883)

(٤) كتاب «مصر الحديثة» Cromer, Modern Egypt. Vol 2 (London 1908)

متشابهان من حيث سيادة عقيدة النقل والتقاليد على عقيدة العقل سيادة مطلقة ، ومن حيث العداء المنتشر للحرية الفكرية والعلوم الطبيعية الصحيحة ، لاينكر أن الواقف على كتب الشريعة الاسلامية والتاريخ الاسلامى للالف الأخير ، يبدو له على الجملة أن الاسلام لم يتفق كل الاتفاق مع الحضارة الحديثة ، والتقدم العصرى ، ولكن نقول أفلم تكن النصرانية على مثل هذه الحالة عينها فى صدر القرن الخامس عشر ؟ فمن يقارن بين الشريعتين الاسلامية والنصرانية من جميع وجوههما ، يرَ أن روح الأولى اليوم : وروح الأخرى بالأمس ، انما هى روح واحدة . فلننظر فى شئ من هذا ، وهو تحريم الربا فى الشريعة الاسلامية تحريماً لو أبيح لكان من شأنه القضاء على التجارة والصناعة باعتبار معنييهما اليوم . وقد كان من أمر غالب هؤلاء النقدة أن يذكروا غير مرة تحريم الربا هذا دليلا على جمود فى الاسلام جمودا يمسك به عن مجاراة الحضارة العصرية بيد أنه يجب الا يند عن البال أن الشريعة النصرانية قد حرمت الربا أيضا تحريماً لايوصف ، وقد كانت متشددة فى ذلك مااستطاعت ، فكانت نتيجة الأمر أن اليهود انبروا للميدان وظلوا قروناً عديدة محتازين التجارة الأوروبية وجناة ثمراتها ، لايشاركهم فى ذلك مشارك ولا يزاحمهم مزاحم . وحدث أن « اللبرديين » أقدموا حينا على التداين بعض التداين ، فعدوا هراطقة النصارى وكفرتهم ، واتهموا بارتكاب النواهى ، واضطهدوا شر اضطهاد . ولننظر فى شئ آخر يزدد الأمر تحققا وانجلاء . يقول متعصبة النقدة أن الاسلام يجافى الحرية الفكرية ، وينكر استكناه الحقائق العلمية الطبيعية فلعمر الحق لو شاء الاسلام أن يحتج على النصرانية ويرد اليها افتراءها ، لكان لديه حجة أدمغ وبرهان أقطع مما هو مدون فى صحف التاريخ النصرانى ان « غاليلو » المشهور قد جلد وعذب ، وأذيق الهول أشكالا ، منذ أقل من ثلثمائة سنة (١) بحضرة المجلس « البابوى » ، ليرتد عن تعطيله وهرطقته التى جاهر بها يومئذ ان الأرض تدور حول الشمس ؟

أيليق بنا بعد جميع هذا أن نتعامى عما قاله محمد فى شأن العلم ؟ وأن ننكر تكريمه له كل التكريم ، وهذه كلماته البليغة مازالت شاهداً على ذلك خالداً ، وهاك بعضها : —

« اطلبوا العلم ولو فى الصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » . رواه العقيلى فى

---

(١) ١٦٣٣

« الضعفاء » ، وابن عدى فى « الكامل » والبيهقى وابن عبد البر عن أنس رضى الله عنه

« اطلب العلم من المهد الى اللحد [١] » .

« لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة [٢] » .

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء[٣] » .

« العلماء ورثة الأنبياء[٤] » .

« أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال عزّ وجلّ : وعزتى وجلالى ما خلقت خلقاً أكرم علىّ منك ، بك آخذ ، و بك أعطى ، و بك أثيب و بك أعاقب[٥] » .

فهذه الأحاديث وكثير غيرها انما هى برهان على ن الأحرار من المصلحين المسلمين يؤيدون اصلاحهم الحرّ بالنصوص الدينية الماشية لكلّ عصر ، والصالحة لمقتضيات كل دور ولست أعنى بهذا أن دور هذا الاصلاح فى عالم الاسلام ، بحق كونه دوراً اصلاحياً حراً ، سائراً سير التقدم والترقى ، فهو لا محالة مدرك غاية الظفر و بالغ محجة النجح التام . فالتاريخ انما يحوى بين دفتيه كثيراً من أخبار الأمم التى فشلت بعد جهد وحبطت عقب نصب . وقد علمنا فيما تقدم من الكلام كيف نشأت المعتزلة الحرة فى أوائل الاسلام ، وكيف ذوت فجفت فذهبت ريحها . بيد أن الحقيقة الكبرى التى ينبئنا بها التاريخ ، وليس باستطاعة أحد انكارها ، أنه متى ماحان ميقات اليقظة الحقيقية فى أمة ، وأنشأت العصبيةُ الجنسية تدبّ فى عروق أبناء تلك الأمة دبيباً مستمرا ، أصلح الدين لا محالة ، ونفض عنه غبار التقليد اللصوق به ، وحرّر من عهد رسفانه ، وحمل محملاً يلائم روح اليقظة ، وأخذ به أخذاً متفقاً مع متجه النهضة . فهل من أمة من أمم الأرض يقظت يوماً هذه اليقظة فهبت فسارت فى سبيل العلى ثابتة الخطى رابطة الجأش ، فكان الدين حجر عثرة أو علة فشل لها ؟ اللهم لا . قد تبلغ تلك الأمة فترةً تقف فيها مذللةً صعباً من الصعاب ، أو حالةً اربةً من الارب ، أو

(١) أفادنا الاستاذ السيد رشيد رضا أنه لم يره حديثاً نبوياً

(٢) رواه ابن عبد البرمن حديث أنس ، وفى بعض ألفاظه « مائتا ركعة » ورواه آخرون بألفاظ أخرى

(٣) رواه ابن عبد البر عن الشيرازى عن أبى الدرداء رضى الله عنه

(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم عن أبى الدرداء .

(٥) وفى رواية « ما خلقت شيئاً أحسن منك » .

مزيحةً عقبةً قائمةً فى السبيل . ثم ما تزال مستحثةً ركابها ومعملةً المهاميز فى مطيها ، حتى تبلغ الغاية وتقطف ثمرة الجهاد يانعةً . وعلى ذلك فليعلم أنه ليس من الممكن بعد أن العالم الاسلامى يونى عزمه فيتقاعس عن السير الدراك ما دامت روحهُ ثائرةً وعزمه متقداً ، وهو فوق ذلك كله يزداد مساساً مع الحضارة الغربيــة ، واقبالاً عليها وأخذاً عنها . ان العالم الاسلامى لن يستطيع بعد اليوم البقاء على عزلته كما كان فيما مضى ، حتى ولو شاء هذا ، اذ جميع مافيه اليوم انما يبرهن على انقلاب شديد وانفعال عميق وتطورمن حال الى حال. يقول النقدة مثل اللورد كرمر ان الاسلام منقحا ليس الاسلام حاضرا ، بل شيئا آخر ، أليس هذا ترى العجب كل العجب ؟ فلماذا لا يظل الاسلام اسلاماً ؟ أإذا شاء المسلمون أن يظلوا الى ما شاء الله مسلمين، وأن يظلّ دينُهم دينَهم ، وأن يستنيروا أبداً بروح الرسالة المحمدية ، أنكرنا عليهم اسمهم كأنه شيء يجب أن لا يكون ؟ هذه النصرانية الحديثة تختلف اختلافا بعيداً عما كانت عليه فى الأجيال الوسطى ، وأكثرها اليوم يباين أكثرها بالأمس ، وهناك تناف واسع الشقة وتباين شديد بين بعض الكنائس والبعض الآخر، ناهيك بهما من تناف وتباين بعيدى المضطرب والغور ، وعلى هذا كله فجميع الطوائف النصرانية ما برحت تدعى نصرانية ، فبالله علام هذا التعامى فى حق الاسلام ؟

وقد حان لنا الآن بعد الذى تقدم أن نبسط الكلام على قادة الاصلاح من المسلمين ، مدققين النظر فى ذلك بتجرد عن الهوى بحيث يجب أن تكون أحكامنا مبنيةً على ما قاله هؤلاء المصلحون القادة من الأقوال وما قاموا به من الأعمال ، وليس على ما هو مدون عنهم فى بطون الكتب والتواريخ التى ذهب واصفوها فيها مذهب الغرض ، فقد قال أحد المصلحين المسلمين وهو جزائرى (١) قولا سديداً : — « لا تقاس حضارة أمة بما فى كتبها الدينية من السطور والعبارات ، بل بما تقوم به تلك الأمة من الأعمال . »

أنشأ المسلمون الأحرار المتأخرون مذهبهم الحر على الأسس التى وضعتها المعتزلة منذ ما يقرب من ألف سنة خلت . ومن تدبر تاريخ الاسلام حق التدبر ، أيقن كل الايقان أن الاسلام لم يخل يوما فى جميع ماضيه حتى فى أشد عصوره حلكاً من بعض المصلحين الأحرار ذوى العقول النيرة والمدارك الثاقبة والهمم الصادقة ، الذين انما كانوا يتوالون الحقبة بعد

(١) هو اسماعيل حامد

الحقبة ، فيصرخون فى المسلمين صرخات الاصلاح الشديدة ، ويرفعون علما من أعلام الهدى والارشاد ، واليك مثالاً من هذا ، فقد كتب الغرانى المشهور ، وهو من رجال القرن السادس عشر : « ليس بعزيز على الله عزّ وجلّ أن يكشف لعباده المخلصين فى المستقبل ما لم يكشف مثله لغيرهم فيما مضى من العصور ، وان ينزل من نعمه الروحانية على مستحقيها من الحكماء فى كل دور ، النعم التى تفيض نوراً على أبصارهم وبصائرهم فتهديهم سواء السبيل »

فهذه الصرخات التى توالت والمصابيح التى أوقدت فى فترات مختلفة طيلة جميع الأجيال التى كرت على الاسلام من بعد انحداره عن الأوج ، قد كان من شأنها أن تمهد السبيل بعض التمهيد للمصلحين المتأخرين ، اذ لم ينتصف القرن التاسع عشر ، حتى كان قد قام فى كل بلد من بلدان المسلمين فى الرقعة الاسلامية عدد من روّاد الاصلاح ودعاته ينبهون ويوقظون ، ويحضون ويستحثون ، بيد أن هؤلاء كانوا نزراً فى بدء عهد الاصلاح الحديث فلاقوا فى سبيل ذلك مثل ما لاقى غيرهم من الذين ساروا سيرهم ، اذ هبّ رجال الدين (١) وسواد السذج يرمون المصلحين بالمروق من الاسلام ، فكان من طبيعة الأمر ظهور النزاع والمشادة بين المسلمين فى سبيل الاصلاح . وقد كانت الهند أول رقعة اسلامية رفعت فيها أعلام الاصلاح ، فقام فيها عصبة من المصلحين ، ذوو عزم شديد وعلى رأسهم « السر » السيد أحمد خان ، وانبروا يجاهدون فى سبيل الدعوة الكبرى للاصلاح الحرّ ، فألفوا الجمعيات ونشروا الكتب والصحف ، وأنشأوا الكلية العلمية الاسلامية فى عليكرة وأما « السر » السيد احمد خان فهو خير مثال من المصلحين الأحرار المتأخرين ، وكان مذهبه مذهب المحافظين المتمسكين بفضائل الدين ، فبكى حالة الاسلام ، وأعظم شقاء المسلمين

(١) كره صاحب الرسالة أن يعين وظائف دينية يتولى القيام بها رجال مخصوصون ، فالاسلام من حيث الأصل لم تنص كتبه الشرعية من من المسلمين يتولى القيام بالوظيفة الدينية ، على حد ما هو الأمر فى النصرانية واليهودية والبرهمية وغيرها . فأي مسلم كان يستطيع أن يقوم فى المصلين اماماً ، بيد أنه على توالى الأيام نشأت طائفة من القوم العارفين بالأصول الشرعية والفقه الاسلامي ودرجت تتولى المناصب الدينية حتي عرفت بالتالى برجال الدين ، ثم نشأت طوائف أخرى كطائفة « الدراويش » وأمثالها . على أن الاسلام لم يكن يعرف شيئاً من هذا فى أول عهده .

متقداً غيرة وهابيةً . وكان يعتبر قدر الحضارة الغربيــة ، ويحض أبناء قومه على ورود منهلها ، وأخذ الصالح منها ، فقد كتب سنة ١٨٦٧ فى هذا الشأن يقول : « يجب علينا أن ندرس الكتب العلمية الغربية ، وان كان مؤلفوها ليسوا بمسلمين ، وكان فيهـا ما يخالف القرآن الكريم ، وأن نأخذ اخذة العرب فى أوائل عهد ملكهم ، فانهم لما شرعوا ينشئون حضارتهم الكبرى لم يترددوا ألبتة فى دراسة كتب فيثاغورس وكتب غيره من فلاسفة اليونان » .

ثم أخذت دعوة الاصلاح الحرّ تنمو نمواً سريعاً فى الهنـد وتزداد قوةً ورسوخاً ، وقام فيها من القادة المشهورين عدد كبير أعزوا شأنها اعزازاً كبيرا مثل مولوى شيراغ على والسيد أمير على العبقريين اللذين اشتهرا فى العالم كله بما أخرجاه للنـاس من الكتب القيمة الباحثة فى شئون الاسلام وروحه ، وقد كتبا هذه الكتب (١) باللغة الانكليزية الفصحى فذاعت ذيوعاً قلّ أن يعرف له مثيل ، وهـذان البطلان وغيرهما أمثالهما فى الهند لقبوا نفوسهم « بالمعتزلة الجديدة » ، وشرعوا يجاهدون جهاد المصلحين العظماء فى سبيل الاصلاح ذائدين عن حياضه ومؤيديه بكل حجة دامغة وبرهان قاطع ، ومنادين بوجوب استقصاء الشريعة الاسلامية واستدرار خيرها واستثمار الأوفق منها لمقتضيات العصر ، لأن لا سبيل لتجدد الاسلام التجدد الصحيح الباقى غير هـذا السبيل ، وقد كتب أحد هؤلاء القادة العظام وهو السيد « خدا بخش » فى بعض كتبه يقول : «ما كان النبي ﷺ يبغض شيئاً بغضه للشرائع والقوانين الجامدة التى تقيد العقل فتقوده صاغراً أعمى . ليس القرآن الكريم الا كتاب هدى للمؤمنين . وليس عثرة فى سبيل ترقى المجتمع والآداب والشرائع والقوانين والمدارك العقلية ». ثم جاء على كلام نعى فيه حالة الاسلام منه : «لعمرى ان هذا الاسلام اليوم ليس هو الاسلام الذى أتى به صاحب الرسالة ، بل ان الاسلام الذى جاء به النبى لبرئ من هذه السلاسل المؤلفة من حلقات الوظائف والمناصب الدينية (٢) ، وعار عن

(١) لعل خير ما كتب السيد أمير على كتابه « روح الاسلام » (لندن ١٨٩١)
The spirit of Islam » (London 1891)

(٢) كنت مرة في المدينة المنورة فشاهدت فيهـا شيخ الحرم النبوى (وكان يومئذ زيور بك مدير المذاهب فى الاستانة سابقاً) وبعض خدمة الحرم فى ساعة مخصوصة بعد العصر ، يدخلون الحجرة الشريفة

هذا التعصب القاتل والجهـل الشديد ، والأوهام والأباطيل الـكفرية » . ثم أنهى كلامه قائلاً : « هل الاسلام عدو للترقى والتقدم ترى ؟ انى لأعوذ بالله من قائل نعم ، فمتى وضع الاسلام فى البوتقة وأخرج منـه ما علق به من جميع هـذه الأباطيل الخداعة ، كان ذلك الدين الساذج الحلو المساغ . فالاسلام على أصله ووصفه انما هو ركنان لا ثالث لهما : توحيد الله تعالى ، والايمان بأن محمداً هو رسول الله ، وما عدا ذلك فليس من الاسلام »

وفى ذلك العهد كانت دعوة الاصلاح الحر قد طفقت تنتشر فى كل قطر من الأقطار الاسلامية ، فهبّ المصلحون الأحرار فى كل بلاد يبشرون بالدعوة ويجاهدون فى سبيلها بجد قوى وعزم أكيد . فقد ظهر الأحرار فى تركية وكانوا القابضين على أزمة الدولة خلال غالب المدة بين حرب القريم والعهد الحميدى (١) ، ومدبرى شؤون المملـكة وساسة أمورها . وقام فى أحرار الترك عظماء مثل الوزيرين رشيد باشا (٢) ومدحت باشا ، المجاهـدين الـكبيرين فى سبيل تحرير الدولة العثمانية من ربقة ذلها ، وقائديها نحو التجدد والترقى . وظل الدعاة الأحرار فى تركية يغالبون الأهوال مغالبة ويعانون من الاستبداد الحميدى مالم يعان مثله غيرهم ، فقتلوا تقتيلاً ، وأهبطوا جوف الأرض وقاع البوسفور ، ونفوا وعذبوا حتى كانت

لايقاد الشموع والقيام ببعض الخدمات المرسومة ، وقبـل دخولهم يلبسون جميعهم وشاحاً أبيض شفافاً ، وكأنهم يريدون بذلك زيادة التعظيم والتوقير ، فذكرنى ذلك بالأوشحة التى هى من النوع نفسه يلبسها بعض رجال الأديان الأخرى التى فيهـا ما ليس فى الاسلام من الرتب الدينية والدرجات الـكنسية ، وذلك عند ما يدخلون الى معابدهم ، وهم لا يلامون على ذلك لأن لخدمة الدين طبقة مخصوصة عندهم بخلاف الاسلام ، وصادف أن كان هناك السيد أبو بكر خان من عظماء الهند أحد أعضاء مجلس الهند الأعلى وهو ليس ممن يحسن التركية ولا العربية ولايعرف من الألسن الاسلامية الا الفارسى، وجميع تحصيله كان فى انـكلترة ، ولـكنه كان يفهم روح الاسلام جيداً . فجاء وكاشفني بمـا وقع في نفسه من انكار هذه العادة . ولكن : «لتتبعن سنن من قبلـكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» حديث شريف.(ش)

(١) ١٨٥٦ الى ١٨٧٨

(٢) مصطفى رشيد باشا أعظم رجال الدولة العثمانية فى القرن المـاضى ، تولى الصدارة فى زمان السلطان محمود الى زمان السلطان عبد المجيد ، ونبغ له تلامذة فى السياسة لم تعرف الدولة أمثالهم منهم أمين عالى باشا المشهور ، وندّه فؤاد باشا الذى ليس بأقل شهرة منه ، ومنهم مدحت باشا أبو القانون الاساسى أو الحـكم الشوروى الذى يقال له عند الاتراك « مشروطيت » (ش)

ثورة سنة ١٩٠٨ فـذهبت عاصفتها بصرح الاستبداد وقوضت أركانه تقويضاً ، فبرزت « تركية الفتاة » الى الوجود . وفى مصر كان لواء الاصلاح خفاقا يحمله أبطال عظماء مثل الشيخ محمـد عبده ، مصلح جامعة الأزهر ، وصديق اللورد كروم الحيم . وفى سائر بلاد المسلمين كبلاد التتر الروسية ، كانت دعوة الاصلاح تنتشر فيها انتشاراً سريعاً ، فكثر عديد الأحرار وروّاد الاصلاح ودعاة التجدد (١)

على أن هؤلاء المصلحين الأحرار الذين أتينا على ذكرهم انما هم على مذهب الاعتقاد بوجوب تنشئة الاصلاح فى المسلمين تنشئةً متدرجةً مماشيةً لمقتضى العصر ، و بأن الاسلام لقابلٌ أحسن قبول لكل تحولٍ وتطور ، ومستعد بطبائعه لا يلاف تبدلات العصور والأدوار ، والتكيف على حسب ترقى الحضارات . فهم من هـذا النحو محافظون كل المحافظين ، مستمسكون جهدهم واستطاعتهم بالاسـلام الصحيح ، وهو عندهم من المجتمع روحه وغذاؤه ومن العمران مادته الحيوية ومنهله العذب

وهناك فريق آخر من المسلمين الذين بلغت منهم مؤثرات الحضارة الغربية مبلغا عظيماً ، ووغل فيهم تيارها موغلاً كبيراً ، فأقبلوا على كل شئ غربى أغثا كان أم سميناً ، وولوا ظهورهم جميع ماضيهم بحيث صاروا لا يحفلون بمفخرة من مفاخر تاريخهم ولا يبالون بذكرى من ذكريات سالف أيامهم ، ففى كل من البلاد الاسلامية المترقية ، ولا سيما فى البلاد التى ما زالت منذ عهد طويل فى حكم الغرب كالهند ومصر والجزائر ، عدد من أبناء المسلمين الذين طلبوا العلوم فى الغرب ونشأوا نشأة الغربيين أخلاقاً وتهـذيبا ، فباتوا لا يكترثون لشأن من شؤون الدين الذى ولدوا فيه ، ولا يهابون المصارحة بالتعطيل والالحاد ، فتلاشت فى نفوسهم حرارة الاسلام وذهبت منهم عصبية الايمان ، وقد وصف اسماعيل حامد الجزائرى حال مثل هؤلاء من أبناء قومه بقوله : « كان للالحاد الغربى مبلغ كبير من التأثير فى جمهور ليس بالقليل من مسلمى الجزائر الذين وان كانوا ما برحوا مسلمين فى الظاهر ، فهم يجهلون حـد ما وصلت اليـه روحهم الدينية من التلاشى . ان هؤلاء لا ينكرون الاسـلام دينهم

(١) للاطلاع على حركة الاحرار في بلاد التتر الروسية اقرأ كتاب أرمنيوس فمبارى « التهذيب الغربى فى الاقطـار الشرقيـة » Arminius Vambery. « Western Culture in Eastern Lands » (London 1950)

ومعتقدهم ، غير أنهم قد أضحوا من فتور الغيرة الدينية فى نفوسهم بحيث غدوا لا يبالون ألبتة بنشره فى الناس وبالدعوة اليه فى غير المسلمين . فالاسلام عندهم انما مقصور على من يأتى من بعدهم من الأولاد والاحفاد فحسب ، وليس يتناول أحداً سواهم من الخلق أجعين فالحق أن الاسلام لبراء مما هم فاعلون ، وليس ذلك هو الحرية الفكرية على ما يزعمون ، بل انما هو الفتور فالتلاشى (١) »

وانه لمن الغرابة بمكان أن نرى فريقاً آخر من المسلمين يختلفون عن الفريق الذى تقدم ذكره اختلافاً بعيداً وفى ذلك من التناقض والتباين ما يقضى بالعجب الشديد ، فان أتباع هـذا الفريق الآخر هم من الناشئة الاسـلامية ، متشبعون آراء الغلو الغربى كالالحاد والاشتراكية والبلفشية وغيرها . وغلوهم هـذا لا يقل عن مبلغ ما هم عليـه من التعصب الدينى الكثير ، وهم يسعون جهـدهم لعقد عروة اتحاد بينهم و بين فريق الرجعيين ، حتى اذا ما عقدت هذه العروة ، وكانت محكمة موثقة ، وتألفت منها تلك القوة الكبرى ، كانت نتيجتها الهاب صدور المسلمين كرهاً ومقتاً للغرب . ولما كان هؤلاء الغلاة يعدون نفوسهم فى كل بلادهم فيها ، انهم انما قادة سواد الأمة بحق ،لذلك تراهم أبداً نهماً أشد النهم فى الظهور الى عالم السياسة والقيام على شؤونها كيما يتسنى لهم بلوغ الغرض من دك سيطرة الغرب المنتشرة فى الشرق الاسلامى دكاً . فهم والحالة هذه من غلاة الوطنيين لا يألون فى السعى وراء تحقيق غايتهم ، ولا سيما بأشد الوسائل الرجعية فى سبيل الجامعة الاسلامية ،وقد رأينا غير مرة كيف يجدّ هـذا الفريق الملحد فى استثارة الروح الاسلامية وهياج النعرة القومية ، فقـد كتب السيد بخش يصف رجلاً من هذا الفريق بقوله : « انى أعرف سيداً مسلماً ،يعرف من أين تؤكل الكتف ، موفق الحال كبير النجح ، انما فى يديه أداة يستعين بها على عمله ، ولولاها لما حاز شيئاً مما هو حائز عليـه من هـذا التوفيق والنجح ، وما تلك الاداة الا الدين. فهو يبالغ فى الظهور فى بنى قومه مظهر المسلم المتمسك بشعائر الاسـلام المتشدد فيها ، وكثيراً ما يقوم فى الجموع خطيباً مرشداً حاضاً مستثيراً ، غير أنه على ما أعتقد فى نفسى ليشتمل فى

---

(١) كتاب اسماعيل حامد « المسلمون الفرنسيون فى شمالى افريقية »
Les Musulmans Français du Nord de L'afrique" Paris 1906

نفسه على آراء فى الاسلام وصاحب الرسالة مما ينبو عن سماع مثله سمع (ڤولتير) ولم ينطق بمثله لسان (غبن) »

واننا سنسهب الكلام فى فصلى « الجامعة المصرية » و « العصبية الجنسية » من هذا الكتاب على بيان أعمال هذا الفريق ، بيدأن ما يجب الاشارة اليه فى هذا الموضع اشارة مخصوصة ، انما هو التباين فى المنهج والوسائل لتحقيق الاصلاح العام فى العالم الاسلامى ، بين هذا الفريق ، و بين المصلحين المخلصين الصادقين الذين أتينا على ذكرهم من قبل ، ناهيك به من تباين ضار يفسد الاصلاح . فغلاة الوطنيين ، والضرر الذى ينتاب الاصلاح انما ناشئ من جانبهم ، دأبهم استثارة الروح الدينية فى قلوب سواد الأمة ، وحمل هذا السواد على مقت كل شئ غربى يرونه فى بلادهم ، وعداء الغرب فى كل أمر سوى ما يؤول الى ترقية القوى العسكرية الاسلامية ، وفى هذه القطعة المقتطفة من مقال لأحد عظماء رجال «تركية الفتاة» (١) يخاطب اوروبة ، مثال بيّن على هذا : —

« أجل ، الدين الاسلامى لم يبرح ولن يبرح على عداء حضارتكم وتقدمكم . فاعلموا يا جهابذة الغرب أن النصرانى ، سواء أرفيعاً كان أم وضيعاً دنيئاً ،فانه بمجرد كونه نصرانياً، ليس له عندنا منزلة ولو حقرت مهما حقرت من منازل الانسانية . وهذه مقالتنا لكم سهلة واضحة : ان من ضل سبيله فانكر وحدانية الله الواحد الأحد ،واتخذ له من دون الله أرباباً، فقد ضرب بالبله والخبال ، فان رمنا صلته كان ذلك منا احتقاراً لديننا وانكاراً لبارئ الكائنات : وعلى ذلك فالمتخذ الهاً غير الله والجاحد الوحدانية ، لمستحق للعنة الأبدية . وليس ذلك جميع الأمر بل ان أقدس عمل يقوم به المؤمن هو قتاله لهذا المنكر الجاحد ، حتى يحمله على الدخول فى الاسلام ، أو يستأصل شأفته من على وجه الأرض . هذا ما يأمرنا به الهنا الواحد الذى لا اله الا هو . نحن لا نعرف فى هذا العالم سوى المؤمنين أو الكفار ،أما نحن المؤمنين ، فتصل صلات المحبة والاحسان والاخوة بعضنا ببعض ، وأما أنتم الكفار ، فاننا لكم ماقتون ومبغضون ومقاتلون . وشركم انما الذى يقول بوجود الله من حيث يعتقد بولادته من البشر ، فما أشد هذا الضلال ، وما أبعد شقة الخلف بيننا و بينكم ! ان وجود مثل هؤلاء الكفار منكم بين ظهرانينا لآفة فى كياننا ولا غرابة فمعتقدكم انما هو

(١) كتبه الشيخ عبد الحق فى جريدة شريف باشا « مشروطية » آب سنة ١٩٢١ .

غض من دين التوحيد ، ومعاشرتكم ليست مما نتطهر به ومعاملتكم عذاب لنفوسنا .

«وعلى هذا كله ، فاننا ننبذكم نبذاً من حيث ندرس أنظمتكم السياسية والعسكرية ، فكأنكم والحالة هذه تدفعون الينا أسلحتكم لنقاتلكم بها فنشتد قوة بازائكم ونعظم شوكة ، فوق ما تجود به علينا العناية الأزلية من العون عليكم فى عصر أشعلتم فيه نار غيرتنا الدينية وهجتم فينا ذكرى شهدائنا وأبطالنا المسلمين الذين استشهدوا فى سبيل الدين فنحن جميعاً على اختلاف مذاهبنا ومناهجنا متحدون على مقتكم وكرهكم ؟ و بعد هذا كله أيقودكم الوهم الى الظن أننا صائرون نحو حضارتكم يا أبناء الفرنجة ؟ نعوذ بالله من ذلك ومنكم ! »

ولا شك فى أن مثل هذا المقال يلاقى فى جمهور المسلمين وسوادهم آذاناً صاغية وقلوباً واعية (١) . وفى هذا الموضع ينبغى ألاّ يذهب عن البال أن المصلحين الأحرار ما برحوا الأقلين عدداً ، وان كانت قوتهم متوالية الازدياد والاشتداد ، اذ يفوقهم السواد الجاهل من الأمة ، السواد المجتازون اليوم دوراً من أشد أدوار التمخض والانتقال والخروج من الظلمة الى النور ، أضف الى هذا أن من أظهر صفات السواد إعجابهم بشأن بلادهم فيرونها خير البلدان وجنة الدنيا بلا مراء ، و يعدون كل بلاد سواها مستحقة المقت والازدراء ، وان اعترف المسلمون الذين على هذا الطراز بسلطان الغرب وتفوقه على الشرق فانما يفعلون ذلك على غل فى القلب واحتدام الحفيظة — لذا تراهم يكرهون كل شئ جديد ، و يشتعلون غيظاً وتألماً من جراء ما يشعرون به و يرونه حولهم من شدة خناق السيطرة الغربية . وعلى الجملة فان هذا السواد الجاهل هم بين أيدى قادة الجامعة الاسلامية وغلاة الوطنية ، يتصرفون بهم كيفما شاءوا تصرف الخزاف فى صنع الطينة بين يديه .

فالاسلام اليوم تتجاذبه قوتان : قوة المصلحين الأحرار ، وقوة الغلاة الرجعيين . أما الاولى فبها مناط الآمال فى الفوز بالاصلاح على ما تقتضيه سنة سير العمران والترقى ، ولها من الزمن أكبر عون ونصير ما دام العالم الاسلامى لا حيدة له عن قبول مؤثرات الحضارة الغربية ، لا بل ما دامت هذه الحضارة ثابتة الأركان بعيدة عن الانهيار والانقراض . وعلى كل حال فالمتوقع أن الذين سيرفعون علم الظفر والغلبة بالتالى انما هم المصلحون الأحرار .

(١) فى هذا المقال غلو عظيم لا يخفى على أحد ، ولكن الغلاة لا تخلو منهم أمة ولا أتباع طريقة (ش)

ولكن من يستطيع الرجم بالغيب والكشف عن مخبآت المستقبل لينبئنا ما لعله ناشئ فى السبيل من عقبات وما يقوم به الرجعيون الغلاة من وضع العثرات ؟ وصفوة القول ، فلا أدوار الاصلاح فى عالم الاسلام اليوم ، ولا العلاقات بين الشرق والغرب بمعزل عن الأخطار الحاملة أجنة البلايا ، تلك الأخطار التى سنأتى على بيان أدلتها فى الفصول التالية من هذا الكتاب.

بقى علينا أن نذكر الحقيقة الكبرى التى يجب ألاّ تغفل ، وهى أن فى كل قطر فى أقطار العالم الاسلامى جهوراً من المصلحين الأحرار يزدادون عدداً و يشتدون قوة و ينضم الى لوائهم رجال من سائر الأحرار الخبراء الراسخين علماً بأسرار نهضات الأمم وتقدمها ، والى جانب هذا الفريق فريق المحافظين ، وجميعهم ، وقد رأوا حالة الاسلام والمسلمين ، انما يعملون عصبا متحدة متماسكة الأطراف فى سبيل الاصلاح العام فى المعمور الاسلامى ، منتهجين المناهج القويمة والسبل السديدة ، شاعرين حقاً بان الفترة لعصيبة وعالمين أن الدور دور انتقال شديد وحاسبين فوق جميع هذا ان جهادهم هذا الجهاد لهو من أشد الأعمال نبالة والمقاصد مفخرة والواجبات شرفاً . أما ما يتوقع من التطور فى الشريعة الاسلامية وقوانينها ازاء هذا الاصلاح ، فليس من شأننا البحث فيه فى هذا المقام . انما التاريخ ينبئنا أنه متى اقتضت سنة النشوء اصلاحاً ، وأعدت أسبابه وعلله ، واجازته دوراً اختمرت فيه عناصره ، كان ذلك الاصلاح واقعاً ولا تبدل لسنة العمران البشرى .

ومما لا مراء فيه أن روح الاصلاح ، على اختلاف مظاهرها وصورها ، قد تغلغلت فى الاسلام ودبت فيه دبيباً هائلاً وفشت فى كل عرق من عروقه فحركته فتحرك ، فأخذ ينفعل انفعالا عظيماً . فعالم الاسلام اليوم هو غيره منذ عشرة عقود . قد استطاعت الوهابية التى ظهرت منذ أكثر من مئتى سنة أن توقظ الاسلام فاستيقظ مذعوراً ، فما كانت تلك العصبية الدينية الا الضرم فى النار أو الغريسة نمت فجاءت بأطيب الثمار ، أضف الى هذا أن روح الحرية والحركة ، والمؤثرات الغربية فى زائد انتشار وانبثاث فى كل رقعة من الرقاع الاسلامية وان كانت المخاوف والمحذورات تقرأ فى جبهة المستقبل ، ففى جبهة المستقبل أيضا تقرأ الآمال الحسان .

المبشر زويمر ومفترياته

للأمير شكيب

اشتهر زويمر هذا بعداوة الاسلام ، وحرر كتبا افترى فيها على الرسول ﷺ وعلى المسلمين ما شاء وأودع فيها من التدليس ومن التزوير ومن قلب الحقائق ومن كل ما ينفر الطباع من الاسلام ما حقه أن يكون سمة عار باقية على الدهر فى جبهة التبشير بكتاب شريف كالانجيل هو أعلى من أن يتوسل المتوسل الى نشره بالكذب والافتراء . ولقد اطلعت له مؤخراً على كتاب عنوانه « الاسلام . ماضيه . حاضره ومستقبله » فيه معلومات كثيرة عن مساعى المبشرين فى أقطار الاسلام كلها قطراً قطراً ، وعن درجة نجاح تلك المساعى وحبوطها ، مما هو حرى بالاطلاع بل بانتباه العلماء والمفكرين من أهل الاسلام لمقاومة دسائس تلك الجمعيات المنبثة فى جميع تلك الأقطار ، تحت أشكال متنوعة ، منها رسالات دينية ، ومنها بعثات جغرافية ، وأكثرها مستشفيات ومصاح وملاجئ للفقراء ، وزويمر هذا من رأيه فى طريقة التبشير عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية — حيث يعلم أن قلعتهم ثمة منيعة — بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم ، واستمالة أهوائهم ، وتمريض أجسامهم ، ومؤاساة فقرائهم ، وبالاختصار استثمار أمراضهم وعللهم وكروبهم وخصاصاتهم ، ولا ينكر أن هذا الرأى هو رأى مجرب خبير ساح فى جزيرة العرب وفى كثير من بلاد الاسلام وعلم ما يعوز الاسلام من وسائل التعليم والتمريض ، وما عليه المسلمون من اهمال هذه الجهات بالرغم من كثرة الأوقاف التى يأكلها نظارها ، والمعاهد الخيرية التى درس معظمها ، وصارت أثرا بعد عين .

وقد استوفى زويمر تاريخ التبشير وسيره فى البلاد الاسلامية من مشرقها الى مغربها وجد الله على نجاح الرسالات الدينية المسيحية فى كثير من الأصقاع لا سيما فى بلاد الجاوى ، حيث معدل من يتنصرون كل سنة من المسلمين هو ٥٠٠ نسمة ،وقد بلغ مجموع المتنصرين بزعمه فى الجاوى نحو ١٨ ألفاً ، وزعم أن الهند أيضاً شاهدت من نجاح هذه الرسالات شيئاً

كثيراً ، وأن ٢٠٠ مبشر يطوفون اليوم فى شمالى الهند هم من متنصرة الاسلام . ومع كون زويمر هو برتستانتياً قحاً[١] فهو لا يفرق بين أحد من رسله ، وهو يغتبط بمساعى الرسالات الارثوذكسية الروسية بين التتر ، ومجاهيد البعثات الكاثوليكية فى افريقية ، ويدعو النصرانية كلها الى توحيد العمل وشن الغارة على الاسلام من كل جهة ، ويحث على اغتنام فرصة الضعف العظيم الذى حل بالاسلام على أثر الحرب العامة ، وانهيار قوته السياسية ، لأجل جوب أقطاره ، والجوس خلال دياره ، وتأسيس مراكز التبشير فى البلدان الاسلامية التى كان دخول المبشرين اليها ممنوعاً . ويقول ان أول خطوة جرت لأجل توحيد الأعمال واشراك الحركات بعضها مع بعض هى المؤتمر التبشيرى الذى انعقد فى القاهرة سنة ١٩٠٦ واجتمع فيه ٦٢ مبشراً ونحوهم من المدعوين بالنيابة عن تسع وعشرين جمعية من أوربا وأميركا ، غايتها كلها تبشير المسلمين ووضع هذا المؤتمر أوزاره عن نداء عام الى العالم المسيحى بأجمعه لاستجلاب نظر اهتمامه الى هذه المهمة العظمى وهى حمل المسلمين على الانجيل[٢] وعقب هذا المؤتمر مؤتمران آخران أحدهما فى « لوكناو » بالهند والثانى فى « اديمبورغ » بانكلترة .

ويقرع زويمر الحكومات المسيحية على تقصيرها من أجل ملاحظات سياسية فى عضد رسالات التبشير ، ويعقد مناحة عظيمة على ترك انكلترة ولاية « كافرستان » (شرق افغانستان) لعبد الرحمن خان أمير الأفغان حتى بعث اليها أحد قواده غلام حيدر لحمل أهل تلك الولاية على الاسلام فاسلموا قاطبة . ويقول ان أهالى مقاطعة كيلان فى بلوجستان ليسوا مسلمين الا بالاسم فالبدار البدار الى تنصيرهم قبل أن يصيروا مسلمين متعصبين . . . وفى جزيرة بورنيو من البحر المحيط لا يزال جيل اسمهم « الداياكس » على الوثنية ولكن يحيط بهم المسلمون ، فتجب المبادرة الى منع دخول الاسلام بينهم قبل فوات الفرصة لئلا تعظم النغصة .

والطامة الكبرى عند زويمر هى فى أواسط افريقية ، فانه يذوب لهفاً على انتشار الاسلام فى تلك الأرجاء بهذه السرعة الغريبة ، ويتأوه على كونه فى السودان كله لا يوجد

---

(١) أصل نسبته من نورماندية بفرنسا ولما طردوا البرتستانت من فرنسا فى زمان لويس الرابع عشر ارتحل سلفه الى هولانده ثم الى أميركا

(٢) مع أنهم يعتقدون بالانجيل بدون حاجة الى عناء زويمر وأمثاله

أكثر من عشرين مبشراً ، وينقل بعض شواهد من مجلة التبشير العالمى (Missionary Reiew of the World.) بتاريخ ١٩٠٦ ثم بتاريخ ١٩٠٧ معناها أنه فى سنة ١٨٩٨ كان عدد المسلمين قليلا جداً فى اده (Iddah) على النيجر وأنه فى سنة ١٩٠٦ كان يوجد منهم فى كل مكان الى آبو (Abo) وأنه اذا بقيت الحال على ذاك المنوال فلا يرجى أن تبقى قرية وثنية على طول (النيجر) الى سنة ١٩١٠ (فما ظنك الآن ونحن فى سنة ١٩٢٣ ؟) وبالاجمال يقول ان نحو ٥٠ مليوناً فى أواسط افريقية وأطرافها قد أسلموا بالرغم من مساعى المبشرين الذين لم يعرفوا من أين تؤكل الكتف .

ويتكلم عن مجاهيد الجمعيات التبشيرية فى عدن ، والشيخ عثمان منذ سنة ١٨٨٧ ، وفى بغداد والبصرة والبحرين ومسقط منذ سنة ١٨٨٩ . ولكن فيما يظهر لم تحصل الجمعيات فى البلاد العربية هذه على شئ من النجاح الذى صادفته فى الهند والبنجاب و بلاد الجاوى ويقول ان بعثة اسوجية احتلت بخارى وخوقند وكاشغر و ياركاند ولا يوجد بعثة بروتستانية غيرها فى آسية الوسطى ولكن بعثة الروس الارثوذكسية قامت بأعمال جليلة بين مسلمى الروسية .

ويقول ان الجمعيات التبشيرية لا تزال غير قائمة بواجباتها فيما يتعلق بمسلمى بلاد العرب الداخلية ، والقوقاس ، وجنوبى فارس ، وتركستان ، وأفغانستان ، وبلوجستان ، والصين وجزر الفيلبين . ويشكو من الشكوى من كون بلاد الأفغان لا تزال بكراً لم تطمثها قدم مبشر ، وأن الأفغان يمنعون المبشرين من دخول أرضهم ، الا أنه يمنى نفسه بأن حكومة أفغانستان لا بد أن تسمح للمبشرين بالدخول ، ويقول ان الجمعية البرسبيتيرية الأميركية قد هيأت برنامجاً لذلك وستجعل مشهد على (شمالى أفغانستان) مركزاً للحركات(١)

ومما يروى أنه فى مؤتمر « ادنبورغ » قدم أحد الأعضاء الذين جابوا الصين تقريراً يتضمن البرنامج اللازم لمشروع تنصير مسلمى الصين الذين هم منتشرون فى ١٥ ولاية من أصل ١٨ من هذه المملكة العظيمة .

وهو يرجو أن ثمرات التبشير فى السنين المقبلة ستكون أعظم منها فيما مضى ، ولا ينكر أن تنصير السود هو عقبة كأداء نظراً لبغض الزنوج للجنس الأبيض الاوربى على

(١) الذى نعلمه أن أفغانستان مصممة أن لا تدع بعثة دينية أجنبية تدخل أرضها .

اطلاقه ، وتضامنهم فى وجهه ، ولـكنه يوجب على أوربا اجتياز هذه العقبة وعدم المبالاة بالصعوبات التى تلقاها من جانب السود ، وأن تعلم أن هذه الفرصة اذا ضاعت فلا تعود أبداً فينبغى أن تكون هزيمة الاسلام فى الحرب العامة انتصاراً للـكنيسة المسيحية (هكذا بالحرف) وينتقد طريقة بعض الحكومات المسيحية التى - أحياناً بدون روية - تصلح ادارة الاسلام الدينية ، وتنظم أوقاف المسلمين ، مع أن هذه الأوقاف جسيمة دارّة ، يمكن بها عمارة المساجد وتسهيل العبادة وتعزيز قوة الاسلام الدينية ، وقد شوهد كيف زادت سكة حديد الحجاز عدد زوار المدينــة ، وكيف زادت خطوط الترامواى زيارة كربلا ، وصارت شركة كوك تسفر أغنياء المسلمين الى مكة . وأما من جهــة التعليم فاذا اتبعت الحـكومات الأوربية برنامج التعليم التى هى جارية عليــه فى السودان والنيجر[1] . وفى كليــة غوردون فى الخرطوم فان هذه الخطة هى مما تزيد الحواجز بين الاسلام والنصرانيــة . . . ثم يقول أما المدارس العليــا التى تأسست لمـكافأة الصادقين من المسلمين[2] فلعمرى أكثر الأحيان لم تـكن تلك الصداقة حقيقية بل هى مداجاة منهم ، ولا يكون لتلك المـكافآت ثمرة سوى زيادة تمسك المسلمين باسلامهم بل احتقارهم لسادتهم الاوربيين الذين يرونهم قد أصبحوا يتبصبصون لهم[3]

وأخيراً يقول ان الاسلام قد تلاشت قوته ، وانهارت دعائمه ، وسقطت مكانته الأولى ومشت سكة الأجنبى فى حقله ، فلا تناسب زيادة قهره واعناته والظهور بمظهر الشماتة به لئلا يحرك ذلك من عصبية أهله ، ويثير من نخوتهم ، ويؤجج من نيران أحقادهم ، فينهضوا ويثوروا للمقاومة ، بل يلزمنا أن نأخذهم بالوداعة والملاطفة وبذرف الدموع لأجل أن نستل سخائم صدورهم ، ونتمكن من حرث ذلك الحقل الذى صار مباحاً أمامنا . . . على أنه لا يؤخذ من ذلك أنه يجب سلوك مسلك الضعف مع الاسلام والعدول الى التهيب ، اذ لا يعقل أنه اذا دعى الانسان الى بيت لم يبق له أبواب ولا نوافذ أن يضيع وقته فى احتشام أصحاب ذلك البيت ومعاملتهم برقة الأدب والـكياسة . . . انه يتحتم سوق الجملة بحكمة ومهارة

---

(١) يظهر أن الظروف قضت عليها بالترخيص بحصة من التعليم الدينى

(٢) أى الصادقين للحكومات الاوربية

(٣) من رأى زويمر اذاً أن الحـكومات الاوربيــة يجب أن تستخدم دماء من تلى عليهم من المسلمين وأموالهم ومجاهيدهم وتحذر من أن تراعى خواطرهم بشئ يشعرون منه أنها تقيم لهم وزناً .

ولكن يتحتم سوقها بشدة . . . . ويجب أن الكنيسة تعبى جميع قواها من الشرق الى الغرب، ومن الشمال الى الجنوب ، تحت راية مؤسسها وتشن هذه الغارة على الاسلام الى أن تصل الى غايتها الخ .

هذا مما قطفناه من كلام زويمر مع تلطيف كثير من العبارات وحذف كثير منها .

ونحن نجاوب المستر زويمر وأمثاله ممن فيهم من هو مقتنع بعمله مبتغ وجه الله فى جهده ، انه ان كان المقصود دعوة الاسلام الى الانجيل فالمسلمون يؤمنون بالانجيل الشريف وبرسالة المسيح صلوات الله عليه وسلامه وان كانت الدعوة هى الانجيل فى الظاهر والسيطرة الاوربية فى الباطن فهذا حلم من أحلام المبشرين ، اذ لا بد للاسلام أن يستعصى على هذه الدعوة ويقف فى وجهها سداً منيعاً . وان كان مقصد هؤلاء المبشرين هو خلاص النفوس والاشفاق من هويها فى النار الحاطمة ، والعياذ بالله ، فالأولى بهم أن يذهبوا الى الوثنيين الذين هم أكثر من المسلمين عدداً فى الدنيا ، وأحوج الى الارشاد ، بل أن يهدوا الملايين العديدة من أنفس المسيحيين الذين نبذوا الدين ظهرياً ودانوا بالتعطيل والالحاد وأخذوا يحاربون الكنيسة . فعلى الانسان أن يدبر بيته قبل أن يمد يده لتدبير بيت جاره . أما المسلمون فلا حاجة الى تبشيرهم لأنهم يعبدون الاله الحق ولا يشركون به أحداً ، ولأن شريعتهم ملأى بالفضائل والآداب ومكارم الأخلاق واقامة ميزان العدل حتى مع العدو وتحث على العلم والانسانية والحضارة واغاثة الملهوف وحب القريب ، وعند اللزوم تذرف الدموع أيضاً على البائسين .

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

للامير شكيب

أستاذنا فريد عصره ، ووحيد مصره ، حجة الاسلام الشيخ محمد عبده ، أكرم الله مثواه ، تعرف اليه محرر هذه الحواشي في عهد الطلب ، أيام كان هو منفياً في بيروت على أثر الحادثة العرابية وذلك سنة ١٨٨٦ ، ولازمته وأخذت عنه واستفدت منه بقدر ما وسع فتور خاطرى ، واستفضت من بحر حكمته ما أمكن أن يناله قصور عارضى ، ووجدت فيه الضالة التى كنت أنشدها ، والبغية التى كنت أبحث عنها ولا أجدها ، ورأيت فى فهمه العقيدة الاسلامية الشكل الوحيد الذى يرجى أن ينهض بالاسلام بعد أن آل الى هـذه الحال ، وان يقيل عثاره بعد أن ظن ضعفاء العقول أن عثرته لا تقال . وما زلت بعد أن عاد الى وطنه مصر الى أن أدركته الوفاة رحمه الله أجاذبه حبل المكاتبة ، وأقف على رأيه فى أكثر الأمور جزئيها وكليها ، وأستطلع منه طلع الأحوال ، وهو يبث الى مالا يبثه الى غيرى من سوانح فكره ، وذوات صدره و بينما كان بعض حساده يتهمونه بمماشاة الدوله المحتلة ومواثقة اللورد كرومر كان يكتب الى قائلا : « الأحوال هى مما يتعاظم له الألم ، و يعجز عن وصفه القلم » فكنت أعلم أنه ما أراد الا تخفيف الداء ، وتقريب أجل البلاء ، وتمهيد طريق الجلاء وما زال شأنه يعلو ، وحقيقته تظهر ، وجوهره ينجلي بالحك ، وعقيدة فضله تتمحص من الشك ، الى أن اتفق الناس على كونه أحـد أفذاذ الشرق الذين قلما جاد بهم الدهر ، وواسطة عقد المصلحين المجددين فى هذا العصر ، وظهر أن طريقته الاسـلامية العصرية ستزداد مع توالى الأيام انتشاراً ، وتـكون هى طريقة المستقبل ومعوّل الآتى

ولقد كان جامعا بين العلم والعمل ، فلا تجد مايساوى فضله و بلاغته وثقوب أفكاره ، وقوة ملـكته فى الفلسفة ، سوى علو مباديه ، و بعد همته ، وغزارة مروءته ، وطهارة أخلاقه ، وهيهات أن يأتى الزمان بمثله

ومن حسناته الـكبرى ، وأياديه التى ملأ بها طباق العالم الاسلامى براءأخذه بيد الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا فى نشر مجـلة « المنار » التى هى لسان حال ذلك المصلح العظيم وترجمان أفـكاره . فهى والحق يقال أحسن مجـلة ظهرت فى باب الاصلاح الدينى وتطهير الاسلام من شوائب البدع واعادته سيرته الأولى فى عهد السلف . وتأليفه مع المدنية الحاضرة. كما أن الاستاذ السيد رشيداً المشار اليه هوالأولى بأن يخلف الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى مشروعه وفقه الله وسدد خطاه .

الاستاذ الاكبر السيد محمد رشيد رضا

الامير شكيب

ويطول العهد بعد الأستاذ الأكبر السيد رشيد فسح الله فى أجله حتى يقوم فى العالم الاسلامى من يسد مسدّه فى الاحاطة والرجاحة وسعة الفكر وسعة الرواية معاً والجمع بين المعقول والمنقول والفتيا الصحيحة الطالعة كفلق الصبح فى النوازل العصرية والتطبيق بين الشرع والأوضاع المحدثة مما لا شك أن الأستاذ الأكبر فيه نسيج وحده انتهت اليه الرئاسة لا يدانيه فيه مدان مع الرسوخ العظيم فى اللغة والطبع الريّان من العربية والقلم السيّال بالفوائد فى مثل نسق الفرائد والخبرة بطبائع العمران وأحوال المجتمع الانسانى ومناهج المدنية وأساليبها وأنواع الثقافات وضروبها الى المنطق السديد الذى لم يقارع به خصما مهما علا كعبه الا أفحمه وألزمه ولا نازل قرناً كان يستطيل على الأقران الا رماه بسكاته وأجه. وأجدر بمجموعة « المنار » أن تكون المعلمة الاسلامية الكبرى التى لا يستغنى مسلم فى هذا العصر عن اقتنائها كما أن التفسير الذى وفقه الله به لكشف أسرار كتابه العزيز هو من آياته الباهرة التى خلدت اسمه فى هذه الأمة وقرنته بكبار الأئمة وله من المواقف الشريفة فى النضال الدينى عن الاسلام والمراماة عن عقيدته الصافية ومن الكتب الجدلية فى رد شبهات أعدائه من أبناء الملل الأخرى ومن الملحدة والمعطلة ما لا يقدر أحد فى عصرنا هذا أن يدرك فيه شأوه ولا يستطيع جهبذ من جهابذة الاسلام أن يبلغ فيه مُدّه ولا نصيفه. انه الرجل الذى لودعا كل مسلم باطالة حياته حباً بخدمة الاسلام والمسلمين لكان بذلك جديراً. وليس فى كلامنا هذا شئ من الاطراء ولا ثمة ما يدعونا اليه وانما أمرنا بأن لا نبخس الناس أشياءهم وهو أمر الهى صريح كما أننا لسنا ممن يرى المعاصرة حجاباً عن تقدير الفضائل قدرها بل نرى أن المنصف يجب أن يزن أقدار الناس فى الحياة و بعد الممات بميزان واحد وان كان من ضرائب البشرية أن تقسو على الأحياء وأن تحنو على الأموات وأن لا تعطى الانسان حقه غير منقوص الا اذا فات

ولقد حرّر السيد رشيد تاريخ أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله فى مجلدين كبيرين يزيدان على ألفى صفحة وسيعززهما بمجلد ثالث فيكون من الفضول أن نقول انه لاتاريخ للشيخ محمد عبده غير هذا التاريخ وهو الذى فيه ترجمة حاله بتفاصيلها وحياته من المهد الى اللحد مع ذكر منازعه بدقائقها وعقائده بحقائقها ومنشآته بنصوصها وأخبار الحوادث التى خاضها والمسائل التى راضها وقد دخل فى هذا الكتاب تاريخ السيد جمال الدين الافغانى وسير أعلام آخرين وتلخيص الحوادث العربية فى مصر وروايات كثيرة عن الخديوى السابق ووثائق تاريخية لا توجد فى كتاب آخر ومباحث عقلية وشرعية وسياسية وأدبية ولغوية لا يعثر القارئ على مثلهافى غير هذا الكتاب . وللفقير اليه تعالى راقم هذه الأسطر فى الجزء الأول من هذا السفر الجليل فصل عن حياة الأستاذ الامام ايام كان فى بيروت وكنا متصلين به وهو نحومن ١٤ صفحة ولهذا الفصل تتمة وعد الأستاذ الرشيد بنشرها فى الجزء الذى لم يظهر بعد

ولما كان الأستاذ السيد رشيد من كبار المحدثين وله فى هذا الفن من الطول ما ليس خافياً عن أحد فقد امتزج خلق التمحيص بدمه ولحمه وأصبح لا ينشرح صدره الى الخبر الى اذا وثق بأسانيده وآمن بامانة رجاله . وقد يسوق الرواية من جملة طرق الى أن يثلج بها الصدر ويطمئن لها الفكر . وهذه طريقة السلف عندنا لا يروون شيئاً لا من الأحاديث النبوية وأخبار الصحابة فحسب بل لا يروون شيئاً من الأشعار والآداب وسير البشر والحكايات الا عنعنوه مسلسلاً وربما أشاروا الى درجة رجاله فقوّوا وليّنوا كما لا يخفى على من طالع كتبهم وكانت له ألفة بطريقتهم . وهذه الطريقة هى اليوم طريقة الاوربيين أيضاً لا يروون خبراً ولا ينقلون جملة ولا أثراً الا وضعوا فى الحاشية مأخذها والكتاب الذى أخذوها عنه مع ذكر الصفحة ومع ذكر طبعة الكتاب وتعيين المطبعة احياناً وكل ذلك توثيقاً للنقل ونصحاً بالتبليغ وتمهيداً للحكم الصحيح الذى لا يتهيأ للقارئ الا بعد مقدمات صحيحة وبينات رجيحة

ومن نفائس تآليفه السفر الذى أخرجه مؤخراً تحت عنوان « نداء الى الجنس اللطيف » فيه بيان حقوق النساء فى الاسلام وتحقيق مسائل اجتماعية تدور أكثر من كل المسائل فى هذ العصر مثل تعدد الزوجات والتسرى والحجاب والسفور والطلاق وما يتعلق بأزواج النبى ﷺ من الأحكام والحكم وتكريم النساء وبر الوالدين وتربية البنات وغير

ذلك قد جاء الأستاذ فى هذا الكتاب بالآيات البينات على حكمة الشرع الاسلامى وغفلة المعترضين عليه جهلا أو تجاهلاً . ولا يسعنى الا توصية الخلق بمطالعة هذا الكتاب اذ ذاك أحسن ما يمكن وصفه به . ان الجواد عينه فُراره . ولكنى أورد شذرة واحدة من هذا الكتاب من قبيل التمثيل ليقيس القارئ عليه قال فى باب التسرى الصحيح فى الاسلام :

« كل ما كانت عليه الأمم القديمة وكل ما عليه الامم الحاضرة من التسرى واتخاذ الأخدان فهو فى شرع الاسلام من الزنا المحرم قطعاً الذى يستحق فاعله أشد العقاب. وكل من يستبيح هذا الفجور الخفى وما هو شر منه من السفاح الجلى فهو برئ من دين الاسلام

« وأما التسرى الشرعى المباح فى الاسلام فهو خاص بسبايا الحرب الشرعية اذا أمر امام المسلمين الأعظم خليفة الرسول ﷺ باسترقاقهن وانما يكون له أن يأمر بذلك اذا ثبت عنده بمشاورة أهل الحل والعقد أن المصلحة فيه أرجح من المنّ عليهن بالعتق ومن افتداء أسرى المسلمين وسباياهم بهن ان وجد عند الأعداء سبايا وأسرى منا . فليس الاسترقاق واجبا فى الاسلام لكنه يباح اذا كان فيه المصلحة التى لا يعارضها مفسدة راجحة . ولكل حكومة اسلامية أن تمنعه بل منعه من مقاصد الاسلام العامة والاسترقاق المعهود فى هذا العصر للسود والبيض كله باطل فى الاسلام فالتسرى بالنساء اللاتى يختطفهن النخاسون أو يبيعهن الآباء والأقربون أو يغريهن التجار والقوادون كله عصيان لله ولرسوله »

فمن مطالعة هذا المثال تعلم أن ما يفهمه السيد رشيد رضا من أسرار الشرع لا يفهمه غيره . ولو كان أحد الفقهاء الجامدين وسئل عن هذا الأمر لأجاب بلا تأمل : ان الاسترقاق مباح لا بل حرام منعه وان سبى نساء الكفار جائز بلا نزاع وحرام منعه وهكذا جاء الاسلام والأمور الشرعية لا تعلل بل يجب أن نقبلها على علاتها . فان قلت له : ان هذه الطرق غير مألوفة فى هذا العصر وان الاستمرار عليها مضر بالامة الاسلامية ومما يجر لها المقت والعداوة قال لك قولاً واحداً : هذا هو ديننا ولا نعلم غير هذا . ولم يفكر فيما وراء هذه الأحكام بهذا العصر من الضرر بالاسلام والخطر عليه

أما الاستاذ السيد فانه يصرح لك بما يحفظ من النص ويفهم من روح الشرع بأن الاسترقاق مباح الا اذا عارض ذلك مفسدة راجحة وان لكل حكومة اسلامية أن تمنعه لأن منعه هو من مقاصد الاسلام العامة . ثم يفتيك بأن السبى فى الاسلام لا يجوز الا باذن السلطان وهذا الاذن من السلطان لا يصح له بمجرد رأيه بل يجب أن يؤخذ فيه رأى عقلاء الأمة الخ

الفصل الثانى

في

الجامعة الاسلاميــة

اليقظة الاسلامية شأن كل انقلاب عظيم ، نشأت نشوءاً ملتبسا فاشتبه بعض متجهاتها ببعض اشتباهاً كبيراً. ولا عجب فذلك انما هو من طبيعة كل دور من أدوار اليقظة والتنبه وأطوار الانتقال والتحول . فقد بدأت اليقظة الاسلامية بالدعوة الوهابية الدينية الاصلاحية ، ثم أخذت تجتاز أدواراً عديدة متشعبة المناحى وأحيــاناً متناقضة الصفات . وقد سبق لنا فبسطنا الـكلام فى الفصل السابق من هــذا الـكتاب على متجه الاسلام اليوم ومسيره ومنتحاه فى سبيل الاصلاح المترقى على حسب ما تقتضيه طبيعة النشوء ، وأوضحنا أن روح الاصلاح ما فتئت تدب فى كل عرق من عروق العالم الاسلامى دبيباً طبيعيا هائلا ، فتدفعه الى الأمام دفعاً متواصلا ، ولم نغفل مبلغ ما للحضارة الغربية من التأثير فى ذلك . وقلنا فوق جميع هذا ان المصلحين الأحرار الذين تناط بهم الآمال فى احراز الفوز والغلبة ، مابرحوا الاقلين عدداً ، بينما سواد المسلمين ما انفكوا ينتفضون ممزقين حجب الجهل ، و يستيقظون من هجعتهم استيقاظ المذعور ، يقودهم قادة يختلفون كل الاختلاف عن المصلحين الاحرار قادة هم أميل الى ركوب خطط العنف والمشاكسة ، منهم الى انتهاج مناهج الرفق والموادعة يؤثرون مجافاة الغرب والاعراض عن الأخــذ عنه ، الى مقاومته وايغار الصــدور عليه . بيد أن هــذا التيار الذى يثيره و يوقد ناره هؤلاء القادة وأمثالهم ، وشأنه شأن كل تيار مرافق لحال الانقلاب مصاحب لدور الانتقال ، لم يستقر على قرار ، ولا عرف لأفقه حد ، ولا وضح مجراه ولا بان متجهه بياناً تاماً بعد ، وهو على اختلاف صفاته ومنقلباته لا يخرج عن وقوعه فى مضطرب « الجامعة الاسلامية » و « العصبية الجنسية » وهانحن باسطون الـكلام على :

﴿ الجامعة الاسلامية ﴾

الجامعة الاسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام انما هى الشعور بالوحدة العامة

والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين فى المعمور الاسلامى . وهى قديمة بأصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة ، أى منذ شرع الرسول يجاهد فالتف من حوله المهاجرون والأنصار معتصبين معه بعاصبة الاسلام لقتال المشركين . وقد أدرك محمد ﷺ خطورة الجامعة وعلو منزلتها فى المسلمين حق الادراك ، وعلم كل العلم ما لها من عظم الشأن وجلل المقام فى قلوب المؤمنين ، فغرس غريستها بيديه فى نفوسهم ، فنمت وتغلغلت ، وامتدت جذورها و بسقت أغصانها وفروعها و ينعت ثمارها . فقد كر عليها أكثر من ثلاثة عشر قرنا فما أوهن كرور هذه القرون من الجامعة الاسلامية جانباً ولا ضعضع لها كيانا ، بل كلما تقادم عليها العهد وتناسخ الملوان ازدادت الجامعة شدة وقوة ومناعة واعتزازاً . حقاً ان الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصرانى والنصرانى . ولا ينكر أن المسلمين يتقاتلون بعضهم مع بعض قتالا شديداً ، بيد أن هذا الجدال ليس له من الشأن أكثر مما لأحقر نزاع ينشأ بين أفراد الاسرة الواحدة ، المشتبكة الارحام ، اذ لا حقد فى الاسلام فعند الشدائد تذهب الاحقاد من بين المسلمين ، فيصطلحون على الأمر الذى فيه يختلفون و يتألبون جموعا متراصة متماسكة لقتال العدو المهاجم ورد الخطر الداهم . ومن أحب أن يقف حق الوقوف على ما أراده الاسلام من غرض الجامعة وغايتها فلينظر الى حال المسلمين اليوم والى تيار هذا التعاطف والتشا كى يعلم سر الجامعة ومكانتها فى نفوس المسلمين . وفى الواقع ليس من دين فى الدنيا جامع لأبنائه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العامة والاستمساك بعروتها كدين الاسلام . ان المسلمين قد افتتحوا بلادا عديدة ورقاعاً كبيرة فى الأرض منتزعيها من النصرانية والبرهمية[1] واستأصلوا شأفة المجوسية وعلى امتداد هذه الفتوحات واتساع آفاقها ، فلم يسمع قط أن شعباً قليلا كان أو كثيراً انتحل الاسلام ديناً ثم ارتد عنه . قد حدث أن أجلى المسلمون عن بعض البلاد التى كانوا قد فتحوها وشيدوا فيها ملكا ودولة كالأندلس غير أن اجلاءهم عن مثل هذه البلاد ليس بالسائغ اعتباره جعل بعض المسلمين يرتدون عن الاسلام

(١) لم تستقر الفتوحات الاسلامية بعد أن رسخت فى الهند استقراراً لزمت حدوده . بل جاوزت الهند الى جزيرتى جاوى وصومطرة العظيمتين . فعطل الاسلام دين البرهمية فيهما وجعل أهل الجزيرتين قاطبة مسلمين

ان الوحدة الاسلامية انما هى قائمة على ركنين هما أساساها ولا ثالث لهما : الحج الى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة ، والخلافة . وقد غلب على رأى الكثيرين من رجال الغرب وهمٌ فى هذا الموضوع ، فهم ما برحوا يخالون الخلافة ، لا الحج ، العامل الأكبر والأشد الذى بسببه يتشارك المسلمون ميولا وعواطف تشاركاً مؤدياً الى اعتزاز الوحدة وازدياد منعتها وامتدادها وانتشارها . على أن هذا لمن الوهم الصرف فالأمر حقاً على الضد منه . ان محمداً ﷺ قد فرض الحج على من استطاعه فرضا مقدساً ولذلك ما زالت مكة المكرمة حتى اليوم مجتمعاً يجتمع فيه كل عام أكثر من مائة ألف حاج وافدين من كل رقعة من رقاع العالم الاسلامى ، وهناك أمام الكعبة المقدسة فى مكة المكرمة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنة والأجناس، و يتبادلون العواطف الدينية ، و يتباحثون فى الشؤون الأسلامية ثم ينقلبون الى أوطانهم نائلين لقب « الحاج » ، لقباً يعرف صاحبه بالتقوى فيجله اخوانه المسلمون و يعلون منزلته بينهم ما دام حياً .

فالمقاصد والأغراض السياسية التى ينالها المسلمون على يد الحج الممهد لها السبيل انما هى معلومة لا تحتاج الى كبير ايضاح . بل يكفى أن نقول ان الحج انما هو المؤتمر الاسلامى السنوىّ العام ، فيه تتباحث الوفود الاسلامية والنواب المسلمون الطارئون من أقطار المعمور الاسلامى كافة فى مصالح الاسلام ، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الاسلام والذب عن حياض المسلمين ، ونشر الدعوة فى سبيل الرسالة . وفى هذا المؤتمر العظيم ، كانت قلوب قادة اليقظة الاسلامية وأبطالها ، كعبد الوهاب ، ومحمد بن السنوسى ، وجمال الدين الأفغانى ، تشعر بجلالة الواجب الاسلامى المقدس ، وتتقد من خطورة المشهد وروع المحفل غيرة على الاسلام والمسلمين

أما الخلافة فقد كان لها حقاً شأن تاريخىّ عظيم ، ولا سيما فى أوائل عهدها . وقد بسطنا الكلام فى موضع سابق على ما كان ينتابها من الخطوب وما أفضت اليه فى النهاية ، اذ أطفئ سراجها الوهاج فانقلبت الى صورة وهمية بعد أن نزل هول المغول ببغداد ، ثم ما برحت هكذا حتى جاء السلاطين الترك فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة ، فاعترف عالم السنة الاسلامى لهم بهذه الخلافة [1] الاسمية . بيد أن سلاطين الترك فى القسطنطينية ، وما كانوا

(١) لم يعترف الشيعة فى فارس بخليفة من خلفاء السنة . واعتاد أهل البلاد المغربية فى شمالى أفريقية أن يعترفوا لسلاطينهم الاشراف بالسيادة الروحانية .

ليحرزوا من المكانة الدينية فى العالم الاسلامى مثل ما أحرزه من قبلهم الخلفاء الراشدون وأكابر خلفاء بنى العباس فى بغداد .

أضف الى هذا أن العرب ما انفكوا ينظرون الى الخلفاء الترك شزراً ويعدونهم المغتصبين للخلافة اغتصابا[١] وقد جهد السلطان عبدالحميد جهداً كبيراً لاحياء عظمة الخلافة الدينية واسترداد ما كان لها من الجلالة والهيبة والخطورة فى العالم الاسلامى ، فنال ما ناله ليس بسبب من أسباب الخلافة من حيث الاعتبار الدينى ، بل بسبب الشعور العام الذى ظهر واشتعل فى صدور المسلمين لانشاء الجامعة الاسلامية الكبرى . لهذا كان عظماء قادة الجامعة الاسلامية الحديثة على قسمين : فنهم من اعترف بالسلطان عبد الحميد خليفة على المسلمين، ومنهم من ناصبه العداء كالسنوسى[٢]. هذه حقيقة غابت عن عقول كثير من ساسة أوربة حتى وجلوا من عبدالحميد فحسبوه فى الاسلام كالبابا فى النصرانية. وما زلنا نرى حتى اليوم

---

(١) ان الخلافة لم تستتم شروطها الصحيحة الا فى الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن الا ملكاً عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الأمة الى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، الا خشية الفتنة فى الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج (ش)

(٢) كون السنوسى ناصب السلطان العداوة هو خبر من الأخبار تهافت على تصديقه كثير من الأوربيين من جملتهم مؤلف هذا الكتاب . والحقيقة أن سيدى محمد بن على السنوسى وولده المهدي وجميع السادة السنوسية ، كانوا موالين للسلطان ومؤيدين للدولة العثمانية باعتبار أنها ملجأ للاسلام ، وبأن السلطان هو أكبر ملوك المسلمين . ولأبى النصر مقرب شاعر الحضرة السنوسية قصيدة يمدح بها سيدى المهدي من جملة أبياتها :

ولا بد أن تأتى جيوش ببرقة فتغشى غواشيها العيون الغواشيا
قبائل من سام وحام تجمعت وما جمعت الا الأسود الضواريا
زوية أهل المجد من يأت حيهم ير العز فى نادى زوية باديا

زوية هى القبيلة التى تقطن واحة الكفرة وهي بمثابة الحرس الخاص للسادة السنوسية ، ثم يقول :

وكم بدوى فى الفلا خلف نوقه يبول على الأعقاب أشعث حافيا
تلافاه فى وادى الضلالة هاوياً فأصبح نجماً فى الهداية عاليا

ثم يقول :

ولو لا انتظار الاذن من سيد الورى وسلطاننا الغازي لأصبح غازيا

أى لا يمنعه من أن يغزو ضعف فى المنة ولا فتور فى العزيمة وانما هو انتظار الاذن من السلطان الأعظم

أكثر ساسة الغرب يهيمون فى ذلك فيخالون الجامعة الاسلامية انما كان مستقرها ومنبعثها الخلافة ، و نرى أيضاً غالب حملة الأقلام يفيضون فى الكلام فما اذا استبقيت الخلافة فى السلطان التركى على ظلعه ، أو نقلت الى شريف مكة ، أو قضى عليها القضاء الأخير ، وأى هذه الوسائل تكون خيراً لهيض جناحى الجامعة الاسلامية ، ان هذا وأيم الحق لغاية ما يرتكب من الخطل . لا ينكر أن الخلافة ما برحت رفيعة المكانة فى عيون المسلمين بلا ريب ، غير أن قادة الجامعة الاسلامية الحديثة ، ذوى العقول الثاقبة والذكاء المتوقد ، مافتئوا منذ عهد بعيد يجدّون فى سبيل الجامعة الاسلامية فى نطاق أوسع وأفق أبعد ، وقد أيقنوا كل الايقان أن القوة الكبرى التى تستمدها الجامعة الاسلامية اليوم ليست من مركز الخلافة ، ولكن من بيت الله الحرام ، حيث الحجيج اذ يأتمرون كل عام مؤتمراً عظيما ، ومن انشاء الطرق الدينية المؤدية الى الجامعة الاسلامية كالطريقة التى أنشأها السنوسىّ ، ونحن شارعون فى الكلام عليها [١] فى موضع قريب .

من شأننا الآن أن نتتبع الأدوار المختلفة التى اجتازتها « الجامعة الاسلامية » الحديثة مبتدئين فى الكلام على الدور الأول الذى ظهرت فيه للعالم ظهوراً بيناً ، وهو دور الدعوة الوهابية . أنشأ عبد الوهاب حكومته على أساس الشورى كتلك الشورى التى اشتهرت فى عهد الخلفاء الراشدين . ولما تم لسعود خليفة عبد الوهاب الاستيلاء على الأماكن المقدسة فى الحجاز ، خال استيلاءه هذا الخطوة الأولى فى سبيل فتح العالم الاسلامى قاطبة ، فتحاً اصلاحياً دينيا تتلوه الوحدة السياسية العامة بين جميع الممالك الاسلامية . لكن لما سقطت الوهابية دون مبتغاها العظيم ، أخذ الاضطراب السياسى على أثر ذلك يشتد فى العالم الاسلامى اشتداداً واسع المضطرب . وقد سبق لنا فتكلمنا على ما حدث فى شمالى الهند وأفغانستان ،

(١) اقرأ السر و . مو ير — « كتابه نشوء الخلافة وتداعيها وسقوطها » ايدنبرغ ١٩١٥

Sir W. Muir, " The Califate " Its Rise, Decline and Fall."

وهو خير ما كتب فى شأن الخلافة

والسر مارك سا يكس — كتابه : « تراث الخليفة » لندن ١٩١٥

Sir Mark Sykes, "The Cailph's Last Heritage" (London 1915)

و « وفد الخلافة الهندي » وهو رسالة نشرت ملحقاً لمجلة « الشؤون الاجنبية »

"The Indian Khilafat Deligation", "Foreign affairs" Special supplement

مما كان فى الواقع منبعثا عن الروح الوهابية ، و يعد باعتبار الحقيقة والغاية نعياً على الممالك الاسلامية انحطاطها السياسى ، وعلى الحكام والأمراء المسلمين فقدانهم الهيبة والسلطان . فلهذا لم يكن الوجل من الغرب أو العداء له الباعث كل الباعث على انتشار الاضطراب الاسلامى فى أول عهده ، لأن أوربة لم تكن حتى ذلك العهد قد حاولت فتحاً كبيراً فى العالم الاسلامى ، سوى استخلاصها بعض الأصقاع من تركية الأوربية وجزائر الهند ، وأما هول الفتوح العظمى فلم يكن قد ظهر بعد ، غير أن أشباحه كانت تقترب شيئاً فشيئاً . وما كاد ينتصف القرن التاسع عشر حتى تبدلت الحال تبدلاً تاماً ، ففتح الفرنسيس الجزائر واستولت روسية على عبر القوقاس ، و بسطت انكلترا نفوذها على الهند من أقصاها الى أقصاها ، جميع هذا مما جعل قادة المسلمين الحكماء فى كل صقع يوقنون كل الايقان أن الاسلام انما يحيق به خطر عظيم ، و بلاء شامل ، من جراء انتشار سيطرة الغرب عليه ، وفى هذه الغضون أخذت الجامعة الاسلامية تسير فى تيار غايته مقاومة الغرب وصده وعداؤه ، وهى ما برحت تسير هذا المسير حتى اليوم . وقد كانت المقاومة فى بادئ الأمر فى موضع موضع ، وغير منظمة تنظيماً مرتبط الوسائل كل الارتباط ، فهب أبطال من المسلمين مثل عبد القادر فى الجزائر وشامل فى القوقاس وغيرهما ، يقاتلون الفاتحين الغربيين قتالا شديداً فكان ذلك القتال على استمراره أشبه ببضع يزيد العالم الاسلامى جروحاً فيزداد تألما وصراخا ، بيد أن قتالاً مثل هذا ما كانت الغلبة فيه لابطال المسلمين ، وذلك لوهن قواهم بعد جهاد كبير طويل العهد ، ولعدم تناولهم مدداً ونصراً يستعينون بهما على المضى فى القتال

وما انفكت روح العداء للغرب تهيج وتشتد ، حتى بات العالم الاسلامى قاطبة يغلى غليان المرجل على النار ، فشبت فى الجزائر الثورة المعروفة بثورة « الكابيل » سنة ١٨٧١ وهب رجال الدين المعروفون بالأولياء فى كل بلاد من بلاد افريقية الشمالية يستثيرون المسلمين و يستنفرونهم للحرب والجهاد ، ومن هذا النوع كانت ثورة المهدى فى السودان المصرى ، وهى الثورة التى دامت طويلاً وفتت فى عضد الانكليز فتاً كبيراً ، وأنزلت بهم خسائر فادحة ، وما خمدت نارها حتى قيض «لكتشنر» الاستيلاء على الخرطوم ،وذلك قبيل ختام القرن التاسع عشر . وانفجر فى أفغانستان بركان حقد وعداء للغرب عظيم ،

فتناولت حمه مسلمى الهند فألهبت صدورهم الهاباً ، فهبوا يشقون عصا الطاعة على الانكليز الذين ما استطاعوا تسكين العاصفة الا بعد شق الأنفس وركوب الهول . وحدث مثل هذا فى أواسط آسية حيث ظهرت « الطريقة النقشبندية الدينية » فأخذت تمتد وتنتشر شرقا حتى بلغت الأقطار الصينية فثار مسلمو الصين ثورتهم الكبرى فى « تركستان الصينية » و « ينان[١] » واشتعلت فى جزائر الهند الشرقية الهولندية نار الثورات المتوالية ، وأشهرها ما عرف « بالحرب الاتشية » التى ما برح بعضها متقداً حتى اليوم .

فجميع هذه الثورات التى كانت تشب معاً فى هذا الدور فى مواضع مختلفة، عداءً للغرب وسعياً وراء غاية واحدة ، انما كان ينقصها التنظيم والتمشية على خطط مقررة ، وربط حلقاتها المفردة المبعثرة سلسلةً واحدةً ، وفوق جميع هذا كانت تعوزها القوة المركزية الثابتة للقيام بتدبير الأمور وانشاء الوسائل الدائمة .

وقد كانت الثورة المهدية من البواعث على شبوب هذه الثورات ، والمهدية هذه لم تكن معروفة فى صدر الاسلام ، وما ورد لها ذكر فى القرآن ، غير أنه جاء فى الأثر أن الرسول أنبأ أن رجلا يدعى المهدىّ سيظهر للناس ليملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما مُلئت جوراً وظلماً[٢] ومنذ عهد بعيد كان ينتظر ظهور هذا المهدى لينصر الاسلام ، ويقتل الكفار ، وينيل المسلمين السعادة خالدين فيها . على أن المتدبر المستقصى ليعلم أنه قد كان لهذه العقيدة تأثير ظاهر فى تاريخ الاسلام فقد قام كثيرون فى عصور مختلفة يدّعون المهدية فتبعهم عدد كبير ، فلهذا أمر المهدية فى الاسلام يشبه أمر « مسيا » فى اليهودية وقد كان من طبيعة الحال أن المسلمين ، وقد شُدّ على أعناقهم خناق السيطرة الغربية ، باتوا يعللون نفوسهم بظهور المهدى ، فلما ظهر المهدى ، لم يأت ظهوره بالنتيجة التى تنيل المسلمين السعادة المنتظرة ، فكان مثلُ المهدى مثلَ النار هبت فى الهشيم وسرعانَ ما خمدت .

ولما وصلت الحال فى العالم الاسلامى الى هذا الحد ، أدرك قادة الجامعة الاسلامية

---

(١) سيأتى ذكر هذه الثورات فى بحث الاسلام في الصين (ش)

(٢) أحسن خلاصة لحديث المهدى وما ذا قيل فيه ما تراه في فصل خاص بذلك من مقدمة ابن خلدون

الحكام جميع هذا و باتوا يوقنون أن الثورات المحدودة المضطرب تشب فى موضع تقوم بها أمة من المسلمين دون الأخرى فى قطر من الأقطار لا يمكن أن توهن شيئا من قوة الغرب تلك القوة الحربيــة المنظمة على أحدث الأصول والفنون ، وأدركوا حق الادراك أنه اذا رام العالم الاسلامى حقاً تحرير نفسه من النير الغربى ، وتحطيم هــذه السلاسل الثقيلة التى يرسف فيها منذ عهد بعيد ، ودك هذه السيطرة المذلة دكا ، وجب عليــه أن يعمل عملاً منظماً شاملاً ، و يسعى سعياً أكيداً ثابتاً ، جامعاً للوحدة العامة والرابطة الكبرى . وأيقن هؤلاء أيضاً أنه لا بد للعالم الاسلامى اذا شاء هــذا ، من دراسة علوم الغرب ، واكتناه عظمته وقوته وتقدمه ، ونهج مناهجه ، وسلوك سبله فى جيع ما يؤدى الى النهضة الصحيحة القائمة على أسس العلم وأركانه ، فانما هذا هو السبيل الذى لا سبيل الا هو للافلات من ربقة استعمار الغرب والتحرر من حكم الفرنجة . وفوق جميع هذا أيقن قادة الجامعــة الاسلامية أن استقلال العالم الاسلامى عن الغرب النصرانى الاستقلال السياسى ، يجب على كل حال أن يسبقه التجدد الروحى العقلى العلمى الأدبى ، والتربية النفسانية الصحيحة ، وانه متى صلحت نفوس المسلمين وزكت وطابت واعتزت وباتت تعاف الذل وتأبى الضيم ، سهل اذ ذاك كل عمل فى سبيل التحرر والاستقلال .

وعند هذه النقطة من الدائرة ، التقت غاية دعاة الجامعة الاسلامية ، وغاية الأحرار ، اذ أدرك الفريقان كلاهما استفحال الخطب الجلل والشقاء الاكبر فى العالم الاسلامى ، وما يعانيه المسلمون من الذل والهوان ، فابتغيا تجدده الروحانى واصلاحه النفسانى ، غير أنه نشأ الخلاف بينهم فى وسائل هذا التجدد والاصلاح وكيفيتهما ، فقال الاحرار ان المسلمين لا مندوحة لهم عن الأخذ عن الغرب ، واقتباس الأفــكار منه ، واتباع طريقته فى جميــع ما هو لازم وضرورى لبلوغ الغاية العلياء . وقال أرباب الجامعة الاسلامية ان الاسلام بذاته لصالح كل الصلاحية لــكى يستمد منه جميع ما هو لازم لذلك ، فلهذا ينبغى أن يقصر أمر الأخذ عن الغرب على محاكاته فى انتهاج مناهجه العمليــة ، والاستعانة بوسائله المادية فحسب .

وكان مبدأ سير الجامعة الاسلامية السير المنظم على الخطط المقررة ، حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، اذ كان للجامعة أسّان قامت عليهما ، همــا الطرق الدينية الحديثة

النظام كالطريقة السنوسية ، والدعوة التى قامت بها فرقة من جلة العظماء وأكابر المفكرين الحكماء ، يرأسها السيد جمال الدين الأفغانى ، واننا نبسط الكلام على هذين الأسين ، بادئين بالأول منهما :

ان الطرق الدينية فى الأقطار الاسلامية هى بنت قرون . وجميعها على نوع واحد من حيث انشاء « الزوايا » على رأس كل منها وازع يعرف « بالمقدّم » ، ذى سلطة كبيرة على سائر اخوان الزاوية ، وقد كانت هذه الطرق فى عهدها الأول ، قبل انشاء نظام الطرق الحديثة ، منصرفة عن شؤون الدنيا ، الى شؤون الدين والانقطاع للعبادة ، فكان لكل حلقة من الاخوان رئيس يعرف « بالدرويش » . فلذلك لم يكن لهذه الطرق فى دورها الأول شأن سياسى ، ولما كان التباغض والتعادى منتشراً بين كل طريقة وأختها ، فقد بات العمل المشترك لغاية واحدة متعذراً ، حتى ان طرقاً هذه صفاتها ما برحت حتى اليوم كثيرة ، ولكن ليس لها ولن يكون لها شأن سياسى يذكر ما دامت على نظامها القديم .

أما النظام الحديث للطرق الدينية فقد أنشئ حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، وأهم الطرق الحديثة هى الطريقة السنوسية بلا مشاحة ، تلك التى أنشأها محمد بن السنوسى ولد السيد محمد فى محل بالقرب من « مستغانم » حوالى سنة ١٨٠٠ فى بيت عريق فى المجد الاسلامى والشرف العربى ، وحسبه مجداً أنه متحدر من السلالة النبوية الطاهرة . وقد عرف السيد محمد منذ حداثته بشغفه بالعلم وسلوكه مسلك التقوى ، فدرس العلوم الدينية فى جامعة فاس (١) ، ثم أخذ يسيح فى أقطار شمالى افريقية ، داعياً الناس الى الاصلاح الدينى ، وبعد ذلك حجّ بيت الله الحرام فى مكة المكرمة حيث قضى مدةً يأخذ عن الأساتذة الوهابيين ، فزاد بذلك علمه فاتقدت روح الاصلاح فيه . فلم يزايل مكة حتى وضع خطة ورسم طريقة للقيام بالاصلاح الذى نواه واستعان الله عليه ، ثم عاد الى شمالى افريقية سنة ١٨٤٣ فأقام بطرابلس الغرب ، وابتنى له زاوية على جبل بالقرب من « درنا » عرفت « بالزاوية البيضاء » . وقد كان السيد محمد رجلا شديد الهيبة ، بعيد الهمة ، عظيم الاقتدار على التنظيم والاصلاح ، فقصده الناس أفواجا من كل صقع من الأصقاع الافريقية

(١) يريد جامع القرويين الذى هو فى العالم الاسلامي ثانى الازهر (ش)

الشمالية ، بيد أنه لم يمض غير اليسير من الزمن ، حتى باتت الحكومة التركية فى طرابلس تخشى أمره وتقوم وتقعد لشأنه ، فساءت العلاقات والشؤون بينه و بينها ، فنقل مقامه الى واحة « جغبوب » الواقعة للجنوب من صحراء ليبية ، وجعل مقره هناك . ولما توفى سنة ١٨٥٩ كانت الطريقة التى أنشأها قد انتشرت انتشاراً عاماً فى معظم الرقعة الافريقية الشمالية .

وخلف « سنوسى المهدى » أباه السيد محمد السنوسى ، فأخذ يجاهد فى سبيل اعزاز الرابطة وتقوية الاصلاح . وخير مثال تدرك به الروح السنوسية وتتجلى تجلياً بيناً فى كيفية صيرورة سنوسى المهدى خليفة لأبيه . فقد كان للسيد محمد ولدان ، المهدى أصغرهما ولما كانا لم يزالا غلامين أراد والدهما بلاءهما وعجم عودهما ليرى أيهما أوثق ايماناً وأشد اقداماً ، فدعاهما اليه ذات يوم بحضور جميع أهل الزاوية ، ثم أمرهما بأن يتسلقا نخلة باسقة . فلما بلغا عاليها استحلفهما بالله ورسوله الكريم أن يهويا للحال بنفسيهما الى الأرض ، فهوى المهدى بنفسه فأدرك الارض سالماً ، ولبث الآخر فى عالى النخلة فقال السيد محمد لجميع من كان حوله : « الخلافة من بعدى انما هى لولدى هذا المهدى الذى لم لم يتردد فى تسليم نفسه لمشيئة الله عز وجل » ، واقتفى السنوسى المهدى آثار والده جميع حياته فكان حا كما حكيما عادلا تقيا ، وعاملا كبيرا فى سبيل الطريقة الدينية السنوسية ، وفى أواخر حياته نقل مقره الى واحة «الجوف» للجنوب من «جغبوب» فى صحراء «ليبية» وتوفى سنة ١٩٠٢ فخلفه ابن أخيه أحمد الشريف ، وهو سيد الطريقة ورأسها الحالى وهو ذو اقتدار وكفاية .

وقد انقضت مدة أكثر من ثمانين سنة والطريقة السنوسية تزداد انتشاراً و وثاقة ، وما برح الجهاد فى سبيلها على غير انقطاع ، حتى غدت اليوم عاملاً كبيراً فى تيار الحركة الاسلامية و بات لها أتباع فى كل قطر من أقطار العالم الاسلامى ، فالسنوسيون فى بلاد العرب كثير عددهم ، وليس هذا جميع ما فى الأمر بل ان الطريقة السنوسية قد كانت عاملا شديد التأثير فى الحياة الدينية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وما زالت أقطار شمالى أفريقية من أقصاها الى أقصاها مستقر السنوسية ومضطربها ، فمن مراكش حتى الصومال ترى البلاد مرصعة «بالزوايا» ، وهذه «الزوايا» تستمد قوتها من الزاوية المركزيه الكبرى

حيث مقام السيد السنوسي فى « الجوف (١) » الواقعة فى قلب صحراء « ليبية » . ولم يستطع أحد من الغربيين الوصول الى هذا المكان (٢) سوى رجل واحد (٣). وتحيط بالجوف الصحراء ، وعلى بعد عدة فراسخ من الجوف آبار الماء ، وأما طرق الصحراء المؤدية الى مقر السنوسي تلك الطرق المضلة ، فلا يستطيع السير فيها الا كل خرّيت خبير من رجال السنوسى ، أمير البلاد وسيدها المطاع

فسلطان السنوسى حقاً سلطان كبير . والسبب فى ذلك أن هذه « الزوايا » عظمة وشأنا أكبر مما يبدو للقارئ عند أول وهلة . فعلى رأس كل زاوية « مقدم » وفوق المقدم « وكيل » ووظيفته كوظيفة الحاكم المدنى ، وكلا « المقدم » و « الوكيل » ذو سلطة كبيرة على أهل الزاوية جيعاً والقبيلة كافة (٤). فالامر الذى يصدره أحدهما مقرونا باسم السيد

(١) يريد بها زاوية التاج فى واحة الكفرة التي في قلب الصحراء الكبرى (ش)

(٢) قامت الرحالة الانكليزية روزيتا فوربس Rosita Forbes برحلة كبيرة الى صحراء ليبية سنة ١٩١٩ — ١٩٢٠ وكان رفيقها السيد أحمد محمد بك حسنين الرحالة المصري المشهور الذى قام هو لوحده برحلة عظيمة هذه السنة (١٩٢٣) الى صحراء ليبية . ووضعت الرحالة فوربس كتاباً بالانكليزية وصفت فيه رحلتها مؤيدة بالبرهان ومشاهدة العيان أن القوة السنوسية في افريقية تقوم لها وتقعد كل دولة مستعمرة هناك ووسمت كتابها هذا ب «أسرار الصحراء» The Secret of the Sahara وقد وضع أحمد محمد بك حسنين كتاباً قيما لرحلته هذه . « المترجم »

(٣) هو المستكشف نختيغال Dr. Nechtigal

(٤) الزاوية فيها مقدم هو القيم عليها ، وهو الذى يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات بينها ، ويبلغ الأوامر الصادرة من السيد السنوسى . ويليه وكيل الدخل والخرج واليه النظر فى زراعة الأراضى وجميع الأمور الاقتصادية . ومن عادتهم أن على كل فرد من أفراد القبيلة أن يتبرع بحراثة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم فى أرض الزاوية ، فلذلك يسهل عمران الزاوية بدون نفقة كبيرة ، ثم هناك الشيخ الذى يقيم الصلاة فى مسجد الزاوية ويعلم أحداث القبيلة القراءة والكتابة ، ويعقد فى القبيلة عقود النكاح ويصلى على الجنائز الخ . والزوايا السنوسية هى الملاجئ الوحيدة فى الصحراء للمسافرين والتائهين والواردين والشاردين ولا يوجد هناك مساكن مبنية بالحجر غيرها . وقد سرنا — فى طريقنا الى جهاد طرابلس — نحو شهر من ظاهر اسكندرية عند منتهى الخط الحديدي حيث زاوية سيدى هرون القناشي الى موطن الحرب بسهل الفيض أمام مدينة بنغازى ، فكنا بعد كل مرحلة ثلاث ساعات أو أكثر نجد زاوية سنوسية ، هذا عدا زوايا كثيرة ليست مصاقبة للطريق السلطاني . فان لكل قبيلة زاوية هى مرجعها فى الدين والدنيا ، واذا تعددت فروع القبيلة كالعبيدات مثلا ، فلكل فخذ منها زاوية ، فلعائلة منصور زاوية ،

السنوسى ، انما هو أمر واجب الطاعة على الجميع . وفى الواقع ان وراء الحكومات الغربية الاستعمارية فى شمالى أفريقية ، من انكليزية وفرنسية وايطالية ، حكومة سنوسية شديدة المراس قوية الشكيمة ، وهى من عزة الجانب بحيث لا تجسر احدى هذه الحكومات الاستعمارية المذكورة على مس جانبها فى أمر من الأمور . أو احراجها فى شأن من الشؤون . فلذلك سياسة الحذر واللين متبعة ازاءها على الدوام

والحكومة السنوسية أيضا على حذر من الاصطدام باحدى الدول الغربية ، على أن هذه السياسة سياسة التروى الشديد والاحتراز لتقضى بالعجب العجاب فمابرحت الطريقة السنوسية منذ نصف قرن تقوى وتعظم ، وتمتد وتنتشر ، غير أنها ماركبت يوماً مركباً خشناً ، أو سلكت مسلكا وعراً فيه شئ من الخطر على كيانها السياسى ، وفى جميع الثورات التى هبت فى أقطار شمالى افريقية العديدة ، كان السنوسيون المقيمون بنواحى البلاد يشتركون فى القتال ويشدون أزر الثائرين ، كما حدث فى الحرب الايطالية فى طرابلس الغرب وفى الحرب العالمية الكبرى ، ولكن الطريقة السنوسية نفسها كانت تجتنب الحرب جهدها ، اجتناباً رسمياً على أتم قدر .

بيد أن موقف السنوسية هذا الموقف من الاحتراز والاجتناب ، ليس متخذاً تجاه الدول النصرانية وحدها ، بل تجاه الدول الاسلامية أيضاً ، اذ ماانفك السنوسيون طيلة عهد الطريقة يذودون عن حريتهم التامة ، التى هى عندهم أعز شئ لديهم ، فيبذلون جميع مايستطاع بذله فى سبيل صيانتها وحماية سياجها . وعلى ذلك لم تكن العلاقات بين السنوسيين والدولة العثمانية جارية مجرى الود والاخلاص ، بل كثيراً ماجهد السلطان عبد الحميد ، وهو

ولعائلة مريم زاوية ، ولعائلة جازية زاوية ، وللبنان زاوية ، وللعوا كله زاوية وهلم جرا ، وان الغريب أو السابل أو الفقير المعتر لينزل بزاوية من هذه الزوايا فيقيم ما يشاء ويتضيف ما يشاء ولا يسأله أحد عن شئ . وأغلب هذه الزوايا مختار لها أجمل البقاع وأخصب الأرضين ، وفيها الآبار التى لا تنزح من كثرة مائها وفى الجبل الأخضر هي بجانب عيون جارية وأنهر صافية ، كزاوية ماره وزاوية مرطوبه وزاوية أم أرزم بقرب درنه وزاوية شحات فى مدينة سيرنا القديمة الخ ، وأينما حل السنوسية عمروا وثمروا ، ووجدت الأرض اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وقل ان مررت بزاوية ليس لهـا بستان أو بساتين فيها من كل أنواع الفواكه والثمار ، وأصناف البقول والخضرة يزيد قيمتها مصادفة الانسان لها فى تلك البقاع القاصية عن العمران المحفوفة بالفلوات ، وقد قيدت فى دفتر عنـدى يحتوى معلومات كثيرة على برقة اسماء نحو ١٢٠ زاوية سنوسية فى تلك الديار وما جاورها الى السودان وليس ذلك العدد هو كل ما عندهم من الزوايا . (ش)

فى ابان مجده وسطوته ، والبطل الاكبر المجاهد فى سبيل الجامعة الاسلامية ، لاستمالة السنوسى اليه وارضائه ، فما استطاع الى ذلك سبيلا ، بل جميع ماأجابه السنوسى على ذلك هو بعض عبارات تدل على شدة الدهاء . وقد يؤثر عن السنوسى قوله : « الترك والنصارى انى أقاتلهم معا وأضربنهم ضربة واحدة[1] » . ولما قام محمد أحمد زعيم المهدية ، يناهض الانكليز فى السودان المصرى وينتصر عليهم ، أنفذ رسولا الى السنوسى يطلب منه نصراً فى الحرب ، فرفض السنوسى ذلك وأجاب مستهزئاً : « من هو هذا الفقير المسكين من « دنقلة » (يعنى محمد أحمد) ألاأستطيع ان أكون المهدى اذاشئت ذلك[2] ، »

فجميع هذا انما يبرهن على أن السنوسى لاينفخ فى غير ضرم ، بل انه البرهان الذى لا يرد على أن السنوسى جاد جدا غير منقطع فى اعداد ما يستطيعه من الوسائل والذرائع الكفية للاصلاح الدينى والتهذيب النفسانى والخلق لخطته التى ينوى القيام بها بعد اكتمال العدة التى يجاهد فى سبيلها الآن ، انما هى افتتاح جميع البلاد الافريقية ، ثم سائر الاقطار الاسلامية ، ثم جعل العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه مملكة واحدة ، على رأسها خليفة واحد . وهذه المملكة العظمى يرتبط بعضها ببعض بالجامعة الاسلامية الكبرى ، على أن السنوسى لموقن حق الايقان أن تحرر المسلمين التحرر السياسى من ربقة السيطرة الغربية النصرانية ، يجب أن يسبقه انتشار التجدد الروحانى والدعوة الاخلاقية فى المسلمين ، فلهذا هو لايفتأ يجاهد نحو ادراك هذه الغاية بتهذيب اخلاق رعيته وترقيتها ، وايتاء نفوسها التربية الصحيحة ، وتنشئتها على الفضائل الاسلامية العليا ، وهو لم يقصر الأمر على هذا فحسب ، بل يجد ايضا جداً اقتصاديا فى سبيل تحسين أسباب المعايش وتوفير وسائل الكسب فكثرت فلاحة الواحات الخصبة ، ونمت الزراعة ، واحتفرت الآبار الحديثة وابتنيت الأنزال على طريق القوافل ، وشرع فى انشاء وسائل التجارة على نطاق رحب .

جميع هذا يوضح لنا أن الطريقة السنوسية قد بلغت مبلغا من الاعتزاز والمناعة لم يسبق له مثيل من قبل . وهذا هو السبب الذى اقتضى أن تسير السنوسية سير الاتئاد ، مزدادة القوة مشتدة البأس ، محترزة على الدوام المجازفة بشىء من قوتها الحربية قبل اكتمال العدة اللازمة

(١) هذه الرواية نرجح أنها مدخولة (ش)

(٢) السنوسى أعلن تكذيب المهدى السوداني (ش)

وحينونة الأجل المرتقب . و بينما تسير السنوسية على هذاالجد الشديد ، تراها تنشرالمدارس وتقيم المآوى والأكنان فى جميع البلاد الافريقية الشمالية . وتعلم الناس طاعة « الوكلاء » و « المقدمين » وفوق جميع هذا . فانها قد اتجهت وتغلغلت جنوباً فى القارة الافريقية . مبشرة بالرسالة المحمدية . حيث هناك الملايين من الزنج الوثنيين طفقوا يقبلون أيما اقبال على الدخول فى الاسلام أفواجاً (١)

ولا شيء أدل على هذه النهضة الاسلامية الحديثة الكبرى ، من هذه اليقظة الروحانية الدينية التبشيرية ، الناشئة والمنتشرة خلال مئة السنة الاخيرة ولاغرابة فى ذلك فقد كان الاسلام على الدوام دين هداية الناس واخراجهم من ظلمات الشرك الى نور التوحيد هذا التاريخ شاهد حق على ماقام به المبشرون المسلمون فى أول عهد الاسلام من الأعمال الجليلة التى لم يقم بمثلها غيرهم من المبشرين . ولا ننسى أن روح التبشير ونشر الدعوة فى سبيل الرسالة لم تبرح حية على الدوام ، على انحطاط الممالك الاسلامية وتدليها . فلذلك ما انفك الاسلام طيلة القرون الوسطى ينتشر فى الهند والصين (٢) ، و بينما كانت الرسالة المحمدية تنتشر فى نائى تلك الأصقاع ، كان الترك ينشرونها و يرفعون أعلامها فى شبه جزيرة البلقان .

(١) اقرأ الكتب الآتية فى شأن السنوسية وغيرها من الطرق الدينية : —
« الطريقة الدينية الاسلامية لسيدي محمد بن على السنوسى » — باريس ١٨٨٤
" La Confrérie Musulmane de Sidi Mohammed Ben Es-Sénoussi "
H. Duveyrier,(Paris 1884)

و « الطرق الدينية الاسلامية » فى الحجاز » باريس ١٨٨٧
"Les Confréries Mnsulmanes du Hedjaz,, A. Le Chatelier, (Paris 1887)
و «العصبية القومية الاسلامية» قسنطينة الجزائر ١٩١٣ " Le Nationlisme Musulman ,,
و « السنوسية » (وهو مقال بقلم أحمد عبد الله وهو من أشياع السنوسية) . مجلة ذا فورم مايو ١٩١٤ " The Sennussiyeh " (The Forum) May 1914
و « السنوسى وجهاده المهدد » ــ مجلة «القرن التاسع عشر» عدد مارس« آذار» ١٩٠٠
T. R. Threlfall, " Senussi and His Threateued Holy War,, (Marsh 1900)
و « الخطر الاسلامى» ــ مجلة «القرن التاسع عشر وما بعد» سبتمبر « ايلول » ١٩٠٧
H. A. Wilson, " The Moslem Menace ,,
(٢) اقرأ الفصل الوارد فى هذا الكتاب على الاسلام فى الصين ــ « المعرب »

و بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر ، كان المبشرون المسلمون يفتحون بلاد غربى أفريقية (١) ، وجزائر الهند الهولندية ، وجزائر الفيلبين ، فتحاً دينياً مبينا . غير أنه فى القرن الثامن عشر ، أمسى العالم الاسلامى مرتدياً رداء الخمول ، ففترت وبردت حرارت المبشرين المسلمين ، وسكنت تلك الروح الثائرة الجوابة .

ولبث الاسلام هكذا ، حتى تباشير اليقظة الحديثة ، فعادت تلك الشرارات الكامنة فى الرماد تستطير ، وما هى الافترة يسيرة حتى اشتعلت نار التبشير ثانيا ، فأخذ الاسلام يجوز حدوده وينبثّ فى كل صقع من أصقاع العالم الاسلامى ماعدا أوروبة . وعند اعتبار شأن انتشار الاسلام هذا الانتشار ، يجب أن نعلم العلم اليقين أن كلّ مسلم هو بغريزته وفطرته مبشر بدينه ، ناشر له بين الشعوب غير المسلمة ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وعلى ذلك ان نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم ولا قصر الأمر عليهم دون سواهم ، هكذا ، بل شاركهم فيه جماعات ، عديد من السياح والتجار والحجاج ، على اختلاف الأجناس . ولا يؤخذن من هذا انه لم يقم فى المسلمين مبشرون ارتشفوا كؤوس الحمام فى سبيل الدعوة الاسلامية ، فعديد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير ، وذلك ظاهر بين فى أمر الطرق الدينية مما لا يحتاج الى برهان ، بل أى دليل أقطع من المبشرين السنوسيين ، الحمس الغُير ، الذين خرّجتهم زوايا الصحراء وهم يعدون بالالوف المؤلفه ، وما انفكوا يجوبون كل بلاد وثنيةٍ مبشرين بالوحدانية ، داعين الى الاسلام . وهذه الاعمال التى قام بها المبشرون المسلمون فى غربى افريقية وأوسطها خلال القرن التاسع عشر الى اليوم لعجيبة من العجائب الكبرى ، وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر ، فقد قال أحد الانكليز فى هذا الصدد منذ عشرين سنة : « ان الاسلام ليفوز فى أواسط افريقية فوزاً عظيما ، حيث الوثنية تختفى من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح ، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات » . وقال مبشر پروتستنتى فرنسى : « مابرح الاسلام يسير اليقدمية منذ نشوئه حتى اليوم ، فلم يعثر فى سبيله الا القليل ، وما زال يسير فى جهات الأرض حتى بلغ قلب افريقية مذللا أشق المصاعب ومجتازاً أشد الصعاب ، غير واهن العزم فالاسلام

(١) اقرأ الفصل الوارد فى هذا الكتاب على الاسلام في افريقية ــ « المعرب »

حقاً لايرهب فى سبيله شيئاً ، وهو لاينظر الى النصرانية ، منازعته الشديدة ، نظرة المقت والازدراء ، فلهذا هو حقيق بالظفر والنصر ، اذ بينما كان النصارى يحلمون بفتح افريقية فى نومهم ، فتح المسلمون جميع بقاع القارّة فى يقظتهم [1] »

واما السبيل الذى يسير فيه الاسلام جنوباً فى افريقية فهو من الرائع الغريب . منذ عدة سنوات عثرت الحكومة الانكليزية ، على غيرماتوقع ، على أن المبشرين المسلمين مخترقون « نياسلندة » دعاة الى الرسالة المحمدية ، و بعدالبحث والاستقصاءواذكاء العيون، وجدت تلك الحكومة أن المبشرين انما هم من عرب زنجبار ، قد بدأوا عملهم هذا منذ سنة ١٩٠٠ ، وأنه بعد مضيّ عقد من السنين على شروعهم فى جهاد التبشير ، كانت كل قرية فى جنوب « نياسلندة » قد أسلمت وفيها مسجد ومدرسةاسلامية ومعلمون مسلمون. ومع أن هذه الدعوة كانت ، كما هو ظاهر من أمرها ، وسيلةً شديدة لتضعضع سلطة المستعمرين وسيطرتهم ، فلم تجسر الحكومة الانكليزية على مقاومتها خيفة ازدياد انتشارها فى الاقطار الأخرى . ويقول بعض المفكرين الغربيين فى هذا العصر ، انه لن تمضى مدة طويلة منذ اليوم حتى يرى الاسلام قد اجتاز « زمبازى » وانتشر فى جنوب افريقية انتشاراً عاماً ، فيطبق القارة بأسرها .

وليس ظفر الاسلام فى افريقية مقصوراً على الوثنية فحسبُ ، بل على النصرانية الافريقية كذلك ، اذ ترى الآن الذين تنصروا فى غرب افريقية على يد المبشرين الفرنجة يتناقصون عدداً تناقصاً فاحشاً ، وذلك لارتداد غالبهم عن النصرانية ودخولهم فى الاسلام. زد على ذلك أن النصرانية فى الحبشة ، انما باتت فى خطر شديد من جراء سيول الاسلام الطامية ، من بعد ما كانت فيما مضى سداً منيعاً فى وجه الاسلام . والغريب فى هذا كل الغرابة أن الأحباش أنفسهم غدوا اليوم يدخلون فى الاسلام أفواجا متلاحقة ، لا على يد فتوح حربيةٍ بل فتوح سلمية دينية . وقد قال أحد الثقات الغربيين حديثا : « منذ خمسين الى ستين سنة خلت كنتَ ترى قبائل الأحباش العديدة ، لايكاد يرى فيها مسلم واحد، أما اليوم فغالب هذه القبائل هم مسلمون مؤمنون بالرسالة المحمدية . »

(١) للاطلاع على مجاهيد التبشير الاسلامي فى افريقية اقرأ كتاب :—
ج . بونه مورى — « الاسلام والنصرانية فى افريقية » (باريس ١٩٠٦)
G. Bonet Maury. " L' Islamisme et le christianisme en Afrique,,

وربما كان ظفر الاسلام فى افريقية اليوم أعظم ظفر لاقاه المبشرون المسلمون حديثا، بيد أن هذا ليس جميع الظفر الاسلامى بل هناك غيره مثله فى سائر أنحاء العالم . وقد أتينا فى الفصل السابق من هذا الكتاب على ذكر حركة الاحرار السياسية فى بلاد التتر الروسية، بحيث بقى علينا الكلام على النهضة الدينية العجيبة التى رافقت تلك اليقظة التترية . كان التتر مابرحوا منذ عهد بعيد فى الحكم الروسى ، وقد جهدت الكنيسة الارثوذكسية الروسية أعظم الجهد لتنصيرهم ، فأدركت فى بعض المواضع بعض النجاح الذى لايذكر ، غير أنه لما انتشرت اليقظة الاسلامية العامة ، ووصل ماوصل منها الى بلاد التتر فى أوائل القرن التاسع عشر ، هب التتر للحال يستردون اخوانهم المتنصرين الى الاسلام ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى عاد جميع هؤلاء فانتحلوا دين الرسالة ، على جميع مابذلته الكنيسة الارثوذكسية من العناء الاشق ، ولجأت اليه من مختلف الذرائع والوسائل ، لتحول دون ذلك ، فلم تلق شيئاً من النجح ، بالرغم مما اتخذته الحكومة الروسية من أحكام الجزاء والعقاب ، ووسائل القهر والاكراه[١] . على أن المبشرين المسلمين التتر لم يقصروا أمرهم على هذا ، بل شرعوا فى نشر الاسلام فى القبائل التركية الفنلندية الأمية ، المقيمة فى الشمال من بلاد التتر ، غير مبالين بمقاومة حكام الروس لهم ولولاقوا من وراء ذلك من الهول مالاقوا .

وكانت النهضة الاسلامية فى الصين عجيبة لامثيل لها ، فيقتضى الحال أن نبسط كلمة فى شأنها . كان بلوغ الاسلام الصين منذ عهد بعيد ، على يد التجار العرب وكتائب جنود عربية مرتزقة . فصار على توالى الايام يختلط العرب الغرباء بالصينيين تزاوجا وتعاونا فى أمر المعايش وغير ذلك ، بيد أنه على جميع هذه القرون التى كرّت حتى اليوم ، لم يبرح المسلمون الصينيون يتميزون عمن سواهم تميزاً حافظاً لأنسابهم العربية التى يختلفون بها ميولا واخلاقا عن عامة الصينيين اختلافاً بعيداً ، وهم أبداً يدّعون لنفوسهم ميزة الشرف والعلوّ على غيرهم من السكان ، أما موطنهم ففى مقاطعات « ينان » الجنوبية وما يليها من المقاطعات الداخلية ، وهناك بلاد مسلمة فى الصين غير هذه ، هى بلاد تركستان الشرقية التى فتحتها الصين فى القرن الثامن عشر ، وأهلها مسلمون متسلسلون نسباً من العروق التركية القديمة. وقد ظلّ المسلمون الصينيون جميعا على اختلاف أجناسهم يعاملون معاملة الحسنى والرفق،

---

(١) اقرأ الفصل الوارد فى آ هذا الكتاب على المسلمين فى بلاد الروسية فى عهد البلاشفة — «المعرب»

حتى العهد الأخير ؛ اذ طفقوا يشمخون بأنوفهم فخراً وكبرياء ، فأقلق ذلك الحكومة الصينية ، فانقلبت عن الاحسان الى الاساءة اليهم واضطهادهم . لكن لما أخذت اليقظة الاسلامية العامة تجوب آفاق العالم الاسلامى بانتشارها المطبق فى القرن التاسع عشر ، فبلغت الصين كما بلغت غيرها ، هب المسلمون الصينيون هبة الذعر فهاجت فيهم النعرة الدينية الاسلامية ؛ فأخذوا يوقدون الثورة تلو الاخرى ، حتى كانت الثورة الكبرى المشبوبة نارها سنة ١٨٧٠ فى «ينان» وتركستان الشرقية ، فأظهر هؤلاء المسلمون من شدة الاستبسال والمغامرة فى القتال مالم يسمع بمثله من قبل . وقام فى تركستان زعيم كبير ، وقائد مجرب ، هو يعقوب بك فاستطاع هذا الزعيم المقدام أن يجعل تركستان و «ينان» بلاداً مستقلة استقلالا محمى السياج عدة سنوات ، فكان يخيل الى الكثير من رجال الذهن فى الغرب عهدئذ ، ان الثوار لمتحدون جميعا اتحاداً منيعاً وثيقاً ، ومنشئون دولة اسلامية ثابتة الاركان فى الصين الغربية ، ثم شارعون يفتحون المملكة الصينية رقعة رقعة . وقد اشتهر يعقوب بك اشتهاراً بعيداً ، فذاع اسمه وذكره فى جميع العالم الاسلامى . وقد أعجب به السلطان العثمانى وعظم بأسه وحنكته ، فأنعم عليه بلقب « أمير المؤمنين » فى تلك الديار . و بعد أن طال القتال شديداً عدة سنوات وكثر وقوع المذابح الهائلة ، استطاعت الحكومة الصينية أن تخضد شوكة الثائرين ، ولكن بعد أن جلت خسائر المسلمين فى النفوس ، اذ مابرحوا حتى اليوم فى قوتهم دون ما كانوا عليه من قبل. وأما من حيث حالتهم الروحانية والأدبية فما زالوا يشتملون فى نفوسهم على صفات ومزايا من اباء الضيم وعياف الذل ، قلما اشتمل على مثلها سواهم . وأما عددهم اليوم فيبلغ أكثر من ١٠٦٠٠٠٠٠ . وعلى هذا يجب ألا يندّ عن البال ان المسلمين فى الصين بالغون من الشأن فى عالم اسلام الغد مبلغاً عظيما وصائرون الى شأن كبير .

ولو شئنا لتوسع فى الكلام على النهضة الاسلامية العامة حتى يتناول جيع فروعها فى القرن الماضى ، لاستغرق ذلك الأسفار الضخام ، ففى الهند ما برح الاسلام ينتشر انتشاراً متوالياً ، وكذلك فى جزائر الهند الهولندية . أما الدول الغربية الاستعمارية فانها لا تستطيع غير أن تدع هذا الانتشار الاسلامى وشأنه ، دون أن تحاول الوقوف فى وجهه أو صد تياره ، والسبب فى ذلك أن المسلم اليوم قد ألف الانتفاع من المستحدثات الغربية كالقطر الحديدية والبرد والمطابع فى سبيل نشر الدعوة الاسلامية ، وفى ذلك من المنافع الاقتصادية التى تجتنيها

هذه الدول مما لا يخفى على أحد .

واذ بلغنا الى هذا الموضع فى الكلام على الأس الأول للجامعة الاسلامية ، ننتقل للكلام على الأس الآخر ، وهو الدعوة الكبرى التى قام بها جمال الدين الأفغانى وقد عرفت به من بعده .

ولد السيد جمال الدين الأفغانى فى مطلع القرن التاسع عشر فى « أسد آباد » بالقرب من همذان فى بلاد فارس . وهو أفغانى الأرومة لا فارسى ، يتحدر نسباً ، كما يدل لقب سيادته على هذا ، من العترة النبوية الطاهرة ، ويجرى فى عروقه الدم العربى البحت الكريم .

كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهيةً من أعظم الدهاة ، دامغ الحجة قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأن فى ناسوته أسرار المغنطيسية . فلهذا كان المنهاج الذى نهجه عظيماً . وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علو المنزلة فى المسلمين ما قل أن يبلغ مثله سواه . وكان سائحاً جوّاباً طاف العالم الاسلامى قطراً قطراً ، وجال غربى أوربة بلداً بلداً ، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع فى سير العالم والأمم ، علماً راسخاً ، واكتنه أسراراً خفية ، واستبطن غوامض كثيرة ، فأعانه ذلك عوناً كبيراً على القيام بجلائل الأعمال التى قام بها . وكان جمال الدين بعامل سجيته وطبعه وخلقه ، داعيا مسلماً كبيراً فكأنه على وفور استعداده ومواهبه انما خلقه الله فى المسلمين لنشر الدعوة فحسب ، فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين الا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لا تخبو نارها ولا يتبدد أوارها . وكان يختلف عن السنوسى منهاجا ، فجهاد انكبّ على السياسة وشؤونها ، وذلك على علوم الدين وترقيتها . غير أن السيد جمال الدين الأفغانى كان أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق الاسلامى ، وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدها وامتدت حياتها ، ورسخت فى تربة الشرق ، وأدرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى ، اذا لبث الشرق الاسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها . فهب جمال يضحى نفسه ويفنى حياته فى سبيل ايقاظ العالم الاسلامى ، وانذاره

بسوء العقبى ، ويدعوه الى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير ، فلما اشتهر شأن جمال خشيت الحكومات الاستعمارية أمره وحسبت له ألف حساب ، فنفته بحجة أنه هائج المسلمين ، ولم تخف دولة جمالا وتضطهده مثل ما خافته واضطهدته الدولة البريطانية ، فسجنته فى الهند مدة ، ثم أطلقت سراحه فجاء الى مصر حوالى سنة ١٨٨٠ وكانت له يد فى الثورة العرابية التى أوقدت نارها فى وجه الغربيين ، فلما احتل الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ نفوا جمالاً للحال ، فزايل مصر وأنشأ يسيح فى مختلف البلدان حتى وصل الى القسطنطينية ، فتلقاه عبد الحميد بطل الجامعة الاسلامية بالمبرّة والكرامة ، وقربه منه ورفع منزلته ، فسحر جمال السلطان الداهية بتوقد ذكائه ونفسه الكبيرة فقلده السلطان رياسة العمل فى سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية . ويغلب أن ما ناله السلطان عبد الحميد من النجاح فى سياسته فى سبيل الجامعة الاسلامية ، انما كان على يد جمال الدين المتوقد الهمة المشتعل العزم ، والتحق جمال الدين بالرفيق الأعلى سنة ١٨٩٦ شيخا وعاملا كبيراً فى سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه .

وهاك ملخص تعاليم جمال الدين : —

« العالم النصرانى ، على اختلاف أممه وشعوبه عرقاً وجنسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللاسلام على الخصوص . فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

« الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً فى عناصرها ، متغلغلا فى أحشائها ، ومتمشياً فى كل عرق من عروقها ، وهى أبداً ناظرة الى الاسلام نظرة العداء ، والحقد ، والتعصب الدينى الممقوت [1] . وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان فى كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى ، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الاسلامية مستوية مع الأمم النصرانية .

(١) اقرأ التعليق الخطير الشأن ، الوارد فى هذا الكتاب رداً على مقالة « الاسلام والجنود السوداء » لكاتبها روجر لوبون فى (مجلة باريز) عدد ابريل ١٩٢٣ — (المعرب)

« تنتحل الدول النصرانية أعـذاراً لها فى كرّ ها وهجومها وعـدوانها على الممالك الاسلامية واذ لالها واكراهها ، بقولها ان الممالك الاسلامية هذه انما هى من الانحطاط والتدلى بحيث لاتستطيع أن تـكون قوّامة على شؤون نفسها بنفسها . وفوق جميع هـذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية ، وتتذرع بألوف الذرائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحـديد والنار ، للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون فى بلادهم وديارهم فى سبيل الاصلاح والنهضة

« جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقةعلى عداء الاسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسحق الاسلام سحقا .

« تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم وآماله و رغباته التى تجول فى صدره ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء . فان مايدعوه الفرنجة عندنا فى الشرق تعصباً مذموماً محرما ، هو عندهم فى بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة ،والوطنية المعبودة ، وان ما يدعونه عندهم فى الغرب اباءة النفس ، والشمم ، والشرف الوطنى ،والعزة القومية ، يعدونه فى الشرق غلواً مكروهاً ، وافراطاً فى حب الوطن ضاراً ، ومقتاً وشنأة للاجنبى الغربى . (١) »

« جميع هـذا يوضح أن العالم الاسـلامى يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاما ، مستمسك الاطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الذياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ،وللوصول الىهذه الغاية الـكبرى انما يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته (٢) »

هذه دعوة جمال الدين على الايجاز ، التى أفنى حياته فىسبيل نشرها بالبلاغة الساحرة

---

(١) منقول من مقال بتوقيع « x » موسوم ب (الجامعة الاسلامية والجامعة التركية) نشر فى مجـلة العالم الاسلامى) مارس ١٩١٣ ويقول كاتبه انه قد استقاه من مسلم ثقة كبير المنزلة والشأن .
"Le Pan - Islamisme et la pan - Turquisme" - Revue du Monde musulman.
ومن أراد التوسع فى الاطلاع على أعمال جمال الدين فليقف على كتاب (العصبية الجنسية الاسلامية) لسر فيه .

(٢) اقرأ التعليق الوارد فى هذا الـكتاب على السيد جمال الدين الافغانى حكيم الشرق (المعرب)

والحجج الدامغة ، فكانت كالغيث الجود أصاب التربة الجدباء . ولا عجب أن يكون جمال الدين ذلك الرجل الموقظ الكبير ، وتكون كل نسمة نفخها فى المسلمين عاصفة زعزعا ، وقد بات اعتداء الدول الفرنجية وعدوانها و بغيها منتشراً فى كل قطر من أقطار العالم الاسلامى ، فتفاقم الخطب واشتد البلاء . على أن جمالا ما كان يقوم بجميع هذا وحده ، بل كان غيره أيضاً من قادة المسلمين لم يبرحوا منذ منتصف القرن التاسع عشر يبثون الدعوة فى سبيل الجامعة الاسلامية ، وأحد هؤلاء الدعاة العظماء هو عالى باشا التركى الكبير ، الذى يؤثر عنه قوله : « ما يحتاج اليه المسلمون الاحتياج الأشد انما هو ازدياد النعرة الدينية فيهم، لاتناقصها فاضمحلالها » . وقد أثر هذا القول عنه ارمينيوس ڤامبيرى ، المستشرق المنغارى الكبير ، والعلامة المشهور ، وذلك بعيد حرب القريم ،وكان هو قد شهد بنفسه مجلساً من مجالس الجامعة الاسلامية فى منزل عالى باشا ، حضره رسل ووفود ونواب من جميع أقطار العالم الاسلامى .

على مثل هذه الأسس بنى السلطان عبد الحميد بناء الجامعة الاسلامية وشيد أركانها وأضاف اليها كل مطمع بعيد وغاية جليلة . فعبد الحميد فى الواقع داهية من أعاظم دهاة العصر الحديث ، وسياسى فى منتهى الحصافة ، غير أنه على كل هذا كان ذا أطوار خلقية عجيبة تفضى به وساوسه أحياناً الى حد اللمم

فقد اختط الخطط الكبرى لتحقيق مشروعاته العظمى ، ثم طفق يسعى وراء ذلك بمتنوع الوسائل سعياً وان كان قائماً معظمه على شدة الحذق والدهاء فانه لم يخل فى بعض المواضع من ضروب العبث وكان سلطاناً مستبداً طبعاً وسجية ، ظنين السوء بعماله ، مولعاً بأن تكون صغائر الشؤون وعظائمها معلقة على ارادته النافذة . وفوق جميع هذا ، فقد كثر من حوله الوشاة والمداهنون الذين وقفوا على سريرته وعرفوا مشربه ، فجعلوا يحسنون له أهواءه و يجارونه مع محض رغباته

وكان ارتقاؤه الى العرش سنة ١٨٧٦ فى ان شديد عصيب ، فقد كانت الدولة على أبواب الحرب العثمانية الروسية ، وكانت الحكومة فى أيدى عصبة من الساسة يسعون سعى المصلحين فى تجديدها على الطراز الحديث ، والنهج بها على المناهج السياسية الدستورية الغربيـة . فلما أخذ عبد الحميد بأزمة الأمور نقض جميع ذلك نقضاً ، واهتبل سانحة تضعضع الدولة عند

الخروج من الحرب الروسية ، فألغى مجلس النواب وجعل نفسه السلطان المطلق لا تعلو يدَ ه يد ، له الأمر والنهى وحده . ولما استوثق له الأمر ، شرع يقوم بسياسته الخاصة التى نحا بها منذ أول الأمر منحى الجامعة الاسلامية.[١] فعقد عزمه على أمر لم يعقد عزمه على مثله أحد من أسلافه الأقربين ، وهو التذرع بالخلافة لبلوغ أغراض سياسية عظيمة ، واذ أبان للملأ كافة ، أنه فوق كونه سلطان الدولة العثمانية ورئيسها السياسى الوحيد ، فهو الخليفة الدينى للمسلمين أجمعين ، أخذ يستصرخ الأمم الاسلامية فى كل رقعة من رقاع العالم الاسلامى لتمديد العون اليه ، وتشد أزره بالالتفاف من حوله ، قاصداً بذلك قذف الرعب فى روع الدول الغربية التى خالها ربما كانت تأتمر فيما بينها وتتشاور ، وتتخذ الوسائل وتقوم بالتدبيرات ، للانقضاض على المملكة العثمانية . وكان منذ عهد بعيد يدبر أمر نشر الدعوة للجامعة الاسلامية تدبيراً نائى المضطرب واسع النطاق ، غالبه بالوسائل الخفية الهائلة . فغدت القسطنطينية مكة ثانية ، يلوذ بها جميع ذادة الاسلام المشتهرين بأعمال المقاومة للدول الغربية مثل جمال الدين وأنداده [٢] ، ومن القسطنطينية صارت توفد الوفود وتنفذ الرسل جماعات دراكا الى جميع الأقطار الاسلامية ، حاملة رسالة الخليفة ، ألا وهى رسالة الامل المحقق فى النجاة من خطر حكم الفرنجة الكافرين .

---

(١) كان الكاتب الفرنسى المشهور غبريال شارم أول من استشف سياسة عبد الحميد وغايته ومقصده في الدعوة للجامعة الاسلامية ، فجعل ينشر الفصول الممتعة في هذا الصدد منذ سنة ١٨٨١ . وفى سنة ١٨٨٣ وضع كتابه (مستقبل تركية والجامعة الاسلامية) أودع فيه جميع مارجم بالغيب .

Gabriel Charmes " L'avenir de la Turquie - Le Pan Islamisme ,,

(٢) جمع السلطان اليه كثيرين من مقدمى العرب وزعمائهم ، ومشايخ الطرق فيهم ، من الحجاز ، والشام ، والعراق ، ونجد ، واليمن ، ومصر ، وطرابلس ، وتونس ، والمغرب ؛ وآخرين من زعماء الأكراد وآخرين من زعماء الارناووط ؛ لا لزوم لتسميتهم ، وأقرهم فى الاستانة ؛ وأجرى عليهم الأرزاق كما هو معروف . قال لى أثناء الحرب كبير أولاده الأمير محمد سليم افندى : « كان الأرناووط فى يد والدى يهدد بهم أوستريا وجميع دول البلقان. كما أنه كان يهدد بخيالة الأكراد الروسية بعظمتها كلها ؛ فتحسب للآلايات الحميدية حساباً . وكان يهدد بالعرب الدول الغربية بأسرها ؛ فتظن هذه الدول أنه بالعرب يخلق لها مشكلات لا تنتهى . فالآن أصبحنا ؛ والارناووط قد خرجوا من السلطنة بعد قتال شديد معنا . والاكراد بدل أن يجاهدوا أمام الدولة فى الروس ؛ صار يلزمنا أن نسوق العساكر لتطويعهم حينما عساكرنا هى فى ملحمة كبرى مع الروس . وأما العرب فبعد أن كانوا عدتنا وسلاحنا لمقاومة الدول الغربية ، انقلبوا عوناً للدول الغربية علينا . » انتهى . ومراده بذلك انتقاد سياسة تركيا فى السنين الاخيرة . (ش)

وظلت دعوة عبد الحميد للجامعة الاسلامية تسير سيراً متوالياً مدة تقرب من ثلاثين سنة . غير أنه لمن الصعب الشديد أن يستطاع تحديد المفعول الذى كان لهذه الدعوة الكبرى تحديداً بيناً ، والسبب الأكبر فى ذلك هو أنه لما حدثت ثورة «تركية الفتاة» سنة ١٩٠٨ ، وخلع عبد الحميد توقف مجرى الدعوة للجامعة الاسلامية وفتر سيرها فى المتجه الذى كانت تسير فيه . زد على ذلك أن تركية على عهد عبد الحميد لم تخض غمار حرب بينها و بين دولة غربية من الدول الكبرى ، لهذا يتعذر الوقوف وقوفاً صحيحا على مبلغ ما كانت عليه الأمم الاسلامية من الاستعداد والأهبة لاجابة نفير الجهاد . على أن عبد الحميد قد أفلح حقاً فى حمل أمراء المسلمين وقادتهم على الاعتراف بسلطته الروحانية ، فولوا وجوههم شطره وحسبوه قبلة آمال العالم الاسلامى ، وقدسوا مقامه تقديساً ، وغدا العظماء والكبراء يتقاطرون الى فروق من كل فج من أفجاج العالم الاسلامى لمبايعة الخليفة الأعظم أمير المؤمنين وحامى بيضة الاسلام ، الذى مملكته مملكةُ حصن الاسلام والمسلمين . ولم يستطع عبد الحميد مع كل هذا أن يستميل اليه قائداً كبيراً من قادة العالم الاسلامى أعنى به السيد السنوسىّ ، الذى كان يخامر قلبه الريب فى مقاصد السلطان وأغراضه البعيدة ، وكذلك كان الأحرار فى كل مكان يعرضون عن نصرة السلطان لاستبداده الشديد . وعلى الجملة فانه ليس باليسير أن يتيقن هل كانت الأمم الاسلامية متأهبة لتلبية دعوة السلطان عبد الحميد للقيام بالجهاد الاسلامى المقدس ، فيما لو كان دعاها يوماً الى ذلك .

وفوق جميع هذا فقد استطاع عبد الحميد أن ينشر الدعوة فى سبيل الجامعة الاسلامية الكبرى فى أوسع آفاقها ، ويحيى الشعور بالوحدة العامة والتضامن المستمسك بعضه ببعض ، فى جميع الأمم الاسلامية ، احياء نشيطاً . ولم يكن يساعده على ذلك كونه خليفة الاسلام فحسب ، بل ما كان يبسطه و يبينه من جميع ماتكنه وتظهره الدول الغربية من أنواع العداء ، والمقت للمسلمين والتحامل عليهم . هذا هو السبب الأكبر فى أن الدعوة التى أنشأها ودبرها عبد الحميد فى سبيل الجامعة الاسلامية كان لها من التأثير الشديد فى نفوس المسلمين ما برح يزداد و ينمو .

فلما حدثت ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ تبدلت الحال تبدلا كبيراً فى العالم الاسلامى ، فتلت الثورة التركية ثورة ايران ، ثم أخذت شرارات الثورات تبدو فيعقبها الانفجار

فى كثير من الأقطار الشرقيــة ، وعلى أثر ذلك شرع يتبــدى فى وقت قريب فى كل قطر اسلامى تيار جديد هائل ، وظواهر اجتماعية لم تعهد من قبل ، كتطلب الحكومات النيابية ، واحياء روح الجنسية والقومية وما أشــبه ذلك ، مما رافقه تطور اجتماعى كبير — تطور كانت عناصره منذ أمد بعيــد تزداد اختماراً فى العالم الاسلامى حتى حان أجل ظهوره فظهر رائعاً . واننا سنفصل الكلام على هــذا التطور بأنواعه فى الفصول التالية من هــذا الكتاب ، غير أن ما يجب تدبره مجملا فى هذا المقام هو ما كان لهذا التطور الكبير من التأثير فى مجرى حركة الجامعة الاســلامية ، فونيت فى سيرها بعض الونى مدة كان فيها الاضطراب السياسى والقلق الاجتماعى ينتشران انتشاراً عاماً فى جميع بقاع العالم الاسلامى .

ولم تــكن هذه الفترة طويلة . ففى سنة ١٩١٢ عادت الجامعة الاسلامية تستأنف سيرها ومجراها ، وكان الباعث على ذلك هو اشتداد اعتداء الدول الغربية . ففى سنة ١٩١١ أغارت ايطاليا معتدية على طرابلس الغرب الافريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ماعلة ســوى الاستعمار . وفى سنة ١٩١٢ تألبت الدول البلقانية النصرانية وأوقدت نار الحرب على تركية ، فخسرت تركية فى هذه الحرب جميع أملاكها الأوربية ، فلم يبق من جميع ما كان لها فى أوروبة غير القسطنطينية معرضــة لخطر الغارات عليها ، ومهددة شر تهديد[1] . وفى تلك الغضون اتفقت انكلترة وروسية على خنق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسة على أثر معضلة « أغادير » تحرق الارّم ، فعضت على مراكش بالنواجذ وأنفذت فيها المخالب ، وهكذا فى خلال سنتين توالت الحملات الأوروبية تترى على العالم الاسلامى ، حملات العدوان والاعتداء المحض ، فمزقت ما كان باقياً منه حتى ذلك العهد سليماً شر ممزق .

فنزل ذلك على الأمم الاسلامية قاطبة نزول الصاعقة يصم الآذان دويّها . فأخــذ العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشتعلا غضباً وحنقاً . فعادت الجامعة الاســلامية الى سابق حالها تجرى مجرى سريعا . وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان ينبىءُ به على غير انقطاع دُعاة الجامعــة الاسلامية منــذ خمسين سنة — الحرب الصليبية الجديدة لدك الممالك الاسلامية دكاً . وصدق جميع ما كان يذيعه جمال الدين الأفغانى ، الحكيم العظيم .

(١) عند ماأعلنت الدول البلقانية الأربع الحرب على تركية ، نشرت بلاغا لم يشك قارئه أنه بلاغ ملوك الصليبيين فى القرون الوســطى . . . أى اعلان حرب دينية ولم نجد من الاروبيين من أنــكر هــذا الامر. (ش)

وأخـذت نتائج الجامعة الاسـلامية تتبدى ، في طرابلس الغرب انبرى الترك والعرب يقاتلون جنباً الى جنب بروح عجيبة تبعثها فيهم دعوة الجامعة الاسـلامية ، من بعـد ما كانوا قبيـل ذلك على حال من الازورار والتنافر شديدة فلقى المعتدون الطليان أمامهم مقاتلة مستبسلين ملء صـدورهم ضرم من التعصب لا يطفأ ، ضرم يزيده العالم الاسـلامى وقيداً [١] مما حمل ساسة الغرب على الجزع والارتباك شديداً ، فأخذوا يتساءلون فى الخطب الـكبير ، وفى الذى عساه أن ينفجر انفجاراً عاماً فى مشرق العالم الاسلامى ومغربه . فقال « غبريال هانوتو » وهو وزير فرنسى من وزراء الخارجية السابقين : « باللّه لماذا وجدت ايطاليا طرابلس غير المحصنة كوكر الزنابير اللساعة ؟ أفليس لأنها لا تحارب تركية وحدها بل العالم الاسلامىأجمع . فايطالية جنتعلى نفسهاوعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومنتهاها » ولم يكن خنق انـكلترة وروسـية لثورة ايران ، ومحق فرنسة لاستقلال مراكش بأقـل استثارة للعالم الاسلامى من حرب طرابلس ، فزادات نار الغضب احتداما .

غير أنه لمـا نشبت الحرب البلقانيـة ، طفح الـكيل و بلغت الروح التراقى ، فبات المسلمون من الصـين حتى الـكونغو ، يرتقبون أنباء الحرب ونتيجتها ، وقلوبهم على أحر من جمر الغضا ، فلما طير البرق نبأ الـكارثة التركية فى البلقان أجفل العالم الاسلامى للخطب أيما اجفال ، و بلغت صرخاته عنان السماء . فقال أحـد مسلمى الهند فى نداء وجهه الى بنى قومه: « يوقـد ملك اليونان نار حرب صليبية جديدة ، و يستنصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الاسـلام ، و يأتمر وزراء الروسية فى بطرسبرج لرفع الصليب وشـكه على قبة مسـجد « آجيا صوفيا » فاليوم هم يأتمرون و يتشاورون فى هـذا الخطب ، وغـداً يفعلون مثل ذلك للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب ـ المسجد الأقصى فى بيت المقدس .

« أيها المؤمنون الاخوة ! اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . فان

---

(١) عند ما كنا فىمعسكر أنور بعين منصور بأعلي درنه ، كنا نجد مجاهـدين لا من برقة ، ولا من طرابلس فحسب ، بل من تونس ؛ والجزائر ؛ والمغربالاقصى ؛ ومنالسودان ، ومنمصر ، ومنالشام ، ومن بلاد الترك ؛ وقدم علينا ٥٠ مجاهداً من بلاد الافغان وذكر السنيور جيوليتى فى خاطراته التى نشرها مؤخراً ؛ وكان أيام الحرب الايطالية رئيس نظار ايطالية ، أن انـكلترة ألحت عليه بالاتفاق كيفما كان مع تركية ، انهاءً لهذه الحرب التى أثارت جميع العالم الاسلامى ، حتى وردت على انـكلترة الاحتجاجات ليس من الهند فقط ، بل من كل بقاع العالم الاسلامى حتي الصين: (ش)

الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله و رسوله أن ينضم الى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ، ويجاهدفى سبيل الذود عن حياض الاسلام والمسلمين . »

وقال أحد زعماء المسلمين فى الهند مخاطباً الدولة البريطانية : « اننا ننادى الحكومة البريطانية بملء أفواهنا أن تقلع عن سياستها العدائية لتركية ، اتقاء لانفجار بركان المئات من ملايين المسلمين ، انفجاراً يجر البلاء عظما »

وأعجب ما بدا ، أن أخذ المسلمون يوجهون النداء تلو النداء لغير المسلمين من شعوب آسية ، يدعونها الى التآزر والاتحاد ازاء الغرب المعتدى ، فكان هذا الأمر وايم الحق غريبا فى بابه لم يسبق له مثيل منذ نشوء الاسلام . فان محمداً ، وقد جاء بالقرآن مصدقا للتوراة والانجيل ، وقال انه هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، بعث الله من قبله موسى وعيسى ، أمر المرسلين باحترام النصارى واليهود وسماهم « أهل الكتاب » ، تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان . وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير ، فما كانوا قط يوما مبغضين للنصارى بغضهم للوثنيين من البراهمة والبوذيين والكنفوشيوسيين أهل الشرق الاقصى (١) .

(١) ان الاسلام ، هو كما هو معلوم من القرآن الكريم ، يرى النصاري أقرب الناس مودة الى الذين آمنوا ، وان القرآن جاء مؤيداً ، للانجيل والتوراة ، وكان ضلع المسلمين فى صدر الاسلام هو مع النصارى بالتخصيص ، بدليل انه لما وقعت الحرب بين الروم والفرس وتغلب الفرس على الروم ، حزن الصحابة يومئذ حزناً شديداً ، فنزلت الآية الكريمة « غلبت الروم فى أدني الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » فلما صدق قوله تعالى بتغلب الروم على الفرس بعد بضع سنين ، فرح الصحابة فرحاً شديداً ولم يكن ذلك لكون الروم أقرب اليهم جنسا من الفرس ، بل الروم والفرس بالنسبة الى العرب على السواء ، بل لكون الروم أهل كتاب والفرس يومئذ عبدة نار لم يكن الله شرح صدرهم للاسلام . ولما غزا العرب الشام ، أوصى الخليفة أبو بكر الصديق بالنصارى ورهبانهم خيراً فى خطبة مشهورة ، ولما حضر الخليفة عمر بن الخطاب الى بيت المقدس كان من حسن معاملته للنصارى ماهو مشهور أيضاً فى التواريخ . وروى المؤرخون ان الامام عمر زار كنيسة القيامة وبينما هو فيها أدركته الصلاة فأراد أن يخرج من الكنيسة يصلى فدعاه البطريرك صفرونيوس الى محل داخل الكنيسة يصلى فيه، فأبي فألح عليه بالرجاء فأجابه : كلا. يأتى المسلمون بعدى فيقولون هنا صلى عمر فيجعلون هناك مسجداً فى وسط كنيستكم . وهكذا كان الخليفة الأول والثانى يرعيان حرمات النصارى ، ومنسوب الى سيدنا عمر عهد عهده الى النصارى فيه من البر بهم ماليس فوقه مزيد . ولكن سياسة أوربا من أيام الصليبين الى هذه الساعة ، قد كدرت هذا الصفاء ، وما زالت تكدره حتى بلغ من حنق المسلمين اليوم أن صاروا البا واحدا مع البراهمة في الهند ، والبوذيين فى الصين ، لابل الفتيشين فى أواسط افريقية على الأوربيين . (ش)

بيد أن هذه الحال شرعت تنقلب وتتحول منذ الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ ، اذ ظفرت اليابان ، الدولة الشرقية الوثنية « الكافرة » ، على دولة غربية نصرانية ، ودقت عنقها دقاً ، فهب غالب المسلمين يبتهجون لانتصار اليابان هذا ، ابتهاجاً ملؤه الفخر الشرقي والحماسة الاسلامية ، وتمنى كثير من رجال الجامعة الاسلامية ودعاتها لو ينتحل أبطال اليابان الاسلام [١] وشرع فى تحقيق هذا الأمر العظيم ، والتمست وسائل التقرب من اليابان ، ثم أنشئت العلاقات معها ، وأنشئت الصحف العديدة لنشر الدعوة ، واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الاسلامى الكبير ، فأوفد السلطان وفداً الى اليابان على بارجة حربية ، وأخذ العالم الاسلامى بسبب ذلك يلهج بحديث اسلام اليابان ، ويتناقل الأنباء فى هذا الصدد ، ويتباحث فيه ويحبذه أشد التحبيذ . قالت صحيفة مصرية سنة ١٩٠٦ : « ان بريطانية العظمى ، وفى حكمها ستون مليونا من المسلمين ، لتخشى كل الخشية أمر اسلام اليابان ، الأمر العظيم الذى اذا كان ، تغير على الأمر مجرى السياسة الاسلامية العامة تغيراً كلياً هائلا . » وقال شيخ من شيوخ مسلمى الصين : « اذا شاءت اليابان أن تدرك منزلة لم تدركها مثلها دولة فيما مضى ، وأرادت أن ترفع شأن آسية على شأن سائر القارّات ، فلا يتم لها ذلك بتة الا بانتحالها الاسلام ديناً . »

فاستقبلت اليابان وفد المسلمين استقبالا جليلا ، وأحلته محل الرعاية والاكرام ، بيد أنها لم تكشف عن رغبة فى الدخول فى دين الرسالة . وكانت النتيجة أن وضع أساس للعلاقات الودية الحبية بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة فى آسية . ومما زاد فى ذلك التقرب ، فأخذت عرى الولاء تتوثق ، الحرب البلقانية وما تجلى فيها ومن حولها من المطامع الاستعمارية الهائلة . ويمكن العلم بحالة شعور المسلمين ومبلغ ما آلت اليه من الاضطراب

---

(١) جاء أحد أمراء الأسرة المالكة فى اليابان ، فى أيام السلطان عبد الحميد الى الاستانة ، فبينما هو فى الحديث مع السلطان ، اذ جاء ذكر الأديان فقال له السلطان : « بلغني أنكم تبحثون عن دين ، فان كان الخبر صحيحاً ، فأنا أوصيكم بالاسلام » . فقال له الأمير اليابانى : « ليس الخبر كما بلغ جلالتكم ، بل نحن متمسكون بديننا » قد سمعت ذلك من فم العلامة المرحوم منيف باشا ، ناظر المعارف الشهير ، فى أيام عبد الحميد ، وكان صدوقا حراً ، ثقة فى كل ما يرويه ، ومع ما كان عليه من شرف الطباع ، لم يكن متظاهراً بالتدين . فليسمع ذلك من يزعمون أن اليابان لم ترتق فى المدنية الا بعد ان خلعت الدين ، ونبذته ظهريا . (ش)

والاهتياج يومئذ ، بالوقوف على الصرخات الندائية المتوالية التي أخذ المسلمون يوجهونها نحو الهندويين (الهندوس) . ومثال من ذلك نداء عظيم الخطر والشأن ، موسوم : « رسالة الشرق » جاء فيه ما يأتى : —

« يا روح الشرق ! ! ألا هبى من مرقدك وادفعى عن الشرق هذا الطوفان الغربى ، طوفان عدوان الفرنجة و بغيهم واعتدائهم ! !

« ايه ابناء هندستان !! كونوا لنا عونا ونصراً بحكمتكم ، شدوا أزرنا بحضارتكم ، وتهذيبكم ، كونوا لنا نصراء بخالد قوتكم ، قوة الهندويين آبائكم وأجدادكم . دعوا قوة الأرواح الكامنة فى قمم جبال حملايا تنبثق فقد حان لها ، وحقّ من أوجدها ، الانبثاق ، املأوا الجو بصلواتكم الى اله الحرب لينصر الحق على القوة الغاشمة ، ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، وارفعوا أصوات دعواتكم فى هيا كل ربوات آلهتكم أن تهلك جيوش الأعداء المعتدين »

فمن تدبر هذا المآل الذى آلت اليه حالة المسلمين ، ولا سيما تقربهم من « الكفرة » ، وتوثيق عرى الولاء بينهم و بينهم ، لا يسعه الا تكبير هذا الأمر وتعظيمه ، والتعجب والاستغراب ، ولم يكن هذا التبدل الهائل مقصوراً على مسلمى الهند وحدهم ، بل شمل أيضا مسلمى الصين . فقد قالت صحيفة اسلامية من صحف تركستان الصينية ، تدعو الى اتحاد الصينيين قاطبة اتحاداً وطنياً منيعاً للوقوف فى وجه الغرب المعتدى ، ما يأتى : « ان أوروبة قد بلغت من الطغيان والجور مبلغاً لا حدّ له ، فهى لا تنفك تنازعنا على حريتنا التى هى أقدس شئ لدينا ، وأوروبة ثم أوروبة ضاربتنا الضربة القاضية اذالم يستنصر بعضنا بعضا ، ونهبّ معا فى يوم آت هبة المدافعين عن الأوطان دفاع الابطال » . وفى الدور الأول من الثورة الصينية ، نفض مسلمو الصين عنهم رداء العزلة ، واصطفوا الى جانب أبناء بلادهم البوذيين والكنفوشوسيين يقاتلون معهم مستبسلين ، فى سبيل الوطن ، وقد أثنى الدكتور «صن — بات — سن» الزعيم الجمهورى الكبير على مسلمى الصين بقوله : « ان الصينيين لن ينسوا أبداً نصر اخوانهم المسلمين لهم فى سبيل تأييد نظام البلاد واستقلالها وحريتها [1] »

(١) كان المسلمون فى حرب البوكسر يداً واحدة ، وظهرة واحدة مع أبناء وطنهم البوذيين وكان لهم عمل كبير فى تلك الحرب ، حتى التمست الدول من السلطان عبد الحميد ارسال وفد من قبله ينصح مسلمى الصين باسم الخلافة أن يجنحوا الى السلم . (ش)

فلما نشبت الحرب الكونية العظمى ، كان العالم الاسلامى أجمع مضطربا اضطرابا عميقاً ، ومحتدما حنقاً على الغرب المعتدى ، وشاعراً بضرورة اتحاده اتحاداً مكيناً ، وساعيا جد السعى لعقد المحالفات بينه و بين غيره من الدول الآسية ، ليتسنى له بذلك القيام بجهاده المنوى فى سبيل التحرر من ربقة الغرب

وربما يرى بعضهم من دواعى الاستغراب ، أنه لما دخلت تركيا فى معمعان الحرب العامة فى أواخر سنة ١٩١٤ ، وأعلن السلطان دعوته للجهاد لم يهبّ على أثر ذلك العالم الاسلامى هبته الكبرى المتوقعة . فلا يجب أن يؤخذ من ذلك أن دعوة السلطان هذه للجهاد المقدس انما كانت صرخة فى واد ، أو نفخة فى رماد ، كما حملت أنباء الحلفاء الغرب على هذا الاعتقاد فى ذلك الحين ، فالأمر فى الواقع كان على الضد مما شاع ، فقد كان الاضطراب هائجا شديدا أيما شدة فى كل بلاد اسلامية فى حكم الحلفاء ، ونحن ذاكرون بعضاً من هذه البلاد . فمصر باتت تغلى فيها عوامل الثورة غليان المرجل على النار ، وصارت على مقربة من الزوبعة الهائلة[1] ، فلولم تملأ بريطانية بلاد النيل أجناداً لاعداد لها ، لحدثت فى مصر الأهوال . وطرابلس ثارت ثورة عمياء ردت بها الطليان على أعقابهم حتى ساحل البحر ، وايران كانت على وشك الاتحاد مع تركية لولم يحل دون ذلك تدخل روسية و بريطانية وهيضهما جناحها ، والهند الشمالية الغربية غدت ميدان قتال عنيف لم تقف رحاه حتى ساقت بريطانية اليه مئتين وخمسين الفاً من الجنود البريطانية الهندية . وقد اعترفت الحكومة البريطانية اعترافاً رسمياً بأن جميع البلاد فى حكم الحلفاء فى آسية وافريقية ، كانت خلال سنة ١٩١٥ قد وقفت من الثورة العامة والبركان الهائل على قيد خطوة .

حقاً لو نطق قادة المسلمين فى سائر الاقطار الاسلامية بالكلمة الاخيرة ، لكان بركان العالم الاسلامى قد انفجر وملأ الجو حمماً . بيد أن تلك الكلمة لم ينطق بها ، وقام عدد عديد من زعماء المسلمين خارج البلاد العثمانية يستهجنون دخول تركية فى الحرب كل الاستهجان، و يعدونه خرقاً فى السياسة الرشيدة ، و يبذلون غاية مافى طوقهم لتسكين النفوس الثائرة والخواطر الهائجة . وقد دل عمل هؤلاء القادة والزعماء على حصافة فى الرأى كبيرة . فانهم أيقنوا

(١) ثورة دارفور التى قتل فيها على بن دينار سلطان دارفوار كانت من أثر اعلان الجهاد وثورة الصومال ايضاً . (ش)

أن هذه الآونة ليست بالتى توقد فيها نار الحرب العامة فى العالم الاسلامى ، ولا بالسانحة التى تغتنم للدعاء حىّ على الجهاد الاكبر لتقويض سيطرة الغرب على الشرق . والسبب فى ذلك أن الامم الاسلامية لم تكن قد استوفت جميع الأهب المادية اللازمة لها بعد . ولم تحكم عرى التفاهم التام بعضها مع بعض من ناحية ، ولا بينها و بين حليفاتها من الأمم الكبرى غير المسلمة من ناحية أخرى . وكانت الصلات المعنوية الادبية فى الامم الاسلامية على حال غير مستوفاة الشروط . زد على جميع هذا أن قادة المسلمين أنفسهم أدركوا حق الادراك أن تركية باتت صنيعة طيعة بين يدى ألمانية تنزل على أمرها اقبالا وادباراً ، وأن « تركية الفتاة » غدت تدير دفة سفينتها عصبة من الجحدة الغربيين ، غالبهم ليس من المسلمين ، أوليسوا مسلمين الا اسماً ، بل هم من زنادقة اليهود[1] وعلى ذلك لم يكن من رأى عقلاء المسلمين الاصطلاء بنار ألمانية ، ولا الموافقة على مارسمته من الخطط وأبدته من المطامح البعيدة للاستيلاء على العالم ، اذلا طائل للمسلمين فى ذلك سوى ابدال أنيار بأنيار ، بل عولوا أن يترك الغرب وشأنه ، يقاتل بعضه بعضا فيضعضع كيانه وتسلب منته ، ويهن عظمه ، وتتجلى مخبآت مقاصده ومكنوناته نحو المستقبل . بينما يهتبل العالم الاسلامى فرصة نزاع الغرب هذا النزاع الشديد ، فيستجمع من قواه ما كان مبعثراً ، ويشدد من بأسه وحوله وقوّته ، ويعد العدة حتى اذا ماحانت الساعة المرتقبة ، وثب وثبة الأسد الهصور ، فانتصف له من عدو عنيد .

وكان مؤتمر « ڤرسايل » كاشفاً عن مقاصد الدول الغربية ، تلك المقاصد التى كان يتوقع ظهورها دعاة الجامعة الاسلامية . فلما ظهرت واضحة طفقوا يجدّون فى سبيل اعداد برنامج العمل اعداداً تاماً لاعيب فيه ، وتوثيق الروابط المعنوية ، واحكام الوحدة الأدبية بين الأمم الاسلامية ، وفى مؤتمر « ڤرسايل » حسرت الدول الغربية الظافرة اللثام عن جبينها ، وبينت غاية التبيين أنها لا تنزل عن مطمع من مطامعها الاستعمارية ، ولا تروم الرفق ولو أقله بالأمم الشرقية ، ولا التقليل من وطأة السيطرة الشديدة الضاربة فى الشرقين

(١) فى سلانيك طائفة يقال لها « الدونمه » اى العائدون المنيبون ، أصلهم يهود من مهاجرى اسبانية ، الذين خرجوا منها مع عرب الأندلس . وقد أسلموا منذ نحو اربعمائة سنة ، ولكن اسلاما مشوباً ببعض عقائدهم الأصلية . ولما كانوا المثل البعيد فى الحصافة والذكاء ، والقيام على الأمور المالية بنوع خاص ، كان الدور الذى يمثلونه فى الهيئة الاجتماعية التركية ، أعظم جداً مما يستحقه عددهم . وكان أثرهم فى حركة الانقلاب الدستورى مهماً . فكان منهم أناس يعدون أركاناً فى جمعية الاتحاد والترقي .(ش)

الأدنى والأوسط . فقد قامت هذه الدول المنصورة واقتسمت بعضها مع بعض المملكة العثمانية، على مقتضى طائفة من المعاهدات السرية التى كانت قد أبرمتها فيما بينها خلال الحرب العامة، وكانت تلك المعاهدات السرية فى الواقع أساساً بنى عليه الصلح الذى عقد فى مؤتمر ڤرسايل. زد على جميع ذلك ، فقد كانت بريطانية قد أعلنت فى أوائل الحرب أن مصر صارت من البلاد البريطانية المحمية ، وقبيل انفضاض مؤتمر ڤرسايل ، ظهرت بغتة معاهدة جديدة بين بريطانية والعجم ، من مقتضاها أن هذه البلاد الاخيرة باتت فى باطن الامر على الاقل ، ان لم يكن فى باطنه وظاهره معاً ، معدودة من البلاد البريطانية المحمية أيضا فكان مؤدى هذه النتائج جميعها أن دول الحلفاء قد غلت الشرقين الأدنى والأوسط بأغلال من السيطرة السياسية الثقيلة غير مسبوقة المثيل .

غير أن للأمر وجهاً آخر نقيضا لما تقدم . ذلك أن قام ساسة الحلفاء خلال الحرب مئات المرات ينشرون التصريحات الرسمية ، ان الغاية الكبرى الوحيدة فى هذه الحرب الدموية المخوضة الغمار ، انما هو انشاء نظام عالمى حديث ، قائم البنيان على مكارم الأخلاق ، والأسس الصحيحة والقواعد الشريفة . كرعاية حقوق الأمم المستضعفة ، واطلاق الحرية لجميع الشعوب والأمم فى اختيار حكمها ، وتقرير مصيرها ، وامتلاك مقدراتها . فذاعت هذه التصريحات فى الشرق أيما ذيوع ، واختزنتها الأمم الشرقية لا بل حفظتها عن ظهر قلبها وأخذت ترتلها ترتيلا . فلما وجد الشرق أن الصلح لم يبن على شئ من تلك القواعد والأسس الصحيحة ، ولا على مقتضى مئات التصريحات المحفوظة ، بل على المعاهدات المقطوعة بين الدول بعضها مع بعض سراً وخفاء معاهدات الجشع الاستعمارى والحكم والفتح ، لحدثانَ ما احتدم غضباً ، يكبر نوازل الجور والبغى ، ويعظم سوم هذا الخسف والذل ، فأخذت مراجل العداء تشتد غلياناً فى كل صقع من أصقاع الشرق ، فاكفهرّ الجو وقصفت الرعود منذرة بأهول الصواعق . ولم يكن هذا بالحادث المستغرب ، اذ قد سبق للكثير من الخبراء العقلاء الغربيين ، الراسخين علماً بالأمور الشرقية ، فأنذروا الدول الغربية المرة تلو المرة قبل انفضاض مؤتمر « ڤرسايل » بسوء العقبى الواقعة فى الشرق ، وبانفجار عظيم لا بد منه ، من هؤلاء المنذرين « ليون كايتانى دوق سرمونيته » وهو ثقة من ثقات الطليان فى شؤون العالم الاسلامى ، فقد قال فى ربيع سنة ١٩١٩ فى جملة حديث له

ذكر فيه نتيجة الحرب العامة فى الشرق : « ان الحرب الكونية العظمى ، قد هزت شجرة الحضارة الشرقية فاهتزت اهتزازاً بلغ أقصى الجذور فى التربة ، و بعثت فيها روحاً عجيبة . ان الشرق أجمع ، من الصين حتى أقصى سواحل البحر المتوسط ليميد ميداناً عنيفا ففى كل رقعة و بلد ترى نار العداء للغرب مشبوبة ففى مراكش الفتنة ، وفى الجزائر الثورة ، وفى طرابلس الغرب عواصف الاضطراب والهياج ، وفى مصر و بلاد العرب وليبية وسائر الأقطار الاسلامية الحركات الوطنية القومية الكبرى ، جميعها متماثلة الصفة العامة ، وموحدة الغاية : تماسك العالم الشرقى الاسلامى بعضه ببعض ، ومناهضته للحضارة الغربية ما استطاع الى ذلك سبيلا . »

فكانت هذه الكلمات كأنها رؤيا صادقة ، فأخذت تتحقق فى العالم الاسلامى . غير أنه لما كانت الواقعات الأخيرة التى تقوم بها الأمم الاسلامية انما تغلب عليها صفات القومية الوطنية فاننا سنبسط الكلام عليها فى فصل (العصبية الجنسية) من هذا الكتاب . وما يجب رعايته حق الرعاية فى هذا المقام هو أن العصبيات الجنسية الاسلامية والجامعة الاسلامية ، ولو كان ما كان بين بعض وجوهها والبعض الآخر من الاختلافات ، فانها بجملتها متحدة متجهة نحو غرض عام واحد : هو القيام فى وجه السيطرة الغربية المرهقة ، وتبديدها وتمزيقها ، و تحرير الأمم الاسلامية من قيود السلطة الأوروبية السياسية . واذ وعينا هذه الحقائق وتدبرناها ، فاننا نأتى للكلام على حاضر الجامعة الاسلامية و واقعها المشهور :

قد هاج تيار الجامعة الاسلامية هياجاً هائلاً ، وثار ثوراناً عجيباً ، فى هذه الآونة الأخيرة والباعث على هذا انما هو الارهاق الغربى ، المتوالى الشدة والزيادة منذ الزمن البعيد . ثم كانت الحرب العظمى فاستثارت من الجامعة الاسلامية ما لم يستثر من قبل ، ثم ولى الصلح الحرب ، وهو الصلح الذى سبق لنا فأبنا قواعده وأركانه الفاسدة وما دهى العالم الاسلامى بسببه من النوازل والفواجع ، ولا يغربن عن البال أن الجامعة الاسلامية على مختلف حالاتها وتطوراتها ، يجب ألا تعتبر أنها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب رداً لاعتدائه ودفعاً لجوره فحسب ، بل ان منشأها الأصلى هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة ، فى المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، تلك الجامعة التى قلنا فيها

قبلا انها بين المسلم والمسلم لأقوى منها حقاً بين النصرانى والنصرانى . فان عرى هذه الجامعة ليست دينية فقط ، بل انها بحقيقة المعنى والمراد اجتماعيـة خلقية تهذيبية . وان القوانين والقواعد التى تتألف منها وتقوم عليها حيـاة الاسرة الاسلاميـة ، على مختلف العادات والأقاليم لا تتغير فى موضع عنها فى موضع آخر فى جميـع المعمور الاسلامى . قال (السر مور يسون) : ـ « ان الحق الذى لا يمارى فيه أن الاسلام أكثر من معتقد ودين . انما هو نظام اجتماعى تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج لهـا فلسفتها وتهذيبها وفنونها . وقد انقضى ما انقضى من العهد الذى ما برح فيه الاسلام والنصرانية على نضال ونزاع ، فما عرى وهنٌ جانباً من جوانب الاسلام قط ، بل ما انفك على الدوام يشتد بعضه مع بعض متماسكا متعاضداً ، حتى صار وحدة جامعة ، نامية نمو الجسم العضوى ، سائراً سيره بفعـل نظامه الذاتى المستقر فيه . »

فالمسلمون تربط بعضهم ببعض روابط هـذه الحضارة ربطاً وثيقاً لا انفصام له . وباعتبار هذا المعنى ، فانها الجامعة الاسلامية انما هى عامة ، قائمة البناء فى جميع العالم الاسلامى، حتى ان المسلمين الاحرار ، على مايحبذون من الآراء الغربية التى يردون شرعتها ، من حيث لا يرتاحون الى دعوة الجامعة الاسلامية السياسية لتمشيها على الطرق الرجوعية ، يعتقـدون كل الاعتقاد فى وجوب الوحدة الاسـلامية الشاملة المبنية على أصول الحرية وقواعدها . قال امام حر من أئمة زعماء المسلمين فى الهند ، وهو أغا خان ، ما يأتى : (ان هناك جامعة اسلامية حقة صريحة ، ينضم الى لوائها الحر كل مسلم مؤمن مخلص ، أعنى بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية ، والوحـدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الاسـلامية . فهذه الوحدة ، الاسلامية الروحانية التهذيبية ، يجب أن تتعهد فتنمو أبداً ، لانها عند أتباع النبى أس الحياة وجوهر النفس .)

فاذا كان هـذا شعور المسلمين الاحرار الواقفين حق الوقوف على حضارة الغرب ، وتقدمه ، ورقيه ، وعمرانه ، والقائلين بوجوب الاقتباس منه والأخذ عنـه ، فما أشد شعور سواد المسلمين ، وهم الجاهلون الرجوعيون المتعصبون ؟ أضف الى هذا ما هو معروف فى عامة المسلمين من الشنأة لاعتداء الغرب وحضارته ، الشنأه التى ليس منشاها فى كل موضع سيطرة الغرب السياسية ، بل لمجرد الافراط والغلو فى التعصب . وقد كان للحوادث السياسية

فى العالم الاسلامى خلال العقد الأخير تأثير كبير فى هذا الافراط والغلو ، فالتهب التعصب التهاباً بالغا الحد تدفعه دوافع سياسية خلقية دينية وتجمعه صفة واحدة متماثلة متمكنة فى نفس كل مسلم ، فباتت السلم العامة فى المعمور الانسانى مهددة من ناحية العالم لاسلامى . هذا هو الواقع ، الذى يجب علينا أن نعترف به ، وألا نخدع نفوسنا فنستصغر شأن هذه الحالة العصيبة اليوم وما يحتمل أن ينجم عنها من المخاطر الكبرى فى الغد القريب .

وعلى ذلك ليس من اصابة الحقيقة فى شئ أن يقال ان تركية قد سبق لها فدعت المسلمين واستصرختهم الى حرب عامة ، وحاولت جهدها اقتداح زند الجهاد المقدس سنة ١٩١٤ ، نز ولا على أمر المانية ، فلم يكن هناك الايراء المرادفذهب الاقتداح باطلا ، بل كان دليلا على أن الجهاد الحقيقى فى العالم الاسلامى بات ضرباً من المحال . ان من حمله الوهم على هذا فهو على خطل شديد . اذ ان الجهاد لممكن أبداً كل الامكان . قال ضابط المانى كان من أركان الحرب فى الجيش التركى خلال الحرب العامة قولا صريحاً وهو : « ان الجهاد الذى أعلنته تركية قد حبط حبوطاً لانه فى الواقع لم يكن جهاداً بحقيقة معنى الجهاد عند المسلمين » . وقد سبق لنا فأبنا كيف هب قادة المسلمين خارج تركية فأخذوا يستهجنون دخولها فى الحرب . و بسطنا ماذهب اليه هؤلاء القادة من الخطط والأعمال .

فسلسلة الاعتداءات الغربية الآخذ بعضها برقاب بعض منذ القديم حتى انتهاء الحرب العامة ، وتقرير الصلح على الاسس والاركان التى ذكرنا صفاتها الفاسدة ، تقريراً كان من شأنه أن بات العالم الاسلامى أجمع خاضعاً خضوع الذل والخنوع للسيطرة الغربية . جميع هذا أشعل قلوب المسلمين ، فهبوا هبوب العاصفة تقتلع كل شئ فى سبيلها . أضف الى ما تقدم ان الاهب المادية ما برحت تزداد وتستوفى . وقد سبق للمستشرق الكبير العلامة ارمينيوس ڤمبارى الخبير حق الخبرة بشؤون العالم الاسلامى ، فأنذر الغرب انذاراً منذ أكثر من عشرين سنة ، قال فيه ان السياسة الاستعمارية النهمة انما هى السبب فى نشوء المخاطر العظمى فى الشرق ، واليك بعض ماجاء فى مقاله الذى نشره سنة ١٨٩٨ « ان الخطر الباعث على حرب كونية عامة يزداد فى الشرق ازدياداً عظيما على توالى الأيام . ولا يغيب عن البال أن روح العداء والمقاومة قد اشتدت ، والصدور وغرت ، والحفائظ اتقدت ، أعنى بذلك ان الشعور بالوحدة العامة والجامعة الرابطة قد صار شعوراً عاما ، ناميا ،

منتشراً فى جميع الشعوب الاسلامية ، وقد كان من المساعد على ذلك الوسائل الحديثة للنقل والتواصل ، فباتت الحالة اليوم غيرها منذ عشر سنين الى عشرين سنة .

« وليس من المستغرب أن نقدم على تنبيه الصليبيين فى أواخر القرن التاسع عشر الى المنزلة العالية التى أدركتها الصحافة الاسلامية اليوم من الخطورة والشأن ، والى عامّ انتشارها فى آسية وافريقية ، وما لعظاتها البليغات وانذاراتها الموقظات من التأثير الشديدفى نفوس قارئيها المسلمين . فللصحف الوطنية ، السيارة والدورية ، فى تركية والهند وفارس وأواسط آسية وجاوة ومصر والجزائر مفعول عظيم ، اذ كل ماتفتكر فيه أوربة وتقرره وتقوم على انفاذه على ماينافى المصلحة الاسلامية ، تنتشر انباؤه فى جميع هذه الاقطار بسرعة البرق ، وتحمل القوافل هذه الانباء الى كل جهة شاسعة وصوب سحيق فى الرقاع الاسلامية ، حتى الى قلب الصين وخط الاستواء ، حيث يهب المسلمون لتلقى مثل هذه الانباء معظمين مكبرين. فالشرارة التى تستطير من مجمع من مجامعنا ، أو ناد من انديتنا ، أو وليمة من ولائمنا ، فما تزال فى مستطارها ومسبحها فى الفضاء ، حتى تجوب أقاصى العالم الاسلامى فتقع وقوع الرعد القاصف. وماتنشره صحيفة «ترجان» فى القريم مثلا ، ترددهصحيفة «اقدام» فى القسطنطينية ، ويرن صداه عظيما فى صحيفة «الحوادث الاسلامية» فى كلكتا فى الهند

« فالجامعة الاسلامية اليوم مسترخية العرى بعض الاسترخاء ، غير ان اعتداء الغرب على غير انقطاع ، وعسفه المتوالى الذى يزداد اشتداداً على الدوام ، سيحملان على استجماع هذه العرى بعضها الى بعض فتتماسك وترتبط ، فتصير الجامعة الاسلامية كالبنيان المرصوص منيع الاركان ، فيتوقع حينئذ من وراء ذلك حرب عالمية مشبوبة فى انحاء المعمور لاتبقى ولاتذر . »

منذ نشر ڤامبارى انذاره هذا حتى اليوم ، مابرح الأمر يتفاقم والنعرة الاسلامية تثور فى وجه السيطرة الغربية ، وقد زاد فى هذا زيادة كبيرة النهضات القومية ، والحركات الوطنية الاسلامية التى كانت تكاد لاتعرف فى القرن الماضى ، وهى قدأصبحت اليوم على أتم مايكون من النظام ، والكفاية من أسباب الذيوع والدعاية . ولنا مثال على هذا وهو صحف الدعوة للجامعة الاسلامية وهى التى أشار اليها ڤامبارى ، فقد تعاظمت تعاظماً غير مسبوق المثيل . ففى سنة ١٩٠٠ لم يكن فى العالم الاسلامى أكثر من مئتى صحيفة دعوية ، فبلغ هذا

العدد سنة ١٩٠٦ حد الخمسمائة صحيفة ، وأربى سنة ١٩١٤ على الألف صحيفة ، فالمسلمون يرحبون فى بلادهم بأسباب النقل والتواصل مثل البرد والبرق والقطر الحديدية ، وغير ذلك مما يساعد على تطيير الانباء ونقل الاخبار . وكل بلاد من بلاد المسلمين هى على اتصال دائم مع سائر البلدان الاسلامية ، اما تواً على يد الرسل ، والسعاة ، والحجيج ، والسياح ، والتجار والبرد ، واما على يد الصحف الاسلامية والكتب والنشرات والمجلات . ففى القاهرة ترى صحف بغداد وطهران و بشاور ، وفى البصرة و بومباى ترى صحف القسطنطينية ، وفى المحمرة وكر بلاء و بورتسعيد ترى صحف كلكتا . واما الوسائل الكبرى للدعاية فى سبيل الجامعة الاسلامية فهى الطرق الدينية التى سبق لنا الكلام عليها وهى حقا كالسيل الطامى فانها ماأدركت أمة مسلمة الااستولت على مشاعرها وقلوبها ، وسيرتها سهلة الانقياد الى تعاليمها . وترى دُعاة هذه الطرق يقومون بوظائفهم على أساليب عديدة غريبة ، فهم يجوبون الأقطار بألوف الأزياء المتنكرة تجاراً و وعاظاً ومرشدين وعلماء وطلبة واطباء وعملة ومتسولين وفقراء ومساكين، حتى ومشعوذين ودجالين ، وحيثما وصلوا ترى المسلمين قد تسارعوا لاستقبالهم على الرحب والسعة ، واخفوهم عن عيون رقباء الحكومات الاستعمارية . »

زد على جميع هذا أن ساد اليوم فى العالم الاسلامى سيادة عامة ، الاعتقاد الذى يؤيده الأحرار والغلاة والمحافظون وسائر الأحزاب معاً ، أن المسلمين اليوم هم فى دور النهضة ، والانتقال ، والتجدد ، يستردون مجدهم الاسلامى الفائت و يستعيدون عزهم التليد . قال السر ثيودر موريسون : «ليس من مسلم يعتقد ان الحضارة الاسلامية فانية أوغير متجددة مترقية ، انما يعتقد ان قد عرتها فهقرى قصيرة فحسبُ فقصر المسلمون أمرهم على التطوح فى الاشادة بمجد الجدود ، وتعصبوا فى ذلك وغالوا شديداً ، ولكن أمرهم هذا ما كان ليختلف فى صفته عن الحال التى كانت سائدة فى أوربة خلال القرون الوسطى ، يوم كان ديجور الجهل مطبقا جميع البلاد النصرانية يعتقد المسلم اليوم أن العالم الاسلامى سائر فى طريق استئناف الارتقاء ، يأخذ عن الغرب مايزيد فى استحثاثه و يبعث فيه عزماً واقداماً ، ونشاطا ، فتطورت الحياة تطوراً تبدت دلائله فى كل قطر اسلامى . »[1]

(١) ذكر المؤلف فى هذا الموضع كلاما مقتبسا من كتاب (يقظة الشعوب الاسلامية فى القرن الرابع عشر للهجرة) لمؤلفة يحيي صديق ، اضربنا عن ترجمته — (المترجم)

فاذا كان دعاة الجامعة الاسلامية يجهرون بمثل هـذه الآراء ويصرخون تلك الصرخات فى مفتتح هذا القرن ، وقد جاءت الحرب العامة مصداقاً لما جهروا به السنين الطوال ، فلا جرم ان قويت شوكة الجامعة واتسع لها المجال فاشتدت قوة واندفاعاً . أضف الى هـذا ان الغرب قد انقلب بعد الحرب العظمى ضعيف المنة ، واهن القوة المادية وهناً كبيراً ، ثم جاء الصلح مبنياً على أركانه الباطلة ، وطفق الخلاف ينشب بين الغالبين بعضهم مع بعض نشوبا قوض مكانهم تقويضاً وقضى القضاء الأخير على منزلتهم فى عيون الشرقيين . وقد كان من شأن النزاع والمشادة بين كل من بريطانية وفرنسة وايطالية فى الشرق ، ان ساعد المسلمين مساعدة جليلة على زيادة تساندهم وتماسك بعضهم مع بعض ، فاشتد ايقانهم بادراك المبتغى ثم ان هذا التعادى الذى قام به الحلفاء فى الشرق قد سبب اضطراباً سياسياً عظيما فى الغرب فبعد التباين واتسعت فرجة الخلاف . قال أحـد كتاب الفرنسيس فى الآونة الحديثة ينذر أوروبة انذاراً شديداً : « ان العالم الاسـلامى بات لايعترف بحدود أملاكنا الاستعمارية ، والعاقل الذى يريد اعتبار الحقيقة لايعجبن من ذلك أقل عجب مادامت الدعوة الكبرى التى نشرها ورفع علمها جمال الدين فى المسلمين تسير سيراً دراكا . »

وأى شيء أدل على هياج الاسـلام ، وغليان مراجل حقده من ذلك الثوران الهائل الذى يقوم به السبعون مليونا من المسلمين فى الهند ، احتجاجا على تجزئة المملكة العثمانية ؟ والأمر الأخطر ان هذا الثوران الاسـلامى ليس مقصوراً على الهند فحسب ، بل انه شامل المعمور الاسـلامى ، وعلى ذلك فلم يغال السر ثيودر موريسون بانذاره : « لقد حان وأيم الحق للأمة البريطانيـة أن تعتبر وتتدبر خطورة ماهو جار فى الشرق ، فان العالم الاسلامى أجمع ليعج غضباً ، ويحتدم حنقاً ، من جراء تجزئة تركية . وما هـذه اللوامع النارية التى تبدو فى كابل والقاهرة الا البرق الذى تتلوه الرعود القواصف فالصواعق المزلزلة . انى قد أقمت فى الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت فى خلالهـا المسلمين حق المعرفة ، وأرى من الواجب على الآن أن أنذر أمتى البريطانية بشر عقبى هـذا الثوران الاسلامى الناشىء عن تجزئة تركية التجزئة المنوية . فان ساسة مؤتمر فرسايل قد خالوا تركية فى الأناضول منقطعة عن سائر العالم الاسلامى ، فليس من شعب يغضب لها ، ولا من أمة تغار عليها . فما أسوأ هـذا الخيال الباطل والوهم القاتل ! ! فمن شاء البرهان فلينظر الى هـذه الوفود الاسلامية

العديدة ، الحالة بين ظهرانينا فى لندن كأنها اللهب لايصطلى به . فالمسلمون قاطبة فى الهند ، من « بشاور » حتى « أركوت » قائمون قاعدون لمـا يرونه قد حل بساحة تركية والمسلمين حتى باتت النساء المسلمات يعولن اعوالا شديداً ، ويبكين حالة الاسلام بكاء الأمهات أطفالهن ، وترى التجار وهم أبعد طبقات الأمة من مزاولة الشؤون السياسية يفرون من حوانيتهم ومتاجرهم خفافاً الى حيث ينظمون رفائع الاحتجاج ويطيرونها بالبرق الى أنحاء العـالم ، وترى الطوائف العديدة من رجال الدين المتقشفين ، المتشددين ، المضروب بهم المثل فى شدة انقطاعهم عن جارى الحوادث فى العالم ، يخرجون من المساجد مواكب مواكب ليشتركوا فى القيام بالتظاهرات والاحتجاجات . »

وأغرب مافى الحالة ان الأحرار قد أخـذوا ينتظمون أكثر فأكثر فى عداد رجال الجامعة الاسلامية ويؤيدونها بما استطاعوا من القوة والحول ، على اعتقادهم بوجوب الأخذ عن الغرب واقتباس الآراء والأفكار منه ، وذهابهم مذهباً مخالفاً لغلاة الجامعة الاسـلامية وأرباب الطرق الرجوعية ، والحامل كل الحامل لهم على ذلك هو اشتداد الضغط والعسف الاوروبى ، فهم ازاء هذا الخطب الكبير يسعون فى رده بموالاة الأحزاب الأخرى والتحالف معها ، ولو الى حين ، مع علمهم ان الأحزاب الوطنية المغالية وأحزاب الجامعة الاسلامية اذا أثارت حرباً عامة باسم الجهاد ، فمن شأن هـذه الحرب أن تفتح غوراً بعيـد المهوى بين الشرق والغرب ، وتقضى على تلك العوامل والمؤثرات السارية من هذا الى ذاك ، وهى التى تُرى اليوم دابة فى كل عرق من عروق العالم الاسلامى باعثة فيه القوة والعزم ، ومع علمهم أيضا أن حرباً كهذه تشعل نار التعصب الرجوعية فى المعمور الاسلامى ذلك التعصب الذى اذا عاد فاتقد أوهن حركة الاصلاح الحديث فى الاسلام ايهاناً شديداً فأخرها مدة مديدة .

ولعل الذى عرف حتى اليوم من ثوران الاسلام لايعد أكثر من مقدمة لما سيحدث فى السنين المقبلة . ولنا دليل على هذا ظهور الدعوتين العظيمتين للاصلاح الدينى فى الاسلام اصلاحا ضاربا الى التعصب ، أما الأولى فهى دعوة « الاخوان » التى نشأت منذ نحو عشر سنين فى نجد قلب بلاد العرب ، وهى الوهابية عينها التى كانت نشأت منذ مئتى سنة خلت ، وهـذه الوهابية الحديثة مابرحت تنتشر انتشاراً سريعا حتى طبقت كل نجد ، وعلى رأسها زعيم صحراء بلاد العرب الكبير أعنى به ابن السعود ، خليفة سعود الذى كان رأس الدعوة

الوهابية منذ مئة سنة . وأما « الاخوان » الجدد فعلى تعصب شديد منقطع النظير ، وخطتهم هى حلم الوهابية القديم من الاصلاح الدينى العام فى العالم الاسلامى . وأما الأخرى فهى الدعوة « السلفية » التى نشأت فى الهند منشأ يشابه دعوة « الاخوان » فى نجد ، غير انها قد انتشرت فى هذه السنين الأخيرة انتشاراً عم كل رقعة اسلامية . وغرضها كغرض الوهابية من حيث الاصلاح المزيج بروح التعصب . وغالب اتباعها من حلقات « الدراويش » هذه هى الحالة التى مع ماتنطوى عليه من مختلف العوامل المبسوطة الذكر تنخر نخراً متغلغلا فى سلم الشرق .

واذ قد بلغنا فى الكلام على الجامعة الاسلامية من وجهتيها الدينية والسياسية الى هذا الحد ، يجدر بنا أن نقول كلمة فى الجامعة من حيث وجهتيها التجارية والصناعية ، وذلك مايعرف بالجامعة الاسلامية الاقتصادية :

ان السبب فى انتشار الجامعة الاسلامية الاقتصادية ، هو عوامل الاستنزاف ، واحتياز موارد الثروة فى الشرق . فمن قبل خمسين سنة خلت كان العالم الاسلامى يتسكع فى «اجياله الوسطى » ، فكانت الشريعة الاسلامية ، وما فيها من تحريم الربا ، مرعية حق الرعاية بحيث لم تكن الحياة الاقتصادية بمعناها الحالى ميسورة ، وماكان هناك من بعض التجارة والصناعة انما كان غالبه فى أيدى النصارى واليهود من أهل البلاد . زد على هذا ان التزاحم الغربى جاء فانتشر فزلزل الحياة الاقتصادية الشرقية زلزالا هائلا ، اذ ان فتح أوروبة للعالم الاسلامى الفتح السياسى كان يماشيه الفتح الاقتصادى جنباً الى جنب ، وربما كان هذا الاخير أتم نظاما وأكمل عدة ، فبات كل صقع شرقى فى طوف من البضاعات والحاج البخسة الأثمان ، المنقولة من أوروبة ، ووراء ذلك رؤوس الأموال الغربية متدفقة لاتحصى ، تتسرب فى البلاد وتنتشر بأخدع الصور وأملق الأساليب ، كالقروض ، والامتيازات التى من شأنها متى ماعقدت أن تكون تمهيداً لاستقرار السيطرة السياسية الغربية .

فنصر أوروبة الذى نالته فى فتحها هذا الفتح السياسى الاقتصادى التام كان باعثا للشرقيين على العداء والمقاومة ، فاستيقظ العالم الاسلامى غضبان فهاله مارآه فى دياره من الأسباب والأدوات الغربية المأتى بها لاستنزافه واستنفاد خيراته الطبيعية ، فقدر حوله ازاء حول الغرب الجبار العاتى فأدرك شقة البعد ، فطفق للحال يجدّ فى سبيل التحرر الاقتصادى

جده فى سبيل التحرر السياسى من ربق الذل والاستعباد . ثم أنشأ حكماء المسلمين ، وأرباب الدراية فيهم والرأى السديد . يلتمسون الأسباب الغربية الفضلى ، التى من شأنها أن ترقى بالعالم الاسلامى رقيا اقتصاديا جليلا ، فنسخت الأساليب والمناهج الغربية ، ونسج على منوالها ، وما كانت تحريمات الشريعة لتقف سداً فى وجه النهضة ولا لتحول دون مجراها .

فنتج عن ذلك تطور عظيم فى الحياة الاقتصادية أخذ ينمو ويزداد ، ناهجا منهجا اقتصاديا غربيا . ولكنه حتى اليوم مابرح يجتاز الدور الأول من أدواره ، وهو أظهر وأبين فى البلاد التى هى أشد صلة ومساسا بالسيطرة الغربيــة كالهند ومصر والجزائر . أما متجهه فواحد فى كل قطر اسلامى ، وسنفصل الكلام على هذا فى فصل التطور الاقتصادى . فما يجب اعتباره فى هذا المقام هو تدبر شأن هذا التطور من حيث صلته بالجامعة الاسلامية ومنزلته فيها . وهذا الشأن هو عظيم جداً . لأن أوثق وحدة ، وأمتن صلة ، ظهرت فى المسلمين حتى اليوم انما هى الوحدة الاقتصادية بلا مراء . ولا يعزب عن البال ان الروابط الدينية والصلات الخلقية التهذيبية التى تجمع بين المسلم والمسلم ، ماانفكت تزيد فى تواثق المسلمين وتآزرهم ، وتعاطفهم وتضامنهم ، كأنهم فى المعمور الاسلامى أمة واحدة بعضها يغار على بعض وجانب يساند آخر . دع ماهو هناك من الأسباب الغربية للنقل والتواصل ، المسهلة على المسلمين القيام بالأسفار الى كل جهة أرادوا ، فازداد بذلك تعارفهم واستمسكت أواصرهم ، فنشأ فيهم نشء جديد ، ابناءوه مقاديم ، بعداء الهمة ، أشداء العزم ، فيهم التجار وأرباب السفن البحرية والأعمال التجارية ، والصيارفة ، والسماسرة حتى وأرباب المصانع والمعامل ، ممن لم ير أمثالهم فى المسلمين من قبل بقرن أو نصف قرن خلا . وأبناء هذا النشء الجديد على غاية من التفاهم والتواثق . تربط بعضهم ببعض الروابط الاسلامية ، ويحملهم التزاحم الغربى المنتشر فى بلادهم على شدة التضامن ، فلهم فى الواقع من سعة المجال للعمل المنظم والاتحاد الوثيق ماليس مثله للساسة المسلمين ، اذ فى الأفق الاقتصادى يتلاقى الأحرار ودعاة الجامعة الاسلامية والغلاة وسائر الأحزاب الوطنية على أتم وئام . فلا خلاف بينهم فى هذا الميدان يفضى بهم الى الانقسام لعلة اتباع احدى السياسات ، كسياسة الثورة أو الجهاد ، انقساما يحملهم على تهديد أوروبة المسلحة ، أو يؤدى بهم الى المجازفة بالنفوس والدماء والأموال ، بل هم جميعا فى نطاق الجامعة الاقتصادية سواء ، متحدو

الـكاملة ، يجدّون فى سبيل الحياةالاقتصادية الاسلامية ، متوخين فى ذلك الطرق والأساليب التجارية التى لايجرؤ الغرب أن يحول دونهم ودونها ولا يقف فى وجهها .

فما هى غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية ترى ؟ انما هى : ثروة المسلمين للمسلمين ، وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمور الاسلامى هى لهم يتنعمون بها وليست لنصارى الغرب يستنزفونها . وهى نفض اليد من رؤوس المال الغربية والاستعاضة عنها برؤوس مال اسلامية . وفوق جميع هـذا ، هى تحطيم نواجذ أوروبة تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد الامتيازات فى الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجارك ، العقود التى مادامت خارجة من أيدى العالم الاسلامى فهو يظل عالة على الغرب .

هـذه هى أغراض الجامعة الاسلامية الاقتصادية ، وجميعها حديث المنشأ ، وسببه السيطرة الغربيــة الشديدة فى العالم الاسلامى ــ السيطرة التى نتـكلم عليها فى الفصل التالى من هذا الـكتاب .

الدول المستعمرة والاسلام

للامير شكيب

من الغريب أن فارس عرضت على انكلترة المحالفة ، والدخول الى جانب الحلفاء فى الحرب العامة ، فأبت انكلترة مساعدة فارس هذه . وهذا أمر صرحت به جريدة الطان ، لسان حال فرنسا أثناء مؤتمر الصلح بباريز . وأن مصر عرضت نفسها أثناء الحرب العامة أن تقاتل فى جانب الحلفاء بشرط الجلاء الانكليزى عن مصر بعد الحرب ، فأبت انكلترة أيضاً ذلك . وان الشريف حسيناً بن على ، ملك الحجاز اليوم ، كان عرض نفسه لمحالفة انكلترة منذ بدأت الحرب العامة ، فأبت انكلترة محالفته يومئذ كما أبت محالفة مصر والعجم . وأغرب منه أن تركية نفسها بينما هى فى أول الحرب العامة تتردد فى الميل الى أى الفريقين المتصارعين ، ويتجاذبها عاملان أحدهما الى الحلفاء ، والآخر الى الألمان ، صرحت لسفراء الحلفاء فى الاستانة انها تخشى اذا اعتزلت الحرب من أن يتفق الفريقان عليها ، ويعقدوا الصلح على ظهرها . فقالت لهم لا بد لنا من محالفة . وعرضت على الحلفاء أن تكون معهم ، بشرط أن تأمن شرورهم فى المستقبل . فأبى الحلفاء قبول محالفة تركيا لهم ، وكل ما طلبوه منها كان التزام الحياد التام ، وبمقابلة ذلك تتعهد الروسية بأن لا تهاجم تركية مدة ثلاثين سنة (تأمل) وتنال تركية بعض مساعدات أخرى ليس لها كبير طائل . وبدهى أن رفض الحلفاء هذه المساعدات من دول العالم الاسلامى مبنى على أساس واحد ، وهو أن الحلفاء لو قبلوا مساعدات الحكومات الاسلامية أثناء الحرب العامة ، لما كان لائقاً أن يقتسموا فيما بعد الحرب بلاد الاسلام الباقية الاقتسام الأخير ، كما كانوا ينوون أثناء الحرب ، وكما فعلوا بعد الحرب . فلو رضوا بدخول تركية معهم فى الحلف وقبلوا عضدها لهم فى ذلك الموقف ، لما كان يجوز بعد الحرب انفاذ برنامج التقسيم الذى كان مقرراً بين انكلترة وفرنسا منذ ١٩١٢ . ومن جملته قسمة سورية وفلسطين . ولو رضوا بدخول العجم فى الحلف وقبلوا معاونتها ، لما كان يحل أن يجهزوا عليها الاجهاز الأخير بعد الحرب كما

كانت النية ، بل كان ديناً عليهم اخلاء العجم ، وهـذا ما لا يريدونه . ولو قبلوا اقتراح مصر فى الدخول فى الحرب الى جانبهم ، لتعين عليهم الجلاء عن مصر بعـد الحرب على وجه المكافأة ، مع أن المراد بعـد الظفر الأخـير هو استلحاق مصر تمـاما لا اعطاؤها حريتها . وكانوا يرون أنهـم قادرون أن يستخدموا رجال مصر ويرتفقوا بأموال مصر بالقوة والقسر ، بدون أدنى منة لأهل مصر ، وبدون تعهد بالجلاء عن مصر على حد ما قال أبو الطيب :

من أطاق اغتنام شئ غلاباً واغتصاباً لم يغتنمه سؤالا

ولقائل أن يقول : لـكن ينقض نظريتك هـذه ، أن الحلفاء حالفوا سنة ١٩١٥ الشريف حسينا ، وهذا ملك من ملوك الاسلام . والجواب أنهم ما قبلوا التحالف معه بادئ ذى بدء لظنهم أنهـم يستغنون عنه ، ولا يتقيدون معـه بعهد يمنعهم بعـد الظفر من أخذ بلاد العرب . فلما طالت الحرب ، وظهر من تركية ما ظهر من القوة التى لم تخطر لهم على بال ، ورأوا الحرب ستدوم أعواماً ، وتأتى على الحرث والنسل وان العـالم الاسلامى كله فى هيجان عليهم ، عادوا الى قبول محالفة الشريف حسين أملا بفصل العرب عن الـترك ، وباستمالة جانب من المسلمين ، وبتخفيف حملة كان الحلفاء بدأوا يشعرون بثقلها ، ومع هذا كله فقد ملأوا عهودهم للشريف ابهاماً وغموضا ، حتى يتفصوا منهـا فى المستقبل ، فما وضعت الحرب أوزارها حتى ظهر للشريف ولسائر العرب ، أنه مع كون قسم من العرب حالف الحلفاء محالفة فتت فى عضد الأتراك ، وكانت من جـلة أسباب انكسارهم لأسباب عديدة ، فقد عومل العرب بعد الحرب معاملة الأعداء ، وتقسمت بلادهم غنائم ، والذى هو باق منها بدون احتلال فعلا ، فالنية وضع اليد عليـه عند أول فرصة . وربما كابر بعض الناس فى كون الشريف عرض التحالف من أول الحرب ولم يقبلوا ذلك منه ولا مجال هنا للمكابرة فالصحيح أنهم لم يقبلوا التحالف معه حتى احتاجوا عضد العرب وطالت الحرب فأرسلوا اليه بعض معتمدين لمفاوضته فيه من جملتهم الجنرال حداد باشا ، وان حداد باشا صرح لنا بهذه الحقيقة التاريخية أمام جماعة كثيرين من أعيان السوريين والفلسطينيين وربما كابر آخرون فى كون الحلفاء أبوا محالفة تركيـة وطلبوا منهـا الحياد لا غير فى الحرب العامه ، والجواب هـذا شئ يشهد به المستر مورغانتو سفير اميركا فى تركية لاول

نشوب الحرب . ذكره فى خاطراته وقال ان أقصى ما طالب الحلفاء به تركية هو لزوم الحياد فحسب والحاصل أن الحلفاء طلبوا اثناء الحرب العامة العون من كل دولة ، وعرضوا التحالف مع كل حكومة ، حتى أصغر حكومات أميركا ، ولم يكونوا ليقبلوا التحالف مع دولة من الدول الاسلامية علما بما ينوونه للاسلام وجميع حكوماته فى المستقبل وفراراً من مكافاة دولة اسلامية بالابقاء عليها . فهذا من الحقائق الكلية التى ينبغى أن يتفطن لها المسلمون ولا يغيبوها عن نظرهم ، وليعلموا ان الدول المستعمرة لا تقبل من الاسلام حتى ولا الصداقة ، وانها لا ترضى من المسلمين فى جانبهم بذل الأرواح والأموال الا مجانا .

أثر الروسيا في الشرق قديما وحديثا

للامير شكيب

حرر مؤخراً العالم الاجتماعى الكبير ، غويغليلمو فريرو Guglielmo Ferrero مقالة فى جريدة «الايللوستراسيون» عنوانها «أوربة وآسية» بين فيها ان الحرب العامة أحدثت انقلابات متناقضة ، فباعدت وقربت بين القارات وانه من العادة اذا خرجت سلطنة عظيمة ظافرة من حرب من الحروب ازدادت هيبتها وانبسط سلطانها ، عن ذى قبل . والحال انه بعد ان خرجت انكلترة ظافرة من أكبر حرب فى الدنيا ، ثارت فى وجهها افغانستان ، والهند ، ثم مصر و بعد ان كانت تركية اضمحلت سنة ١٩١٨ ، عادت فنهضت و ردّت انكلترة وحليفاتها على أعقابهن . وكذلك الصين بالرغم من الثورة التى تمزق احشاءها ، تطلب استرداد البلاد التى احتلت منها وعدم مس شئ من استقلالها . فآسية تقوم على أوربة على حين هى آخذة بمبادئ أوربة ، وليست تأخذ من أوربا وأميركة أسلحة فحسب ، بل مبادئ وافكاراً تقاتلها بها . قال : « ومسبب ذلك هو انهيار الدولة الروسية ، فان أوربا كانت عام ١٩١٤ كتلة متحدة ، متينة ، متماسكة ، بالرغم من جميع المناظرات والمناهضات التى كانت فيما بين أجزائها . فقد كانت السلطنة الروسية والسلطنة الانكليزية متناظرتين فى آسية ، ولكن من جهة أخرى ، كنت ترى كل واحدة منهما شادّة أزر الاخرى . وكانت أوربة بأجمعها تستفيد من الرعب

الذى تلقيه الروسية فى قلب آسية ، فسقوط السلطنة الروسية كان مبدأ خلاص آسية » وقد أشارت جريدة الطان بتاريخ ٨ حزيران سنة ١٩٢٣ الى مقالة فريرو هذه وأيدت رأيه من جهة كون انهيار الروسية هو الذى كان مبدأ تحرير آسية ، وهذا عين ماورد فى مقالة روجرلابون التى ترجمناها عن « مجلة باريز » . وكان أحدالروس اقترح علينا سنة ١٩١٩ نشر مقالة فى جريدة روسية تصدر فى برلين فحررنا فى ذلك الوقت له مقالة نبين بهاالأسباب الداعية الى الاتحاد بين الروس والشرقين، ونلوم سياسة الروسية الماضيةالتى كانت عبارة عن قهرالشرق وملاشاة الدولةالعثمانية ، لفائدة الدول الغربية ، فكان جل الخسائر بالمال والرجال على الروسية ، ومعظم الفوائد لانكلترة وفرنسا ، لأنه من المحقق لولا ثقل حمل الروسية على ظهر العثمانيين وكونهم أصبحوا من عداوة الروس بحالة لايملكون معها قبضاً ولابسطاً ، لما كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر ، ولا على تونس ، ولا ايطالية دخول طرابلس ، ولا انكلترة احتلال مصر والسودان بل كانت الدولة العثمانية بأمنها ناحيةالروسية تقدر على حماية هذه البلدان ، لاسيما فى بداية الأمر فالروسية هى التى كانت سبب سقوط الشرق و واسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية ، وتحوّل الحكومة القيصرية الى البلشفة هو الذى مكن اليوم الشرق من أن يتنفس . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . فهذا المعنى كنت أوضحته قبل أن ابتدأ الكتاب الأوربيون ينبهون اليه .

ثم ان هناك جملة وردت فى كلام العلامة فريرو فيها معنى كبير ينبغى أن ينعم النظر فيه جميع الشرقيين ألاوهى قوله : « ان الروسية وانكلترة مع تناظرهما وتنافسهما فى الشرق كانت كل منهما شادّة أزر الأخرى ». ومعنى ذلك أن الروسية كانت تقلم أظفار الأتراك ، والفرس ، والصينيين ، فبملاشاة قوتهم أصبحوا لايقدرون على اغاثة الهنود ، والافغان ، والمصريين والعرب الذين مدت يدها اليهم انكلترة بالبطش والغصب . وكذلك انكلترة باستيلائها على هؤلاء قدعطلت منهم كل قوة حربية ، فأصبحوا لايقدرون أن يؤيدوا الدولة العثمانية ، ولا الدولة الفارسية ، ولا تركستان ، ولا الصين بشئ ، فكانت كل من الروسية وانكلترة قدشدت احداهما أزرالأخرى بطبيعة الحال ، وكان بينهما تضامن ، وان لم يكن جرى عليه تواطؤ من قبل فهوجار بالفعل . ومن الأمور التى تؤيد هذاوقوع هذا التضامن بدون تواطؤ ليس بين أوربا والروسية القيصرية فحسب ، بل بين أوربا والروسيا البولشفيكية

نفسها ، مع شدة العداوة التى بين الفريقين .

فان الدول الغربية أثارت على البولشفيك الاميرال كولتشاق ، والجنرال دينيكين ، والجنرال يودينيش ، والجنرال فرانجل ، والمملكة البولونية ، وحاولت اثارة الأرمن ، والكرج وكل قوم ترجو فيهم النهضة ، لقتال الحكومة البولشفية ، التى ترى فيها الخطر الأعظم على كيان الهيئة الاجتماعية الاوربية . وقد بذلت انكلترة وفرنسا فى تسليح هذه الأقوام ، وسوقهم على الروسية مئات الملايين ، ولا تزالان الى هذه الساعة تترصدان الفرص وتتربصان بالبولشفيك الدوائر .

لكن قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر ، من أن تحرك على البولشفيك قوة اسلامية . فعرض بعضهم الرأى بالاتفاق مع تركية وتسليحها وسوقها على الروسية من جهة القوقاس ، حيث ينضم الى الترك هناك الكرج والطاغستانيون والتتر فلم يقبل الحلفاء هذا الرأى أصلا . ولا راق لهم تسليح العجم ، ولا الافغان ، ولا بخارى ، ولا خيوه ، ولا فرغانه ، ولا غيرها من تركستان . ولا رمى البولشفيك بهذه القوات كلها وماذاك الا لانهم يرون الخطر الاسلامى أعظم من الخطر البولشفى مهما كان الخطر البولشفى عظيما . ومن الادلة البارزة على ذلك انه لما نفر المرحوم أنور من البولشفيكيين وبرح موسكو سنة ١٩٢١ الى باطوم ، ومنها انسل الى بخارى وأثار ثورة تركستان الهائلة التى حشد البولشفيكيون فيالق جرارة لقمعها لم يفكر أحد باوربا فى امداد أنور على البولشفيك ، بل عند ماسقط أنور شهيداً فى أوائل أغسطس سنة ١٩٢٢ فرح بمقتله الحلفاء ، ولم تخف الجرائد الانكليزية سرورها . وفى هذا مقنع لمن يبقى عنده شئ من الريب فى شدة تضامن أوربا بازاء الشرق .

الفتوحات الاسلامية في الهند

التقسيمات الجغرافية وعدد مسلمى كل ايالة

الأمير شكيب

افتتح العرب المسلمون السند وجانباً من الهند فى صدر الاسلام ، ثم أكمل الفتح محمود بن سبكتكين الغازى الشهير ، ورسخت قدم الاسلام فى الهند من بعده . ثم استولى الاسلام على كل الهند بدون استثناء ، ودانت له جميع ملوك الهندوس ، يقال لم يبق خارجاً عن طاعة الاسلام فى الهند سوى مملكة يقال لها (اودبور) لها ملك يقال له (مهرانا) وهو لقب أكبر من مهراجا . وسبب تفرده بهذا اللقب أنه هو الوحيد من ملوك الهند قاطبة الذى لم يخضع لسلطة الاسلام ، ولذلك هو الى يومنا هـذا يتقدم فى الاحتفالات الرسمية جميع نظرائه .

وقد بلغ عدد المسلمين فى الهند فى تاريخ تجديد الطبع لهـذا الكتاب ٧٨ مليوناً وعددهم الى الأمام لا الى الوراء

و بمناسبة الهند هذه نذكر ملخص تقسيمات تلك البلاد العظيمة ليكون للقارئ تصور عام بها :

فهى ثلاثة أقسام : القسم الأول هو المستقل تماماً ، وهو عبارة عن مملكتين فى الشمال (نيبال) و (بوتان) ، وأهل نيبال خمسة ملايين كلهم هندوس ، وأهل بوتان مليون واحد هندوس أيضاً فيهم قليل من المسلمين ، وكلهم أمة محاربة مشهورة بالشجاعة ، وأشهر عساكر الهند الانكليزية هم من أبناء هاتين المملكتين ، يتطوعون فى الجندية نظراً لفقر بلادهم ، ووعورة أراضيهم . وللانكليز هناك وكيل مقيم لا يكاد يكون له نفوذ

ثم القسم الثانى وهو الذى تحت حماية انكلترة ، وهو يدفع خراجاً سنوياً لها ، وملوكه وأمراؤه مضطرون أن يحضروا حفلة تتويج ملك انكلترة امبراطوراً على الهند ،

وعدد هـذا القسم ٧٠ مليونا ، أى سكانه مع سكان القسم المستقل لا يزيدون على ربع الامبراطورية الهندية

و بقية الهند تديرها الحكومة الانكليزية مباشرة كسائر أملاكها

فالامارات التى هى تحت الحماية هى ما يأتى : (حيدر آباد الدكن) ، أهلها ١٣ مليوناً أكثرهم من الهندوس ولكن عاصمة البلاد أكثرها مسلمون وسلطانها مسلم يقال له (النظام) ، وفيها وزير مقيم من قبل الانكليز لكن نفوذه على المملكة محدود . وهناك جيش عدده ٣٠ ألفاً أكثره عرب من (حضرموت) . ولحيدر آباد نوعان من الجند : الأول يستقل به سلطان البلاد ، والثانى مرصد للاشتراك فى حماية المملكة الهندية كلها .وهذا قواده من الانكليز . والخراج الذى تدفعه حيدر آباد لانكلترة زهيد ، واستقلالها الداخلى يكاد يكون تاماً

وقد حدث بين نظام حيدر آباد وانكلترة خلاف فى السنين الأخيرة من أجل ولاية كبيرة يدعى النظام أنها تابعة لمملكته ، ويزعم الانكليز أنها مما ينبغى أن يلوه هم رأسا . ولا نعلم كيف انتهى الأمر بينهما ولكننا نعلم أن انكلترة لاتزال مصرة على الاستئثار بتلك الولاية

ونظام حيدر آباد أوسع ملوك الاسلام ثروةً ومن أغنى ملوك العالم ، وقد كانت له اليد البيضاء على آل عثمان والخليفة عبد المجيد بن السلطان الخليفة عبد العزيز الذى طرده الأتراك الكماليون وألجأوه الى أوربة لا يملك شروى نقير تقريباً فأقام أولاً بمونترو من سويسرة ثم انتقل الى نيس من ساحل فرنسة على البحر المتوسط (والعرب تقول نيقة) و بلغ نظام حيدر آباد أن الخليفة قد يصل من الاحتياج الى حد يمس بكرامة الاسلام ورأى أنه لا يليق بالمسلمين أن يصير السلطان الذى كان خليفتهم بالأمس الى حالة كهذه من البؤس والهوان فرتب له ثلاثمائة جنيه فى الشهر وحفظ شرفه من أن يذل وكان له بذلك اليد المحمودة عند الجميع لا سيما أن الخليفة عبد المجيد هو ممن يستحقون كل خير وانه من خيار الملوك فى طهارة أخلاقه واستقامة مباديه وسعه عقله ومعارفه واخلاصه للاسلام والمسلمين

ثم انه فى أوائل هـذه السنة ١٩٣٢ افرنجية ازدادت العلاقة بين الخليفة عبد المجيد ونظام حيدر آباد بزفاف كريمة الخليفة على نجل النظام ، ولم يحسن وقع هـذه المصاهرة فى

انقرة لأن الكماليين خافوا من أن يتوكأ الخليفة على ثروة النظام فى بث الدعايه فى تركية لاعادة الحكم الملكى اليها ، وكذلك لم يحسن وقع هذه المصاهرة فى انكلترة لأن الانكليز خشوا ، ان يجعل عبد المجيد مركزه فى حيدر آباد فتجتمع مسلمو الهند من حوله وتخلق هذه المسئلة لهم مشكلاً جديداً ، والحقيقة ان خوف الفريقين بغير محله فلا نظام حيدر آباد مستعدللبذل فى سبيل الدعاية الملكية فى تركيا ولا الخليفة سيكون مركزه فى الهند . ولن يقع انقلاب فى تركيا الا بحوادث غير عاديّة تحصل فى داخل تركيا .ومما يرجح فى العقل أن انقلاباً كهذا لا يقع الا بعد وفاة مصطفى كمال

ثم (ميسور) وهى أرقى مملكة فى الهند وأهلها مختلطون مسلمون وهندوس ، والملك ــ ويقال له مهراجا ــ هندوسى وفيها مجلس ندوة

ثم (كشمير) وعدد أهلها بحسب الاحصاء الأخير أربعة ملايين منهم ثلاثة ملايين ونصف مسلمون ونصف مليون هنادك . ولكن المهراجا هندكى . وهى فى شمالى الهند كما أن ميسور فى الجنوب . وقد حصلت فى كشمير فتنة شديدة بين المسلمين والهنادك فى العام الفائت سببها أن الحكومة التى هى فى يد الهنادك أهانت بعض المسلمين وجرحت شعورهم الدينى وذلك بما قيل انه بعض الشرطة أجبرت أناساً من المسلمين بالسجود للاصنام قهراً لهم فهاج المسلمون فى شمالى الهند وزحفت منهم عصائب على كشمير وأقامتها وأقعدتها ولم تسكن الفتنة الا بدخول جيش انكليزى تمكن من اعادة الراحة بينما الحكومة أخذت تفحص عن شكاوى المسلمين . ولا يزال هؤلاء يطالبون بعزل المهراجا الهندكى وأن يتولى كشمير أمير مسلم بناءً على كون أكثرية كشمير من المسلمين . ولكن ان لزم العمل بهذه القاعدة كان لا بد من فقد المسلمين لعرش حيدر آباد التى فيها المسلمون نحو من مليونين والهنادك ١١ مليوناً

ثم (ترافنكور) وأهلها أربعة ملايين أكثرهم هندوس ومعهم مسلمون ، ولهم مجلس ندوة ، وعليهم مهراجا هندوسى

ثم (بروده) عدد أهلها مليونان هندوس ، ولها مهراجا هندوسى وهى مملكة راقية غنية وفيها مسلمون

ثم (غواليار) وأهلها مسلمون وهندوس ولكن المهراجا هندوسى ، وعدد أهلها مليونان ونصف مليون ، ومكانها فى وسط الهند ، وهى معدودة من البلاد الراقية ، وعندها جيش منظم

ثم (ايندور) وهى فى قلب الهند أيضاً ، وأهلها مليونان هندوس ، وملكهم منهم

ثم (أودبور) التى مر ذكر سلطانها أنه يتقدم جميع ملوك الهندوس وهى فى وسط الهند أيضا .

ثم (رامبور) وهى امارة اسلامية ، عدد أهلها نصف مليون أو يزيدون ، عليهم ملك مسلم يقال له النواب

ثم (جهور) وهى نصف مليون أيضاً ، وأهلها مسلمون لهم نواب

ثم بهوبال وأكثر أهلها هنادك ، ولكن الأمير مسلم ، وكان لهم ملكة يقال لها (بيكَم) ويقال لها الرئيسة كانت متزوجة بالعلامة المجتهد الشهير ذى التصانيف العديدة الممتعة باللغة العربية السيد صديق حسن خان بهادر ، وقد كان فى مبدأ أمره كاتباً عندها ، وقيل ان الانكليز كانوا نقموا على السيد صديق خان كتابات له تثير الهند عليهم فأرادوا قتله فثارت هذه الملكة بهم وذكرت لهم مواقفها فى ثورة الهند الكبرى وانقاذها عدداً كبيراً من الانكليز كان الهنود على وشك الفتك بهم وما زالت بهم حتى أفكتْهُم عن قتل صديق حسن خان ، وأثبتت ما كان عندها من قوة ارادة

وقد خلفت « البيكَم» المذكورة (بيكَم) أخرى ، ثم ماتت هذه من سنتين وتولى الحكم ابنها الأمير الحالى وهو رجل عاقل محمود السيرة وطنى النزعة ، ولقد كان فى العام الماضى بلندن فى المؤتمر الهندى المسمى بالمائدة المستديرة وقد عرفنا من رجاله الأمير أحمد خان ناظر حربية بهوبال وهو من أماثل من عرفنا من رجال الهند

ثم (بها وليور) فى شمالى الهند ، عدد أهلها مليون وهم مسلمون ولهم نواب مسلم أيضاً ثم (جبور وجود بور وآلور و بيكانير وجسلمار وكوتا) ، وكلها امارات هندوسية ، وتونك وأهلها مسلمون ، وريفا وبانيالا ونابها وجبن وكولابور وسكانها مختلطون مسلمون وهندوس

وأما القسم الثالث الذى تليه انكلترة مباشرة فعدد سكانه ٢٣٠ مليوناً وأهم بلاده (البنغاله) و (البنجاب) و (اغرا) وولايات (مدراس) و (بمباى)

ولقد آثرنا ذكر تقاسيم الهند هذه ــ ولو بصورة مجملة ــ لأن القارئ قلما يجدها فى الكتب العربية . ثم لأننا أحببنا أن نذكر نسبة عدد مسلمى الهند الى عدد الهندوس . وأن نبين أماكنهم من الهند

الاسلام فى جاوى وما جاورها

للأمير شكيب

١ — المستشرق هورغرونيه وسياسته نحو الاسلام

٢ — مسألة الحضارة فى جاوى

ولما كان المؤلف أشار فى حاشية كتابه الى تسرب الاسلام من الهند الى جزائر الأوقيانوس واستيلائه على جزيرتى جاوى وسومطره العظيمتين رأينا من الضرورى أن نقول كلمة فى هذا الموضوع وهى :

ان الاسلام بدأ ينتشر فى هاتيك الجزائر فى أواسط القرن الثامن للهجرة أو القرن الرابع عشر للميلاد وفى بلدة (غريزيك) من بلاد سورابايا من الجاوى قبر مولانا ملك ابراهيم أحد كبار المجاهدين الذين سبقوا الى نشر الدعوة الاسلامية فى تلك الجزر القاصية ، ووفاته وقعت فى ١٢ ربيع الأول سنة ٨٢٢ الموافق ٩ ابريل سنة ١٤١٩ ، وكذلك فى بلدة « بازه » قبر (الأمير محمد بن عبد القادر) من ذرية (الخليفة المستنصر العباسى) توفى فى ٢٣ رجب سنة ٨٢٢ الموافق ١٥ أغسطس سنة ١٤١٩ . وما زال الاسلام يتغلب فى هاتيك الأقطار حتى بلغ عدد المسلمين فيها ٣٥ مليوناً أى نحو نصف عدد مسلمى الهند وهم فى الفقه على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه

وهذا الاحصاء هو الاحصاء الرسمى الهولاندى منذ نحو ١٥ سنة ، فلا بد أن يكون عدد المسلمين ازداد اليوم على ما كان فى ذلك التاريخ ، ولقد نشرت (مجلة العالم الاسلامى) الفرنسوية فى سنة ١٩١١ أربع محاضرات على سياسة هولاندة الاسلامية للعلامة المستشرق الهولاندى (سنوك هورغرونيه) مستشار نظارة المستعمرات الهولاندية فى المسائل الاسلامية والعربية وهو من الافذاذ الذين وقفوا على أحوال الاسلام عموماً و بلاد الجاوى خصوصاً وأقام بتلك الديار ١٧ سنة فتل فيها أمورها علماً ، ويقال انه دخل مكة والمدينة

فى موسم الحج متنكراً فهو الذى يحقق فى تلك المحاضرات أن عـدد المسلمين الخاضعين فى جزائر الاوقيانوس ، لسلطة هولانده هو ٣٥ مليون نسمة وقـد ازداد هـذا العدد كثيرا حتى بلغ الاحصاء الاخير خمسين مليوناً أى فى سنة ١٩٣٢ بلغ مسلمو المستعمرات الهولاندية هذا العدد ، وكانوا من ١٢ سنة ٤٥ مليوناً ، فتكون زيادتهم فى هذه الاثنتى عشرة سنة خمسة ملايين نسمة ، فأنت ترى أن عدد ٣٥ مليوناً هو قديم العهد قد يكون بموجب احصاء مضى عليه ثلاثون سنة بالاقل

وفى السنة الماضية نشر « جو رنال دوجنيف » رسالة لمكاتب له كان فى بلاد الجاوى واطلع على أحوالها اسمه المسيو « بول بو ردارى » Paul Bourdarye زعم فيها أن الاحصاء الذى أجرته الحكومة الهولاندية سنة ١٩٣٠ أثبت أن عـدد المسلمين فى مستعمراتها تزايد جداً وأنه بلغ الآن ٦٤ مليون نفس وعليـه فخطأ محض احصاء بعضهم مسلمى تلك الجزائر بعشرين مليوناً كما رأيت مرة فى احدى المجلات العربية المطبوعة بمصر

وكان لهؤلاء المسلمين هناك سلاطين وأمراء مستقلون فما زالت هولاندة تتغلب على واحد بعد واحد منهم حتى أخضعتهم لسلطانها تماماً ، وكان استصفاؤها بقيـة استقلالهم فى اخضاع توانغ كو محمد دافوت سلطان آتشه الذى دخل تحت حماية هولاندة سنة ١٩٠٣

ولقد كان انتشار الاسـلام فى تلك الديار ـ بحسب تحقيقات العلامة هو رغرونيه ـ بواسطة تجار مسلمين طرأوا عليها من الهند مقتفين آثار تجار الهندوس الذين كانوا يترددون الى تلك البلاد و يطبعون أهلها بطابع مدنيتهم البرهمية ، فجاء الاسلام واستمالهم اليه وما زال يتقدم فيهم حتى غلب على جميعهم تقريباً ، كل ذلك بطرق سلمية ، و بدون أدنى قهر ولا عنف منها الا ما حصل من أهالى شرقى جاوى الذين غلبوا بعض مجاوريهم بالقوة فمن جاوى امتد الاسـلام الى سومطره والى قسم من بو رنيو وسيليب والجزر التى الى الشرق . وابن بطوطة الرحالة الشهير امتدح ملك سومطره فى القرن الرابع عشر بأنه جاهد فى الكفار .

ولم يزل الاسلام ينتشر فى البقايا الباقية على الوثنية حتى احتج كثير من الهولانديين على تساهل الحكومة الهولاندية فى ذلك وكيف انها تسمح للاسلام با كتساب هذه البقايا . وأ كثر من صخب لذلك هى جمعيات التبشير المعهودة ، ولـكن المستشرق هو رغرونيـه يفصل هذه المسئلة بالكلام الآتى مترجما عن محاضراته السابق ذكرها :

« يجب على الحكومة أن تحذر من وضع كثير من المأمورين الوطنيين الذين يدينون بالاسلام فى البلدان التى أهلها وثنيون لئلا تكون قد ساعدت على نشر الاسلام بدون قصد منها . وهذا المحذور قد وقع فيه الألمان أنفسهم فى المستعمرات الألمانية بشرقى افريقية . ولكن الخطر عندنا أعظم لأن المأمورين الوطنيين من أهل الجاوى هم فى الغالب من المتعلمين والمطلعين على أصولنا الادارية ، وليس عندهم تعصب مفرط فى الدين ، فلا يسهل الاستغناء عنهم ، وقد تميل الحكومة الى استخدامهم ، فلا ننكر أنه مع تمادى الزمن يؤثر وجود هؤلاء المأمورين المسلمين فى مسألة نشر عقيدتهم بين الوثنيين كما يؤثرجولان التجار المسلمين فيما بينهم . ولعمرى لا يمكن منع هؤلاء التجار أن يجولوا فى تلك الديار بحجة أنهم يدعون الى الاسلام اذ يكون ذلك عملا مخالفا للعدل ، ولكن يجب تدبر الأمر واستعمال الحكمة فيه بحيث لا نكون نحن قد ساعدنا بأنفسنا على اسلام غير المسلمين »

فأنت ترى أيها القارئ أن العلامة هورغرونيه ـ الذى هو معدود فى الأقلين تعصبا، والذى من أول محاضراته الى آخرها ينبه حكومته الى خطر الانقياد الى طلب جمعيات التبشير المسيحية من جهة الضغط على حرية الاسلام الدينية ـ هو نفسه يحذر نفس تلك الحكومة من استكفاء المأمورين المسلمين مدة طويلة فى بلاد الوثنيين ، ولو لم يكن عندهم تعصب مفرط ، لئلا يؤثر ذلك فى عقائد الوثنيين فيشرح الله صدورهم للاسلام . و بعبارة أخرى ان مصلحة هولانده ـ وأوربا كلها ـ تقضى بترجيح بقاء الأهالى وثنيين على أن يصيروا مسلمين . هذا ظاهر لا يقبل أدنى جدال . فهل ياترى يجهل الأوربى أن نقل الانسان من عبادة الصنم الى عبادة الواحد الأحد هو أولى بالانسانية وأجدر بأن يكون هدف مساعى الأمم المتمدنة ؟ كلا . لا يجهل الأوربى ذلك ولكنه يعلم جيداً لاسيما المستشرق العظيم الذى هو مثل هورغرونيه أن الاسلام لا يجتمع مع الذل فى قلب واحد ، كما جاء فى العروة الوثقى بقلم جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وأن الشريعة القرآنية قد ضمنت لمتبعها كل شروط الحرية وانتظمت له جميع أسباب الاستقلال ، بحيث لا يقدر أن يحكم فى رقبته أجنبياً الا اذا مرق من أحكام تلك الشريعة . فلذلك لا يجتمع حب الاستعمار الأوروبى والميل الى الاسلام فى قلب واحد لأن المستعمرين يعلمون ماوراء الأكمة ولذلك أهم شئ

تناصبه الدول المستعمرة الحرب هو نشر الدعوة الدينية وحفظ الشريعة الاسلامية والأخذ بعزائم الاسلام . وان كان بعض عقلائهم مثل هورغرونيه ينصح باعطاء الحرية الدينية وينهى عن التعرض للمسلمين فى عقائدهم فذلك انما هو من خوفهم الثورة والانتقاض ووقوع الدول المستعمرة فى المقيم المقعد من جراء هذا الأمر ، فترى مثل هذا النفر ينصحون بالاعتدال وعدم مصادمة المسلمين فى عقائدهم من باب اختيار أخف الضررين لا غير ومع ذلك فلا يطلقون هذه الحرية على أرسالها بل يجعلون الحذر لها رقيباً والاحتياط رائداً ، وبالجملة فيجتهدون بأن تكون مقاومتهم للاسلام فى الأمور السياسية علنية لاضراء فيها ، وأمافى الأمور الدينية فيجعلونها خفية لا مجاهرةفيها بحيث لا تدعوالى الاضطراب ولا تبعث على الانتقاض

هذه هى سياسة العقلاء من المستعمرين ، فأما سياسة المتهورين فهى معلومة لاحاجة الى الكلام عليها لا تعرف لمسلم حقاً ولا حرية وقد اعترف العلامة هورغرونيه بأن حزباً فى هولانده ممالئا لجعيات التبشير يحث الحكومة أن تحمل مسلمى الجاوى على النصرانية فبين الخطر العظيم من ممالأة جمعيات التبشير على مساعيها هذه فى تنصير المسلمين وطعن فى مزاعم بعض النواب فى الندوة الهولاندية كون اسلام أكثر أهل الجاوى والجزائر النيرلاندية لا يزال اسمياً فلا بأس بمعاملتهم بغير ما يعامل به المسلمون وقال : ان هذا القول هو فى منتهى الحماقة وانه يجب على كل وطنى هولاندى يهمه مستقبل وطنه أن يرده بتاتا ويحذر الحكومة من سوء عواقبه . وهو ينبه الى كون الضغط يورث الانفجار . وأن حكومة هولانده كما أنها متهمة عند جمعيات التنصير بالتسامح مع المسلمين فهى متهمة لدى المسلمين باضطهاد الاسلام فلا يجوز أن تؤيد بعملها حجة من يرمونها بذلك .

ومن رأى هذا العلامة أن الحكومة الهولاندية تخطىء اذا أقامت عقبات فى طريق الحج لا سيما أن مسلمى الجاوى وسومطره هم أشد المسلمين محافظة على هذا الركن من أركان الدين وأن تصعيب الحج عليهم لا يأتى هولانده بغير اثارة الخواطر وقلق الأفكار وهو يرد على بعض النواب الهولانديين الذين يسترسلون الى الخيالات من أمر الحج ويظنون أنفسهم قد أحسنوا صنعا فى حمل الحكومة على منع الحج أو تصعيب سبيله . ويقول : ان على الحكومة الهولاندية أن تسلك سبيلا وسطا فلا تحث على فريضةاسلامية

ولا تنهى عنها . وأنها قد أحسنت صنعاً فى الطريقة التى اتبعتها فى فريضة الزكاة فقد أعلنت أنها تعتبرها من قبيل الصدقة الاختيارية فلا تحمل عليها أحداً بالقوة ولا تمنعها بالقوة .

وأما من جهة القضاء فهو يذهب الى عدم سن قوانين مأخوذة من الشريعة الاسلامية كما خطر ببال بعضهم بل ينبغى حمل المسلمين على القانون الهولاندى الا ما تعلق بالأحوال الشخصية كالنكاح والطلاق والميراث فهذه يجوز أن تفصل بحسب شريعتهم . وغرضه من ذلك عدم تقوية هذه الشريعة التى يحول تطبيقها بأسرها دون الصبغة الأوربية التى ينبغى أن تكون مجاهيد هولانده مصروفة الى نشرها تدريجاً . فان هورغونيه يقول : ان سلامة المستعمرات الهولاندية متوقفة على نشر المدنية الغربية والثقافة الهولاندية فى مسلمى تلك الجزائر الى أن يصيروا فى هذا الباب كالهولانديين أنفسهم فيكون هولانديون فى الشرق كما يكون هولانديون فى الغرب ولا يرى ذلك مستحيلا ولا يجد الاتحاد فى الدين شرطا فى اتحاد الوطنية بل يقول : انه كما لم يمنع اختلاف الهولانديين البروتستانت مع الهولانديين الكاثوليك والهولانديين اليهود ثم مع الملاحدة والمعطلة من الهولانديين أن يكونوا جميعا أمة هولاندية فلا يمنع اختلافهم فى الدين مع مسلمى الجاوى وسومطره أن يكون هؤلاء فى يوم من الأيام وطنيين هولانديين وذلك بحمل هؤلاء المسلمين على الثقافه الهولاندية التى تتغلب فى نفوسهم على أثر الدين . وهو يتمشى فى جميع آرائه على هذه النظرية ، وكأنه يعلم أن مهاجمة المسلمين من جهة العقيدة رأسا أمر عقيم لا يأتى بأدنى فائدة ، ولايعود على هولانده الا بالضرر ، فلا يألو جهداً فى تحذير قومه من سلوك ذلك المسلك الصعب ، ويشير الى صبغ الأمة الجاوية بالصبغة الهولاندية من طريق العلم والتربية .

أما حيث تجد هورغرونيه متشدداً الى الدرجة القصوى فهو فى السياسة الدولية فانه ينبه جهاراً بدون أدنى محاباة الى قطع كل علاقة سياسية بين الجاويين وسائر الحكومات الاسلامية ، لأنه يقول ان الخلافة ليست عبارة عن بابوية لا شأن لها فى السياسة بل هى رئاسة سياسية من أراد الاعتصام بها من المسلمين لم تمكنه طاعة حكومة مسيحية .

وهو يتاسف من كون مسلمى تلك الجزائر مقلدين فى دياناتهم وعاداتهم وآدابهم مسلمى مصر وحضر موت وجزيرة العرب ، عاكفين على مطالعة التآليف التى تحرر فى البلاد العربية ،

وأنه الى اليوم لم يوجد عاطفة جاوية قومية تناهض هذه النزعة الدينية العربية

يظهر من هنا اتفاق الاوربيين على بث روح القومية بين أمم الاسلام أملا بتشظية عصا الجامعة الاسلامية . فاننا قد رأينا أثر هـذه السياسة فى مواضع كثيرة من بلاد الاسلام فكأن الاوربيين يرون خطر القومية أخف جدا من خطر تلك الجامعة — ولذلك هو يرى أن لاهوادة مع المسلمين الجاويين فيما لو أرادوا أن يتضامنوا فى السياسة مع سائر مسلمى المعمور وأنه يجب منع قناصل تركيا الذين يتمثلون هناك بصفة وكلاء دولة الخلافة من أية مداخلة كانت مع الاهالى . وأغرب من هذا أنه ينصح بمنع الاشتراك فى الاعانات لسكة حديد الحجاز وعدم اباحة أية اعانة كانت لجرحى العساكر العثمانية أو لأرامل جنود الاتراك وأيتامهم — يقيم النكير على ذلك بكل تصريح وينسى مافى ذلك من مخالفة مبادئ الانسانية ـ ويحث حكومته على منع ذكر السلطان العثمانى فى خطبة الجمعة وعلى مراقبة التعليم الدينى حتى لا يقع فيه شئ من الدعوة الى اتحاد الاسلام — وكأنه يريد أن ينحصر فى المواعظ وأحكام الصلاة وذكر نواقض الوضوء مثلا — ويطلب حذف باب الجهاد من الشريعة وبالاختصار فهو مع مااتصف به من الاعتدال يريد أن يمحو أثر كل تضامن اسلامى مع المسلمين التابعين لهولانده ، وأن ينسخ من التعليم الاسلامى كل مافيه رائحة الدفاع عن الامة ، وفى هاتين النقطتين لا يرى فى المنام خليلا ...

ثم ان هناك مسئلة مهمة يقال لها مسئلة الحضارمة ، وهذه تكرث الحكومة الهولاندية اكثر من كل مسئلة سواها فى الجاوى لأنه معلوم كون اهل حضرموت من أقدم اهل الارض على الاسفار ، وان فقر بلادهم مع مضاء عزيمتهم يحملانهم على جوب الآفاق ، واكثر ماينتشرون فى جزائر الجاوى والبحر المحيط ، فكانت الحكومة الهولاندية تحسب لهم حسابا كبيرا واشد مايضيق صدرها بهجرتهم الى تلك البلاد خشية أن ينشروا الدعوة الاسلامية أو ينبهوا الاهالى السذج الى الامور التى لولا الحضارمة ربما لاينتبهون اليها ، فما زالت تضع الحواجز امام نزولهم فى تلك الديار وتراقب حركاتهم وسكناتهم ، وهى تحتج لذلك بكونهم فى الاكثر أفاقين لا يأتون الى الجاوى بشئ من رؤوس الاموال وانهم هم يمنعون غير المسلمين من دخول بلادهم حضرموت فلا يحق لهم اذاً ان يطالبوا بدخول بلاد هولانده ـ لأن جزائر الجاوى وسومطره وبورنيو وملحقاتها هى ملك هولانده وهى أولى من الاهالى ببلادهم ...

— و بناء على ذلك فقد ضويق الحضارمة وغيرهم من العرب فى قضية المهاجرة الى المستعمرات الهولاندية أو النيرلاندية كما يقولون ولكن لم تخل الحال من كون كثيرين من الحضارمة تمكنوا من الدخول وأوطنوا تلك الديار وصاروا من اهلها ، فترتب على ذلك ان الحكومة الهولاندية التى هى من الاصل غير مرتاحة الى وجودهم بين مسلمى الجاوى لكيلا تسطو حصافتهم على سذاجة هؤلاء و يوقظوهم من غفلتهم التى هى درة الحلب الاستعمارى قد جعلت تضيق عليهم فى غدواتهم و روحاتهم وتنغص عليهم عيشهم وتفعل ما شاءت انحملهم على ترك تلك الديار

فالاستاذ هور غرونيه يتكلم على هذه المسئلة بما يلى ترجمته :

« ان عدم قبولنا للحضارمة من الاصل لم يكن مخالفاً للعدل وكانت له اسباب يمكن أن يبنى عليها ، فلم تنتبه له الحكومة ، وسمحت لهؤلاء بالدخول على شروط يسهل عليهم القيام بها . لكنها بعد ان سمحت لهم بالاقامة جعلت تراقب حركاتهم بصورة لاتطاق ، و ربما كان لسياسة المأمورين الذين تختلف انظار بعضهم عن بعض فى الشدة وعدمها مدخل فى تشديد هذا الخناق على الحضارمة بحيث أصبح العربى هناك لايملك شيئا من الأمان على حاله واستقباله . فاضطر بعض ذوى الشأن من هؤلاء العرب الى رفع امرهم الى الخلافة (تركيا) وملأوا الجرائد الاسلامية بشكاويهم حتى يتمكنوا من تنفيس الخناق الذى هم فيه و يتعاطوا تجاراتهم ومرفقهم بدون تلك القيود الثقيلة التى هى حجر عثرة فى سبيلها ، ولكن ممالاريب فيه ان تلك الشكايات فيها مبالغة كبيرة »

ومن شاء التوسع فى هذا الموضوع ومعرفة ماهى عليه حالة اسلام الجاوى وماهى سياسة هولانده هناك وكيفية نظرها الى مستقبل تلك المستعمرات ، اذ كانت كل دولة مستعمرة لايهمها شئ مثل الاستيثاق من مستعمراتها والأمان الأبدى عليها ، فعليه بمطالعة مجموع المحاضرات التى القاها هذا الاستاذ والتى تجد فى آخرها جملة لابأس بنقلها وهى :

« ان الاسلام والنصرانية يمكنهما الاجتماع واحتمال احدهما الاخرى فى ممارسة الحياة الوطنية على شرط أن يمكن رفع فكرة الاتحاد الاسلامى . ولقد رأينا مقدار مساعدة الأحوال لنا فى تحقيق مشروع ادخال المسلمين الجاويين فى الامة الهولاندية بدون اثارة المسئلة الدينية .

ولعمرى ان كثيرين منا يمكنهم أن يأخذوا دروساً من التساهل الدينى عن اولئك الاهالى »
وكفى بهذا شهادة

***

وقد اعتنى علماء هولاندة جد الاعتناء بتمحيص تاريخ الجاوى وجغرافيتها نظراً لكونها من أبدع وأغنى بلاد الله ولكونها من هولاندة بمكان الهند من انكلترة فألفت على تلك الجزر مئات من الكتب والرسائل ونحن لا ننقل هنا سوى ما تعلق بدخول الاسلام فيها وأحوال المسلمين على وجه الاجمال .

قالوا ان الذين أدخلوا الاسلام الى تلك الجزر هم العرب وذلك بواسطة التجارة والملاحة فانهم نزلوا أولا بالثغور البحرية وبالمراسى الشهيرة وأخذوا ينتشرون منها شيئاً فشيئا الى الداخل وكانوا لا يلوون على شىء سوى الأخذ والعطاء ولم يظهر أصلا انهم قصدوا بادىء ذى بدء تأسيس ملك ولا فتح بلدان ولكن عند ما صارت الأمة المالزية تناظرهم وتسد عليهم طريقهم التجأ هؤلاء العرب الملاحون المرابحون الى القوة المسلحة حفظا لحريتهم و وقاية لمرفقهم فكانت مملكة دماك Demak وهى أول فتح عربى فى الجاوى .

وكان جغرافيو العرب قد عرفوا من زمن قديم بلاد مالزيه وثبت انه فى القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر طاف كثير من سياح العرب فى سواحل الهند والصين والجزر المالزية . قال المسيو بيارغونو Pierre Gonnaud صاحب كتاب « الاستعمار الهولاندى للجاوى » ان المدينة الاسلامية فى القرن العاشر كانت تلمع باسطع أشعتها وكان الخليفة يتولى سلطنة قوية سعيدة وكانت من جميع الجوانب تمتد طرق التجارة فيتلاقى فى وسط مملكة الخليفة الشرق والغرب وقد أحصيت تلك الطرق بين الغرب والشرق فكانت خمسا الاولى من البحر الاحمر الى الحجاز وجدة الى السند والهند الى الصين والثانية من انطاكية الى بغداد الى الابلة الى الهند والثالثة من جهة بحر الخزر الى الشرق والرابعة كانت تبدأ من طنجة فى الغرب فتخترق أفريقية الشمالية الى مصر الى الشام الى بغداد فالبصرة فالاهواز ففارس فكرمان الى السند فالهند فالصين والخامسة كانت شمالية تبدأ من ألمانية فتمر بالروسية الى بلاد ماوراء النهر الى الصين . وكان انتشار قوة الاسلام اقتضى توسع المعلومات الجغرافية فوجه زعماء الاسلام عنايتهم الى جوب جميع البلدان التى

دخلت فى حوزتهم ولقد أصاب المسيو رينو Reinaud فى قوله : « ان فتوحات الاسلام الأولى تأتت بدون برنامج معين وعلى طريق الاتفاق ولكن كان المسلمون كلما فتحوا قطراً حددوا حدوده وخططوا مسالكه واجتهدوا فى معرفة موارد حياته .

ثم قال ان المسعودى قد عرف الجاوى وذكر استيلاء الهند على الجانب الغربى منها وأشار الى وفرة الجبال النارية فيها . ومما قاله : انه لا يمكن معرفة حدود سلطنة مهراج الزيج أو الجاوى وجيوشه لاتحصى وينبغى للانسان مسير سنتين حتى يأتى على جميع ممالكه . وفى بلاده جميع أنواع الأفاويه والعطور مما لا يوجد عند ملك غيره ويصدر منها الكافور والطيب والقرنفل والصندل الخ وممالك المهراج يحدها بحر لا آخر له يتصل ببلاد الصين. انتهى

فكانت الجاوى يومئذ معدودة فى ممالك الهند وفى القرن الحادى عشر والثانى عشر ازدادت الفتوحات وازدادت معارف المسلمين الجغرافية وأصبح الارخبيل الماليزىّ معروفا ومنذ أوائل القرن الحادى عشر ظهرت روح الدعاية الدينية بشدة عظيمة فى الحروب الصليبية واشتدت المصارعة بين جنود الخليفة والبارونية الافرنج . الى أن قال : انه فى القرنين التاليين صارت الدولة ملوك طوائف وانفصلت بعضها عن بعض وتغيرت الطرق التى كانت بين المشرق والمغرب وساقت هذه الأحوال مهاجرى العرب الى بحر الهند . وفى القرن الحادى عشر زار أبو الريحان محمد الهند وكتب عنها . وفى العصر الذى يتلوه كان الادريسى فى بلاط روجر صاحب صقلية وكان يأخذ عن تجار العرب الذين يترددون على بلرم وهو أول من سمى باسم المالبز أحد الشعوب الساكنة فى الجاوى . وذكر مابين هذه الجزيرة وجزيرة ماداغسكر من العلاقات ووحدة الجنس . ولكن لسوء الطالع كانت معلوماته فى الاطلس الجغرافى لا تزال على ما كانت عليه معلومات بطليموس فكان يجعل قارة افريقية ممتدة جداً الى الشرق . على أن هذا الأطلس نفسه الذى أنبأنا عنه المسيو رينو يدل على التبسط العظيم الذى تبسطه العرب فى جميع أصقاع الاقيانوس الهندى ونقل ابن سعيد (أبو الحسن نور الدين على) المولود سنة ١٢٧٤ أخباراً كثيرة عن رجل اسمه ابن فاطمة ساح فى سواحل افريقية الغربية حتى بلغ الرأس الأبيض وطاف فى السواحل الشرقية حتى بلغ سوفاله . ونحن نعلم أن السواحل الشرقية هذه كانت دائماً محط رحال العرب وانه كان فى أواخر القرن الخامس عشر فى ساحل موزامبيق جالية اسلامية جليلة عاكفة عن أشغال البحر

بصيرة جيداً بمهاب الرياح ومجارى الأبحر المجاورة و بين أيديها خرط بحرية وآلات متنوعة متعلقة بصنعة الملاحة . وأحسن من وصف بلاد الجاوى من هؤلاء الجغرافيين أبو الفدا فمع كون معلوماته ليست فى نهاية التمحيص فلم يكن أحد ليقدر على ما يقدر عليه فى وقته من الاطلاع والتنقيب فقد حج الى مكة ثلاث مرات وعرف الشام والعراق وكان كثير الاختلاط بصاحب الديار المصرية فاطلع على أحوال الجاوى والجزر المجاورة لها ونشر كل ما عنده من العلم فى عصره عن هذه الجزر العجيبة فقال ان الجاوى لها عدة أسماء . وذكر ابن سعيد ان جزائر الرانج اشتهرت بما روى عنها التجار والسياح . وأكبرها جزيرة السريرة التى طولها أربعمائة ميل من الشمال الى الجنوب وعرضها مائة وستون ميلا الخ . ثم يقول أبو الفدا : فى جنوبى الاقليم الأول جزيرة كبيرة فى البحر الأخضر ذكر ابن سعيد أن سلطانها لايوجد له نظير فى ملوك الهند فى كثرة الكنوز والذهب والأفيال وقاعدة ملكه فى الجزيرة الكبرى وقال المهلبى ان جزيرة السريرة معدودة من الصين الخ .

و بالاختصار فالى عهد استيلاء الأوروبيين على هذه الديار كان العرب لهم معرفة تامة بها و بخيراتها و بمسالكها و بالبراكين التى فيها وكانوا يعلمون أن فيها ممالك عظاما مثل مملكة المهراج يصفها ابن خرداذابة وأبو الفدا بسعة الملك والحول والطول . ولما وصل العرب الى تلك الجزائر لم يفكروا فى فتحها بالسيف كما فتحوا آسية الصغرى وأفريقية وأسبانية لأنه لم تكن بأيديهم قوة كافيــة بازاء هاتيك الممالك وانمــا كانوا تجاراً ومرتزقين منتشرين هنا وهناك ولكن كما قال فان دربرغ van der Berg صاحب كتاب «حضرموت والمستعمرات العربية فى الارخبيل الهندى » : لما كانوا أعلى درجة فى المدنية من أهل تلك الأقطار جعلوا لأنفسهم مقاماً ممتازاً حفظوه الى يومنا هذا فى وسط الشعوب الآسيوية التى انتجعوا بلادها . وهذا المقام العالى الخاص بهم الذى له أسباب خلقيــة وطبعية انضمت اليها عوامل أخرى تجارية ومزايا كسبتهم اياها الاغتراب وطول السفار هى التى كانت الأصـل الأصيل فى نجاح العرب وفلاحهم وتبسطهم من السواحل الى الداخل ونشر عاداتهم وعقائدهم حيث نشروا تجارتهم . اه .

قال المؤرخون الأوربيون : لم تكن العــلاقات التجارية مهما كثرت وانتشرت لتكفى فى نيل العرب هذه السيادة الاجتماعية والأدبية على جزائر عظيمة كهذه فياضة الخيرات

زاخرة العمران بل كانت معهم قوة أعظم من هـذه وهى قوة العقيدة المحمدية التى هى من الجلاء والبساطة بحيث يفهمها الخاص والعام وما لا يشك فيه أنها متضمنة فضائل لم تكن فى دين من الأديان المعروفة فى الجاوى فقد كانت البراهميـة والبوذية هما الديانتين السائدتين هنالك وهما عبارة عن تمجيد متصل لقوى الكون ومجادلة دائمة بين مصدرى الخير والشر فكان فى ذلك من التعقيد وصعوبة التفهيم ما فيه لأن هـذه العقائد تسلم بوجود الهين متساويين فى القوة بأيديهما ادارة المخلوقات أحدهما للنفع والآخر للضرر فكانت تضل الافكار وتقسم قوى النفس البشرية وتساعد على تعـدد النحل وتدفع بعضهم الى ناحيـة براهما والآخرين الى ناحية سيفا أو فشنو وتحمـل المعتقدين على اختيار الآلام وحب العذاب وعدا ذلك فان فى هـذه الديانات من تفاوت الطبقات ووضع بعض الناس فى أعلى عليين و بعضهم فى أسفل سافلين ما يحرم المعتقدين من كل مساواة حتى فى الحضرة الالهيـة . فالدين الاسلامى أتى أهالى الجاوى بما كانوا يشعرون بالحاجة اليه من المساواة التامة فضلا عن كون عقيدته صافية واضحة مختصرة سهـلة الشعائر تنحصر فى الايمان باله واحد أوحى شريعته الى الخلق بواسطة واحد من رسله . فخلص النـاس بذلك من هذه الثنائية التى تجعـل قوتين خالقتين فى صراع دائم وتحير الأفكار وتقلق الخواطر . فالاله الاسلامى واحد لا شريك له مهيمن على الخلق وجميـع الناس أمامه سواء ولديه صلاة الصعلوك كصلاة الملك فلا درجات ولا طبقات ولا فواصل غـير قابلة للوصل بين العباد . وهو أكثر ملاءمة لوجود حكومات متحدة قوية ذات مركز واحد مما كان يحن اليه أهالى الجاوى من زمن طويل وحسبك أن الاسلام كله ينحصر فى كتاب واحد هو القرآن فاذا كان البراهمى يعيش بين الأمم الغريبة منفرداً لاهم له فى التأثير فيهـم ولا فى حملهم على مشاطرته تلك السعادة التى يرى نفسه متمتعاً بها وكان البوذى لا يرى تحقيق نعيمه الا فى التأمل والتبتل والرهبانية فان السائح المسلم فى أى بلد وجد وقرآنه بيمينه يمكنه أن يعلم من اختلط بهم ديانة سهلة الفهم سهلة الدخول فى العقل من شأنها بث الدعوة ومن فضائلها النشاط والعمل والاختلاط مع سائر البشر وزد على ذلك أن المدنية الاسلامية كانت أرقى جدا من مدنية أهل الجاوى وان العرب لما وطئوا هاتيك الشواطئ جاءوا بمعلومات قيمة كانت مجهولة عنـد الجاويين وأهل الشرق الأقصى مثل علـم الهيئة والتقويم والجغرافية والعروض والأطوال

لتحديد الأقاليم وكان فن الملاحة بالغاً عند العرب الدرجة العليا من الاتقان وكانوا قوامين على الاسفار خبيرين بأحوال الأمم ويقال انهم كانوا عرفوا ابرة المغنطيس وكانوا ينشئون الجواري كالأعلام ويقطعون البحار بمزيد الجرأة والاقدام وكانت لهم خبرة زائدة بالطرق البحرية والمراسى ونقاط الحط والاقلاع حتى كان السياح الاوربيون لأول عهد دخولهم الى آسية مفتقرين اليهم (١) وقد خلق العربى تاجراً بفطرته خبيراً بالعمليات المالية والحسابية وبأساليب الأخذ والعطاء فتعلم الماليزيون من العرب أصول التجارة وطرق البيع والمساومة وطريقة تحديد أثمان الحبوب والبضائع وتأسيس المستودعات التى هى الواسطة بين الزارع والصانع وبين التاجر والمشترى وطريقة السفتجة أو الحوالة التى كانت عند العرب كما هى عند الاوربيين اليوم .

فلهذه الأسباب انتشرت فى الجاوى عقيدة الاسلام وحضارته ومع شدة تأثيرها كان سيرها بطيئاً فى البداية وما عمت الجزيرة كلها حتى وحتى . كذلك لم يكن نجاحها متساويا فى جميع آفاق الجزيرة فيوجد فرق بين غربى الجاوى وشرقيها كما قال الدكتور شريبر Schreiber لأن الاسلام كان أسرع تقدماً فى الجهة الغربية بين الجنس المسمى بالسوندانى منه بين الجنس الجاوانى والى هذا اليوم تجد السوندانيين أشد تمسكا بدينهم وأعرف به من الجاوانيين الذين فى الغالب لا يعرفون القرآن وكذلك ترى النصرانية لم تجد من سهولة الانتشار بين السوندانيين ماوجدته بين الجاوانيين الا أن هذا الفرق نفسه قد بدأ يضمحل اليوم برسوخ الاسلام فى شرقى الجاوى كما هو فى غربيها .

ولم تتوفر عناية العرب فى الجاوى على تشييد المبانى الدينية الضخمة كما كان شأن البراهمة والبوذيين بل كان معظم همهم فى الفتوحات الروحية فليس فى الجاوى ما فى سائر البلاد الاسلامية من المساجد التى تبهر الأنظار ببديع الصنعة وفخامة البناء ولكن الجوامع كثيرة العدد ولا يخلو منها بلد وعدد الذين يحجون بيت الله الحرام كل سنة كثير جداً ولقب « حاجى » هو فى نهاية الاعتبار .

يقدر المؤرخون تاريخ دخول الاسلام فى الجاوى بخمسة قرون تبتدئ من القرن الثانى عشر الى أن تنتهى باحتلال الهولانديين لبتافيا فى القرن السابع عشر . وقد حقق

(١) مثل ابن ماجد الذي كان دليلا للبرتقال

المؤرخ فت Vet ان المسلمين لم يقتصروا على فتح الجاوى الأدبى بل نشروا المدنية الجاوانية الى أقصى جزر الارخبيل .

وكانت أعظم سلطنة هناك مملكة « ماجاباهيت » كانت تنضوى تحتها امارات عديدة فلما جاءت الدعوة الاسلامية أخذ أولئك الامراء والمهراجات يولون وجوههم شطر الاسلام فكان كلما كسب بلداً انتقل الى الذى بجانبه فاستصفى مملكة ماجاباهيت ودخل الى المالانغ ثم الى بلاد السوند وأخذ يزداد عدد المسلمين يوماً فيوماً وكانت ثروتهم تنمو بنمو عددهم وهم دائما فى علاقات مع تجار العرب الذين كانوا أول ما ينزلون فى سواحل الجاوى الشمالية وما زالوا يتكاثرون هناك حتى أسسوا سلطنة دماك .

وكانت ما جاباهيت هذه أول سلطنة هندية سقطت بعلو الاسلام فى تلك الديار وكانت واسعة الأطراف تشتمل على الأقسام الجنوبية والشرقية من الجاوى يحدها من الغرب بلاد جانقاله وغريس ومن الشرق بلاد تنغر ولكن نفوذها كان يمتد الى بلاد « ماتارام » والى حدود مملكة « باجاجاران » وكانت فيها حواضر عظام مثل مدينة ماجاباهيت ومدينتا « برانبانان » و « مندويت » ولكن الاسلام تمكن منها بسهولة واشتهر فى نشره هناك حسين الدين حليف سلطان دماك ففى سنة ١٤١٨ من التاريخ الجاوانى الموافق ١٤٨٨ من التاريخ المسيحى دخلت سلطنة ماجاباهيت فى خبر كان . وأعظم سلطنة تأسست للاسلام فى الجاوى كانت فى قطر ماتارام وقد بقيت فى شوكتها الى القرن الثامن عشر فبدأت تتساقط تحت هجمات الهولانديين .

فالعرب لم يؤسسوا فى الحقيقة سلطنة اسلامية جامعة فى بلاد الجاوى لأنه كان يحول دون اتحاد السلطنة هناك حوائل كثيرة وانما أسسوا هيئة اجتماعية اسلامية مانعة يمكنها أن تبقى ثابتة من فوق الممالك المتداعية الى السقوط فالآن يوجد امة ماليزية محمدية قد وحد الاسلام بين اجزائها واورثها قوة جعلتها تقف فى وجه الغرباء الذين حاولوا فك أوصالها ومكنتها تمكيناً فى تلك الأرض فليس فى الجاوى قوة سواها (عن بيار غونو ملخصاً) .

أما جزيرة الجاوى فهى معدودة من ارخبيل السوند تنفصل شمالا عن جزيرة بورنيو ببحر الجاوى وغرباً عن سومطرة ببوغاز السوند وشرقاً عن بالى ببوغاز بالى وامامها من الجنوب الاوقيانوس الهندى وموقعها بين ٥ ر ٥٢ و ٨ ر ٤٦ من العرض الجنوبى و ١٢٠ ر ٤٠

و١١٢ من الطول الشرقى طولها الف كيلومتر من الغرب الى الشرق وعرضها من ١٠٠ الى ١٥٠ كيلو متراً من الشمال الى الجنوب ومساحتها مع « مادوره » مئة و واحد وثلثون الفا وخمسائة كيلومتر . وفيها جبال كثيرة و براكين متأججة وجبالها مغطاة بالأشجار وفيها معادن غير مستخرجة وسهولها خصيبة تر ويها المياه السائلة من الجبال وهواؤها حار رطب وأهلها خمسة وعشرون مليوناً و ٦٧ الف نسمة منهم ٢٤ مليوناً و ٧٥ الف نسمة جاويون و ٥٠ الفا اوربيون و ٢٥ الفا صينيون و ١٥ الفاعرب وجميع الأهالى الجاويين مسلمون ، وتجارة الجاوى تقدر بأكثر من ٥٠٠ مليون وفيها ١٨٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية وهى مركز المستعمرات النيرلاندية وعاصمتها باتافياوبها يقيم الحاكم العام من قبل هولاندة ومن مدنها بويتنزورغ وهى كرسى الحكومة الصيفى ثم سامارانغ وسرابيه وسرا كارته .

ومن جزر الارخبيل المالیزی بورنيو وهى اكبر جزائره لا بل اكبر جزيرة فى الارض بعد غينية الجديدة . مساحتها سبعمائة وستة وأربعون الف كيلو متر مربع وهى من بلاد خط الاستواء والاشجار تغطى جبالها الى أعلى القنن ومن رؤوس جبالها ما ارتفاعه ٤١٧٥ متراً وهو فى المحل المسمى « كينابالو » فى شمالى الجزيرة ومنها فى وسط الجزيرة « غونونغ ريا » علوه ٢٢٧٨ متراً . وتكثر الامطار فى هذه الجزيرة فتسيل فيها أنهار كبيرة منها نهر الكابواس والسامباس مما عرضه ١٥٠٠ متر فى بعض الأماكن ومنها أنهر أخرى مثل الكاهاجان والبارتيو فى الجنوب والماها كام والكاجان فى الشرق والبارام والباتانغ رجانغ والباتانغ لوبار فى الشمال وجداول وأنهار صغار لاتحصى . وفى هذه الجزيرة معادن كثيرة وجواهر كريمة و يستخرج منها زيت البترول بكثرة .

والجزيرة منقسمة بين انكلترا وهولاندة فمنها مساحة ٥٥٣٣٠٠ كيلو متر مربع فى الشرق والجنوب والغرب لهولاندة . ومنها ١٩٧٥٠٠ كيلومتر مربع فى الشمال لانكلترة. فأما القسم الهولاندى فينقسم الى قسمين : جهة غربى البورنيو وقاعدته « بونتياناك »وجهة الجنوب الشرقى من البورنيو وقاعدته « بانجرماسين » وأما القسم الانكليزى فهو عبارة عن امارة «سرافاك» وأراضى الشركة الانكليزية فى شمالى بورنيو وجزيرة لابوان ومدينة برونای .

فأما البلاد التى تحت سلطة هولانده ففيها ممالك « سنامباس » و « مانباوه »

و « بونتياناك» و « كوبو » و «سيمبانغ» و « ماتان » و « لانداك » و « تاجان مليو » و « سانغو » و« سيكادو » و « سنيتانغ » و « سيلات » و « سوهيد » و « ساليمبو » و « بياسه » و « جونغ كونغ » و « بونوت » وكل مملكة من هذه عليها رئيس يسمى سلطانا أو بانمباهان أو بانجران وهم باجمعهم تابعون لهولاندة وعندكل منهم مجلس مؤلف من امراء الاسرة المالكة وأشراف البلاد .

وكان لبورنيو علاقات بالصين من جهة الشمال و بالهند وكثير من ملوك بورنيو هم من أصل هندى وفيها هياكل كثيرة للعبادات الهندية . ولم يدخل الاسلام الى بورنيو الا فى أواسط القرن السادس عشر انتشر من بانبانغ الى السوكادانه والماتان . وفى سنة ١٥٩٠ صعد أول سلطان مسلم وهو « غيرى كوزوما » على عرش سوكادانه وفى أيامه بدأ الأوربيون يتطالون الى هاتيك الاقطار .

وحفظت ممالك بورنيو استقلالها مدة طويلة فتأخر استيلاء الاجانب عليها عن جميع جزائر الارخبيل الماليزى فلبث الاوربيون ثلاثة قرون من برتقاليين واسبانيول وهولانديين وانكليز يجوبون فى تلك الديار متجرين ومعاوضين ولا يتعرضون للسياسة . وأول مملكة فقدت استقلالها هى بانجارماسين فان الهولانديين اعتدوا عليها فى أواسط القرن الثامن عشر . أما سوكادانه فبقيت مدة تابعة لمملكة بانتام من الجاوى ثم انفصلت عنها سنة ١٧٢٥ بمعاونة اهالى جزيرة « سيلاب » وهم جنس يقال لهم البوغينيزيون انتشروا فى السواحل الغربية من بورنيو وملك منهم عدة امراء فى هذه الجزيرة . و بقيت سوكادانه مستقلة تمام الاستقلال الى سنة ١٧٨٦ اذ أسقطها الهولانديون بالاشتراك مع سلطان بونتياناك ولم يبق لها سوى بلاد الماتان . أما سلطنة بونتياناك فاصلها امارة رجل عربى اسمه الشريف عبدالرحمن بن الشريف حسين بن احمد القادرى الذى قبره يزار فى بلدة منباوه فيقال انه بدأ حياته بالغارات وغصب السفن الى أن غضب عليه أبوه الذى كان صالحا ورعاً فرحل من منباوه وجاء بعصابته الى جهة لانداك وكابواس و بلباقته ونشاطه أسس مركزاً تجاريا لم يزل ينمو و يتقدم حتى صار مدينة هى مدينة بونتياناك الحاضرة . وسنة ١٧٧٩ نودى به سلطانا واعترفت بسلطنته الشركة الهولاندية للهند الشرقية وعاهدته ولم يزل الملك فى أعقابه الى هذا اليوم ولكن هولاندة أخذت على أيديهم ولم تبق لهم من الملك سوى الاسم .

وأما سلطنة سانباس التى قاعدتها سانباس فقدأسسها ماليزيو جوهور . وسنة ١٦٠٩ عقدت معاهدة مع الشركة الهولاندية للهند الشرقية . وفى النصف الأول من القرن السابع عشر غلب رادين سليمان بن الراجا تنغا أمير « برناى » على ملك سانباس وطرده وكانت امه من بيت ملك سوكادانه مقيمة بسانباس . وملك رادين سليمان تحت اسم السلطان محمد صفىّ الدين وهو أول ملوك الاسرة المالكة الى زمننا هذا .

وأما أمارة سرافاك التىقاعدتها كوتشينغ فأصلها أن بحريا انكليزيا اسمه جيمس بروك وصل بسفينة تخصه الى بلدة برناى فوجد الحالة فيها لاتطاق من الظلم والعسف وفقد الامن وتبليص النـاس من أموالهم . وكان هناك أمير يقال له مودا حسن فاعتمد على الربان جيمس الانكليزى وفوض اليه الأمور فأصلح الأحوال ووطد الأمن وفى سـنة اعترف سلطان بروناى هـذا للضابط الانـكليزىّ جيمس بالامارة على سرافاك فصار جيمس أميراً واستخدم الوثنيين فى مقاومة المسلمين (١٨٤٢) وأمدّته الحكومة الانـكليزية ببعض النجدات فى وقائعه مع العرب والماليزيين ولم يدخل فى حكومته الا عدداً قليلا من الاوربيين وسوّى فى المعـاملة بين الاوربيين والوطنيين (١) فسعدت أهالى تلك الامارة واتسعت حدودها وعظم شأنها . وسنة ١٨٦٣ مات جيمس فخلفه ابن أخيـه كارلس بروك وقد ورث ملـكا عريضاً يمتـد الى حدود نهر ليذبانغ ودخلت هـذه المملـكة تحت حماية بريطانية العظمى .

وأما سلطنة «كوتاى » على الساحل الشرقى من بورنيو فقاعدتهـا « تنغارون » وميناؤها « سامارينده » فقدكانت تابعة سلطنة موجوباهيت الجاوية ثم صارت الى تبعية مملـكة بنجارماسين . وفى أثناء القرن التاسع عشر اضطر سلاطين كوتاى الى الاتفاق مع هولاندة على شروط تخل باستقلالهم وتجعل لها هى السيطرة .

أما احصاء نفوس بورنيو فيبلغ مليوناً وسبعمائة ألف نسمة من هذا العدد نحو ستين ألف صينى و بضعة آلاف عربى ونحو ألفى أوربى فهى قليلة الساكن بالقياس الى مساحتها اذ لا يصيب الـكيلو متر المربع فيها أكثر من واحد الى ثلاثة من السكان . وهم من جنس يقال له الداياك يسكنون فى الداخل ومن المـاليزيين المسلمين الذين يسكنون فى الساحل .

(١) ياليت حكومته وسائر الحـكومات الأوربية تقتدى به فى هذه الخطة

والداياك هم من أصل ماليزى ولكنهم منحطون فى المدنيـة منقطعون فى البرارى والجبال والسيادة دائمـا للسلمين عليهم . ومتى أسلم واحد من الداياك صار معدوداً من الماليزيين . وأما السواحل فهى مأهولة بالمسلمين الماليزيين بعضهم من السلالة الماليزية الخالصة و بعضهم مختلطون بالامة البوغنيزية. ومن جهة أرض كابواس يوجد ماليزيون كثيرون ممتدون الى الداخل وهم هناك يتزوجون من الداياك والغالب على هؤلاء الماليزيين حب التجارة وصيد البحر وقنص الوحوش وليس عنـدهم ميل الى الزراعة والصناعة ولكن تشكيلاتهم السياسية بسبب وحـدة العقيدة الاسلامية هى أمتن وأقوى من غيرها فقد سادوا بها على سائر سكان بورنيو فتجدهم هم الماسكين بافواه الانهر التى هى طرق المواصلات قابضين على زمام التجارة من كل جهـة . ومنهم من يتغلغلون فى أحشاء الجزيرة فى طلب محصولات الأراضى الحرجية مثل الكاوتشوك وغيره فيصلون الى أقصى مساكن الداياك السابق الذكر و يطبعونهم بطابع الاسلام . وأما السواحل الجنوبية من بورنيو فيسكنها جيـل يقال لهم البانجاريزيون وهم ماليزيون مختلطون بدم جافانى لهم فى بلاد بنجارماسين هيئة اجتماعيـة جديرة بالذكر وهم أهل ذكاء واقدام . كذلك على السواحل الشرقيـة يكثر الجيل المسمى بالبوغينيزى وهم من أقوم الأقوام على التجارة والسعى وفيهم نشاط وهمة فائقة ولهم مكانة عظيمة سياسية واقتصادية فى هاتيك الأرجاء

وفى الأرخبيل الماليزى جزيرة يقال لها سيلاب Célébes هى الجزيرة الثالثة فى العظمة والبسطة مساحتها ٣٢٢٨ كيلومتر مربع وفيها جبال عالية جداً ارتفاع قممها يبلغ ٣٤٥٠ متراً وأرضها كلها جبلية تقل فيها السهول وتكثر فيها البراكين وفيها بحيرات متعددة .

وسيلاب تابعة لدولة هولاندة باجمعها وانما ادارتها مقسومة الى قسمين أحـدهما ولاية « منادو » ويتبعها النصف الشمالى من الجزيرة مع شـبه الجزيرة الشرقى والثانى مابقى من الجزيرة . ولا يزال فى أشباه الجزر الشماليـة والجنوبية امارات وطنية مثـل « غوفا » و « بونه » و « لوفو » طرد أمراؤها سنة ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ولم ينتصر لهم أحد من الأهالى . وامارات أخرى مثل « تانيت » و « سوبنغ » و « سيد نغرنغ » لاتزال مستقلة فى داخلها الى اليوم

وكانت جزيرة سيلاب مجهولة أكثر من سائر جزر هذا الأرخبيل نزل بها الماليزيون سنة

١٥١٢ والبرتقاليون سنة ١٥٣٢ وفى القرن السادس عشر تغلب ملوك الما كاسار أصحاب دولتى « غوفا » و « تلو » على جنوبى سيلاب و قسم من أوساطها وعلى الجزر الصغيرة من أرخبيل الصوند . وفى زمان الملك « تونيجالو » الذى تولى الأمر من سنة ١٥٦٥ الى سنة ١٥٩٠ تقرب « باب الله » ملك « ترنات » وكان مسلماً الى مملكة غوفا وعقد معاهدة مع تونيجالو وأراد أن يحمله على الاسلام ولكن لم يوفق حينئذ الى ماأراد . فلما آل الأمر الى ابن تونيجالو شرح الله صدره للاسلام على يد رجل ماليزى اسمه « داتورى باندانغ » من بلدة يقال لها « منانغ كابو » من جزيرة سومطرة فاسلم (سنة ١٦٠٣) وتلقب بالسلطان علاء الدين وأسلم معه وزيره « كارانيغ ماتوفيا » وتبعهما سائر الأهالى وانتشر الاسلام بين جميع الشعوب العديدة المسماة بالما كاسار والبوغنيز لا سيما أن مملكة غوفا فى ذلك الوقت كانت قد وسعت حدودها وزادت بسطة عزها .

وكان الهولانديون والانكليز والدانمركيون منذ سنة ١٦٠٥ بدأوا يناظرون البرتقاليين فى التجارة ويزاحمونهم على محاصيل البهارات والفلافل فى عاصمة الما كاسار . وقد عقد الهولانديون معاهدات تجارية مع أمراء تلك النواحى تضمن لهم امتيازات خاصة بهم ثم لم يخل الأمر من وقوع بعض الخلل بهذه المعاهدات فاتخذت هولاندة هذا الخلل ذريعة لمناجزة تلك الحكومات الوطنية القتال و بالاتفاق مع مملكتى بون وترنات زحفت العساكر الهولاندية فى سنة ١٦٦٧ ثم فى سنة ١٦٦٩ وفتحت أوساط مملكة الما كاسار وأجبرت أمراءها على امضاء معاهدة « بانغاجا » التى حملت على امضائها فيما بعد جميع ملوك القطر الجنوبى من جزيرة سيلاب و بموجبها أطاعوا دولة هولاندة . وكانت بلاد « ميناهازه » من هذه الجزيرة ذات علاقات كثيرة مع الاسبانيول وكان لهؤلاء عندهم مراكز أسسوها منذ القرن السادس عشر فاستعان الميناهازيون بالشركة الهولاندية على الاسبانيول وأخرجوهم .

أما عدد أهالى سيلاب فيبلغ مليونين وهم من العائلة الماليزية البولينيزية وذهب بعضهم الى وجود جنس آخر فى داخل الجزيرة أسمه « توالا » وأصفى جنس من هؤلاء السكان هم « التوراجا » وهم جيل وثنيون فى داخل الجزيرة ومنهم أقوام فى شبه الجزيرة الغربى اختلطوا بالماليزيين فتكون منهم الما كاسار والبوغينيز . أما جنس الميناهازه

فيستدل من أشكالهم ولغتهم على كونهم ذوى قربى مع المـاليزيين أهل الفيلبين وفورموز واليـابان . وأشهر المدن التجارية الماكاسار فيها ١٠٥٩ اوربياً و ١٤١ عربيا و ٤٦٧٢ صينياً و ٢٠١٧٨ من الأهالى أكثرهم بوغينيزيون . ثم منادو وفيها ٥٠٠ عربى و ٥٧٦ اوربياً و٢٧٨٤ صينياً و٦٦٦٩ من الأهالى . ثم غورونتالو وفيها ٣٢٧ عربياً و١٤٥ أوربيا و ٦٠٦ صينيون و٥٢٤٧ من الأهالى . ثم سينجه وأهلها ٣٥٧٨ وفيهـا ٥١ أوربياً و٢٣ عربيا و ١٠٨ صينيون . ثم بونتان وفيها ١٥٥ أوربيـاً و ١٩٧ صينياً و ٦٥٤٤ من الأهالى و ٣ عرب وهـلم جرا . وجنس التوراجا زراع ومنهـم قناصون ويسكنون فى قرى محصنة لـكثرة ما يقع بينهم من الحروب .

وفى البلاد التى تصاقب البلاد الساحلية حيث يكثر البوغينيزيون دخل التوراجا هؤلاء فى الاسلام اما النصرانية فتنمو فى الجهة الشمالية .

والشعبان التوأمان المسلمان فى جزيرة سيلاب هما الماكاسار والبوغينيز . كانا يسكنان فى الارجاء الجنوبية ولـكنهما انتشرا أخيراً فى جميع سواحل سيلاب وفى اكثر جزر الارخبيل من الشرق الى الغرب وذلك بكون ابناء هذين الشعبين هم من اجرأ الناس على البحر ومن اقدرهم على التجارة والماكاسار هم اصحاب الناحية الغربية من شبه الجزيزة الجنوبى داخلة فى ذلك مملـكة غوفا Gouva واما البوغينيز فانهم اصحاب الجانب الشرقى من شبه الجزيرة . وللماكاسار عدا غوفا مملـكة تانيت Tanette وارخبيل سالبار Saleyer الجنوبى. وللبوغينيزيين Buginais ممالك بون Bone وفاجو Vadjo ولوفو Louvu وسوبنغ Sopeng وماعدا هذه الممالك فيوجد حكومات صغار تابعة للحكومات التى هى اكبر منها . وعلى رأس كل من هذه الممالك ملك أو أمير أو ملـكة أو أمـيرة يتقلد أو تتقلد الملك بالارث ولـكل من الملك أو الملـكة وزير ثم مجلس مؤلف من اعضاء بيت الملك . وامراء البلاد والأهالى قسمان منهم الاحرار ومنهم الأرقاء . وللاهالى عادات ومنازع لايزالون متمسكين بها بالرغم من انتشار الاسلام بينهم فالتوارث بحسب الشريعة الاسلامية غير جار الا فى المـدن . والزواج يجرى وفقا للشرع المحمدى لـكن حفلات الافراح وثنية تقريبا . وأما المرأة المتزوجـة فلها مقام ممتاز . وقد امتاز الماكاسار والبوغينيز بالنشاط والعمل وحب الـكسب فتراهم ارقى امم تلك الجزر فى الأمور الاقتصادية وهم يتقنون التجارة والزراعة وتربية المواشى وعندهم صناعات

يدوية من النساجة والحدادة و بناء السفن يبلغون بها حد المهارة وكذلك لايباريهم أحد فى حرفة الملاحة وصيد السمك . ومعدل كثافة السكان من هـذين الجيلين بالنسبة الى مساحة الأرض هو ٢٧ شخصا فى كل كيلو متر مربع كما فىغوفا وفى تانت و ٢٠ شخصا فى بون . وأما فى الاماكن التى تديرها هولاندة رأسا فهو ٥١ شخصا فى كل كيلو متر مربع . ولهذين الشعبين كتابة وحروف هجائية من أصل هندى . وعندهم كتب وتآليف وآداب لغوية غزيرة ونظم ونثر . ومن جملة الكتب المعروفة عندهم مجموع أحكام حقوقية اسمه «رابانغ» بلغة الماكاسار و « لاتوفا » بلغة البوغينيز . ويوجد مراكز تجارية عظيمة للبوغينيز فى جميع الارخبيل كالسواحل الشرقية والغربية من بورنيو وفى ارخبيل ريوف Riouv والجزر الصغار من أرخبيل الصوند وفى شرقى جزيرة لونبوك وشمالى سومطرة .

أما الميناهازيون فانهم اليوم نصارى وقدانتشر العلم والتمدن بينهم بواسطة المبشرين ونمت ثروتهم وصارت كثافة السكان منهم بالنسبة الى مساحة الارض بمعدل ٣٨ شخصا فى الكيلومتر المربع ويوجد ناحية حول بحيرة توندانو كثافتهم فيها بمعدل ٨٣ فىالكيلو متر.

وأما جزيرة سومطرة فانها من الجزر الماليزية أيضاً وتعد من أعظمها بل من أعظم جزر العالم يفصلها عن بلاد الهند الصينية بوغاز ملقا وعن الجاوى بوغاز الصوند وهى بين ٩٢ ر ٥٢ و ١٠٣ ر ٤٣ من الطول الشرقى و ٥ ر ٣٨ من العرض الشمالى و ٥ ر ٥٨ من العرض الجنوبى وطولها ١٧٦٠ كيلو متراً بعرض يختلف من ١٦٠ الى ٤٠٠ كيلو متر ومساحتها ٤٣٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع وفيها سلسلة جبال عالية ارتفاع قممها ٣٧٠٠ متر و ٣٤٠٠ متر . وفيها أنهار كبيرة تسير فيها السفن وهواؤها حار رطب وفيها معادن الذهب والحديد والنحاس مثلجزيرة بورنيو . وفيها زراعةالارز والحبوب وتكثر فيهاالحيوانات كالخيل والبقر والجواميس وعدد أهلها ثلاثة ملايين وخمسمائة وسبعون الفاً منهم من اجناس هندية كالبانا والآلا والكوبو ومنهم ماليزيون ومنهم ماليزيون مختلطون يقالهم آتشينيون والماليزيون والآتشينيون هم مسلمون وهم أكثر أهالى الجزيرة . وسومطرة تابعة هولاندة منها مايليه الهولانديون رأساً ومنها امارات تحت الحماية ومنها امارات مستقلة . وأعظم مدنها بالانبانغ وآتشين و بادانغ ومدان الخ .

والمسلمون فى الجاوى وسومطرة و بورنيو وسيلاب وسائر المستعمرات الهولاندية هم ٣٥ مليونا و بعضهم يقول ٤٠ مليونا .

مسلمو الفيلبين

الأمير شكيب

ونتهى القول بجزائر الفيلبين وهى أرخبيل من الاوقيانوس الماليزى بين ٤ر٢١ و ٣٠ من العرض الشمالى و ١١٤ ر ٣٠ و ١٢٤ ر ١٥ من الطول الشرقى بين بحر الصين غربا والاوقيانوس الباسيفيكى شرقا وبحر سيلاب وبحر جولو جنوبا . وهذا الارخبيل يحتوى ١٢٠٠ جزيرة أشهرها لوسون Luçon فى الشمال وجزر بابوان Babuyanes وجزر بيسايا Bissayas فى الوسط وجزر كالاميان Calamianes وبالاوان Palaouanes فى الغرب وجزيرة ميندااناو Mindanaw فى الجنوب . وهذه الجزائر جبلية بركانية كثيرة الزلازل وهواؤها رطب حار وزراعتها الأرز وقصب السكر والبن والقنب وفيها مواش كثيرة كالخيل والبقر والجاموس ومعادنها غير قليلة كالذهب والنحاس والقصدير وصادراتها تعدل بنحو ١٥٠ مليونا والداخل اليها بنحو ١٢٠ مليونا وفيها نحو ٢٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية ومساحتها ١٨٢ ر ٢٩٦ كيلو متر مربع . وعدد سكانها سبعة ملايين منهم الماليزيون الكاثوليكيون ويقال لهم التاغال والماليزيون المسلمون ويقال لهم المورو والبولينيزيون وهم وثنيون وفيها زنوج وفيها نصف مليون من الصينيين ومئتا الف اوربى . وأعظم حواضرها مانيل ثم ليبا ثم باتانغ ثم باتانغا الخ وقد سميت هذه الجزر بالفيلبين نسبة الى فيليب الثانى ملك اسبانية الذى فى أيامه جرى اكتشافها ودان اكثر أهلها بالنصرانية وذلك سنة ١٥٦٨ وبعد ان بقيت هذه الجزر مئات من السنين تحت حكم اسبانية ثارت عليها فعضدت الجمهورية الاميركية الكبرى حركتهم فتملصوا من حكم اسبانية ولكنهم وقعوا تحت سلطة الولايات المتحدة فعادوا يثورون على هذه وأحوالهم لاتزال غير مستقرة .

ويظهر أن الأميركيين أرادوا استمالة المسلمين من أهل الفيلبين ليتقووا بهم على الكاثوليك فجاء منهم وال سابق للفيلبين الى الاستانة منذ ٢٠ سنة والتمس من الحكومة العثمانية ارسال مرشدين يهذبون مسلمى الفيلبين وينورون أفكارهم نظرا لما هم عليه من

الجهل والغباوة ولما كانت الدولة العثمانية وقتئذ تعنى بأمور المسلمين بقدر امكانها أرسلت المشيخة الاسلامية أحد مأموريها وهو الفاضل المرحوم وجيه افندى زيد الكيلانى النابلسى وجعلته أشبه بشيخ اسلام فى الفيلبين فذهب الى هناك واستقبله المسلمون بفرح يفوق الوصف و بدأ بمهمته وعاونه الأميركيون عليها الا أنه مرض مرضاً قضى عليه بالعودة الى الاستانة فلما جاء قطعت المشيخة راتبه وأبت أن تعتنى بهذا الأمر بعد ذلك فاضطر الى السفر ثانية على نفقته الخاصة وكان يتأوه كثيراً على حالة الاسلام فى الفيلبين و يذكر ما هم عليه من التحمس فى محبة أبناء ملتهم لو أتيح لهم حظ من التعليم وأخيراً جاءنا نعيه بسبب العلة التى كانت تمكنت منه مع تغير الهواء عليه فذهب فى شرخ شبابه شهيد حميته وعلو همته وكان صديقاً حميما لى فسألته رحمه الله عن أحوال المسلمين فى تلك الجزائر النائية فأخبرنى بأن عددهم هو من مليون الى مليونين وأن السواد الأعظم منهم فى جهالة عمياء لا يعرفون من الاسلام سوى كونهم مسلمين ولا يكاد يعرف الصلاة منهم الا أفذاذ قلائل ممن حجوا بيت الله الحرام فعسى أن يقيض الله من المسلمين جمعية تحذو حذو الافرنج فى التهذيب والارشاد فترسل الى تلك الديار من يكمل مهمة وجيه أفندى الكيلانى التى لم تكد تبدأ حتى انتهت . لا نقطع الأمل بذلك ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون

* * *

والفيلبين هى ارخبيل أو مجموع جزائر فى الاوقيانس الكبير تتألف من نحو ألف ومائتى جزيرة صغرى وكبرى . وهذه الجزر هى القسم الشمالى من ماليزيا اكتشفها ماجلان الملاح البرتغالى ودعيت باسم فيليب الثانى ملك اسبانيا وهى ممتدة على ١٥٠٠ كيلو متر من الشمال الشرقى من بورنيو بين بحر الصين والمحيط الباسيفيكى وتبلغ مساحتها السطحية ٢٩٦,٠٠٠ كيلو متر مربع وأهم محاصيلها البن والأبازير « البهارات » وقصب السكر والأرز والتبغ والقنب ومن بحرها وأنهارها يستخرج عرق اللؤلؤ والدر بكثرة ومناخها شديد ولذلك كان أهلها وعددهم زهاءُ سبعة ملايين نسمة أشداءَ أقوياءَ . وقد اضمحل سكانها الأصليون الا قليلا بما داهمهم من بأس الفاتحين من الماليزيين وأكثر سكانها تمدناً اليوم هم التاغال وعددهم مليون ونصف والفيزايا وعددهم مليونان ونصف والفيكول وعددهم أربعمائة ألف والمورو أى المغاربة وهم المسلمون وعددهم كثير فى الجزائر الجنوبية وهم اخلاط من الماليزيين والصينيين والهنديين والعرب والجاحدين من

الأور بيين ويعد فى جملة المسلمين قوم من الجوراماتنادو يقدمون أرواحهم فدية لله ويتقربون اليه بقتل الكافرين وهم متعصبون على الجملة على ما وصفهم أكثر من كتبوا عنهم

ولقد استولت اسبانيا على هذه الجزر زمناً ولكنها لم تعمرها وغاية ما صرفت وكدها اليه تنصير السكان ليدينوا بالكثلكة فأصبح المتظاهرون بها والمنتحلون لها تسعين فى المئة من السكان ولما لقى التاغال والميتيون مالقوا من سيطرة رجال الدين وسوء الادارة قاموا يريدون تخفيف مانالهم وأن يعاملوا بالمساواة مع البيض فنشبت ثورة سنة ١٨٩٦ ولم تنطفئ شعلتها الا بوعد زعيم الثائرين أن تقوم اسبانيا بالاصلاح المنشود ولما لم تقم هذه الحكومة بوعدها عاد ذاك الزعيم يبدى نواجذ الشر فى السنة التالية بمعاونة الولايات المتحدة وبعد ان حاربت الحكومة الاميركية اسبانيا من أجل هذه الجزائر استولت على الفيلبين وكوبا وبورتوريكو ونكست اعلام اسبانيا وراح الأميركان يستعمرونها فيحسنون استعمارها

ولما مد السلام رواقه على هذا الارخبيل وانتهى دور الكتائب والحسام جاء الدور للكتب والأقلام وأخذت المجامع العلمية تبعث برسلها للبحث والتنقيب لتنظر فى تاريخ الفيلبين واجتماعها وعمرانها فانتشر منذ سنة نحو عشرين مصنفاً فى الكلام على هذه الجزائر ومن جملتها كتاب تاريخ المورو أى مسلمى الفيليبين لوطنينا الفاضل الدكتور نجيب صليبى

ولقد اطلعنا على مبحث فى مجلة العالم الاسلامى الفرنسوية اقتطفته من مصادر كثيرة ومنها كتاب جزائر الفيلبين الذى ظهر مؤخراً بالانكليزية من قلم جون فورمان فآثرنا تحصيله للقراء ليقفوا على أحوال أولئك القوم ويعرفوا مبلغ عناية الغربيين بكل فرع من فروع العلم والاجتماع قالت المجلة البارزية :

شغل المؤلف جزءاً عظيماً من كتابه بالكلام على المسلمين بعد أن اطال عشرتهم وخالط زعماء الثورة ورجال الحكومة منهم فجاء من ذلك ببيان رائده الانصاف وسداه ولحمته التحقيق وقد أبان فى كتابه علاقة مسلمى الفيلبين مع الاسبانيين سابقا ومع الأميركيين لاحقاً الى أواسط سنة ١٩٠٥

المسلمون اليوم هم عبارة عن ثمانية أو تسعة أعشار جزيرة ميندا ناو الكبرى وجميع

ارخبيل سولو مع جنوبى بالوان وكانوا منتشرين فى الشمال من تلك البلاد على عهد الفتح الأسبانى ولما نزلت الحملة الاسبانية الأولى فى جزيرة لوسون سنة ١٥٠٧ اختلطت لأول أمرها مع الراجا (حاكم توندو) وابن أختـه الراجا سليمان فى مانيلا حاضرة الفيلبين اليوم وكان قائد الجيش الاسبانى العـام اذ ذاك يرى سكان توندو ومانيلا مسلمين ويطلق عليهم فى مكاتباته الرسمية لفظ المورو (اى المغاربة) ولم يكن لأحد من الاسبانيين شك فى ذلك لأن المغاربة لم يُطردوا الطرد الأخير من اسبانيا الا سنة ١٤٩٢

ولقد اختلفت الاقوال فى دخول الاسلام الى تلك الجزر والمرجح أن الجزر الجنوبية مثل ميداناو وسولو انتشر فيها الاسلام لقربها من مسلمى شمالى بورنيو فاستولى المسلمون على سلطنة بورنيو عقيب أن خربوا مملكة الماجاباهيت من بلاد جاوى سـنة ١٤٧٣ ولم يتحارب الاسبانيون مع سلاطين المسلمين الا فى سنة ١٥٧٧ وقد تقدم السلطان عبد القهار عدة ملوك مسلمين ومنه بدأ تاريخ الفتن بين المسلمين والاسبانيين . وبالجـملة فان الاسلام انتشر فى ميداناو وبورنيو بمساعى دعاة من العرب على أنه لم ينتشر حقيقة فى جنوبى الفيلبين إبان الفتح الاسبانى ولم تنتحل سولو الاسلام الا بعد أن جاءها دايكس من بورنيو وتزوج أحد زعمائهم المدعو اندازولان ـ وكان استولى أولاً على جزيرة بازيلان ثم على سولو ـ من ابنة زعيم من أعيان المسلمين فى ميداناو وانتحل الاسلام وأسس سلطنة سولو ثم قويت شوكته باتحاده مع بورنيو وميداناو

وعادت الاحقاد القديمـة فتجددت بين الاسبانيين والمسلمين وحمل الاسبانيون على هؤلاء مدفوعين بعامل السخط الشديد وفى سـنة ١٥٧٦ ثار لا كاندولا والراجا سليمان فى جزيرة لوسون ولـكن قوة الاسبانيين اذ ذاك حالت دون انتشار الـكلمة الاسلاميـة وان بقيت اليوم بقية من ذرية لا كاندولا فى بعض القرى فقد انحط مقامهم وأصبحوا نكرة لا تعرف حتى ان أحدهم كان خادما فى مطعم فرنسوى فى مانيلا سنة ١٨٨٥

وقد بعثت اسبانيا سنة ١٥٩٦ حملة على ميداناو فقتل قائدها عند نزوله الى البر وأغار والى سولو بنفسه سـنة ١٦٣٨ فاحتل بعض المراكز فى شاطئ ميداناو حيث لقب الراجا سيبوجى سنة ١٦٤٠ بلقب السلطنة . ولم تـكن هذه السلطنة وذاك الاحتلال الا اسماً لا حقيقة لهما اذ بقيت الفتن قائمـة قاعدة بين المسلمين الأصليين والمسيحيين الفاتحين ولا سيما فى القرصنة . فدامت الغزوات البحرية بين الفريقين بلا انقطاع مدة ثلاثة قرون

فريق يعتقد أنه يجاهد جهاداً مقدساً وهم المسلمون وفريق يدعى أنه يحارب باسم الصليب وهم المستعمرون الاسبانيون

وفى أواسط القرن الثامن عشر حدثت بين المسلمين والاسبانيين فترة غريبة ذلك بأن المفاوضات بينهم انتهت بأن يكاتب ملك اسبانيا سلطان سولو الذى قاوم أحد اخوته مكانه فجاء مانيلا يطلب مساعدة حاكمها . ورأى السلطان محمد عليم الدين أن يتنصر فتعمد ولحقت به اسرته وبدأت تتعلم فى مانيلا التعليم الاسبانى المسيحى و بعد سنتين رُخِّص له بأن يذهب من مانيلا الى سولو وزامبوانكا فى موكب له فاضطر أولاً أن يكتب الى السلطان محمد أمير الدين فى ميندانا و ينصح له بلسان شديد اللهجة أن ينضم الى الاسبانيين . و بعد سفره بقليل تبين للحاكم الاسبانى أن العبارة العربية كانت مخالفة للعبارة الاسبانية التى كتبها بنفسه و وقع عليها ولذلك أمر بسجنه فى زامبوانكا ثم أعيد الى مانيلا ولم يسع الوالى الاسبانى الا أن يعود الى تنصير ذاك الحاكم المسلم ولو صورة

ولما احتل الانكليز مانيلا سنة ١٧٦٣ وجدوا السلطان مسجوناً فأطلقوا سراحه فراح الى سولو وأقام على استئصال شأفة الاسبانيين فى ميندانا وأصاب الانكليز أيضاً شىء من شره وان أحسنوا معاملته . وقد بعث الانكليز الى سولو بمئة وخمسين رجلاً لتوطيد قدمهم فيها فدعاهم أحد زعماء المسلمين الى مأدبة وذبح منهم ١٤٤

و بعد أن انجلت انكلترا عن قاعدة تلك البلاد عدل الاسبانيون من معاملتهم للمسلمين فاعترفوا سنة ١٨٣٦ باستقلال سلطانهم هناك حتى اذا كان عام ١٨٨٤ سيروا عليه حملة واستولوا على حاضرة بلاده فراح السلطان وخاصة رجاله يحتفظون بألقابهم فأدرت حكومة اسبانيا عليهم رواتب ومشاهرات الا أن المسلمين لم يبرحوا يلجأون الى الغارة والنهب فى السواحل حتى قيل ان غارات المسلمين قويت شوكتها سنة ١٨٧٦ فلم يعد حكم اسبانيا فى سولو الا اسمياً

وهكذا جرت حوادث بين الحكام الاسبانيين والسلاطين المسلمين يخضع هؤلاء تارة و ينتقضون أخرى مثل سلاطين باكات و بوهاين وكودارنكان المتحالفين مع داتواوتو ولما ضاقت اسبانيا ذرعاً ببعض القبائل المسلمة وانتقاضها الحين بعد الآخر عزمت غداة ثورة سنة ١٨٩٦ أن تطرد المسلمين من عقر دارهم وتسكن فيها جماعة من المسيحيين الوطنيين ثم خضع بعض اولئك الأمراء للاسبانيين خضوع حب لان منهم من كان يقدر

المدنية الغربية قدرها ولذلك ظلوا على موالاة الأميركانيين أيضاً بعد ان استولوا على هـذه الجزائر .

ويؤخـذ مما كتبه فورمان أن الاحقاد القديمة بين الاسبانيين والمسلمين دامت على أشدها مدة ثلاثة قرون وظل المسلمون هناك يذكرون ماوقع لاخوانهم مسلمى اسبانيا . ومما كانت تجرى الشروط عليـه بين والى مانيلا الاسبانى وحاكم سولو المسلم أن لا تمس شعائر المسلمين . وعلى ما حاولته اسبانيا من تنصير المسلمين فقد خرجت من الجزائر كيوم دخلتها ولم تفلح فيما قصدت اليه . ولا شك أن جمهورية الفيلبين تحسن معاملة المسلمين كالاسبانيين وكذلك المسلمون لم يكونوا أقل عداء لسكان البلاد المسيحيين من معاداتهم للبيض .

ولما استولى الاميركيون على الجزائر لم يمسوا المعتقدات الاسلامية ولا عملوا على نقض شرع أهل الاسلام وان كانوا ينـكرون عليهم ترتيباتهم فى حكومتهم وهى حكومة أعيان « ارستوقراطية » وقـد انتقد أحدهم على حكومة الولايات المتحدة أن وطدت نفسها على انتظار ادخال تعديل فى حال المسلمين هناك وتعليلها الأمل بأن نشر التعليم العام بينهم سيؤدى بعدُ الى نتيجة حسنة . على ان الاميركان كانوا يوجسون خيفة من نظام الاقطاعات الشائع بين المسلمين هناك . وقد نادت حكومة أميركا بأن يظل أهل ولاية المسلمين يحكمون انفسهم بانفسهم ولم تتداخل الا بعض الشيء فى حكومتهم وادارة بلادهم وتمتاز حكومة أميركا عن اسبانيا بان طريقتها فى حكم تلك الجزيرة والمسلمين من أهلها خاصة هو بتدريب الاهلين على المبادىء الديمقراطية اما اسبانيا فقـد أرادت أن تحمل على الاسلام نفسه لتتخلص من المسلمين . ولو اقترب بعض الزعماء المسلمين من الاميركان سياسياً مع احتفاظهم بأخلاقهم من الوجهة الاجتماعية لما طال على البلاد عهد السلام

وقد عنيت الحـكومة الاميركية بتنظيم شؤون المسلمين وتأسيس بلديات لهم فى الجزر تقيم مع المجالس الوطنية وتعمل بالعادات الوطنية ما امكن وهى العادات التى لاتنافى عادات الشعوب المتمدنة ولا اخلاقها وقد بلغ عدد جيش الاحتلال الاميركى النازل فى جزيرة سولو وحدها ٤٨٣٩ رجلاً و٢٩٤ ضابطاً على ان المحار بين من أهلها لا يتجاوزون العشرين الف رجل . وفى تلك الولاية ٤١ مـدرسة فيها ٢١١٤ تلميـذاً و ١٥ معلماً اميركيا و٥٠ معلماً مسيحياً وطنياً و٩ معلمين مسلمين والمدارس غاصة بالتلاميذ والمتعلمين حتى ان ٢٤٠ طفلاً من المسلمين حرموا من الدرس الآن فباتوا ينتظرون لان المدارس ملئت بالتلاميذ والطلاب من المسلمين

الجزائر الهندية الشرقية الهولندية

محاضرة السيد اسماعيل العطاس

قد أهدانا نسخة من هـذه المحاضرة الادبية حضرة الفاضل السيد اسماعيل العطاس من السادة الحضارم المقيمين بجاوى وكان القاها فى نادي الشبان المسلمين بالقاهرة فى ٦ ينايرسنة ١٩٢٩ فاحببنا ضمها الى هذا الكتاب لأنها من افضل الخلاصات عن بلاد الجاوى وهذا نصها : —

قبل العهد التاريخى

ان اكتشاف بعض الأدوات الحديدية فى الزمن الأخير فى جاوى وبحث علماء الآثار فيها دلا على أن هذه الفؤوس ورؤوس الرماح هى من أدوات العهد الحديدى السابق للتاريخ

خلاف ذلك اكتشف بعض أجزاء من هيكل المخلوق المسمى Pithecanthrofus Erectus وهو من نوع الانسان القردى Human Monkey أو الانسان الفوسيلى Fossil-man الذى يظن بعض العلماء انه من الحلقة المفقودة The missing link

هذه البقايا من العظام هى من العهد الفليوسينى phiocine period وانه من المحتمل أن هؤلاء الاناس الفوسيليين هم أصل السكان القدماء فى تلك البلاد

ويظن بعض العلماء الدارسين فى تاريخ جاوى أن من هؤلاء القوم توالد الشعب الذى سكن جزيرة جاوى قديما والمعروف باسم كالافرنج Kalang والمسمى عند غزاة الهند بالرشاكا Rashaka وكانوا يتعيشون من صيد السمك والحيوانات ولا يعرفون الزراعة ولا تربية المواشى وينتقلون من مكان الى مكان ويعيشون فى جماعات قليلة بين العشرة والأربعين وكانوا على أكثر الاحتمال من عباد الشمس مثل الشعوب الأقدمين فى بابلونيا

العهد الهندو

لم يذكر فى كتب الهندو المعروفة بالفيدا Veda's شئ عن أول قدوم الهندو الى جاوى أما الكتب الجاوية المسماة بالباباد Babad's فقد ذكرت أن — الهندو «أجى كاكا» aji Caka

زار جاوى فى حاشية عظيمة ويقال انه كان أميراً هندياً أو وزيرا أول لأمير هندو وزيارته هذه تعد أول مبدإ عهد الهندو وأول سنتهم يوافق سنة ٧٥ أو سنة ٧٨ ميلادية وهو أول من أسس أول دولة هندية فى جاوى واليه ينسب ادخال أول حكومة منظمة وانشاء أول دولة هندوية فى جاوى الوسطى المسماة ماتارام Mataram ولا يعرف من تاريخ العهد الهندو الا القليل ولكن آثارهم ومعابدهم القديمة تدل على أنه وجدت دول هندوية قوية فى جاوى أشهرها ثلاث

١ — دولة Mataram (ماتارام) المذكورة فى جاوى الوسطى

٢ — « Padjadjaran (باجاجاران) فى غرب جاوى

٣ — « Madjapahit (ما جاباهيت) فى شرق جاوى

وكانوا يستعملون اللغة السنسكريتية كاللغة الرسمية والى الآن نجد هنالك كثيراً من كلمات الملايو المستعملة من أصل سنسكريتى

وقد بلغت دولة المتارام Mataram الذروة القصوى فى القرن التاسع الميلادى ومنها تخرج العمال الماهرون والبناؤون الذين بهروا العالم ببناء المعابد الفخمة مثل بورو بودور Boro-Budur ومندوت Mendoet وشندى سيو Tjandi Sewoe والتى تعد الى الآن من عجائب الدنيا وفيها برع العمال فى الصناعة القصديرية وفى طريقة رى الحقول الأرزية التى لم تزل مستعملة الى الآن

وفى عهد دولة باجاجاران Padjadjaran أسلم أول أمير هندو واسمه حاجى بورا Hadji Paera وذلك فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى

وفى عهد مملكة ما جافاهيت Madjapahit نشر مولانا ابراهيم الديانة الاسلامية فى قرية ليران Leran القريبة من بلدة جريس Gresik وبعده أتى مبشرون اسلاميون آخرون فأسلم على أيديهم بعض الامراء من دولة ماجاباهيت Madajapahit وفى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى وجد ثمانية أمراء مسلمون من الأهالى بألقاب ال « سوسوهونان » Susuhunan (سلطان) . وقد دارت رحى الحرب بين دولة ماجافاهيت Madjapahit وبين الثمانية الأمراء المسلمين تحت رئاسة رادين فلتاه (الذى كان أميراً من دولة ماجافاهيت Madjapahit واعتنق الاسلام) وبعد حرب دارت أربع سنوات انكسرت جيوش المسلمين ولكنهم لموا شعثهم مرة أخرى وأخذوا ثأرهم فى موقعة

دارت خمسة أيام فيهـا انكسرت جيوش دولة ماجافاهيت Madjapahti شر كسرة ولم تقم لهم بعدها قائمـة فـكانت الضربة القاضية وذلك فى سـنة ١٤٧٥ ميلادية و بسقوط دولة المـاجافاهيت الهندوية (البوذية) تدهورت الديانة البوذية رويداً رويداً وهكذا انتشر الاسلام بدخول الأهالى والأمراء فيه جماعات ووحدناً

العهد الاسـلامى

ان تاريخ الجزائر الهنـدية الشرقية فى مدة الستمائة سـنة الأخيرة هو من أحسن الفصول فى تاريخ انتشار الاسلام بالدعوة والارشاد

اجتهد أنفار قليلون فى نشر الاسـلام والتوحيد والدعوة الى سبيل الله بالحـكمة والموعظة الحسنة دون مساعدة فى ابتداء الأمر من أمراء البلاد وفى بعض الأحيان امام عداوة مسلحة وهم لا سـلاح لهم الا القلوب المطمئنة بالايمـان والاخلاص والمجادلة بالتى هى أحسن

أما تاريخ دخول الاسلام فى الجزائر الهندية الشرقية فغير معروف بالتمام ومن المحتمل أن الاسلام دخل بدخول تجار العرب الى هذه البلاد فى أوائل القرون الهجرية . وهذه النظرية تتقوى بما هومعروف من أن العرب كانوا حاملين لواء التجارة بالشرق فى الزمن القـديم . فنى ابتداء القرن السابع الميلادى زادت التجارة مع الصين على طريق سيلان Ceylon حتى انه وجد تجار عديدون من العرب فى Canton كنتون بالصين فى منتصف القرن الثامن الميلادى . وفيما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر الى حضور البرتغال Portugese لم يكن للعرب منازع فى الرآسة ـ التجارية الشرقية . لذلك يتقوى الاحتمال أن العرب قد ذهبوا بتجارتهم الى بعض الجزائر الهندية الشرقية فى ابتداء القرون الاولى من الهجرة كما فعلوا فى أماكن أقرب وأخرى أبعـد منها بينما بعض هذه الجزائر مثـل سومطرا Sumatra واقعة بينهما .

انه وانلم يذكر جغرافيو العرب هذه الجزائر فى كتبهم ـ قبل القرنالتاسع الميلادى الا انه فى كتب التقويم الصينية مذكور أن فى سنة ٦٧٤ ميلادية كانت جالية عربية فى الشاطئ الغربى ـ من سومطرا

ويستنتج بعض العلماء من اتخاذ الاهالى الشافعية مذهبا لهم ومن انتشار المذهب الشافعي فى شواطىء الكوروماندل Coromandel وشواطىء الملبار Malabar الآن كما كان سابقاً فى منتصف القرن الرابع عشر – حين زيارة ابن بطوطة لهذه الجهات أن الاسلام دخل الى هذه الجزائر الهندية الشرقية من جنوب الهند ومن شواطىء الملابار

وذلك لأن مذهب البلاد الاخرى المجاورة حنفى ولان موانى الملابار يؤمها التجار قديما من جاوى ومن الصين ومن اليمن ومن بلاد فارس

ومن بلاد الهند أو من فارس دخلت الشيعة الموجود بعض بقاياها الآن فى جاوى وسومترا

ومن ابن بطوطة نعلم أن سلطان سومطرا Sumatra المسلم قد حسن العلاقات مع ملك دهلى Delhi وان من العلماء الدينيين المقربين الى السلطان السومطرى اثنين من بلاد فارس أحدهما من شيراز والآخر من أصفهان

وقبل ذلك بمدة كان قد كثر تجار الدَّكَن Daccan الذين احتكروا التجارة بين الممالك الاسلامية الهندية و بين الجزائر الهندية الشرقية — فى موانى هذه الجزائر وفيها زرعوا حبوب هذه الديانة الاسلامية السمحاء

فالى هؤلاء التجار المبشرين النازحين من بلاد العرب والهند يرجع الفضل فى تأسيس أول الجاليات الاسلامية من الأهالى وفى تحويلهم من عبادة الأصنام الى عبادة الله الواحد الرحمن فهم لم يدخلوا محاربين ولم يعلقوا السيوف فوق الرقاب لا كراه الناس فى الدين بل استخدموا اللطف والفكر والمعرفة فى سبيل نشر الدين الاسلامى أكثر من استخدامهم اياها لطلب السعة فى الرزق والغنى فى المال

اذا كان دخول العرب الى هذه الجزائر غير معروف بالتمام فانه معروف أنهم دخلوها قبل البرتغاليين فقد قال ماركو فولو Marco Polo الذى صرف خمسة أشهر فى الشاطىء الشمالى من سومطرا سنة ١٢٩٢ م ان كل السكان كانوا مجوساً وعباد أصنام عدا سكان البلدان فى مملكة بارلك Parlak الصغيرة الموجودة فى الشمال الشرقى من سومطرا لأنهم اعتنقوا الاسلام بواسطة تجار العرب

ولما دخل ابن بطوطة سومطرا سنة ١٣٤٥ وجد هنالك ملكا مسلما اسمه الملك الزاهر وتمتد سلطنته على الشاطئ مسافة ايام سفراً وقد كان محبا للمباحثة مع علماء الدين وكان فى حاشيته شعراء وعلماء

وقد تحصل العرب عموماً على احترام عظيم من الاهالى ونفوذ كبير فيهم سيما السادة والأشراف سلالة الحسن والحسين سبطى المصطفى ﷺ فقد تباهى أمراء الأهالى وملوكهم المسلمون بالتقرب اليهم بمصاهرتهم و بتزويج بناتهم منهم و يتفاخرون اذا ولدن منهم سادة وأشرافاً . وقد صار البعض منهم سلاطين ولم يزل منهم أحياء يرزقون مثل سلطان وأمراء فونتياناك Pontianak من جزيرة بورنيو Borneo

منذ القرن السابع عشر كان أكثر مهاجرى العرب الى هذه الجزائر حضارم وكانوا يتعيشون من التجارة و بعده أضافوا حرفة أخرى هى الملاحة فكانت مراكبهم الشراعية تمخر البحار كالاعلام وكان قبطانهم ونائب القبطان والادارى من العرب أما التجار فكانوا من الاهالى ومما لانزاع فيه ان هذه المراكب كانت سببا فى ازدياد عدد المهاجرين الحضرميين الى هذه البلاد وفى زيادة ثروتهم . وقد بلغوا ذروة المجد فى الملاحه بين سنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٥٥ حين احتكرت مراكب الحضارم ملاحة الموانى ومنذ ذلك الحين ابتدأت مراكبهم الشراعية فى الانحطاط بسبب منافسة المراكب البخارية الاوروبية والآن لم يبق عندهم من المراكب شئ

عدد العرب

كان عدد العرب قبل ادخال الاحصاء غير معروف أما بعد الاحصاء فكان عددهم كما يأتى : —

سنة	فى جاوى (ومدورا)	فى خلافها	المجموع
١٨٥٩	٤٩٩٢	—	—
١٨٧٠	٧٤٩٥	—	—
١٨٨٥	١٠٨٨٨	—	—
١٩٠٥	١٩١٤٨	١٠٤٤٥	٢٩٥٠٠
١٩٢٠	٢٧٨٠٦	١٧١١٥	٤٤٩٢١

عدد المسلمين الآن

فى الجزائر الهندية الشرقية الهولندية فقط خمسون مليون مسلم وكثيرون من الاهالى الذين يعرفون الكتابة يتكاتبون بلغة الملايو بحروف عربية وفى لغة الملايو نفسها ما يزيد على ٢٥٪ من كلماتها مأخوذة من العربية

دخول الاوروبيين

للحصول على البهارات والذهب والاحجار الكريمة وخلافها رأسا من منابعها الشرقية بحث البرتغاليون فى أواخر القرن الخامس عشر عن الاراضى والبلاد التى تخرج منها هذه الأشياء الثمينة وفى سنة ١٤٩٦ سافر فسكوداجاما Vascoda Gama ووصل الى مكان كلكتا Calcutta الحالية على طريق رأس الرجاء الصالح . ونجاحهم هذا وما يليه شجعهم على زيادة البحث والاسفار ففى سنة ١٥١١ وصل البرتغالى انتونيو دى ابرو Antonio de Abreu الى جاوى وامبون و بندا Java, Amboun & Banda وفى سنة ١٥٢٢ ارسِلَ البرتغالى de Lerne الى Bantan (من جزيرة جاوى) التى كانت لم تزل حينذاك هندوية بوذية . وحيث ان حاكم Bantan البوذى كان محاربا لأمير شربون المسلم Cheribon استجار الامير البوذى لمّا أحس بضعفه بالبرتغاليين ووعدهم بمكان لبناء معمل Factory وبحُرِّيَّةِ التجارة و بهدية سنوية قدرها الف كيس من الفلفل مقابل قلعة يبنيها البرتغاليون للدفاع عن الميناء ومساعدتهم اياه فى حربه ضد أمير شربون المسلم . و بالرغم من اتفاقهم على ذلك فقد سافر البرتغاليون واعدين بالرجوع بقوة أكثر . ولكنهم لما رجعوا وجدوا أن سلطان شربون Cheribon قد انتصر واستولى على Bantan بانتان

وهذه البعثة كانت سببا فى تاسيس التجارة بين البرتغال والجزائر الهندية الشرقية التى احتكروها لأنفسهم فيما بعد وقد بلغت تجارتهم اقصاها بين سنة ١٥٩٠ وسنة ١٦١٠ و بلغ عدد مراكبهم ١٥٠ الى ٢٥٠ فى الارسالية الواحدة . وفى أواخر القرن السادس عشر كانت Lissabon لشبونة أغنى ميناء فى اوروبا . و بينما كانت لشبونه مركز التجارة كانت الموانى الهولندية اماكن التوزيع لشمال اوروبا وفى سنة ١٥٧٧ مر «دريك» Drake الانجليزى فى طوافه حول الأرض بجزائر الملوك Bantan & Moluccas

وفى سنة ١٥٩٤ منع البرتغاليون دخول المراكب الهولندية ميناء لشبونه فسد باب التجارة امام الهولنديين الذين كانوا وسطاء بين البرتغال وشمال أوروبا . لذلك اجتهد الهولنديون فى الحصول على المعلومات اللازمة لمعرفة الطريق التجارى الذى يوصل الى الجزائر الهندية الشرقية . وقد تمكنوا من ذلك بواسطة Cornelis Houtman هوتمان الهولندى الذى سكن البرتغال وعرف السر . وقد أسس تجار امستردام شركة للتجارة مع الهند الشرقية وسافرت اربعة مراكب هولنديا ، وموريتس Maurits , Holandia محمول الواحد ٤٠٠ طن وامستردام Amsterdam ٢٠٠ طن و Duyfje ٥٠ طنا تحت قيادة هوتمان المذكور فى ٣ ابريل سنة ١٥٩٥ ووصلوا بانتم Bantam بجاوى فى ٢٣ يونيو سنة ١٥٩٦ ثم أرسل الهولنديون سنة ١٥٩٨ ارسالية أخرى تحت قيادة فان نك Jan Cornelis van Neck واخرى بعدها. ولما رأى البرتغاليون نجاح الهولنديين أرسلوا ٣٠ مركباً حربياً لمحاربة المراكب الهولندية الذاهبة الى الشرق الأقصى ولكن الهولنديين كسروا البرتغاليين وبذلك ماتت تجارتهم وأخيرا أخرجهم الهولنديون من الجزائر الهندية الشرقية

وفى سنة ١٦١٧ عين جان بيترس كون Jan Pietersz Coen حاكما عاما هولنديا وفى ١٢ مارس سنة ١٦١٩ سميت القلعة بتافيا وفى ٣٠ مارس سنة ١٦١٩ تكونت البلدة بتافيا التى لم تزل الى الآن عاصمة للجزائر الهندية الهولندية

الجزائر الهندية الشرقية الهولندية فى الوقت الحاضر

الموقع الجغرافى والسكان

تمتد الجزائر الهندية الشرقية الهولندية من آسيا الى استراليا بين درجة ٩٥ ودرجة ١٤١ من خط الطول شرقاً و بين الدرجة ٦ شمالا من خط الاستواء و ١١ جنوباً منه

وأطول خط من الغرب الى الشرق خمسة آلاف كيلو متر حيث تمخر فيها السفينة البخارية فى ١٤ يوماً فى وقتنا هذا ومسافة الخمسة آلاف كيلو متر هذه تعادل تقريباً المسافة بين الشاطئ الغربى لأرلندا فى الاطلانطيق و بين الشاطئ الشرقى للبحر الاسود فى آسيا وأبعد مسافة من الشمال الى الجنوب ٢٠٠٠ كيلو متر وتعادل المسافة بين البحر الأبيض الشمالى وروما

ليمكننا أن نتصور مساحة بعض هذه الجزائر يجب أن نعرف الحقائق من المقارنة الآتية:
جاوى و (مدورا) مساحتها ١٣١٥٠٨ كيلو مترات أو ٥٠٧٦٢ ميلا مربعاً وتعادل مساحة انجلترا بدون اسكتلندا وو يلز وارلندا

سومطرا ٤٢٠٠٠٠ كيلو متر او ١٦٢٠٠٠ ميل مربع أى أكبر من مساحة بريطانيا العظمى .

بورنيو الهولندية فقط ٥٥٣٠٠٠ كيلو متر أو ٢١٣٠٠٠ ميل مربع تعادل فرنسا

سيليبس ١٨٥٠٠٠ كيلو متر أو ٧١٠٠٠ ميل مربع أكبر من ولاية واشنطون وتعادل مساحة نيوزيلند وسيلان معاً

نيوجينيا الهولندية فقط ٣٩٧٠٠٠ كيلو متر أو ١٥٣٠٠٠ ميل مربع مثل اليابان (دون ملحقاتها)

ومجموع مساحة الجزائر المذكورة وغيرها من الجزائر الهندية الشرقية الهولندية مليون وتسعمائة ألف كيلو متر مربع أو ٧٣٣٠٠٠ ميل مربع ويعادل مجموع مساحة الدول الآتية — بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا و بلجيكا وهولندا وسويسرا والدنمارك والسويد أو نصف مساحة أوروبا تقريباً بدون روسيا

ومجموع طول شواطىء هذه الجزائر يعادل طول دائرة الأرض circumference of earth

عدد السكان حسب احصاء سنة ١٩٢٠

جاوى (ومدورا)	٣٦،٤٠٠،٠٠٠
سومطرا	٦،٢١٨،٠٠٠
بورنيو الهولندية	١،٧٥٧،٠٠٠
سيليبس	٣،٣١٤،٠٠٠
الباقى	٣،٣١٩،٠٠٠
فالمجموع هو	٥١و٠٠٠و٠٠٠

الطقس

تبلغ درجة الحرارة على الشواطىء فى النهار عادة ٥ ر ٢٦ سنتجراد (يساوى ٨٠

فهرنهيت) وبالليل ٢١ س (٧٠ ف) ويختلف الجو اختلافا عظيما بسبب الجبال الكثيرة العالية المكسوة بالخضر و بسبب الاودية فكلما زاد العلو قلت الحرارة وزادت البرودة عادة بنسبة نصف درجة س فى كل ٣٠٠ قدم أو درجة واحدة ف كل ٣٣٠ قدما . فبينما نشعر بالحر على الشواطئ نحس باعتدال الربيع فى الاماكن المتوسطة العلو وبالشتاء فى الاماكن الجبلية العالية وتارة لا فارق بين الصيف والربيع والشتاء الا ساعات قليلة

الحكومة

ان الجزائر الهندية الشرقية الهولندية تكوّن جزءاً من المملكة الهولندية سياسيا والقوانين الهولندية هى أعلى القوانين ولكنها عادة لا تتدخل الا فى القوانين التى تؤثر فى الأحوال الاقتصادية وخلاف ذلك فان الجزائر الهندية الشرقية مستقلة استقلالا اداريا فى التشريع والنفوذ الأعلى للملكة التى تحكم بموجب قوانين الحكومة . وناظر المستعمرات ينوب عن الملكة فهو الذى يشرف على الحكومة الهندية الشرقية الهولندية ويحكم الحاكم العام كذلك باسم الملكة ويساعده فى التشريع والادارة مجلس الهند Road van India Council of Netherlands India ويمكن كذلك أن يستشير رؤساء الادارات وهى ادارة العدلية والمالية والداخلية والمعارف والزراعة والصناعة والتجارة والأشغال العمومية والأشغال الحكومية Gouvernement bedryven Industries والحربية والبحرية ثم السكرتارية العمومية

ومنذ سنة ١٩١٨ أنشئ مجلس الأمة Volksraad ونصف أعضائه منتخبون والنصف يعينه الحاكم العام وهذا المجلس استشارى ويمكن للحاكم العام أن يستشيره فى كل الامور ولكنه مضطر الى استشارته فى الميزانية Budget وسلف المستعمرة

الزراعة

لا توجد أرض فى البلاد الحارة تزرع فيها مختلف المزروعات مثل الجزائر الهندية الشرقية الهولندية ولاسيما جاوى والزراعة هى أهم أسباب التقدم الاقتصادى فيها

وأكثر الاراضى فى جاوى مرتفعة الى علو ١٥٠٠ متر أو ما يزيد على ٤٥٠٠ قدم مزروعة ففى هذه الاماكن العالية يزرع الدخان والشاى والقهوة . وفى الأماكن

المتوسطة والتلولية يزرع الأرز والذرة والفول والتمباك والدخان والبطاطس والكاوتشوك بينما فى الاراضى الواطية يزرع قصب السكر والجوز الهندى والكافور Kapok ويمكن تقسيم الزراعة الى قسمين :ـــ

(١) الزراعة التى فى أيدى الاوروبيين

(٢) الزراعة التى فى أيدى الاهالى

والاولى للصادرات والثانية أكثرها للاستعمال فى البلاد وكذلك للصادرات وأهم زراعة الاهالى الارز ثم ال Cassava البطاطس والجدول الآتى يبين مساحة الارض المزروعة بالهيكتار والهيكتار يساوى ٤٧١و٢ فدان انجليزى وحاصلها بالطن ton الميتريكى

الارز المائى	٢،٩٩١،٠٠٠	هيكتار حاصلها	٦،٠٥٧،٠٠٠	طن ton
الارز غير المائى	٣٨٥،٠٠٠	«	٤٣٥،٦٠٠	«
الذرة	١،٥٩٨،٠٠٠	«	١،٥٦٤،٢٠٠	«
البطاطس	١٤٨،٠٠٠	«	١٧٠،٥٠٠	«

اما أراضى الزراعة التابعة للاوروبيين فتبلغ مساحتها ٢ر٦١٠ر٩٧٥ هكتار منها ٩٠٧ر٦٥٦ هكتارا مزروعة ومن الأخيرة هذه ٢٢٦ر ٥٧٥ هكتاراً فى جاوى أى ٦٣ ٪ ومن الجدول الآتى نعرف اهميتها

قصب السكر يزرع شرقى جاوى وبموجب احصاء ١٩٢٥ كانت فى تلك السنه ١٧٩ فابريقه اخرجت ٢،٣٠٠،٠٠٠ متر ك تن Metric ton سكر من ٢٦٧ ر ١٧٦ هكتار أرض مزروعة بالقصب وكان متوسط محصول الهكتار الواحد ١٢٧٨٠ كيلوجرام المطاط أو الكاوتشوك أو Rubber فى اوائل سنة ١٩٢٦ بلغ عدد العزب Estates ٨٧٥ منها ٤٨٤ فى جاوى ومجموع المساحة المزروعة ٥٠٤٨٠٧ هكتاراً منها ٤١٤٩٤٨ هكتاراً مزروعة بال Hevea ومن المساحة الأخيرة ١٨٠٤٧٨ هكتاراً فى جاوى

القهوة

بلغ مجموع العزب estates فى سنة ١٩٢٦ — ٣٦٠ منها ٢٧٠ فى جاوى ومجموع المساحة ١١٦٥٣٠ هكتاراً منها ٩٥٢٨٦٠ هكتاراً ذات محصول من ذلك ٩٥٣٥٧ هكتاراً فى جاوى منها ٨٠٧٤٦ هكتاراً ذات محصول والمحصول فى سنة ١٩٢٥ - ٦١١٥٣ طنا منها ٥٧٦٩٣ أو ٩٤٪ من النوع المسمى روبستا Robusta Coffee

الشاى

أكثر الشاى مزروع فى غرب جاوى من ٢٨٥ estates ٢٦٠ فى جاوى و ٢٥ فى سومطرا ومجموع المساحة المزروعة فى سنة ١٩٢٦ هى ٩٧و٦٣١ هكتاراً

التمباك

المساحه المزروعة فى سنة ١٩٢٦ — ٤٥و١١٥ هكتاراً منها ١٨و٦٨٨ فى سومطرا والباقى فى جاوى cinchona ٩٠ ٪ من محصول الدنيا تخرج من جاوى ومجموع مساحة الأرض المزروعه ١٩و١٥٧ هكتار

بعض صادرات المحصولات الزراعية سنة ٩٢٥ وأثمانها

الكاوتشوك	١٩٠و٠٠٠	طن ثمنه		٥٦٦	مليون روبية
السكر	٢و٠٠٠و٠٠٠	«	«	٣٦٧	«
تمباك	٩٢و٠٠٠	«	«	١١٠	«
الزجيل الناشف	٣٥٠و٠٠٠	«	«	١٠٢	«
القهوة	٦٩و٧٣٥	«	«	٦٨	«
الشاى	٥٠و٠٠٠	«	«	٧٤	«
الفلفل	٢٦و٥٠٠	«	«	١٩	«

أما مجموع أثمان الصادرات كلها فهو :

١و٧٨٤و٧٩٨و٠٠٠ روبية أى ما يزيد على ١٤٨و٠٠٠و٠٠٠ جنيه انكليزى

المواصلات

نصف السفن التجارية التى تأتى وتخرج من هذه الجزائر هولندية وتليها السفن البريطانية واليابانية ثم الأمريكانية أما السكك الحديدية فتوجد فى جاوى ٥٣٩٤ كيلو مترا وفى سومطرا ١٦٧٣ وأكثر هذه السكك الحديدية تابعة للحكومة ومجموع ايراد السكك الحديدية فى سنة ١٩٢٥ — ١١٩و٩٢٢و٠٠٠ روبية منها ٦٤و٥٢٥و٠٠٠ روبية للحكومة

نسبة بعض الحاصلات الى حاصلات العالم

تنباك	٩٠ ٪	من حاصل الدنيا	القصدير	٢٢ ٪	من حاصل الدنيا
كافور	٨٤ ٪	«	الشاى	١١ ٪	«
الفلفل	٨٠ ٪	«	السكر	٩ ٪	«
الكاوتشوك	٤٦ ٪	«	البن	٧ ٪	«

واذا نسبنا مجموع الصادرات الذى هو ١٫٧٨٤٫٧٩٨٫٠٠٠ الى مائة فتكون نسبة أثمان الصادرات هكذا :

الكاوتشوك ٣٢٫٨٦ ٪ والسكر ٢٠٫٧٠ ٪ وزيت البترول ٩٫٦٩ ٪ والتمباك ١٩٫٦ ٪ والزجيل الناشف ٥٫٧٤ ٪ والقصدير ٤٫٣٦ ٪ والشاى ٤٫١٧ ٪ والقهوة ٣٫٨٢ ٪ والفلفل ١٫٣٥ ٪ والكافور ١٫٢١ ٪

فيكون المجموع هو ٨٧ر ٪ وباقى الصادرات ٩٫٠٤ ٪ فالمجموع ١٠٠ ٪ يساوى ١٫٧٨٤٫٧٩٨٫٠٠٠ روبية

ونسبة توزيع الصادرات هكذا :

سنغافور ٢٦٫٦٨ ٪	هولندا ١٥٫٤٦ ٪
الولايات المتحدة ١٤٫٠٩ ٪	الهند الانجليزية ٨٫٠٤ ٪
بريطانيا العظمى ٦٫٨٤ ٪	هونج كونج والصين ٥٫٦٦ ٪
اليابان كوريا وmورموزا ٥٫٥٠ ٪	فرنسا ٣٫١٢ ٪
ألمانيا ٢٫١٢ ٪	استراليا ١٫٩٤ ٪
باقى الدنيا ١٠٫٥٤ ٪	

	الصادرات	الواردات	زيادة الصادرات
فى سنة ١٩٢٢	١٢٠٠	٨٠٠	٤٠٠ مليون روبية
فى سنة ١٩٢٣	١٤٠٠	٧٠٠	٧٠٠ « «
فى سنة ١٩٢٤	١٥٠٠	٧٥٠	٧٥٠ « «
فى سنة ١٩٢٥	١٧٨٤	٨٨٠	٩٠٠ « «

مكتبة ومطبعة
عيسى البابي الحلبي وشركاه
بجوار سيدنا الحسين بمصر
صندوق بوسطة الغورية نمرة ٢٦ مصر
لها فهرست يرسل هدية لمن يطلبه
مستعده لطبع الكتب النفيسة بالكيفية
التي ترضى مؤلفيها